مدارات الشرق

بنات نعش

2

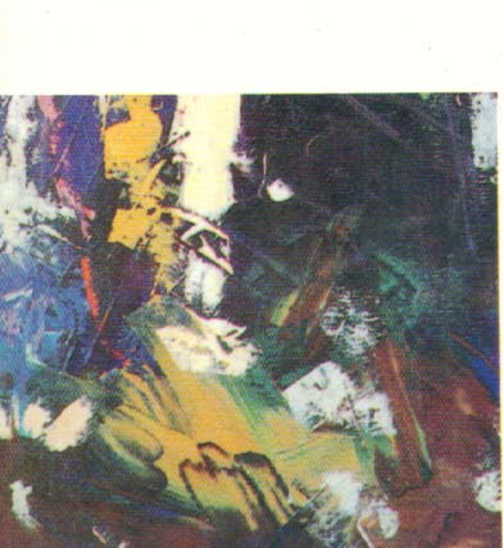

نبيل سليمان

HAMDAN.B
06/12/08

مدارات الشرق

بنات نعش

ـ مدارات الشرق ـ بنات نعش
ـ تأليف : نبيل سليمان
ـ الطبعة الثانية 1994
ـ الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية ـ ص.ب : 1018 ـ هاتف : 222339
تلكس : 451086 Boôth - Sy ـ سوريا .

مدارات الشرق :

1 ـ الأشرعة .
2 ـ بنات نعش .
3 ـ التيجان .
4 ـ الشقائق .

جميع الحقوق محفوظة

نبيل سليمان

مدارات الشرق

بنات نعش

لبو علي ياسين وعبد الرحمن منيف،

لافئدة تلوح:

ســـــلامـــــاً

لشـــــرق قضـــــى

وقـــــرن مضـــــى

ســـــلامـــــاً

لـــــدنيـــــا جـــــديـــــدة

1

فيما القصر والموسم يضجان بالاحتلال الفرنسي ، كان عزيز اللباد يرسم لمتابعة الرحيل الى أي مكان ، بعد أن أيس من هيلانة لقد اختفت من جديد ، ووردة اختفت معها أيضاً ، وهو يلوب داخل القصر وخارجه ، يتسقط كلمة واحدة تنقع غلّته ، دون أن يجرؤ على السؤال ، ولاعلى أن يفكر في أنهما قد تكونان سجينتين ، أو أفلحتا في الفرار .

أرسل عبود بك الرشدة إلى عزيز من يبلغه الأمر بالحضور في المساء . وكان دوره في الحراسة الليلية قد ابتدأ بالأمس ، في موعد الحفلة التي انتظرها كسواه ، منذ أشيع أن البك سيدعو إلى قصره أكبر رأس لفرنسا ، احتفالاً بانتصارها .

كان البهو العلوي مزدحماً حين دخل عزيز ، وقد أضيء القصر مبكراً . أمره البك بالجلوس ، وأمر الآخرين بالخروج ، فتفاقم اضطرابه الذي لم يفارقه منذ تبلغ أمر الحضور . بادر البك قبل أن يخلو البهو :

ـ أظنّك ترغب أن تتزوج هيلانة ياعزيز ؟

شب واقفاً ، فأجلسه صوت البك الصارم ، وكرر السؤال . تلعثم عزيز :

ـ مثل كل الناس يابك .

قهقه البك وأرخى ظهره على مسند الكنبة ، ورمى في حرج عزيز برزمة صغيرة :

ـ خذ . هذا أجرك عن هذه السنة ، وزيادة . أنت تستأهل . ولكن انتبه ياعزيز : إياك ثم إياك . . . هل تسمع ؟ حتى النيّة بينك وبين نفسك لاتكتمها عني . ما من سر يمكن لابن امرأة أن يكتمه عني . هل تفهم ؟ دبر مسكناً قريباً من هنا واستعد ياعريس . قم .

أودع الرزمة في عبّه ، ونهض يتعثر في الشكر والانصراف . ولما أطلّ على الوجوه القليلة المتناثرة في البهو السفلي ، حياهم مزهواً ، وعجّل في النزول . فكر في أن البك قد

أخرج الجميع كي يخلو به . أكدت له نظراتهم البلهاء ظنه . أشفق عليهم من فضولهم لمعرفة مابينه وبين البك من أسرار . تعاظم وهو يتجاوزهم متمهلاً ، ولكنه تسمر قبيل العتبة ، إذْ تذكر أنه لم يسأل البك عن هيلانه ؟ أين تكون وكيف سيراها ؟ كيف ستدبر معه المسكن القريب ؟ وهل يكفي أن يزفّها إليه البك ، أم أن عليه وعليها أن يذهبا الى أهلها كما يفعل البشر كلهم ؟

لم يجرؤ على أن يعود إلى عبود بك ، كما لم يجرؤ على أن يواجه عيون الفلاحين المزورّة عنه ، وهو يتودد إليهم بعد انقطاع طويل ، يستشيرهم في تدبير سكنه ، أو يباهيهم بزواجه . ولئن ألهته فرحته في البداية عن خوفه المكنون من البك ومن الفلاحين ، فقد هدأت الفرحة سريعاً ، وكبر الخوف ، خاصة أنه أنكر أن يظل العريس الذي لايستطيع أن يرى عروسه ، بل إنه لم يرها منذ دهر ، ولايعرف ماحلّ بها منذ هجم على ركن الخادمات .

كان حيناً يهدّىء روعه بحلاوة البشرى التي سيفاجىء بها هيلانه قريباً . وكان روعه يغلبه حيناً ، ويرميه بعري الفلاحة ، أو عري هيلانه ، أو عري وردة ، أو فرحة عبود بك والكثيرين في القصر بالاحتلال الفرنسي . وقد صار تفكيره بالاحتلال يذكره بفراره ، ويزيده مرارة ، وهو الذي لو كان للفرح مطرح ، لكان أولى به ، بعد أن خرب عليه الملك وحكومة الملك حياته . ولكنّ غرباء جدداً حلّوا في الشام ، والأتراك لما يغب قفاهم عنها ، فأي فرح إذن ؟ أي خير يرتجى من عبود بك مادام يصهل للفرنسيين ويعري هيلانه ؟ هل يكفي أنه يؤوي العسكري الهارب من حكومته ومن أهله ، ويقرأ سريرته ، فيزوجه ممن يحب ، ويرمي له برزمة من الأوراق ، مهما بلغت ؟

كانت هواجسه تثقل عليه الليل والحراسة ، بعد أن يهجع القصر ويهدأ السهل ، ولايبقى ثمة سواه في البرج ، والقمر الذي لايكاد يبرح مطرحه . كان الهواء الذي يلعب أقوى في البرج ينقل إليه ، أعلى أو أخفض ، أصوات القصر ، يصلها تارة ويقطعها تارة ، ولايعلو ويستبد وحده بالسمع إلا بعد أن تكون الأضواء قد أطفئت . ولعله لذلك كذب أذنيه إذْ عادتا تطنّان بعد منتصف الليل ،وأنكر على القمر أن يكون قد تجاوز كبد السماء سريعاً ، وراح يهوي صوب البحر . ثم كذب عينيه إذ أصرّتا على أن الأضواء قد أشعلت في بعض نواحي القصر .

حاصره اللغط والنواح والهواء والقمر والنور ، حتى هربت منه ساقاه إلى مدخل البرج ، ثم هربتا صعداً ، وكان المسلحون يخرجون ويدخلون ، وصوت البك يملأ المكان لحظة ، وصدى الصوت يعقب لحظات . وبعد لأي رأى عدداً من الفلاحين قادمين ، يتصدّرهم الإمام ، وماكادوا يدخلون إلى القصر حتى خرجوا حاملين نعشاً صغيراً .

اتقدت ذاكرته بالآيات التي يحفظها قبل أن يعلمه شيخٌ القراءة والكتابة . أنساه ترداد الآيات الفجر الوشيك والميتة المفاجئة والدفن السريع ، دون أن يمسح عنه الخوف . ولعل أول صحوة له من كابوس هذه الليلة كانت عندما جاءه الحارس النهاري متأخراً . أما الصحوة الأخيرة فقد تأخرت حتى انتصف النهار ، وعلم أن هيلانه قد توفيت ودفنت .

من الظهيرة حتى حلت نوبة حراسته كانت الألسن الجزعة الهامسة الشامتة أو المواسية تتقاذفه . تزيده وهناً في مفاصله ، ودواراً في رأسه ، تجعل هيلانه تكوى بأسياخ الحديد لأنها شاركت وردة في سرقة السموم ، تدفع بالأسياخ المحمرة ، سيخاً تلو السيخ ، في فرج هيلانه ، أو في دبرها ، حتى تموت . بيد أن هيلانه ماتت أيضاً لأن عبود بك قسرها على أن تبلع الحبوب التي كانت تدبر تسميمه بها ، أو لأنها جرعت من الكينا والملح الانكليزي منذ المساء مايقتل الفرس . وكانت الألسن تلعنها لأن روحها خبيثة . إذْ قتلت نفسها ، فصارت تتقيأ من فمها ومن شرجها ، كما أنها قد تكون حملت من أحد ضيوف القصر أو رجاله ، فكيف تجوز عليها الرحمة ؟ كيف يمكن للإمام إذن أن يصلّي على قبرها ؟

كل ماأقام في سمعه كان ينقلب في ضوء القمر وهدأة الهواء الى حق قاتل مرة ، ومرة الى باطل لاقبل لأحد به ، وليس لعزيز اللباد وحده . بيد أن العياء والعذاب جعلاه يلاقي الصباح متأهباً للتحقق مما جرى ، وقادراً على النوم أيضاً سحابة النهار .

كان أول مافكر فيه اثر يقظته أنه جائع ، وأن عبود بك لم يطلبه بعد . ملأ معدته بالماء ، ويمّم الى شجرة الزنزلخت ، حتى حلت نوبة الحراسة ، كأنما ينتظر هيلانه ووردة ، أو أية خادمة أخرى ، تنبئه بالخبر الصحيح .

مبكراً توجه الى البرج . لم يلتفت الى بوابة القصر وهو يعبر بها . لم يعبأ بالحارس النهاري الذي امتنّ لما وفرّ عليه من حراسة الغروب . أخرس معدته حتى حل الظلام

وأضيء القصر . نادى على الحارس العجوز فلم يرد أحد . نادى على الحارس النهاري فلم يرد أحد . ترك البرج وحده وهبط يلعنها ويلعن نفسه . عدا نحو القصر في غفلة من نفسه ، ولم يتوقف الا أمام البك في البهو العلوي . جهد كي يلقي السلام ويقطع الدهشة التي جعلت من حول البك يقفون ويتحلقون ، فلم يخرج صوته من حلقه . قطع البك الصمت متأسياً :

- رحمها الله ياعزيز . لاتحزن . الموت حق . اطلب لها الرحمة والمغفرة . إنْ شاء الله سأزوجك خيراً منها . اختر من تشاء من الخادمات ، وهي لك .

دار على عقبيه وحمل جثته على كتفيه ، ونزل يتهاوى على الدرج ، مطبقاً على البندقية ، فيما صوت البك يتناءى . رمى جثته في الباحة وتفل عليها وعلى البك والقصر ومن فيه ، وجعل قدميه تخبطان الأرض وهما تنقلانه إلى البرج . سرى خدر بارد في كفه ، فساعده ، فنقل البندقية إلى يساره ، ثم عاد بها الى يمينه ، ثم أشرعها أمام عينيه ، وتملى القمر . أركز البندقية على الأرض بموازاته ، فهاله طولها . ذهبت البندقية عالياً ، نافت على رأسه ، لامست سقف البرج ، نفرت منه ، عاركت أصابعه ، تود أن تنطلق ، وهو ينكر أن يكون قد ظل كل هذا الوقت بلا سلاح ، منذ يوم مرجين حتى هذا اليوم . منذ يوم نجوم حتى يوم هيلانه . تلمس الجناد على صدره . إنه عامر بالرصاص ، وهو يحمل هذا الرصاص وهذه البندقية كما الحمار . فكر في أن الحمار كان يمكن أن يطلق واحدة أو مئة من رصاص هذا الجناد ، بهذه البندقية ، على هيلانه ، لو هربت . تعجب من بله هذا الحمار وعماه ، فلولا أن يكون كذلك لما أقام في هذه الديار يوماً . لقد حرمه إذن عبود بك الرشدة من أول امرأة أحب . حرمه من أول امرأة تحبه . بل إنه داس على رقبته ، معس فؤاده معساً . جعل الناس جميعاً تدوس عليه وتمعسه . حتى الفرنسيون ، رماه بهم عبود بك . لم يتعرض فياض لشيء من ذلك كله ، ولكنه أشهر سلاحه - مد عزيز ذراعه بالبندقية وقفز درج البرج - عالياً . والحمار نفسه أشهر السلاح مع عزيز . مرجين كلها قامت قومة رجل واحد . والحمار يحشر بوزه في المعلف ، غريباً ، وحيداً ، بلا فياض ، ولا نظير الصوان ، ولاهيلانه ، ولا أحد . ولكن عزيز اللباد ليس حماراً . عزيز اللباد رجل مثل كل الرجال . بل رجل يبذ كل الرجال . وهاهو يشهر البندقية ، على الأقل كي لايمسخه الله حماراً ، وهو لايزال بشراً .

صارت البندقية خفيفة بين يديه ، كالريشة . صارت دافئة وأليفة ، كأنها لم تغادره منذ انتزعوه من قبية ، وجعلوه يقطع هذا السهل حتى طرابلس . لاينبغي له أن ينأى عنها

ثانية ، وحدها تستطيع أن تجمع في ومضة سنيه المقضيّة ، أسفاره ومراراته ، أصدقاءه وأهله ، سنيه التي قد تكون بقيت له ، أجمل أو أقبح ، ما الفرق ؟

وحدها البندقية يستطيع أن يركن إليها وقت الشدة . وعما قليل سوف ترفع حذاء عبود بك وغير عبود بك عن رقبته . سوف تنتزع فؤاده من تحت ذلك الحذاء وكل حذاء . سوف تنتزع هيلانه من أحضان الضيوف العرب أو الفرنسيين أو الأتراك ، وتمسح دموعها وجراحها ، تسترعريها ، وتزفّها ، أو تشيعها كما يليق . لن يدع عزيز أحداً يخرج في جنازتها سواه . وإذْ يصل بالنعش الصغير إلى أهلها يطلب يدها ، ويدفن فؤادها معه ، وينطلق ثانية مثلما انطلق من حمص بعد أن أودع نجوم لدى العم حاتم .

كان يعاين فتحات القصر ومحيطه ، الأضواء والأصوات ، والليل يعدو وهو يلهث خلفه ، ويملأ صدره من الهواء المسائي القوي ، ويحمحم مثل حصان ، يكتم ضحكته مما كان بالأمس ، بل لتوّه ، ويحاول أن يقلّد نهيق الحمار .

قبيل الفجر قرر أن الجميع قد هجعوا . تسلل من البرج خفيفاً وممتنّاً للعيون الغافلة . دار حول القصر حتى النافذة التي قدر أن وردة كانت تنام خلفها . أيقظت طرقاته الخفيفة من كانت نائمة خلف النافذة ، وجاءه صوت غير أليف . أمر صاحبة الصوت بفتح النافذة . ظهرت وردة في النافذة ، فشهق وسمّى باسم الله الرحمن الرحيم . سأله الصوت عما يبتغي ، وخاطبه باسمه . صار الصوت أليفاً ، بيد أن صاحبته لم تعد وردة تماماً . سأل عمن في الغرفة وأمر صاحبة الصوت أن تذهب لتنام في مكان آخر . قفز إلى داخل الغرفة وصوت وردة يشهق . أمر الخادمة بالصمت ، ثم أمرها أن تستطلع له الممر والطابق الأرضي . خرجت الخادمة منومة ، ولم تلبث أن عادت بصوت وردة الراجف :

- لا أحد .

سأله الصوت أو رجاه :

- ماذا تريد ياعزيز ؟

- ربما أعود افتحي النافذة المجاورة للبوابة . افتحي النافذتين المجاورتين وعودي إلى غرفتك ، ونامي . أغلقي هذه النافذة ونامي . إياك أن يراك أحد .

ألح الصوت :

- ماذا تريد ياأخي ؟

وكان قد ابتعد . جرت خلفه ، لكنه كان قد بدأ يقفز فوق الدرج إلى الطابق العلوي . طارت إلى البوابة ، ثم إلى غرفتها ، وقبل أن تستلقي سمعت دويّ رصاصة أو رصاصتين . طارت الى الممر ، لكن صوت خبطة قوية سمرها . تلفتت حيرى ، جزعة ، فإذا بدويّ جديد للرصاص . جرت الى نافذة غرفتها تدعو الله أن يحمي عزيز اللباد ، وتمعن في عتمة الليل التي تضاعفها ظلال الأشجار . ولم تلبث الأضواء أن أخذت تشتعل في القصر ، والأصوات تعلو .

كانت عيناها قادرتين على أن ترياه بوضوح ، وهو يمرق بين الأشجار مثل السنجاب . وكان هو قادراً على أن يظل يجري حتى آخر الدنيا ، لولا أن ساقيه حرنتا فجأة ، وشدتاه شداً الى الأرض ، فأقعى محتضناً البندقية الساخنة .

كان الرصاص يدوي بعيداً ، حيث خلّف القصر ، فهدأت أنفاسه . مد ساقيه على مهل ، ثم طواهما ومدهما بنشاط ، ونهض . غمرت وجهه النجوم القليلة المتبقية في السماء الفسيحة ، وعمر صدره بالبهاء والروعة . عاود الجري أسرع وأقوى حتى اختفت النجوم ، وفطن إلى أنه في أرض لايعرفها . توقف وتلفّت فإذا بالأشجار قد قلت . فكر في أنه قد يكون أضاع الطريق ، فعاد يتلفت ويتذكر ويستحث قرص االشمس الصغير الذي نبق بعيداً . تابع السير في الوجهة التي اختار مؤكداً على ساقيه أن لاتضيعا ولاتكلّا ، وكان القرص الصغير البعيد يتقد ويقترب ويعشي الجفنين اللذين لما يكادا ينطبقان منذ ليلتين . استدار الجفنان عكس الشمس ، فمسحت عليهما نسمة خفيفة رطبة . فكر في أنه كان يسير شرقاً ، لايدري إلى أين ، أما إنْ عاكس الشمس ، وغذّ في أثر النسمة ، فلا بد أن ينتهي الى البحر ، غرباً ، وقد تكون طرابلس نفسها ثمة . استدار يتمتم بالحمد لله ، غير آبه في أن تكون أمامه طرابلس أو طرطوس ، المهم أنه يزداد أماناً وينأى . المهم أن ينجو من الذين لابد أنهم قد خرجوا يتبعونه ، سواء أكان الرصاص قد أردى عبود بك أم لم يرده . ولكن هل يكون الرصاص قد قلب عبود بك على الأرض دون أن يصرعه ؟ أقلق السؤال عزيزاً ، وضاعف من سرعته ، يخشى أن يكون زلم عبود بك قد أعلموا فرنسا نفسها بفعلته . عاود الجري فلم تطاوعه ساقاه غير قليل . قاوم شدهما له الى الأرض ، وظل يسير متباطئاً ، وشرعت أمعاؤه تتلوى من الجوع . لعن النحس الذي يلازمه ، وفكر في أن يد عبود بك ستناله ، إنْ كان لايزال فيها عرق ينبض . أقسم أنه قد جعل تلك الجثة التي تضخمت بغتة تشبع موتاً قبل أن

يقفز الدرج كله مرة واحدة ، ويهرب . فكر في أن يد فرنسا ستناله إنْ كانت يد عبود بك قد انقطعت . وتعجب من أن ذلك لم يخطر له من قبل ، لكأنه لم يعتبر من درس مرجين ، ولم ير كيف أن اليد التي قطعت هناك هي التي جعلته وفياض ونجوم يهربون . وكانت البندقية تتثاقل على كتفه ، وريقه يجفّ ، وعيناه تشرئبان كل خطوة أو خطوتين ، تتعجلان البحر الذي أخذ صوته يعلو ، دون أن يظهر .

★★★

2

القيد والقهر ، الجوع والنوم على الأرض العارية ، الوسخ والخوف ، كل ذلك أهزل هولو التكلي شرّ هزال ، وكان القطار قد غادر رياق قبل أن تلوح له الورقة الفرنسية بالفصل من العمل ، فرفض أن يبرح المحطة ، حتى ينطلق به القطار التالي الى الشام أو حمص ، لافرق . ورفض بديع الطارة أن يخطو نحو زحلة ، مادام هولو في المحطة . فأقعيا حول المدفأة الحديدية الضخمة المطفأة ، يغافلان العيون الفرنسية التي لم تعد عابئة بهما ، ويبادلان زملاءهما الإشارات والكلمات ، وكان أبو خضرة قد غاب عن المحطة منذ أيام .

أوصى هولو لبديع بما ترك في غرفته ، وردد مراراً عبارة العم حاتم :

ـ جبل وجبل لايلتقيان . ابن آدم وابن آدم يلتقيان .

حتى إذا صفر القطار ـ ولم يطل بهما انتظاره ـ ألقى كل منهما على كتف الآخر برأسه ، ثم انتزعه مصطنعاً الابتسامة والشجاعة ، وتباعدا يتبادلان العهد على الوفاء .

لم تفتر دهشة هولو طوال الطريق ، لكأنه لم يقطعه من قبل مئات المرات ، من هاهنا الى الشام أو الى بيروت أو الى حمص ، يخترق مثل القطارات التي تنقل بينها حقول البرتقال والموز وقصب السكر وغابات الآس والتوت . كان الهواء يتلاعب عبر النوافذ المكسورة ، ألطف مما ألف هولو أن يفعل في شتاءات نأت ، وسقف القطار يشي بالدلف ، مثل أي بيت في الحرزة .

أخذ الضباب والليل يغرقان المحطات الجبلية ، وماعاد قادراً على أن يحزر وهو مغمض الجفنين إنْ كان القطار قد توقف في بحمدون أم عالية ؟ ماعاد يتبين الأعلام الفرنسية أو الوجوه الفرنسية أو المغائر والكهوف التي كان يعرف كيف تحيق بالسكة ، فساوره الشك في أن يكون مايزال جديراً بالعمل على القطار ، أو أن تكون الإدارة في رياق أو في الشام أو في حمص تدرك ذلك على نحو ما ، حتى صرفته كما صرفت العم

حاتم قبله . بيد أنه استعاد بعض الثقة التي تملص وهو يخترق مثل القطار وادي النهر ، يقترب من الشام ، يتقافز بين المعالم المحفورة في صدره ، يتقرى منها ما تسمح به العتمة ، ويتوه في اختلاطها عليه ، إذْ تتمازج ألوان البيوت بخضرة الخمائل ، خرير النهر بأصداء توربينات شركة الكهرباء ، شرفات البيوت الطينية بالصواوين ، جذوع الحور بالأعشاش الموغلة في الصفصاف ، الأكشاك البلورية بالمقاهي المطلة على الشلالات ، رائحة المحطة برائحة الشيخ حسن ، بيته ببيت عبد الودود ، وحُسْن بخديجة ، وعبد الودود بمن ودع في رياق منذ هنيهة ، فيلجأ الى الصخب والضحك ، مصمّاً عن جزع زوجته وشقيقته وصهره على ما آل اليه في أسابيع معدودة .

انصرفت حُسْن تعدّ العشاء ، فيما صمت عبد الودود ، واضطر هولو الى أن يصمت ، وكل منهما يتلمس في محيا الآخر وأنفاسه دقائق الزمن الذي فصلهما . ضاقت خديجة بهما فنادت على حُسْن :

ـ تعالي تفرجي ! سبحان الله ! كان لسانهما لايهدأ حين يلتقيان . .

حاول هولو أن يداعبها ، فقال مشيراً الى بطنها :

ـ كم ولداً ولدت خلال هذه الغيبة ؟ أراك سمنت أو بطنك كبر .

ردت خديجة مستجيبة للدعابة ، وأسرعت حُسْن :

ـ من يتكلم ؟ هولو ! هل نسيت ماكنت تقول كلما دعوت الله أن يرزقني بولد ؟

غمز حُسْن قائلا :

ـ دعينا من الماضي .

والتفت الى عبد الودود باسطاً كفيه :

ـ ادع معي ياأخي : اللهم ارزقني ولداً ، اثنين ، بل عشرة .

رشقت خديجة عبد الودود بنظرة خيل لهولو أنها شامتة وقالت :

ـ اسأل صاحبك .

قال عبد الودود كاتماً حنقه :

ـ من ؟ خديجة تحكي ؟ هل نسيت ماكنت تبربرين كلما دعوت الله أن يرزقني بولد ؟

قال هولو :

ـ الله كريم . شدّ الهمة أنت وهي .

التفت نحوه عبد الودود كأنه يلتجىء من خديجة ، ومما يكتم في حناياه . وقال راجياً :

ـ لم تقل لي كيف دخلت فرنسا رياق عندكم ؟

اكتفى هولو بنتف مما كان له خلال غيبته . وماكان قادراً على أن يرضي إلحاح عبد الودود خاصة . ولعله لذلك هرب الى سؤاله :

ـ كيف دخلت فرنسا الشام ياأخي ؟

أرخى عبد الودود شفتيه هزءاً :

ـ لم يعد أحد يرضى أن يدخلها والحمد لله الا على ظهر حصان . الملك من سنتين . الجنرال من شهرين . . والناس تعودت ظهورها والحمد لله على الجرّ . مابقي لهم دين ولا عهد . .

هز هولو رأسه معارضاً ، وتنهد :

ـ الله وحده أدرى بالناس ! الله يعينهم يا أخي .

ـ وهؤلاء الذين كانوا من شهرين يهتفون بحياة الملك ، واليوم يهتفون بحياة الجنرال ؟

ـ أنت هتفت أيضاً بحياة الملك . نسيت جنونك يوم التنصيب ؟

ـ لا ، لم أنس . كنت مجنوناً . مليح ؟ كنت جحشاً .

قالت حُسْن :

ـ من الناس من مات أيضاً ياعبد الودود ضد الفرنسيين .

قالت خديجة :

ـ هل كنت وحدك يوم ركبك الجنون أيضاً وهتفت أمام القصر لاعناً الملك وساعته ؟

قال عبد الودود متضايقاً :

ـ قلت لكم كنت مجنوناً . كنت جحشاً . كلنا مجانين وجحاش .

أطرق هولو طويلاً . أحس بفؤاده يهوي مثلما هوى حين رأى الفرنسيين في المحطة ، من أعلى قمة تهجم على رياق ظل يهوي حتى صرفوه من العمل . وهاهو في القاع ، لايكاد عبد الودود يفسح له كي يلملم أشلاءه . هاهو عبد الودود أيضاً في القاع السحيق مثله ، فما جدوى الكلام ؟

خيم الصمت المكروب حتى قطعته خديجة وهي تتأهب للخروج :

ـ هيا ياعبد الودود . الجلسة اليوم غم . خل المسكينة تفرح بزوجها .

نهض عبد الودود يقول بجفاء :

ـ لو أطعتني وجئنا بالعرق ، كان أفضل .

تأففت خديجة واتجهت الى هولو :

ـ كما ترى ياأخي . كل يوم لاينام حتى يقلبه العرق . أجرته يصرفها كلها على العرق . .
ـ من أين تعيشين إذن ؟

سأال عبد الودود ساخطاً وهو يتجاوزها ، تلاحقه نظرات هولو الزاجرة ، وخوفه من أن يكون صهره وأخته لازالا يتشاجران ، مثلما تركهما قبل نقله الى رياق ، وكانت حُسْن تتلهف الى الانفراد به ، وتتلمس بطنها المكوّر .

★★★

كان الفرنسيون قد احتلوا رياق من جهة ، وجرابلس من جهة مقابلة ، وشرعوا يتقدمون نحو الشام التي انفجرت ضد القصر الراكع . جرف سيل الناس عبد الودود السعد في طريقه الى القصر . جرفه الجنود المتمردون والمسرّحون ، وعصف به الرصاص الملعلع في أنحاء الشام ، فانقطع عن الكراج ، واندفع مع المتدافعين لملاقاة الفرنسيين ، ثم ارتد مع من ارتد منهم ، وتطأطأ رأسه ثانية ، وهو يرى حصان الجنرال يتبختر ، والشبان يجرون عربته ، والأمراء البداة يرفعون العلم الفرنسي ، ويسيرون بين يدي الجنرال ، وأطبق عليه أن يرى فرسان البادية والجنود المغاربة والمدافع تتباهى على الشام ، فاندسّ في جحره الطيني الصغير ، مصمّاً عن سخرية خديجة ودموع حُسْن .

ولما استطاع أن يخرج من الجحر كان كالأبله ، يتهادى من زقاق الى سوق الى ساحة فيما بين حارته والقصر ، حيث لبث يتخيل كيف يجلس الجنرال الآن على العرش ، حتى نهره جندي بالفرنسية ، فتابع السير حتى صادف البيوت التي كانت أم نور الدين تسكن في أحدها ، فبصق لاعناً النساء والرجال أجمعين ، واستدار هابطاً ، كأنه في سباق ، الى كراج البر والتيسير .

عاد الى العمل قرفاً ، لامبالياً ، يحمد لتيسير أنه تجاهل انقطاعه هذه المرة ، وأنه قد بدل من سيرته ، حتى مع الصبيان .

لم يعد يجلس في المقهى مساء إلا بما يكفيه ليتسقط أخبار الشام ، ثم يحضن زجاجة العرق ويمضي . لقد نسي خديجة وحُسْن وهولو ، كما نسي قبلهم أم علاء وسليم أفندي وعمر ومريانا وأم نور الدين ، ولعله كان سينسى نفسه تماماً لولا أن الفلاحين قتلوا في حوران رئيس الوزراء ومن معه ، فأعاده الفعل الى الحياة . وصل ما انبّت بين يومه وأمسه القريب أو البعيد ، اشتاق الى العم حاتم وفياض وعزيز ، الى راغب الناصح

نفسه ، زار الحداد نعمان وبيت حميه في الحرزة ، زار دكان سليم أفندي ، وتباهى شامتاً أمام عمر بمصرع الخونة . ناكد تيسير المتفائل مادامت السيارات تتكاثر ، وركب خديجة انتقاماً . عاد حدبه على حُسْن أحرّ مما كان ، ومد يده الى رف الكتب ، إذْ لم يعد يشرب العرق كل عشية ، كما تدعي خديجة ، وهي حيرى فيما طرأ عليه .

زاد تيسير في أجرة عبد الودود ، وفي أجور الصبيان ، فعرضت الضحكة في الكراج ، الا أن عبد الودود أخذ يفكر فيما يجنبه الكراج من مصائب الشام ، ينكره على تيسير في صمت ، ثم في همس ، ثم في جهر ، كما ينكر على نفسه أن يعيش من تلك المصائب . ولولا قدوم هولو طريداً وفشله في تدبير عمل ، لكان عزم عبد الودود قد صح على مغادرة الكراج . أما الآن فإنّ عليه أن يصبر على تيسير وعلى نفسه ، حتى ينتزع لهولو مكاناً في الكراج ، إذ لايعقل أن يكونا معاً عاطلين عن العمل .

كان هولو يتردد في نهاره على الكراج ، وقد ألفت الميكانيكي ذلك ، وغاظه أن يتلهى عبد الودود مرتين وثلاثاً مع صاحبه الملتحي ، الا أنه لم يشأ أن يعكر على نفسه ولاعلى عبد الودود ، فتجاهل على مضض ، مغضياً عما يراه واحدة من سيئات عبد الودود الكثيرة التي لاتحتمل ، لولا براعته وإتقانه وتقدمه السريع في الشغل ، ولولا الحاجة المسيسة الى مثله في هذه الأيام التي لم يشهد الكراج مثل ازدحامها وخيراتها .

عبد الودود هو الذي اقترب أخيراً من تيسير ، اثر انصراف هولو ، وسأل بلين :

ـ هل تعرف من يكون ؟ ٥٢٢٨٦٩

ـ عواطلي . من سيكون ؟ لكن يبدو أنه ابن حلال .

ـ إنّه شقيق زوجتي .

ـ ليكن ، لاتؤاخذني . أراه يروح ويجيء مثل الأولاد . عيب . . .

ـ كان يعمل على القطار . كان سيصبح سائق قطار هذا الذي لايعجبك .

ـ ماشاء الله ! والآن ؟

ـ لاتسخر ياتيسير . هولو يصلح قطاراً ، وليس لعبة من هذه الألعاب . ولكنهم طردوه من المصلحة .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه رفض أن يخدم الفرنسيين . كان آخر مرة في رياق .

ـ من أول نظرة قلت هذا الملتحي فيه من هَبَل عبد الودود . مسكين . ضيع نفسه .

ـ اترك هذا الكلام . مارأيك في أن يشتغل معنا ؟
ـ تريدني أن أشغل من طردته الحكومة ؟
ـ ماشأنك بذلك ؟
ـ لاطاقة لي على المشاكل . أنت تعرف من نفسك .
ـ أعرف أعرف . ولكن هولو غير عبد الودود . هولو أفضل مني . أمثاله نادرون . أنا لاأمدحه لأنه قريبي . جربه . لن تخسر شيئاً .

كانت فرحته باستجابة تيسير أكبر من فرحة هولو وحُسْن . أما خديجة ، فعلى الرغم من دعائها لأخيها بالتوفيق ، لم يفتها أن تتشكك في درب عبد الودود ، وفي حال من يسير عليها .

أقبل هولو على العمل بشغف ، لايفرق نفسه عن أي من الصبيان ، مدارياً تيسير كما أوصاه عبد الودود ، مفيداً من خبرته في القطار والمحطات ، إلا أن تيسير اختار منذ البداية أن يظل يستهين به ، وكان ذلك يورثه وعبد الودود معاً الغصة .

كانت الرغبة في السكينة تكبر لدى هولو . كان يهفو الى مصالحة ما مع الدنيا ، ولعله أصاب عبد الودود ببعض العدوى من ذلك . غير أن الدنيا لم تفسح لأي منهما .

لم يكد الوئام معهما يبرق لهما ، حتى كانت فرنسا قد قطعت البلاد تقطيعاً ، فأعلنت دولة لبنان ، ثم دولة حلب واسكندرونة ، ثم دولة العلويين ، وصار عساكرها من فرنسيين ومغاربة وشراكسة وسنغال وسواهم يتكاثرون . صار التهليل لها يعلو في الشام ، وتيسير عبد البر نفسه بات يجاهر بذلك ويعتدّ به . بل إنه يعيّر هولو ، ولو مواربة ، بما فعل الفرنسيون به ، لكأنما يلوح بسوط مخبيء هناك ، خلف باب الكراج أو في السراي . وقد عاد الشجار مع خديجة بسوط عبد الودود ، كما كان توجع حُسْن من حملها العسير بسوط هولو . فأنّى له أو لصهره أن يعرف السكينة أو ينجز المصالحة أو يهنأ بوئام ؟

★★★

3

على مشارف الطريق الواصل بين حمص والشام اختار فياض العقدة أن يكون لجؤه التالي . لقد صدق آصف الغبشة في بعض ماقال . واذا كان فياض فيما قطع من كفريا الى خيام الحسنة لم يلتق بأحد ممن حدثه آصف عنهم ، فإن الخيام جميعاً تكاد تؤثر من يقصدها على أهلها .

في مضافة الشيخ مجلاد نزل أولاً . وحول المضافة أفرد له ماقضى فيه أواخر الشتاء المتداخلة بمطلع الربيع .

وإذْ أخذت السماء تروق ، والنّبت الصغير يلون ماحول الخيام ، كان على فياض أن يحسم أمره ، ويقرر ما إذا كان سيتابع المشي الى حمص التي باتت قريبة ، أو يتوجه الى المراعي ، ليعمل مثل الآخرين ، ويحصّل رزقه .

دعواه هذه المرة كانت أنه من الجملان ، وقد فارقهم لخلاف ، أكبر الشيخ مجلاد تكتّمه عليه ، فأكبر الآخرون ، الا الشيخ غثوان ، بكر الشيخ مجلاد ، الذي ظل ينكد على فياض كلما عنّ له ، سواء في سرّ الخلاف أم في سواه .

مناكدات الشيخ غثوان جعلت فياضاً يدقق في كلامه وتصرفاته ، وأفطنته الى أنه منذ التجأ إلى التركي أجاد الظهور بمظهر البدوي ، على الرغم من أنه لم يقم في الخيام ، فامتنّ لكفريا ولآصف الغبشة وللذين عبر بهم قبل كفريا ، دون أن ينسى حسن تخلّصه ، كلما زلّ لسانه ، أو سها عن حركة . وقد زاده ذلك إعجاباً بنفسه ، وتشبثاً بجديده البدوي ، كما زاد نأيه عن لبوسه الأول الذي أخلقته البادية والترحال والشتاء . وقد يكون هذا ماجعله يختار أن يعمل في الرعي فترة ، مؤملاً أن يعوض مافقده في نذره للشيخ أبي حية ، ويدخل حمص أقوى . وكان يتابع بدقة مايردد الشيخ مجلاد في المضافة عن الاستقلال الوشيك أو المعلن ، والعرش الملكي الذي قام أو سيقوم ، والفرنسيين

الذين يجدّون نحو الشام من كل ناحية ، والناس الذين يقاتلون أو يتظاهرون في المدن وفي القرى .

كان يفكر في خلواته النادرة في أن من كانوا يداهمون المشرقة ، قد يكونون من هؤلاء الذين يقيم بينهم ، بيد أن دفء الفروة التي خصه بها الشيخ مجلاد ليلة وصوله ، كان يهدىء وساوسه ، يغريه بالعيش السهل الآمن هاهنا ، فيخلد الى الأصوات الشجية التي تتناهى من الخيام المجاورة ، تتداخل أحياناً بالرياح الغاضبة أو الرخية أو المرعدة ، ويغفو كأنه في حضن أمه في المشرقة ، أو إلى جوار عزيز في واحدة من القشلات .

بيسر وحرارة انعقدت الأواصر بينه وبين الكثيرين ، ممن يحفون بالشيخ مجلاد . كانوا يلاقونه جميعاً كأنه عاش بينهم سنيناً ، من الحطاب الى الراوي الى السوّاسين الى الرعاة الى العبيد . حتى من كان يعمل منهم في خدمة الشيخ غثوان خاصة ، كانوا يتحاشونه في حضور الشيخ ، فإذا غاب ، أقبلوا على فياض بحرارة أكبر .

عهد الشيخ مجلاد له بالمساعدة في الإشراف على المراعي التي سوف يتوافد عليها الرعاة من أنحاءأخرى وعشائر أخرى . وبات لفياض حصانه وبندقيته ، بات عليه أن يدور في جبل حسية ، يقترب من حمص حتى شمسين ، ينأى عنها حتى قارة ، يتفحص جناده ، ويصبر على الشمس والعرق ، يردد أسماء القرى والعشائر ، يلاعب الصور التي كان الراوي يرسمها ، ويرى نفسه ، وهو ساهم في الليل البارد ، يترحل مع الجيش الميمّم صوب الشمال ، بدوياً لا عسكرياً ، يتعصب للرولة أو يتحامل على العتيق ، يغزو مع المشارقة أو ينهزم مع العقيدات ، يجعل من آصف الغبشة راوية أصدق وأعرف وأغوى ، يتشوق للأرجاء التي يجهلها من بادية حماة الى الأصقاع الأخرى التي يذكرها الكبار والصغار بين حلب والجزيرة ، ثم يؤوب الى هذه الأمداء حول حمص ، يخلد اليها بعد سفر طويل ، يتباهى بالحسنة والنعيم وبني خالد والفواعرة والسبعة والعمور جميعاً ، وإذْ يفكر في سبة أو ثأر بين أي منهما ، ينكر على الراوي مايروي ، يجفل ويجبن ، يتطامن ويشفق ، يبحث عن الطباخ والقهوة وكمشة الشوك في يده ، ينغم صوته مع الشيخ مجلاد : النار فاكهة الشتاء ومن لايصدق يصطلي . ويهدأ روعه إذْ يلوح له الاستحسان في عيون الجميع ، والشيخ غثوان غائب ، فليس سر خلافه مع قومه فقط مايدفع العيون اليه . صوته أيضاً . رصاصته التي لاتخيب ، وهو يتبارى مع الشبان في النهار المشمس ، قبل أن يبدأ موسم الرعي . مايعرفه من المدن الكثيرة أيضا . . . حتى حق له أن يميل

بعيون الصبايا إليه ، فصرن يرمقنه ، يحركن تارة ذكرى نجوم الغافية ، ويدفعنه عنها تارة ، فأنى لبنت الصوان الفلاحة مثل هذه الضحكة أو تلك البحة أو ذلك القوام أو تلك الجراءة ؟ أنّى لها أن تكون مثل أي من بنات الخيام ، سواء منهن أخوات الشيخ غثوان أم بنات أي عبد من العبيد ؟

إلى يمين وشمال الطريق صار يرخي لحصانه ، والرعاة يتوافدون ، والقطعان تفور فوراناً . وكانت صدد قد أخذت تستأثر به ، فيحتال كي يكون مستراحه فيها ، يتفرج على أنوالها اليدوية والعباءات والبسط التي تلعب الأصابع في نسيجها ، مثل الأصابع التي تلعب بالمهباج أو الربابة . كان يحلو له أن يأمر وينهي في دكاكين القرية وأزقتها ، على الرغم من أنها ليست ملكاً للشيخ مجلاد . ولكن من يجرؤ على أن يرفع حاجبيه أمام فياض مادام ينطق باسم الشيخ مجلاد والشيخ غثوان أيضاً ؟ كان يضحك في سره وهو يحل آصف الغبشة محل أي من أصحاب الدكاكين ، ثم ينطلق بعيداً نحو السفوح ، متلهفاً للظفر بقطيع عابر ، لم يتفق مع أي من الشيخين على بديل الرعي ، ويحلو له أن يذل الرعاة ، يفرض عليهم الأتاوة التي تعنّ له ، فإنْ لم يدفعوا ـ ولن يدفعوا ـ أخذ مايقدر أنه يعادل ضعفها من الأغنام . أما إنْ ظل حصانه يعدو حتى الجبل ، فقد كان لايكاد يصدق أنه يلقى راعياً ممن سبق لهم أن اتفقوا مع أحد الشيخين على البديل ، فيعنف الراعي ، ويضربه إذا احتج أو تململ ، ثم يهمز الحصان الى حيث لايعرف .

من المؤكد أن ذلك أو بعضه كان يتناهى الى الشيخ مجلاد ، مزوقاً أو مبالغاً به ، مما يضاعف من ثناء الشيخ عليه ، ويشدّ عيون الشبان أيضاً إليه ، وليس الصبايا وحسب . وقد تعود أن يقرأ في تلك العيون درجة نجاحه ، كما تعود أن يخفق فؤاده ، أسرع وأعلى ، لعيني شعيلة .

ربما كانت شعيلة قد ألفته قبل أن يحل الموسم بطولها وسمرتها الغامقة . ربما كان يبحث عن عينيها الحادتين منذ ذلك الوقت ، حتى اذا لاقيتاه هرب منهما . الا أنه منذ أخذ يبيت حيث ينتهي به تطوافه في المراعي ، صارت العينان تفاجئانه في نومه أو في استراحته ، حتى إنْ لم يكن وحيداً ، في الليل أو في النهار ، وهو مستلق على ظهره ، يسترق نظرة من السماء التي تؤججها الشمس أو تزينها النجوم . وإذْ يعود الى الخيام لأمرٍ ما ، تجول عيناه بينها ظامئتين ، لاترتويان من لمحة خاطفة أو بعيدة ، فيجمع أطراف شجاعته ، ولايهرب من عيني شعيلة ، بل يحييها ، ويضحك لضحكتها ، ويحلو له أن تخصّه بواحدة من حركاتها الغنجة التي لاتنتهي .

كان ذلك أشبه بلمسة تكمل دنياه الطريفة . كان لايزال بدوياً طفلاً ، أو طفلاً على أية حال ، يلعب وحسب . وإذْ تعلمه الدنيا مايجهل ، تتضاعف ضرورة اللعب ولذته . غير أن شعيلة لم تعد تظهر . كما أن الشيخ مجلاد أطال الغيبة ، والشيخ غثوان يزيد في النكد ، ولم يكن أمام فياض سوى أن يغلظ في شتم أو ضرب من يرى أنه أخطأ من الرعاة ، أو أن يهمز حصانه ، وينطلق به ، حتى ينيخهما معاً العياء .

كان ثمة آخرون ، وربما أخريات ، ممن ألف رؤيتهم كل صباح أو مساء ، يختفون ويظهرون . وقد افتقد بعضهم ، خاصة راعي الإبل الذي أشار عليه بأن يطلب من الشيخ مجلاد أن يلحقه الرعاة ، لكن شعيلة وحدها تركت فراغاً في النفس ، والشيخ مجلاد ترك وحده فراغاً حول فياض .

ضج الرعاة بظلم فياض ، واكتفى الشيخ غثوان أول مرة بأن يأمر فياض بالتعقل ، أما في المرة الثانية فقد شتمه ، وهدده بالضرب والطرد .

طأطأ فياض مقهوراً وذليلاً ، خاصة أن من حوله قد أشاحوا عنه ، لكأنهم يؤيدون الشيخ غثوان في تقريعه . ولأن بقية من المقاومة أو العزة تحركت في نفسه ، تساءل وهو ينسحب نحو حصانه :

ـ متى يعود عمي الشيخ مجلاد ؟

اشرأبت اليه الرؤوس ، فوجد في ذلك بعض مايمسح من الإهانة ، لكن الشيخ غثوان قال ساخراً :

ـ ماشأنك بذلك ؟

لم يساعفه لسانه ، فهم بامتطاء الحصان ، والشيخ غثوان يقول ضاحكاً :

ـ الشيخ في الشام كما تعلم ، وغيبته قد تطول .

تمتم بصوت مسموع :

ـ خير إنْ شاء الله ؟

سمع فياض صوتاً يقول :

ـ فرنسا أرسلت تطلبه كما تعلم والغايب حجته معه . الله يعيده لنا غانماً منصوراً .

هللت الأصوات مؤمنة ، وأعقبها صوت آخر :

ـ الملك نفسه كان يطلبه ، فكيف بفرنسا ؟

تلعثم فياض وهو يؤكد أنّ فرنسا والملك لابد أن يطلبا الشيخ مجلاد ، وانطلق هارباً ، والشيخ غثوان يضحك عالياً ، والرجال يلغطون .

تذكر وهو يضرب في الليل أنه قد شارك أولاء الرجال والشيخ مجلاد والشيخ غثوان منذ شهور معدودة الابتهاج بتنصيب الملك في الشام . كان لايزال طارئاً هنا ، وكان الشيخ مجلاد قد عاد من غيبة طويلة أخرى . أطلق فياض يومئذ الرصاص مثل سائر الشبان ، وأسكرته عينا شعيلة ، وربما عينا سواها من النساء اللواتي كنّ أكثر ابتهاجاً . أنصت للشيخ مجلاد يتحدث عن الاستقلال ، وفكر قليلاً في أن أمره يزداد تعقيداً ، مادامت الحكومة تزداد قوة بالاستقلال وبالملك ، ثم لها عن ذلك كله ، حتى نجا الآن من ضحك الشيخ غثوان وأصوات الرجال الذين تفرجوا على تقريعه ، كأنهم شامتون . لام نفسه لأنه لم يفكر بوصول فرنسا الى الشام وسقوط الحكومة والملك ، على الرغم من أنه قد سمع بذلك ، مثله مثل الشيخ غثوان نفسه . لعن حظه الذي بدأ ينقلب عليه ، مادام الرعاة صاروا يشكونه ، والشيخ غثوان يهدده بالضرب والطرد ، ولا أحد يناصره . تساءل عما يجعله يصبر على ذلك ؟ ولعن راعي الإبل ومشورته . ألجم الحصان ، وراح يدور من فوقه في أنحاء العتمة ، ثم في أرجاء السماء . خشي أن تكون أيامه هنا قد صارت معدودة ، وأن ينصرف كما جاء بجيبه الفارغة . حتى نظرة أخيرة من شعيلة ، قد لاتكون له قبل أن يولي من جديد . أدار الحصان نحو الخيام ، وتركه يمشي على مهل ، وقد ذهب غضبه ، وبات هادئاً وزاهداً ، حيران وخائباً ، كأن الطفل فيه يغادر عهد اللعب ، ويتأهب لعهد جديد .

كانت الخيام لاتزال ساهرة ، والحصان يقترب منها حذراً ،ثم يدور حول الخيمة التي يعرف فياض أن شعيلة كانت تقيم فيها . أجفل الحصان على صوت فتاة :

ـ فياض ؟

أدرك أنها شقيقة شعيلة ، فربت على الحصان ، وهمس :

ـ أين شعيلة ؟

ارتجفت شفتا الفتاة :

ـ أهداها الشيخ مجلاد للأمير دشاش . ألم تسمع ؟

تراجع الحصان ، وانعطف عن الخيمة ، وفياض ينكر أن يكون قد حرم أيضاً من عيني شعيلة ، وربما الى الأبد . توجه الحصان نحو الطريق يحمحم كأنه يردد صدى مافي صدر صاحبه ، وراح يخبّ مستوحشاً ، ولم يصح الاثنان من غفلتهما الا في أزقة صدد .

أيقظ فياض صاحب أول دكان صادفه ، وطلب ماء . رثى في سره لصاحب الدكان الذي يتزلف إليه ، ويفرك جفنيه كاتماً التثاؤب . سأل فياض عن فرنسا والملك ، فإذا بالرجل لايعرف إلا أنّ فرنسا قد دخلت حمص نفسها ، وطردت الملك وحكومته . راق لفياض جهل الرجل ، وفكر وهو ينهض أنه لم يعد مطلوباً من أحد . ترحم على قائد القشلة وملكه وحكومته ، وأنكر على نفسه أن يكون هارباً أو لاجئاً أو خائفاً . أنكر عليها أن تنشغل بشعيلة أو الرعاة أو النقود ، أو أن تذل للشيخ غثوان . سار به الحصان على الطريق نحو حمص فتعجب كم هي قريبة . المشرقة أيضاً ليست بعيدة من هنا ، مرجمين ، أم فياض ، نجوم ، العم حاتم أبو راسين ، وربما عزيز اللباد ، فلماذا لاينطلق الحصان إذن مثل السهم ، لماذا يمشي كأنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ؟ كأن فياض لايهمزه ، ولايتعجّل لقاء تلك الدنيا التي ضاعت منه ، وظلت تضيع ، حتى أيس من لقائها ، فإذا بها ثمة تشرع ذراعيها لملاقاته !

★★★

أيقظ صهيل الحصان أم فياض ،فاستوت في فراشها ، فيما كان فياض يتقدم من الباب ، يمسح عن وجهه العرق الذي غسله والحصان غسلاً . تحاملت أمه على المرض الذي أقعدها منذ الشتاء ، ونهضت تفتح الباب قبل أن يطرقه . انتصبت قامتها وهي تسبر العتمة وتحضن ابنها وحصانه وبارودته . اجتاحتها العافية والرغبة في البكاء ، وغمرت فياض بقبلاتها ولومها على اختفائه الطويل . اندفعت تشعل السراج وهو يسأل :

ـ نجوم عندك ياأمي ؟

ـ لا ياولدي .

تسمر يتساءل :

ـ أين تكون اذن ؟

ـ الله أعلم ياولدي . كان الله في عونها . .

لم يكن لدى أمه الا مايزيد قلقه : فماذا يعني أن عزيزاً قد أتى بنجوم ، والعم حاتم قد استردها ؟ هل تكون قد عثرت على اخوتها وعادت إلى مرجمين ؟ لماذا لم يعد إلى المشرقة ، لاعزيز ولا العم حاتم ولانجوم ؟

كانت الأسئلة تستحثه على أن ينطلق إلى حمص أو إلى مرجمين ، وأمه تلح محذرة من أن يفعل ذلك الآن . لاأحد يجرؤ على أن يدخل حمص بعدما جاء الفرنسيون . ليس لفياض على الأقل أن يحمل البارودة ويركب الحصان في المدينة . وقد أذعن في الصباح لأمه ، فتوجه الى حمص ماشياً ، وأعزل .

أبهجه أن يكون قادراً على أن يسير من جديد على هذه الطريق ، يسلم على الناس ويتلفت كيف يشاء . لاينكر نفسه ولايخشى أن يفتضح سره . وعلى الرغم من أن رؤية الفرنسيين في مشارف المدينة قد أربكته قليلاً ، الا أنه كان مع كل خطوة يبدل الجلد الذي صار له منذ سقط في مرجمين ، أو فرّ من المستشفى ، أو غادر كفريا .

بين مدخل المدينة والمحطة تباطأ يتفحص الحجر الأسود المرصوف في الشوارع ، ساقية الماء التي تتوسط أكبرها ، السراي الكبيرة والعلم الفرنسي ، أسطحة البيوت القرميدية ، الأبواب والنوافذ المسوّرة بالأحجار الكلسية البيضاء ، جدران الحجارة السوداء ، وجوه الناس ، وبخاصة من يبدومنهم أنه بدوي . ومع كل خطوة كان يحسّ أنه ينزل عن كاهله ماحمل طويلاً ، يبرد أشواقه ، يطمئن الى أن كل شيء لازال مثلما كان ، قبل أن يدفعه الجنون إلى القتال في مرجمين .

كان يسير متحاشياً من يصادف من الجنود الفرنسيين والسيارات الفرنسية ، حتى المحطة ، حيث قيل له إن العم حاتم قد استشهد . كان العلم الفرنسي يرفرف فوق المحطة ، وروح فياض ترفرف منكرة ، تدفعه الى أن يقترب من الوجه الفرنسي ، ويتقراه ، يوشك أن ينشب أصابعه فيه ، وينهره ، ويسأل عن العم حاتم . لا أحد على يقين من مصيره ، كما قال نظمي بدير ، ولكن لابد أنه قد استشهد . كل من كان معه قد قتل أو عاد سالماً أو جريحاً . لم يؤسر أحد ولم يختف أحد سواه . وتلك هي زوجته ، رحمة الله عليه ، في بيته ، كما يكرر نظمي بدير ، وأذنا فياض لاتعيان .

برفقة نظمي سار الى البيت ، وهو يلجم السؤال الذي يضج به صدره عن أرملة الشهيد . كان السؤال سينفلت منه لولا أن الباب كان مشرعاً ، فوقعت عيناه على نجوم . حرنت قدماه وعجز عن أن يقول شيئاً لنظمي الذي كان يدفعه بغلظة وعجب . تحركت نجوم نحو الباب ، فتعثرت بعيدان الريحان وكادت أن تهوي . وقفت وسط العيدان كأنها في نعش مهيب صغير ، أخضر .

ارتجفت ذقنها الصغيرة ، وتهدلت فوق جبينها خصلة الشعر المنفلتة من المنديل الأبيض . أوشكت عيناها أن تلاقياه مراراً قبل أن يخرج صوتها المجلل بالسواد :

ـ أهلاً يافياض . الحمد لله على سلامتك . ادخل . ادخل يانظمي .

قبل أن تلتقط أذناه كلماتها كانت قد انهارت فوق الريحان تنحب بصمت . تقدم نظمي مقرعاً ، فهذا الذي تفعله بنفسها يغضب الشهيد . جرّ فياض قدميه نحوها ، وهو يحسب أنه قد استطاع أخيراً أن يستدير هارباً ، إذْ ماكان قادراً على غير الهرب منها ومن هذا البيت ومن نظمي بدير والشهيد وحمص وفرنسا . وإذْ وقفت قدماه أمام نجوم اطمأن الى أنه قد ابتعد عنها بما يكفيه كي ينفجر :

ـ ماذا يقول هذا المعتوه؟ هل أنت حقاً . .

كان بحاجة إلى تلك الدفعة القوية التي بادره بها نظمي بدير ، كيما يصحو . ولعله لولا ذلك لأشبعها أو أشبع نفسه ضرباً . أسقطته الدفعة قربها فطمر رأسه بين ساعديه وساقيه . تركها تنحب وتصمت وتشرح لنظمي وروحه تذوي . ماذا يجدي إنْ صاح أو كذب أو صدق ؟ ماذا يجدي أنْ تذكر عزيز اللباد أو اخوتها الضائعين أو انقطاع أخبار فياض عنها أو قضاء الله وقدره ؟ لتهرف كما يحلو لها ، وليهرف نظمي بدير كما يحلو له ، ليدخل معهما الى البيت ، أو فليعد من حيث أتى ، فماذا يعني ذلك كله ؟

بعد لأي أنهضه نظمي وقدم له كأس الماء التي طلبها . غب الماء غباً ، وأحسّ أن رعشة تسري في عروقه ، وتحرك لسانه ، فترحم على المرحوم ، دون أن يذكر اسمه ، وكرر خلف نظمي :

ـ تلك مشيئة الله ، ومن يحب المرحوم يقف معك . من يحبك يقف معك . من يحب سورية كلها يقف معك . خاطرك .

ومشى ، كأنما يشيع أخاً أو حبيباً ، يمد يده إلى صدره كأنما يعين في حمل النعش ، يهمهم مكبراً أو مترحماً . يفتقد حوله البكاء والصراخ . ينكفىء مسلّماً ، فتلك هي جنازته وحده . هو الميت وهو المشيع . هو الآخر قد استشهد . بل إنه سبق العم حاتم الى الشهادة . منذ أوقعه الرصاص في مرجين بات شهيداً ، وهو لايعلم ، وهم لايعلمون . ماسبق ذلك كان حياته الأولى ، وماأعقب كان حياته الجديدة التي تأخر في إدراكها حتى اليوم . حياة ليس فيها العم حاتم أبو راسين ولانجوم الصوان . حياة ليس فيها سوى التنكر والخوف والبدو والرحيل . طلع فيها خطأ أبو عاطف وفاطمة ، ولاينبغي للأخطاء أن تكثر كما كان في الحياة الأولى . لاينبغي للجنون الذي أودى به في مرجين أن يتكرر . حتى انشغاله بشعيلة ليس غير خطأ لاينبغي له أن يقع في مثله . لو ظهر الآن عزيز اللباد قبالته ، وجهاً لوجه ، فما عليه إلّا أن ينصرف عنه . لقد مات

الجميع ، وليس العم حاتم أو نجوم وحدهما . الصداقة ماتت ، العشق ، الوفاء والغفلة ، البله الذي ينقشع أخيراً عن عينيه ، فتظهر المحطة وفوقها العلم الفرنسي المرفرف . لقد سبقه الفرنسيون إذن إلى العم حاتم ، ولاتجوز للميت إلا الرحمة على كل حال . لكن فياض لو كان قد صادف العم حاتم حياً لقتله ، على الرغم من أن الذنب ليس ذنبه . بل إنه ليس ذنب نجوم نفسها . الذنب ذنب فياض وحده ، ولسوف يعرف بعد اليوم كيف يقتص من نفسه . سوف يعرف كيف لايدعها تذنب من بعد . وليشهد الجميع عليه : من سبق منهم الى اليقين من أنه لن يعود ، ومن تأخر ، من حكم منهم عليه بالإعدام ، ومن نفذ . ليشهد عزيز اللباد وهولو التكلي ، عبد الودود السعد وراغب الناصح ، ياسين الحلو واسماعيل معلا ، آصف الغبشة والشيخ غثوان ، ليشهد عليه رصاص مرجمين ، فهو أرحم من الجميع . ليشهد العلم الفرنسي الحي والعلم السوري الميت ، مثله مثل أبو عبد اللطيف الصوان أو قائد القشلة أو حاتم أبو راسين الذي لم يعد عماً ، بل زوجاً . ليشهد فياض وحده على نفسه ، فلا شأن لهم به جميعاً ، ولاشأن له بأحد .

★★★

قبيل المساء وصل إلى بيته متهالكاً . قدماه تؤلمانه والجوع يفري معدته . شهقت أمه كأنها ترى شبحاً لمن كان هذا الصباح ابنها :

ـ ماذا جرى لك ياولدي ؟

هي تسأل ، والشبح أصم : لتفترض ماشاءت ، فقد تكون نجوم ماتت . وقد يكون لم يعثر عليها . قد يكون الفرنسيون قبضوا عليه . قد يكون استطاع أن يهرب منهم ، وقد يكون جائعاً أو مريضاً . لاشأن له بدموعها ولابأخوته . لاشأن له بالذين توافدوا على البيت منذ الصباح ، بعد أن سرى في المشرقة خبر عودته مع حصان وبارودة . شأنه الوحيد الآن أن ينجز مراسم دفن من كان ، وأن يمكن فياض الذين سيكون من الخروج من عنق رحمها .

لاريب أنه قضى الليل أشلّ ، لافرق إنْ كان جفناه مغمضين أو مفتوحين . وعلى الرغم من أن الدنيا حوله كلها قد هجعت ، فقد كان ينشد أن تفسح له أمه قليلا ، أن

يتريث الخواجه الذي يلح في طلبه ، أن يوفر الحصان صهيله للغد الوشيك . كان بحاجة الى أن تدعه الدنيا كلها لنفسه قليلاً ، حتى ينجز ولادته ، ويخرج في الغد ، من هذا البيت ، كما يشتهي ويرسم .

قبل أن تنهض أمه كان قد فتح الباب ، ودلق على رأسه سطلاً من الماء البارد ، وصاح يأمرها أن تحضر إليه مايتجفف به . جاءت الأم فرحة ومحيية ، وعلا وراءها صخب اخوته . أمر أمه أن تعدّ له مايأكل ، وراح يداعب اخوته والحصان . التهم طعامه على عجل ، وتقلد البارودة ، وامتطى حصانه مخاطباً :

ـ أنا عند المختار .

كان المختار قد استيقظ لتوه . حيّاه فياض باعتداد ، وسأل مستخفاً عن الخواجة ثابت . بهت المختار واكتفى بنظراته المتوعدة ، وأمر بالانتظار ريثما يكون الخواجة قد أفطر . ترجّل وأوثق الحصان الى جذع التوتة الضخمة وطلب كرسياً ، وقبل أن يجلس حياه صوت رخيم من الباب المجانب .

كان الخواجة ثابت قد علم بأمر فياض في مرجين . وحين وصل عصر البارحة رأى المشرقة تضجّ بعودة العسكري الهارب أو الميت ، حياً وخيالاً ومسلحاً .

كان الخواجة يضمر أن يعنف فياض على تأخره في الحضور إليه أمس ، بيد أنه لم يشأ أن يبدأ صباحه بما يعكر . وإذْ جلسا متواجهين رأى الشر يتّقد من عيني فياض ، فصدق ماكان يردد الفلاحون عنه بالأمس .

لم يسبق للخواجة أن كان قريباً إلى هذا الحد من أي من هؤلاء الذين يعصون الحكومة ، ويقتلون . كان يسمع بأخبارهم في بيروت أو الشام أو القرى التي باعها واشتراها . ولكن أن يكون واحداً منهم هذا الشاب الذي يجلس أمامه ، وينتمي إلى رعيته ؟ أن يكون من أمامه قاتل ابن قاتل ، متمرد ابن متمرد ؟

بدا الخواجة مشوقاً إلى أن يعرف حقيقة فياض العقدة . لقد شدد فيما مضى على المختار وعلى الفلاحين بتسليمه إنْ ظهر في القرية ، وبإطاعة الحكومة . لكن تلك الحكومة قد ولت . والخواجة ثابت غير آسٍ عليها ، كما ترك بالأمس صديقه الباشا شكيم . وهاهو فياض قد ظهر مع حصان وبارودة ، ينضح وجهه بالشر ، فهل يكون قد سوى قضيته مع الفرنسيين ؟ ولكن أية قضية بينه وبينهم ؟ كان مطلوباً للحكومة الزائلة فهل يسلمه هو للفرنسيين ؟ ألن يقدروا له أنه قتل قائد قشلة حماة ، وظلّ هارباً حتى جاؤوا ؟

تخلص الخواجة من هواجسه وكسر الصمت بعد لأي :
- لماذا تأخرت ؟
قال فياض وهو لايزال يتمعن في الخواجة منذ أن جلس :
- كنت أنتهي من الماضي .
كتم المختار ضحكة ساخرة . واعتدل الخواجة في جلسته أكثر اهتماماً :
- وهل انتهيت ؟
- نعم .
باترة وحارة جاءت الكلمة . واثر صمت قصير قال الخواجة بود :
- تستطيع أن تحكي لي إذن . يجب أن تحكي . يجب أن أعرف الحقيقة منك . انني أصدقك .

رن صوت فياض مثيراً في نفس الخواجة التشوّف والعجب والتعاطف . بدا له فياض شاباً آخر ، غير الذين يعرفهم في قراه . كلماته تنم عن الصدق والشجاعة والفجيعة ، مثلما تنم عن الخبرة والحقد . فكر الخواجة وهو يصغي إلى فياض في أن يأخذ بيده ، مرجحاً أن يكون لمن هو مثله شأن ، فليكن الخواجة ثابت لاسواه إذن صاحب هذا الشأن . ليأمره بالبقاء الآن الى جانبه ، يتفحصه ملياً حتى الغداء ، ويقدر فيما إنْ كان سيطلب اليه أن يساعد المختار ، أو ينصرف الى فلاحته ، ريثما يسوّي له أمره مع الشيخ مجلاد أو مع الجيش . ولم يكن فياض بحاجة إلا الى بعض ذلك ، كيما ينفلش شكراً وسعادة وعهداً على العمل والإخلاص .

★★★

4

جلّ الذين يعرفون عمر التكلي عن قرب ، فكروا ، قبل دخول الفرنسيين وبعده ، فيما يطرأ لهذا الشاب بين يوم وتاليه ، أو بين غيبة وأخرى . إنه يغافل ويطلع بطريفه ، ربما بين غمضة عين وأختها . من الحرزة الى المريجانة ، من الميدان الى ساروجة ، من الست زهرة إلى بيت صليحة ، من سليم أفندي إلى طه اليتيم أو بنت قطيش ، ولن يكون عما قليل بعيداً عن ذلك شأن العال أو عين فيت أو البطيحة ، ولا راغب الناصح أو قاسم السعد أو أبو جميل الشاويش أو الأمير جهجاه نفسه .

من واحد إلى واحد ـ أو واحدة ـ ومن مكان إلى آخر ، بات لعمر التكلي حضوره وجديده . وقد يكون ذلك في الشاربين اللذين نحلا ، حتى أشبها خطاً رفيعاً أسود فوق شفتيه ، أو قد يكون في رطانته الجريئة الواثقة والمضحكة : تارة بالفرنسية وتارة بالبدوية . قد يكون ذلك أيضاً في ومضة العين وماتخفي ، أو في رنة الصوت ، أو في لون البذلة الفرنجية الفاقع ، أو في الشال المقلم الذي يتلفح به ، وأخيراً : فقد يباغت عمر كل مرة بأصناف الطعام أو الشراب أو الأرقام أو الأحلام .

واذا كان بعضهم قد انشغلوا عن عمر بعد دخول الفرنسيين بشاغلٍ ما ، فقد ظل الكثيرون أيضاً من أولاء أو ممن هم أبعد عنه ، ينشغلون به ، خاصة بعد أن بدا كأن الشام قد نسيت في بعض أركانها ماكان لها بالأمس القريب من ملك أو استقلال ، أو بعد أن بدا في بعض أركانها كأن فرنسا موجودة دوماً ، قبل الملك وقبل الأتراك أيضاً .

كان عمر في البداية متيقظاً لهذا الذي تتهامس به عيون بعضهم وآذانهم من حوله . كما كان متيقظاً لما يعلنه بعضهم في وجهه ، زلفى أو سخطاً . الا أن ذلك يبدو الآن له ذكرى بعيدة ، لايهم إنْ تحددت في عودته الأولى من أضنة أم في ممارسته الأولى للسلطة على الحرزة ، أم في سواهما مما ملأ حياته ، ويروق له فقط أن يصفر عجباً من هوله ، ومن النجاح المبرز فيه ، ثم يرميه وراء ويمضي .

لقد ترك سواه إذن ينشغل به ، أما هو فقد انشغل ـ حتى عن نفسه ـ بما دفقت به الدنيا من أعمال أو مال أو علاقات . وكان أدنى نجاح يحققه كافياً دوماً كي يؤجج حماسته ، ويشحذ همته ، كما كان كل فشل واجهه ـ وقد ندر ذلك ، وجاء هيناً دوماً ـ حافزاً أكبر ودرساً أثمن .

في الطريق بشّره سليم أفندي بما ينتظره في بيت الباشا . إلا أن النبأ العظيم ضاع في غمرة ماأفاض به المبشّر من نصائح وتوجيهات وتحذيرات ، لم تلبث أن اختلطت في صدر عمر بما يشغل سليم أفندي من أمر فرنسا والثورات المندلعة في الساحل وفي الشمال ، وقد ساءه بخاصة أن سليم أفندي لم يكن يكرر خشيته من أن يعجز عمر عن أن يحمل ثلاث جبسات في يد واحدة : الحرزة ، والدكان ، وما للمرحوم أمير الحج في الجولان .

أحسّ وهو يقترب من بيت الباشا بالرثاء لسليم أفندي . بدا له معلّمه منهكاً ، مشوشاً ، ولم يستطع أن ينسى ذلك وهو يتقرى صوت الباشا الرخيم .

ملأ الباشا جوانحه ـ وهو يعهد إليه بالمهمة الجديدة والأمانة الكبيرة ـ بالثقة والطمأنينة . وفي تلك الليلة قلب أفكاراً عديدة ، وهو يهدهد فرحته .

لقد غادر بيت الباشا متأخراً ، تاركاً سليم أفندي عنده . وما إنْ انتهى إلى المرجة حتى تلوت أمعاؤه ، فاستغفر الله عن الأيمان التي أقسمها لتوه ، وهو يتعفف عن مشاركة الباشا وسليم أفندي في العشاء ، ويدعي أنه ليس جائعاً . تجاوز المرجة الى الرجواني الذي لم يقصده منذ فترة طويلة . كانت الحلة النحاسية الضخمة تنشر أبخرتها الغاوية أمام المطعم ، والبريموس الضخم يعرّ تحتها . أكبر في الرجواني أنه حدّث أدواته بعد دخول الفرنسيين ، فأتى بهذا البريموس ، ولم يعد دخان الحطب تحت الحلة يملأ الزقاق ، كما لم يعد الزبائن يشكون من قلة الملاعق ، ولا الرجواني نفسه يشكو من قلة الأولاد في مطعمه . ولسبب ما صار الرجواني سخياً ، يعنى بالقبوه ، ولايبخل بما يحشوها به من الأرز ، ولايبخل على الأرز بالتوابل التي تستهوي عمر ، أو صارت تستهويه ، وتجعل لسانه يدور في أصنافها وروائحها ومذاقاتها .

على الرغم من ذلك انقطع عمر عن زياراته الليلية المتأخرة للرجواني . ليس فقط لأنه لم يعد له في الأسابيع الأخيرة من الوقت مايضيعه ، بل لأنه ألف سريعاً أن يتناول العشاء على نحو آخر ، في غرفته أو عند بيت قطيش أو مع أصحابه الجدد ، في مكان ما ، أكثر نظافة وأقل صخباً من الرجواني .

بيد أنه دخل تلك الليلة إلى المطعم ملهوفاً ، سعيداً بعتاب الرجواني ، يفيض في الاعتذار ، ويذكر الباشا شكيم وأملاك حميه المرحوم . وفي انتظاره لطبقه فطن الى أن الرجواني كان أول من نقل إليه ذلك النبأ العظيم ، فامتعض وندم ، ثم أنساه الطبق ذلك ، وأقبل على الطعام ضاحكاً ، مزدهياً بمهمته الجديدة ، ولعل ذلك لم يفت الرجواني الذي زمّ شفتيه ، ثم قهقه ، وعاود صياحه على الأولاد ، وهو يدعو لعمر :

ـ الله يزيدك ياابني ، حتى لو نسيت عمك الرجواني .

وكأنما أدرك الأولاد سر دعاء معلمهم ، فصاروا يتسابقون الى تنظيف اللوح الخشبي الطويل ، قريباً من عمر وبعيداً عنه ، أمامه وأمام الزبن الآخرين ، وكانت تتكوم تحت اللوح ، فوق الأقدام وحولها ، حبات الأرز وقطع الخبز وبقايا بقع المرق . أما عمر فقد سها عمن حوله ، وراح يعالج القبوة والمقادم بإتقان ، وريقه يتحلب ، دون أن يدع حبة رز تفلت ، ودون أن يشرق من الطاسة مباشرة بين لقمة وأخرى ، فتراجع الأولاد يسترقون النظر إليه ، ويلاحقون صياح معلمهم الذي لم ييأس من أن يعبث عمر بالمقادم بيديه ، كما يفعل الزبن جميعاً ، حتى فرغ الطبق ، فسكت ينتظر أن يسمع صوت جشأة عمر ، كما يفعل الزبن جميعاً ، لكن عمر نهض يطلب الى أحد الأولاد أن يصب الماء على يديه النظيفتين ، ولم يتجشأ .

خففت عليه العودة مشياً الى غرفته من ثقل العشاء . وجعل النسيم صدره أكثر انشراحاً . حنّ إلى طه اليتيم ، لكنه عفّ عن العبور بأي من أصدقائه ، مؤثراً أن يحتفظ لنفسه الليلة بالنبأ العظيم . أحكم إغلاق الغرفة كما تعود ، منذ خبأ فيها الذهب ، ورمى بثيابه ، ثم تمدد لأول مرة بقميصه وسرواله النظيفين الأبيضين ، سعيداً بحرصه الطارىء على أن يستحم أضعاف ما كان يفعل فيما مضى . أحسّ أن الغرفة قد عادت تضيق به ، شأنها منذ شهور ، وأزعجه أنها سوف تضيق أكثر من الآن فصاعداً . تقلب يفكر في أن عليه أن يبحث عن مسكن آخر أرحب ، وأنظف أيضاً ، فإنْ لم يتوفر له استئجار غرفة أو غرفتين كذلك ، فسوف يكون عليه أن يشتري بيتاً بكامله . استحسن الفكرة ورأى أن على سليم أفندي أن يعينه إذا لم يكن مايدخره كافياً . بل إن على الباشا شكيم أن يعينه الآن ، ومن يدري ، فقد يجود هو أو الست زهرة ببيت من بابه الى محرابه . تقلب يلوم نفسه على أنها ليست صبورة أحياناً ، يتخيل وقع النبأ العظيم على بنت قطيش ، على الحرزة ، على أصحاب الدكاكين المجاورة لدكان سليم أفندي ، أو

من أعماله الأخرى من يسوسهم عمر ، وعزم على ألاّ يظهر أمام أحد سعادته ، فليس عمر التكلي من تدير رأسه مثل هذه النعمة . عمر التكلي أكبر من هذه النعمة ، وينبغي أن يتيقن من ذلك من لايزال يرتاب .

★★★

سرعان ما انطلق مشحوناً بقراراته : عليه أن يختار أولاً من يعهد إليه ببعض مايحمل هو من أعباء سليم أفندي ، خاصة الدكان . لن يدع سليم فندي يختار من سيقوم بذلك . عمر نفسه من سيفعل هذه المرة ، كي لاتتكرر حكاية عبد الودود السعد .

راز عمر من حوله ولم يتأخر أو يتردد في اختيار طه اليتيم . إنه أقرب الصحب إليه ، وهذا ضروري وإنْ كان لايكفي . طه محتاج إلى من يرفعه ويحركه ، كما قدر عمر ، وطه شجاع وقوي ، ولابد أنه كالخاتم في الإصبع لمن يعرف كيف يسوسه . ولعل طه ـ كما فكر عمر ـ أن يكون بالنسبة إليه ذات يوم بعيد أو غير بعيد ، كما كان هو بالنسبة إلى سليم أفندي .

قراره الثاني كان أن يزور المريجانة . سوف يدخلها لأول مرة بعد ماشاع أنه هو من فضح أخواله ، وتسبب في هجرتهم وسواهم . ومن المريجانه سوف يعود إلى الحرزة . لايهم أن يصلها متأخراً . فقد تعود وتعودت على ذلك . على الحرزة كما المريجانه أن ترى عمر التكلي في هيئته الجديدة . في آخر ما جد لهيئته حتى الآن ، ومن بعد سوف يسافر إلى الجولان .

ها هنا ، كان ثمة ما لم يحسمه بعد . فقد فكر في أن زيارة للباشا قبل أن يتوجه إلى الجولان سوف تكون نافعة . فالباشا لم يحدثه بأية تفاصيل في تلك الليلة . ومن الأفضل ألا يبدو جاهلاً أمام الفلاحين في أملاك المرحوم أمير الحج . ولكن قد يكون ما لدى الباشا يسير ، وهو الذي لايأبه بالحرزة ، فكيف بما لحميه ؟ بل إن عمر قد لايتمكن من الاختلاء بالباشا قبل أيام . وهو راغب في أن لايؤخر زيارته الأولى للجولان . لماذا لايحاول إذاً أن يجتمع بالست زهرة ؟ بل أليس الاجتماع ضرورياً ، حتى إنْ كان الباشا حاضراً ؟ أليس على الست زهرة ـ كما لها ـ أن تكون عالمة بأمور ما ورثت ؟ أما عمر فسوف يكون عليه أن يلقاها دوماً من بعد ، مادام المشرف على إرثها .

على أن إدراكه لذلك إذا كان قد أغبطه ، فهو أيضاً ماجعله يضطرب في هذا القرار . ولكن الأمور جرت أيسر مما أعدَّ لها ، من المَريجانة والحرزة ، إلى جواب الباشا وهو يغادر بيته ، وعمر واقف على الباب يسأل عما إنْ كان بوسع الباشا أن يمنحه بعض وقته ، قبل أن يتوجه إلى الجولان :

ـ لماذا اخترتك إذاً ؟عليك أن تريحني هناك أكثر من الحرزة .

قال الباشا ، وأردف فيما عمر على وشك أن يستأذن بلقاء الست زهرة :

ـ وإذا كانت ثمة ضرورة ، فيمكنك أن تتحدث مع الست . أليست الأولى برزقها ؟

وخرج ضاحكاً وجليلاً .

جاء لقاء الست زهرة أقلّ حرارةً مما ينتظر في البداية . إلا أن عمر بلسانه الزرب استطاع أن يجعلها أكثر اهتماماً . استطاع أن يضحكها أكثر من مرة ، وبدا له وهو يودعها أنها أقرب إليه من الباشا .

★★★

كان يميل إلى أن تكون فترة غيابه في الجولان قصيرة ، وعلى ذلك رتّب أموره في الشام ، إلا أن الجولة امتدت عشرة أيام ، ولم تكن حاجة المهمة المحددة الأولى وحدها قد تطلبت ذلك .

من قرية إلى قرية تفاقمت رغبته في التنقل ، ومن مختار إلى جمّال إلى مزرعة إلى خيمة ، فأملاك الأمير المرحوم شاسعة : عشرون من المزارع ، سهل البطيحة يكاد أن يكون كله مما أورث المرحوم للست زهرة ، أراضي فيق لاتكاد تفلت منها قطعة ذات شأن من الإرث العظيم . وقد انشغل عمر طويلاً في لياليه الأولى بالمقارنة بين ضآلة ما للباشا ، ولكل من عرف من الملاكين أو سمع بهم ، قياساً بما للمرحوم الأمير .

كان يتأمل تفرعات النهر ، الخصوص والأكواخ ، البيوت الطينية النزرة ، ويهمهم :

ـ سوف أجعل من هذا السهل غوطة ثانية . حرزة جديدة سوف أخلق هنا . مريجانة جديدة . سوف أجعل الناس يقولون : غوطة التكلي ، بل غوطة ابن التكلي ، غوطة عمر التكلي .

بهت الفلاحون لهذا الشاب الذي آلت إليه أمورهم . كانوا يتوقعون أن يزورهم بعد وفاة الأمير رجل آخر غير ابن التكلي ، رجل مسنّ ، لايرتدي الثياب الافرنجية ، لايحلق ذقنه كل يومين أو ثلاثة ، لايحمل موسى خاصة بذلك ، ولايتأفف لأنه غير قادر على أن يذهب الى الحلاق . كانوا ينتظرون رجلاً أقلّ عجلة في أمره ، أكثر قسوة وحزماً ، وأقلّ تدخلاً في تفاصيل عملهم وحياتهم . وربما أزعجهم أن هذا الشاب بدا منذ ساعته الأولى أوفر خبرة بكثير مما يفترض بمن هو في مثل سنّه . وإذْ تهامس بعضهم مخففاً من شأن ممثل الست زهرة ـ الشبان بخاصة ـ في أعقاب انفضاض سهراتهم معه ، انبرى عدد من المسنين المجربين :

ـ لاتغتروا . .

وراحوا يجزمون أن هذا الشاب الذي يدهن شاربيه بالقوزماتيك داهية ، قد تكون فيق والبطيحة والجولان كلها لم تعرف مثله من قبل .

في خلواته القصيرة كان يتأمل ما انقضى بين الواحدة منها وتاليتها ، يتذكر أسماء من قدموا مسلّمين ، حدود المساحات ، أسماء القرى والمزارع والوديان . . . وكان يغبطه ، خلوة بعد أخرى ، أنه يتذكر جيداً أو سريعاً . حتى من صادف في الأزقة أو الحقول من النساء ، كان قادراً على أن يتذكر العديد منها . كان يدع أحياناً الحديث في جلساته مع الفلاحين يتوه على شفاههم : من ذكريات الحرب الموجعة ، إلى آخر الزيجات ، إلى القوافل الذاهبة الآتية من هنا إلى صفد أو الناصرة أو النبطية أو الشام ، ثم يختار اللحظة التي يقدر أنها أفضل لتدخله في الحديث ، ويتولاه . إنها دنيا جديدة تقتضي منه ألاّ يفوت كلمة أو نأمة . إنها دنياه المقبلة التي سوف يعيش ، وحده ، بلا سليم أفندي ، بلا الذيول العالقة دوماً من ماضٍ ما ، في الحرزة أو الدكان . سوف يعيش هذه الدنيا على نحوٍ ما بدون الباشا شكيم أيضاً . أما الست زهرة ، فهي وحدها يمكن أن تشاركه هذا العيش ، إنْ شاءت .

هكذا كان قد قرر قبل أن يغادر أملاك المرحوم . ولأجل ذلك قرر أن يضبط عمل الجمّالة ، أن يتدخل في حمولاتهم وفي علاقاتهم . ولم يفته وجوم بعضهم وهو يشير إلى ذلك . كما قرر عمر أن يجيء لزيارة غير بعيدة إلى صفد والناصرة ، وأن يتعرف على خانات جديدة في الشام ، فمن جملة هذا ، وسواه مما هو أقلّ وضوحاً ، وإنْ كان قائماً بالتأكيد ، سوف تنطلق أشغاله المستقلة .

في طبريا تضاعفت قناعته بهذا الذي يتلمسه . كان قد توجه إلى هناك بدافع الحرص على الإحاطة برقعة ولايته وحسب ، إلا أن طبريا استهوته : البحيرة الفسيحة الزاخرة بالسمك ، أغمار البنفسج والأقحوان وشقائق النعمان على ضفاف البحيرة ، الصيادون المسلمون الأكثر بؤساً من فلاحي ولايته . اليهود الكثيرون الذين دارت عيناه في وجوه نسائهم ، بحثاً عمن تشبه سارة أو صليحة أو سواهما ممن عرف من المغنيات اليهوديات في الشام ، الديوان الذي حلّ فيه ضيفاً ، ورأى كيف يتقاطر الجميع عليه ، مسلمين كانوا أم مسيحيّين أم يهوداً ، الحمامات التي آثر أن يتوجه إليها مشياً ، والمياه الحارة برائحتها اللاذعة التي لم يلبث أن ألفها ، وفي خلوته بنفسه في حمام سليمان ، حيث راح يتأمل أعمدة البناء والقبة التي تظلل البركة ، فكر فيما سمعه في الديوان عن سمك المشط الذي يباع في شتى أنحاء فلسطين ، ويدرّ ذهباً ، ولاينبغي لعمر التكلي أن يفوته ذلك .كما لاينبغي أن يفوته المركب الذي لم يجب البحيرة منذ حين ، حائراً في أية حكومة يتبع .

على الضفة الشرقية الشمالية للبحيرة ، وعبر سهل البطيحة أخذ عمر بلون وجوه النساء . لم يكن قد رأى من قبل نساء بمثل هذه السمرة الداكنة . سمرة هي أقرب إلى السواد ، بلون بعض الليالي العالقة بالقلب من الحرزة أو الشام ، بعد أن انقطعت عنها الكهرباء سنة بطولها ، قبل أن تتوقف الحرب . كان هذا اللون قد طالعه منذ أول كوخ من أكواخ هؤلاء الذين لجؤوا يوماً إلى أمير الحج ، محتمين به من زلم السلطان ومن البدو ، فحماهم ، ثم ضمّ أراضيهم إلى أملاكه .

لم يفجؤه اللون في وجوه الرجال والأطفال ، فقد سبق له أن صادفه في الشام مراراً . إلا أنه لم يسبق له أن رأى امرأة من قبل لها ذلك اللون . ولعل هذا ماجعله يبالغ أحياناً في التدقيق فيمن يصادف ، خاصة حين تقترب منه أو تقع عينه على حركة يد أو شفة أو عين ، ويضيىء ذلك اللون الكامد .

من طبريا يمّم إلى الحولة مدارياً الرجفة التي اجتاحته وهو يتأمل قلعة الحصن . غشيت عيناه بالمعنى العميق الجائح للرسوخ والعظمة . وقد يكون ناوشه مثل ذلك في سفرته إلى حلب وأضنة أمام المسافات الهائلة أو أمام بعض الأسوار والجدران العتيقة ، قد يكون ناوشه أيضاً أمام بحيرة طبريا ، لكنه لم يرتجف إلا أمام تلك القلعة المقبلة على الحولة ، تطغى على المكان والنفس بالبهاء والبقاء . ولعله لذلك لم يجرؤ أن يطيل المكث

حول البحيرة كلها ، حيث راعه أيضاً صبيب نهر بانياس فيها ، كما لون التراب الذي أخذ يفقد سمرته كلما أمعن شمالاً ، حيث غلب اللون الكستنائي البديع .

★★★

في إيابه تعرج به الطريق بفضل من اختار أخيراً لمرافقته ، وخاصة ذلك الشاب الذي علم عمر أنه قد نشأ وأخوته في الشام ، قبل أن يتوفى أبوه ، وأن أمه كانت تعمل مربية ـ وربما خادمة ـ في بيت الباشا شكيم .

على شاطىء طبريا ألفته نور الدين بفتوته وسباحته الماهرة . كان الشاب يغطس عميقاً ليخرج ملوحاً بسمكة بين يديه ، ثم يقذفها إلى الأولاد الصغار ، فيهزجون ويضحك الجميع ، ويصلي بعضهم على سيدنا محمد .

من البحيرة إلى حمام سليمان كان الشاب يقترب من عمر ، كأنما يستجدي حاجة . وقد استرق عمر من الشاب نظرات سابرة ، وخمن أن له ما يخصّه ، ليس في السباحة والفتوة وحسب ، فنادى عليه ، وقبل أن يصل الجمع إلى الحمام ، كان عمر قد عرف أن أم نور الدين وزوجها هاجرا إثر عرسهما ، مدفوعين بسطوة البدو . وفيما بعد اتصل الزوج بأمير الحج ـ ونور الدين لايعرف كيف ـ واتصلت أم نور الدين ببنات الأمير ، وعملت في بيوت بعضهن بعد زواجهن ، ثم استأثرت بها الست زهرة .

لكن عمر تجاهل ذلك وراح يفكر فيما يمكن له أن يربي هو هذا الشاب عليه ، ليكون في عداد من سيعول عليهم في ولايته العتيدة . ومنذ يمم شمالاً أخذ الشاب يبرهن على كفاءة أعلى ، لكأنه ابن الأربعين ، على الأقل في معرفته لكل شبر ، اتخذ عمر القرار في سره ، مؤملاً أن يجد لدى خديجة عن أم نور الدين وأسرتها بعض ماينفع قراره .

كان نور الدين يحمرّ ويتطامن حين تدعوه ملاحظة ما من عمر ليتحدث عن نفسه . كان يتأتىء وهو يؤكد أنه لم يحب الشام ، على العكس من أمه ومن أبيه . تذكر البيت الذي يطلّ على بساتين كيوان في نهاية المهاجرين . تذكر الكتّاب الذي ختم فيه ربع يسين ، وتعلم الكتابة والعمليات الحسابية الأربع . لقد غادر نور الدين الشام مبكراً ، بعيد مغادرته للكتّاب ، ليقيم لدى أعمامه ، ويجوب هذه الأنحاء ، حتى عرنه . وكان أبوه قد أخذ يردف أولاده إلى أعمامهم بعد نشوب الحرب ووقوعه في ذلك المرض المبهم ، حتى لم يبق لأم نور الدين أحد في الشام ، فلما توفي الوالد ، لحقت الأرملة

بأبنائها ، تحمل من أمير الحج ومن صهره وابنته الوصايا بها وبأبنائها إلى من كان قبل عمر ، ووافاه الأجل أثناء مرض الأمير المرحوم .

نور الدين هو الذي اقترح على عمر أن يلوي طريقه إلى بئر عجم ، حيث الشوارب التي يقال إن الصقر يقف عليها ، فلا تهتز فيها شعرة . وقبل ذلك كان نور الدين هو من أوحى لعمر بالتريث في العال ، حيث عرف أن خان تادروس اليهودي يستأثر بما تنقله العال إلى صفد ، كما عرف بيت الناصح الذين يسوس ابنهم مخفر عين فيت .

ماكان نور الدين يقصّر فيه أحياناً ، كان المرافقان الشابان الآخران يعوضانه . وإذا كانا يتدافعان في الكلام ، حتى اضطر عمر مراراً إلى نهرهما ، فقد كان نور الدين يصمت حين يتحدث أحدهما ، متأدباً ، ومستزيداً . ولقد زاد ذلك وما أشبه من التفاصيل في إيثار عمر له .

كان الشابان أدرى بشؤون البدو . ولقد أمسكا بالزمام منذ عين فيت ، حيث التقى عمر براغب الناصح ، وسخر من ادعاء ذويه في العال . فالشاويش أبو جميل هو الذي يمسك بالمخفر . وراغب الناصح مثله مثل رجال المخفر الآخرين ، وإنْ كان نائباً للشاويش . ويبدو أن راغب قد تهامس مع نور الدين مستفسراً عمن يكون هذا الشاب ، فشرع نور الدين يجيب بإكبار وأناة ، لكن راغب قاطعه :

ـ ما اسمه ؟

ـ عمر التكلي .

فاقبل راغب عليه بحرارة ، إلا أن ظلاً من الامتعاض عبر بعمر ، إذ لاح له أن مايفعله راغب قد يكون فقط كرمى لهولو .

قطع راغب وأبو جميل وقاسم جولة عمر ، إذ أصروا على أن يسهر معهم في بيت السعد ، ولكن منادياً من الخيام نادى على الشاويش ذلك المساء ، ولم يفت ارتباكه المنادي النبيه ، ولا مرافقي عمر الأدرى بالبدو ، فعلا هرج الثلاثة هنيهة ، ليهدأ على توجّه الجميع إلى مضافة الأمير جهجاه .

نحر ابن الأمير خروفين للضيوف ، واحد لعمر التكلي ، وواحد للآخرين . وعلى الرغم من أن عمر تقلقل في البداية متضايقاً من حديث ابن الأمير والشاويش في رسم الأغنام ، إلا أن اهتمام الجميع به أبهجه ، وسرعان ماتألق أمام هؤلاء الذين أفادوه فيما يهيء له من حيث يدرون ، أولا يدرون ، من الأمير الغائب في الشام ، إلى ابنه الذي

يسيل لعابه لما تغمز به كلمات عمر عن لقاءاتها القادمة ، إلى راغب الناصح الذي يؤجر جمل الحكومة ، إلى قاسم السعد وذويه العريقين في أمر القوافل . أما أبو جميل فقد دعا عمراً إلى زيارة حضر وبيت جن وعرنة ، وجعلت الدعوة عمراً يتوعد ذلك الشمال الجبلي أن يكون أيضاً ضمن ولايته الجديدة ، كما جعلته دعوة هزاع نصر يتوعد ذلك الشطر القصي من الجنوب ، حيث لأمير الحج المرحوم أملاك أيضاً ، كما عددت الست زهرة ، وهو غير آبه ، مادام مافيه يكفيه ، ومادام أحد لم يطلب إليه أن يهتم .

بعيد العشاء قفلوا إلى عين فيت ، سوى عمر ومرافقيه ، إذ أصرَّ ابن الأمير على مبيتهم في ضيافته . وفي الضحى تابع عمر إلى بانياس ، وفي إيابه منها عرج على المخفر الذي كان في انتظاره . وفي الطريق إلى الشام كانت تطوف بجفنيه الصورة الأخيرة لبساتين بانياس وخضرتها الكامدة وتقطيعات أرضها ونهرها الدافق وقلعة الصبية القريبة التي أشاح عنها ، وهو يفكر في أن القلاع ليستْ واحدة ، كما أن الانسان الواحد ليس هو هو ، في كل حال . وإذ نفض عن جفنيه بقايا بانياس دومت في أذنيه أسئلة راغب عمّا رأى من الشركس ، وعن مختار بيت عجم ، وهز رأسه مشككاً في النظرات التي تبادلها راغب والشاويش ، وحاول أن يتذكر ماتناثر من قاسم السعد وراغب عن سطوة الأمراء والبدو عامة ، وتطفيرهم لعشرات الشبان من عين فيت إلى أمريكا . وتحرك حاجباه دهشة من أن يصل أحد من هذه القرية الفقيرة النكرة ـ رغم المخفر ـ إلى تلك البلاد البعيدة ، وكان نور الدين يتبعه وحده ، إذ صرف المرافقين الآخرين ، وآثر ـ لسبب ما ـ أن يحتفظ بنور الدين حتى الشام .

★★★

بدا عمر لسليم أفندي اثر تلك الغيبة في الجولان مليئاً بالأسرار ، وفكر طويلاً في أن هذا العصفور الضئيل المسكين الذي رعاه حتى نبت ريشه ، صار يملص الآن ، ويجرب أن يطير وحده . وقد أقلق ذلك سليم أفندي ، وحرك ندمه على إفلاته لعبد الودود ، وعلى استجابته للباشا شكيم وموافقته منذ البداية على أن يعهد بالحرزة لعمر ، فكيف بإرث الأمير المرحوم !

لم يوفر حيلة في سبر أغوار ذلك العصفور الذي انقلب طائراً غريباً ، فدعاه إلى بيته مراراً ، أطال جلساتها ، شدد على أم علاء كي تكثر من ورق العنب الذي يسيل له

لعاب عمر ، وتفننت أم علاء في طهو الرز المبلل بالسمن والمتوج بالدجاجة المحشوة . وكان عمر يجفل من هذا الاهتمام المبالغ المباغت ، كما كان يجفله إهمال سليم أفندي له فجأة وبفجاجة ، كأن يدعه يأكل وحده ، أو يلهو عنه ، أو يلزم الصمت . وعلى أية حال ، فقد وجد سليم أفندي نفسه بعد أسابيع أكبر جهلاً بصبيه المدلل الذي كانه عمر التكلي .

صار عمر يزور الباشا شكيم ، يذهب إلى الحرزة ، وربما إلى الجولان ، وسليم أفندي آخر من يعلم . ولئن كانت أحوال الدكان لم تتأثر رغم ذلك ، فعمر يحكم الأمور جميعاً ، إلا أن قلق سليم أفندي تفاقم ، خاصة أن ذلك قد ترافق مع تعقيدات جمة طارئة ، من خديجة التكلي ، إلى ذلك الذي أنابه عمر عنه في الدكان : طه اليتيم ، إلى الشام في لبوسها الفرنسي .

خطوة عمر الحاسمة في هذه الأثناء كانت اثر لقائه الخاطف بالست زهرة . كانت الست على وشك الخروج حين وصل ، والسائق ينتظرها أمام الباب ، ولم يك الباشا في البيت .

بدت له الست زهرة أوفر عافية ، وأزهى صباً ، ولعل عينيه نوهتا بذلك ـ وربما لسانه ـ فضحكت متعالية أو شاكرة أو مستزيدة ـ إذ تهيأ له ذلك كله منها ـ وتقدمته إلى تحت الصفصافة ، وأمرت الخادمة بإحضار كرسي وإعداد الشاي ، ثم سألت بصوت جديد :

ـ ماوراءك ؟

دفعة واحدة رمى بين يديها بما كان قد انتهى اليه : لابد من أن يتردد بانتظام ، ليس إلى أملاك المرحوم فحسب ، بل إلى المنطقة كلها . ثمة كنز مهدور ، فإذا كانت لاتريد أن تدعه كذلك ، فلتطلق يده .

قالت بصوت آخر ، أقلّ حزماً ، وأكبر سطوة :

ـ تصرّف .

انطلق يشرح كيف أن على الست إذن أن تعينه كي يستغني عن عمله لدى سليم أفندي . ولقد بدأ هو يمهد لذلك . أما في الجولان فسوف ينظم قافلتين للعمل بين الشام وفلسطين . واحدة تتمركز في عين فيت ويتولاها بيت السعد ، وواحدة في العال ويتولاها بيت الناصح . وقد أعدّ لحدود الانكليز والفرنسيين عدتها . ليست غايته أن يؤجر القافلة لفلان أو علان من التجار ، بل أن يمسك بالخيوط الجديدة من أولها إلى آخرها . غلال

ماورثت الست سوف يربطها بنفسه في الشام وفي فلسطين . وفيها بين خانات البلدين سوف ينسج خيوطه الأخرى . هكذا تخدم القافلتان في أملاك الأمير المرحوم ، وفيها ينبغي أن يعاد تشغيله من إيراداتها في التجارة ، وتلك تفاصيل لاشأن للست زهرة بها .

كان يتدفق حالماً وواثقاً ، وحازماً أيضاً ، لكأنما يملي شروطاً أو يفرض عقداً . وحين كررت عبارتها بصوتها الرقيق الأليف :

ـ تصرّف .

صحا مما به ، وتراجع ينوء بالسعادة ، كأنه يرى سيدة عهده الجديد لأول مرة ، وكانت تدعوه إلى أن يتناول الشاي الذي كاد يبرد ، فتنهد طويلاً قبل أن يرشف ، ثم قال بأناة وخفوت :

ـ لاتنسي أنه يجب أن يكون تحت تصرفي بعض المال ، كما يجب أن نلتقي بين وقت وآخر . هل تحدثين الباشا بذلك ؟

نهضت ضاحكة :

ـ لاعليك . كم تحتاج الآن ؟

رمى لسانه رقماً ما ، وتراجع هو صامتاً يتأمل ما بات صريحاً مثل عين الشمس : إنه امتياز عمر التكلي . وفكر في أن عليه ألاّ يغفل عما لهذا الامتياز من أصول ، بل في أن يؤصل له بنفسه ، ولذلك نسي الرقم ، وعزم على الاكتفاء بزيارة اسبوعية ، يحسن أن تكون في حضرة الباشا ، بل يحسن أن تكون في غيابه ، ونهض رشيقاً ، وصوت الست يستبقيه .

★★★

قبيل العشاء فوجىء بطه اليتيم يلحّ على الانفراد به ثم يهمس :

ـ سليم أفندي على غير عادته ينوي أن يقلب المزاح إلى جد .

قال عمر برماً :

ـ بلا لف ودوران . فيه جديد ؟

ـ أراه يلعب بالكلام أمامي ؟

ـ مثلاً ؟

ـ سارة . يسألني عن اليهودية . هكذا يسميها .

ـ أعرف . ماذا يريد منها ؟

ـ ماذا يريد منك ، لا منها .
ـ وغيره ؟
ـ أراه يحاول أن يضبّني في حرجه .
ـ وما الغريب ؟
ـ أنت تسأل ؟ تكون بدلت رأيك ونويت أن تنقعني عنده ؟
ـ يا جحش : كم مرة قلت لك ؟ اشتغل هناك كأنّك باق عنده حتى تموت . اشتغل مثلما كنت أشتغل وأكثر ، ولو كنت ستنتقل إلى عندي ثاني يوم .
ـ أخاف أن تكون شطارتك هذه المرة مع سليم أفندي .
قال طه اليتيم وهو يلعب بأصابعه وبشفتيه ، مهوّناً ، فقاطعه عمر :
ـ لاتخف . أنت عليك أن تستريح ، وتترك غيرك يستريح . حتى إذا كان سليم أفندي يلعب على غير عادته ، فأنا لاألعب مثله ولا مثل ابن امرأة . متى ستفهم ؟ الرجل حتى آخر يوم ، بل حتى هذا اليوم ، ما كان إلا كريماً وشريفاً ، وأنت شيطانك لايهدأ .
ـ الحق عليّ . أنا قلبي عليك .
قال طه وهو يغادر غرفة عمر متضايقاً من ضيق صاحبه به وتعجله لانصرافه ، فموعد السهرة مع سارة قد أزف ، ولم يعد عمر يصطحبه كل مرة إلى سهراته .

كان عمر سعيداً ومطمئناً لكل خطوة يخطوها ، زاهداً بما بدا انتصاراً له في معركة صامتة مع سليم أفندي ، لعلها بدأت منذ عاد من الجولان ، أو أسفرت قبل أن يدفع سليم أفندي ماهو مثبت في دفاتره من حقوق عمر ، فضلاً عن مكافأة مجزية . ولكن الأمور جميعاً سارت في مسار آخر ، منذ شرع يلوح بالمشروعات التجارية المقبلة التي يمكن له ولسليم أفندي أن يتعاونا فيها ، وأنّى لطه اليتيم أن يفطن إلى ذلك أو يفقهه ، كما هجس عمر مشفقاً وهو يشيعه !

سنة بعد أخرى كان طه قد غدا أقرب أصدقاء عمر إليه . كانت تجمعهما دوماً ، وتباعد بينهما ، مصادفات السوق والمقاهي والحمامات والشكارات والمقامرات الصغيرة . ومنذ وفاة الحاج كثر تردد طه على الدكان وعلى غرفة عمر ، كما كثرت مرافقة عمر لطه بين يوم جمعة وآخر إلى سرغايا ، إذْ يبكران مغالبين اثر سهرة الخميس الصاخبة ، ولايلبثان أن ينشطا وهما يشرعان صدريهما لنسائم الوادي الصباحية ، ثم يتواصل بهما الكلام ، محطة بعد محطة ، ولاينقطع ضحكهما طوال النهار .

مال عمر التكلي إلى هذا الشاب الذي قد يصغره أو يكبره بسنة أو سنتين ، والذي قد يكون تزوج ليلة بلوغه ، إذ أن له ثلاثة أولاد ، أكبرهم في الخامسة ، وربما ضاعف ميل عمر أن هذا الشاب قد صلب عوده مبكراً ووحيداً ، إذْ صحا ، وهو الذي لايعرف كيف يحلق ذقنه ، على أسرته وأقاربه جميعاً ، رجالاً ونساء ، يرحلون بعيداً ، إلى ديار بكر ، بأمر من جمال باشا نفسه . لقد أخفى الإمام ذلك الفتى ، وما إنْ غادر العساكر الأتراك ، حتى نهره معنفاً على دموعه وخوفه ، وأمره أن يتزوج ابنته الوحيدة التي بلغت مبلغ النساء ، وإنْ يك صوتها يموء كقطّة وليدة . وشرح الإمام لطه كيف ينبغي له أن يفض بكارة الفتاة ، وختم قائلاً :

ـ سوف تنقطع ذريتكم إذا لم تكن رجلاً . قبل حلول الصيف يجب أن يكون لك ولد . وإنْ شاء الله سيكون توأمين أو ثلاثة . أم تظن مثل الأولاد أن أحداً من أهلك سيعود على قيد الحياة ؟

منذئذ بات طه يعرف باليتيم . وعلى الرغم من أن أغلب أهله قد نجا ، وأغلب من نجا قد عاد بعد هزيمة الأتراك ، وعلى الرغم من أن طه صار أباً لثلاثة أطفال غير توائم ، فقد ظل ينادى باليتيم ، وكان يروق له كلما خلا بعمر ، وأدار العرق رأسه ، أن يجترّ ذلك ، فيتفنّن بصور أهله المرحلين مشياً على الأقدام ، يسلمهم مخفر إلى مخفر ، وعددهم يتناقص ، حتى إذا نزلوا في ديار بكر ، أحلّتهم الحكومة في بعض المنازل التي خلفها الأرمن من ورائهم خاوية . ولم يكن الأسى ليغادر طه ، وهو يغرق في سكره وهذيانه ، إلا حين يلوح للراحلين ، ويقبل على من فرّ من ذويه إلى الجبل ، وظل عصياً هناك على الأتراك حتى انهزموا . وقد عاد أولاء خاصة يهربون السلاح مثلما كانوا يهربون الرجال من العسكرية أثناء الحرب .

كان عمر يداعب أطفال طه في بيته الصغير حين تجمعهما الجمعة في سرغايا ، يداور رغبة مبهمة في أن يكون هولو مثل طه ، شقيقاً أصغر ، متزوجاً وذكياً وقوياً ، عنيداً على كل الناس ، لاضير ، وليس على شقيقه الأكبر . ولكن عمر ماإنْ يدع الأطفال أو يغادر سرغايا حتى ينسى ذلك البتّة .

في رفقة طه الأولى إلى قريته ، وربما بعد ذلك بقليل ، لام عمر صديقه على هجره لبيته وأهله . ومافتيء يعيد ذلك كلما أمعن هو نأياً عن أهله وعن الحرزة ، أو كلما أغاظه من طه أمر . أما طه فكان يمعن في النأي عن سرغايا ، وتشبثاً بالشام ، وهو الذي لم

يطأها إلا لحظة سمع ـ كسواه ـ برحيل الأتراك عنها ، فاندفع كأنما يخشى أن يغافلوه ، فلا يكاد يدير ظهره إلى سرغايا حتى يعودوا .

حين سافر عمر إلى أضنة أول مرة ، كتم فضل طه في إثارة الفكرة لديه ، حتى نسي ذلك هو أيضاً . وكان لسان طه قد لغط مراراً بأخبار أقاربه الذين لم يعودوا يعملون في الشام وحدها . فأكوام السلاح هناك ، في الشمال القصي ، وأكوام الذهب أيضاً ، وطه الذي لايعرف المزيد ، عازم على أن يفك لغز الأقارب ويلتحق بهم . ولكن عمر هو الذي ظل يحتال حتى أثناه ، وراح يرسم لنفسه مغامرتها الكبرى الأولى وحيداً . وإذ انتصر ، وهال الانتصار سليم أفندي أكثر منه ، فكر وهو يعد لمغامرته الثانية الأكبر في أن يشرك طه ، لكنه خشي أن يورطه بالآخرين الذين لعب معهم لعباً صغيرة ، أو تدرب بالأحرى على أيديهم في المتاجرة بالسلاح ، كما في الشكارات . كذلك خشي عمر أن يورطه طه فيما لاحاجة له به من صلات مع من قد يكون يعمل من أهله في أضنة نفسها . وهكذا تركه بعيداً عن أسراره ، وإنْ كان قد لوح بما أسال لعابه ، وأثار عجبه ، بعدما قبضت الحكومة على بعض من ظلوا يلعبون الألعاب الصغيرة ، وبعدما فرّ الآخرون ، دون أن يعلم ، لا طه ولا سواه ، بالطبع ، أن لابن التكلي يداً في ذلك .

لقد أخلص عمر للقسم الذي أداه أمام أصدقائه حين أشركوه معهم أول مرة . فلما ألح عليه أن يتخلص من بعضهم إثر نجاحه الأول وحده ، بعيداً عنهم وعن الشام ، بدأ باجتذاب طه ، وقدر على طريقته أن انسجام طه مع الآخرين يضطرب . ولم يكن عمر ليدقق ، لا في أسباب انفراده ، ولا في الخلل بين طه والبقية . كان فقط واثقاً من صواب مايفعل ، ومن نجاحه ، وطه يتكشف عن فحل مشاكس . ربما بات عمر يدرك بعد زمن أن مايقوم به أصدقاؤه ليس غير مجازفة سخيفة وخطرة ، أما التجارة فأمر آخر . وهو وحده من بينهم يعي ماذا يعني تهريب السلاح وشراؤه وبيعه . لقد استحالت العلاقة مع أولاء الطائشين إلى مستنقع لامناص من الخروج منه بسلام ، ولا بأس أن يخرج طه أيضاً ، وهذا ما أنجزه عمر ، مصطنعاً مع هذا أو ذاك معارك صغيرة ، لايلبث أن يعلن انهزامه فيها ، فينسحب متطامناً ، صابراً على هياج طه ، متفنناً في امتصاص نقمته ، وفي الآن نفسه ، لم تغفل عينه عما كان الآخرون يتابعونه دونه أولاً ، ثم دون طه أيضاً .

إبان ذلك كان عمر قد شرع يتسلل إلى بيت مسلم دحّه الذي لايكاد أحد في السوق يعرف أن له أدنى صلة بالحكومة . أما عمر فقد قدر ذلك ، منذ أن صار مسلّم يكثر من تردده على الدكان ، ويطيل مكوثه ، ويتلاعب بالكلام ، ويتشاطر على عمر كي

يتقصّى منه أخبار سليم أفندي البسمة وسواه من زعماء الحي ، خاصة حين اشتدت معارضة بعضهم للقصر وللانكليز وللفرنسيين .

سرعان ماتوطدت الأصرة بين مسلّم وعمر . وكان مسلّم يسبغ على زيارة عمر له في بيته لبوساً خاصاً ، تختلط فيه على عمر السرية بالرهبة والتشوف بالمتعة ، خاصة بعد أن أخذت وعود مسلّم تجزل ، إنْ كاشفه عمر بما يقع له ، مما يقول أو يدبر أعداء الحكومة . أما حين أومأ مسلّم إلى أن عيون الحكومة مبثوثة جيداً هنا وهناك ، رغم قلتها ، فقد شغل عمر نفسه فترة بالتدقيق في الوجوه التي يعرف أو التي تعبر به ، بحثاً عن عيون الحكومة .

بين يدي مسلّم ألقى عمر بما اجتمع له من تدبير من كانوا أصدقاؤه لعملية كبيرة ، ربما كانت أكبر مادبروه منذ بدأوا يشتغلون بالسلاح . وفي الصباح الباكر التالي قدم إليه طه ، حزيناً وشامتاً ، يعلن القبض على الجميع ، ومصادرة السلاح . أما عمر فلم يعلن سوى الحزن ، وهو ينقد طه ليرتين ذهبيتين ليوصلهما إلى أسرتي المتزوجين من أصدقاء الأمس . وما إنْ انصرف طه حتى هرع إلى مسلّم يهمس في اذنه ، وهو في فرجة الباب :

ـ ها قد انتهى كل شيء . إياك ثم إياك أن تكون قد ذكرتني أمام مخلوق . إذا غلطت وفعلت تكون ضيّعت نفسك قبل أن تضيعني .

ولم يصدق هو نفسه أن ذلك الصوت الخافت الباتر كان صوته .

بعد قليل جاء الرجل الى الدكان تسبقه ضحكته . هنأ عمر وبالغ في الثناء ، ومد يده إلى جيبه ، ليخرج جنيهاً وهو يقول :

ـ هذه مكافأة بسيطة .

حدق عمر في الرجل ملياً قبل أن يسأل :

ـ على ماذا ؟

ـ على مافعلت ؟

ـ هذا منك أم من الحكومة ؟

ـ من الحكومة طبعاً . . مابك ؟

ـ هو مني لك إذن . قبل قليل قلت لك : كل شيء انتهى . امش الآن .

وأنكرت أذناه ثانية أن يكون هذا الصوت له ، إلا أنه سقط مريضاً في المساء ، ولم يستطع أن يفتح الدكان في النهار التالي ، ولم يذعن لنصيحة سليم أفندي في اللجوء إلى طبيب ، كما ازوّر عن لهفة طه ومسلّم دحه ، وقضى يومين آخرين شبه وحيد ، عازفاً عن

الطعام ، عاجزاً عن النوم ، ينشد الحمى التي أثقلت عليه في اليوم الأول ، حتى إذا أبلّ في صباح اليوم الثالث ، وخرج إلى الدكان ، فوجىء بطه ينتظر واقفاً ثمة ، فاندفع نحوه ممتناً ، فيما صوت طه يدوي معلناً البشارة بشفاء عمر التكلي . ولم يفترق الصديقان ذلك النهار ، كما لم يفترقا في الليل ، إذْ سعيا إلى بنت قطيش ورفيقاتها ، وظلّا يعبان ويغنيان ـ وربما يضاجعان ـ حتى الصباح .

★★★

ضمّ عمر إلى بعض ماأعطته الست زهرة ماكان لديه من الليرات الذهبية ، واشترى بيتاً صغيراً في طلعة العفيف ، تاركاً لطه مسكنه القديم ، مشدداً على صاحب المسكن أن يعامل جاره الجديد كما كان يعامل عمراً نفسه . ولم يكن الرجل وامرأته العوراء بحاجة إلى توصية ، فهما ، وأولادهما وأصهارهما وجيرانهم جميعاً ، يقدرون ذلك الذي جاءهم به سليم أفندي البسمة فتى ، يكاد يتعثر في مشيته ، وطلب إليهم إيواءه والعناية به ، ليس لقاء ماظل يدفعه لهم سنة أو سنتين ، قبل أن يدفع لهم عمر نفسه ، بل حسنة لوجه الله ، وإذا بالفتى يشتري بعد سنوات معدودات بيتاً ، ويدير أملاكاً هائلة للباشا شكيم ولحميه المرحوم ، ويصول ويجول في السوق ، كأنه سليم أفندي البسمة نفسه .

ترك طه العمل عند سليم أفندي قبيل شراء عمر للبيت . والحق أن سليم أفندي هو الذي طلب إلى طه أن يبحث عن عمل عند سواه ، وكانت صلاته بأصهاره قد عادت تتوطد .

كان طه متلهفاً لمغادرة الدكان والالتحاق بعمر . أما عمر فقد كان واثقاً من أن سليم أفندي لن يصبر على طه طويلاً ، ولذلك لم يكن متعجلاً ، كما لم يفاجأ بقرار سليم أفندي . وكان أول ماقام به طه أن دبر شراء البيت وشراء مايملؤه بما يليق ، ليس لسكنى عمر التكلي فحسب ، بل كرمى لسارة التي ستكون أول من يباركه ، كما كان عمر يكرر مشدداً على طه ، ومعابثاً .

بنت قطيش ، وهو الاسم الذي عرفت به سارة منذ طفولتها ، استأثرت بعمر واستأثر بها منذ شهور . ولعل ذلك ماجعله يسترق النزر الذي تيسّر له من الوقت ، ليعرج على النقّاش الذي افترض أن اسمه لابد أن يكون قطيش ، مادامت سارة ابنته ،

وأبى أن يحفظ له اسماً آخر . وكان النقاش يهشّ للشاب الذي يتردد اسمه في السوق أعلى ، فيعجّل بسبك الخاتم الذي يكون بين يديه ، أو يحفر اسم الزبون البدوي الذي ينتظر كيفما اتفق ، أو يصرفه بغلظة ، نافضاً غبار النحاس ، مرحباً بعمر الذي يكتفي غالباً بالتحية والاعتذار ، ويتابع سيره ، هارباً من لغط المنادي المجاور للنقاش : حامض حلو مثل الحلفاء ، على الرغم من أن ريقه يتحلّب على مخللات المنادي ، وأذنه تطرب للصوت الرخيم ، وضحكته تندفع للتورية الخبيثة .

ميل عمر إلى ساره ـ أو حبه كما يؤكد طه ـ هو الذي جعله بلا ريب يلتقط كلمة من النقاش ومن سواه ، ثم يسأل طه متحدياً بعد أن يجرع كأساً أو كأسين :

ـ تعرف كم كان عمرك حين طهروك ؟

ـ لا والله .

ـ شهر ؟ سنة ، قل مثلاً . .

ـ يا أخي لا أعرف . تقول أمي إن طهوري وطهور أخي كان في يوم واحد .

ـ وأخوك أصغر منك .

ـ نعم .

ـ وكان عمره شهر أو سنة .

ـ نعم .

ـ رح اذن وتعلم من اليهود الذين لاتعجبك نظافتهم . من الأسبوع الأول يطهرون ولدهم .

ـ وأنت ماشاء الله كم كان عمرك حين قطعوا لك تلك الجلدة ؟

ـ اسبوع . . اسبوع بالتمام والكمال . رحمة الله عليه . كان الحاج يقول ذلك ويضحك . . كان مستعجلاً ليطهر ابنه البكر .

لمثل هذا الحديث كان عمر يحرص على أن يكونا وحيدين . وكان يحلو لطه أن يهزأ مرة من عمامة الحاخام الرمادية ، ويفضل عليها أي طربوش أو عمامة بيضاء ، بل أية قلنسوة ، وعمر يجرع العرق ويحوص ، حتى إذا ذكر سارة ، سارع طه يهزأ من طربوش أبيها القصير والمنديل الذي يغطيه ، أو كيس النقود الذي يندسّ في صدره ، مشدوداً بخيط أصفر إلى عنقه ، وعندئذ كان لابد لعمر أن يثور ، فيتراجع طه مقهقهاً ، ويذعن لأمر عمر بالسكوت عن ذلك ، ولكنه لايلبث أن ينتهز هدأة عمر أو ابتهاجه ، حتى يسأله متظاهراً بالسذاجة والبراءة :

ـ كم ذهبية تقدر أن النقاش جمع من يوم جن جنون البدو وصار كل واحد منهم يريد خاتماً باسمه ؟
ـ المعنى ؟
ـ بارك الله له ياأخي . ولكن أخشى أن يعقل البدو ولايعود أحد ينقش لاخاتماً ولاسواه ، فيعود الرجل إلى ماكان فيه ، أعوذ بالله .
ـ ومالذي كان فيه حتى تتعوذ وتقرف هكذا ؟
ـ كان في قصر يلدز . لا ، أنت الصادق ، كان في جورة الخراء ، من جورة إلى جورة ، مثل كل يهودي محترم ، ينظف هذه ريثما تكون امتلأت هذه . يعني أين تظن أنه كان ؟

شهراً بعد آخر تعود طه أن يتحاشى ذلك الهذر ، ويتعامل مع سارة أو ذكرها بالاحترام الذي يرضي عمر ، ولكن مالم يكن قد وطن نفسه عليه بعد ، أن يبدو أشبه بالخادم لبنت قطيش ، وهو ماكان في زيارتها الأولى لذلك البيت الصغير الجميل في طلعة العفيف .

★★★

منذ عصر الخميس أحضر طه مايكفي لفتح دكان صغير ، كما ردد محتجاً على استزادة عمر ممايلزم للطعام والشراب في البيت ، ومما لايلزم .

من العطّار جاء باللوز والبندق والفستق والجوز وماء الزهر والشمعات ، ست لفات صغيرة وأنيقة ، فوق الأكياس الورقية الملأى بالرز والسكر والملح . ومن باب توما أحضر الصفايح بالفليفلة ، والبسطرمة ، من المرجة جاء بالبقلاوة والملبّس واللحمة الناعمة وورق العنب ، وماعنّ له من أصناف الفاكهة ، غير عابىء بذاكرته ولا بما عدّد عمر الذي اكتفى أخيراً بلعن طه جزاء على رهقه ، وراح يقهقه :
ـ قم الآن إلى الخروف . لاتنس . كما قلت لك ، مقابل المكان الذي ذبحت فيه الخروف الأول ، واحد من هنا وواحد من هنا ، هذا أدعى للبركة .
ـ والاسبوع القادم ؟ خروف ثالث ماشاء الله ! طه اليتيم سيصير على يديك قصاباً . .

قال طه وهو ينهض متثاقلاً وبرماً ، وأطلق عمر قهقهة جديدة ضاعت فيها كلماته :
ـ ولم لا ؟ لعنة الله عليك . قصاب وغير قصاب . طه اليتيم كيفما نقرته يرنّ . .

ضحى الجمعة أسرع طه إلى الشاغور ، ليعود بسارة ، وتركها أمام الباب تلح في طرقه ، وتتمعن في بقع الدم الطازجة إلى اليمين ، واليابسة إلى اليسار ، كان عمر لايزال

غارقاً في النوم حين نغص الطرق عليه ، ثم أجفله وجعله يعدو إلى الباب . انسربت سارة عجلى تبرير مباركة وساخطة من انتظارها الطويل ، وانسلّ خلفها متلصصاً خشية أن يكون الطرق قد ألفت أحداً من الجيران . وسرعان ما انهمكت في ترتيب البيت ، متسائلة بخبث عما إنْ كان قد أمضى وطه السهرة وحيدين حقاً ؟ وكان يحلو له منذ انقطعت عن الغناء والرقص مع صليحة والأخريات أن تشكك في وفائه لها .

كانت صليحة أو الستّ كما تعود الجميع على مخاطبتها هي التي استأثرت بعمر في بداية تردده على الشاغور مع طه والأصدقاء الذين رمى بهم في السجن . والحق أن صليحة هي التي اختارته مرة بعد مرة ، وقد كان مسرفاً في كرمه معها ، كما لم يكن ليرتوي من جسدها ، لكن تلك الفتاة الناحلة ، الأشد سمرة من خديجة ، أخذت تلوي بعنقه .

نبرة سارة الطفولية ، عيناها الواسعتان الدهشتان دوماً ، بشرتها الرقيقة ، وسوى ذلك مما يحير عمر ، صار يشغله . ولم يكن أحد من صحبه ليأبه بالفتاة الجديدة على الكار ، والصغيرة أو المسكينة ، كما كانوا ينعتونها .

الأخريات جميعاً كنّ أوفر بياضاً وسمنة وتزويقاً ، وأكبر عمراً وجرأة على الشراب وعلى التبذل في الضحك أو الرقص أو الغناء أو المزاح أو المضاجعة ، وكانت صليحة ترعى سارة كأم ، وقد ظلت كذلك حتى بعد أن انصرف عمر عنها ، بل إنها صارت لعمر وسارة معاً أشبه بالأم أو الشقيقة الكبرى .

بدأ عمر يتغيب عن تلك السهرات الأسبوعية شبه المنتظمة ، منذ قرر أن يشق سبيله بعيداً عن أولاء الأصحاب ، حتى إذا تخلص منهم ، وكان قراره على سارة قد قرّ ، صار يبكر في السهرة ، وحيداً أو مع طه ، يتعالى على الزبن الجدد ، سواء أكان فيهم من صحب آخرين له أم لا ، ولايلبث أن يخلو بسارة ، سواء أيسّرت صليحة ذلك أم لا ، ولم تكن سارة بأقل انشغالاً ، إذ فوجئت به منذ اختليا أول مرة ، لايتعجلها إلى الفراش ، بل يمضي أغلب الوقت في الحديث معها ، في شؤونها وفي شؤونه ، ثم يقبل عليها باشتهاء لم تعهده بسواه ولعلها لذلك قد ارتعشت مرتين أو ثلاثاً قبل أن يشهق ويتكون فوق صدرها ، كأنه يبكي .

كانت سارة بحاجة إلى صبر عمر وحنانه ، وليس إلى كرمه الذي ندر أن جاراه فيه زبون آخر . وقد غمرها بكل ذلك ، خاصة بعد أن عرف منها أن أباها عارض ماوسع ما اختارته أمها لها من شغل . وقد يكون ذلك مادفع بعمر إلى العبور بذلك النقاش الكهل

المسكين الذي صبر على امرأته ، منذ كانت في مثل عمر سارة وشغلها ، حتى تزوجها ،وأنجب منها ، ونأى بها عن سواه ، فإذا بها تجعل بكرها تعيد سيرتها الأولى .

ظلت شكوى سارة تترجع في أعماق عمر إلى أن سكنته . كانت زفراتها الموجعة تلوح له بقبور أخوته في الحرزة . فقد قضى لسارة شقيقان شابان أثناء الحرب ، ولعلهما لولا ذلك كانا وفرا عليها هذا المال . كما قضى المرض أو الجوع أو غضب الله على شقيقة سارة الوحيدة ، وما عادت الأم التائبة ولا الكهل المسكين بقادرين على أن يلقما أفواه الصغار الخمسة ، كما أن الصحبة القديمة بين الأم وصليحة استفاقت في ذلك الوقت العسير .

كان طه ، إذ يبوح له عمر ببعض ذلك ، يسخر ويلعن النساء جميعاً ، مردداً مرة : أمّن للحية ولا تؤمّن للمرة ، ومرة : لاتأمن للمرة إذا صلت ، ولا للخيل إذا طلّت ، ولا للشمس إذا ولّت . وعلى الرغم من أن عمر كان يبطن اهتماماً بحكمة طه ، إلا أنه سرعان مايثور ويشتم ويحرد . بيد أن ذلك ـ كسواه من كل ماينسج علاقة الرجلين ـ تخلّق في هيئة أخرى ، فيما كانت العلاقة نفسها تتشكل ، إذْ لم يعد عمر صديقاً وحسب ، بل أمثولة ووليّاً في آن . ولم تعد سارة واحدة ممن لايعني طه منهن إلا أن تؤانسه أو ترفع ساقيها له ، بل غدت حبيبة عمر ، والمنقطعة له ، على الرغم من مقامها في ذلك الوكر .

في الميدان لم يجرؤ عمر على أن يأتي بسارة إلى مسكنه . ولم يرض أن يصطحبها إلى حيث يقيم طه ، بعد أن لم يعد يكفيه أنها غدت له وحده ، وأن أمها ـ وليس صليحة فقط ـ قد أسعدها ذلك ، كما أسرت له مرة ، ومادام عمر يدفع جيداً ، كما علل طه ، محاذراً أن يغضب صديقه ومعلمه الجديد .

بالطبع ، لم يكن عمر أول من يتخذ له من مثيلات سارة صديقة ، يعيشان أشبه بالزوجين ، بلا عقد . ولكن عمر قد يكون أصغر أو أفقر أو أضعف من فعل ذلك في الشام ، فالآخرون هم غالباً كهول ، يملكون على الأقل مثل الذي يملك سليم أفندي ، أو أنهم شبان وقبضايات ، ليست ذراع طه نفسه بالنسبة إلى واحدهم سوى قصبة . ولئن كان طه قد ألمح إلى ذلك ، فإن عمر صارح نفسه به مبكراً ، وتبسّم هازئاً ، لأن مايعرفه من نفسه ، ويجهله سواه ، يفضل بكثير هذا الذي يتيه به فلان أو علان ، ثراء أو مشيخة للشباب .

ظهيرة تلك الجمعة الضاحكة ، بوغتت سارة به يقول :

ـ احزري بماذا كنت أفكر وأنت لاهية بالطبخ والترتيب ؟ لا لا . . لن تحزري . لاتزعلي منّي . كنت أقول ياعمر ياابن التكلي لو أن الحاج يعرف بما بينك وبين هذه البنت اليهودية لنطّ من قبره وطمرك محلّه .

كانت سارة تهم بالجلوس على المائدة إلى جواره ، فارتدت ، وتابع عمر :

ـ لا لا . ليس هذا ماكنت أفكر به . لاتزعلي مني . كنت أقول ياعمر ياابن التكلي لو أن الله أكمل نعمته عليك وجمعك بهذه البنت قبل أن تعرف بيت صليحة ، سامح الله أمك . والله ياسارة ماكنت تزوجت غيرك ولو غضب الحاج في قبره . هل كنت ستعلنين إسلامك وتتركين دينك حتى تتزوجيني .

اربدّ وجهها واضطربت أنفاسها ، وكأنما بوغت بما كان يقول ، فشبّ كالملدوغ يمد ذراعيه نحوها ويسأل :

ـ مابك ؟ تعالي اجلسي . .

انقادت إليه مغالبة البكاء ، فأنكر من نفسه أن تؤذيها ، والتفت يمينه على كتفها خائفة ، ثم تسللت أصابعه تمسح شعرها السابغ ، وتداعب أذنها ، فأخلدت إليه هنيهة ثم ارتمت في حضنه تنشج ، وخفق فؤاده ، وأوشك أن يبكي ، لولا أن كفها أمسكت بكتفه ، والتف ساعد لها حوله ، فاندفعت يداه تجوبان في ظهرها وحول خصرها ، تعنفان تارة وترقان تارة ، تمسحان على النهدين الضامرين أو الفقرات الناتئة ، أو تهصرانها وتلويان وجهها إليه ، وهي تتلوى كأنها ترقص له وحده في بيت صليحة ، أو كأنها لم تعرف حضن رجل من قبل ، وأشرقت فجأة ضحكتها ، كما الشمس ، مشتبهة بالحمرة أو البكاء ، قصيّة ومحيرة أو ضعيفة ، ثم رنت الضحكة التي تغسل جوانحه ، ولفحته وقدة الوجنتين ، كما في بيت صليحة ، وتمنى ـ وربما تمنت ـ لو يقدر على أن يأخذها بعيداً ، ليمنحها ـ وكانت مقبلة عليه كي تمنحه ـ ليس جسده وحده ، بل روحه أيضاً .

لم يسبق لعمر أن استلقى إلى جانب امرأة نهاراً بكامله قبل يوم الجمعة هذا . لقد أغفى عميقاً وهما مندغمان ، ليس لأن سارة قد ألهبته من الظهر حتى العصر ، بل لأنه كان ينتظر تلك الهدأة الحنونة الحارة منذ زمن سحيق . وحين أفاق كانت عيناها تحدبان عليه ، فتململ ينشد الغداء البارد ، ورآها تخرج بكرسيّين إلى فسحة البيت الصغيرة وتعد الشاي ، فنهض يلغط :

ـ تعالي تعالي . . ماذا تفعلين ؟

فلبدت بجواره صامتة ، تنتظر رجعة طه كي يعود بها إلى الشاغور . ولم يتأخر طرق الباب ، فانصرفت حزينة ، توصيه بنفسه ، وهمّ بأن يدعوها كي تقيم معه ، الليلة على الأقلّ . وإذْ غيبها الباب ، وخلا البيت منها ، عزم على أن يجعلها على الأقل تغادر بيت صليحة بلا رجعة ، وتقيم في بيت النقاش ، وكان ثمة صوت يناوشه في فضاء البيت المعتم :

ـ وبعد ؟ يهودية وواحدة من بنات الخطا ؟ هذا ماقدرت عليه ؟ أنت من يضرب الناس به المثل ؟ أنت عمر التكلي ؟

★★★

أخّر الشتاء القارس عودته إلى الجولان ، على الرغم من السؤال المتكرر للست زهرة عن ذلك . كان أشبه بمن ينتظر إشارة هامة ، آتية بلا ريب ، وذلك مافكر به حين فاجأه طه :

ـ جاء الأمير يسأل عنك .

سأل ملهوفاً :

ـ الأب أم الابن ؟

ـ الابن . الأمير مدحل . نسيته ؟

ـ وأين هو الآن ؟

ـ قد يكون في الأوتيل . الأمير جهجاه هناك أيضاً .

ـ وكيف تركته يفلت ؟

نهر عمر بطه واندفع ، ثم توقف يصيح :

ـ في أي أوتيل ؟

ـ والله لم يقل .

ـ ولم تسأله ؟ لعنة الله عليك .

لم يكن عسيراً عليه أن يعثر على الأميرين ، فالأوتيلات التي يمكن لمثلهما أن ينزلا فيها معروفة ومعدودة . وقد أسعده أن صادف الباشا والأمير جهجاه في زاوية البهو ، كما أسعده أن يقبل عليه الأمير مدحل مستغيثاً وهو يهامسه :

ـ انقذني بالله عليك . من البارحة كأنني في سجن .

كتم عمر ضحكته من إشارة الأمير الذي بدا أصغر مما كان في الخيمة ـ إلى أبيه واالأوتيل ، وضغط على كفه واعداً وآمراً بالصبر ، وقد طال الصبر حتى تمكن عمر من أن يهمس للباشا دون أن يلفت الأمير جهجاه :

ـ هل دعوته إلى العشاء ؟

ـ قبل وصولك فرغنا من الغداء . دعوته إلى الغداء .

قال الباشا وعينه تشير إلى مطعم الأوتيل ، فأسرع عمر :

ـ لا لا . عشاء في البيت أفضل . سهرة .

ـ ولماذا كل هذا ؟.

ـ ضروري . ضروري ياباشا .

قال الباشا في حيرة لاتخلو من الضيق :

ـ اليوم عندي في البيت دعوة كبيرة . . عندي ضيف عزيز من بيروت . .

ـ عظيم . اضرب العصفورين بحجر واحد . سآخذ الأمير مدحل معي الآن .

ـ وأنت تأتي به إلى البيت ؟

سأل الباشا مستسلماً .

ـ من اذن ؟ أم لاتريدني أن احضر ؟

ـ عمر . .

نطق الباشا معاتباً أو مؤنباً ، فضحك عمر ، ونهض مستأذناً ، ونهض الأمير مدحل ، والباشا يخاطب الأمير جهجاه ضاحكاً :

ـ اترك الشباب يسرحون قليلاً ياطويل العمر .

قاد عمر الأمير مدحل كالحمل الوديع إلى بيت صليحة التي فوجئت به وصاحت :

ـ ليست عادتك . من يأتي في مثل هذا الوقت ؟

غمزها ولفّ ذراعه حول كتفها قائلاً :

ـ الأمير ياستّي . الأمير يفضل الخلوة ووقته ضيق .

ودسّ أنفه في أذنها :

ـ فكفكي له عظامه . سمعت ؟ أنت بنفسك ساعة أو ساعتين يكفي . عندنا موعد هام .

ـ أهلاً وسهلاً بالأمير . .

صدحت صليحة وهي تنصرف عن عمر ، وتجر الأمير من يده معابثة ، وضحك عمر مشجعاً ، وظل يضحك في سره ، وهو يلهو مع اثنتين كانتا في الصالون ، راحتا تتسابقان إلى إثارته ، حتى أيستا ، فراحتا تتسابقان في سؤاله عن سارة ، وعن طه ، وتتحسّران على الأيام الحلوة القريبة التي كانت تحضنهم جميعاً معاً ، وكان شخير الأمير مدحل يتناهى من غرفة الست .

في الطريق إلى بيت الباشا انفلش الأمير مدحل . كان يتلمّظ على صليحة ويلعن العشاء ، ويوشك أن يقبل يد عمر عرفاناً ، فهذا البيت ليس مثل بيت السنانية . وصليحة ليست مثل من عرف هناك . سريرها أفضل من أي سرير في الأوتيل ، عطرها يسكر كما الشراب ، وكان عمر يشمخ ، خاصة حين تساءل الأمير مبهوراً :

ـ كيف عرفت بما في نفسي وأنا لم أفتح فمي بحرف ؟

في العشاء ازداد عمر شموخاً ، فقد كانت فرصته الأولى للظهور أمام مثل هؤلاء الرجال . كان سليم أفندي حاضراً أيضاً ، وصادفت جلسة عمر قبالته ، نداً لند . ولئن كان سليم أفندي أميل إلى الصمت ـ مثل الأمير مدحل ـ فقد عرف عمر كيف يفسح لنفسه مراراً ، بلباقة وجرأة ، وسط ازدحام الكبار على الكلام والضحك ، خاصة أن عيني الباشا والأمير جهجاه كانتا تلتمعان له ، وقد كان ذلك وحده يكفيه . فكيف إذن وقد رأى أن الخواجة ثابت ، ضيف الباشا البيروتي العزيز ، أكبر انجذاباً إليه من الآخرين ؟

وقبل أن يغادر الأميران الشام في الظهيرة التالية كان عمر قد اتفق مع الأب ، والابن يهز رأسه مؤيداً ، على أن يعدّ من الآن فصاعداً ، لتزويد الخيام بما تحتاج إليه من الشام ، ولجمع مايخرج ، منها ويتناثر عادة هنا وهناك . لقد أغوى الأمير جهجاه بفكرة عامة وكبيرة ، دون أن يدخل في أي تفصيل ، إذ لم يكن هو نفسه على بينة مما يعنيه تزويد الخيام ولا منتوجها ، سواء بالنسبة للسوق أو للأمير ، ولكنه كان متيقناً من أن ضفر الخيوط على هذا النحو أفضل ، وهو كاف ريثما يعود إلى الجولان .

★★★

اصطحب عمر معه طه ، وصادف عبوره بالعال وصول راغب الناصح وامرأته قبل يوم واحد . كانت صبيحة على وشك أن تضع ، ومن أجل ذلك جاء بها راغب إلى

أهله من حضر . وكانت فرحة بيت الناصح في أوجها ، وقد زاد هياجهم حضور عمر التكلي مصحوباً بطه اليتيم ونور الدين ، فجددوا المناسف وإطلاق الرصاص .

ملأ الاستقبال عمراً حبوراً وزهواً . وبدا طه ونور الدين يجيدان دوريهما ، كأنما ربيا على ذلك صغيرين ، فلكل مايفعله ، وما لايفعله ، كي يسعد المعلم ، ويؤخذ بيت الناصح به وبمن يرافقه ، ولكل في ذلك بخاصة مرتبته ، لكأن طه اليتيم هو معلم نور الدين أيضاً . وقد تجلّى ذلك كأنه طقس خاص حيث انفض الساهرون الكثر ، وشرع راغب وأبوه يهيئان لنوم الضيف العزيز ، ومن في ركبه .

بصوت أقرب إلى الأمر طلب عمر من راغب وأبيه أن يتريثا ، قائلاً :

ـ تعالوا للجد الآن . .

قال والد راغب بتسامح وثقة :

ـ الصباح رباح ياعمر أفندي . .

ـ قد لانستطيع أن نكون ملمومين معاً بلا غريب هكذا . . تعالوا حولي .

قال عمر ، وانقاد الجميع ، فتحلقوا حوله ، وصمت قليلاً يفكر في أنه من الأفضل حقاً أن يتوج فرحة الليلة ، ولايدع حماسة الآخرين ولاحماسته تخبو ريثما يأتي الصباح ، وانطلق فيما لم يتعود عليه أحد سوى طه .

كان صوته خافتاً وواضحاً وحازماً في آن . كانت كلماته بالغة الاختصار والمباشرة . وكان والد راغب خاصة يتقرّى صدى لما يسمع في خانات الشام أو صفد ، فيخيب ويزداد اهتماماً . ولم يكد ينتهي عمر حتى كان الاتفاق قد أبرم مع بيت الناصح ، أو بالأحرى مع العال ، كما ردد بنفسه . فالقافلة التي ينبغي أن تنطلق الليلة قبل الغداة ، لعمر التكلي نصفها . والقافلة العتيدة سوف تنزل في الشام حيث يحدد ، وطه اليتيم من يتولى شأنها هناك . أما صفد فسوف يزورها عمر وأبو راغب ليريا معاً كيف ينظمان العمل فيها ، ومن بعد ، سيتولى أبو راغب شأن القافلة في العال ، وسيعينه نور الدين .

مفاجأة عمر الأخيرة كانت قراره في أن يدع راغب صبيحة لأهله ، ويرافقه في الصباح إلى عين فيت ، فثمة ماينبغي أن ينجز هناك ، مع بيت السعد ومع الأمير جهجاه نفسه

لم يكن عمر يسير في جولته الثانية على نهج محدد ، رغم مارسمه في غيبته الطويلة للجولان . لقد جاء مشوشاً ، كما كانت كل خطوة تفضي إلى الأخرى . ولعل ذلك ماجعله يذكر عين فيت ، ويربك راغب ، ويربك الشاويش والمخفر وبيت السعد عقب

وصوله . فولادة صبيحة الوشيكة تشغل زوجها وأخاها . والوصول المتأخر لايتيح لبيت السعد أن يحتفوا بالضيف كما يليق به وبهم . غير أن ربكة عمر الكبرى للجميع كانت بعد العشاء المتأخر ، على الرغم من أنه مارس عكس ماكان في الليلة الفائتة ، في بيت الناصح ، إذ بدا يشتت الأحاديث المشتتة بين الزراعة والتجارة ، كأنما يلهو . وماكان سهلاً على نور الدين وراغب أن ينسيا لغته ونبرته بالأمس . ولعلهما لذلك كانا أكثر عجباً واندهاشاً ، وأقل مشاركة في اللغط ، كما راودتهما الرغبة في التعلم والاقتداء ، حين راح يقود دفة السهرة ، كأنه حاو ، يستعرض على مهل مهاراته ، ويلقن مريديه ، ويبرم الاتفاق مع بيت السعد ، فالقافلة التي ينبغي أن تنطلق الليلة قبل الغداة ، لعمر التكلي نصفها ، والقافلة سوف تنزل في الشام حيث يحدد ، ليتولاها طه . أما النبطية أو الناصرة فسوف يزورهما عمر ومن يشاء من بيت السعد كي ينظم العمل فيهما ، ومن بعد يتولّى قاسم أو أبوه شأن القافلة في عين فيت ، وسيعين نور الدين في ذلك .

مفاجأة عمر الأخيرة كانت قراره في مرافقة الجميع له - حتى هزاع نصر وحسين فندي - في الغداة إلى مضافة الأمير جهجاه ، فلا بد من ترتيب ما للعمل هناك ، وقد يكون مكملاً لقافلة عين فيت الجديدة الكبيرة ، وقد يكون سوى ذلك تماماً . وكانت عينا عمر مركوزتين ، وهو يلقي بذلك ، على الشاويش وراغب ، لكأنه ينيط بهما المسؤولية المبهمة القادمة .

بعدما أنجزه في عين فيت والعال والخيام بات يستحق أن يتهادى ، يحف به طه ونور الدين ، وهو ييمّم جنوباً ، مأخوذاً بفتنة الربيع المبكر ، يرمي الأشجار المزهرة وغير المزهرة بالحصى ، مثلما كان يفعل طفلاً في الحرزة ، ينزع القطر السام من على سوق الصفصاف ، يقتلع الخباز والرشاد والكمون ويطوح بشتولها ، يتباطأ تارة ويجعل مرافقيه يلهثان خلفه تارة ، يغرق في تأمل الينابيع والأكمات ، الصبار والسدر ، العفص والبربور والبلقوق ، يود أن يغني أو يتمرغ في حضن امرأة أخرى سوى كل من عرف من النساء ، بدءاً بالعجوز وانتهاء ببنت قطيش .

كان الربيع يطلع في جوانحه مثلما في التراب الذي يفرش ذراعيه فوقه ، ويطبق عليه . إنها أرضه ، أرض عمر التكلي ، لا أرض الست زهرة ولا الأمير المرحوم . إنها غوطته الموعودة ، تتفجر له وفيه ، تجعله وهو يشرف أخيراً على سهل البطيحة مثل حبة العنب العبلى التي لاتكاد تحتمل يوماً آخر من انتظار الشمس .

لعل أم نور الدين كانت تلك الشمس التي ينتظر . سطوعها الأسود جاء رعشة اللحظة الأخيرة من الانتظار المثير . ولكن هل كان هو الذي اندفع إليها ، أم أنها هي التي اجتذبته ؟

في بيتها نزل ظهراً . ألح نور الدين عليه أن يشرّف ، ففعل . أراد نور الدين أن يدعو الفلاحين ، المسنّين منهم على الأقل ، فآثر عمر أن يكون ذلك في العشية . كان جائعاً ، وراغباً في أن يمنح نفسه فسحة فيما تبقى من النهار ، مادامت أذعنت لإرهاقه لها ، رضيةً ، منذ غادر الشام .

بدت أم نور الدين أصغر مما يفترض وأقوى : ليس في شعرها أثر لمشيب ، ولا في جبينها ووجهها ويديها أثر للغضون . عيناها كانتا تسطعان مثل أسنانها أو لثتها . إنه بريق آخر ، غير البريق الذي كان يسطع به عبيد الأمير جهجاه . بريق أم نور الدين يعشي الروح ، فكيف بالعين ! كتفاها يرتجان ، ثدياها ، وركاها ، بذلك الوقع الذي يحلق بالفؤاد ثم يهوي به على هواه ، فلا صليحة ولا سواها ، لا سارة المسكينة التي تكاد تكون بلا ردفين أو وركين أو ثديين . إنها أم نور الدين .

إثر الغداء أحسّ برغبة في الاسترخاء ، خلاف عادته . فكر في أنه سوف تكون له ذات يوم قريب مثل عادات الأفندية والباشوات ، فيعقب الغداء بقيلولة . أما نور الدين فقد كان متيقناً من أن لسيده تلك العادات ، على الرغم من أنه لم يره يغفو في النهار طيلة مرافقته له . لقد تثاءب عمر وتمطى ، فليس لنور الدين إذن إلا أن يجر طه اليتيم إلى الفلاحين ، كي يتهيؤوا لمساهرة عمر ، ويوصي أمه بالهدوء والحذر ، ويطرد اخوته من حول البيت ، ويسمح لنفسه بالإصرار على مايهون عمر منه ، فهو أدرى بحاجة سيده إلى غفوة قصيرة .

وكانت الغفوة قصيرة حقاً إلا أن نور الدين وطه والأطفال والفلاحين ظلوا بعيدين حتى المغيب . وأم نور الدين أتت إليه بالماء والطست ليغسل وجهه . ثم أتت بالبابونج وجلست قبالته ، كأنها الست زهرة نفسها .

عادت الدماء تضج في حبة العنب ، فأم نور الدين ليست مثل أي من الفلاحات التي يعرف عمر ، من الحرزة إلى هذا البيت . لقد خضّتْ الحبةَ في غفوته . لم تغادره وهو وحيد ، فكيف وقد ملأت الزاوية المواجهة له ؟ لاريب أنها هي التي أرجفت يده ، ثم جعلته يتبسّم ، ينفلش ، يهم بحبة العنب خشية أن تفلت منه ، يلغو وينهض ، فما يكاد يفعل حتى تتلقف جسده الأهوج المتعثر الفتي ، وراحت تشد عليه ، تتشممه ، وتلحس

ذقنه وعنقه ويديه ، وتعريه ، فقد ألحت عليها أنفاسه منذ ملأت البيت بعهد مضى في الشام ، وبدت كمن يثأر من الموت والأموات في سهل البطيحة كله ، فاندفعت تحكم اغلاق الباب ، واندفعت تتعرى ، ثم طرحته وأقعت تتفرج عليه ، تعابث عضوه وتكتم ضحكتها ، ثم استلقت تدعوه ، وهم بها ، لكنها زجرته ، فقد كان عليه أن يقضم الحلمة الكحلاء ، ويحشر الثدي الكبير في فمه الصغير ، ثم يتوه فوق سرتها وبين فخذيها ، يتمرغ فيها ويندس بين فخذيها فتشرعهما مطبقة على عنقه ، تنفخ في ناره حتى تتأجج ، ثم تدع الجمر يتقد على مهل ، حتى إذا أنضجت حبة العنب ، وأسالت ماءها المسكر ، عادت تلملم أشلاءه ، تنظف عضوه خاصة ، وتلبسه ثيابه وتمضي إلى الباب تتساءل :

ـ شبعت ؟

وتختفي قبل صوتها الآمر :

ـ اهدأ . حتى أعود .

فانصاع لايرين حتى عاد صوتها قبلها يدندن :

مديت إيدي ع البطن ... سيدي البطن
ردت ايدي وقالت لي ... اصح الهوا

وأشارت عينها إليه ـ أو ضحكتها أن يغني فهمس وهو يلاقيها :

مدّيت ايدي ع النهود ... سيدي النهود
نترت لي ايدي وقالت ... لسّه ماستوى

وراحت كفه تمسح على نهديها فانفلتت منه تنقل عينيها بينه وبين الباب وتهمس :

مديت ايدي ع الفخاذ ... سيدي الفخاذ
ردت لي ايدي وياسيدي ... ملنا سوى

فإذا به يطبق الباب ، ويندفع إليها عازماً على أن يبطحها أرضاً ، لكنها كانت قد استلقت ، فسقط فوقها وهي تأمر برفق :

ـ على مهلك هذه المرة .

انصاع متلذذاً ، وخطر له وهو يضاجعها بأناة أنها أكبر ضرورة له من ابنها ، وتمنى لو أنها أقرب إليه ثمة ، في الشام . وإذ تهاوى فخذاها عن عنقه ، والتحم صدره بصدرها ، همس لها بذلك ، فتشابك الفخذان فوق ظهره وهمست :

ـ حين ترغب أرسل طه .

وتلاحق شهيقها وهو يدفن رأسه بين ثدييها ، تائهاً بين طغيانها والأصداء المنسحبة من نفسه ومن الشام كلها . ولم تكن صورة سارة وحدها تمّحي ، بل صورة الست زهرة نفسها ، ولعل ذلك قد طال به ، قبل أن يصحو على نهنهتها :

ـ مابك ؟ أهلكتني . . هيا قبل أن يعودوا . البيت عتّم .

★★★

بعد أن أبرم عمر في صفد صفقة صغيرة ، عزم على مغادرتها إلى نابلس مصطحباً طه اليتيم ، وملحاً على أبي راغب ونور الدين بالعودة .

كان القدوم إلى فلسطين كلها قد غدا متعباً ، بعد أن شدد الانكليز عليها . ولعل ذلك ماجعل طه يتعجل العودة إلى الشام ، فضلاً عما ينتظره فيها مما أناط به عمر . إلا أن عمر همس لطه وهما يغادران صفد :

ـ أريد أن أنام مع يهودية هناك . . هذا والسلام .

كتم طه إنكاره على عمر أن يضيع يوماً أو يومين ، فيما سارة تنتظر في الشام . ولو أن ذلك كان قبل أن يغدو عمر المعلم الذي يغضبه أن يعارضه أو ينصحه أجيره وصديقه ، لما رضخ طه أو اكتفى بأن يحرن .

كانت أسابيع عمر تمضي بين الشام والجولان ، حافلة باللذاذة والبهجة والجاه والمال . وكانت أم نور الدين تتعطف به عن سواها ، تضاعف خبرته بجسده وجسد المرأة ، فصار يتأمل سارة وهي عارية وحيرى ، أو يطلق عينيه في الست زهرة تعريانها ، فتغضي متشهية أو ممتعضة أو زاجرة بحركة ما ، تؤخذ بهذا الشاب الذي يزداد غواية وجراءة أو وقاحة ، وتنكر عليه أو على نفسها أن يفعل ، متوعدة خطوته التالية . إلا أن خطوة عمر التالية كانت دوماً إلى جسد أم نور الدين ، فسارة نفسها أخذت تفقد بريقها . وربما كان ذلك بعد أن تركت بيت صليحة إلى بيتها ، وصارت تتردد بانتظام على بيت عمر . أو أن ذلك كان بعد أن أخذت أم نور الدين تستبد به ، في الشام كما في

البطيحة . مهما يكن ، فقد غدا مافي نفسه نحو سارة أقرب إلى الشفقة والعطف ، أقرب إلى الوفاء لعهد يمضي ، ولعله لذلك كان ينقدها أكثر مرة بعد مرة ، خاصة أن المرض قد أقعد النقاش . ولكن إلى متى كان يمكن لذلك أن يطول بعمر ؟

ربما داوره السؤال ـ وطه أيضاً ـ قبل اليهوديتين اللتين ضاجع في نابلس . لقد حرن طه . أعلن عجزه عن تدبير أية امرأة ، لايهودية ولاسواها . وتفاقم شبق عمر ، حرن هو الآخر ، وفكر في أن عليه أن يودع اليهوديات قبل أن يعود إلى الشام . فكر في أن عليه أن يودع سارة هنا ، وليس في الشام ، كما أضمر مزهواً وقاسياً .

مساء اليوم الأول في نابلس دبر عمر امرأتين ، في واحد من تلك البيوت الوسخة الصغيرة المتكأكئة . بالطبع ، لم يكن طه ليتركه يذهب وحيداً ، فهو ليس أجيراً وحسب ، إنه الحامي أيضاً في الشام نفسها ، فكيف في نابلس ، أو في تلك الحارة منها ؟ إلا أن طه أصرّ على ألّا يركب ، وكانت المرأتان بالغتي الترهل ، على الرغم من صغر سنهما ، أشبه بالمعتلتين ، ولم يمنع ذلك عمر من الانتقال بينهما ، كأنما يفعل نكاية بطه ، أو بنفسه ، أو بامرأة أخرى ، لعلها سارة .

لم يعرج في العودة على البطيحة . ولم يجرؤ طه على أن يحدثه في ذلك ، وهو الذي ماعاد خافياً عليه سرّ خدمة أم نور الدين في بيت عمر بين فترة وأخرى . كانت رائحة الخطر نافذة في الجولان ، خاصة في خيام الأمير جهجاه . ولعل ذلك ماجعل عمر لايبالي في تلكؤ الشاويش بما كلفه به ، ولا في تلكؤ حسين فندي وهزاع نصر أيضاً .

عبر سريعاً بالخيام ، فالأمير جهجاه وابنه غائبان . ولعل ذلك ماجعله يعبر سريعاً أيضاً بعين فيت . أما في القنيطرة فقد جعلته رائحة الخطر يستحث طه إلى الشام ، وفي صبيحة اليوم الأول خاطبه :

ـ تدبر أمر سارة . اصرفها عني . لدينا ماهو أهم . سوف نشكو أكثر من سليم أفندي ومن غيره من الجمارك أو نترك الشغل في فلسطين . أولاد القحبة لايريدون أن نعمل هناك . هل تظن ذلك ياطه ؟ لماذا هذه الجمارك كلها إذن ؟

قال طه منفعلاً :

ـ واحدة واحدة . بيت الناصح وبيت السعد يدبرون الحدود على كل حال . يلعبون على لحية الانكليز والفرنسيين .

ـ لن يستطيعوا ، على الأقل هذه الأيام . رأيت بنفسك حالة الجولان .

ـ بيت الناصح على الأقل بعيدون عن النار . .
ـ والريح ياذكي تأخذ النار أبعد . ألا تستطيع أن ترى أبعد من هذا ؟
قال عمر ساخراً وهو يشير إلى أنفه ، فعجل طه :
ـ دبرها . حتى لو عن طريق الفرنسيين أنفسهم كم قلت لي إنهم والانكليز طنجرة وغطاها ؟
صمت عمر قليلاً قبل أن ينهض ويربت على كتف طه :
ـ حلو ، حرك لي دماغك هكذا . معك حق . اترك علي الانكليز والفرنسيين ، وأنت عليك سارة .
لحق به ملحاً :
ـ قلت لك واحدة واحدة . ماقصة سارة ؟ ماذا تريدني أن أفعل ؟
قال عمر وهو يبتعد :
ـ افعل مايحلو لك . حرك دماغك يارجل .
وأسرع إلى الست زهرة لأول مرة في الضحى ، دون أن يفكر في الباشا ولا في الوقت. كان مشغولاً فقط في أن يستشيرها بأمر الفرنسيين والانكليز. إلا أن الست زهرة التي أقلقتها جراءة الزيارة المبكرة لم تشأ أن تصدق . عيناها كانتا تتهمانه . كانت تبحث في نظراته وحركاته وصوته ، عما يؤكد ظنها . وقد أقلقها بعد لأي أن تخيب . عيناها كانتا توبخانه ، فصارتا تستحثانه ، وهو مشغول فقط بأمر الانكليز والفرنسيين .
وقبل أن ينصرف همت أن تلعنه وتلعنهم وتلعن الخواجة ثابت الذي تلفظ لسانها باسمه ، مادام عمر مصراً على مشورتها ، لكن عمر اختفى قبل أن يلغو لسان الست زهرة ، فانكفأت إلى غرفتها تتقرى المرآة وتلعن نفسها ، ربما ، لأول مرة .
مفاجآت ثلاث حملت الأيام القليلة التالية لعمر . كانت أولاها أن ينجلي له سرّ صداقة الباشا شكيم بالخواجة ثابت . كان ذلك اثر انصرافه من لقاء الست زهرة ، وهو يتهادى من ساروجة إلى الميدان ، دون هدف . ضربت المفاجأة كفه الأيمن بالأيسر وجعلته يهتف متعجباً من دهاء الباشا ومن ذكائه هو أيضاً . وقبل أن تستل منه المفاجأة الثانية زهو المفاجأة الأولى كان قد فكر في أن الخواجة والباشا صديقان قديمان ، ولكن صلة الخواجة الوطيدة بالفرنسيين تجعل لذلك ، هذه الأيام ، معنى آخر . كان قد فكر أيضاً في أن عليه أن يجد سبيله الخاصة إلى الخواجة ، بعد أن يتكىء على الباشا والست زهرة في الخطوة الأولى ، مادام قد شرع يؤسس ولايته في الجولان .

المفاجأة الثانية التي جاءه بها طه اليتيم سريعاً شوشت ذلك الذي كان يفكر به . لقد جعلت سارة وأمها من بيت النقاش مطرحاً للسهر والسكر والسمر ، والركوب بلا ريب ، يبذّ مطرح صليحة ، والنقاش ينازع في ركنه الخلفي من البيت الصغير . بين يوم وآخر كان لسارة ذلك الرد المفحم عليه . كذلك هجس وهو يصغي إلى طه غير مصدق . كذلك هجس وهو يحقق من بعد مع طه حول مافعل كي يتخلص منها . لقد أنساه الخواجة ثابت ماكلف به طه اليتيم صبيحة إيابه من الجولان ، ولكن لطمة سارة أنسته الخواجة ، حتى جاءت المفاجأة الثالثة .

كان ينبغي على سارة كما خاطب نفسه ـ أو طه ـ أن تبكي ، أن تجري إليه ، أن تضرع . كان عليها على الأقل أن تنتظر شهراً ، سنة ، أما أن ترد في اليوم نفسه أو بعد يوم بتلك اللطمة ، فهذا أوجع مما يقدر عمر على احتماله . وقد يكون ذلك ماجعله يتشكك في أن سارة قد أعدّت اللطمة على مهل وهو غاطس في عشقها . قد يكون ذلك أيضاً ماجعله يعزف في سهرة المفاجأة الثالثة عن الست زهرة ، ويقبل على مدام لور ، ينتقم لنفسه من كلٍ ، كما يشاء ، لما فعلت به تلك التي لم يعد يذكرها إلا باسمها القديم : بنت قطيش .

في اليوم الثاني للطمة سارة جاءه طه ضاحكاً وملوحاً :

ـ شفت لك اليوم سليم أفندي حبيب قلبك . .

ـ طزّ . . لهذا ضحكتك شبر؟

قال عمر متضايقاً .

ـ واليوم السهرة عند الباشا شكيم . .

قال طه منغماً صوته .

ـ طزّ فيك وفيه ، ولولا العيب لقلت في الباشا شكيم . . مليح ؟

قال عمر وقد نهض يدور في الغرفة . وقف طه يقول مشفقاً :

ـ أسرع إذن قبل أن يسبقك . الخواجة ثابت ومدامته هناك وأنت تدور هكذا كرمى لبنت قطيش . . سامحني . لماذا تنقطع عن بيت الباشا ولو ليوم واحد ؟

ـ يا ابن الحرام . . كل هذا وأنت ساكت ؟

صاح عمر وهو يهز طه ثم يفرك جفنيه ، كأنما يفيق من غفوة طويلة . وطار إلى بيت الباشا ، وأسعده أن يسبق سليم أفندي ، وأن تنضم الست زهرة ومدام لور إلى مجلس الرجال على العشاء ، وأن يستحسن الخواجة ثابت جرأته على النساء جميعاً . لكن

الخواجة ثابت حمد الله على أن قاد إليه شاب في مثل سن عمر ، أو أصغر بقليل ، أزاح عنه عبء المشرقة . إنه فياض العقدة الذي وجم عمر لذكره ، وهو يستعيد وجه ذلك العسكري الواقف أمام باب دكان سليم أفندي ، أو الجالس بين المعزين بموت الحاج ، يتطاول على الدنادرة والقصر ، ويشاكس عمر . ولعل زهوة عمر في السهرة كانت ستخبو أثر ذلك ، لولا أن صوت الباشا قد أجفله ـ رغم رقته ـ وهو يثني على عمر التكلي ، ويشهد الست زهرة ، فتلتمع عينا مدام لور ، ويهزّ الخواجة ثابت رأسه ، وتحوص عينا سليم أفندي ، فتناول عمر جرعة صغيرة من الماء ، وأسند ظهره جيداً ، وهو يخاطب الخواجة ، وعيناه تحومان فوق أشياء الطاولة :

ـ هل أستطيع غداً أن أجلس معك قليلاً على انفراد ، بعد إذن الباشا ؟

ثم ينقل عينيه بين الست زهرة ومدام لور مردفاً :

ـ الست زهرة تعرف .

★★★

ماكاد الخواجة يصل إلى بيروت حتى لحق به عمر وخلفه طه . لقد أيقن إثر لقائه القصير المشتت بالخواجة في الأوتيل أن المفتاح الفرنسي هاهنا ، في بيروت . ولئن تهيب ذلك في البداية ، إلا أن عيني مدام لور هونتا عليه ، وهو يردد : ارقص للقرد في دولته . ولم يلبث أن فكر في أن الابتعاد الآن عن الشام أفضل ، وفي القطار إلى بيروت فكر بجلال في أن خطوته الأولى نحو عهده الجديد هذا ، عهد التكلي ، لا عهد سليم أفندي ولا الباشا شكيم ، قد أنجزت بعيداً ، منذ غامر في أضنة وحلب . ودفق خياله بمشروعات مبهمة ، فأغمض يهدهد نفسه ، يؤكد لها أنها تستحق أن تكون سيدة أمرها ، يتمهلها ويداعبها ، محذراً ومستخفاً بجموحها وادعائها ، على الرغم من النجاح الباهر في خلط الأمور على الجمّالة والفلاحين والخانجيّين والست زهرة والأمير جهجاه والأمير مدحل ، والخروج من ذلك كله بالنصيب الأكبر ، سواء أكانت الصفقة صغيرة أم كبيرة .

لم يتبين الخواجة ثابت ولا من وصل بين عمر التكلي وبينهم ، من السوق إلى المندوبية ، أن ذلك الشاب الشامي الصغير قد أفاد في شيء يخصّ الباشا شكيم أو سواه . أما عمر فقد كان يتابع بصمت ودقة ماتردده بيروت عن القتال بين الفرنسيين والسوريين والأتراك الكماليين ، من ادلب إلى اسكندرون ، وعلى جانبي الخط الحديدي الذي بات

يرسم مابين تركيا وسورية . كان يعلم قبل بيروت ان القتال لم يتوقف في جبال العلويين أيضاً . غير أن الساحة ، كما أضاءتها له بيروت ، أكبر مما كان يحسب وأخطر . وفي القطار الى الشام حزم أمره على ألاّ يلعب الآن في تلك الساحة ، وقرع نفسه على غفلتها في الشهور الأخيرة . كان دكان سليم أفندي شراعته الكبرى على الشام ، كما كان أقرب إلى الشوارع والمقاهي والناس ، أقرب إلى الدنيا ، يتفرج ويتنصّت ويطلق لسانه أحياناً . أما بعد الدكان فقد غدا بلا شراعة ، أو أن شراعته صغرت وتشتتت ، وهو يحسب العكس . ولذلك كلف طه قبل أن يغادرا بيروت بأن يحضر له كل صباح أو مساء ، من الآن فصاعداً ، جريدة ما .

في بيروت ، معها أو أثرها ، راح يبحث عن ساحة أخرى له ، لايكون فيها سجيناً بين الشام وجمارك الانكليز ورصاص الفرنسيين والثوار . بيروت هي التي أوحت له أن يسعى خلف تلك الساحة في حمص وحوران . ربما كانت كلمة عابرة من الخواجة ثابت أو أحد الذين يعدّون أنفسهم دهاقنة سوق الطويلة . لم يعد عمر يذكر من أرسل الكلمة التي لم تفلت منه ، كما سواها . ولذلك تتالت أوامره المحيرة لطه ، عشية عودته من بيروت ، وكان الفرنسيون قد ضربوا في الجولان ضرباً مبرحاً .

كان يبدو أشبه بمن يصارع في لجة ، لايخاف ولاييأس ، يتعلم وهو يتخبط ، وقد أذهله أن يتجرأ الثوار على الجنرال غورو نفسه ، وأن يفديه رئيس الوزراء السوري بنفسه ، وأن يدمر الفرنسيون تلك القرى الصغيرة البائسة المتناثرة حول القنيطرة ، وأن يكون للأمير جهجاه أو ابنه أو أي من الأمراء الآخرين ، الصغار أو الكبار ، يد في ذلك ، حتى يحكم الفرنسيون بالإعدام . أذهلته ألسنة الناس وألسنة الجرائد ، وخاف على البدو ، خاف على راغب والمخفر وبيت السعد كما خاف على أم نور الدين والبطيحة والعال وبيت الناصح ، على الرغم من توكيد الأمان في تلك الناحية من الجولان . وفي غمرة خوفه وذهوله ، فكر في أن ماوقع ويقع قد يكون خيراً له ، يخلّصه من صفحة انطوت ، ويدفعه نحو صفحة جديدة ، دون حاجة للست زهرة أو الباشا شكيم ، في مكان آخر من سورية . ولم ينس عمر على الرغم مما هو فيه المزاد الذي طرح فيه الفرنسيون ماصادروا من غلال القرى المنكوبة . اذ لم يكن له أن يترك سليم أفندي البسمة ولاسواه يظفر بالمزاد ، أو يسرح ويمرح على هواه . لم يكن له أن يتفرج متعللاً بالخطر ، فيما غيره يتقدم . لم يكن له أن يؤخذ بمداورة سليم أفندي له حين زاره في بيته ، مذكراً بعهدهما البعيد عارضاً المشاركة في المزاد ، أو تلك الحفنة من الليرات الذهبية

لقاء أن ينسحب عمر ، أو مهدداً بما تخبئه الأيام لكل إنسان ، وبما ينتظر كل إنسان يوم الحساب ، وهو يلوي حنكه : قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق ياعمر . وعمر لايقطع عنقاً ولا رزقاً . إنه يشتغل وحسب . ولأن الباشا شكيم ظل متردداً حين فاتحه بالمزاد ، ولأن الست زهرة كانت غامضة ، فقد آثر نفسه بنصف الربح الذي حققه المزاد ، وأثنى على عفّتها ، فهي أحق بالربح كله ، مادام قد صارع وحيداً .

★★★

أيقن عمر وهو يخرج من اللجة ، ويلتقط أنفاسه ، أنه قد جبل من طينة أخرى ، ليست مثل طينة أحد ممن عرف حتى اليوم ، وإذ راود ذلك فيما بعد ، لام نفسه على غرورها . فعمر التكلي هو على الأقل ابن الحاج المرحوم ، شقيق هولو وخديجة . ولكن نفسه تأبت على هذا النسب ، استصغرته بالأحرى ، كما لم تشأ أن تقترن إلى سليم أفندي ولا الباشا شكيم ولا الخواجة ثابت . . . بل إنها زينت له أن أولاء جميعاً قد يكون فيهم ماينسبهم إليه ، ولهم على أية حال أن يكونوا من طينة أخرى إنْ شاؤا . أما هو ، فله أن يشمخ عالياً ، يبتدع أصلاً وفروعاً ، ولذلك تكون النسبة إليه . وبقدر مايقترب الآخرون منه يكونون من طينته ، لافرق بين طه اليتيم أو الباشا أو أمه العجوز أو أي كان . . فسوى ذلك ليس ثمة إلا المساكين والحمير ، سواء أكانوا باشوات أم خدماً ، خواجات أم أمراء ، فلاحين أم بدواً أم تجاراً ، فرنسيين أم سوريين . إنه عمر العمر ، لا عمر التكلي ، ولو أمكن لجعل الناس جميعاً ينادونه بهذا الاسم الجديد العتيد .

لم يكن هيناً عليه أن يسلم لنفسه بمعراجها . ولعل ذلك ماجعله ينطوي لأسابيع على ذلك الوجع الذي يدفع عنه النوم ، إذ ينبق فجأة في أعماق دفينة ، ويرميه بأشتات منسية ، فتدفعه إلى الحرزة ، تجعله يحنو على العجوز والقبور والشقيقة الصغرى خاصة ، ثم تدفعه إلى الشيخ حسن التي قاطعها دهراً ، مسامحاً من يتقول عليه فيها بالنكران والمروق .

اختار الضحى لزيارة الشيخ حسن أول مرة ، إذ لم يكن سهلاً عليه أن يلتقي هولو وعبد الودود ، أو أن يسعى إليهما بنفسه . ولذلك اكتفى بالمكوث مع خديجة ريثما شرب الشاي ، وتحاشى وهو عائد أن تقع عليه عين حُسْن ، كما اختار الأزقة الجانبية متحاشياً العبور بالنقاش أو بدكان سليم أفندي . كانت قدماه تتباطآن ، وهو يعفو عن نفسه التي حنثت بقسمه ذات يوم على ألّا يدخل تلك الحارة ، حتى يطأطىء هولو وعبد الودود

رأسيهما له . وفي المساء حمّل طه بما قدر عليه من الأكياس الورقية ، وأمره بتوزيعها على بيتي شقيقه وصهره .

في مساء آخر سبقه طه بأكياس أخرى ، وكان يهيء لجولته الأولى في أنحاء حمص ، حيث أصابع الخواجة تلعب ، وحيث يريد لأصابعه هو أن تلعب .

بوغت عمر بهولو كعهده به ، إنْ لم يكن قد ازداد سوءاً . إنه لايزال يتحدث كأنه صاحب البلاد والقيوم على العباد . وليس شأن عبد الودود بأفضل . أما عمر الحنون والكريم فقد تغاضى ، وأكره نفسه على أن يمازح حُسْن ، ويتناول العشاء ، ولسبب مالم يأبه بخديجة التي كانت وحدها ترمقه بإعجاب . ولسبب ما أيضاً صرف طه اليتيم ، وحدث شقيقه وصهره عما يعتزم في أنحاء حمص ، وربما في حوران ، فانبريا يهولان له المصاعب مرة ، يتغامزان ساخرين مرة ، دون أن يفلحا في إثارته . ولعل ذلك ماجعل حُسْن نفسها تردعهما بجفاء ، فيما كانت خديجة تلكز عبد الودود مؤنبة .

في عودته المتأخرة فكر في أنّ عليه أن يسوس شقيقه وصهره على نحو آخر . ولئن أفلح فسيكون قادراً على أن يبدل بهما طه اليتيم وربما نور الدين . هو أولى بهما من الغريب ، وهما أولى أيضاً . قد يرسل أحدهما إلى حمص ، خاصة أنهما معاً صديقان لفياض العقدة . قد يرسل هولو إلى هناك وعبد الودود إلى مكان آخر ، إلى الجنوب مثلاً ، إذ ليس لأصابع عمر العمر أن تلعب فقط في حمص . ثمة أيضاً حوران . ولولا أن الفرنسيين قد أقاموا في سورية دولة بعد دولة ، لكان جديراً به أن يجرب في أنحاء أبعد ، وهو الذي وصل في خطوته الأولى إلى حلب وكيليكيا .

مهما يكن فالساحة لاتزال أمامه رحيبة . لقد ترك له الفرنسيون من سورية الكثير ، من الجولان إلى حمص إلى حوران . ولئن تعثر في ناحية فلا بد أن يفلح في الأخرى . ولسوف يكون بحاجة إذنْ إلى عبد الودود وهولو ، حتى إنْ لم يصرف طه اليتيم . سوف يكون بحاجة إلى حسين فندي وهزاع نصر ، إنْ توجه إلى حوران . أما رعيته في الجولان فلن يكون لها شأن يذكر مادام اللعب ثمة خطراً .

على هدأة وطمأنينة من ذلك أغفى حتى الضحى ، ولم يشأ أن يغادر البيت حتى يؤوب طه . إلا أن أم نور الدين وصلت فجأة ، وبدلاً من أن يفرش لها ذراعيه ، ازورّت عيناه عنها ، وتحرك لسانه :

ـ ما الذي جاء بك ؟

أطبق ذراعاها عليه من الخلف وهمس صوتها يتحلّب اشتهاء :

ـ لم أصبر .
تخلص من ذراعيها واستدار بجفاء :
ـ قلت لك من أول مرة : لاتأتي إلى هنا إذا لم أطلب أنا منك ذلك .

واندفع إلى ثيابه يرتديها وهي تلغو وتلوب حوله ، وهو مصمّ . حتى إذا غادر ، قال دون أن يلتفت وراءه :
ـ عودي الآن .

وفي صدره ترجعت الكلمات الأخرى ، التي لم ينطق بها ، ولكن أم نور الدين سمعتها : لقد انتهت الآن كما انتهت سارة من قبلها . وعلى وقع خطواته بمحاذاة سكة الترام النازلة فكر في أنّ سارة وأمها ، إنْ كانتا قد ردتا عليه ببيت مثل بيت صليحة ، فأم نور الدين لن تقدر على أن ترد . البطيحة ليست سائبة مثل الشام ، وأصابع عمر في البطيحة ليست مثلها في الشام . ولسبب ما ظل يمشي من العفيف حتى الشيخ حسن ، فهللت له خديجة وهو يتساءل :
ـ أين زوجك ؟
ـ يدور على الأبواب ؟

جلس على الكرسي متهالكاً وتشمّم رائحة الطبخ قائلاً :
ـ ماذا تعنين ؟ أنا جائع .

هرعت خديجة إلى الطنجرة وصوتها الشامت يملأ الغرفة :
ـ كنت أعرف أن هذه ستكون نهايته . ترك الكراج ياأخي .
ـ ترك الكراج ؟

ردد في سره مستحسناً ، ثم ناداها :
ـ عجلي أنا جائع . وأخوك ؟ ترك شغله أيضاً ؟
التفتت إليه أكبر شماتة :
ـ أنت الصادق طردوه . ماعاد الكراج يعجبه ولايعجب عبد الودود أفندي . كرمى لهولو ترك عبد الودود .
ـ متى كان ذلك ؟ لماذا لم يفتح أحد منكم فمه أمس بحرف ؟
تساءل وهو يخفي ظل ابتسامته ، متظاهراً بالعتب والقلق . قالت خديجة :
ـ اليوم . اليوم هذه المصائب كلها . اليوم نحس علينا .
وعادت إلى الطنجرة مردفةً :

ـ لولا طلّتك لكان اليوم يوم نحس .

قبل أن يفرغ من الطعام وصل عبد الودود عاجزاً عن أن يخفي ضيقه . هش له عمر وهون عليه ، وهو يرجو أن يصل هولو عما قليل . لكن عبد الودود أكد له أن هولو يهيء للسفر إلى حيفا ، فعقبت خديجة مستهينة :

ـ ماشاء الله ! ماعادت الشام تسعه ؟ وماذا سيعمل في حيفا ؟

ـ على القطار إنْ شاء الله . هولو لايستطيع أن يعيش مثلي هنا وهناك . هولو لايناسبه إلا القطار .

رد عبد الودود بجفاء ، فعقب عمر ببراءة :

ـ إذا كان الفرنسيون لم يحملوه هنا أو في رياق ، فهل سيحمله الانكليز ؟

وهمهم مشبهاً شقيقه باليهودي الفقير ، لادنيا ولادين . ولعن في سره طه اليتيم الذي كان يرميه كل يوم بمثل ينال فيه من اليهود ، أول عهده بسارة . وحك صدغه مستذكراً ، لكن ذاكرته حرنت ، فالتفت إلى عبد الودود ، وراح ينجز على مهل ماعدّه المرحلة الأولى ، مادام هولو لم يظهر . إنها اللحظة التي ليس له أن يفوتها ، كأنما أعدها القدر . فالرجلان بلا عمل ، وهو ماجاء إلا ليلحقهما به . وقد أسعده أن يفرك عبد الودود كفيه ، وهو ينصت إليه باهتمام ، بل بخضوع . ولكن عبد الودود راح يقلب مايمكن له أن يعمل مع عمر ، فهو لايفهم في الزراعة ولا في التجارة . عبد الودود يعرف كيف يسوس الخيل ، ويقود عربة أو سيارة ، يعرف الشغل في الكراج ، وربما في الحدادة ، بل يعرف كيف يسوس العمال ، وبين غمضة عين وأختها يمكن له أن يجيد أية حرفة من هاته الحرف التي تعج بها الشام . إنْ شاء عمر أن يفتح كراجاً ، أو دكاناً للحدادة ، فعبد الودود جاهز . ولكن عمر لن يفعل ، كما لن يمد سكة حديدية أو يسيّر قطاراً من أجل هولو الذي لم يعد رغم انقضاء النهار . هولو هو الآخر ـ كما فكر عمر فيما شحوب القنديل يستل حماسته ـ لايفقه أيضاً لا في الزراعة ولا في التجارة، وقد لايعود حتى ينتصف الليل ، فهل يلبث عمر منتظراً ، أم يذهب إلى حُسْن ، يحرضها على منع زوجها من السفر إلى حيفا ؟ لماذا لايدع ذلك كله إلى الغداة أو بعدها ، ويكتفي اليوم بما تحقق مع عبد الودود ؟ لماذا لايذهب عبد الودود إلى طلعة العفيف ، وحده أو مع خديجة ، بل مع هولو وحُسْن ، فيتابع عمر معهم على مهل هذا الذي بدأه ، ولابد أن ينتهي منه كما يرغب ، مادام عبد الودود يفرك كفيه ويتواطأ ؟ حتى إنْ حرن هولو كعادته ، فسوف يحرض عليه عبد الودود ، وليس حُسْن وحدها ، ولابد أن يلويا معاً

بقياد هولو ، كما يشاء عمر ، وعندئذ سوف يقدر على أن يسافر إلى حمص أو سواها ، وهو أوفر عدة . أما إنْ ظل الحمار يحرن ، فذنبه على جنبه ، ولتحرقه النار في حيفا ، فقد برأ عمر ذمته ، وقام نحو شقيقه ـ كما يقوم دوماً نحو الآخرين ـ بما لايقوم به سواه .

كانت خديجة تبرير ، وعبد الودود يقاطعها أو يزجرها ، وعمر غافل عنهما مع هواجسه ، وهو يتحاشى القنديل الشاحب والعتمة المهاجمة من الباب . ولم يلبث أن نهض يتمطّى ، مشيحاً عن إلحاحهما عليه بالبقاء ، وعن وداعهما الحار ، وزاهداً فيما أمضى نهاره فيه ، وانطلق يخبط في عتمة الحارة ، متشككاً في أن يعود إليها مرة أخرى ، سواء عمل لديه عبد الودود وهولو أم لا ، فمن يبتغي عمر العمر عليه أن يلحق به إلى هناك ، إلى طلعة العفيف ، أو إلى حيث يكون ، وليس عمر العمر من يجري بعد اليوم خلف الآخرين ، خاصة إنْ كانوا مثل شقيقه أو صهره أو أي ممن يملؤون هذه الحارة الكئيبة .

★★★

5

هذه المرة لن تسلم الجرة . راغب الناصح على يقين . هاتف مايلازمه في كل خطوة ، يؤكد أن الجرة ستنكسر فوق رأسه ورأس دهيبة . عليه إذن أن يتهيأ . ليس الأمر مزاحاً . ليس خصومة بينه وبين حسين فندي أو هزاع نصر . ليس نقاراً مع قاسم السعد أو الشاويش . عنقه وعنقها هذه المرة هي الثمن ، فهل يظل مستلقياً حتى يحزّ الخنجر الرقبتين ؟

لايماري راغب في خوفه ، ولكن لاعودة إلى وراء . فما خربه لايعمر من جديد . لقد عرف الخوف من قبل مراراً وألواناً ، لم المكابرة ؟ كان يرتعش حيناً ، يتلجلج ، يغالب تراجع قدميه ، ثم يشكم نفسه ويمضي . أما اليوم ، فالخوف يسري كالحمى ، لايلحف ولايبالغ ، لايتراجع ولايغادر ، وهو يستلقي أشلّ ، فإلى متى تنتظره الخيام التي جرح ؟

قبل أن يحل في مخفر عين فيت تلامح له أن القلق والخطر قد ولّيا مع الحرب والأتراك . منذ يومه الأول في القشلة عمرت جوانحه بالأمان . أما مايصادف المرء في يوم أو آخر ، هنا وهناك ، من خيبة أو انقباض أو شجار . . . فلا يعدو أن يكون غيمة زائلة ، مهما تلبدت ومكثت . وهي قد تمضّ وتستفّز ، بل قد تغلب ، إلا أنها ليست من هذا الخوف الذي يستبد به منذ جن جنونه وجنون دهيبة معه .

ربما كانت البداية في بئر عجم . غالية هي التي ذهبت بعقله ، لابفؤاده . وقد تكون دهيبة كتبت له حجاباً ، أو ربطت له سحراً . قد تكون البداية في الخيام ، حين رآها أول مرة . بل إن البداية ربما كانت حين استجاب لقاسم السعد ، واجترأ على الحكومة ، فأجّرَ جمليها . لابد أنه كانت ثمة بداية يخشى راغب اليوم أنها كانت خاطئة ، فقادته ضد الحكومة وضد البدو ، ضد الشاويش وضد أهله ، بل ضد نفسه . إنها بداية غير بعيدة ، فراغب الناصح لم يكن كذلك قبل أن يعود سالماً من الحرب ، ظافراً

بالمخفر . ولكن أياً كان الأمر ، فلا وقت للندم . بل هو يحسّ أحياناً أنه ليس نادماً على شيء . قد يكون خائفاً وحسب ، وإنْ كان هذا لايليق به ، ولاينبغي له أن يطول . إنه راغب الناصح ، نائب الشاويش ، العود الذي عركته الدنيا بحلوها ومرها ، ولئن انكسرت الجرة اليوم أو ذات يوم ، فلن يحني هامته أبداً .

من يجهل راغب سوف يكتفي بالقول أنه رجل مزواج ، قد يقتله عضوه الذي ظل هامداً دهراً ، ثم استفاق وكأنما لن ينام من بعد . من يجهل راغب لن يذكر مقتله في فؤاده . ليس جرح غالية وحدها . ليست دهيبة ولا قاسم السعد . هي جراح مقيمة وقديمة ، صادف أن نكأتها أيامه الهائنة بعد الحرب ، بدلاً من أن تنكأها الحرب نفسها . ولئن قيض له أن ينجو هذه المرة أيضاً ، فسوف يفضي بهذا السر الكبير الذي لم يبخل به إلا بعد أن فرّ بدهيبة ـ إلى الشاويش ، ليس لأنه رئيس المخفر ، ولا لأنه شقيق صبيحة ، بل لأنه الصديق ، بل الشقيق الأكبر ، أو الوالد الآخر .

كذلك كان أبو جميل حين أفضى إليه راغب بما يدور بينه وبين أهله . كانت صبيحة قد زارت معه العال مرة واحدة وهي عروس . وقد أحبها أهله جميعاً في أيامها الثلاثة بينهم . حتى أعمامه غبطوه عليها . إلا أن ذلك لاينقض ماتفق عليه ، وأخفاه راغب عن الشاويش . لابد لراغب أن يتزوج بواحدة من العال . بل لابد أن يختار واحدة من بنات أعمامه ، لا كرمى للعمومة وحسب ، بل لأنهن أجمل بنات العال . أجمل من بنات الشراكسة . يأتيهن الخاطبون من أقاصي الجولان . صيتهن يبرق ويدوي في الجولان كله ، وهو أصم وأعمى .

ربما كان راغب قادراً على أن ينقض اتفاقه مع أهله ، لولا أن الشاويش يسّر له الأمر . كانت دموع صبيحة وحدها تكفي لتجعله ينكص عن مقايضة أهله بموافقتهم على زواجه منها مقابلة زواجه من واحدة من العال ، سواء أكانت من بنات الأعمام أم لا . فكيف لو أن معارضة الشاويش اجتمعت عليه مع دموعها ؟

أبو جميل هو الذي تكفل بدموع صبيحة ، وبغضب حضر كلها . لم يشترط إلا أن تقيم الزوجة الثانية بعيداً ، في العال ، وتبقى صبيحة بعيداً ، في حضر ، فرضخ راغب للشاويش كما رضخ لأهله ، ولكنه عاد بغتة عازباً ، يطير كل حين شمالاً ، يقضي ليلة أو ليلتين مع صبيحة التي مالبثت أن حملت ، حين أيقنت أن الضرة آتية . ومن الشمال يطير إلى الجنوب ، بعد أن يلتقط أنفاسه في عين فيت ، فقضى مع أم ناصح ليلة أو ليلتين ،

وهي التي لم تنتظر غير دورة واحدة ، حتى تحمل ، فاختار أهله أن ينادوها باسم جدهم الثالث أو الرابع ، فيما اختار أهل صبيحة مناداتها باسم جدها الرابع أو الخامس رجب ، وراغب حائر أمام مناكدة قاسم السعد وحسين فندي وهزاع النصر وعمر التكلي : هل هو أبو ناصح أم أبو رجب .

★★★

بعد أن صار أباً مرتين في أقلّ من شهر - إذ عجل رجب في شهره السابع - توجه إلى الشام ، وكان عمر قد أخذ يشغله كما يشغل بيت السعد والمخفر وبيت الناصح والخيام والبطيحة .

كان يبدو في عزوبيته الجديدة ، وفيما يصله بعمر ، أشبه به يوم عاد من الحرب ، أو هكذا بدا لعبد الودود على الأقل . أما هولو فقد ازورّ عن اقبال راغب عليه ، ولما نوّه بما يجمعه بعمر ، ومايفترض بالتالي أن يزيدهما قربى ، قال هولو بجفاء :
- على العكس ، شغلك مع أخي قد يزيدنا بعداً ياراغب . عمر له دربه وأنا لي دربي . أنا لاأطلب منك أن تختار . كل ماأطلبه ألاّ تخلط بيننا . وهاأنت بعيد على كل حال ، ولكن خذها مني نصيحة لوجه الله : مافعلته بزواجك غلطة لاينبغي لك أن تكررها . فهمت ؟ أنا لاألومك . أنت حرّ ، ولكن ليست الدنيا امرأة ، ولاتستطيع كل مرة أن تضع رجلاً في حضر ورجلاً في العال ، يداً مع عمر ، وإن كان أخي ، ويداً معي .

ثارت خديجة في وجه هولو مذكرة بواجب الضيافة ، وبواجب الأخوة ، فنهرها عبد الودود . أما حُسْن فقد تململت حائرة ، وأطرق عبد الودود ، ولم يستطع راغب أن يتابع السهر ، على الرغم من أنه أغضى ، وراح يسأل عن فياض وعزيز ، فزادت أخبار هولو من وطأة السهرة عليه ، وخرج دون أن يتناول العشاء .

كانت الليلة الفرنسية الأولى له في الشام . لقد ألفى نفسه فيها تائهاً ، صغيراً وخائفاً ، على الرغم من بذلته ورتبته . لم يضايقه فقط أن يقابله هولو على ذلك النحو ، بل أن يكون بين الشقيقين هذا الذي لااسم له إلا الشقاق . وفاقم ضيقه وجهله ببيت عمر ، وعجبه من أن هولو وعبد الودود يجهلانه ايضاً ، فقضى ليلته يتقلب ، وشريكه في الغرفة يشخر ، ونرجيلة صاحب الأوتيل تقرقر قرب الباب الذي لاينغلق .

في الصباح الباكر سعى إلى باب القشلة التي تفور بالفرنسيين ، يسأل عن الملازم تحسين شداد . ومن القشلة تهادى إلى براكات الشراكسة ، عسى أن يكون الملازم هناك ، ومن البراكات تباطأت خطاه نحو القلعة ، ثم أيس من السعي ، فلا بد أن الملازم تحسين قد ضاع مثل عزيز وفياض ، فاستدار إلى المرجة ، ولم يلبث أن غادر الشام مكروباً ، كأنما ينشد النجاة بالنأي عنها ، ولكن وجهها الفرنسي لم يبارحه طوال الطريق إلى عين فيت .

مثل الدجاجة التي توشك أن تبيض كان قاسم السعد ينتظره ، وفي أول غفلة من الشاويش انتحى به غربي المخفر وهمس محاذراً :

ـ تعرف الحولة ياراغب جيداً ؟

أضحكه السؤال ، فأردف قاسم مدارياً ارتباكه :

ـ حول البحيرة أقصد ، الأرض هناك . .

قاطع راغب مستنكراً :

ـ تسأل راغب الناصح ؟ ماذا تريد أن أعدّ لك ؟ وادي دبورة ؟ وادي سيراس ؟ قل ياقاسم ، بلا لف ولا برم ، ماذا تريد ؟

توقف قاسم قائلاً وهو يتخفف من ارتباكه :

ـ غير هذا . . ماذا تعرف أيضاً ؟ اليهود هناك ؟

ـ ماهم اليهود هناك ؟ قل أنت ياولدي : ماذا تعرف عن اليهود في طبريا ؟ إذا احتجت لليهودي ياقاسم بيقولك اليوم عيدي . .

ـ الحاجة لراغب ، لا لليهودي . خلنا في الحولة . .

ـ هل تقصد هؤلاء المحتالين الذين يلعبون على ذقون الفلاحين ويبلعون الأرض . .

أسرع قاسم وقد أسعده ألا يكون راغب غافلاً عما يجري حتى في الحولة :

ـ بلعوها وخلصنا . ولكن هل نتركهم يخرونها ؟

قهقه راغب عالياً وتناثرت كلماته :

ـ كلب الحداد بلع منجل ، قالوا عند تصريفو بتسمع صريخو

تلفت قاسم حوله ، وهو يهدىء راغب ، ويغريه بما لاح منْ أسراره التي لايفضي بها إلا بمقدار ، ولايجدي راغب أن يتخابث أو يلح ، وقبل أن يفترقا تعاهدا على العمل معاً .

في العشية سارا مع آخرين متلفعين بالعتم . لم يتبين راغب أياً ممن كانوا معه في أولَ غارة . حتى قاسم السعد لم يعد يتبينه بعد أن تكاثروا . طلسم عليه اللثام والهمس والصمت والخطر ، فضلاً عن العتم المطبق . وفي الفجر حين آب سالماً وواثقاً من الضربة التي ضرب ، بدا له كل ما فعل منذ العشاء كابوساً لطيفاً ، يتصادى فيه صوت قاسم السعد ، وقد جاءه ذات يوم منسي ، يحوص مثل الدجاجة التي توشك أن تبيض ، ثم ينتحي به ويهمس محاذراً :

ـ ماقولك في مشوار نتفرج فيه على المفرزة الانكليزية ؟

بوغت راغب ، وظن أن قاسم يمازح أو يلعب أو يمهد لغاية أخرى . ثم حلا له مادام قاسم جاداً أن يرافقه ، وكانا وحيدين حتى لاحت المفرزة ، فإذا بآخرين ملثمين .

ترجعت في صدر راغب أصداء الأتراك والانكليز والحرب ، قصية وعزيزة ، ولعله أوجع في الضرب ، كما أكد قاسم وهما عائدان في الفجر ، وقد قامت قيامة المفرزة . كان كابوساً لطيفاً أيضاً ، مالبث أن تلاشى ، مادام قاسم يطبق شفتيه ، وراغب لاه في عمر وفي الزواج ، والانكليز قد رحلوا . بيد أن قاسم عاد إليه سريعاً هذه المرة ، قبل أن يلتقط أنفاسه من ضربة الحولة ، ومن لفتة إلى أم ناصح ولفتة إلى أم رجب . كانا يتناولان العشاء في بيت قاسم وحيدين ، وقاسم يحوص ، فإذا براغب يصحو فجأة ، فيرمي قطعة الخبز في الطبق ويهمس :

ـ قاسم : حفظتك مثل الفاتحة . والله العظيم لن آكل لقمة ثانية حتى تفرغ جرابك . الحولة وخربناها ، ماذا تريد الآن ؟

توقف قاسم عن الطعام وتبسم متسائلاً :

ـ ماذا أريد ؟ صدقني لاشيء ، أنت تعرف العشائر المشبوحة من الحولة حتى القنيطرة ، بل من . . .

قاطعه راغب ساخراً :

ـ وأنت ، سبحانك يارب ، ألا تعرف ؟ الحمار هنا يعرف . هل تريدني أن أسلسل لك حسبهم ونسبهم من الفضل بن عباس ابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى . .

وصمت هنيهة ثم علا صوته :

ـ قاسم : قلت لك حفظتك مثل الفاتحة . من كم يوم قلت لك بلا لف ولابرم . مالك تلعب معي كأننا أولاد ؟

عاد قاسم إلى الطعام وهو يسأل بأناة :

ـ مادمت عارفاً بالحسب والنسب ، ماقولك في النعيم والرفاعية ؟
ـ ما للنعيم والرفاعية ؟ كنت تسأل عمن بين الحولة والقنيطرة . ماكنت تسأل عن الفضل ؟
ـ اتركنا منهم جميعاً . أنت تعرف حاصبيا وراشيا ؟
تعوذ راغب من الشيطان ، وصاح حانقاً :
ـ أعرف ياسيدي أو لا أعرف . خلّصني .
ضحك قاسم وهو يبلع لقمة صغيرة ويقول :
ـ كل كل . ماقولك فمن يهاجم المخافر هناك ؟
انحنى راغب على الطبق مهمهماً :
ـ هاقد وصلنا .. زبدة الكلام . كل علمي أن النعيم والرفاعية يشاغبون هذه الأيام . ولكن ضد من بالله عليك ؟ أنت أدرى بالبدو ياقاسم . دائماً يشاغبون .
ـ اتركنا منهم . سألتك عن الذين يهاجمون المخافر فرنسية أم انكليزية ، لافرق . . ماالفرق إذا كان المهاجم من البدو أم راغب الناصح ؟
ـ هكذا إذن ؟ وبعد قليل لافرق حتى إذا هاجموا مخفر عين فيت وقتلوا قاسم السعد .
ـ اطمئن .
ـ كيف تريدني أن أطمئن ؟ هذه المرة ليست الحولة وليسوا اليهود . ليست المفرزة الانكليزية . ونحن كما قلت لك منذ أول مرة لسنا سائبين . أنت عسكري ياقاسم ولك حكومة في الشام .
ـ الله يلعن من ذكرت . انسَ كل ماحكينا .

قال قاسم مستغرقاً في الطعام ، ولكن راغب ثار ، فليس هذا مايريد . لقد بذّ قاسم وسواه في الإغارة على المفرزة الانكليزية . كما سبق الجميع إلى الحولة . إلا أن المشوار هذه المرة بعيد . وقاسم لم ير فرنسا في الشام . وقبل ذلك كله وبعده ليس لقاسم أن يعامل صديقه الذي يكبره مثل غريب أو جاهل . هل يظن أنه وحده من يكره الانكليز والفرنسيين ومن يبلعون أراضي الحولة وطبريا ؟ هل يظن أن الآخرين لايحفظون السر والأمانة ؟ ومن هذا الذي نصّبه هنا يقضي ويمضي ؟

مراراً خرجا معاً بعد ذلك العشاء ، نهاراً وليلاً ، فقاسم لم يعن ماذهب إليه راغب . وراغب يحنق سريعاً ويصفو سريعاً ، مثل سماء هذا الشتاء . وهو الذي يبتدع للشاويش حجة بعد حجة . فالمطر يطيل جولة له ولقاسم . القافلة تحتاج وتحتاج . وصلة

راغب بالخيام تتوطد ، من عند الأمير جهجاه إلى نبع الصخر . ودهيبة تلوح من بعيد ، في خيمة ما ، هنا أو هناك . لكن راغب لايكاد يلتقط أنفاسه ، فليس قاسم ومن معه من يشغله فقط ، ليست أم ناصح ولا أم رجب ولا عمر التكلي ، ثمة الاضطراب الذي يتفاقم في سره ، فيجعله يتأخر عن قاسم وصحبه مرة بعد مرة ، أو يشك في أن الشاويش نفسه قد يكون يخرج مثلهم أيضاً ، على الرغم من قرب الأمطار أو الزمهرير أو الثلج ، بل قد يكون هزاع نصر وحسين فندي يخرجان ، وقد يكون قاسم نفسه لايعلم من الأمر كله أكثر مما يعلم هو ، ولكن إلى متى يمكن أن يمتد ذلك ؟ مامعناه وماجدواه ؟ من هو راغب الناصح ومن هو قاسم السعد أو الشاويش أو أي من هؤلاء الملثمين حتى يفعلوا مايفعلون ؟

منذ أوقعه المرض في تلك الأيام المشمسة من كانون شرعت الوساوس تداهمه . كان الشاويش قد حذره من المكوث تحت الشمس مكرراً : شمس كانون مثل الطاعون ، ولكن الآخرين كانوا يلجؤون إليها من برد المخفر أيضاً ، فلماذا مرض راغب وحده ؟ ولئن بدأ خروجه مع قاسم يتباعد إثر ذلك ، فهل كان سينقطع بعد أن طال الأمر ، وتفاقم خطره ، قبل أن يقطعه الفرنسيون الذين ماكاد الربيع يطل ، حتى أرسلوا طائراتهم ومدافعهم تنهب الأرض نهباً ؟

لقد التهبت الحولة ، ودمر مادمر في القنيطرة ، وفرّ الفلاحون من القرى والمزارع ، وقوضت الخيام ، ثم تراجع الفرنسيون وأطبق الهدوء ، ونكس قاسم رأسه ، أما راغب الناصح فقد تنفس الصعداء ، حانياً على سرّه ، ملوحاً له ، يتقرى ملهوفاً الزهو في العيون التي يلاقي ، فما من أحد قصّر ، وبين هاته العيون لاريب من شاركه وقاسم لياليها ، أو من قضى ليالي أخطر ، وأوجع الفرنسيين ـ ربما ـ أكثر ، ولكن ذلك كله قد انقضى الآن ، وينبغي له أن يّمحي من ذاكرة راغب ، لا نكراناً ، بل كتماناً ، كما كان قاسم يتشدق ويعلّم .

هل الربيع هو الذي قاد حصان راغب بعيد ذلك وهو في طريقه إلى العال ، وجعل طريقه تتلوى حول بئر عجم ؟

★★★

كانت أكوام الأشواك والحشيش المكدسة تتوزع هنا وهناك ، تغالب الشمس المجففة ، وكانت الأسطحة المائلة تزهو نظيفة ، تدعوه إلى واحد منها ، سوف تكون فيه

غالية ، إلا أن الحصان اختار أن يخب حول القرية ، وترك عيني راغب تتقافز بين التنانير وأسراب الدجاج السارحة وعيدان الذرة وألوان الثيران ، والأشجار التي بدت أبعد مثل غابة مرسومة ، لكأن البدو لم يعبروا بها يوماً ، أو لم يجرؤا على أن يمدوا إليها يداً .

خيل لراغب أن الحصان عاد مهراً يتقافز ثمة ، أو أنه هو قد عاد طفلاً ينط مثل السعدان من شجرة إلى شجرة ، من قرية إلى قرية ، دون أن يطأ على الأرض . وتمازج الحفيف المقبل عليه من الغرب بهدهدة حنونة تلثغ وهو يزقزق ، ربما كانت أم راغب أوجدته ، تبعث الرهبة المقدسة في جوانحه وتحكي ، فالقرية التي يحمي غابتها ولي من أولياء الله لاتجرؤ يدٌ على أن تقطع منها غصناً ، لايد من القرية ولا يد غريبة ، لا بدوية ولا سواها . ووجف راغب والحصان خاشعين ، إذ طالما عبرا بالبلوطات الهائلة للشيخ القادري ، طالما فاءت عليهما سنديانات أكبر لمزارات أخرى . وراغب لم ينس يوماً قبل الحرب أن يحمل حجراً صغيراً إلى القادري كلما عبر به . ربما لم يكن ـ وقد غدا شاباً ـ ليقبل الحجر ، ولا ليتضرع ، شأن راغب الصغير . ولقد ألهته دنيا بعد الحرب عن ذلك وعن سواه ، إلا أن راغب الذي يتهادى فوق الحصان لازال عامراً بالإيمان . وهاهو ذا يجدد العهد لله ، وقد غدت ذؤابات الغصون في متناول يده . وكأنما بارك الله له العهد ، إذ أطلت غالية من طرف الغابة المحاذي لصفوف الذرة ، فانلجم الحصان هنيهة قبل أن يتيقن منها ويخفق فؤاده ، مثل راغب ، ثم يتابع الهوينى نحوها ، فإذا بطفل يزعق ، والحصان يتسمر ، وغالية تقف ، وراغب يقفز .

سكت الطفل ورفرفت غالية مثل الطير . ضاع راغب بين غالية التي أمامه وغالية التي طارت بعيداً . لم يقو فؤاده على ملاقاة عيني هذه وعيني تلك ، فطارت إحداهما ثانية ، فيما طوى جناحيه على الأخرى ، وغلغلت غالية في عبه ، تغمغم مثل الحمامة عاتبة على الدنيا كلها ، من أبيها إلى زوجها إلى راغب الناصح إلى العرب والشراكسة إلى المرأة المنكودة في هذه الدنيا ، أياً كانت ، إلى قلبها الضعيف ، وأعجزه الكلام والبكاء ، فأقعى كسيراً يلوب على بارقة أمل ، يتلمسها في برودة الظل الناعش تحت الأشجار الوارفة ، وكانت قصبات الذرة تتمايل ، والحصان يحمحم ، والطفل يثغو فوق العشب .

استلقى راغب بجوار الطفل . نسي ناصح ورجب وأغمض عينيه . أغفى الطفل وحدبت غالية عليه ورأى راغب ظلها ينسحب فوق عينيه ، رأىَ ذراعاها ينفرشان قريباً من شفتيه ، وأذكرته حلمتي ثديها بفجيعة الفطام . تململ ينبعث من الأرض ، يتوسد ذراع غالية ويطمر رأسه الصغير في حضنها . تمرغ الجسدان بالأرض ووحدتهما غيمة حبلى

لافكاك لها من أن تمطر الآن ، ولو كان في ذلك موتها ، وبعد لأي رفرف الطفل مثل الطير ، غمغم مثل الحمامة ، وصهل الحصان ، فاستفاقا ، وشبّا يتسابقان في ستر عريهما ، وهي تنوح :

ـ امش ياراغب . امش يابن الناس . لاترجع إلى هنا كرمى لنبينا محمد . إذا كنت تحب غالية فلا ترجع . ويلك ياغالية ماذا فعلت ؟

كانت خائفة حقاً ، ولكنه لم يكن أقلّ خوفاً منها . بيد أنها مالبثت أن تناولت الطفل ، وألقمته ثديها ، وتجلت امرأة باهرة وصارمة ، لعله لم يرها من قبل ، وهي ترد على إلحافه وتهوينه :

ـ لا جزاء للفضيحة إلا الموت . أنت تعرف وأنا أعرف . لو عدت ولم يقتلوك فسوف أقتل نفسي . امش يابن الناس حماك الله .

لم يرعو راغب . قضى مع أم ناصح ليلة واحدة . لم يستطع أن يضاجعها فحردت . وفي الصباح عجل إلى عين فيت ، وانعطف بالحصان نحو بئر عجم ، يدور حول تخوم الأشجار والذرة ، يتحاشى أن يصادف أحداً ، حتى فاجأته البندقية من تحت أكمة الزعرور ، وصاح به ذلك الصوت :

ـ هذه المرة لن أرميك من فوق حصانك . ابعد عن هذه الأرض واتق الله . انظر كيف تصون عرضك .

التحم بالحصان وتداخل في جلده . أدرك الحصان مايدور فجرى . وكان آخر ماوقعت عليه عين راغب جمعاً من الثيران ، فخاف أن يكون ذلك الصوت قد أخصاه مثل أي ثور من القطيع ، فهمز الحصان الذي أيقن من النجاة ، ولكنه اندفع أقوى ، حتى كاد راغب أن يسقط عنه وهو ينكر أن يكون قد رأى بندقية أو سمع صوتاً ، بل ينكر أن يكون قد صادف غالية ، فغالية مقيمة في القلب ، جرحها ينغل في روحه ، يكاد يودي به قبل أن يلجئه المخفر ، وتوقعه الحمى أياماً ، لاينطق أثناءها حين ينطق إلا باسم غالية . ولما أبلّ كان ينتظره ازورار الشاويش ، وغياب قاسم .

★★★

هزاع هو الذي جلاله سرّ الشاويش ، عاجزاً عن أن يكتم ضحكته الساخرة القلقة . فمادام راغب قد هذا باسم غالية ، فذاك هو إذن ماجعل الشاويش كظيماً ،

لايفرج شفتيه ، ولاينظر إلى راغب . أما قاسم فمنشغل بعمر التكلي . وعلى راغب إذن أن يفرّ اليهما من المخفر . وعلى قاسم ـ الذي أكّد ماقال وأضحك هزاع ـ أن يتدبر مع الشاويش غياب راغب برفقة عمر . على عمر نفسه أن يتدبر ذلك ، فلن يعود راغب إلى المخفر حتى يكون قادراً على أن ينظر في عيني الشاويش ، أو يكون الشاويش قد غفر له .

كان راغب يكرر ذلك على قاسم متلعثماً ، خجلاً ومتألماً ، وعمر يصغي مستنكراً ، يهمّ في أن يعذب راغب ، فلا يسمح له بمرافقته ثم يرثي له ويلعنه ، ويعد نفسه بما يسلّي في مشواره الجديد عبر ولايته العتيدة ، سعيداً يتراجع راغب عنه خطوة أخرى ، ليقف ثمة ، مع طه اليتيم ، فقد كان خطأً منذ البداية أن يسمح عمر لراغب بالظهور إلى جانبه هكذا ، كأنه ندّ له ، وليس واحداً من رعيته .

راغب نفسه ماكان قادراً الآن على أن يسير إلى جانب عمر . كان يطرق مستسلماً لمناكداته ، يرجو في صمته أن يحذو طه حذو عمر أيضاً ، فليس ذلك غير بعض ماتستحق نفس راغب الخبيثة من عقاب .

لقد استهواه عمر منذ البداية ، ومليًّا فكر من بعد فيما ينطوي عليه ذلك الشاب من قدرات ، فيما يجذب الناس إليه ، في ألغازه وتناقضاته . كان عمر يبدو لراغب ضعيفاً وساذجاً ، يقدر أن يلعب بعقله مثل الطفل ، حتى إذا هم بذلك ، تكشف عن رجل صلب ومحنك ، عن خبيث بخاصة . وأياً كان لاتنقصه القوة . كان راغب يشفق على مايخيل إليه من تردد عمر وجهله ، يود لو يأخذ بيده ، فإذا بعمر ، حيث ينبغي أن يكون ، خبيراً وصارماً ، لاهو بابن الحرزة الذي استهان راغب بأصله ، ولا هو مثل من عهد أو عرف من الوكلاء أو التجار . وعلى الرغم من استخذائه الآن ، وهو ينقاد خلف عمر ، فقد كان أقدر ، كلما نأى عن عين فيت ، أن يفكر بذلك ، ويقرأ في سرّه مايباعد بين عمر وهولو ، ويميل الى هولو رغم غلطته .

كان راغب ينهض من عثرته رويداً ، حتى بات حين وصل ركب عمر إلى سهل البطيحة اجرأ على أن يرفع صوته ، أو يقترب من عمر ، أو ينهر بطه ونور الدين ، بعد أن انصرف عمر إلى بيت المختار ، ليبيت ليلته هناك .

في الصباح ، ومن وادي الشيخ علي ، حيث يقوم بيت أم نور الدين على حافته الجنوبية ، إلى وادي الهوى ، سارا معاً ، عمر وراغب ، فيما بكر نور الدين وطه إلى جهة أخرى ، وقد أسكرت الجميع فرحة الموسم .

كان عمر ينظر بكبر إلى مايهيء الفلاحون للسقوف الطينية الخفيضة ، وراغب يعدد مزهواً : أعواد القصب التي تنفرش فوق العوارض الخشبية ، الطين الذي ينفرش فوق القصب ، إلا أن عمر قاطعه مستخفاً :

ـ السقوف المائلة لهذه المنطقة كلها أفضل . من حضر إلى بيتكم . أما رأيت ماذا يفعل الشراكسة ؟ أما رأيت في بئر عجم تلك الأقفاص ماأحلاها ؟! أغصان نحيلة ، نعم ، ولكنها قوية ، قوية وجميلة ، وفوقها ماذا ؟ فوقها قش الذرة ، وفوق القشّ ماذا ؟

انكفأ راغب هنيهة إذ لاحت له بئر عجم ، وخشي أن يكون عمر يغمز منه ، فهم أن يسأله عما إذا كان قد صدق أنه يفقه في كل أمر ؟ ومادرى ابن الحرزة أو ابن الشام بما يلائم بئر عجم أو هذا الوادي ؟ إلا أن راغب كتم السؤال ، وآثر أن يلتفت بعمر إلى أمداء السهول ، وخير الله الدافق هذا الموسم ، فانتفج عمر :

ـ يوم رفضت البذار بالقمح الجولاني ، بقمحكم الأبيض ، وقلت نبذر بقمح حوراني ، كل واحد منكم صارت طيزه تحوص وتلوص . نسيت ياراغب ؟ قلت لكم : نغير البذار ، ضروري للأرض ، وقمح حوران ذهب ، قاسي ويلمع مثل الذهب . واحد مثلي معذور اذا لم يفهم عليّ ، ولكن ماذا أقول في أولاد الخمسين والستين سنة ؟

اغتبط راغب لأنه أشغل عمر بعيداً عن بئر عجم ، ولكن سولت نفسه إليه أن ينغص على عمر انتصاره ، فتساءل اثر صمت قصير :

ـ افرض أن الفرنسيين في القنيطرة صادروا المحصول وأتلفوه ، فماذا ستفعل ؟

امتعض عمر ونظر شزراً إلى راغب :

ـ فأل الله ولافألك .

ـ افرض .

أصرّ عمر ، وأومأت عينا الخواجة وعينا مدام لور لعمر ، فتبسّم وقال :

ـ ولماذا يفعلون ؟

ـ أنت تعرف أكثر مني . ألف سبب . حق باطل ، ما الفرق ؟ افرض . .

أرخى عمر ضحكة صفراء قائلاً :

ـ قالوا للديك صيح ، شو قال ، كل شي بوقته مليح . خايف على عمر ياراغب ؟

تراجع راغب مكتفياً بما عدّه وخزة ضرورية لعمر ، ولو كانت صغيرة . وفكر في أنه قد يكون يثأر لاستخذائه أمس وأول أمس أمام عمر وغير عمر ، فأنكر وغذّ خطاه يتقدم عمر ، وقد أخذت تهب الريح الشرقية الحارة تلفحهما ، وفوقهما تتكوم الغيوم .

قرب وادي الرقاد كان مبيتهما تلك الليلة . كان الوادي يهدر ، ومن جوفه تتردد أصوات الحصى والأحجار التي تجرفها السيول الثلجية المندفعة من الجبال القصية ، حيث أودع راغب زوجة وولداً ، فهفا فؤاده ، وودّ لو أن المساء يتأخر ، كي يفسح له أن يطل على الوادي ، يتقرى أثراً من حضر ، ولكنه أجفل كالملدوغ ، صاح ولعن الشيطان الرجيم ، ولعن في سره نفسه الخبيثة ، التي تنشد السيل أثراً لصبيحة أو لرجب أو لأي إنسان كان . وأنكر عمر ماحل به ، وأقسم أن المرض قد عاوده وهو يسبقه نحو أقرب بيت .

اشتدت الريح في الليل ، ولكن السماء ضاءت ، وأغفى عمر متأخراً وقلقاً ، يكرر دعاء من حوله ، فالمطر الآن كارثة ، وإذا كان مطر نيسان يساوي السكة والفدان كما تمطّق راغب وقال ، فماذا يفعل مطر حزيران .

مبكرين نهضا ، وكان البيت المضيف قد سبق ، وكانت الريح قد هدأت ، إلا أن المطر الذي غافل نوم الجميع كان قد أتى على كل شيء . رفض عمر أن يتناول الافطار ، وغصّ حلق راغب ، وكانت الشمس قد أشرقت كأن شيئاً لم يكن .

تقدم راغب نحو الجسر المصري وعمر لاينبس . كان الوادي أشد عكراً وأقوى هديراً . كان مايتدحرج في جوفه صخوراً ، لاحصى ولا أحجاراً . تسمر راغب فوق القنطرة يرقب الدوامات التي تلفّ دعائم الجسر ، فيما نأى عمر . رمى راغب بنفسه أسفل وتركها تدوّم حتى تتلف أو تنضج . فكر في أنه لو لم يفعل ، لكان على نفس أخرى أن ترتمي ثمة ، أو يرميها بيديه . وماكان بوسعه أن يغادر لولا أن عمر صاح ساخطاً ، فجر راغب قدميه يلحق به ، مشفقاً وشامتاً ، ولعل ذلك ماجعله يقطع الصمت الذي طال متسائلاً :

ـ أيهما أفضل : التجارة أم الزراعة أم . .

لم يستطع أن يكمل ، ولم يرد عمر ، فلحق به بعد قليل وقال مواسياً :

ـ كلها مثل بعضها ياعمر . . أليس كذلك ؟

ـ مايعنيك أنت ؟

رد عمر بقرف . استاء راغب وسكت . قال عمر بعد صمت آخر :

ـ لو خيروك ماذا تختار ؟

ـ بين ماذا وماذا ؟

ـ بين الزراعة والتجارة ؟

ـ لا أعرف .

ـ أنت لاتصلح لشيء .

ـ ربما ، وأنت ماذا تختار :

ـ أختارهما معاً .

ـ وهل تصلح لواحدة منهما فقط ؟

ـ أصلح لكل شيء .

قال عمر باعتداد وحنق ، وانطوى على نفسه طوال ماتبقى من الطريق ، وراغب غير مبالٍ .

★★★

حين عاد إلى عين فيت أسرع إلى بيت السعد ، واندفع نحو قاسم خائفاً :

ـ هه ؟ مازال أبو جميل . . .

قاطعه قاسم برماً :

ـ أبو جميل في حضر .

ـ مازال غاضباً ؟

ـ اطمئن .

ـ مابك إذن ؟ وجهك مثل وجه البومة ؟

زفر قاسم وتربع على البساط ، وتربع راغب قبالته ، ضنيناً بفرحته الصغيرة ، مشفقاً على قاسم من الكآبة التي تزم شفتيه وتقبض وجهه . حاول أن يسري عن صديقه ، مازحه ، ناكده ، هذر بما كان منه ومن عمر ومن المطر والفلاحين ، إلا أن قاسم ظل لاوياً عنه وعن إلحاح أبيه على العشاء ، فاقترب راغب منه ، وهزه من كتفيه :

ـ مئة مرة قلت لك بلا لف ولا برم . بلا لعب أولاد وشغل نسوان ياقاسم . إما أننا بعد هذه العشرة أصدقاء أو . . أو ماذا أقول . . ؟

تراخت يداه وانسحبتا وحدق حزيناً ، فتمتم قاسم :

ـ أو ماذا ياراغب . . ؟ قل . . نحن أخوة ، وأنا لست ولداً ولا امرأة . . كل مرة تعيرني ؟

رفع راغب رأسه بتؤدة وسأل حانياً :
ـ مابك ياأخي ؟
ـ دنيا .
نطق قاسم وأطلق زفرة طويلة . قال راغب :
ـ دنيا ؟ نزلها عن كتفك . .
تقلقل قاسم في جلسته وتمتم :
ـ ليتها تنزل .
ـ بل ليتك تقدر .
ـ يعني الواحد منا يقدر أن يحملها على كتفه وينزلها متى ماشاء ؟
ـ إلا إذا كان خرعاً مثلك .
ـ لاتسخر بالله عليك .
ـ ومن قال إني أسخر . كيف ترى نفسك ياقاسم ؟
ـ واحد من عباد الله . ماذا تعني ؟
ـ عظيم . أعني أنك واحد من عباد الله . والله أنعم عليك ، وغيرك يحسدك . ماذا تريد إذن ؟
أمعن قاسم في راغب هنيهة ثم جاء صوته من بعيد :
ـ ماذا تريد أنت ياراغب ؟ ماذا تريد من عيشتك ؟
ـ بنت كلب . حلوة ومرة . لاأريد منها شيئاً . ماعدت أريد منها شيئاً . نزلتها عن كتفي . بنت الكلب لو تتركني بحالي . . وأنت ؟
قال قاسم وهو يمعن عبر الباب في العتمة :
ـ أنا أريد الكثير .
ـ لم أسمعك من قبل تخرف هكذا . .
ـ أنت لاتسمع إلا نفسك .
ـ هات مواعظ . أنت هكذا دائماً : تكبر الحجر ، فلا تضرب . كان علي أن أفطن إلى ذلك . معك حق . ماكنت هكذا يوم عرفتك . تقول إني أخوك . خلني أفهم حتى أساعدك . .
تبسم قاسم ومدّ ساقيه جانباً وهو يقول :
ـ تساعدني بماذا ؟ طيب : أريد أن ألحق بأخوتي في أمريكا . هات ساعدني .

ـ هذا ماطلع معك أخيراً ؟ ولماذا ؟ ماالذي ينقصك هنا ؟

ـ كل شيء .

ـ قلت لك دائماً تكبر الحجر . هون عليك ياقاسم . اترك أمريكا لأصحابها ولاتكن مثل البغل الذي يرفس النعمة . ماذا ينقص هذا البيت غير صبية حلوة وأولاد يرغطون ؟

ـ قد أكون بغلاً ، ولكنها ليست نعمة . وماينقص هذا البيت ينقص كل بيت . أنا نفسي لاأعرف . ولكن ألا ترى كيف صارت حالتنا كلنا ؟

ـ يعني كنا أحسن ؟ واحدنا هو هو ، يأكل ، يشرب ، ينام ، يركب ، يشتغل ، عسكري مثلي ومثلك أو أمير ، يحارب يمرض يموت ، هذا عمرك وليس عليك إلا أن تعيش .

ـ لا ياراغب . الدنيا فيها غير هذا . يمكن كانت أيامنا غبراء ، ولكن كيف هي الآن ؟ هذا ماقصدت . لو كان كلامك صحيحاً ، لماذا فررت من الأتراك إذن ؟

ـ لاتلخبطني . تلك أيام وهذه أيام ، وكلها أنحس من بعضها . من أنت حتى تفكر فيها ؟

ـ أنا قاسم السعد ، وأنت راغب الناصح ، وكل واحد يحق له أن يفكر فيها . . لا بل عليه أن يعدلها .

ـ بطل .

ـ الأبطال راحوا ، من نجا منهم من الموت أمس يلتف اليوم على رقبته حبل المشنقة .

ـ ماقصّر أحد منا . والله سبحانه وتعالى لايكلف نفساً إلا وسعها . ومع ذلك فماذا جنينا ؟ زدنا الطين بلّة ؟

ـ أما رأيتهم إذن كيف صاروا في القنيطرة مثل الفئران ؟ أما رأيت كيف تراجعوا عن تقسيم البلاد ؟ هذه المرة عادت حلب وعاد الساحل ، وغداً يعود لبنان وتنتهي دولة الدروز أيضاً .

ـ وبعد غد تعود لك فلسطين ، وهذه الجديدة سموها ماذا ؟ شرقي الأردن ؟ أم أنك ماعدت تريد أن تحارب الانكليز واليهود يابطل ؟ ألا تريدهم أيضاً أن يرجعوا لك الملك حتى لو كان في أمان الله على عرش العراق ؟ أتعرف ياقاسم ؟ تستحق أن تكون ضابطاً لا. عسكرياً . تستحق أن تكون زعيماً .

ـ لاتسخر بالله عليك . من هو الضابط ومن هو الزعيم ؟ أبوه آدم وأمه حواء مثلي ومثلك ؟

- صدقت ياولد ؟ صدّق قاسم السعد ياناس : الملازم قاسم السعد ، الباشا قاسم السعد ، ضاع عقل الولد ياحسرة !

- عقلي في رأسي ياراغب . ولولا فرنسا كنت ترى قاسم السعد غير ماتراه اليوم . وراغب الناصح يمكن كنت تراه غير ماتراه اليوم .

- قبل قليل كنت تريد السفر إلى أمريكا ، والآن تريد . .

- اسكت بالله عليك . زدتني بلبلة وزدتني غمّاً والله . أنت تقلب الكلام على هواك . أما جعت ؟ أما نعست ؟

قال قاسم وهو ينهض متثاقلاً ، وقد ضاق بنفسه وبراغب ، وكانت الريح الشرقية الحارة قد بدأت تهب ، فاتجه نحو الباب مشرعاً صدره ، ولحق به راغب ساخطاً .

★★★

نسي راغب غالية ، ولعله نسي زوجتيه وولديه ، فما عاد يشبح من حَضَر إلى العال . كان يبدو مثل الماء الراكد منذ وقت قريب في إناء أكبر منه . وإذ أخذ الإناء يصغر والماء يضيق بنفسه وبه ، صار راغب يعتلي الحصان ويضرب في البرية . يهمز الحصان حيناً فيخبّ أو يعدو ، يربت على عرفه مطمئناً ، فيخبّ أو يتوقف . وكان الحصان يفعل على مضض ، فهو أدرى براغب ، ولعله لذلك كان يغافله وينحرف إلى الخيام القريبة ، في نبع الصخر ، مادام راغب لايوغل .

غير أن خروج راغب إلى البرية لم يكن من قبل مبكراً ، وماكان يبدأ بالخيام . الحصان هو الذي اختارَ في ذلك الضحى الحار . هو الذي ظل يصهل ويخبط منذ الشروق ، فلما اعتلاه راغب انطلق يعدو من المخفر حتى لاحت البسط واللبابيد المنشورة فوق الخيام .

كان ثمة أطفال حفاة يتحلقون حول طفلة تصغرهم بكثير ، ويهزجون . خفق فؤاد راغب حين تطلعت الطفلة نحوه ، فلا بد أنها قد رآها من قبل مراراً . لابد أنها تخصه ، إنْ لم تكن من صلبه . وملصت الصغيرة من حلقة الأطفال تتعثر في جريها إليه . قفز إلى الأرض يلاقيها وقد خرس الأطفال والحصان . إنها هي دهيبة الصغيرة ، هاتان هما عيناها ، وتلك هي تقاطيع وجهها وغمازتها . لقد عرفته ، لاريب ، ولذلك اندفعت إلى حضنه ، فلفها ذراعاه ، كأنما يخشى أن تضيع منه ثانية ، وإذا بدهيبة الكبيرة التي اختفت

عن راغب منذ عهد نوح تنادي على الطفلة . اندغمت الطفلة في صدره ، وانشد الذراعان فوقها ، وتهامس الأطفال ، وخبط الحصان ، وصدح ثغاء الطفلة منادية أمها . كانت دهيبة قد اقتربت ، وكانت التحية قد أنشبت في حلقها وهي ترى ساعدي ابنتها العاريين يعجزان عن تطويق عنق راغب . إنه هو من جديد ، فكيف انشقت الأرض عنه بعد أن بلعته ؟

غرغرت حنجرته تحييها ، وتقدمت قدماه تخشيان أن يخرش أي صوت هذا الجلال . وقفزت الطفلة من حضنه إلى حضن أمها . وسمعته دهيبة يناجي أو ينوح ، ولم يكن يسأل ولا يتساءل :

ـ أين كنت ؟

ثمة إذن من العشيرة من هو في الجنوب القصيّ منذ الحرب . لعنة الله على الحرب . أهل هزاع نصر أو حسين فندي هناك أيضاً . في حوران أو في جبلها ، لافرق . ودهيبة وزوجها ورهط كبير من العشيرة فرّ من هنا إلى هناك . لعنة الله على الفرنسيين . لعنة الله على قاسم السعد . يريد أن يضرم النار من جديد ، ودهيبة لم تكد تعود . شمل العشيرة المشتت لم يكد يلتئم . ولكن ماذا كانت دهيبة إذن تفعل ذات يوم في خيام الأمير جهجاه ؟ ماذا يعني لراغب الناصح أنها من عشيرة الأمير وأن زوجها من هذه العشيرة ؟ نبع الصخر قريب والأمير جهجاه بعيد وراغب ضاع مرة بعد مرة وكلما عثر على نفسه عاد يضيع . أما هذه الطفلة التي لاتريد أن تفارقه فبنت من تكون ، إنْ لم تكن ابنته هو ، مثل رجب ومثل ناصح ؟

كان الأطفال قد انصرفوا ، والطفلة راحت تلهو مع الحصان . وكان ثمة الكثير الذي يود راغب أو تود دهيبة أن تقوله كل منهما للآخر ، لولا أن عدداً من الرجال قد أطلوا ، بينهم زوج دهيبة الذي رآه راغب مراراً من قبل ، هنا أو في خيام الأمير جهجاه .

تناول راغب الغداء مع الرجال . اصطنع الضحك والثرثرة . مازح زوج دهيبة وهو يهرب في كل نأمة وكلمة من السؤال الذي ينبض في صدره :

ـ هه ياراغب الناصح ؟ ماقولك ؟

ولعل السؤال ، لاوداع الرجال ، هو الذي جعله عندما غادر ، يهرب من عيني دهيبة وثغاء الطفلة اللتين كانتا قبالة الحصان ، في فرجة الخيمة الثالثة .

تلك هي حكمة الله كما راح يلهج في سره يوماً بعد يوم . هو القضاء والقدر ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، كما صار يضيف . ليس الذنب ذنبه ولاذنب سواه . لقد فكر ملياً . لم يدع نفسه تجنح على هواها هذه المرة ، فتلقي باللوم على الشاويش الذي قاده إلى الخيام ، أو على عمر الذي وطد مابينه وبين الخيام ، أو على راغب الناصح الذي ماكاد يرى دهيبة أول مرة حتى نسي غالية .

غير أن نفسه لم تنقد إليه إلا بعد أن أوثق لها العهد على ألاّ يدع أحداً يلعب بها بعد اليوم . لن تكون طابة مثل تلك التي كان يصنعها صغيراً من نتف الثياب المهترئة ، يتقاذفها مع أخوته وأبناء عمه . لا الشاويش ولا عمر ولا قاسم ، ولا أم رجب ولا أم ناصح ، ولادهيبة ولا غالية ، لن يدع أحداً من بعد يقذف الطابة . لم يعد يتوجه إلى الخيام البتة ، لا وحيداً ولا برفقة الشاويش الذي لم يأبه ، لولا أنه صادف دهيبة وزوجها مرة ، فخشي أن تكون نفس راغب تهمّ به ، وأنه لن يقدر عليها .

عاد الشاويش يحدب عليه ، يلازمه كما كان بعد أن صاهره . ولام نفسه على عزوفه عن راغب في الآونة الأخيرة ، موقناً أن صهره نقي السريرة ، فلولا أنه كذلك لما انقطع عن الخيام وهو يتعذب هذا العذاب . ولعل الشاويش قد باح ببعض ذلك في خلوة مع راغب ، وراغب يتكتم كالصخر ، إلا أنه صار يتحاشى الشاويش ، ولم يعد يذهب لا إلى الحضر ولا إلى العال .

كان الشاويش يعالج العجز والقلق ، فيما راغب بدأ ينفذ ماوعد نفسه به . لا الشاويش ولا سواه ، لن يتدخل أحد في حياته ثانية . ماهمَّ أن يظنوا به الظنون . هو أدرى بنفسه وهي أدرى به . فليحسبوا أن لا همّ له إلا شهوته . هل يقدر الشاويش أو قاسم أو عمر أن يفكر في غير ذلك ؟ راغب لاينكر . لقد أسكرته حقاً متعة الدخول بابنة عمه ، وهو لم يكد يصحو من متعة الدخول بصبيحة . نعمة من الله خصه بها ، فكان له أن يفض بكارة بعد بكارة ، ويروح يسعى من فخذي هذه إلى فخذي تلك ، كل منهما تدفعه إلى الأخرى أشد اشتعالاً . راغب ليس بغلاً مثل قاسم السعد حتى يرفس نعمة الله . راغب يسعد بنعمته ، فيتقرى الزغب في فخذي زوجتيه ، يتلمس فرجيهما ، يود لو يقبض على تلك اللحظة التي توحد بينهما ، ولولا تلك البندقية وذلك الصوت لكان جرب ذلك مع غالية . لكن غالية انبترت منه ، وماعادت أم رجب ولا أم ناصح تجعلانه يذوب ، والله سبحانه وتعالى قد أحل للمسلم أربعاً ، وما براغب ليس بنزوة تحكم . إنه سرّه الوحيد ، سره الصغير والكبير ، بل إنه السر الجليل لهذه الحياة ، شيء من القضاء

والقدر ، شيء من حكمة الله والإيمان به ، سوى أن أحداً لايفقه ، أو لايجرؤ على أن يفقه ، ولذلك لم يتزوج أبو جميل بعد المرحومة ، أما قاسم السعد فيريد أن يهاجر إلى أمريكا ، أو ينصب نفسه زعيماً ، وعمر التكلي يريد أن يكنز مال قارون ، فليفعل كل منهم ومن الناس جميعاً مايشاء ، وليدعوا راغب الناصح لما اختار .

★★★

6

قلبي معتم . .

ماعاد على لسان هشام الساجي سوى تلك العبارة . من قبل أن يدخل الفرنسيون ، وطوال هذا الذي يبدو له دهراً قد انقضى على دخولهم ، وهو يردد في سرّه كل حين ، أو كلما سأله أحد عما به : قلبي معتم .

سرعان ماغاضت فرحته بالعرش والملك والاستقلال ، وضج صدره بوقع الانهيار الوشيك . بعضهم كان يسخر منه ، أو يرثي له ، أو يزورّ عنه ، ولعل صهره الأكبر هو أول من أصغى إليه ، أو ردد عليه ماكان يتصادى في أعماقه ، وبغتةً دخلت فرنسا ، واندلعت النيران في سوق الحميدية ، من محلات سنجر حتى العصرونية وخان الجمرك ، وحاصرت الأموي ثلاثة أيام حتى أتت على كل مايملك صهره وماحولها من دكاكين الصرافة والدخان والتنباك .

بوغت هشام بصهره إثر الحريق يأمره أن يمد يده إلى جيبه وجيوب رضا بك الزرب وسليم أفندي والباشا شكيم وآخرين ، ثم ينصرف . وقبل أن يفعل هشام عاد الصهر في اليوم نفسه عجلاً يتهدج :

- إياك أن تظن أن ماأطلبه لي . يجب أن تدفعوا جميعاً . اجمع ماتجود به نفس كل واحد . أنا أقرأك قبل أن تشرفنا فرنسا ، وأنت واحد منا . هشام يؤتمن على السرّ . لاأظن أنك سمعت بعد باليد الحديدية .

تساءل هشام :

- وأنت ؟ ماذا فعلت بالحريق ؟

حمد الصهر الله وردد :

- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . بعت ذهب أختك ، وبدلاً من الدكان صار لنا الآن ثلاثة ، وبعد شهرين ثلاثة سترى .

بعد أسبوعين ربما ، أو ثلاثة ، كان هشام قد رأى . فدكاكين الصهر الثلاثة رممت ، وامتلأت وفي كل منها زرع الصهر أجيراً ، وسليم أفندي نفسه يتعجب ، وعمر التكلي الذي لم يعد أجيراً ، ينتقل بين الدكاكين الثلاثة كل يوم ، والصهر يأتي إلى بيت هشام متأخراً كل عشية ، يرمي بنثار كلماته على عجل ، ويتناول من هشام ماجمع من تبرعات ، وهشام يقدم خطوة ويؤخر أخرى ، بعد أن بات يعرف أن هذه الجمعية أو الجماعة أو المنظمة أو الحزب ـ فالصهر لايستقرّ على اسم ـ قد تكونت قبل أن يدخل الفرنسيون ، وربما كان ذلك قبل أن يعتم قلب هشام ، ويضج صدره بالانهيار الوشيك . كما بات هشام يعرف أن اليد الحديدية تطبع الأوراق في مكان ما من الشام ، ربما في جامع الدقاق قبالته ، أو في آخر وكر من أوكار الغوطة أو قاسيون ، وترميها في أوكار الفرنسيين أنفسهم ، والفرنسيون يلوبون على أثر ، دون أن يقدروا على إخفاء الذعر .

في غفلة من نفسه طلب هشام من صهره أن يجعله هو أيضاً من تلك اليد . وفي غفلة من الجميع ، من الفرنسيين خاصة ، دخل إلى مكتب المستشار وخرج تاركاً السكين المغروزة في الطاولة والوريقة التي كتب عليها بخط مرتجف : «من استطاع أن يغرز هذا في طاولتك فهو قادر على أن يغمده في صدرك : اليد الحديدية في جميع أنحاء سورية» .

تلك الليلة لم يقلقه إلا ماعده خطيئة كبرى ، إذ لم يكتب ذينك السطرين بالفرنسية أيضاً . إلا أن أصداء مافعل جعلته عاجزاً عن أن يغفو أو يأكل في الغداة . وفي اليوم الثالث تسلل إلى الصيدلية وعاد بالخولان والفالوريه ، وهو يحسب أن العيون جميعاً تعرف سرّه .

في نوم أشبه بالموت ألقاه الدواء طوال النهار . وفي المساء خرج لأول مرة منذ أيام . تمشى حول الجامع ، تمعن في الجنود الفرنسيين ، تناول عشاءه على مهل عند الرجواني ، لم يأبه لعمر التكلي الذي تودد إليه وأصر على أن يدفع ثمن العشاء ، ولم يأبه لمسلم دحّة الذي صادفه في إيابه ، أمام الجامع ، وهمس له :

ـ سمعت لك ياأستاذ هشام أن الحديدية وصلت إلى الجنرال نفسه ، هنا أو في بيروت ، لم أعرف بعد .

تبسّم هشام وتساءل بحياد :

ـ هل قتلوا الجنرال ؟

تلمظ مسلم وبالغ في همسه :

ـ لاأعرف لماذا يكتفي هؤلاء الشباب كل مرة بورقة ؟ مادامت يدهم طويلة هكذا ، لماذا لايضربون ؟ ماذا ستنفع أوراقهم ؟ واحد وصل إلى الجنرال فيترك له شفرة صغيرة أكلها الصدأ ؟

في غرفته استلقى يتأمل مافعل في الشهور القليلة الماضية ، يرجو ألاّ يظهر صهره الليلة ، يرثي لنفسه ولمن التقى في زيارته الوحيدة لوكر الغوطة ، يردد تساؤل مسلم دحة ويلعنه ، يحمد الله على أنه صحا مبكراً ، فهذه الدرب تقود إلى الهلاك ، وهو قد نذر نفسه لأمر آخر ، وإنْ كان عاد لايستبينه منذ أن احتلت العتمة قلبه . واستطاع أن يغفو دون حاجة إلى الخولان أو الفالوريه .

في غرفته قضى أيضاً نهاره . أخرج أوراقه التي نسيها طويلاً . فوجىء بالقصاصات التي قطعها من بعض الكتب والصحف ، وبالأوراق التي روّسها بعناوين وأسئلة وأمثال . وفي المساء خرج يسعى في الحارة ، متعمداً ألاّ يؤوب قبل أن يفوت موعد حضور صهره .

كذلك ألف أن يقضي أغلب أيامه التالية ، وجلّ ماستطاع أن يفعله ، أنه أعاد صياغة ماكان قد نقل من كتاب الكواكبي ، مشككاً في أن يكون البدو هم حماة العرب والإسلام ، متعللاً للكواكبي في أنه لم يعش مثل ماعاش هو ، ولم ير بدو الحجاز يعجزون عن حماية الشام أمام الانكليز أو الفرنسيين أو اليهود الذين يعلو صراخهم هذه الآونة في فلسطين . قد تكون شكوك هشام هذه هي التي جعلته أيضاً يشطب ماكان قد نقل بعناية عن الكواكبي حول الخليفة العربي القرشي الذي يستبدل في مكة سلطة الترك بسلطة العرب . وبدلاً من ذلك أثبت بعناية أكبر ماحدد الكواكبي من مقومات الاستبداد أو نموه : في جهالة الأمة والجنود المنظمة ، ووضع خطاً تحت كلمة الجنود ، عازماً على أن يفكر فيها ثانية فيما بعد . كما أحاط بأقواس دقيقة متصلة ماحدد الكواكبي من خوف المستبد من علوم الحياة لا من العلوم الدينية . وعلى ظهر تلك الصفحة نقل من صفحة أخرى مرة بعد مرة عبارة فولتير : في كل ماقرأت لم أر إلا تاريخ الملوك . ومأأريد هو تاريخ الناس ، كل الناس .

في غير ميعاده حضر الصهر . كان الوقت عصراً ، وهشام غارق في أوراقه . تشاغل عن صهره وهو يغالب الارتباك المفاجىء ، حتى هون عليه صوت الرجل :

ـ كنت أعرف أنك لن تبقى معنا طويلاً . خيراً فعلت . ولكن إياك أن تكون ذهبت إلى غيرنا . لاتضحك مما خطر لي . قلت : هشام تعلم عندنا والآن تراه يجرب أن يغني

وحده . إياك أن تكون فعلت . ولكن ياابن عمي فوتة الحمام مو متل طلعته ، واللي بياكل دبس بيعلق على شواربه .

تمتم هشام متكلفاً الابتسامة :

ـ دبس ولاّ خرا . . لاتؤاخذني . . قلبي معتم ياابن عمي .

ـ رجعنا . . ؟

تساءل الصهر منكراً ومبالغاً في الخشية . كتم هشام زفرته وسأل :

ـ مسلم دحة منكم ؟

ـ هذا الكلب ؟ فشر . .

ـ خفت . . ماقصة الجنرال إذن ؟

ـ ورقة وشفرة في البريد . قلنا له : هذه تكفي لذبحك أيها الغراب . لا قصة ولا من يحزنون .

تنفس هشام الصعداء بعد خروج صهره . حاول أن يعود إلى أوراقه فشغله عنها صدى ماقال الصهر عن الحمّام والدبس والخراء ومسلم دحة . ضحك ساخراً ومسحت كفه على صدره ، فوق القلب المعتم ، وأيقن أن الشعاع الواني الذي خاتله منذ راح يجمع التبرعات قد انطفأ . طأطأ وأصابعه تجمع الأوراق ، ثم تفلشها ، ثم تقرب من عينيه واحدة تتوسطها كلمة المجر ، وتحتها كلمة الهزيمة ، وتحتها كلمة السوفيات ، وفي النصف الأسفل من الورقة خيل إليه أن الخط ينكره ، والكلمات تملص منه ، فأركز عينيه وقرأ بعسر : اليوم انهارت الجمهورية المجرية السوفياتية ، ونحن اللاحقون . حاول أن يتقرى الكلمات المشطوبة التالية فأعجزته . تابع في السطر التالي : إن حكومة لينين وأصدقاءه والثورة الكبرى التي فجروها من أجل تحرير الشرق من نير المستبدين الأوربيين يعتبرهم العرب بمثابة قوة عظمى قادرة على منحهم السعادة والحياة الكريمة . إنَّ السعادة والسلم في العالم أجمع يتوقفان على تحالف العرب مع البلاشفة ـ لجنة الاتحاد العربي وفي أسفل الصفحة قرأ : لاقوة في الأرض تقدر على أن تمنحنا السعادة إلا زنودنا . لاقوة مادمنا عاجزين ـ هشام الساجي . قلب الصفحة راجياً أن يكون على حق ، وقد غدا أقدر على أن يتبينّ مانقل من نداء مؤتمر باكو ، وهز رأسه مستحسناً ، ثم أثنى على نفسه وهو يتلو بصوت مسموع ماصاغ من النداء فبدلاً من : يافلاحي سورية وشبه الجزيرة العربية ، كتب ياأهل الشام والجزيرة والعراق .

كان متيقناً فقط من صيغة النداء الأولى ، أما فيما تلا ، فقد اختلط عليه ماحفظ أو قرأ من النداء بما كتب ، مما طامن من نفجته ، وجعل صوته أخفض وهو يتابع : الفرنسيون والانكليز وعدوكم بالاستقلال ، ولكنهم بدلاً من ذلك احتلوا بلادكم واستعمروكم . كنتم عبيداً للسلطان ، وكسرتم أغلال العبودية ، وساعدتم الانكليز والفرنسيين والألمان ، فصرتم اليوم عبيداً لحكومة باريس وحكومة لندن . باريس أو لندن تفعل في بلادكم اليوم مالم يفعله السلطان .

علا صوت هشام مقسماً أن هذا الكلام حق ، وأمسك بالقلم متأثراً ، وحاول أن يتابع ماكان قد ابتدأه ذات يوم ، فتوعد الانكليز والفرنسيين كما توعد ذات يوم الطليان ، وامتلأت الغرفة بأصداء المتظاهرين الذين انطلقوا عندما احتل الطليان طرابلس الغرب :

ياطلياني يا ابن الكلب　　مين قال لك تنزل ع الحرب
سمعت بصوت العصمللّي　　صرت تعوّي مثل الكلب
عوْ عوْ عوْ

شطب القلم ماكتب ، ولعن صوت هشام العصمللّي والشام التي لاتميز الصديق من العدو . وتابع القلم ملوحاً بالثورات التي اندلعت في العراق ومصر والمغرب ، ثم حرن حتى جعل هشام يرميه أرضاً ويجرّ نفسه إلى الفراش .

ظل القلم مرمياً طوال النهار التالي ، إذْ خرج هشام مبكراً ، وقضى الضحى بين المرجة وصدر الباز ، يتفرج على ماأعد الفرنسيون لسباق الخيل ثمة ، ويدعو بردى إلى الصبر ، منكراً على سليم أفندي أن يتباهي أمامه ببطاقة الاشتراك الموسمية التي اشتراها بأربع ليرات ، ومنكراً على نفسه أنها أُخذت منذ لأي بالعرض الذي أقامه الفرنسيون في هذا المرج احتفالاً بعيد جان دارك . وعزم على أن يكتب هذا المساء في ذلك ، وخاصة فيمن شارك في العرض من أبناء الشام المتطوعين لدى الفرنسيين ، ومن أولئك المغاربة والسنغاليّين الذين يبدون أدهى من الفرنسيين أنفسهم . وفي إيابه عرج على المكتبة العربية ، وظل ينبش في رفوفها حتى أذان الظهر ، فخرج ظافراً بالروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ الامام العلامة الهمام سيدي محمد النفزاوي ، رحمه الله ورضي عنه . واندفع في الحميدية ، حتى لاحت دكاكين صهره ، فازورّ عنها نحو قصور عطا باشا وسامي باشا وحكمت باشا وحيدر بك وضياء بك وحسن بك وعارف بك وصبحي بك

وسعيد بك وشمسي بك وراشد بك وعبد الله أفندي ومحمد أفندي . . كان يجتاز الأزقة والقصور عجلاً وعاجزاً عن أن يعدد القصور الأخرى التي يعرفها جيداً ، قريباً مما يرى وبعيداً ، من المهاجرين إلى سيدي عامود ، من القصر الذي تربع على عرشه الفرنسيون بعد الملك إلى قصر القوتلي والعجلاني ، هاهنا ، إلى الخلف بخطوات ، ولما عبر بضريح الرازي هم أن يناديه بالباشوية أو البيكوية أو الأفندية ، ثم آثر له الأستاذية ، كما آثرها لنفسه ، ولم يصح مما به إلا على تحية عارف بك الذي بادره مهنئاً وآمراً :

ـ ضاعف الزكاة في العيد القادم ياهشام . الحمد لله ، عوّضنا ماأكلته النار وزيادة . . قلت لك لاتخف . . صحيح أن صهرك سبقني ، ولكن اسأله الآن : قل له : كيف صارت دكاكين عارف بك ؟

تملص هشام بغلظة ، فهو لم يخف عندما اندلع الحريق ، كما لم يخف عندما غرز السكين في طاولة المستشار. وعارف بك يعرف مثل أصهار هشام أنه لم يخف يوماً على المال . وغذّ خطاه نحو البيت ، لينفرد بروض النفزاوي ، مكتفياً برفع القلم من الأرض إلى الطاولة ، وإيداع الأوراق في درجها الأليف .

لم يغادر الكتاب عيني هشام تلك الليلة ، حتى بعد أن أطبقتا قبيل الفجر ، شبقتين وواعدتين . بيد أن هشام انشغل عن الكتاب وعن سواه منذ الصباح ، إذْ راح يسعى من مكان إلى مكان خلف كتاب النفزاوي الآخر : تنوير الوقاع في أسرار الجماع . ومن أجل ذلك سافر إلى حلب ، وإلى بيروت ، وزار سليم أفندي والباشا شكيم بعد انقطاع مديد آخر ، وشاركهما وسواهما في ضحكهم منه ومن النفزاوي . ولعل هشام كان سيتابع سعيه خلف الكتاب لولا أن صهره بكر إليه ذلك الصباح ، أهدأ وأكبر بهجة ، وقال :

ـ سمعت بما جرى لنا ياابن عمي ؟

ـ لا والله ياصهري . . خير؟

ـ بسلامته رئيسنا ماعاد يعرف كيف يمشي . قل : ماعادت الأرض تحمله ، ونحن لم نضرب ضربة من الخريف . تذكر يوم نزل البَرَد مثل الحجر؟

ـ لا والله ياصهري . .

ـ هنيئاً لك . أنت لاتذكر شيئاً . تذكر اليد الحديدية ؟ قل لي : لا والله ياصهري . يوم البَرَد ياابن عمي كان بسلامته في البحصة والريح تشيل البغل ، وتحت إبطه أوراق مثل أوراقك . الرصيف وطوله وسماكته لم يره بسلامته ، وقع وأفلتت الأوراق ، وهات من

يجمعها ! ماطار منها طار وماوقع في بردى وقع ، ولكن حظنا الذي يفلق الصخر رمى بورقة ، ورقتين ، عشراً ، ربك أعلم ، في حضن واحد مثل مسلم دحة ، وإذا بالأوراق فيها ياابن عمي كل شيء ، من طقطق إلى السلام عليكم . صاحبنا هرب ، والجواسيس يدورون ، والفرنسيون يدورون ، لاتسألني من أمسكوا ومن تركوا . من الغوطة إلى العدلية ، والأنكى من ذلك ، أنهم أمسكوا شابين من المسيحيين ، فجن جنونهم . هل كنت تعرف أن بيننا واحداً من باب توما ؟

ـ لا والله ياصهري .

ـ لا والله ياصهري ، مافتح الله عليك اليوم بغيرها ؟ مالك ارتعبت ؟ القضية أظنها بردت ، وها أنا أمامك . لو أمسكوا الأوراق كلها كنت أنت وصهرك في خبر ليس . . على كل حال الحذر واجب ، وماكنت أقع لك على أثر من عشرة أيام حتى أحذرك . إياك أن تقوم بأية حركة ، خاصة أمام مسلم دحة . قلت لك أظن القضية بردت .

قضى هشام ذلك الضحى في الغرفة عازفاً عن النفزاوي ، يستعيد هدوءه على مهل ، إذ لم يكن خوفه كبيراً ، إلا أن كفه كانت لاتفتأ تمسح على صدره ، مفتقدة الشعاع الواني الذي خيل إليه أنه كان يضيء عتمة قلبه في الآونة الأخيرة . وعندما أذن المؤذن للظهر أودع الروض العاطر بين كتبه ، وخرج يفكر في أن يؤلف تنوير الوقاع بنفسه ، مادام أحد لم يقع على أثر له ، من هنا حتى حلب وبيروت ، وكانت عيناه تتحاشيان أي أثر لمسلم دحة أو للفرنسيين .

★★★

7

قررت الست زهرة أن تؤثث غرفة النوم ثالثة ، فنقلت الخزانة والمرايا الكبيرة إلى الغرفة الخلفية التي عجت بما راكمت فيها السنون من أشياء . ولم تأبه الست زهرة لحكّ أو وقوع الأصداف التي تزين حوافّ المرايا ، كما لم تأبه قبل سنين لحك أو وقوع الأصداف ، مما كان يزين الصندوق المزخرف الذي استبدلته بالخزانة في التأثيث الثاني لغرفة النوم .

في الغرفة الخلفية عبقت رائحة الصنوبر الذي صنع منه صندوق العرس ، ورائحة السوس الذي صنع منه صندوق المرحومة والدة الباشا . وخيل للست زهرة وهي ترمي بنظرة حانية وعجلى على الأشياء المتراكمة أن رائحة الجوز الذي صنع منه صندوقها الثاني وخزانة المرايا لاتكاد تبين أمام مايطلع من بعيد ، من الماضي ، من الصنوبر والسرو .

عارض الباشا في صمت تبديل الأثاث ، وإنْ كان لم ينكر إعجابه بما بدأ يروج من الخزائن الجديدة المكسوة بقشر رقيق من خشب الجوز . غير أنه ظل يشكك في الشوح المكسو برقائق الجوز ، كما ظل يشكك في جدوى المدافىء الفخارية والحديدية التي وزعتها الست زهرة في أنحاء البيت ، مودعة المناقل في الغرفة الخلفية .

تذكر الباشا وهو يرى الست زهرة تبدل قليلاً في البيت أنها كانت تفعل مثل ذلك كل خمس أو ست سنوات ، وإنْ كانت هذه المرة قد ذهبت أبعد ، ولم يرضه ذلك في سرّه ، ثم نسي الأمر ، فالست زهرة هي المعنية بشؤون البيت ، وهي الأدرى بها ، أما هو ، فيكفيه مايشغله في الخارج ، حتى قبل أن يتزوج .

أما الست زهرة ، فقد كان مايشغل سريرتها هذه المرة أقوى وأجلى . ولعلها لذلك أوسعت في تبديل الأثاث وأسرعت ، لكأنما تخشى على نفسها من انجراف أكبر ، أو تضنّ بفرحتها الصغيرة الطارئة ، أو تقطع عليها درب العودة .

لقد نشأت ، من بيت أمير الحج إلى بيت الباشا ، آمنة مطمئنة ، تتوقد ذكاء ، وتنطوي على مالم ينقطع من تحصيلها في كل أمر ، واثقة ومزهوة ، يزيدها العمر والصمت جلالاً وبهاءً .

كانت منصرفة على الدوام إلى أن تقرب الباشا مما يصبو إليه ، ويليق به . ولم تزدها السنون إلا عزماً على ذلك ، على الرغم من كل ماحفلت به مما يوئس ، من زمن الأتراك إلى زمن الفرنسيين . بيد أن وخزةً ما كانت تخز في الحنايا كل حين ، وهي غافلة . ولعلها صحت على ذلك أول مرة حين سافرت لميعة إلى لندن وحيدة ، أو بعد أن طال غيابها ، وصار الباشا يذكر المستر بيجيت . فما عساها تفعل لميعة ثمة ، وهي الشابة الجميلة ، حيث لاحسيب ولا رقيب ؟

صارت الست زهرة تتلذذ وهي تتخيل أن لميعة تحيا في لندن حياة أخرى ، مادامت ليست متزوجة ، وأن بوسعها أن تفعل مايحلو لها ، حتى إنْ تزوجت ، مادامت لندن ليست كالشام . ولم تفكر الست زهرة فيما يحل للميعة أولا يحلّ ، فمنذ زمن أبكر كانت تميل في سرها إلى أن من حق أي امرىء أن يفعل مايشاء ، مادام لايؤذي أحداً . ولم يكن ماتخمن مما يفعل الباشا بعيداً عنها ، في بيروت أو برلين أو سواهما ، ببعيد عن ذلك .

هل كانت تشاغل نفسها وهي تأمر إثر سفر لميعة بتبديل الأثاث ، أم تدفعها برفق وحذر نحو لذاذة ما ، وجديد ما ؟

في تلك الآونة ألح عليها ماسمعت أو قرأت ذات يوم عن الكوكب الذي تحمل اسمه . فالكوكب الذي كان كالزهرة بين الكواكب ، أو مثل بنت أمير الحج بين البنات ، أنزله الله من عليائه ، وجعل له شهوات الإنس ، وتجسّد بالزهرة ، تلك المرأة التي طلع الباشا شكيم في دربها فعقلها . ولكن الزهرة تصادف هاروت وماروت ، وتضيق بفتنتها ، فتراودهما ، والملكان يتأبيان خوفاً أو تقى ، ماالفرق ؟

دفعت الزهرة للملكين بالخمرة التي تعرف أن الباشا شكيم يعاقرها جيداً خارج البيت . أسكرت الخمرة الملكين وأسلستهما للزهرة ، فارتوت وارتويا ، لولا أن أحداً عبر ثمة ، في سوق ساروجة أو ركن الدين ، أو الأرض كلها ، فخشي الملكان الفضيحة التي لم تخشها هي ، وقتلا العابر ، وهمّا بالعودة إلى السماء وحدهما ، لكنها عرفت كيف تجعلهما يفشيان لها بالقول الذي يتوسلانه للصعود . كذلك عرجت هي أيضاً ، ولما تشهّت الأرض من جديد ، شلّها مافعلت بالملكين ، فلبثت معلقة ثمة ، بين السماء والأرض .

كانت الست زهرة تشك في أن الملكين لم يعلقا مثلها . فالوزر وزرهما أيضاً . وهو على أية حال ليس مثل وزر من حولها ، رجالاً أو نساء . إنها الكوكب الدري ، وإنه هاروت أو ماروت أو كلاهما . إنها الفسحة الوحيدة التي تتيح لنفسها قبل أن تخلد في هذا البيت الحميم الأليف الذي تفيض عليه كل حين من حسنها ، سواء بالأثاث الجديد أم الولد الجديد ، أم بمن اختارت بنفسها لتربية الأولاد من مريانا إلى أم نور الدين ، أم بالاستقبال الذي تأتي إليه بالكفيفة رسمية وعودها ، فتجعل الصفصافة ترقص ، وليس فقط كل من تدعو من النساء .

قبل سفر لميعة ، كما بعده ، كان يحلو للست زهرة أن تلتف على الباشا شكيم كي يصطحبها إلى مكان ما خارج البيت ، في غفلة من عيون أبيها خاصة . إذ ذاك ، تكون وخزة ما تخز في الحنايا ، والست زهرة غافلة ، تسطع في لوج مسرح زهرة دمشق ، تقطر دمعتها لؤلؤاً للشيخ سلامة حجازي ومن معه ، وهم يؤدون مسرحية (شهداء الغرام) ، وتنتظر أسيانة أن تلي (جريح بيروت) ، وإذ تيأس من الوالي والسلطان وزوجها ومئات المتفرجين والأيام وماكتب حافظ بك ابراهيم في تلك المسرحية ، تخلد من جديد ، وقد يطول بها ذلك أو يقصر ، حتى تكون وخزة أدق وأعمق ، فتسطع في العرس الذي يسر حضوره الخواجة ثابت ومدام لور ، قبل تلك المسرحية أو بعدها ، قبل سفر لميعة أو بعده ، ومثل أي من التماثيل الرخامية التي تزنر البحيرة البيضاوية ، تبدو الست زهرة ، كما أسرّت لها مدام لور ، فيما هي تدقق في أظافر الأطفال الذين تنبق قطرات الماء من تحت أظافرهم ، لتتراقص فوق ذلك التمثال الهائل الجاثم على العمود المرمري ، كأنه كوكب أو ملك .

كانت جدران الإيوان الفسيح تزهو بألوان الفسيفساء ، وجوق القباني يصدح ، وأطياف ترقص السماح ، مثل طيف كوكب الزهرة ، وكانت عينا الست زهرة ترقصان مع الصوت والفتاة والكؤوس التي تحمل :

رب ساق قام يسعى	صاد قلبي بالذوائب
قلت ناولني الحميا	قال : كلا ، إني تائب
قلت لما تبت عنها	كان هذا الحسن غائب

إذ ذاك أدركت أنها في باب توما ، وأن أمير الحج بعيد جداً ، ثمة في ركن الدين أو استنبول أو مكة ، وأن الباشا أقرب إليها ، وهو يسترق رشفة من الكأس وممن تحمله . وكادت تنوح حين غنى القباني :

ناحت فأجبتها لمْ نوحك ليش - من دون سبب
ذا إلفك والغصون تبكي عليش ؟ ذا أمر عجب

وفي اليوم التالي أمرت بتبديل صندوق العرس ، إلا أن جلدها ظل يضيق بها ، والباشا قد سافر تاركاً أطيافاً مبهمة وغاوية وماكرة ملء السرير ، منذ أن يهجع الأولاد حتى يستيقظوا ،

إلى أين كان يمكن أن تفرّ إلا إلى الحمّام ؟ أنّى لها أن تتعرى أمام أحد سوى هناك ؟ فترصد عيون النسوة المأخوذة بحسنها ، تتقرى عري الأخريات فيتقد حسنها ، تستلقي بين يدي المدلّكة والماء الذي يلذع والبخار المسكر ، تؤجج شهوتها شهقات الأخريات وبذاءاتهن ، وتغيم في ركنها الخاص ألوان الحناء وشيب من حولها وسواد الحجر الذي يفركن جلودهن به والطين الأحمر وفوح الصابون ، ولاتأبه فيها إنْ كانت تتلوث بما يفور به الحمام أم تتخلّق ، وإذ تهمس المدلكة التي لم يعد لها ماتؤديه تشير إليها بالانصراف ، وتتلوى في وحدتها على مهل ، تباعد بين فخذيها وتقارب ، تضغط برفق وتمسح كفّها على أنحاء جسدها ، تقسو الكف رويداً حتى تهصر الثديين ، ينفرج الفخذان وتندفع الكف نحوهما ، تنسل الكف بينهما برفق ، تقسو رويداً وتنفلت الشهقة وتعض أسنانها على شفتيها ، ولعل المدلكة قد دخلت عندئذ فقط ، أو من قبل ، ولعلها حنت أو همست أو لفحت بأنفاسها أو بالبخار المسكر عنق الست زهرة أو بطنها أو ساقيها ، وإذا أطبقت شفتا المدلكة على الحلمة المنتصبة شهقت الست زهرة وأسر ذراعاها ظهر المدلكة العاري وهي تدفعها بعيداً ، وكانت كف المدلكة تدعك الثدي الآخر ، وهي تمتطي الست زهرة كالقدر ، تهوي بعيداً نحو السرة وتنزرع بين الفخذين المشرعين وتمطر الكوكب بالملكين وأطياف الذكور والنساء التي لازمت منذ العرس .

لم تعد الست زهرة من بعد إلى ذلك الحمام ولا إلى سواه . همد جسدها فجأة ، وامتلأت رثاء لمن كانت تعرف أنهن يفعلن مثلما فعلت ، من شقيقات الباشا إلى زوجة رضا بك الزرب ، في الحمام أو في البيت ، مع المدلكة أو المربية أو سواهما . ورأت نفسها تنسى العرس البتة ، وأسعدها أن الباشا ، والخواجة ثابت ومدام لور في زياراتهما المتنائبة التالية ، قد نسوا جميعاً . ومثلما انقطعت عن حمام النسوان ، انقطعت عن الأعراس ، وكانت الحرب قد نشبت .

عندما ضاءت الدنيا ثانية ، وانهزم الأتراك ، عادت الست زهرة تتفتح ، ولكن وطأة العمر ألحت عليها ، فجعلت تحدب على جسدها بصمت ، تفيض على من حولها ،

الأولاد والباشا خاصة ، الست لميعة والمستر بيجيت ، الأمير المريض ، وأسعدها أن ذلك قد طال هذه المرة ، ولم تصخب دخيلتها كما في كل مرة ، وأنها تكبر على مهل ، حتى جاء عمر التكلي .

منذ تجرأت عيناه عليها أول مرة في الدايرة ، وتراب قبر أبيه لما يجفّ ، ارتجفت الزهرة في صدرها ، ارتعشت ، ودت لو تشع ، تشهّت أن يغمرها الماء ، ولكنها ألوت عن ذلك منذ غادرت الحرزة ، فيما ضاعفت من حنوها على خديجة التكلي ، ومن انشغالها بما يشغل الشام .

كان الباشا يصغي إليها وهي تشيد بما يفعل القصر ، إذ أتى من كل من الأشتات العربية بمن يشغل منصباً ، واحد من فلسطين التي سيّجها الانكليز ، واحد من العراق ، مسيحي من مصر ، وآخر من حاصبيا التي أسعد الخواجة ثابت أن الفرنسيين يلحقونها وراشيا والبقاع وبعلبك ببيروت ، وهم يرسمون لبنان . وكان الباشا الذي نأى عن القصر ، يخشى أن يجهر بمخالفته للست زهرة وهي تنسى أو تغضي عن الفرجة التي تكبر بين القصر وبينه ، وبين العراقيين والشوام والفلسطينيين . كانت الست زهرة تهون أيضاً مما يسلخ الفرنسيون والأتراك والانكليز من الشام ، أو مما يهيئون لسلخه ، خاصة بعد أن بدا أن مرعش وأورفة وعنتاب وكلس وماردين وجزيرة ابن عمرو شمالاً ، والموصل شرقاً ، والسلط وعجلون والكرك والطفيلية جنوباً ، كل ذلك ضاع أو يضيع أو سيضيع ، والشام تصغر ، وهو يصغر ، يتكور في حضن الست زهرة التي تؤكد أن كل ماتخالف به تلك الأيام ناموس الشام لن يدوم . وكانت لاتفتأ تردد مما خطب الملك : أسهل علي وقف شلالات نياجرا من وقف السوريين عن التكلم في السياسة .

تراها كانت تهرب مما راح عمر التكلي ينفخ فيها بأناة ، وهو يتردد بعد موت أبيها عليها في البيت ؟

لابد أنها قد أرخت لعمر طويلاً وهي غافلة ، حتى بات يحدثها في غير شؤون الإرث ، وباتت ابتسامته لها تعرض ، وعيناه تتبذلان في عينيها أو شفتيها أو وجنتيها أو صدرها أو عنقها أو يديها المتشابكتين في حرجها . كانت تراه وهي تنهض لأمر ما وتدير ظهرها له ، يدقق في ردفيها ووركيها ومشيتها ، وكانت رعشة حارة وحييّة تعروها ، بعد أن صحت على نداء عمر ، أو على الوخزة الناشبة في الحنايا . وباتت الرعشة أجرأ وأقوى بعد أن خيل إليها أن عيني المستر بيجيت تتجرأان عليها أيضاً .

ماالذي جعلها حين حل سفر المستر بيجيت ولميعة تهديه ذلك الجورب الصوفي الكردي الذي طلبت من مربيتها العجوز في بيت الأمير المرحوم أن تغزله بنفسها ، وتتفنن في ألوانه ورسومه الدقيقة ؟

ماالذي جعلها بعيد ذلك ، تطلب من المربية أن تغزل لها جورباً آخر ، وتحتفظ به حتى توجه عمر إلى البطيحة ، فتهديه له وهي تغمره بدفئها وتلح عليه أن يداري البرد في الجولان ، ويعني بنفسه ؟

كان لابد لذلك كله أن يفضي بها إلى ماأفضى ، فتؤثث من جديد غرفة النوم وتوزع لمساتها الخجولة الشحيحة هنا وهناك ، وتنتظر خطوة أخرى من عمر التكلي ولئن تباطأ عمر ، فقد فعل أخيراً .

كانت تود أن يجلسا تحت الصفصافة في ذلك المساء الربيعي ، تملأ صدرها من فوح الورود التي سقتها بنفسها قبل حضوره بقليل . لكن عمر أصر على أن يجلسا في الداخل ، ويغلق الباب كما في الشتاء ، ولم تكن الخادمة ولا الأولاد قد عادوا من زيارة بيت الأمير المرحوم . أما الباشا ، فلعله كان يأوي إلى حضن إحداهن في بيروت التي غادر إليها صباح ذلك اليوم .

جلس عمر إلى جوارها لأول مرة ، بل لاصقها ، ودفعت دهشتها يده على مسند الكنبة ، تكاد تلامس الشعر الحبيس في غطائه الشفيف . ولابد أنهما قد لغوا قبل أن تطير يده بالغطاء ، وتفلش الشعر اللائب ، وتنهض ، وينهض ، وتطبق ذراعاه عليها ، وتدفن رأسها في صدره ، وتتشممه، وتقشعرّ لأصابعه التي انغرزت في صدريها أو إليتيها ، حتى اصطكت ركبتاها وعجزت ساقاها عن أن تحملاها ، فانهارت فوق السجادة وأغمضت عينيها ، وهو يقف بعيداً ، فوقها ، يخرج عضوه ويجثو بين فخذيها ، يكاد يمزق سروالها ، وهي تنتفض مذعورة ، تتملص من نفسها ومنه ، ترميه أبعد ، وتفرّ من الغرفة إلى باب الدار ، وتقبع ثمة حتى يلحق بها ، وقد اختفى عضوه ، وانفلشت هيأته ، فأشارت اليه أن يخرج ، وأطاع .

جرّت الست زهرة قدميها إلى الغرفة المعتمة . تناولت غطاء رأسها وخرجت تدور تحت الصفصافة وحول الورود ، ثم أوت إلى السرير الجديد . أضاءت الغرفة فهالتها قتامة الرقائق الجوزية في السرير وفي الخزانة الكبيرة . تلوت متوجعة من ثدييها ، ومالبث الوجع أن تلوى بين فخذيها . تشهت المستر بيجيت والخواجة ثابت وسليم أفندي وأطياف ذكور كثيرين يشرعون أعضاءهم ، وربما كان بينهم الباشا شكيم نفسه أو عمر

التكلي أو آخرين ممن تعرف وسواهم ممن لم تلقهم أو لم تسمع بأسمائهم ، وكانت أصابعها تجهز على السروال الذي مزقت أصابع عمر ، وتتخلق لتكون عضوه الذي رأت وهي مغمضة العينين تحته ، وكان صوت الخادمة والأولاد يأتي من بعيد ، من قبر المرحوم أو من الفوْرد أو من باب الدار الذي لم ينطبق خلف عمر .

نهضت الست زهرة بغتة . سوت السرير ، أخفت السروال ، مسحت أصابعها بغطاء رأسها الممزق أيضاً ، وامتلأت رثاء لنفسها ولمن كانت تعرف أنهن يفعلن مثلما فعلت للتو ، ثم خرجت هامدة وهي تفكر في أن عليها أن تجعل عمر التكلي ينأى ، ولو بعد حين ، ليس عن هذا البيت وحده ، بل عن البطيحة كلها .

★★★

8

أمام البيت المطل على العاصي والزنبقلي أقعت هند ترضع طفلها ، وياسين الحلو يقترب . كان مساء آخر لهما في بيتهما الجديد ، انزاحت فيه الغيوم التي تلبدت طوال النهار ، وهدأت الرياح الشرقية بعد ماذهبت بثلاثة من قضبان الدبق التي وزعها ياسين عصراً في الكرم . كان ياسين منهكاً ، فقد طالت حربه مع أرض أم مزعي ، وعلى الرغم مما أنجز وهند ، لازال ينتظر الكثير ، حتى يكون الكرم والبيت كما يرسم .

على كتفه كانت تتأرجح قضبان الدبق الأخرى ، وفي خاصرته علّق الدرغل الذي اصطاد . وقبل أن ينزل الدباقة الأخيرة بادرت هند تدعو له بالعافية ، فتبسّم ، وسطع في عينيه مالم يخفه الطفل من نهدها .

نهضت هند ملاقية ، تدفع إليه بالطفل ، وتتناول الدبق والدرغل ، تتساءل عن الحجل والسمّن ، وتنصرف إلى نتف الطيور . ولبث هو أمام الباب يتأمل الزنبقلي وطفله ، وهي تسترق منه النظرات المعجبة الواعدة .

بعد لأي سمعته يخاطبها :

ـ تقولين يابنت الحلال كنا في القبر؟ انظري بربك . .

وأومأ إلى الزنبقلي ، وهومت نظراتها ثمة ، فخيل إليها أنها قد رأت من قبل سوراً كبيراً حول مقبرة ، تندر فيها الشواهد ، وتعج بالقبور الصغيرة الحائلة . ولهجت بالرحمة لأولاء الأحياء الموتى ، وقد غص حلقها ، فبينهم أقرب الناس إليها وإلى ياسين .

مشى بالطفل مديراً ظهره للنهر والزنبقلي ، وواجه الجبل والعتمة الهاجمة من الأحراش ، وهفا إلى ذلك الإحساس الذي مافتئت هند تملأ به جوانحه . إنه إحساس بالنجاة أو الانعتاق ، عاد صدره يعمر به ، قبل أن ينتقل إلى هذا البيت . ود لو يسأل هنداً عما يبدلها هذه الأيام ، قبل أن تساهرهما أصداء الرصاص في الجبل ، ليلاً أو نهاراً ، وقبل أن يشدد رستم آغا أو الحارس لسبب لايعرفه سواهما على أهلها خاصة . خاف أن

تستل الأيام القادمة منه هدأته ، وتملّى من عيني طفله ، وداعب العصبة التي لاتفتأ هند تشدها على سنطيحته ، كيلا تعرض كسنطيحة أبيه ، وامتدت أصابعه تتقرى ماتعرى من جلدة رأسه بغتة ، والندوب التي انكشفت ، وحنت الأصابع على الشعر الباقي وقد تضاعف شيبه ، ثم راح يداعب شعر الطفل الذي طال ، وهند ترفض أن يقص ، خوفاً من العين الخبيثة .

من الخلف جاءه صوتها رخيماً :

ـ نسيت أن أقول لك اللهم صل على خير الأنام . أمس أيضاً حلمت . .

فقاطعها :

ـ مطر أيضاً ؟

قالت ضاحكة :

ـ كيف حزرت ؟

ـ لأنك لاتحلمين إلا بالمطر . . كله خير وبركة . . خير وبركة إن شاء الله .

ـ هكذا تقول لي كل مرة .

ـ هكذا يفسرون المنام . . ماذا تريدين أن أقول ؟ والدك نفسه ماذا قال ؟

ـ لماذا إذن عادت الغصة تكبر ياياسين ؟

تساءلت وهي تنفخ في النار وتأمره أن يدخل بالطفل ويشعل السراج ، ففعل ، وراح يهيء الخبز والزيت ، يردد ماتصدعه به كل عشية :

ـ كل الزيت وناطح الحيط .

ويتأمل الطفل الذي لم يكن ليشبع من حليبها لولا الزيت أيضاً ، كما تؤكد هي وأمه وأمها ، وفجأة ترددت أصداء الرصاص .

أسرع إليها فإذا بها قادمة بالطيور المشوية . أغلقت الباب وراءها وأمرت :

ـ لن تخرج الليلة وحدك . الرصاص أقرب . كل يوم يكون أقرب .

تناولا العشاء على عجل ، صامتين . كان جائعاً ، وكانت تداري قلقها ، وتصادى الرصاص من جديد . اندفع الطفل إلى حضنها ، فألقمته ثديها الريان ، وأزاح ياسين طبق القش وتمدد . غفا الطفل سريعاً ، فمددته بجوارها ، وزفرت متذمرة من الوحدة ، لم يعد والداها يخرجان إلى بيت صهرهما بين مساء وآخر . ولم يعد والداه يخرجان إلى بيت كنتهما ، ولم يعد هو يتعلل لرستم آغا بعصيان الفلاحين في الجبل على

الفرنسيين وعلى الأغوات أيضاً . فقد بات أدرى منذ خرج من السور كما بات أجرأ ، على الأقل أمام هند .

منذ أيامه الأولى في هذا البيت اكتشف حياة أخرى خارج الزنبقلي ، قريباً أو بعيداً ، في البيوت التي تخضع لرستم آغا ، وفي سواها مما يخضع لسواه . كانت هند تكتشف أيضاً ، تسرّ له مبهورة بما تتلقف عما يدور في الجبل ، ففي حارم جمع فلاح من الأكراد أربعين رجلاً حوله وثار ضد الفرنسيين ، والفرنسيون أسروا امرأته ، لكنه فك أسرها وفرّ إلى اسكندرون . هند تقول إن الأتراك جعلوا هذا الفلاح باشا ، لأنه يساعدهم ضد الفرنسيين . وهند تتساءل مثل أبيها عما إذا كان هذا الكردي هو سفلو نفسه الذي لوى ذراع رستم آغا ؟ وياسين الذي كان ضنيناً برضى رستم آغا والنعمة التي خصّه بها ، بات يسرد على هند ماعرف عن والد رستم آغا وجده وعمه وأولاد عمه الذين استولوا جميعاً منذ عشرات السنين على اللاذقية نفسها ، وحاربوا ابراهيم باشا ، وفرضوا الخوة على الطريق من اللاذقية حتى الزنبقلي ، بل حتى ادلب واسكندرون .

كانت الأسماء تتكاثر كل عشية في همسها . ففي القصير انطلق شاب من الأغوات أيضاً ، ومن هناك إلى انطاكية وباب الهوى نفسها يقاتل الفرنسيين . وليس ذلك الشاب وحده ثمة . فسواه يقاتل أيضاً . في كل مكان : من العمق إلى كفر تخاريم وسلقين . وهاهنا ، أقرب في الحفة انطلق أحد الشيوخ ، وصارت الحرائق تضيء ليالي الجبل ، صار الرصاص يسمع في هذا البيت ، في الزنبقلي ، وصار ياسين يتحاشى الهمس حول من يفرّ من الفلاحين في القرى القريبة ، ليلتحق بالثوار .

كانت هند قد تمددت بين ياسين والطفل ، ولما تفق بعد ، حين عادت الرياح الشرقية تهب ، وخيل إليها أن الرياح تقرب صوت الرصاص ، تهوله أو تضيعه أو تتماوج به ، وتدفعها نحو ياسين مرة ونحو الطفل مرة . ولما طال بها ذلك أيقظت ياسين الذي أصغى ، وأنكر أن يكون سمع حتى صوت الرياح ، ثم أدار لها ظهره ، لكن الطفل أفاق مجفلاً وبكى ، فألقمته ثديها ، وياسين يتململ ثم يستدير نحوها ويتمتم :

- إذا اشتدت الرياح أيضاً أو ظلت هكذا حتى الصباح فقد تقلع الغرس الجديد كله . . أعوذ بالله .

- قم افتح الباب وشف الدنيا بالله عليك .

همست محاذرة الطفل ، فنهض متثاقلاً ، وقرب الباب خاطبها :

- اسمعي الرصاص .

ـ قلت لك .

ـ هذه الليلة ليست مثل كل ليلة .

ـ ماذا تظن ؟

سألت وهو يتلصص من فرجة الباب الضيقة ، وقد اندفع الهواء مطفئاً السراج .

ـ الجبل كله مشتعل .

ـ تعال ياياسين تعال . . استرنا يارب .

قالت وهي تتلمس الطفل في العتمة ، وياسين يرتج الباب جيداً ، ويتسمّر ثمة خائفاً وحائراً ، فيما عصف الرياح والرصاص يطبق من كل صوب .

★★★

هند هي التي أصابت ياسين بعدواها ، فلم يعد يحاذر في حديثه . لم يعد يكتم إعجابه بتلك الأسماء التي تلهج بها الألسن سراً وجهاراً . ولعل ماضج به الفضاء الرحيب خارج سور الزنبقلي ، قد تسلل أيضاً إلى داخله ، فلغط لسان أبي هند حيث لاتنفع تقية ، وانصب عليه غضب السماء ، وأمره الحارس في غمضة عين أن يرحل ، دون أن يسمح له بوداع صهره وابنته وحفيده الأول .

والد ياسين يرجّح هذا السبب لما فعل رستم آغا ، وإن كان أحد لايقدر أن يجزم بسبب وحيد ومباشر . أما هند التي أعجزتها المكابرة ، وغلبتها دموعها ، فما لبث صوتها أن أخذ يغدو أقسى ممّا ألف ياسين الذي لم يجرؤ من بعد على أن يناكدها ، ويقول كلما اهتاجت :

ـ قدّك قدّ الفارة وصوتك ملاة الحارة .

صارت هند تصدح بما يتهامس به الجميع من تبدل رستم آغا وزلمه ، بعد أن تفاقمت أخبار الثوار في كل مكان . ماعاد الآغا ولا أي من زلمه يرى ضاحكاً . وهند على يقين يحيّر من ينصت إليها : فمن يقدر أن يواجه الفرنسيين اليوم لن يعجزه أن يقف في يوم آخر في وجه رستم آغا . البلاد لم تخل من الرجال ، ولرستم آغا ومن معه يوم أغبر ، مهما تأخر فهو آت .

حين نقل والد ياسين خبر التهجير وهي تهيء الزوفا ، خرس ياسين دهراً ، قبل أن يتلجلج لسانه :

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله !

فنشج صوتها :

ـ ونعم بالله .

واحتار ياسين وأبوه فيما إنْ كانت مقهورة أم ساخرة أم أن امرأة أخرى هي التي نطقت ، وقال حموها مدارياً :

ـ اياك يابنتي . . الإيمان بالله ياهند .

وبعد تسلّله عائداً ، حنا ياسين وتلعثم معزياً :

ـ قد يسعد أهلك أن يعودوا إلى سفيرة .

قالت هند بجفاء :

ـ والدك لم يؤكد ذلك . أنا أعرف مثله ، وأنت تعرف ، أن أهلي كانوا يتمنون العودة دوماً . أهلك أيضاً يتمنون العودة إلى تلدف . ولكن من يعرف أي درب تضيعهم الآن ؟ أفرض أنهم عادوا إلى سفيرة ولم يجدوا لهم سقفاً بعد هذا العمر . . ؟

قال ياسين :

ـ استعيني بالله ياهند . . لاأظن أنهم سيبعدون عن سفيرة على كل حال .

وفي صمت تلك العشية فكر طويلاً في أن والده أو والد هند قد أخطأ منذ البداية حين ابتعد هذا عن تلدف ، وذاك عن سفيرة . بل إن الذين رحلوا جميعاً قد أخطأوا . وفي الصباح الباكر حاول أن يمسح على جفني هند الشاحبين ، فتمتم وهو يسبقها إلى الكرم :

ـ متى مايسر الله سوف نزورهم . قلبي يحدثني أننا سنلتقي قريباً . اتكلي على الله واطمأني يابنت الحلال .

لم تعقب هند ، وخاف أن يكون يكذب عليها أو على نفسه ، فهمّ أن يبتعد لولا أن يمينه التفت على كتفها ، فضمّها كما تفعل بطفلها ، كما لم يفعل منذ زمن منسيّ ، ووشوش خلل شعرها :

ـ لاتقسي على نفسك ياهند . لاتقسي عليّ . تكفينا الدنيا . بإذن الله سنلتقي بهم ولو في سابع سماء .

انتصرت هند على مابها رويداً ، سوى أنها لم تعد تبدو لياسين خاصة هنداً الصغيرة أو الحنونة البسيطة التي تعود عليها . فهذا القوام النحيل الضئيل يفور صمتاً وكلاماً . وثدياها العامران جف حليبهما ففطمت الطفل . وياسين يداري مايحسب من فورانها

المكبوت ، يخشى أن ينقلب مابها على حياتها التي لم تكد تستقر أو تهنأ ، حتى طلع الثوار ، وجن رستم آغا . وكلما أمعن ياسين في ذلك صار يلجم نفسه عن الخروج من البيت ليلاً أو الابتعاد عن الكرم نهاراً . صار يتحاشى أخبار الثوار وأخبار رستم آغا . يود لو أن جيرانه أيضاً ينأون عنه وعن هند قليلاً ، لو أن الأصداء تخفت . صار يفكر في سهده أن أولاء الشيوخ والزعماء قد يكونون أغووا الفلاحين . فالعين لاتقاوم المخرز . وأولاء الفلاحون ، شأنهم دوماً ، أغبياء ، لايعرفون مايضرهم ولا ماينفعهم ، فماالذي سيجنونه أخيراً ؟ هل يصدقون أنهم سيغلبون فرنسا ؟ وإذا غلبوها فهل ستقوم القيامة ؟ هاقد رحل الأتراك فماذا تبدل ؟ أما هند ، فإنْ كانت تظن أن يوم رستم آغا سيأتي بعد يوم الفرنسيين ، فهي امرأة ، بلا عقل ، أو بربع عقل ، لا لوم عليها . اللوم على أولاء الذين يعدّون أنفسهم رجالاً عاقلين ، لهم أربعة أرباع العقل ، ولكن المجانين لايصنعون مايصنعون .

كان الخجل يلوي بأفكاره في البداية ، يربكه ، ثم أعدم الثوار المختار الذي خانهم في جبل آخر ، غير هذا الجبل ، وجأرت هند :

ـ إلى جهنم لارحمه الله .

فصار ياسين يخشى مايدور في رأسه ، يكتمه عن نفسه ، وليس عن هند وحسب . إعدام المختار صور له أن أية كلمة خبيثة مما يطوى تجعل هنداً نفسها تعدمه ، قبل الثوار . فنظرة هند ـ لا صوتها فقط ـ باتت أمضى من الخنجر . ولن يكون ياسين إن أعلن هواجسه غير خائن . كذلك بات يخشاها والثوار معاً ، وكانت خشيته من أن يناله جنون رستم آغا تكبر ، فانطوى على نفسه مدارياً الجميع ، ولكن إلى متى كان لذلك أن يطول ؟

قد تنفع المداراة حتى مع السماء ، أما مع رستم آغا فما الذي ينفع ؟ كذلك فكر ياسين حين باغته الحارس في الكرم :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ خذ حرمتك والحق بأهلها . اليوم ترحل ياياسين . . مفهوم ؟

تشبث ياسين بالقشة وزحف إلى القصر . ربما كان يريد أن يعرف سبب الطرد ، أكثر مما يسعى لترضية الآغا . ربما كان ينتظر الطرد ، ولكن لسبب آخر . فهو لم ينكث بأي بند من بنود سند المغارسة . وأرض أم مرعي صارت مضرب المثل . أما الزيتون ، فلا بد له من سنين حتى يكبر ويثمر . رستم آغا ليس جاهلاً بالأرض ولا بالزيتون ، وهو

يعرف مثل أي فلاح أن هذا الكرم سيكون بعد سنين قليلة على يدي ياسين الحلو وهند العابد غرة كروم الجبل ، وليس الزنبقلي ، فلماذا إذن ؟

قالت هند إن رستم آغا كان سيخلق ألف حجة من تحت الأرض حتى يطرد ياسين الحلو . ماالحاجة إليه بعد أن أصلح الأرض وعمر البيت وغرس وصار الفلاحون يهربون إلى الثوار ؟ قالت هند إن رستم آغا لم يعد يطمئن لياسين الحلو بعد طرد أهلها . صارت طاعة ياسين مشبوهة . وإذا كان أحد لم يلتحق بالثوار من الزنبقلي وجوارها ، فمن يدري ؟ قد تصل النار إلى ذقن رستم آغا نفسه في يوم غير بعيد .

وقالت هند سوى ذلك ، وقال الحارس ، إلا أن ياسين خرس ، وربما طرش أيضاً ، فكل ماكان يدوم في رأسه أن هذه الأيام ذهبت بعقل الجميع ، وأنه كان جحشاً حين وقع على سند المغارسة ، وأنه سوف يظل جحشاً إلى أن يموت .

★★★

لاهو سأل ، ولا هند سألت عن الوجهة التي يسلكان . حمل في كل يد صرّة مما أعدت وهي تشتم الحارس ، والحارس يضحك كأنها تدغدغه . ترك لها الطفل وصرة ثالثة ، ومشى ، ومشت ، دون أن يسمح لهما بوداع أحد .

كان الوقت ظهراً ، وفي غفلة منه انحرفت بهما الدرب ، وهوت في واد سحيق ، ونأى العاصي . ظلا صامتين حتى أطلت قرية جديدة لاعهد له بها . بوغتت هند بعجوز يلبس قفطاناً أسود سابغاً ، ويغطي رأسه غطاء أسود لم تر مثله من قبل . ألتفت ياسين إلى العجوز فتمتم :

ـ هذه قرية مسيحية . ضيعت الطريق . امشي .

تبعته صامتة حتى دنا الغروب ، وظهرت قرية أخرى . تباطأ يفكر في اللجوء هاهنا الليلة ، فإذا بكنيسة صغيرة تلوح في أسفل القرية . توقف قائلاً :

ـ وهذه قرية مسيحية أيضاً . ماذا سنفعل ؟ الشمس غابت ، وهذا جبل . نسيت أن الفرنسيين والثوار يمكن أن يظهروا خلف كل شجرة ؟

رمت الصرة وأنزلت الطفل وتربعت على الأرض مطرقة . أردف :

ـ ماكنت أعرف أن حول الزنبقلي قرية مسيحية واحدة .

عبر بهما شابان يرطنان بلغة غريبة . قرفص وسألها :

ـ ماذا يقولان ؟
ـ ما أدراني ؟
ـ ماذا سنفعل ؟
ـ ندق على باب من هذه الأبواب .
ـ قلت لك قرية مسيحية ، ولغتها غريبة .
ـ ما الفرق ؟ بشر مثلنا .
ـ قد يظنون أني من الثوار وأنك . .
لم يستطع أن يكمل العبارة ، ولم تنتظر أن يفعل . نهضت برمة :
ـ لن يأكلونا . احمل ابنك وهات صرّة .

وتقدمته نحو البيت المواجه الذي دخله الشابان ، ومنذ تلك اللحظة صارت هي التي تقوده . هلل البيت لهما ، وعرفت هند قبل ياسين أن القرية أرمنية ، وإذْ عجز هو عن أن يبادل الشابين اليتيمين حديثاً ، كانت هند تلغو مع أم الشابين كأنها تلغو مع أمها . لم تكتم عنها ماحل بها هذا اليوم ، وماتعيه منذ فتحت عينيها على الزنبقلي . رسمت لها سفيرة جنة ، تل عابور خاصة ، حيث نزل أجدادها الأولون ، قادمين من بعيد ، لكأنها نشأت هناك ، وليس في سفيرة . رسمت لها الفرات وضفتيه ودير الزور ، حيث انطلقت واحدة من عشائر البقارة كما تنطلق اليوم هي وزوجها وابنها ، وتاهت شهوراً قبل أن تنزل حول سفيرة وفيها ، وتفعل مثلما فعل ياسين وفعلت في أرض أم مرعي ، فعمرت البيوت إلى جانب الخيام ، ربت الأغنام والجمال والخيول وزرعت أيضاً ، وصار للبوعابد ، بل لهند وياسين ووحيدهما ، تلك القرى التي لم يلبث أن ضربها الجفاف الذي ضرب تلدف أيضاً ، سوى أن الجفاف جعل جد هذا الطفل الذي أغفى بين هند والعجوز الأرمنية ، يبيع آخر قطعة له من الأرض ، ويوشك أن يدفن ملتزم الضرائب حيّاً ، أما فلاحو البوعابد فقد استقبلوا واحداً من بيكوات حلب ومعه ملتزم آخر للضرائب ، كأنما الله قد أرسل إليهم من يعينهم على محنتهم ، ففاتح بك المعلم سوف يدفع الضرائب عنهم ، ويقدم لهم أيضاً البذار للموسم الجديد ، ولن يأخذ إلا حقه ، وهاهو الملتزم بنفسه يشهد .

علا صوت هند وهي تسأل العجوز عمن يعلم ماكان يرسم الأبالسة حين نصحوا الفلاحين أن يقولوا فقط : نحن عرب سيار ، إذا مامرّ بهم موظفون أو عساكر ؟ جعل صوتها ياسين يتململ ، وقد انصرف عنه الشابان إلى الركن الذي انزوت فيه مع أمها .

تباهت بالبقارة والبوعابد كما كان يتباهى الفلاحون ، فهم حقاً عرب سيار ، ولم يسق أحد منهم إلى العسكرية ، لم يلتجىء أحد منهم تحت خلية النحل التي ترعاها العجوز والشابان خلف البيت ، ريثما يعبر الجندرمة . وقد ولى الجفاف أسرع مما ولى الجندرمة . عوض الخصب الفلاحين أضعافاً مضاعفة ، وجاء متعهد جديد مع الجندرمة يريدون الضريبة . رفض الفلاحون أن يدفعوا . قالوا انهم عرب سيار ، وفاتح بك المعلم هو الذي دفع أو سيدفع ، وحقه مصون في عيونهم ، وطردوا المتعهد والجندرمة ، وطالت غيبة فاتح بك ، حتى ظن الفلاحون أنه في غنى عما خبؤوا له ، ولكن من يدري أنه كان يزوج أخته إلى والي حلب ؟

كانت الغلال قد نقلت إلى البيوت ، والفلاحون يهيئون للشتاء الوشيك ، حين أقبلت الحملة . حملة كما في الحرب التي خاضها ياسين ضد الأتراك . عشرات من العساكر وعشرات من الجندرمة طوقت القرى كلها ، وساقت الشبان إلى السجن وطردت الباقين بعيداً ، ونهبت الغلال والحيوانات .

كان ياسين قد سمع ذلك من حميه أو من هند أو من أبيه مراراً ، غير أن صوت هند رسم له تلدف جديدة ، أو زنبقلي ثانية . جبهه الصوت بفاتح بك ورستم آغا وثالث في تلدف لابد له أن يعرفه ، وآخرين يرجو الله ألّا يرميه في دروبهم ، فقد امتد الشتات من سفيرة إلى الزنبقلي ، بعد أن حكمت المحكمة على حميه بالسجن ستة أشهر ، وفرّ الرجل بعيداً ، وفي فراره تكشفت له الخديعة . لقد وقع مثل الآخرين في الفخ الذي نصبه فاتح بك المعلم إذ بدل المتعهد ، وجعل الوالي العاشق يكتب إلى السلطان شاكياً عصيان العرب السيار بالأرض ، وهم الذي لايحق لهم أن يملكوا شبراً ، ماداموا كذلك .

نهضت العجوز مفسحة لياسين وقد طال الصمت الذي أسلمتهم هند إليه . وانسحب الشابان إلى ركنهما الغربي حائرين فيما إنْ كانت هذه الأسرة الهائمة أرمنية أيضاً ؟ أما هند فلم تستطع أن تغفو قبل أن تهمس لياسين ، حاملة على أبيها الذي لم يفعل كما فعل الآخرون قبل الحرب ، إذ لبّوا دعوة فاتح بك المعلم ، وعادوا إلى بيوتهم . ولم تنس هند أن أباها لم يسمع النداء إلا متأخراً ، بعد أن قطّع الشتات أوصال المهجّرين . لم تنس أن فاتح بك المعلم لو عثر على من يقيم مقام من طرد ، لما عاد إلى دفاتره العتيقة . لقد آثر الذين أتى بهم أول مرة أن يرحلوا بأنفسهم من جحيمه ، أما

أبوها فقد انتظر حتى طرده رستم آغا ، كما انتظر ياسين ، وكما ينتظر أبوه . ولعل ذلك ماجعل ياسين يدير ظهره لها ، وهو يخشى ألا يفلت من لسانها اليوم أحد ، وكان شخير العجوز يتردد منتظماً ثمة ، والطفل يدفع ظهر أبيه ، ويندس في حضن هند .

★★★

حمّلت العجوز ياسين صرة صغيرة من الخبز والتين اليابس ، وشيعت الطفل متضرعة للعذراء وابنها ، وهربت هند من دموعها . أما الشابان فقد لبثا واجفين على سطح البيت يرطنان ، وكانت الشمس قد أطلت على الوادي السحيق البارد ، وأضاءت حلكة الغابة على أجنابه ، والدرب الضيق الذي يقود إلى الجسر .

كان الطفل وحده يزقو ويعبث بشعر أبيه ، ويرفس بساقيه المتدليتين . أما هند وياسين فقد سارا صامتين ، ولعل كلاً منهما كان يحزر الوجهة التي سوف يسلكان . ولم يطل بهما ذلك ، إذْ لاحت الجسر في الضحى ، واختار ياسين أن يستريحا أمام خان الكوبرلي الذي تتصدره باحة فسيحة ، وتسوره البيوت . تربعت هند على الأرض ، وفرشت الزوادة ، وأُخذ الطفل بلغط السوق المقبب ثمة ، مثلما أُخذت أمه . أما ياسين فكان يتنصت إلى صوت أليف يأتي من اليسار ، حيث وقف عدد من الرجال بين العمودين اللذين يحملان القبة الأولى من قباب السوق .

لم يتبين ياسين حديث ولاوجوه الرجال ، بل إنه لم يشغل نفسه بذلك . إلا أن صوت أحدهم كان يتسلل إليه ، يذكره أو يناديه أو يجلو غشاوة عن صدره . ولما ألح عليه ذلك ، بدل جلسته مديراً ظهره لهند ، مواجهاً العمودين والرجال ، فإذا بحمادي الحسون يحدق فيه ، يلوح له ، ثم يندفع نحوه ، وهو فاغر كالأبله .

وقف ياسين مشفقاً على فؤاده ، ووقفت هند حائرة ، بينما استسلم الطفل لحمادي الذي لم يلبث الآخرون أن أخذوا يستحثونه ، وهو يمطر ياسين باسئلته عن عزيز اللباد وفياض العقدة واسماعيل معلا وراغب الناصح والملازم تحسين شداد والزنبقلي وهذا الطفل الجميل والصحراء والحرب والانكليز وهؤلاء الفرنسيين الأدهى والأمرّ ، والعمر الشقيّ . . . ولاريب أن حمادي قد تدفق بغير ذلك أيضاً ، وإنْ كان ياسين لايذكر البتة ، فقد ظل أصم وأبكم حتى عاد الطفل إلى رقبته ، ونأى حمادي ، وأخذت هند تعنف وتسخر ، خاصة بعد أن غادر الجسر .

كان يصحو بعسر على وقع خطواتها وصوتها وهي تتقدمه ، فيرى نفسه مثل حمادي الحسون ، وهو يتجه شمالاً وحمادي يتجه جنوباً ، لا فرق ، كلاهما يبحث عن مقام جديد وشغل جديد ، سوى أن حمله أكبر ، فحمادي لم يتزوج ولم ينجب . بيد أن هنداً جلت له خطله ، فحمادي الحسون ، رجل آخر ، شهم وصلب ، مالبث أن ترك ورفاقه شغلهم في شق الطريق بين الجسر واللاذقية ، حين طلب الثوار إليهم ذلك ، ولم ينتظروا رئيس الورشة أو ضابطاً فرنسياً أو كلباً من كلاب الآغا حتى يطردهم . وحمادي الحسون أفرغ مافي جيبه ، وأودعه في عبّ الطفل ، وهو يضحك ، ويدعو الله أن يجمع الشمل في حال أنعم من هذه الحال . وخيل لياسين أن هنداً تعرف حمادي منذ سنين ، لكأنه قريب لها أو صديق ، ولم يجرؤ على أن يفرح بذلك ، ولا على أن يضيق به ، كما لم يجرؤ على أن يسألها عن الوجهة التي تتجه ، وقد تناءت الجسر ، ومالت الشمس ، وقلّ العابرون .

كذلك ظلت هند تقود يوماً بعد يوم ، لاتتركه يتقدمها إلا حين تختار أن يلجأ للمبيت ، من مقام النبي هود إلى مقام النبي شيت ، من ذلك البيت الذي كان يعج بالمسلحين إلى مقام النبي أيوب الذي تفوق قوته ألف مرة قوة شمشون . وفي واحد من تلك الملاجىء قدم لهما المضيف حماراً وزوادة ، ولم يكن الثوار والفرنسيون أصداء تداهم ليل الزنبقلي أو كرم أم مرعي ، بل مصادفة تلو المصادفة ، من قرية إلى مقام إلى طريق ، في النهار كما في الليل ، حتى بعد أن تناءت حلب بعيداً ، وأيقن ياسين أن هنداً تقوده إلى حيث ترجو أن يكون أهلها ، في سفيرة أو حولها .

ثمة فقط نزلت عن الحمار وتراجعت ، فأدرك أن عليه أن يسأل العابرين ، وأن يطلع على البوعابد كصهر عتيد . وفي عصر ذلك اليوم نزل عن الحمار ودفع إليها بالطفل ، مسوّياً الصرر على ظهر الحمار ، وخاطبها معتزاً :

- هذه تل عابور . وصلنا .

بيد أن أهلها لم يكونوا في تل عابور . ولاخبر لدى أحد عنهم . وقد أوقعها ذلك في الخرس ، وربما في الطرش . أما ياسين فقد انفلت من عقاله الذي امتد من الزنبقلي حتى هذه الفرحة التي يلاقيه بها من يقولون إنهم أعمام هند وأخوالها .

زينت العشيرة لابنتها أن تقيم وزوجها هاهنا ، إلا أن هنداً رمت حازمة بجملتها الوحيدة :

- سوف نقيم في تلدف .

ولم تكن قد حدثت ياسين بذلك ، ولا هو حدثها ، فأربكته مفاجآتها ، أسعدته ، وأعلنت ما كان يعتمل في نفسه ، وهو يرى عشيرتها تلملم بها الأشتات وتضيء . حنّ إلى هند التي رباها على يديه ، ورآها تعود إليه بعد هجر ، حنونة وطيعة ، وهمس لها معاهداً أن ينقب الأرض إكراماً لعينيها ، حتى يجمعها بأهلها . وفي اليوم الثالث تقدمها نحو تلدف .

★★★

ماكادت العشيرة تغيب حتى ترك لها الحمار والطفل ، وانطلق خفيفاً ، يوسع الخطى ، ويود لو يقدر أن يغني ، يتشمّم الأرض العارية ويستحثها ، حتى إذا لاح نهر الذهب وبدأت الخضرة تلون الضفتين ، أيقن أن تلدف قد صارت في قبضة اليد ، ومنّى نفسه وهنداً بيوم قريب ، يكون لهما فيه أن يريا العاصي والزنبقلي والجبل ، بعد أن يكون الله قد أراح الدنيا من رستم آغا وزلمه ، ومن الفرنسيين أيضاً .

على ضفتي النهر ، جنوبي تلدف ، أخذ يجتاز القرى التي حفظ أسماءها صغيراً ، وسمع والده يرددها كبيراً في ليالي الزنبقلي . فأقبل يحدث هنداً كما كانت تحدث العجوز الأرمنية عن هذه العشيرة التي قدمت أيضاً من ضفاف الفرات ، ولكن ليس من غربي دير الزور ، كما البوعابد ، بل من شرقي الرقة . إنها الفردون ، واحدة من عشائر العفادلة ، قطعت شهوراً قبل أن تحلّ هنا ، قبل أن تفعل البوعابد ، أو بعدها ، ومثلما فعلت البوعابد حول سفيرة ، وفعل هو في أرض أم مرعي ، عمرت الفردون هذا المدى . إلا أن الشقاق مالبث أن دب فيها ومالبث رشاد بك الجويبري أن ظهر ، يذكي النار ، ويتبختر في أرض المرحوم .

لم يعد ياسين يذكر من يكون ذلك المرحوم . إلا أنه لم ينس أن رشاد بك قد اشترى الأرض من المرحوم بعد وفاته . ولعل هنداً سمعت بعض ذلك من ياسين أو من أبيه أو من أمه في الزنبقلي . ولكن ماهمّ ، فياسين لايقدر أن يلجم لسانه ، ولا ماتمطره به طفولته ، حين كان الكبار يتصايحون ، وهو لابد قرب عتبة الباب ، في تلدف . كانوا يتحدثون عن الطابو ، ورشاد بك الجويبري الذي سجل باسمه أراضي الأموات والأحياء ، حتى آل إليه كل ماعمرت الفردون حول نهر الذهب . إلا أن الفردون قامت قومة رجل واحد على الرغم من شقاقها . وماكان رشاد بك الجويبري لينتصر لولا الخيانة .

أغوى رشاد بك شيخ العشيرة ، وجعله وكيلاً على ماسجل من الأرض . باع الشيخ العشيرة بقطعة صغيرة من الأرض وفرس ، وربما بقطيع صغير من الأغنام ، أو حفنة من العثمنليات ، فانقسمت العشيرة من جديد ، وناصر الشيخ من ناصره ، وعاداه من عاداه ، وتفرج آخرون ، وضاعت الأرض .

كان صوت ياسين يتداخل في سمع هند بأصداء صراخ تغالب الهواء ، ثم غلبت الأصداء وقد دخلا الشربة ، وعندما أطلت الساحة الهائجة ، توقف الحمار ، وتاهت هند بين بكاء الطفل وأصوات الناس ، وانشبحت عيناها بين الجماعات التي تتوزع الساحة ، والخيزرانات التي تلوح عالياً ، والأطفال والنساء والكهول المتكومين أقرب إلى حيث ربط ياسين الحمار .

تقدم ياسين محاذراً ، ثم توقف أمام عجوز يتوكأ على عصاة غليظة ويقاوم انحناءة ظهره . أمعن العجوز في ظهر هذا الذي حجب عنه الساحة ، ثم لكزه بالعصا ، فالتفت ياسين باستياء ، وتنحّى ، لكن العجوز لكزه ثانية وهو يحشرج :

ـ قرّب مني ياابن أخي قرّب .

تراجع ياسين خطوة ثم دنا من العجوز الذي عاد يحشرج :

ـ قلبي يحدثني أنك .. ابن من أنت ؟

ـ أنا ياسين الحلو ..

قال متضايقاً ، فامتدت العصا تحوطه ، وبدا كأن العجوز ينوح :

ـ عرفتك والله وأنت تدير ظهرك لي . عرفتك وأنت تربط حمارك . تعال ياابني تعال ..

وأشارت العصا إلى هند والحمار ، وسار العجوز وهو يتساءل :

ـ أين أبوك إذن ؟ عسى أن يكون حياً . أين أرضكم الآن ؟ نسيتني ياملعون ؟

ارتجفت كف العجوز وهي تمسح دمعته ، وارتجفت ذقن ياسين وهو يتعرف على عمه ، ويعرف هنداً به ، ويناوله حفيده ، ومالبث أن لحق بهم عجوز آخر بلا عصاة ، فإذا هو ابن العم ، ثم جاء عجوز ثالث ، فإذا به زوج ابنة العم ، ولا مناص من بعد لياسين أن يتابع اليوم إلى تلدف ، فقد ذهب العجوز الثالث بهند والطفل والحمار إلى بيته ، وانضم هو وعمه وابن عمه إلى من في الركن الشمالي من الساحة ، والخيزرانات تلوح عالياً ، والهياج يشتد .

★★★

قال عم ياسين في غيبة صهره العجوز :

ـ هذا هو أول من وقف مع الشيخ في خيانته . كان شاباً جاهلاً ، لعب الشيخ برأسه ک لعب بعدها بهذه الرؤوس كلها . الشيخ نفسه تاب ، رحمة الله عليه .

همس ياسين مستنكراً :

ـ كيف صاهرته إذا كان قد خان ؟

صاح العم :

ـ ارفع صوتك عندما تكلمني . الحمد لله لم يبق للواحد منا لانظر ولا سمع . انظر في هذه الرؤوس الفائرة . لم يبق فيها عقل . قلت لك تاب ، والدنيا نصيب . قل هو وقف مع من خان ، ولم يخن .

تساءل ياسين :

ـ من يجرؤ على أن يقتل الشيخ في فراشه ؟

قال ابن العم :

ـ من يكون إلا رشاد بك أو وكيله ؟

فنهره أبوه :

ـ رشاد بك لايفعلها . الوكيل هو القاتل والله أعلم .

والتفت إلى ياسين :

ـ في رقبته عشرون قتيلاً كما يقولون ، والشيخ ـ قل ـ هو الواحد والعشرون . عمرك سمعت بعشيرة يحكمها وكيل غريب ؟ ماذا يعني أنها استوطنت هنا أو في آخر الأرض ؟ العشيرة هي العشيرة ، ورشاد بك الجويبري يعرف ذلك . لاتقل إنه جاهل . هو أدرى منك ومني . والشيخ نفسه قال له ذلك يوم عزله وجاء إلينا بهذا القاتل .

سأل ياسين :

ـ لماذا فعل رشاد بك ؟

قال الصهر العجوز الذي حضر بعد أن اطمأن على الضيافة في شطر النساء مر بيته :

ـ العزل أم القتل ؟

ـ الأول . .

أجاب ياسين ، فنهر العم صهره وخاطب ياسين :

ـ لأنه عجز عن الذين لم يستسلموا . أنت لاتعرف . ربما كان أبوك قد رحل تلك الأيام . رشاد بك والشيخ ومن سلم لهما من الفردون ، عجزوا عن الآخرين . هذه واحدة ، والثانية أن الشيخ تاب ، رحمة الله عليه ، ووقف مع الحق . استعفى من العشيرة عن خيانته ، وانقلب على رشاد بك ، ولكن بعد ماذا ؟ بعد مادق رشاد بك الاسفين بين الأب وابنه ؟ بين الأخ وأخيه ، ظن الشيخ مثلنا جميعاً بعد هزيمة الأتراك أن زمن رشاد بك قدولّى . من كان يحزر أن رشاد بك سيكون أقوى بعد مجيء الفرنسيين ؟

قال الصهر العجوز :

ـ كنا برشاد بك وحده فصرنا به وبالفرنسيين .

قال ابن العم :

ـ الخيانة هي السبب . كل مرة الخيانة تضيع لنا حقنا .

فنهرهما العم وخاطب ياسين :

ـ مافعل الشيخ رحمة الله عليه هين . على الأقل كنا نعرف مايفعل ، وهو يمكر والناس تمكر . لكن في حلب من يعرف ؟

قال الصهر العجوز :

ـ رشاد بك الجويبري يعرف .

وقال ابن العم :

ـ الفرنسيون .

وقال الصهر العجوز :

ـ المحامون .

فنهرهما العم وخاطب ياسين :

ـ رشاد بك ياابن أخي لجأ إلى المحاكم بعدما عجز وكيله عن الذين لم يستسلموا . أنت لاتعرف . أنت كنت بعيداً . الذين قاوموا قويت شوكتهم بالشيخ وأولاده . الحق يقال . ولكن رشاد بك جرجر الناس من هنا إلى حلب ، ومحكمة بعد محكمة ، والفرنسيون صاروا يروحون ويجيئون ، ومن كم يوم صدر الحكم . المحامون باعوا واشتروا بمن لايزال يقف في وجه رشاد بك . الخيانة كل مرة هي السبب . من منكم قال ذلك . المحامون خانوا . من قال منكم ذلك ؟ والمحكمة حكمت من كم يوم لرشاد بك بنصف هذه الأرض ، وربما بالأرض كلها . من يدري ؟ ولكن الله فتح على الشيخ ، فشعشعت بصيرته قبل أن يقتلوه . قال الشيخ ياابن أخي : الطابو الذي يلوح به رشاد

بك ووكيله في المحكمة والفرنسيون والمحامون ، باطل في باطل . هذه الأرض كلها ليست لأحد . هذه الأرض رقبتها للحكومة ، ولنا حق التصرف بها ، أباً عن جد ، فكيف يطويها رشاد بك أو غير رشاد بك ؟

قال ابن العم :

ـ طيب نحن لانريد طابو ولاغيره ، وأمرنا لله . الأرض للحكومة والأمر لله ، ولكن كيف تعطيها الحكومة لرشاد بك ؟ كيف يخلصها الفرنسيون منا ويعطونها له ؟

قال الصهر العجوز :

ـ أنت الصادق : المحكمة ، أو المحامون ، وليس الفرنسيون . .

قال العم متأسياً :

ـ من أجل ذلك قتلوا الشيخ . تخلصوا منه وأشعلوا الفتنة . كنا بالأرض صرنا بدم المرحوم ، والثأر هو الثأر . يارب منك العون . كيف نرد الكيد ونطفىء هذه النار ؟

ظل السؤال يطن في سمع ياسين بعد أن انفضّت السهرة في بيت الصهر العجوز وهجع الجميع إلاه . وفي الصباح تابع إلى تلدف أقلّ حماسة . ولم يكن مايشغله فقط هذا الذي لايزال يطن في رأسه . كان يفكر فيما ينتظره عما قليل في تلدف ، حيث سينزل في بيت عمه إلى أن يشاء الله . سوف ينتظر عودة عمه وابن عمه من الشربة ، وماتؤول إليه الفتنة الناشبة فيها ، ثم يسعى ، بتدبيرهما ، خلف لقمته ، فهل قطعت هند كل هذه المسافة من أجل ذلك ؟ إلى متى يمكن لعمه ولابن عمه أن يقاسماه اللقمة ؟ مامعنى اللهفة إلى تلدف إذن ؟ كيف نسي أن ليس له فيها موطىء قدم ؟ وإذا كان عليه أن يسعى فيها مستجدياً من يشغله ، فلماذا لم يوفر ذلك ، ويستجيب لأعمام هند وأخوالها وهو معزز مكرم ؟

كانت خطواته تتباطأ خلف الحمار ، وهند تهدهد الطفل الذي لم يكد ينقطع بكاؤه منذ الأمس ، تهون على ياسين ، وتقبل على تلدف مشوقة ومكابرة ، تغالب قلقها وقلق ياسين الذي مالبث أن خفف عنه لقاء ذويه والجيران ، ولو إلى حين .

لم يتأخر العم وابنه في الشربة . عادا بعد أن اطمأنا إلى أن القتال لن ينشب ، على الرغم من أن الأرض والشيخ قد ضاعا ، وقلوب الناس ليست صافية . وبات على ياسين أن يتبع عمه إلى صلاة الجمعة ، حيث يمكن أن يتسنّى اللقاء بذلك الذي قد يؤجره قطعة من الأرض .

على ياسين إذن أن يعود إلى من طرد أباه ، فما الفرق بين الآغا الذي فعل ، وابنه الذي ورث ؟ ماالفرق بين ياسين الحلو وأبيه ؟ وهند لاتبدي رأياً ، على الرغم من أن ياسين كان ينشد أن ترفض عيناها ، إلا أنها تركته يسير خلف عمه مطأطئاً ، يحاول أن يصلي بخشوع ، فيخرب عليه صلاته ، شعوره المتفاقم بالحاجة والمذلة . وينتظر أن يفسح الآخرون له ولعمه المثول بين يدي الآغا ابن الآغا ، ثم ينتظر أن يفرغ عمه من زلفاه ، ويتطامن أمام هذا الشاب الذي يروزه ملياً قبل أن يعلن بجفاء أن لا أرض الآن لديه للإيجار ، ويشير بخيزرانة إلى رجل يقف خلفه :

- بعد يومين ثلاثة دبر لياسين مايشتغل به .

★★★

على مضض توجه ياسين عشية الخميس التالية إلى مضافة صادق آغا الباعا ابن رجب آغا الباعا ، فإذا بذلك الرجل الذي كان يقف خلف صادق آغا في المسجد يلاقيه . كان ياسين قد عرف أن الرجل كبير عبيد الآغا الثلاثة وساعده الأيمن . وكان العبيد الثلاثة ينتحون زاوية قصية في البستان الصغير الذي تتوسطه المضافة . ردّ هفل تحية ياسين متجهماً ، وبادره :

- ماكانت نارك تحملك يومين ثلاثة ؟ طارت الدنيا ؟ تظن الشغل بالسهل ؟

تسمر ياسين مشدوهاً ، وطال صمت هفل قبل أن يتابع ساخطاً :

- فتح أذنيك جيداً . أنا أعرفك من يوم كنت مثل القرد هكذا . أعرفك وأعرف من خلفك . أمامك فرصة ما جاءت لغيرك من عشرين سنة في تلدف . إذا نجحت تكون أمك قد دعت لك . تصير من رجال الآغا ، والدنيا تضحك لك . تعوض مافات من خلّفك قبلك . فتح أذنيك جيداً : البيادر صرت تعرفها . أراك من الشروق للغروب تدور فيها وأنت تهزّ بيديك . الآن البيادر عامرة ، وناكر الجميل ماجزاؤه ؟ يوم الشدة يزحف على يديه ورجليه : آغا ياآغا ، ويوم الفرج يلعب بذيله . هه : احك حتى اسمعك .

قال ياسين متوجساً :

- ناكر الجميل ملعون .

رق صوت هفل :

ـ أنت أول الناس . أنت الآن في شدة . البيدر البطران ليس لصاحبه فيه حق . لن يبيع منه حبة ، لا لرشاد بك ولا لرب رشاد بك . أنت معي ؟

تساءل ياسين فزعاً :

ـ كيف يا هفل ؟ نوّرني .

قال هفل وهو ينقل ذراعه من جهة البيادر إلى العبيد الثلاثة :

ـ نحرقها فوق رؤوسهم . هذه فرصتك وأنت لست جرواً مثل هذه الجراء . علمهم كيف تكون الرجولة . لاتغمض عينيك اليوم . قبل أذان الفجر تطلع الشمس على تلدف من البيادر . فهمت يا ياسين ؟ لاقني أمام المسجد قبل الأذان .

صاح ياسين :

ـ حرام . . حرام يا هفل .

أنشب هفل أصابعه في عنق ياسين وهمس :

ـ صوتك يا ابن الحرام . أنت تعرف الحلال من الحرام ؟ أدفنك هنا في مطرحك . كيف يكون واحد مثلك ابن آدم ؟ ضائع صايع ، يلتقط ما يرمي له بيت عمه مثل الكلب ، وتقول حرام ؟ أنا الذي ظننت أنك رجل ؟ فتح أذنيك جيداً : لسانك هذا أقطعه إذا طلع من مطرحه .

ونادى على العبيد وهو يفلت عنق ياسين الذي بلع ريقه ، وتنحنح ، ثم قال :

ـ يا هفل وكّل الله . تقدر أن تربي من تريد من دون حرق البيادر . .

تحلق العبيد حوله متنمرين ، وكفّ هفل تأمرهم بالانتظار قبل أن يصيح بهم

ـ من حرق البيادر ؟

معاً خرج صوتهم :

ـ ياسين الحلو .

فقهقه هفل ، وقهقهوا خلفه ، وياسين يتلمس عنقه ، يكاد أن يقهقه أيضاً ، قبل أن تنفلت قدماه ، وينطلق بعيداً ، صوب النهر ، لايجرؤ على أن يعود إلى البيت ، ولا أن يقترب من البيدر ، ولا أن يجتاز النهر ، وصوته في صدره ينادي محذراً ، يستغيث برستم آغا ورشاد بك وفاتح بك والفرنسيين وعمه والثوار ، ويرجو الله أن يأخذه بعيداً ، حتى لو ترك هنداً وابنه بين يدي صادق آغا .

سوى هند وعمه ، كانو قد هجعوا جميعاً قبل أن تجره قدماه الى البيت ، ويصحو على هند تهزه :

ـ مابك ؟ ماذا جرى . .

قال العم :

ـ اتركيه يا ابنتي . أنا أعرف .

قال ياسين :

ـ لم نتفق . .

قال العم :

ـ هذا كل شيء ؟

لم يجب ياسين ، فانسلّت هند ، وتبعها ، والعم يحشرج :

ـ ضعي له لقمة يأكلها .

لكنه رفض أن يأكل وأن يتكلم وأن ينزع حذاءه . ترك هند في حيرتها وخوفها وغضبها ، واستلقى مغمضاً ، حتى ملأ الصياح الزقاق :

ـ البيادر ياناس . . النار ياناس . . الحقوا رزقكم ياناس . .

انقلب على جنبه وهند تناديه ثم تهزه ، ففتح جفنه متكاسلا ومنكراً أن يكون ماتقوله أو يقوله الناس صحيحاً . وكان ابن عمه يستحثه ليلحق به ، والطفل يبكي ، وهو عاجز عن النهوض . ساقاه مشلولتان ، وإنْ كانتا تعدوان وتسبقان إلى البيادر ، والبيدر الأول الذي صادفه لم يكن يحترق . كانت النار بعيدة . البيادر الأقرب الى ضفة النهر ، والذين يركضون صوبها ، يتجاوزون ياسين حتى يخلفوه وحيداً مزروعاً أسفل البيدر الأول القريب ، في بقعة العتم الوحيدة التي عجز عنها اللهب النقي والتماعات صفحة النهر . وقد ظل ياسين في مخبئه حتى أشرقت الشمس وانطفأت النيران ، وشرع الفلاحون يعودون ، فاندس في صفوفهم يلعن نفسه ، ويلعنهم ، ويتوعد صادق آغا وعبيده .

★★★

قضى سحابة النهار بين الرجال ، من بيت عمه الى الزقاق والمسجد ، متحاشيا هند ، منكساً وصامتاً ، ينصت الى الندب والوعيد ، ويرثي للشكوك التي تحوم حول العبيد ، ولا تجرؤ أن تسمي صادق آغا .

بعيد العصر اختلى بعمه خلف البيت ودس شفتيه في الأذنين المشعرتين اليابستين :

ـ أنا راحل يا عمي . لن أنام اليوم في تلدف . أمانتي عندك هند والولد . أين تنصحني أن أذهب ؟

بوغت العجوز وأوشك أن ينهره ، لكنه أطرق يغالب زفراته ، ثم حشرج :
ـ جرب مع الهنادي . أصحاب ذمة ووجدان . الخير لاينقطع من الدنيا والله سبحانه وتعالى لايقطع بخلقه .

غادر ياسين عمه دون وداع ، ونادى هنداً بصوت صارم لاعهد له ولا لها به جاءت حاضنة الطفل ، ووقفت كظيمة ، تتأمل محياه منكرة . قال :

ـ أنا راحل يا هند . لقمتنا ليست هنا . لن أعود حتى يوفقني الله بمكان نقدر أن نعيش فيه . ماذا أوصيك ؟ الولد يا هند . لسانك ، أنا أعرفه . إياك أن تذكري صادق آغا أو عبيده بكلمة . ادعي لي حتى لاتطول غيبتي . وغادرها دون وداع .

ظلت هند واقفة حتى اختفى . عجزت عن النطق وعجز الطفل . امتلأت عيناها بالدموع ، ولفّ الخوف ذراعاها حول الطفل . أنكرت أن تكون الآن قد صارت وحيدة ، بلا زوج ولا أهل . داورت النقمة التي تحركت في صدرها على ياسين بالعتاب . رجت الله أن يزيدها قوة حتى تستطيع أن تواجه صادق آغا وعبيده ، وكان العم يقترب منها منادياً حفيده . التفت الطفل والتفتت ، فسرت فيها الروح . لاقت العجوز وناولته الطفل ، وهمت أن تجلس في ظل الدردارة ، لولا أن خيل إليها أن العجوز يبكي . أعانته في الجلوس وسألته :

ـ ماذا تركت لي يا عمي ؟

نظر العجوز نحو الجهة التي أخفت ياسين وهمهم :

ـ الله يوفقه . ادعي له يابنتي . اتركي الولد معي وعودي الى البيت .

ومثل خطاها المثقلة كانت خطا ياسين وهو يمشي مع النهر ، غير آبه بالليل الذي هبط سريعاً ، ولا بالكمد الذي ملأ جوانحه ، ولا بالجوع .

تجاوز الشربة النائمة ، وترحم على الشيخ القتيل ، ومد لسانه لرشاد بك الجويبري والفرنسيين والفردون كلها ومحاكم حلب والمحامين ، ملوحاً بحرائق تلدف ، وحوف خطوه مبتعداً عن النهر ، كما اشار عليه عمه ، زاهداً بما ينتظره عند الهنادي ، الليلة أو في الغداة ، منقباً في ذاكرته الكليلة عما يعرف عن هذه العشيرة التي جاءت من مصر ، قبل أن يخلق أبوه وعمه ، وربما جده ، أيام ابراهيم باشا ، ثم أقامت من على ضفة النهر حتى أبو قلقل ، ولم تعد ترحل ولا تغزو . استوطنت مثلها مثل البوعابد والفردون والولدة ، فلحت وزرعت وعمرت وآخت النحس ، إذ لم تكد تهنأ حتى صاح السلطان من استنبول هذه أرضي . دخلت أرض الهنادي فيها للسلطان . رقبة الأرض للسلطان

والتصرف للهنادي . ولما راح السلطان جاء الأمير دشاش . صارت الهنادي تدفع الخوة للأمير حتى يمنع عنها النهب والدمار . وعم ياسين وابن عمه وسواهما أكدوا في سمر الليالي التي كان ياسين يعدها قبل لقائه بهفل ، أن عيون الآغوات والبيكوات في حلب تلعب هذه الأيام على أرض الهنادي ، فهل كان العم إذن يخرف حين نصحه أن يجرب حظه هناك ؟

قريباً من إحدى القرى الصغيرة الهاجعة فكر بذلك ، فتباطأت قدماه ، ثم توقفتا ، ثم جلس وسط الدرب المعشب ، وعلى صدى صياح الديكة استلقى وأغفى ، حتى أيقظه خوار البقر ولغط الصبية حوله ، فنهض يفرك جفنيه ويهرب من عيون الصبية ، واندس في القرية يسأل عن أهل هند ، عن مختار أو شيخ يكتم حاجته للطعام وللشغل ، يفضح ما أسرّ من حرق صادق آغا وعبيده لبيادر تلدف ، يتقرى في عيون الرجال ما أفاض به عمه وابن عمه من عصبية الهنادي ووحدتها ، راجياً ألاّ يفرطوا بها ، مهما كاد لهم الكائدون .

من قرية الى قرية ظل يتنقل ذلك النهار قاصداً نبع أبو قلقل . فقد أدرك دون أن يصرح له أحد أن بغيته ثمة ، ولم يكن في عجلة من أمره .

وصل إلى النبع مساء . كانت الشمس تسبغ على جداول المياه والبستان السلطاني ذهباً أنقى من ذهب النهر الذي أودع هنداً وابنه على ضفته . قرفص يغرف الماء ، يغتسل ويشرب ، ويحمد الله ، ثم تابع متأنياً ، يتأمل حجارة المسجد والغرف العديدة بين البستان والقرية . سلم على من صادف واحتار في أية دعوة يلبي ، وأي شيخ يقصد . ترك لقلبه أن يكون دليله ودخل الى المضافة الأخيرة . تناول العشاء ، وتقوى بسخط الشيخ والفلاحين المتوافدين على الجناة في تلدف وفي الشربة وفي الزنبقلي نفسها . حمد الله على أن يسر له من يشغله ، فيمنحه الأرض والماء والبذار والمحراث ويترك له ثلث المحصول . عاهد نفسه وعاهد الشيخ على أن يعود قريباً ، بل قريباً جداً ، بعد أن يقع على أثر لأهل زوجته ، ويأتي بها وبابنه ، ونام قريراً ، كما لم ينم منذ أمره الحارس بالرحيل من الزنبقلي .

كذلك انطلق بجد أكبر من قرية إلى قرية ، من عشيرة إلى عشيرة منكراً الخيبة تلو الخيبة ، والتعب الذي تفاقم عليه منذ أن عبر بعشيرة البونيا ، إذ تأجج رماد تلدف المنطفىء في صدره . فللشيخ هنا أيضاً عبيد ، والأجراء يخدمون في المضافة والمنزل كالعبيد ، وللشيخ النصيب الأكبر في كل شيء ، من ذبيحة العيد أو النذر إلى دية

القتيل . ولم ينقع غلة ياسين أن الشيخ الذي يرعب ثمة الكائنات جميعاً ، وليس البشر وحدهم ، يدفع الخوة صاغراً للأمير دشاش . ما عاد يواسيه أن الله يبلو كل ظالم بمن هو أظلم ، فقد أفعمته الهنادي ، خاصة في أبو قلقل بنزوع آخر ، فيه قصاص من كل ما عاش ، من كل من ظلم ، كما فيه اللقمة النظيفة ، والكلمة الحلوة .

ولعل ذلك ماجعله يغادر البونيا عجلاً : كما جعله ، أذْ يخبط بعدها في أرض الولدة ، يسلّم بتعال وجفاه على أول من صادف ، مكرراً السؤال الذي سئم عن حميه ، ولكن الرجل الذي رد السلام متسامحاً أشار غرباً ، وقد عاد يعبث بأرض البيدر الفارغة

- هناك .

انفلش ياسين وهو يحيّي الرجل من جديد ، ويعدو مسابقاً عينيه ، يتجاوز البيادر الفارغة والعامرة ، يحيي بشوشاً وملهوفاً ويعدو ، حتى أوشكت البيادر أن تنتهي قبل أن يسمره صوت حماته :

- ياسين ياسين . . بسم الله الرحمن الرحيم !!

ثم جاء صوت حميه يسحج :

- أهلاً يا ابني . ظني طردك رستم آغا أيضاً . أين هند ؟

وتدافع الأولاد نحوه ، يضحكون ويدورون ، فدار بينهم ، وهم أن ينط ، لولا أن حماته أجهشت ، وحماه يزجرها ، ثم يزجرهم جميعاً ، مومئاً إلى موكب الشيخ الذي اقترب ، فانفض الأولاد ، واقترب ياسين من حميه يتأمل الحصان والسائرين في ركابه ومن يعلوه ، ثم يتنحى مفسحاً ، فيما تقدم حموه ذليلاً ، وقال الشيخ :

- والله العظيم كل حبة تأخذها حرام في حرام . ماذا سأعطيك ؟ أنت لم تشتغل بأكل هذه الجرابيع .

ولفّت إشاره الخيزرانة الأولاد وأمهم وياسين ، فيما كان حموه يتضرع ، والشيخ ينهره :

- ما ذنبي إذا كنت وصلت بعد ما زرع من زرع ؟ السنة القادمة نرى .

ثم صاح بأحد المرافقين :

- أشر له على كم علبة .

ولوى عنق الحصان متمعناً في ياسين ، وقائلاً :

- انقلوا الباقي اليوم . من أنت ؟

قال ياسين بعداء :

ـ صهر الجماعة .

سأل الشيخ هازئاً :

ـ ما شاء الله . . ألا تريد حصة أيضاً ؟ كلكم تحضرون في آخر الموسم و . .

قاطعه ياسين :

ـ أنا عابر سبيل ولا أريد شيئاً .

أمر الشيخ وهو يهمز الحصان :

ـ ساعدهم إذن حتى ننتهي بسرعة .

هجم الأولاد وأبوهم ، وسرعان ما نسي ياسين حنقه وتعبه ، واندفع كأنه في سباق ، فيما أخذت العجوز تسوق الحمار بين البيدر ومستودع الشيخ ، وعلى رأس الجميع انتصب المرافق الذي تخلف عن الشيخ ، يراقب ويستحث ويحذر من الغش ويلعن الفلاحين ، ولما تقدم يعلن :

ـ هذه حصتكم ، عسى في السنة القادمة تكون اكبر .

كان البيدر قد أوشك أن يفرغ ، فوقف ياسين مذهولاً يصيح :

ـ ما هذا ؟

والرجل يبتعد ، وحمو ياسين مطرق يتمتم :

ـ كما ترى ! أمس نقلنا النصف بعد أن طردوا الفلاح الذي زرع ، اشتغلنا معه من يوم وصولنا ، وطردوه بلا حبة . مليح تركوا لنا كم حبة .

ـ وماذا فعل ؟

ـ استحلف الشيخ أن يزيد له في حصته ويرحم أطفاله . كفر الرجل . صاح الشيخ : يا كلب يا ابن الكلب أنت مديون لي وفوق هذا لاتشبع ؟ لو نطقت بحرف أمس أو اليوم لحرمني وطردني أنا أيضاً ! حصتك هناك يا ياسين كما رأيت . شنبل اثنان ، علبة ، حبة ، كما يلهم الله الخيزرانة . صحيح أن الشيخ يقدم كل شيء ، ولكنه يأخذ كل شيء ، وأنت مثلك مثل التراب أو مثل النعجة ، الطير في السماء هنا ملك للشيخ . رحمة الله عليك يارستم آغا . قال ما بتستكتروا خيرنا حتى تعاشروا غيرنا . .

تساءل ياسين عما إذا كان الشيخ قد آوى أهل هند إذن نخوة أو صدقة أو لحاجة الأرض الى من يشتغل فيها ؟ وشك حموه في أن يكون الشيخ قد أضمر منذ ألجأه أن

يتخلص من ذلك المسكين الذي فلح وزرع وحصد ودرس ، ثم رحل يهز يديه الفارغتين . جزم ياسين أن الشيخ سوف يفعل في السنة القادمة كما فعل أمس ، ولام حماه لأنه توقف هنا ، وظل يحضه ويحض حماته حتى وافقا على أن يتابعا إلى البوعابد ، فإنْ لم يتيسّر المقام مع العشيرة ، لحقا به الى أبو قلقل . ولما هجع الجميع فكر بالأمير دشاش الذي يأخذ الخوة أيضاً من شيخ الولدة كما من شيخ البونيا ومن سائر الشيوخ ، فلا أحد يجرؤ على أن يقف في وجه عنزة وأميرها ، وحسن لياسين ذلك ، لولا أن الخوة تخرج على كل حال من كيس الفلاح ، فأنى للمسيكن إذن باللقمة النظيفة والكلمة الحلوة والقصاص من كل ما عاش ومن كل من ظلم ؟

أنّى لياسين الحلو ما كان يحلم به بالأمس فقط ، وماذا ينتظره غداً في تلدف أو بعد غد في أبو قلقل ؟

★★★

أسرع مما انتظروا آب إليهم متهللاً . أشرقت هند ونسيت ما أضمرت له من عتاب . أفاض في لقائه بأهلها وفيما ينتظرها في أبو قلقل ، من القبة الطينية الى الأرض الممرعة الى الشيخ الشهم والرحيم ، وقال له العم العجوز متباهياً :

ـ رأيت نصيحتي يا ابن أخي ؟! جدك الله يرحمه كان يقول لي وأنا صغير : الهنادي غير بدونا وغير فلاليحنا . الهنادي بدو مصر ، لا نابليون ولا محمد علي باشا نفسه كسر شوكتهم . ويوم غزا ابراهيم باشا السودان والحجاز والشام ، اعتمد عليهم . بهم كان يطارد أعداءه ، وإذا انسحب ، بهم كان يمنع أعداءه أن يلحقوا به . كانوا دائماً أول من يصل من حملته . كان واحدهم يأتي مع فرسه وبارودته ، وابراهيم باشا يدفع الأجر . ومن يوم جدك لليوم ما قطع الهنادي حبلهم مع مصر . اسأل والدك يا ياسين . هو يعرف أيضاً .

قال ياسين :

ـ أول من شربت عنده كأس ماء منهم في أبو قلقل ، ما كان مضى على رجعته من مصر شهر . قال لي : إنهم منشورون من الاسكندرية الى العريش ، كما على ضفة نهر الذهب . وبرقت عيناه زهواً عندما راح يقلد لكنة ذلك الرجل ، وابن عمه يضحك ويقول : في كلامهم من كلام مصر كثير . وكانت عينا هند تلويان شوقاً ، والطفل يحوط

عنق أبيه ، ويخبط على سنطيحته ويبربر ، وياسين يغمز ويعد نفسه بهذه الليلة مع هند ، يحيي فيها مامات من لياليهما في الزنبقلي .

بيد أن هفل جاء في المساء يأمره بمقابلة صادق آغا ، فلم يأبه ، ولولا إلحاح عمه ، وإيماءة هند ، لما رد على هفل ولا على صادق آغا ، فلا شأن له بهما بعد اليوم . ولا شأن لهما به . وكان ابن عمه يقول :

ـ أنت راحل ، أما نحن فباقون بين يديه . وإذا غضب منك انتقم منا .

رحب صادق آغا بياسين ، وأمر من كان في المضافة بالخروج سوى هفل ، ثم خاطبه حانياً :

ـ زعلت منك ياياسين ، وأخشى أن تخيب نظرتي . أنا لي نظرة في الرجال لاتخيب . في الصلاة قسوت معك عامداً ، ولكنني قلت هذا من رجالك ياصادق آغا . هذا لايصلح للفلاحة .

والتفت إلى هفل :

ـ أما قلت لك ؟

ثم عاد إلى ياسين :

ـ هفل كان يحلف أنك لن تصون السر . كان ينوي قتلك مادمت لم تذهب معه إلى البيادر . قلت له ياسين عندي ، وسنرى . والآن عليك أن تعوض مافات . جاهز ياياسين ؟

تساءل ياسين :

ـ لماذا ياآغا ؟

ـ للسفر إلى اسكندرون . سوف يرافقك هفل وبعض الرجال . أريدك أن تتعلم بسرعة ، وحين تعود أكون قد عمرت لك قبة أو اثنتين ، أم أنك ستبقى عند بيت عمك ؟

الدوار كان يلعب برأس ياسين ، وصادق آغا يتكلم . دوار تلونت فيه النشوة بالنصر ، والاعتداد والشماتة والامتنان ، وظل من الاعجاب بالنفس وبهذا الآغا ابن الآغا . كان ياسين الناقم يغادره على مهل ، دون احتجاج ربما ، مشبعاً بالقليل من الأسى ، فيما نهض الآغا :

ـ خذ هذه ، قد تكون محتاجاً . على بركة الله . السفر خلال يومين ثلاثة . اخرج الآن ولا تتحرك حتى يطلبك هفل .

ثلاث ليرات ذهبية دفعة واحدة ناوله صادق آغا . ارتعشت أصابع ياسين ، وارتعش صوته شاكراً وداعياً ، ثم انطلق إلى البيت يترنح سكراً .

ضحكته المدلة ذهبت بقلقهم ، وجعلتهم يضحكون أيضاً ، قبل أن يدور بهم حول سره ، يزيد فضولهم وإعجابهم ويتركهم متشوقين . حتى هند ليس لها أن تعرف . يكفيهم جميعاً أن يعرفوا أنه قد أجّل الرحيل إلى أبو قلقل حتى يعود من مهمة اختاره وحده من أجلها صادق آغا الباعا . وهذه الذهبيات الثلاثة واحدة لعمه ، وواحدة لهند ، وواحدة سوف يحتفظ بها أثناء غيابه ، وسوف يعود بثلاث فوقها . إنْ لم يكن بعشر ، والله أعلم !!

لم يقل إن بيتاً من قبة أو قبتين سيكون بانتظاره حين يعود ، فهذا أيضاً من سره . لقد شد الآغا إليه كتهانه للسر . ولايكتم السر إلا رجل صادق وقوي . ولسوف يرى الآغا أي رجل هو ياسين الحلو . فإذا كان حليبه صافياً ، فسيكون ياسين الحلو ذلك الرجل الذي رجاه الآغا . أما إنْ كان الحليب عكراً ، فسيعرف ياسين كيف يقتص لقاء الأول والآخر ، من طرد أبيه إلى حرق البيادر ، فلتكف هند عن السؤال ، لتضحك وتطمئن وتنزل سرواها ، وهي التي لم تفعل منذ الليلة الأخيرة في الزنبقلي .

لم يتأخر هفل ، ولم يكن ياسين يحسب أن ذلك يعني الانطلاق فوراً . غادر دون وداع ، وفي المضافة التقى العبيد الثلاثة ، وكهلاً أكثر مشيباً منه ، قال هفل إنه أبو ضرس ، غنيم الضرس .

بعيد وصوله انطلقوا ، وشك ياسين في أنه قائدهم ، كما شك في أن يكون أبو ضرس أو هفل القائد . ومنذ خرجوا من المضافة رأى أنهم جميعاً يعاملونه باحترام بالغ ، وكلما نأت تلدف كان يخيل إليه أنهم يستشيرونه فيما يجهل ، من النجوم إلى الدروب والحمولة التي سينقلون ، إلى من سيلاقون في الشمال القريب ، قبل الحدود التركية ، ومن سيلاقون من بعد في الغرب القصي ، على شاطىء البحر .

غنيم الضرس الذي لم يره ياسين في تلدف ، ولم يسمع به من قبل ، هو الذي كان ينتحي به جانباً كل استراحة ، ويرمي إليه بنتف من الكلام الذي لابد أن يكون خطيراً ، مادام لايتناول صادق آغا الباعا وقطاع الطرق فحسب ، بل يتناول قبل ذلك الأمير دشاش ، وخواجات فرنسيين ، أو ضباطاً ، وماقد تصادف المجموعة من كمائن للثوار الكماليين أو العرب . الكلام يتناول خاصة ماسينقلون . فعما قليل سوف يظهر عبيد

الأمير دشاش ، في الموقع المتفق عليه هذه المرة ، ويسلمون مايحملون من الحشيش . وسوف يعرفهم أبو ضرس بياسين الحلو . سوف يتحدث عبيد الأمير عندما يمثلون بين يديه عن ياسين الحلو . سوف يتردد اسمه أيضاً أمام الخواجات والضباط الفرنسيين ، على الرغم من أنه لايدرك مايقوله أبو ضرس . فياسين الحلو يدخن السجائر مثل كل الناس ، ولم يسمع حتى في أقصى ماوصل إليه من الدنيا بالحشيش الذي لايدانيه الذهب . الحشيش الذي يعرفه ياسين هو ماكانت تعج به أرض أم مرعي ويرعاه الغنم على ضفة نهر الذهب . أما هذا الذي يعبده أبو ضرس وهفل والعبيد الثلاثة وصادق آغا الباعا أيضاً ، وربما الأمير دشاش والخواجات والضباط ، فمن أين لياسين الحلو أن يكون قد ذاقه ؟ ماذا يكون هذا الذي يخصّ به صادق آغا الباعا بعض ضيوفه وبعض من يزور في حلب ؟ بل ماذا يكون هذا الذي لولاه لما قدر الفرنسيون أنفسهم أن يصلوا بين الأمير دشاش وصادق آغا الباعا ، ولكانت عنزة إذن قد غزت تلدف ، وفرضت عليها الخوة ، كما فعلت بالعشائر والقرى جميعاً ، من تلدف ربما إلى سفيرة ؟

قبل استلام الحشيش والسلاح والكدش كان ياسين يخشى أن تكون قدمه قد انزلقت به في هاوية سحيقة ، أين منها قاع أي واد من الوديان التي يتقافز والآخرون على حافتها . وعندما ظهر عبيد الأمير سرت السخونة بين جنبيه ، وبردت أطراف أصابعه ، فاستسلم وهجس : أكثر من القرد الله ما مسخ ، ثم صحح لنفسه : قالوا للقرد : بدك تنمسخ ، قال : يمكن صير غزال . وأقبل في ضوء النجوم يتملى العبد الذي اختلى بغنيم ، وقرطيه الكبيرين ، والخنجرين اللذين يزينان صدره ، وضفيرته السارحة ، وقدر ياسين أن هذا العبد أقرب إلى الأمير دشاش من سواه ، فراح يدور حوله ويتمسح به ، ولم يفت ذلك هفل ولاغنيم . أما هفل فقد ازورّ ممتعضاً ، فيما تهامس العبد وغنيم ، ثم تهامسا مع ياسين الذي لازم غنيم من بعد ، طوال الطريق إلى اسكندرون ، عازفاً عن هفل والعبيد الآخرين .

كان ياسين أشبه بالطفل الذي يتشرب حكايات أمه ، أو مايعلمه الشيخ في الكتاب . وكان غنيم يزداد سعادة بتلميذه النجيب ، وثقة بحسن اختيار صادق آغا الباعا لرجاله . ولايفتأ يلقن التلميذ ، ليس لأن صادق آغا قد طلب إليه ذلك ، ووعده بعطاء خاص ، بل لأنه هو أيضاً أحب ياسين ، بعد ماسئم غلظة هفل والعبيد جميعاً . ولعل غنيم كان ينشد منذ زمن طويل أن يكون له مثل هذا التلميذ ، يربيه على يديه ، يشكله كما يشاء ، فعلى الرغم من أنه قد ربى كثيرين ، إلا أن أياً منهم لم يملأ عينيه . وقد

عيره الأمير دشاش بذلك مرة بعد مرة . فلئن أفلح هذه المرة ، فسوف ينتقل بياسين الحلو من خدمة صادق آغا إلى خدمة الأمير دشاش غير مطأطىء ، ومن أجل ذلك شرع يفرش .

على ضفة بحيرة العمق كانت الخلوة الأطول لغنيم وياسين ، في الاستراحة الأطول ، حيث قرر غنيم المبيت زاجراً هفل الذي اقترح متابعة السير حتى منتصف الليل . كانت العتمة في أولها ، تزيد زرقة البحيرة قتامة ، وتملأ وجهها بخيالات ياسين . وكان ياسين ينكر أن تكون البحيرة مغلقة ، مادام دوي مصب نهر عفرين يملأ أذنيه ، ومادام نهر آخر يصب هنا ، كما يقول غنيم ، ويتعالم هفل ساخراً . لابد أن تكون البحيرة مفتوحة حتى لاتفيض ، كما أن صدره لابد أن يكون مفتوحاً حتى لايفيض بما يصب غنيم الضرس فيه .

★★★

كان الأمير دشاش قد أخذ يشغل ياسين وهو غافل . فمنذ تجاوز وهند حلب طلع له الأمير في كل مكان . وقد يكون غنيم صادقاً حين قال له :

ـ لولا سطوة الأمير لكان الشيوخ والبيكوات والآغوات يذيقون الناس طعم الموت . لولا الأمير لكان العرب السيار يهلكون الزرع والضرع . الأمير يحمي الناس حتى من فرنسا نفسها .

بل أن ياسين يصدق كل مايقول غنيم ، من قبل أن ينزلوا على ضفة البحيرة . وقد صار قادراً على أن يسأل مدققاً ، لامستزيداً وحسب ، كما صار يعود إلى ماحفظ عن معلمه ، والمعلم لايكاد يسلمه خيطاً ، حتى يغويه بخيط . وكان هفل والعبيد الآخرون قد غطوا في نوم عميق .

قال غنيم :

ـ يمكن لو زوجك أبوك سنة بلوغك لكان ابنك أكبر من الأمير دشاش . شاب هو في عز شبابه . سوف تملأ عينيك منه إنْ شاء الله . ولكن العمر وحده ليس كل شيء . يوم قتل الروالة أباه كان صغيراً . أخوته كانوا صغاراً ، فأقامت جدتهم ، عمهم عليهم وصياً ، والوالي نفسه سلم لها بذلك . ظل الوصي أميراً حتى انتهت الحرب . الأمير دشاش ماله في الامارة كم سنة . ماذا تظن ؟ كأنه رضعها مع حليب أمه . ماكل من قال أنا أمير

صدق . من بين عشرين أمير تليق الأمارة لواحد . ماذا تظن ؟ يوم هرب الأتراك من الشام عطل عمه الطريق بين حلب ودير الزور . غمره الأتراك بالذهب والسلاح حتى يحرس كل تلك الديار ، ولما وصلوا في هربهم إلى حلب ، كان قد لاقاهم لينجدهم ، لكن الأتراك ماكان لهم أمان . وسمع الوصي أن الحكومة حبست من عشيرته كثيرين ، فانقلب ضدها ، ودخل حلب ، وفتح سجونها ، وقالت له الحكومة الجديدة في الشام أنت باشا فصدق . يمكن ماكان يريد أن يكبر الأمير دشاش وترجع الإمارة لصاحبها ، لكن عمره ماضاع حق خلفه من يطالب . وفرنسا ساعدت الأمير دشاش فرد المعروف بأحسن منه . فرنسا عندها نظر ، غير الانكليز ، ولاتصدق من يقول لك غير ذلك . فرنسا عرفت أن الأمير الشاب مفتاح هذه الديار ، من حلب إلى العراق ، وليس عمه . ولولا الأمير ، لاتصدق أن فرنسا كانت قدرت على العقيدات ، وخصوصاً البوسرايا ، بعدما انهزم الانكليز أمامهم .

تساءل ياسين :

ـ عشيرة تهزم الانكليز ؟

قال غنيم :

ـ هي عشيرة واحدة ؟ ماذا تظن ؟ الأتراك عجزوا عنهم . تعرف دير الزور ؟ لاتعرفه منها إلى الميادين تسرح وتمرح هذه العشائر . ردوا غارات شمر وطيء عنهم . ردوا عنزة نفسها على عهد الوصي ، ويمكن قبله ، ولكن الحرب هدتهم . الحرب هي التي ساقت إليهم الأرمن ، والواحد منهم كان يلبس ثوب الأرمنية الميتة . من كان يعرف أن التيفوس في ثياب الأرمن ؟ الحرب هي التي طلعت أيضاً بالجراد . والتيفوس والجراد هدّ العشائر ، ولكنهم انتصروا على الانكليز . اسقطوا طائراتهم وغنموا سياراتهم وملؤوا وادي علي من أمواتهم ، حتى هربوا ، وظلوا يهربون حتى أمنتّهم الفلاة ، وقالوا هذه حدود العراق . أنا أعرف إلى أين وصلوا . ومن بعدهم جاءت فرنسا ، ولكن ماذا كانت فرنسا تفعل لولا الأمير دشاش ؟ أول مرة جربت حظها ، فما سلم من قوافلها إلا كل طويل العمر . أرسلت فرنسا طائراتها فما أفلحت ، وجاء دور الأمير دشاش . مشت الحملة الفرنسية من حلب تحت راية الأمير . وقطع المجانين الطريق ، ماتركوا جسراً عليها حتى خربوه . ولكن الحملة وصلت بفضل الأمير . ماترك الأمير رأساً يرتفع من حلب إلى حدود الانكليز . حتى الضريبة حصلها لفرنسا . ويوم جاء الأميركان إلى الشام يسألون الناس عن فرنسا قال الأمير بصوت عال : نريدها .

تساءل ياسين وهو ينسى ماسمع عن الثوار ضد فرنسا ، من الزنبقلي إلى دير الزور :

ـ نريد فرنسا ؟

قال غنيم :

ـ غيرك سأل أيضاً ، ولكن الأمير دشاش لاينظر مثلك ومثل الناس . لاينظر مثل عمه الذي وقف مع الانكليز ، ومن نصّبوا من الحجازيين على الشام . ماذا ترى هذه الأيام ؟ طار الانكليز والملك معهم ، وبقيت فرنسا . حتى من كان مثلي ومثلك يجب أن يرى أبعد من منخاره ، فكيف بالأمير دشاش ؟ وحده كان يرى أن أيام فرنسا هي القادمة . الوصي جنّ . ولو كان عم الأمير دشاش فقد جنّ ، مثل الذين جنوا من دير الزور إلى الميادين . من يوم طارت الإمارة منه ورجعت لصاحبها ، طار صوابه . حمل الباشوية على كتفه ، وجمع حوله من جمع ، ومشى ثانية إلى حلب ليطرد فرنسا منها ، ولكن الأمير دشاش قبل فرنسا عرف كيف يعقل عمه . الملك نفسه جن يوم صاح الأمير دشاش : نريد فرنسا . كان الأمير راجعاً من بيروت فقبض الملك عليه فيّ حمص ، وساقه إلى حلب ، ولكن فرنسا لم تتركه . حتى لو تركته ماذا يقدر الملك أن يفعل به ؟ يحبسه ؟ فشر . الأمير دشاش أول من قال لايوم ماقعد الملك على العرش . قال هذا العرش من قشّ ، والعجاج يطيره ويطير عرش الحجاز نفسها . يطير عرش الملك ووالده . ماكل من قال أنا ملك صدق . من بين عشرين ملكاً يليق العرش لواحد . ماذا تظن ؟ الأتراك ماغيرهم يبوسون يد الأمير دشاش هذه الأيام . الكماليون يشترون رضاه بما لايخطر على البال . حتى بعد أن سيطروا من أورفه إلى الموصل . هم يريدون الموصل وفرنسا لاتريد ، حتى لاتضيع منها اسكندرون وحلب نفسها . فرنسا تفضل أن يأخذ الانكليز الموصل ولايأخذها الكماليون . من إذن غير الأمير دشاش ، ابن الديار وحاميها ، يمكن أن يأخذ ويعطي مع الكماليين ، وحبالهم مقطوعة مع فرنسا ومع الانكليز ؟

اليوم جاء الانكليز بحجازي جديد ، وعملوا له إمارة بين فلسطين والشام . ماذا يساوي هذا ؟ الأمير دشاش يريد إمارة أكبر من إمارة شرق الأردن . وإذا عشنا ياياسين الحلو نشهد . فرنسا خائفة من قصة الإمارة ، ولكن الأمير دشاش لايخاف . هو أمير هذه الديار ، إذا قالت الدنيا نعم ، وإذا قالت لا . وفي يوم من الأيام تصل إمارته من هذه البحيرة إلى شرق الأردن . فرنسا ليس عندها نظرة الأمير ، ولو تركت الأمير يزعل منها تطير منها الديار . فرنسا عملت مع الأمير اتفاقاً لاأحد يعرفه . وسام جوقة الشرف قدمته

للأمير . أنت لاتعرف معنى الاتفاق ولا الوسام ، ولا أنا . ولكن هذه أمور كبيرة ياياسين . أنا خدمت عند والد الأمير ، رحمه الله ، في أواخر أيامه . كانت الدنيا عابسة . ومن بعد خدمت عند الوصي ، ويوم تضحك الدنيا وعشرة تعبس . كنت أرى الأمير دشاش يكبر وأقول : الخير على هذا الوجه . العز يعود على يده . كان يضحك من كلامي ، وكان عمه يغضب . حسرتي أني وصلت إلى الستين وهو في أول الطريق . من أول يوم قال أنت ذراعي ياغنيم . قلت له غنيم شاخ . قال غنيم لايشيخ قبل مايربي لي غنيم ثاني . حسرتي لو كان لي أولاد . والد الأمير زوجني أول مرة عبدة وماتت . الوصي زوجني أرمنية وماتت . واحدة تركت لي ولداً وماتت ، وواحدة ماتت قبل أن تحبل . وبعد ماصار الولد بطولي غرق في الفرات ، الأمير دشاش يريد أن يزوجني وأنا أقول له غنيم شاخ . الحمد لله ، الأمير دشاش بألف ذراع غيري . وأنت ياياسين الحلو ، يمكن أيضاً أن تكون ذراعاً جديدة ، ولو كنت في تلدف أو على ضفاف هذه البحيرة . حكيت لك الكثير ، وهذا أول الكلام ، ولكن الكلام وحده لايقدم ولايؤخر . خلني أر من يكون ياسين الحلو أولاً ؟

كانت النجوم تتراقص في السماء وفي البحيرة ، مثل روح ياسين الحلو ، وقد تركه غنيم لهدأة الليل والأصوات الدقيقة التي تناوشها ، والبرودة التي تتضاعف وتحشره في الفروة . كان قادراً على أن يعيد كل كلمة نطق بها غنيم ، ولكنه رغب فيما لم ينطق به بعد ، فراح يمعن فيه ، ثم أطبق جفنيه ، يصغي ويستزيد ويدقق ، فما همّ أن يكون غنيم غافياً ، مادام نبضه يتكلم ، وماهم أن يغفو ياسين ، مادام نبضه يتلقف ، ومادام الفجر لايزال بعيداً .

★★★

أودعوا السلاح في الغابة قرب الجسر القديم ، في الحربيات ، وتابعوا السير عزّلاً . أجفلت الشلالات ياسين ، ومثل الكدش شم رائحة العاصي وعرفه قبل أن يسميه له غنيم الضرس . لوح له النهر والناعورة والجبل والبيوت التي تتكىء عليه بالزنبقلي ووجوه الثوار والفرنسيين ، يتقدمهم جميعاً نحو البحر الأمير دشاش . دار خلف الكدش المحملة والعبيد في السوق الضيق ، وضاع منه في الزحمة وجه غنيم وهفل ،

وغطست قدمه مرة بعد مرة في مجرى الماء الذي يتوسط السوق ، بينما كانت الكدش تتحاشى المجرى ببراعة . دخل الخان بعد غنيم كما أمره ، وجلس بينه وبين هفل ، قبالة الخانجي ، وكان جذعه يشتدّ واثقاً ، وعينه تشيح عن الزبائن ، وعن العبيد الثلاثة الذين ظلوا واقفين في الباب أمام الكدش . انتظر طوال الجلسة أن يذكر الخانجي أو غنيم أو هفل نفسه ماتحمل الكدش أو أن تذكر الأمير دشاش ، لكن أحداً لم يفعل . شرب الجميع الشاي على مهل ، إلّاه ، ثم تناول غنيم من الخانجي كيساً صغيراً ونظيفاً ، ووقف يودع ، واختفى هفل والعبيد الثلاثة والكدش حتى الصباح التالي .

انتقل غنيم وياسين إلى ضفة العاصي الأخرى بالطواف ، لم يستطع أن يخفي خوفه عندما تحرك الطواف . تلوت أمعاؤه ، وبهت لونه ، وعجز عن أن يقذف الذي ملأ بلعومه .

كان كيس أبيض مبقع بالدم يهوي في لجة النهر . كانت وجوه أقرانه تغرق وهو يسابقهم في الزنبقلي . كان يصارعهم فوق الماء ويصرعهم فيستنجدون منه بكامل الجقلة ورستم آغا ويوشكون أن يقطعوا الحبل الممدود بين الضفتين ، فينفلت الطواف به ، وبغنيم ، ويندفع نحو البحر .

ولم يكن خوفه أقلّ وهو يتلمس الأمان وينزل على الضفة الأخرى ، حيث قاده غنيم الضرس إلى بيت صغير ونظيف مسوّر بالياسمين . ولم يلبث البيت أن عجّ برائحة اللحم المشوي والعرق وعطر ثلاث من النساء ، واحدة منهن ـ قدر ـ أنها أم الأخريين .

الأم والبنت النحيلة الصغيرة مثل هند أقبلتا على غنيم الضرس ، والبنت التي تربو سمنتها على سمنة أمها التحمت به ، وظلت تحثه على العرق حتى صارت أختها هنداً ، حقاً ، وصار يخشى عليها من غنيم الضرس . لكن الأم اختفت ، وغنيم أيضاً اختفى مع هند ، وأطبقت عليه صاحبته ، فأنسته مابه قبل أن تتعرى ، دون أن تطفىء القنديل . ولعلها فحت في أذنه ، تسأل مثل غنيم الضرس عن أي رجل يكون ، فدوّى جسده ملء انطاكية ، وجعل المرأة تتلوى وتشهق ، تتوسل إليه وتعضه ، لايكاد يهمد حتى تناوله الكأس ، ولايكاد يجرع الكأس حتى ينتصب عضوه ، وتنغرز أصابعه في فخذيها ، فتستلقي ضاحكة ومتحدية ، تشرع فخذيها وتطويهما ، تنقلب على صدرها وتستميت كي يدعها تعلوه ، ولكنه الرجل الذي لاتعرف ولا يعرف غنيم الضرس ، الرجل الذي يعلو دائماً ، الرجل الذي يأتي من كل الأنحاء ، ومادامت قد استلقت على صدرها ، فعليها أن ترضخ وتتركه يفعل بها مايشاء .

كالومضة التي تدور بالفؤاد انقضى الليل ، وامتلأ البيت الصغير بغنيم والأم وبنتها الصغرى وطاسات الحليب والزبدة والخبز المورد ، وفاحت رائحة الياسمين قبل أن يعلن غنيم الوداع ، فيلحق به ياسين أسيفاً ، ينكر أن تكون المرارة عمراً بأكمله ، والحلاوة ليلة واحدة .

على الضفة كان هفل والعبيد والكدش ينتظرون ضاحكين وهانئين ، ثم يخبطون خلف غنيم وياسين ، وانطاكية تبتعد .

على ضفة البحيرة أيضاً اختار غنيم الاستراحة الأطول ، فتنحى هفل والعبيد ، بعد أن سلم كلاً منهم سيجارة ، ومد يده إلى ياسين بسيجارة قائلاً :

ـ الآن جرّبها .

كان ياسين ينتظر أن يدعوه غنيم إلى ذلك منذ الاستراحة الأولى بعد تلدف . وبالأمس خاصة انتظر ، وهو يراه يقدم السيجارة للأم . ولعله كان سيتردد لو فعل غنيم في الاستراحة السابقة على ضفة البحيرة ، أما الآن فقد تلقف السيجارة مشوقاً ، وملأ صدره منها كما ملأه من رائحة الياسمين والشواء والعرق وفخذي تلك المرأة اللذين لم ينيا يناديانه من انطاكية إلى البحيرة .

شرع يدخن كمدمن عريق ، يحرص كما علمه غنيم على أن يحتفظ بالدخان طويلاً ، ينفثه على مهل ، يغبطه ثناء غنيم والهواء الرخي الذي سرعان ماانقلب وسادة لينة وناعمة كأنه بطن تلك المرأة التي تناديه .

ماكادت السيجارة تنتهي حتى دنت النجوم منه ، أوشكت أن تلامس صفحة البحيرة ، وفي صدرها شع غنيم الضرس : قريباً وبعيداً ، أليفاً ومهيباً ، مغوياً وخطراً ، لكأنه واحد من أصحاب الكرامات الذين يحفظ ياسين الحلو حكاياتهم منذ كان صبياً . وكان غنيم ينسيه ماحفظ ، حتى بالأمس القريب ، ويلقنه من جديد ، هنا كما في مضارب الأمير دشاش ، وماهمّ ألا يكون ياسين بدوياً ، فغنيم الضرس أيضاً ليس بدوياً ، وفي خدمة الأمير مالايحصى من الفلاحين كما من البدو ، من العرب كما من الأكراد ، من التركمان كما من الأرمن ، من المسلمين كما من المسيحيّين ، حتى اليزيديون منهم من يخدم الأمير ، ومن الفرنسيين معه ضابط يرافقه مثل ظله ، وطبيب يعنى بصحته ، وليس في القوم من لايشرفه أن يخدم الأمير .

★★★

السيجارة الثانية دارت بياسين من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن . نفثة بعد نفثة بات معها فارساً من فرسان الأمير دشاش أو أبيه أو جده ، يهمس له أحدهم بكلمة ، فيهمس هو لغنيم أو لذلك العبد ذي القرطين والخنجرين ، فينطلق العبيد والفرسان والمرشدون ، ويعلو غبار الخيل من الشام إلى بغداد ، وتصل الرسائل آمنة ، ينتظم البريد كما اتفق القنصل الانكليزي مع جد الأمير دشاش ، فالانكليز الذين يديرون ظهرهم اليوم للأمير دشاش كانوا يسترضون جده ، عندما جاء ابراهيم باشا بالهنادي يغزو هذه الديار . وياسين الحلو يشهد مثل غنيم الضرس . ياسين وغنيم يشمخان في مضارب عنزة ، فوحدها لم تخضع للسلطان . السلطان يفرض على القبائل جميعاً أن تترك الغزو والترحال ، تفلح الأرض وتزرع ، إلا رهط الأمير. البدوي صيره السلطان (حضيري) ، والعشائر الجمالة صارت غنامة وفلاليح ، ومن أقصى الفرات ، حيث نزحت عشيرة هند ، بل من ضفتي الخابور الذي يراه الآن ياسين ، حيث الجبور ، إلى أدنى الفرات هنا ، من الحدود الجديدة إلى الرقة ، حيث الولدة ، لم تعص عشيرة على السلطان إلا عشيرة الأمير دشاش ، وعلى رأسها والده ، وعلى يمين المرحوم ياسين الحلو ، وعلى يساره غنيم الضرس . عنزة في البادية وشمر في الجزيرة ، هذا حق ، لاينكر ياسين ولاغنيم ، ولكن إذا كانت القبائل والعشائر ظلت بعد عشرات السنين ترفع رأسها بين حين وحين في وجه السلطان ، فالأمير دشاش أو أبوه أو جده ، أو حتى الوصي عمه ، وحده من لايرفع أحد رأسه في وجهه . الأمير دشاش وحده من يجلجل صوته : أنا سلطان البر ، وحده من يحق له أن يجلجل صوته : إذا ميلت عقالي مالت الشام ، ولولا فرسان الأمير لما قال المثل : لاتقاتل من إذا شد رحل .

صارت البحيرة بعد السيجارة الثانية بحراً مثل البحر الذي تركع انطاكية عند قدميه . ملأ الأمير دشاش هذا المدى ، وصاح في صدر ياسين : أنا سلطان البحر ، وصاح ياسين : أنا سلطان البر والبحر ، وكان الأمير صارماً مثل حد السيف ، لايتهاون مع إنسان ، لا مع ابن عنزة ولا مع سواها ، لا مع ياسين الحلو ولا مع غنيم الضرس ، لا مع عربي ولا فرنسي ولا تركي ، لامع عبد ولا مع ملك . وقد جعل ذلك ياسين يزداد اشتعالاً بالحشيش ، جعله يخاف ويدور بعيداً عن هذه الديار . ربما كان في طريقه إلى الزنبقلي ، ولكن ماكاد أن يغادر حلب حتى ملأت عشيرة الموالي الفضاء . فكر في أن ينتسب إليهم ، ويترك غنيم الضرس في عنزة ، مادامت القهوة لشيوخهم أولاً ، ومادام دم الشيخ منهم ، أو الأمير ، بلا ثمن ، ولكن قتالهم مع الحديديين ضاعف خوفه .

هرب من القتال ، والقتال يلاحقه من براري حلب إلى براري حماة ، وكان الفرنسيون يزيدونه خوفاً أينما طلعوا له ، فآثر السلامة وانخرط في واحدة من سرايا البدو التي شكلوها له ولأمثاله . صار ياسين ذراع الضابط الفرنسي الذي يقود السرية ، ولكن البدو مازالوا يقفون ضد فرنسا : العقيدات على الفرات ، والموالي هنا ، والفضل في الجولان ، وياسين الحلو يعجز . ماذا يساوي ياسين الحلو وحده بدون غنيم الضرس ؟ ماذا تساوي العقيدات والموالي والفضل وغيرهم مادام بقية البدو مع فرنسا ؟ ومادام غنيم الضرس وياسين الحلو تحت راية الأمير دشاش ؟ لاينبغي لنفس ياسين أن توسوس له . ياسين لم يخف ولم يهرب إلى جنوب حلب ولا إلى شمالها . ياسين هنا ، كما أراده غنيم الضرس ، كما يريده الأمير دشاش ، من يوم ولدته أمه ، إلى أن يموت ، صدره أوسع من هذه البحيرة ، سره أكبر ، جنونه أروع ، فؤاده أصلب ، وبعد قليل ، عندما ينهض غنيم وهفل والعبيد والكدش ، ويتابعون السير إلى تلدف ، سوف يسبقهم إلى صادق آغا الباعا أو رجب آغا نفسه ، لينتقم لأبيه والبيادر ، ثم يسبق هنداً وابنه إلى الأمير دشاش ، ويجعل الدنيا تضحك ، شاءت أم أبت ، وإنْ كان هو يبكي ، يغفو على دموعه ويصحو على دموعه ، وغنيم يهزه قبل أن يفيق الآخرون ، إذ لاينبغي أن يروه قد ضعف لسيجارة حشيش أو سيجارتين ، وإنْ تكن أول مرة .

مسح دموعه ورفع وجهه إلى السماء . غلَّ الخدر عينيه فأطرق . ضغط على صدغيه مدارياً الصداع ، وكان غنيم يكرع من الجرة . تناول ياسين الجرة ودلق منها على رأسه وفي حلقه ، فغادره الصداع والخدر ، نهض يدعو الله أن يغفر له إذا كان قد أخطأ ، وأيقن أنه لن يستطيع أن يعود إلى الوراء ، فدنا من غنيم ضارعاً :

- متى تأخذني إلى هناك ؟

★★★

لم يتعود ياسين أن يطوي نهاره وليله بلا عمل . كان يتلهى بإعانة ابن عمه في ركش أرضه ، يغالب الوقت البطيء الثقيل بانتظار إشارة غنيم الضرس ، يغض عن ضيق هند وعمه بغموضه ويعدّ الأيام .

في غيابه ضجت تلدف بالرجل الجديد لصادق آغا الذي أعلن ذلك بنفسه في مضافته ، إلا أن ياسين لايرضي فضولاً ، ولهند نفسها قال فقط :

- عمل كلفني به وأعطاني أجري .

لم ينتقل إلى القبة الطينية التي أعدها له صادق آغا . لم يقطع أمام هند وعم بالرحيل إلى أبو قلقل ، ولم يتردد على المضافة أو يخالط عبيد الآغا ورجاله ، أو يؤدي له أي عمل ، فكيف يصح إذن ماتناقلته تلدف عنه ؟

كان صادق آغا قد لاقاه مغتبطاً ومتفحصاً . صرف هفل والعبيد ، وكان غنيم قد تابع إلى مضارب الأمير دشاش ، دون أن يعرج على تلدف . أدرك الآغا أن ياسين قد أفلح فلاحاً كبيراً حتى أناط غنيم الضرس به ، وليس بهفل ، تتمة رحلة العودة . وفكر صادق آغا في أن غنيم الضرس سوف يحدث الأمير دشاش عن رجله الجديد ، وقد يزيد ذلك من اعتماد الأمير عليه ، ولذلك اختلى بياسين ، وتبسط معه :

- هل أفسدوك بتلك الخبيثة ؟
- أية خبيثة ياصادق آغا ؟
- الخبائث كثيرة . غنيم الضرس داهية . معك حق . أقصد السيجارة .
- لعنة الله عليها .

ظل ياسين متحفظاً ، وقد خطر له أن يترك للرجعة باباً ، على الرغم مما ينتظر ، واثقاً من غنيم الضرس . جاءت عباراته قصيرة ، خجولة ومبهمة ولكنها كانت حاسمة أيضاً . فياسين لن يسكن القبة الجاهزة ، ولن يكون مثل هفل أو مثل العبيد ولاسواهم ممن يستخدم صادق آغا ، وسوف يتصرف كأن شيئاً لم يكن بينهما ، وينبغي للآغا أن يكتفي الآن منه بقوله :
- هذا أفضل لك ولي ، والأيام تثبت . حتى إذا كذبتني ، فالآغا لن يخسر شيئاً .

شدد صادق آغا على رجاله كي يترصدوا أية كلمة أو حركة من ياسين . إلا أن ذلك زاد غموض الأمر عليه . حتى إذا أرسل إليه الأمير رجلاً جديداً ، يأمر بموافاة ياسين الحلو ، ومن يختار ، إلى موقع جديد لاستلام الأمانة وملاقاة غنيم الضرس في انطاكية ، هز الآغا رأسه بين معجب ومتشكك :
- ياابن الحرام !

وصاح بهفل :
- هات ياسين :
وهو لايصدق أن الأمير دشاش قد ترك له شؤون قافلة الحشيش ، من هنا إلى البحر .

وثانية اختلى بياسين ، تفحصه ، وباسطه ، مداعباً الأمل في أن تقوى ثقة الأمير دشاش به . لكن ياسين لم يبدل شأنه في الخلوة الأولى ، ولم يختر لمرافقته إلا هفل والعبيد الثلاثة . فقد آثر ألاّ يشرك أحداً من تلدف معه ، مادام سيغادرها إلى مضارب الأمير ، وكي لايورط أحداً مع صادق آغا ، ويقول الناس فيه ذات يوم مايعنّ لهم ، كما فعلوا في غيبته السابقة .

لم يشغل نفسه طوال الرحلة إلا في أن تنجح قيادته لها ، كما لو أن غنيم الضرس يقودها . وإذا كان العبيد الثلاثة لم يأبهوا ، فقد كان هفل يضيق مرة بغيرته ، ومرة بعجبه ، يناكد حيناً ، ويتودد حيناً ، وياسين لاه عنه ، لاه عن السيجارة وانطاكية ورائحة الياسمين والشواء والعرق والفرج الذي تشمّمه نشوان ، فما يهمه أن غنيم قد ضرب له موعداً في عين آدم ، حيث ينزل الأمير دشاش هذه الأيام ، وهو رائق مثل نسيم انطاكية .

لم يسمح ياسين في الإياب بغير الاستراحة القصيرة ، لا في الليل ولا في النهار . كان ينطلق محموماً ، أحرص على حلمه الذي تحقق من روحه . لايصدق أنه سوف يصل إلى هند ، ليفضي إليها بكل ماكان . أما صادق آغا فحسبه أنْ يعلم أنّ ياسين الحلو غدا من رجال الأمير دشاش . وإذا كان صادق آغا قد هبّ واقفاً يكتم غيظه :

ـ لعبت على ذقني ياابن الحلو ؟

فإنّ هنداً ظلت صامتة ، تخشى أن يكون ياسين قد ملص من يدها ، منذ بلغ تلدف ، أو أنها لن تستطيع أن تمسك به بعد اليوم . أما هو ، فد خيل إليه أن فرحتها به لاتقل عن فرحة بيت عمه وتلدف كلها . ورأى أن يكافىء نفسه على ماتستحق ، لكنه افتقد السيجارة والعرق والياسمين ، فأمر بالشواء ، ثم أمر هنداً أن تتعرى ، وأمر نفسه أن يتعرى ، وأن تضاجع في هند تلك الأم وبنتيها معاً ، وعلى الرغم من أن هنداً كانت ذاهلة ، إلا أنها مالبثت أن أخذت تتلوى وتشهق ، تتوسل إليه وتعضه ، ولايكاد يهمد حتى تحييه من جديد .

★★★

9

ألغت الحكومة سبعة مخافر دفعة واحدة ، وخيرت من فيها بين أن يعودوا إلى بيوتهم أو يتوزعوا على المخافر الأخرى ، وفيهم من طُلب إلى الشام ، كي يلتحق بخدمة أو مرافقة بعض الوزراء والضباط ، إلا أن أحداً لم يطلب من مخفر عين فيت إلى ذلك ، فاختار أبو جميل وقاسم السعد العودة إلى البيت آيسين . واختار حسين فندي وهزاع نصر العودة أيضاً ، يحدوهما الأمل بعيش أهنأ مع ذويهما في الجنوب . الآخرون تركوا للحكومة أن تتقاذفهم حيث تشاء . أما راغب الناصح فكان قد سبق إلى الفرار ، محتفظاً بالموسكوفية ، تاركاً للحكومة البذلة الملونة والجمل ، مخلفاً الدوي في كل مكان ، من المخفر وعين فيت إلى نبع الصخر وخيمة الأمير جهجاه ، ومن حضر إلى العال .

هو ودهيبة حسما الأمر فجأة . وفي منتصف الليل وافته على المفرق ، متسللةً على ظهر فرس شقيقها : السامرية ، متلثمةً ومشرعةً بندقية شقيقها أيضاً ، وكان راغب يرابط على حصانه ، مسنداً الموسكوفية على السرج .

في الليلة السابقة كان وأبو جميل وقاسم يشاركون المدعوين إلى عرس زوج دهيبة . كان الأمير جهجاه وابنه وعشرات من الخيول والبنادق والمناسف . وعلى مرأى من الجميع ، وربما في غفلة من رفة أجفانهم ، صادفها راغب ، وهاله الجرح المكابر في عينيها .

همس :

ـ تروحين معي ؟

لم يفاجئها كما لم يفاجىء نفسه . ولم تفاجئه كما لم تفاجىء نفسها ، إذْ همست :

ـ انتظرني الليلة القادمة بعد أن يناموا . عند المفرق نلتقي .

انطلق الحصان والفرس ، منذ منتصف الليل حتى شروق الشمس لم يتوقفا ، ولم يتبادلا كلمة . وفي واحدة من الوهدات المظللة التي لم تدفئها الشمس بعد ، نزلا

يتخفّيان طوال النهار . كانت قد أعدت زوادتها وزوادة الخيل ولم تنس شربة الماء . وبهت راغب وهو يرى ذلك كله ، فضحك رغم إعيائه ، واكتفى بلقمتين ، وألح عليها بلقمة ، ثم تمدد ودعاها إلى أن تتمدد . ومثل طفلين هدهما اللعب الخطر أغفيا حتى العصر ، ثم نهضا يدوران حول الخيل ، يستطلعان الوهدة ، يهزجان لنبع صغير ضائع ، يغتسلان ويأكلان ولايكادان يهدأان ، فتتشابك أصابعهما ، حتى يدعوهما المساء إلى أن يتابعا الفرار .

كانت أدرى منه بالمسالك والمواقع ، وقد توقدت ذاكرتها فيما كان أمس أو منذ سنين ، حين تبعت زوجها جنوباً ، ثم شمالاً ، في الفرار مما فعل الفرنسيون ، وفي العودة . وقبل أن ينتصف الليل كان قد اقتربا من تلك القرية الصغيرة التي سيلتجآن إليها ، كما قررت دهيبة . فالشيخ مصرب خير من يؤويهما في اللجاة ولو لأيام ، ريثما يريان مايفعلان .

بعد أن تناولا العشاء ، وشربا ، وفرغت الزوادة والشربة ، قالت دهيبة :

ـ واحد ينام وواحد يحرس . الناس هنا من البدو ، والعين لايجب أن تغفل . رزقهم لازالوا يحصلونه من الغزو والسلب مثلما كان أجدادهم قبل مئات السنين .

تساءل راغب مستخفاً :

ـ إلى من ينتسبون ؟

ـ زبيديون ، من اليمن جاؤوا كما جاء غيرهم منها ، أو من نجد ، ولكنهم قساة وأشداء . غيرهم من الذين جاؤوا بعدهم دفعوهم إلى هنا ، وهم دفعوا غيرهم أبعد . من حوران الى الجولان ، والجديد دائماً يدفع القديم ، والقوي يدفع الضعيف .

ـ ودائماً نحو الشمال . إلى أين نسير نحن إذن ؟

ـ عكسهم . ماذا تقصد ؟

ـ نحن الآن بلا طعام ولا ماء . زوادة الخيل أيضاً انتهت . .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نحن الأقوى مادمنا نسير عكسهم . .

ـ الله معنا .

ـ لو سرنا شمالاً أيضاً ، ربما كان أسلم .

ـ إلى أين ؟ إلى لبنان ؟

ـ لا أعرف . نحن وحدنا يادهيبة . نامي الآن .

ـ دورك أولاً .

ـ دوري ، دورك ، لا ، أنت ستنامين . أنا والخيل نحرسك .

ـ نسهر معاً إذن .

ـ أو ننام معاً . لا عليك . الخيل تحرسنا .

قال وهو يستلقي ويجذبها إلى حضنه ، ينكر أن يكونا معاً ليلتين أشبه بالأخ وأخته ، ويهمس لها بذلك ، فتضحك وتتمنع :

ـ الصبر مفتاح الفرج . .

لكن صبره قليل ، أو أنه نفذ ، فهو ينتظرها منذ ألوته عن غالية ، وهي تنتظره قبل أن يتزوج زوجها امرأة أخرى ، وربما كانت تنتظره قبل أن يتزوجها زوجها ، أو تصادف في خيام الأمير جهجاه ذلك العسكري وذلك الحصان ، سوى أن دهيبة أقل جنوناً ، فهي لاتنسى وقد اندغم جسداهما ابنتها ، ولا الخطر المحدق من نبع الصخر إلى مضافة شيخ اللجاة، ولعلها لذلك ظلت تتعذب بين اشتهائها له ويقظتها وذوبانه بين فخذيها، ثم تتركه يبتعد مع الموسكوفية ، يتجاوز الخيل قليلاً ، ثم يربض ، ولكن الأمان لايأتي ، والنوم يجافي ، فتنهض لاحقة به مع بندقيتها ، وتربض لصقه ، فيما يغط الحصان والفرس في نوم عميق .

★★★

أبكر من الرعاة أفاقا ، وقبل أن يشرب الشيخ مصرب الحليب كانا يربطان الخيل أمام مضافته ، ولم تكن دهيبة ملثمة .

التحقت دهيبة بالشيخة ، وأودع راغب الشيخ سره ، ولكن صمت الشيخ طال قبل أن يقول :

ـ الأصول أصول ياابن الناصح . أنت خطفت امرأة من تحت زوجها ، وللعشيرة كما للزوج حق ، وأنت تعرف ومخطوفتك تعرف . وفوق ذلك أنت فراري ، وأنا لاأريد أن أفتح عليّ باباً لفرنسا وباباً لغريمك . لك عندي الأمان ، تذهب إلى واحدة من هذه القرى التي أحميها ، تفلح وتزرع مثل غيرك ، تؤمن المهر ، تبيع الخيل والبنادق ، تعمل ماتقدر عليه ، وبعد ذلك تصلح ماخربت ، وإذا راق لك بعدها أن تبقى هنا فمرحباً

بك ، وغير هذا لا كلام عندي . استرح ومخطوفتك يومين ، وفكر قبل أن تعطيني الجواب .

لولا دهيبة لكان راغب قد غادر في اليوم نفسه متحسراً على الأصول وزمن النجدة . تعللت دهيبة للشيخ بوطأة هذه الأيام على الجميع ، البدو والحضر ، الشيخ والراعي ، وهولت مما لفرنسا عند راغب ، فهو فراري مثل أي فراري زمن الأتراك .

وفي خلوة أخرى قالت له :

ـ الشيخة تنصحنا بالبقاء . القرى التي يحميها الشيخ مصرب فيها فلاحون غرباء كثيرون مثلنا . كلهم غرباء . دروز نزلوا من الجنوب ، وعلويون جاؤوا من البحر . البيت سهل . خربة من هذه الخرب الحجرية تكفينا . ويمكن للشيخة أن تتوسط لدى الشيخ حتى يدبر من يدفع لنا مبلغاً كبيراً مقابل الخيل والبنادق . من الزرع وحده ماذا نوفّر ؟ والعشيرة ستطلب الغالي ياراغب . ومادمنا لاندفع نبقى هكذا معلقين بين السماء والأرض .

قال راغب وقد تضاعف غيظه وهمه :

ـ لاحياة لنا بدون الخيل والبنادق . قد تكون عين الشيخ مصرب تحوم عليها . خلنا نتوكل ، ونجرب حظنا في أرض غير هذه الأرض . حتى إذا كنا فلحنا وزرعنا ، فحوران أخصب من هذه الخرائب . الفأر يلعب بعبي يادهيبة . سقط الشيخ من عيني ، ولاأظن أننا نملأ عينيه .

في المساء أدناه الشيخ مصرب منه وقد امتلأت المضافة . تناول العشاء دون رغبة . رشف القهوة المرّة مرة بعد مرة ، كأنه يسرق ، ترهقه العيون المستطلعة قبل أن يلوي بها الشيخ عنه ، وهو يحدث ابناءه ورجاله عن مشايخ حوران الذين طالبوا بفصلها عن سورية وإلحاقها بشرقي الأردن . شكّ راغب في أن يكون الشيخ مصرب يعود إلى ذلك ، كي يجعله ينيخ هنا ، فحوران لاتؤتمن ، وبنو معروف أصعب من البدو ـ تابع الشيخ مصرب ـ وفي ذلك الجنوب ـ الذي ينوي راغب أن يتابع إليه ـ قتل الناس رئيس الوزراء ، وضربت فرنسا كما لم تضرب ، ولم تترك ذهبية في جيب كبير ولا صغير ، وماعاد هناك إلا الخرائب .

في عزوفه عن سمر المضافة كان يؤكد عزمه على مغادرة اللّجاة . أما الشيخ مصرب فكان واثقاً من أن راغب لن يفعل ، وهو يهمس له وقد أخذ الساهرون ينسحبون :

ـ عندي بشارة . الحكومة أغلقت مخفر عين فيت وستة مخافر معه ، ويمكن أن يسهل عليك هذا مع الحكومة .

هز رأسه مؤملاً ، وعجل إلى الخيمة التي خصه ودهيبة بها الشيخ . أحسّ أن بعض عبئه ينزاح ، وأنه أقدر منه قبل قليل على مغادرة اللجاة . أنصتت دهيبة إليه حيرى ، تاركة له أن يشكر الشيخ ، أو يستأذنه ، أو يطلب منه فقط العون على الوصول إلى الجنوب . ولما فعل في الصباح صمت الشيخ طويلاً قبل أن يخاطبه :

ـ من بدونا أعطيتك الأمان ساعة وصولك ، وكلهم يعرفون . بعدنا يأتيك الشراكسة . اقض الليلة عندهم ، وكيفما سرت لاتشرع بندقيتك وبندقية مخطوفتك . بعد الشراكسة إلى أين تسير؟ الجنوب كبير ، وأظنك سمعت الكلام أمس . تريد أن تقطع الحدود؟ هناك الانكليز والبدو . من عشيرة مخطوفتك أيضاً هناك . وقد يكون غريمك سبقك . أنا لاأصعّب عليك ، أنوّرك فقط . والرأي عندي أن لاتبعد كثيراً . بعد الشراكسة تجد من يدلك على قرى الزعبية . لافرق بين قرية وقرية . كل قرية ينزل فيها واحد من سلالة الزعبي تؤمنك من غريمك وعشيرته ، حتى تصلح ماخربت . البدو لايهاجمون الزعبية كرمى لجدهم الذي باركه الله ، وهذا ماعندي .

زودت الشيخة دهيبة بزوادة كبيرة ، وأمر الشيخ مصرب بزوادة أكبر للخيل . وانطلق راغب تتبعه دهيبة بدون لثام ، وقد أخفيا البندقيتين تحت السرج على طول الحصان . وماكادا يبتعدان حتى سأل راغب :

ـ هل عرفت شيئاً من الشيخة عن الزعبية أم نسيت؟

قالت دهيبة :

ـ ماحكت لي الكثير . هي أيضاً تخاف منهم . قالت : البدو هاجموا جدهم المبارك فصاح صيحة جمدتهم في الأرض حتى طلع النهار ، فصفح عنهم وقال لهم : امشوا ، ولولا كلمته ماقدروا أن يمشوا . ومن ذلك الزمن صار البدو لايقربون المكان الذي يكون فيه للزعبية أثر .

كان الهواء يبرد ويشتد ، مذكراً بهواء الجولان . وكان راغب أهدأ وأكبر أملاً ، ينأى عن دهيبة غافلاً ، ليعود إليها ملهوفاً ، يتحسّب للقاء الشراكسة ، يرثي لنفسه العاشقة ، يتخفى كي لاتضبطه دهيبة يفكر بسواها ، وهي التي لم تحتمل أن يجمع زوجها معها امرأة أخرى ليلة واحدة ، غير عابئة بشرع ولا بعرف . كان يومىء لطيف غالية مودعاً ، ينشد الفوز على زوجها وعلى زوج دهيبة معاً ، ويهرب من أطياف أم رجب وأم

ناصح وبنت دهيبة ورجب وناصح ، يلتجىء منهم إلى المخفر الذي قوضه الفرنسيون ، يأسى لقاسم السعد ويتحاشى الشاويش ، يعد هزاع نصر وحسين فندي بلقاء قريب ، شرط أن يكون قد تزوجا ، أو يكون حسين على الأقل قد فعل ، قبل أن تبيضّ عانته . وحين يلتقون سوف يباهيهما بكل ماجرى ، منذ قادهما من القشلة ، فلولاه ماكان المخفر ، ومنذ نفض يده منه تقوض . وإذ يؤوب مما يدور في رأسه إلى دهيبة ، يود لو يقدر قبل أن يموت على جمع أشتاته المتناثرة ، من هذه الدرب الوعرة إلى حضر والعال ، لكن دهيبة لن ترضى ، وهي التي فرت به ، ليس من زوجها ، بل من زوجتيه هو ، وقد تكون خلصته من نفسه ، وتنشد أن يخلصها من نفسها ، فهل هو جدير أو قادر ؟

ربما كان يتلفت إلى الوراء وهو يسائل نفسه ، مفعماً بالثقة ، لكن دهيبة كانت تقفز بالبندقية إلى حافة الطريق ، تصرخ به وبالسامرية ، تطلق الرصاص وهو يهوي عن حصانه بلا بندقية ، والحصان ينطلق خلف السامرية ، الرصاص يلاحقه ويلاحق دهيبة ، ودهيبة تنهض رامية إليه بالبندقية وتسأله :

ـ من يكون هذا الغدار ؟

كان حصان أدهم ينطلق إلى الوراء ، وعلى جنبه قد تدلت بندقية ، وتهالكت جثة ، وهمّ راغب أن يلحق بالحصان فصاحت دهيبة :

ـ إلى أين ؟ خوفي أن لايكون وحده . تظن الشيخ غدر بنا ؟ الحق بالخيل .

وانطلقت تعدو فلحق بها يصيح :

ـ كيف جرى يادهيبة ؟

ـ الله ألهمني . طنت أذني وقلبي خفق فسحبت البندقية من غير أن أبرم رأسي . . لو فعلت أو ناديت كان قتلني وقتلك .

ـ كنا بثأر صرنا باثنين ؟ الغدار ليس هذا ، الغدار شيخه ، وتذكرين كلامي ؟

قال راغب وهو يتجاوزها في بداية المنحدر ، وقد ظهر الحصان والسامرية يحوصان في أول السهل . تباطأ متفحصاً السهل وجانبي الدرب التي عرضت ، والتفتت دهيبة إلى الخلف ، وكان القاتل وحصانه قد اختفيا ، وتساءلت :

ـ والآن ياراغب : ماقولك ؟

★★★

بت الدرب من سكة الحديد ، وهما يتحاشيانها حيناً ، يأنسان إليها حيناً ، وراغب يهرب مما كان ، يطير فوق السكة ، يؤوب من أقصى الجنوب ، راكباً في قطار ، لاحيالاً ، يود لو يقبل على دهيبة ، لولا أن صوت الرصاص يردعه ، شبح القاتل يردعه ، يرى الشيخ مصرب نفسه مشبوحاً فوق الحصان الأدهم ، وبندقيته تتدلى ، ينكر أنه لم يظفر بقاتله ، يتطامن أمام دهيبة التي أنقذته من الموت ، يخشاها وهي تدفعه من الشمال إلى الجنوب ، مزجوجاً بزوجها وزوجتيه وابنتها وابنيه وآخرين لاحصر لهم ، يضيع في الجمع الذي يحشره فيه الشاويش واسماعيل معلا وياسين الحلو وفياض العقدة وعزيز اللباد ، حتى عمر التكلي يحشره ، وهو يسبق القطار ، مرة إلى الحرب الناشبة على قناة السويس ، ومرة إلى الشام ، مرة إلى حيفا ، ومرة إلى درعا ، والمحطات الصغيرة تترى فيتحاشاها ، تعترضه الجمال بين المحطات فيتحاشاها ، ينهكه الحصان والدرب الذي يمتد والشراكسة الذين خلّفهم والهواء الذي يشتد ، والنجوم التي غيبتها الغيوم ، والأمان الذي يقذفه من ملجأ إلى ملجأ ، ودهيبة قد صمتت ، وتركته يتقزم ، فبدلاً من أن يحميها إذا بها هي تحميه ، بل إنها تقتل وتهزأ بكل مافعل ، سواء في الحرب أم في الجولان ، وتختار له الملجأ التالي .

كان الملجأ بيتاً صغيراً وفارغاً لشاب وزوجته ، هللا لهما ، وقدما العشاء الذي اختلط بزوادتهما ، ثم تركاه ودهيبة مسهداً ، يفكر في أن الأرض كلها صغيرة جداً ، ومتشابهة جداً . يستعيد ماثرثرت به دهيبة مع مضيفتها ، والزوجان صامتان ، فتبدو له العال أو عين فيت مثل هذا المكان ، يبدوو هذا الرجل مثل راغب الناصح ، بل مثل ياسين الحلو في الزنبقلي ، أو عزيز اللباد في قبية ، أو فياض العقدة في المشرقة ، يأتي ببغله أو حماره أو بقرته ، من فلسطين أو من حمص أو من البحر ، فيقدم له أبو راغب أو الأمير جهجاه أو الشيخ مصرب ، أو أي من سادة البلاد ، السكنى والطعام ، ومايقدر أنه ربع المحصول . وقد لايكون الأمر كذلك ، فللمضيف شقيق يزرع قطعة صغيرة لموسم أو موسمين ، ثم يفر إلى حيفا . وقد يفر إلى بيروت ، فيما يضيع سواه في المراعي ، أو تقتله رصاصة طائشة من دهيبة نفسها . ولكن الرعاة لايحصون ، من العال إلى حوران ، تدفق بهم الخيام إلى واحد من المشايخ أو أشباه المشايخ ، يرعى القطيع لقاء حصة تفي بعيشه ، فيما المضيف يحلم أن تكون له أرض وغلال ، فيستأجر جمال البدو في الموسم الخصيب الذي سيأتي، ويجود بعشرة أمداد من الحب لكلّ جمل، حتى لو لم يبق لحاتم الطائي حبة ، وراغب يلعن في سره البدو والجمال والقطعان والمراعي والأرض ومن

يفلحها ، يهزأ من بسمة دهيبة للفرص الوفيرة ، من هاهنا حتى أقصى الجنوب ، فالشيوخ والملاكون ، مهما صغروا أو كبروا ، يؤهلون بشاب مثله وزوجة فتية مثلها ، يؤهلون بمن له بندقيتان وخيل ، ولكن راغب يدير ظهره ويمشي ، يتحدى دهيبة في سره ألّا تتبعه ، حتى لو كانت فارسة تنقذف عن السامرية كالشهاب ، وتطلق الرصاص أمهر منه ومن كل من عرف . بيد أن دهيبة هي التي اختارت من جديد أن يكون الملجأ التالي عند الجباوي المبارك .

دهيبة هي التي أودعت مضيفتها السرّ هذه المرة . أما راغب فكان يحذر من أن يخطىء ثانية ، فيطلع له الشيخ مصرب في شخص مضيفه الشاب .

كانت المرأتان قد سبقتا إلى النهوض وحلب البقرة وغلي الحليب ونقل جرتين من الماء ، ودهيبة تحدث نفسها كما تحدث مضيفتها ، ثم تنصت إليها :

ـ سيري ياأختي من هنا إلى سيدنا الجباوي . الزعبي سره كبير لكن الجباوي سره أكبر . اسألي من تشائين . عند الجباوي تكونين في أمان من الدنيا كلها . لازوجك الأول ولا الشيخ مصرب ، لابدوي ولا حضري . قبل مايظهر سيدنا الجباوي كان البدو يغيرون على جبا ، مثلها مثل غيرها ، ومرة غضب عليهم ، كانوا سرقوا بغلة لواحد فقير ووحيد في الدنيا ، لاأب ولا أم ، لا ولد ولا تلد ، واحد ليس له إلا الله وذراعه . وقبل أن يبعد البدو كان يبكي على باب سيدنا الجباوي . حزن سيدنا وقال للرجل : بغلتك تعود بإذن الله . صار البدو يدورون ويدورون حتى الفجر . كانوا يظنون أنهم فازوا بالغنيمة ولو كانت زهيدة ، وأن جبا صارت بعيدة ، ولكن الله أعمى قلوبهم وشلّ سيقانهم . ومن الفجر إلى الظهر ظلوا يدورون حول جبا والناس تتفرج عليهم ، وسيدنا في بيته مع صاحب البغلة . سمع البدو والناس صوتاً ينادي : ترجع البغلة إلى صاحبها ، ولاتمتد يد إلى المال الحرام . ومن ذاك اليوم إلى هذا اليوم لايقرب البدو ولاغيرهم جبا وجوارها . صار قبر سيدنا مزاراً لكل الناس . المجنون إذا بات بجواره يصحو معافى . الناس تقصد سيدنا من هنا ، من اللجاة نفسها ، من كل مكان ، تذبح الذبائح وتفي نذورها . خلّي نيتك صافية ، وانذري ، وإنْ شاء الله تذكرينني بالخير .

لام راغب دهيبة لأنها أفشت سرها ، وقال :

ـ إذا كنت قد غلطت مع الشيخ مصرب فلا ينبغي لك أن تغلطي .

تغاضت دهيبة وقالت :

ـ إلى سيدنا الجباوي ، وله مني يوم يفرجها الله علينا ذبيحة ، وله ذبيحة منك . سمّ ياراغب . .

لم يجرؤ على أن يرفض ولاعلى أن يماحك ، وإنْ كان قد تبرم في سره ، ليس من سيدنا الجباوي ، بل من أن تكون دهيبة هذه المرة أيضاً هي التي تحميه ، وتحدد له السبيل . إلا أن سيدنا الجباوي ألقى عليه بظله ، فتخفف من غيظه ومن خوفه أيضاً . ورأى نفسه يصلي ذلك المساء ، لكأنه يتطهر من إثم كبير ، ويلاقي مقامه الجديد قرب المزار أنقى ، يخالط بود عميق زوار سيدنا وجيرانه ، يحصل لقمته ولقمة دهيبة كيفما اتفق ، وقد كان قادراً على أن يحيا كذلك دهراً ، لولا أن دهيبة فاجأته بحملها ، على الرغم من أنه لم يلمسها منذ فرّا غير مرة واحدة .

من الفرحة بالحمل صحا على أنه أب لولدين ، وفي الصيف القادم سيكون أباً لثلاثة ، والشتاء وشيك وإنْ كان الحر شديداً . لابد من مأوى ومن شغل ، حتى لو كان بعيداً عن سيدنا الجباوي إلا أن دهيبة صامتة ، ولاتبدو قادرة على أن تتقدمه أو تختار له ، وهو حائر ، لايستطيع أن يعمل أجيراً ولاراعياً ، ولا أن يظل عاطلاً قرب المزار ، فهل يخبط من جديد في هذا الجنوب الذي كان يظن أنه أوفر خصباً وأماناً ؟

★★★

مرغماً نأى عن سيدنا الجباوي ، فقد كانت السهول التي تعج بالرعاة والمحاصصين والأجراء والبدو والشيوخ والمخاتير ، تدفعه عنها ، حتى أطلّ على الوادي ، واشتمّ فيه رائحة الجولان ، فسأل دهيبة :

ـ مارأيك ؟

دارت عيناها في الخرائب الحجرية المتكاثرة ، فوق الأشجار والقطعان الصغيرة المتناثرة أسفل الوادي ، وقالت :

ـ المطرح حلو . حاول أن تفهم من الرعيان كيف يعيش الواحد هنا .

نزلت عن السامرية تتأمل بقايا السد في الوادي ، والقنوات التي تخرج من الأكمات ، ومشت نحو بركة قريبة ، فيما كان ينطلق نحو الرعاة .

شربت السامرية ، وشربت دهيبة ومسحت وجهها الشاحب بالماء العكر ، وداهمتها رغبة حادة في القيء ، فتنحت وقاومت وحاولت ، فلم تستطع . وعاد راغب يصيح قبل أن يصل :

ـ أبشري يادهيبة . كما كنا نعيش عند المزار نعيش هنا . كل إنسان يدبر لقمته من هن ومن هناك .

وأشار إلى الخرائب وبقع الخضرة الحائلة ، حيث ترعى القطعان . وقذفت بالقيء وهي تتلوى ، فقفز نحوها ، وروّعه شحوبها ، واحتار فيما يفعل ، على الرغم من أنها نهضت تهون عليه ، وتعتصر الابتسامة قائلة :

ـ هكذا إذن ؟ أبشر ياراغب .

منذ الليلة الأولى أحسّ أن صبره ينفذ . كان من التقاهم يائسين ، فشهر أيلول قد جاءهم بلا ذنب مبلول ، كما تعود ودهيبة في الجولان . وصيف تشرين أكثر بلاء . البرك بدأت تجف ، مسيل الوادي أيضاً ، والشتاء الذي ينبغي أن يحل ، لم يرسم علامة . سوف يتأخر هذه السنة ربما أكثر من سالفتها . أصحاب القطع الصغيرة من الأرض التي تحيط بالخرائب ، ويتلوى فيها الوادي ، أسوأ حالاً ممن اجتاز راغب ودهيبة من المزار إلى هنا . والموسر منهم خائف ، يقبض يده على حبة الشعير . الشبان بدأوا يقصدون حيفا ، ولكنهم عازبون ، لامتزوجون ولا خاطفون . وهو لايستطيع أن يعمل حمالاً كما يعملون ، ودهيبة مرهقة وصامتة ، يشفق عليهاما ينتظرها هنا ، ويشفق عليها من الذهاب أبعد ، فالدنيا صغيرة جداً ، ومتشابهة جداً ، بأرضها وسمائها ، بيسرها وعسرها ، وراغب ماعاد يذكر يسراً لها مضى ، ولايأمل بيسر قد يكون .

قرب إحدى البرك المنزوية الضحلة كانت الخربة التي اختار . كان سقف الخربة الحجري يجثم على صدره طوال الليل ، ودهيبة تئن إلى جواره . قبالة الخربة كانت أخرى بلا سقف ، آوى فيها الحصان والفرس . مدد الموسكوفية بينه وبين الجدار ، ولبث يرقب دهيبة ، ينشد النوم ، ويستجير بسيدنا الجباوي والنذرين اللذين نذر هو ودهيبة . بدا له أن الخربة يمكن أن تغدو شبيهة بالبيت إذا ماسوّى أرضها ، ودبر لها مايغلق فتحاتها . لابد من الباب على الأقل ، خاصة أن الهواء البارد يهب فجأة . لابد من فراش وغطاء ، طحين وسراج ، تبن وشعير للخيل ، أو له هو ودهيبة ، فما الفرق بين الإنسان والبهيمة ؟ من أين سيأتي بالزيت والبرغل والشاي والصحون ، وماكان يملأ المخفر ، أو بيت قاسم السعد ، أو خيام نبع الصخر ، أو بيت الناصح في العال ، أو بيت الشاويش في حضر ؟ أهذا ماكانت تنتظر دهيبة من فارس الجولان ؟ لماذا لايبيع حصانه وبندقيته ، مادامت إزرع قريبة ، ويشتري بدلاً منها مايجعل هذه الخربة بيتاً يصلح ، ولو لشتاء واحد ؟

ودّ وهو يفكر في ذلك لو أن النهار يطلع الآن ، كي ينطلق إلى إزرع التي عبر بها ذات يوم ، حين كان يحارب مع الأتراك أو ضدهم ، فهو لم يعد يذكر ، كما صار كل ذلك سيّان . وإذْ قرّ عزمه على تلك البلدة القريبة كما سمع الرعاة يقولون ، خفّ اضطرابه ، فبندقية واحدة تكفيه ودهيبة ، والسامرية تكفيها هي ، كما تكفيه ساقاه .

كانت عيناه تغزلان صفقة دسمة في الغداة ، تكفيه مؤونة الشتاء كله ، إلا أن صور تلك البلدة شرعت تنبق من شقوق الجحر الذي يكفنه ، ينكر أنها كانت يوماً كما تنجلي له الآن ، يخشى أنها حقاً هي التي رآها تغصّ ببقايا الأرمن النازحين من أقصى الشمال ، صماء مثل هذا الجحر ، مثل القطار الذي استعصى عطله ، وطالت وقفته ، فلم يعد راغب قادراً على أن يتفرج ، ولاعلى أن يظل جالساً في مقعده مثل الآخرين ، فغادر القطار منكراً ، تاه بين المحطة والبلدة القريبة ، أغرقته الأشباح الهزيلة العارية ، لايقوى العجوز منها على الحراك ، وليس في صدر المرأة منها ماتنفخ به العشب والحطب ، حتى يتقد ، فيحمل راغب العجوز على ظهره ، ينفخ في الموقد الحجري حتى تتأجج النار ، يملأ صفيحة التنك بكل ماتخلو منه هذه الخربة ، يستجدي من أولاء البشر بساطاً ممزقاً أو شقفة من حصير ، حتى لاتنام دهيبة على الأرض ، يتحاشى الأمهات اللواتي تكأكأت بناتهن حولهن ، فيأتي سواه مدججاً ، يرمي بالصرة على رأس الأم أو البنت ، يتلمس الكتف العاري ، يطلب من الطفلة التي قد تكون بلغت هذه الليلة ، أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، حتى يركبها حلالاً زلالاً ، فتفعل الطفلة ، غير أن مدججاً آخر أخف يداً وأكبر عجلة ، ينتزع الطفلة الثانية ، ويطرحها خلف عمود ، أو في زاوية هذه الخربة ، وراغب يتلوى متلمظاً وقرفاً ، يهم أن ينقذ الطفلة الثالثة ، ويأتي بها إلى أمه ، أو إلى دهيبة ، لتخدمها حتى تكبر ، لولا أن هولو التكلي قد أصلح القطار وأطلق صفارته ، فصهل الحصان ، وصهلت السامرية ، وتقلبت دهيبة ، وتسلل الفجر من فتحات الخربة وشقوق الجحر ، فأغمض راغب عينيه ، مؤملاً أن يكون الله قد هدّ إزرع على من فيها ، فذلك أرحم للأرمن ، وبعض ماينبغي أن يناله من جعلهم أو جعله هو كذلك .

★★★

دار صاحب الدكان حول الحصان الواجف دورتين ، وداعبه وهو يخاطب راغب
ـ الحصان معمّر وحيله مهدود . من كم يوم لم يأكل ؟
وتابع فيما كان راغب يهيىء كذبة كبيرة :
ـ مثله في الجولان كثير ، كأني رأيته في يوم من الأيام .
أسرع راغب ملهوفاً :
ـ هو من هناك .
قال الرجل وهو يعود إلى الدكان :
ـ وأنت ؟
وفيما كان راغب يهيىء كذبة أكبر ، أردف الرجل :
ـ البندقية لاغبار عليها ، أما الحصان ؟ مازال الناس هنا يفضلون المقلاع على بندقيتك هذه . ماذا سأعطيك ؟ اسمع ياأخي : خذها مني نصيحة لوجه الله : اذهب إلى اللجاة ؟ هل تعرفها ؟ يبدو لي أنك تعرفها .
أسرع راغب قلقاً :
ـ أعرفها ولكني لاأرغب بالذهاب إليها .
قال الرجل وهو يتفحصه :
ـ اسمع مني . سأرسلك إلى صاحب معصرة البطم . المعصرة الكبيرة الأقرب إلينا . لن تغرق بعيداً في اللجاة . أنت على حق . لاأحد يريد أن يذهب إلى هناك . ولكن صاحب المعصرة أوصاني من كم شهر على أن أدبر له بندقية جيدة وحصاناً فتياً . إذا كان حظك طيباً فلن يكون قد اشترى .
قال راغب قانطاً ، وقد تماثلت له أطراف غابة البطم ، ودهيبة تلحق بمن أوشك على أن يصطادها ويصطاده :
ـ حظي يفلق الصخر . اتركنا من اللجاة والمعصرة . اشتر أنت له ، وربي يبارك لك .
تساءل الرجل وهو يجلس :
ـ ماحكايتك ؟ تكون هارباً من ثأر ؟ تكون وراءك سرقة أو خطيفة ؟

هم راغب باستعادة البندقية والخروج ، وهو يكتم غيظه ، فنهض الرجل سعيداً بفراسته ، ومتلمظاً . وسرعان ماتمت الصفقة الزهيدة ، وامتلأ حضن راغب بكيس مما يتناثر على رفوف الدكان ، وتدفأ صدره بالكنز ، وغادر عجلاً ، وقد صحا فجأة على أنه سيعود مشياً ، وسوف يتأخر عن دهيبة الوحيدة .

بعيد الدكان أصمّه هدير القطار القادم من دمشق ، فتمهّل قليلاً ، ثم انحرفت قدماه ، مخادعتين له ، نحو المحطة ، وتلهى ثمة بالدكاكين الجديدة والأصوات الشامية التي تترامى فيها ، فتلفت وراءه ، وقرع نفسه على أنه لم يأت بالبندقية والحصان إلى هنا . وغزلت عيناه لدهيبة يوماً ما في الشام ، تتفرج على هواها ، وتبتاع ماتشاء . ولعله كان قد تجاوز مركز البريد ، وهو يحلم ويبتسم ، مخلفاً الدكاكين والمساكن ، حين تناهى إليه صوت ينادي .

حاول أن يستدير ، أو يتبين النداء أو الصوت ، فحرنت أذناه وساقاه . انتظر بهدوء أن تأتيه الرصاصة بين نبضة وأخرى . تمنى ألا تخطئه الرصاصة ، وألا تبطىء عليه ، إلا أن عمر التكلي انتصب بغتة قدامه ، مهللاً :

ـ أهلاً أهلاً ، أبو رجب أم ناصح أم أبو من ؟

كان عمر قد ازداد سمنة ، وراغب قد ازداد نحولاً . رأس عمر ازداد شموخاً ، ورأس راغب ازداد تطامناً . ولعل ذلك ماجعل الأول يتكلم وحده أغلب الوقت ، والثاني يصغي . الأول يتباهى بمشروعه الجديد هاهنا ، يتحدث عن مشروع قادم أكبر ، يستخف بالجولان ، وبالآخر الذي يتحلب ريقه . ولم يفت عمر أن راغب الناصح بدا غريقاً ، لن يدع القشة تفلت . وفكر في أنه بحاجة إلى مثل راغب هنا ، لولا أنّ الثأر يجدّ وراءه ، والجنون قد يداهمه بين غمضة عين وأختها ، فتراه يترك دهيبة وعمراً ، ويلحق بامرأة جديدة . إلا أن راغب يعلن التوبة ، ويجعل عمراً يضحك ، ويعجب ، وهو يعد على أصابعه متلبساً بهيئة المجرب الحكيم : أول مرامرمره ، وتاني مرا سكره ، وتالت مرا عنبره ، ورابع مرا ع المقبرة .

بدا راغب أمام عمر كأول عهدهما ، وربما أسلس قياداً . وحلا لعمر أن يصدق التوبة ، لكنه رأى نفسه يتلذذ ، إذْ يعذب هذا الذي سيلحقه برعيته الجديدة في حوران ، ويسائله مستفزّاً أو مذلاً :

ـ ماذا تفعل يوم يجيء واحد لابن دهيبة ويصيح به ياابن العايبة ؟ ماذا تفعل يوم يجيء من يعيرك هاهنا ويصيح : انت بايق ، انت شرود ياابن الناصح ؟

ربما كان عمر يتوخى أن يعجن راغب عجناً ، مادام سيعمل في مشروعه الجديد . وكان راغب إذْ يتقزم وينلجم أمام عمر ، يفكر بالبندقية التي ترك في الخربة الحجرية ، بالسامرية ، ويعاهد نفسه على ألّا يفرط بها ، حتى لو ماتت دهيبة جوعاً . وحين قرّ على ذلك ، أصمّ عن لسان عمر الذي يأمره بتبديل اسمه إنْ شاء أن يخدم في المشروع

الجديد . وكان عمر سعيداً وهو يؤكد على أن راغب ليس الآن مرافقاً في جولة ، ولاشريكاً في قافلة الجمال ، بل خادماً وحسب . ولئن أعجزه أن يبدل اسمه ، فليبدل جلده ، وليختف اسم دهيبة . لتكن هي الأخرى فقط أم ناصح أو أم رجب ، كما تشاء ، ولتبدل جلدها كما تشاء ، لينكر راغب ودهيبة الجولان ، ولينتسبا إلى المريجانة ، إلى أخوال عمر ، أو ـ لا بأس ـ لينتسبا إلى الحرزة إلى بيت التكلي ، وإذ ذاك فقط يمكن لعمر أن يجرب ثانية ، كي لايلدغ من أي جحر ، وهو المؤمن العتيد .

خلف عمر انقاد راغب مثل الكلب إلى الدكان الملاصق لمركز البريد . وضاعت عيناه ، ورأى نفسه ينتفج حين طرد التاجر الشامي الفلاحين الحوارنة من الدكان ، كي يفسحوا لعمر أفندي وابن خاله . وقبل أن يغادر الدكان كان قد عرف ماينبغي عليه أن يفعل في الأرض التي اشتراها عمر بالمزاد من أصحابها الشوام . كان صاحب الدكان يتعجل عمراً إلى تلك السوداء التي تنتظر ، قرب الشلالات التي نحلت أو تقطعت . ولما صار راغب وحيداً في الطريق إلى دهيبة ، فكر في أنِ أم نور الدين قد تكون هاجرت هي الأخرى إلى هذه الأنحاء ، ثم لعن ظنه الآثم ، فأم نور الدين في عمر أم عمر وأم راغب ، ولايعقل أن يفعلها عمر . وجزم أنه ثمة عبيد سود أو شبه سود في ناحية مامن حوران . كماأنه ثمة شلالات ، وليس ذلك وقفاً على الجولان . وتبسّم مشفقاً على نفسه من جهلها ، ومن عجلتها ، وكانت الخربة الحجرية تتلامح له ، فأفسح خطاه يهيىء مفاجأته الكبرى لدهيبة ، وكانت الشمس توشك أن تغرب .

★★★

كيف تسنّى لراغب أن ينسى كل مامضى ، شتاءً بطوله ، صيفاً آخر ، سنة أخرى ربما ، وجعل دهيبة تنسى إلحاحها على الحذر ، وجعل عمراً ينسى مشروعه الأول ، وينصرف إلى مشروعه الثاني عند سود حوران وشلالاتها ، مطلقاً يده ، ومطمئناً ؟

كان الفلاحون في هذه المزرعة الصغيرة الكبيرة ينتظرون متوفزين من وعدهم عمر به ، منذ رسا المزاد عليه ، ورحل عنهم ابن الشمعة ووكيله . ولما جاء راغب على فرس ، يتأبط البندقية ، وخلفه تلك المرأة التي زادها الحمل جمالاً ومهابة ، تيقن الفلاحون من سوء ماظنوا بالخلف الموعود . إلا أن ذلك لم يطل بهم ، وسرعان ماتلقفت وجوههم غبطته واندفاعه .

من شروق الشمس إلى مغيبها ، ومنذ يومه الأول ، كان يقضي نهاره بينهم ، راجلاً أو راكباً ، يستشيرهم ويباسطهم ، يهون عليهم ويحرضهم ، وقد اختفت البندقية من على كتفه في غفلة منه ومنهم . ومثل نهاره كان يمضي الشطر الأول من أغلب لياليه معهم ، من بيت إلى بيت .

ربما كانوا بحاجة إلى من يسوسهم على هذا النحو ، بعد أن أرهقهم ابن الشمعة ووكلاؤه ، خاصة في سنوات الحرب ، كما أرهقتهم فرنسا بالأمس القريب ، وهي تطرد الملك ، أو تعاقب من قتلوا رئيس الوزراء الذي عينت ، ومن لم يقتلوا .

كان يحلو لراغب أن يردد في سرّه ، أو أمام دهيبة ، ماحفظ من ألسنة الفلاحين ، وهم يسامرونه في الليالي القارسة ، فيصفون الملك المخلوع ، والقطار الذي رماه غير بعيد عنهم ، والجنيهات المعدودات التي وزعها على من التفوا حول القطار . كانوا يشفقون على سيارة الملك التي لم يعد يرضى أحد أن يملأها بالبنزين ، يهزأون منها بالأحرى ، ويقلدون صوت الملك الشجيّ النادم :

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة   ونام عنها ، تولى رعيها الأسد

ترجع صوت الملك في صدر راغب ، ترجعت أصوات الفلاحين ، وردد هو الآخر في سره منغماً ، ثم سمعته دهيبة يردد مرة بعد مرة ، فكانت تسأله ، كما لعله سأل نفسه مراراً :

- لهذا أنت لاتهدأ ليل نهار ؟

وكانت تضحك منه ، كما لعله ضحك من نفسه مراراً :

- ولكن هل هذه المزرعة مسبعة ؟

كان صيته يشيع يوماً إثر يوم بين الفلاحين . وكان عمر يتسقط في البداية أصداء ابن خاله المزعوم ، ثم صارت الأصداء تأتي إليه ، فتبهجه ، وتحثه على مشروع آخر . على أن راغب لم ينأ عن المزرعة إلا بعد أن وضعت دهيبة ، فزار الجباوي ، ونحر خروفاً ، وفي اليوم التالي ذهب إلى إزرع ، وعفّ عن التشفّي من صاحب الدكان الذي اشترى منه البندقية والحصان بثمن بخس ، وصادف هزاع نصر الذي تباهى بزواجه ، غامزاً من حسين فندي الذي صار من العقّال بعدما قطع الأربعين . وابتاع راغب الحلوى من ثلاثة من دكاكين الشوام في المحطة ، وتملّى القطار ، ثم آب رضيّاً ، يعاهد الله على أن يكفّر عما اقترف ومالم يقترف ، في زمن انقضى .

أما دهيبة فقد كان من العسير عليها أن تضحك قبل الولادة ، على الرغم من أنها تشممت الفرج منذ عاد إليها في الخربة ، يعلن النبأ العظيم ، ويتعجل شروق الشمس .

نساء الفلاحين كنّ يجزمن أن هذه المرأة ليست فلاحة ، بل بنت أصل عتيد . كن يهفين إليها كما يهفو الرجال إلى راغب . وكان راغب يملؤها طمأنينة ، فتحنو على بطنها ، وتنشد أن يتم الله نعمته ، فلا ينقضي موسم واحد ، حتى يكون راغب قادراً على أن يصالح أهلها ، ويدفع لزوجها ضعف مادفع ذات يوم مهراً لها ، وحينئذ ، لن يكون مهماً أن تعود إلى العال ، أو إلى نبع الصخر ، أو أن تعيش في هذه المزرعة ، حتى تشيخ .

ظلت البنت التي وضعت دهيبة بلا اسم أسابيع . لم يكن راغباً مبالياً ، مادام الذكر الثالث الذي انتظر لم يأت . أما هي فقد نادت البنت باسم أمها فترة ، ثم باسم أم راغب فترة ، ولعلها نادت أيضاً بغير ذلك ، أو أن راغب فعل . وكان ذلك يثير ضحكه وضحكها وضحك الفلاحين ، إلا أن راغب وشوش دهيبة أخيراً :

ـ مارأيك باسم غالية ؟

قالت :

ـ حلو ، ولكنه غير معروف عندنا .

ـ سمّ البنت غالية إذن . اسم حلو وغريب . البنت طلعت أسنانها ، وكل يوم نناديها باسم .

وغادر البيت ، فيما الشمس توشك أن تغرب ، ولم يكد يضع كفه على كفل الفرس حتى انقبض فؤاده ، خاف بالأحرى ، وأنكر على نفسه أن توسوس له باسم غالية ، وعزم وهو يعتلي السامرية على أن يجعل دهيبة تختار للبنت اسماً آخر هذه العشية .

في الجهة الشرقية من المزرعة كان ينتظره احتفال كبير في بيت ذلك الفلاح العجوز الذي ختن هذا الضحى توأميه ، وقد سمى أحدهما باسم عمر ، والآخر باسم راغب .

امتدت السهرة طويلة وماتعة ، ولكن راغب كان ينقبض كل حين ، إذْ يذكر ابنته . وفي إيابه ، منتصف الليل ، أحسّ بالبرد أقوى منه مما عهد ، فراح يهمز السامرية حتى أشرفت على البيت . وما إنْ ترجل حتى تسمّر ، وصدع أذنيه صوت غريب . أصاخ ، وأصاخت السامرية مثله ، فضاعف السكون المطبق والظلام المطبق من وسواسه . تقدم محاذراً ، وحمحمت السامرية ، فخيل إليه أنّ صوتاً آخر لبشر أو لحيوان قد صدر مع حمحمتها . عاد إليها يمسح على كفلها ، دار حولها ، ثم عجل نحو زاوية البيت . تريث كاتماً أنفاسه ، ثم دار حول البيت ، فإذا بحمحمة تطالعه تحت التينة التي

تظلل بيت جاره . اقترب من الحصان الغريب ، فليس في المزرعة من الخيل غير السامرية وهمّ أن يطرق باب جاره ، فلا بد أن يكون الحصان لضيف نزل عنده ، ولابد أن ذلك ماجعل الجار يغادر السهرة مبكراً . من يمكن أن يزوره هو إذنْ سوى عمر ؟ ولكن عمر لايعقل أن يأتي ليلاً ، فإنْ أتى لأمر عظيم ، فلن يلبث بانتظاره حتى منتصف الليل . كان عمر سيرسل دهيبة نفسها خلف راغب ، فماذا إذن ؟

التفت إلى بيته ، وهو يتساءل . أرهف السمع ، وأخرس وجيب فؤاده . وعلى الرغم من أنه لم يلتقط صوتاً ولاحركة ، فقد تيقن من وجود بندقية غريبة داخل البيت ، تنتظر رأسه حتى تفرغ رصاصها فيه .

كان يقترب من البيت وهو ينأى عنه ، يهدىء روعه مفكراً في البندقية التي لم يحملها منذ دهر ، يلعن غفلته ، ويسأل الله العون . وفي الزاوية الشرقية لطا ، يراهن على معجزة ما ، فلا بد لدهيبة أن يوقظها تأخره . لابد لها أن تشعل القنديل ، أو تفتح الباب ، أو لابدّ لجاره أن يخرج ليتغوط ، قبل أن يقضي على راغب الناصح هذا البرد وهذا الوسواس . إلا أن المعجزة جافته ، ولم تظهر دهيبة ، لم تبك البنت ، ولم يخرج الجار من بيته ، حتى كانت الشمس قد أشرقت .

من مكمنه رأى الجار يدور حول الحصان الغريب ، ينادي ، يقترب من السامرية ، يتقدم نحو الباب الموصد ، ينادي من جديد ، يقف أمام الباب ، ويهم أن يطرقه ، أو يدفعه ، ولعله فعل ، وراغب زائغ العينين والفؤاد ، فإذا بالباب ينفتح عن ملثم وبندقية ، والجار يرتدّ هلعاً ، والملثم ينهره ، أو ينهر البندقية التي لم تنطلق .

ابتعد الملثم عن الباب خطوة أو خطوتين ، وتراجع الجار مبربراً ، وظهرت دهيبة من الباب ، فأومأ إليها راغب من خلف ظهر الملثم .

اختفت هنيهة لتعود بالبندقية ، وكان الملثم قد اقترب من السامرية ، وراغب قد تسلل أقرب إلى الباب ، ونتر البندقية من يدها ، وأركز فوهتها في ظهر الملثم ، وهو يلقمها ، والجار يصيح أو يهلل أو يبربر ، أو ينزع اللثام عن الملثم الذي رمى سلاحه .

جاء الزوج إذن ليثأر لشرفه المثلوم ، إلا أن غريمه قد فاز به ، وغريمه يستحلف جاره بالله وبالجباوي بالزعبي وبشرفه وأولاده ، أن يكتم السّر ، ويرعى دهيبة والبنت ، حتى يعود هو ، فإنْ لم يعد ، فالأرملة واليتيمة أمانتان إلى يوم الدين .

كانت دموع دهيبة تفرغ كل ماالحتبس في الليلة المديدة من خوف وقهر . أصمّ راغب عن دموعها وتحذيرها ، وكتّف الرجل ، ثم أعانه والجار على أن يعتلي صهوة حصانه ، وشدّا وثاقه على الحصان ، واعتلى هو صهوة السامرية ، وتدلت من كل كتف له بندقية ، وأسرع الجار إلى بيته ، يحضر زوادة تكفي لليلتين ، فالجولان بعيدة .

★★★

طوال الطريق لم يكن راغب يفكر إلا في اللحظة التي سوف يدخل فيها على والد دهيبة ، وعلى العشيرة ، بأسيره . لم يكن له شأن بأية حركة تصدر عنه ، أي طريق يختار ؟ أين يتوقف ؟ كيف يطعم الأسير ؟ كيف يفسح له أن يتبول أو يتغوط ؟ كيف يسهر على نومه ، أو كيف حرز لسانه عن أية كلمة منه ، وأصمّت أذنه عن أية كلمة من الأسير ؟

اللحظة القادمة غدت كل شيء مضى ، وكل شيء يأتي ، فيما العشيرة تنتظر غيبة الرجل التي طالت أكثر مما قدر لها الشبان . فمادام راغب الناصح قد خطف دهيبة ، ولم يقم بما يفترض أن يقوم به بعد أكثر من سنة ، فمن حق زوجها أن يفعل به وبها مايشاء . بل إن ذلك من حقه على أية حال ، كما هو من حق شقيقها الذي انتزعت منه أيضاً فرسه وبندقيته . بل إنه من حق أي شاب من شبان العشيرة .

غير أن راغب جاء يسوق زوج دهيبة أمامه ، والبندقيتان تتدليان على كتفيه ، وكل من في الخيام يتدافع غير مصدق . هكذا ، في عز الظهيرة ، قيض للأطفال أن يروا ، وأن يسمعوا ، وراغب الناصح يدفع بزوج المخطوفة بين صفي الرجال الصامتين نحو باب الخيمة ، يتجاوز شقيق دهيبة الواقف في الفرجة ، يلقي بالسلام على حميه ، وتمتلىء الخيمة الفسيحة بالرجال ، ينفجر الصمت خارجها ، يلقي راغب بالبندقيتين بين يدي حميه ، يفك وثاق الرجل المقيد ، ويجثو بين يدي الشيخ :

ـ أنا بين يديك ياعمي . إذا كان لابد من الموت فليكن على يدك . هذا الرجل لايستحق أن يقتلني ، ولا أن يكون صهرك . الزمن قسا ياعمي وتأخرت بالواجب . أنا أعرف الأصول أيضاً . صحيح أنني لست بدوياً ، ولكن أنت تعرف بيت الناصح . صدقني ياعمي ماكان بيني وبين مهر دهيبة غير خطوة . الله سبحانه وتعالى كشف الغمة ، وراغب كان يهيىء المهر الذي تضرب الجولان به المثل . أنا بين يديك ياعمي وراض بحكم الله .

أمر الشيخ أن ينصرف من هم خارج الخيمة ، ودعا الواقفين فيها إلى الجلوس . أمر زوج دهيبة أن يتناول بندقيته ، وراغب أن يتناول البندقية الأخرى . تطلع راغب إلى شقيق دهيبة ، ونهض يناوله البندقية :

ـ هاقد عادت إليك بندقيتك وفرسك .

وتوجه إلى حميه :

ـ أما أنا فصرت بلا سلاح ولا حصان . بعت سلاحي وبعت حصاني ياعمي . .

وانحبس لسانه ، ففطن الى أن اللحظة التي انتظر قد أزفت ، وأن سواه هو الذي كمن للغريب ، وظفر به ، وقاده ، ونطق في هذه الخيمة . وأيقن في خرسه أنه لو تدخل مرة واحدة في ذلك كله ، لأفسد كل شيء . أما الآخرون جميعاً ، فقد صعقهم هذا الفارس ، فمنذ عهد كان حقاً ، وإنْ لم يعشه الأب ولا الابن ، لم تعرف الخيام فروسية مثل هذه الفروسية . وسواء أخطف راغب الناصح دهيبة من تحت زوجها ، أم أتى ماهو أكبر ، فإنّه وحده من ظفر بقاتله ، فعفّ عنه ، ثم تقدم إلى حتفه أعزل . ولابد أن تكون دماء بدوية هذه التي تجري في عروقه ، فليس بين الفلاحين من له هذه الشجاعة ولاهذه المروءة . ومثل هذا الرجل قمين أن يخطف دهيبة ، قمين أن يصاهر من شاء ، حتى الأمير جهجاه نفسه . ولأنّ راغب كذلك ، كان لابد للشيخ أن يحكم على صهره الذليل بطلاق دهيبة ، ويؤجل أي كلام آخر إلى مابعد الغداء .

ازدرد راغب لقيمات معدودات بلا طعم . شرب الماء وتناول القهوة ، وهو يتحاشى أن تلاقي عيناه أياً من العيون المحدقة به . ولم يلبث الشيخ أن طلب من الآخرين أن يخلوا بينه وبين راغب ، ثم أقبل عليه وهم يخرجون :

ـ أين دهيبة ؟ لماذا تركتها وحدها ؟

ـ ألا تعرف ياعمي حقاً أين هي ؟ على كل حال دهيبة في أمان ، ولاتستطيع الآن أن تقطع والرضيعة مابينها وبينكم .

صاح شقيقها مستنكراً :

ـ ولدت بنت أيضاً ؟

زجرت الشاب كف أبيه ، وهو يردد الشهادة ، ويدعو الله أن يكفر عن سيئات الجميع ، ثم تساءل :

ـ والآن ؟

ـ القول قولك .

أسرع راغب ، وكرر الشاب خلفه ، فرجا الشيخ الله أن يلهمه الصواب ، وفرك كفيه مخاطباً راغب :

- لو أن الأمر لي لباركت لك بها بعدما فعلت . للعشيرة حقها . قم الآن من هنا ، وابعد ماستطعت . لاتعد إلى دهيبة ، ولاتحمل همها . لو فعلت ، فقد ينجح في المرة الثانية ، من لم ينجح أول مرة . سافرْ إلى الأمير دشاش . هل سمعت به ؟ اقض في مضارب الأمير ماتيسّر لك ، وإذا عرفت كيف تعود وترفع رأسي ، كانت دهيبة لك ، وإلا . .

تعثرت شفتا الشيخ واهتز رأسه قبل أن يتابع :

- أريد أن أرفع رأسي بك .

- أبشر ياعمي .

نهض راغب صائحاً ، واختلط صوته بصوت الشيخ وهو ينهض مخاطباً ابنه :

- رافقه إلى الشام . دلّه كيف يصل إلى الأمير .

تابع راغب صياحه كأنما لم يسمع الشيخ :

- المهر ياعمي لايحتاج غير أن أصل إلى الشام . لا الأمير دشاش ولا غيره . لابد أنك تعرف عمر التكلي . كل مالعمر في حوران تحت يدي ياعمي . اليوم نكون عنده ، وغداً بإذن الله عندك .

وكان الشيخ يخاطب ابنه :

- بلغ القوم أن راغب الناصح في حمايتنا من اليوم حتى مثله في السنة القادمة .

★★★

10

وصل عزيز اللباد إلى البحر خائراً . استلقى على الرمل ممدداً بندقيته إلى جواره ، وفرش ذراعيه . دارت بعينيه نشوة الأمان ، فبدت السماء جميلة ورحبة ، تزينها الغيوم الخفيفة التي تمرح فوقه ، مثل الأولاد الصغار . هجع كفاه على الرمل الرطب ، وهدهد له الموج الرخيّ ، فأغمض عينيه ، وللمرة الأولى ـ ربما منذ طفولته ـ تذكر أن له أماً كانت تهدهده حتى يغفو . شبك كفيه فوق صدره ، وترددت دقات فؤاده في كفيه أسرع وأقوى . لوى رأسه صوب البحر وهو مغمض ، فإذا بوقع الموج أوجع . وعد أمه والقبية كلها بالعودة الوشيكة . غطى البندقية بفخذه ، فخشي ألا يفي بالوعد . فكر في أنه سوف يكون قادراً على أن يزور قبية كل حين على الأقل ، حتى يشاء الله . تعالى وقع الموج ، وأخذ الرذاذ يملّح الجفنين المغمضين والشفتين المطبقتين . فكر في أن طرابلس لم تعد الملجأ المناسب . ربما كانت طرطوس أو اللاذقية أوفر أماناً ، وماهمّ القرب أو البعد ، ما همَّ الفرنسيون ، فالثوار يملؤون الجبل ، وربما الساحل . ولئن ضايق الفرنسيون عزيز اللباد بسبب عبود بك الرشدة ، فسوف يكون بوسعه أن يلتحق بالثوار . لن يجعل الفرنسيين يظفرون به كرمى لدم عبود بك ، كما لم يجعل سواهم يظفرون به كرمى لرأس قائد القشلة في حماة . وإذْ وطّن نفسه على ذلك ، كان الموج قد اقترب منه ، يكاد يلحس قدميه مرة ، أو يبلل بالرذاذ ثيابه مرة ، فهب نشيطاً ، ويمّم شمالاً .

هذه المرة ، عزم عزيز على ألاّ يتخلص من البندقية ، كما فعل بعد مرجمين . لقد أكلها الصدأ قبل أن تصرع عبود بك ، مثلما أكل الصدأ بندقيته الأولى قبل أن يبيعها بما يكسوه ، بدلاً من البذلة العسكرية . الأولى صمتت منذ مشارف الشام حتى مرجمين ، وهذه صمتت من البرج حتى القصر . ولعل هذه باتت عبئاً عليه الآن ، مثلما كانت تلك بعد مرجمين ، إلا أنه بات في خطر أكبر ، والأمر اليوم أمره . إنها هيلانة هذه المرة ، وليست نجوم . إنه عزيز اللباد ، وليس فياض العقدة . إنهم الفرنسيون وليسوا عساكر

القشلة في حماة . ولسوف تضطره هذه البندقية إذن إلى أن يتلوى بالطريق ، يبالغ في التخفي والحذر ، فليكن ، مادام ليس بوسعه إلا أن يسير ، ويسير .

كان الجبل يطل عليه بين رفة جفن ورفة ، وهو يتقدم على الشاطىء ، يحسب أن الجبل يحميه ، يود لو يقدر على أن يتملى منه ، وقد انزاحت الغيوم وشعشعت النجوم . إلا أنّ عيني أمه الباكيتين تربضان له ثمة ، وعيني أبيه الغاضبتين أيضاً . أما عينا شقيقه اللتان لاتظهران ، فلعلهما تومضان له بعيداً ، في وكنةٍ ما ، مع الثوار .

وليلة بعد ليلة ، نهاراً أيضاً بعد نهار ، ملأه اليقين من أن الجبل يحميه إلى اليمين ، والبحر يحميه إلى الشمال ، فالبيوت التي تدفعه قدماه إليها ، أو تكمن له حتى يرتمي في حضنها ، كانت تيسّر له الطعام والنوم والكلام والشكوى والهمس فيما يفعل الثوار بالفرنسيين . وبعد لأي بات يقرأ في عيون الكثيرين ممن يؤونه أنه واحد من الثوار الذين ضلوا سبيلهم ، فتمنى أن يكون . ولعل ذلك ماجعله ، إذْ قارب طرطوس ، ينحرف صعداً ، ويتلوى بالطريق ثانية ، حتى القلعة . التي كانت لاتزال تلملم جراحها ، وقد هاله مافعل بها الفرنسيون ، وأيقن أن الشهب التي أمطرت بها السماء ذات يوم لم تكن أرواح المؤمنين .

بين يدي الكهلة التي ينادونها جميعاً : أمّنا ، مثل ، يود لو تأخذه بحضنها ، يفضي بما يلوعه وينطلق ليحميها ، فليست أمه وحدها في قبية ، إلا أن أمنا أمرته بحزم أن يعرف بنفسه ، فلما فعل ، التفتت إلى الرجال الثلاثة الذين كانوا حولها ، وسألت وهي تعود إليه :

ـ متى يسيرون ؟

ـ مع الفجر بإذن الله .

قال أكبرهم وهو يتفحص بندقية عزيز بعينيه الغائرتين :

ـ اجمعوه بهم الآن ، وغداً ينطلق معهم على بركة الله . سوف يفرح به القائد .

ثم خاطبته :

ـ تعشَّ جيداً ، ونم . أمامكم يوم صعب .

فنهض منصاعاً ، راغباً وحائراً ، ولحق بالرجلين اللذين تقدماه متمتماً :

ـ على بركة الله .

★★★

مع المقاتلين راح ينتقل عبر القرى التي أيقظت فيه قبية : المسالك الوعرة ، الأدغال والوديان والينابيع ، أصوات الذئاب ، رائحة البطم والمطر ، أشجار التوت وفساتين العجائز ، ذقون الشيوخ وعمائمهم ، مواويل العتابا والمزارات المقدسة ، ولم تلبث سنوات الحرب والعسكرية الهاجعة في أعماقه أن تلوّت : حملة السيوف ، البغال ، الماوزرات ، منظار القائد ، الملازم تحسين شداد ، العجوز ياسين الحلو والصبي فياض العقدة ، السبطانة التي تضيق بحبال التنظيف والرصاص الشحيح ، اسماعيل معلا الحانق والدخان الوفير ، حمادي الحسّون الهارب أو الميت ، العشائر التي لم يسبق لعزيز أن سمع بأسمائها ، لافي ذلك الجيش الميمم إلى الشمال ، ولا في هذا الجبل ، العشائر الكبيرة والعشائر الصغيرة ، العشائر البدوية والعشائر العلوية ، الرولة أو المتاورة ، الفواعرة أو الخياطين ، الحسنة أو الحدادين ، الموالي أو الحديديّين . ولعله فطن لأول مرة إلى الكنائس في بعض القرى التي حاذاها ، أو عبر بها ، وافتقد الجوامع في باقي القرى . كما فطن ، ولو بعد حين طويل ، إلى أن بندقيته عادت صامتة ، كأنها ترابط في القشلة الحميدية ، أو في قشلة حماة ، أو برج عبود بك الرشدة .

كان القتال يجري دوماً بعيداً عنه ، وهو يترحل من مجموعة إلى مجموعة ، حتى تسلّقت مجموعته الأخيرة تلك الظهرة المطلّة على جبلة والبحر ، وساقاه لاتقويان على حمله ، كما أن نعل حذائه ماعاد يقدر على الأحجار والحصى التي تفور بها تلك الأرض .

كانت المجموعة ، شأنها وسواها في تنقلها ، تتحاشى الاقتراب من الشريط الساحلي ، في الآونة الأخيرة ، حيث تؤكد عيون الثوار انتشار الفرنسيين وسطوتهم . وكانت السماء منذ الفجر ترعد وتبرق ، بلا مطر ، والريح تشتد .

من الخلف تسللت المجموعة إلى الظهرة ، وكان عليها أن تكمن حتى يطبق العتم ، لتنطلق إلى القمة المنبسطة قليلاً ، وتشتبك مع من يفترض أن يكون هناك من الفرنسيين .

كانت العيون قد أكدت منذ أيام أن الفرنسيين الذين تمركزوا في الظهرة منذ فترة ، نقلوا إليها مدفعاً أو مدفعين . وقد جربت منذ أيام مجموعة أخرى أن تنظف الظهرة ، فأخفقت وانسحبت شرقاً ، إلى البودي ، دون أن تنفي أو تجزم بوجود المدفع .

بعيد المغيب شرع المطر يهطل رويداً . ومالبثت الغيوم أن أعشت عيني عزيز ومن معه ، فيما هدأت الريح قليلاً . ولما تقدمت المجموعة إلى قمة الظهرة ، كانت الريح قد سكنت ، والغيوم قد تبددت ، بيد أن المطر راح يدفق دفقاً .

جاءت المباغتة قاضية ، إذْ لم تكد رصاصة فرنسية تنطلق ، حتى كانت المجموعة قد أطبقت على الجنود المتكأكئين حول المدفع ، سوى واحد منهم يرابط غير بعيد ، إلى اليسار ، ظل عزيز يشاغله ، حتى دوت صرخته ، وأخرست بندقية عزيز ، ولكنها كانت صرخة الموت .

اندفع عزيز أمام المجموعة شرقاً ، كأنه هو الذي يقودهم ، لا ذلك العجوز الذي يتباهى برتبة الشاويش التي ودع بها الأتراك ، ولم يكن في المجموعة من سلك الدرب إلى البودي من قبل ، كما لم يكن ثمة بصيص ، لافي السماء ولافي الأرض ، وقد عادت الريح أقوى ، وخف المطر .

لم يدرك أحد أن العجوز مصاب ، حتى كانوا قد انزلقوا من جانب الظهرة الشرقي ، فغلّ المجموعة كتفه الذي ينزّ دماً ، والريح التي باتت تتقاذفهم ، والمطر الذي عاد يدفق دفقاً ، وظلت البودي تنأى حتى الفجر .

تفرقت المجموعة في عدد من البيوت ، وقد أصرّ عزيز على أن يكون مع الشاويش الذي نقل إلى البيت الأخير في القرية ، حيث قدر الفلاحون أن توفّر له عناية أفضل ، فضلاً عن دعاء الشيخ ، صاحب البيت ، وحيث ينزل بعض الثوار أيضاً . وفيهم جريحان .

أوقف الشيخ النزيف ببراعة ، وشفتاه لاتهدأان ، فيما لم تلتقط أذنا عزيز منه سوى أسماء بعض الأنبياء ، وكان الشاويش غارقاً في الغيبوبة .

أمر الشيخ عزيزاً بالنوم ، مشيراً إلى العرزال ، في يسار البيت الطيني الذي انتشرت في أنحائه الصحون الفخارية والنحاسية ، ومبرراً عمن يستضيف أيضاً في البيت الملاصق ، ولكن عزيز لم يكن قادراً بعد على السماع ولا على الحراك .

كان السقف يدلف بين ذراع وذراع ، سوى جهة العرزال الذي أخلته زوجة الشيخ وأبناؤه ، منذ طرق الباب الفلاح الذي قاد عزيزاً والشاويش الجريح إلى بيت الهادي . كانت رائحة روث البقر والحمار تفوح تحت العرزال ، قوية وساخنة ، فبرم عزيز رأسه على الوسادة القشية الصلبة ، وكور ساقيه في حضنه ، كما كان يفعل في قبية ، وتنفّس عميقاً ، كأن أباه قد أفاق مبكراً ، قبل طلوع الشمس ، وشرع يصلي .

حين صحا عزيز عصراً ، كان السقف قد أخذ يدلف فوق العرزال أيضاً ، وبدا أن المطر الدافق لم ينقطع ، وكان عدد من الرجال ، يتوسطهم الشيخ ، يتحلقون حول الجمر ، مدارين السقف .

أسرع عزيز يحيّي ويتساءل عن الشاويش ، فأشار الشيخ إلى البيت الملاصق ، ونهض أحد الرجال متهدجاً يوحد الله ، ويفرش ذراعيه لعزيز الذي ارتد منبهتاً ، ثم أقبل عاجزاً عن النطق ، وقد احتواه حمادي الحسون .

بارك الشيخ لقاء الصديقين ، وعدّ ذلك شارة خير ، وهلل الرجال ، فيما كان عزيز يهمس :

ـ جبل وجبل لايلتقيان . . ابن آدم وابن آدم يلتقيان . سبحان الله ! الله يذكرك بالخير ياعم حاتم .

وضعت ابنة الشيخ الصبية طبق القش المزخرف قرب عزيز ، وقد أنساه الذهول الجوع . كان يفكر في أنه قد قصّر حين راح يسعى خلف ياسين الحلو واسماعيل معلا وراغب الناصح ، ثم توقف قبل أن يكمل ماعتزمه من جمع شملهم على نحوٍ ما ، بعد أن ولت الحرب ، وعاد كل إلى داره . كان يتكلم ، والشيخ يحثه على الطعام ، وحمادي يلاحقه متقافزاً بين ماينثر وبين لهفته إلى ياسين واسماعيل وفياض وراغب والملازم تحسين . بيد أن النزر الذي رمى له عزيز يكدر ، فكل في أرض ، وكل في ضيق . وكانت لدى حمادي مفاجأته هو الآخر ، إذ التقى بياسين وزوجته وابنه في الجسر . وإذْ رددت أذنا عزيز ماقال حمادي ، توقف عن الطعام ، على الرغم من إلحاح الشيخ والآخرين ، أشبعه تهجير ياسين وأسرته من الزنبقلي ، كما أتخمته من بعد ذكريات الحرب والفرار والجوع التي انثالت على لسان حمادي وألسنة الآخرين ، وهو صامت ، وكان وقع المطر الصاخب قد أخذ يهدأ ، وعتمة المساء المبكر تنقشع .

★★★

كان حمادي من قاد المجموعة التي سبقت إلى الظهرة منذ أيام ، فأخفقت وانسحبت شرقاً إلى البودي ، وراحت تهيىء لهجوم جديد مع من في القرية من الثوار ، لكن الجريحين في مجموعة حمادي لم يقويا على السير بالأمس ، حين كان عزيز ومن معه يتسللون نحو الظهرة . ولعل ذلك ماجعل حمادي يكرر أول لقائه بعزيز :

ـ هذه أول مرة تسبقني فيها . لاتشف حالك عليّ .

كان عزيز قد أخذ يتململ ، فهو في شوق لأن ينفرد بحمادي ، وقد أفسح له المساء ذلك ، حين أرسل الشيخ نظرة عبر الباب ، وحمد الله على أن السماء قد أخذت تصحو ، ثم دعا الرجال إلى الصلاة ، فإذا بحمادي ينهض ويغمز عزيزاً .

ماكادا يتجاوزان الباب حتى همس حمادي :
- مازلت لاتصلّي ياابن اللباد ؟
تبسّم عزيز ، واحتارت كلماته ، وهو يتذكر ليالي الحرب والصحراء ، وإذا بصوت الشيخ يلاحقهما :
- ماذا ياحمادي ؟ أليس صاحبك منا ؟
- منا وليس منا . .
أجاب حمادي مدارياً ، وكان عزيز يتأمل جذع التوتة القريب ، والفأس المركوزة فيه .
- كيف ؟ رجل ملء ثيابه ، معقول أن يتركه أبوه بلا دين !؟
تساءل الشيخ ، فرد حمادي مرتبكاً :
- العسكرية أخذته صغيراً .
- تكون تريد أن تبقى جاهلاً ياعزيز ؟
سأل الشيخ ، فأجفل عزيز ، وفطن إلى أنه لم يفكر في ذلك من قبل . همس حمادي متشفياً :
- كم قلت لك : ستموت كافراً ؟ تحمّل .
عاد الشيخ يسأل :
- وصاحبك الشاويش من أي ديرة ؟
أسرع حمادي :
هل يصلّي صاحبك أم هو مثلك ؟
قال عزيز متضايقاً :
- الهمّ الآن في جرحه ، لا في صلاته .
أمر الشيخ بجفاء :
- تعال أنت ياحمادي .
همس حمادي مشفقاً :
- لاتزعل . لن تطول غيبتنا . شف صاحبك ، أو تسلّ هنا .

كانت زوجة الشيخ وابنته الصبية مقرفصتين أمام الموقد الحجري . عدلت العجوز طربوشها القصير ، وسوّت المنديل الأصفر الذي يلفه ، ورمت عزيز بنظرة احتقار ، أما الصبيّة فراحت تنفخ في النار . تذكر عزيز المناديل الحريرية التي كانت أمه تحوكها ببراعة

تحسدها عليه نساء قبية جميعاً . التفت عن الموقد ، فارتطمت قدمه بجذع التوتة . نتر الفأس ، وراح يهوي على الجذع الرطب ، ويرمي بما يقتطع وراءه ، حتى أوشك أن يأتي عليه ، قبل أن يداهمه صوت الشيخ :

ـ من يفتّت هذا الجذع رجل ، ومن يضرب الفرنسيين أمس بالظهرة رجل ، ومن خيرة الرجال ، ولكن الرجولة لاتكمل إلا بالدين .

توقف عزيز لاهثاً ، فإذا بصوت حمادي يتسلل متخابثاً :

ـ لماذا يقولون إذن للعازب يوم يتزوج : أكمل نصف دينه ؟

قال الشيخ ضاحكاً :

ـ وصاحبك ياحمادي لادين ولازواج والله أعلم . أنت عازب أيضاً ياعزيز ؟ تعال ياابني ادخل . لاتتضايق مني .

لم يكن عزيز قادراً إثر ذلك على أن يشارك في العشاء أو اللغط . بيد أن حضور العرق خفف عنه قليلاً ، وإنْ كان عزوف الشيخ وحمادي وبعض الساهرين عن الشرب قد أحرجه ، وهو يرشف الكأس الأول .

مع الكأس الثاني كان الضيق قد زايله ، وأقبل يصغي بشوق واهتمام لحمادي وهو يقول :

ـ كنا نشتغل على الطريق ، والأرض صعبة ، والأحراش قاتلة ، وكدنا نموت بين الثوار وبين الفرنسيين هناك .

والتفت إلى عزيز :

ـ تلك الأيام جمعتني بياسين الحلو كما قلت لك .

ثم عاد يحدث الآخرين :

ـ الفضل لله وللثوار ياجماعة الخير . فتحوا بصرنا على الثورة . أنا واحد من الناس ، كانت عيني مغمضة عن الفرنسيين والثوار ، بعد مامرمرتني الدنيا ، وشفت في الحرب ماشفت .

والتفت إلى عزيز باسماً وحانياً :

ـ ماكنا اجتمعنا والله أعلم لولا ذلك .

فيما كان رجل من القرية يقول :

ـ ثوار تلك الجهات أبطال . الواحد من رجال الجسر والحفة وكل تلك الديرة بعشرين .

استحسن عزيز قول الرجل ، فرفع كأسه بصمت ، وغبّ جرعة كبيرة ، كأ: يحيّي . وخيل إليه أن الطنين يعلو في أذنه ، ففكر في أن أحداً يذكره الآن في ركن ما من الأرض الواسعة ، إلا أن صوت الشيخ ترجع في الطنين ، مثلما كان يسأل حمادي قبل قليل ، عما إذا كان عزيز اللباد منا ، وتسلل صوت حمادي في الطنين الذي يقوى ، معاتباً ، تائهاً بين الكذب والصدق ، فعزيز منا وليس منا ، وطغا صوت الرجل الذي يمتدح الثوار ، تداخل بصوت المرأة الأولى التي دفعت في القلعة بعزيز إلى الثوار . وتداخل صوت المرأة بأصوات جمة لمن التقى ، من شاطىء البحر ، مقابل قصر عبود بك الرشدة ، حتى هذا البيت الطيني الفسيح الذي لم يعد يدلف . ونهق الحمار تحت العرزال ، فلعن الشيخ روحه الكافرة ، ورأى عزيز نفسه يقول :

ـ الثورة جمعت الناس من كل ناحية ومن كل دين . مثل الحرب . تذكر ياحمادي كيف كنا ، قلب واحد ويد واحدة ، وفينا ابن العال وابن الزنبقلي والحلبي والمسلم والمسيحي والسني والعلوي والغريب والقريب .

وتوجه الى الشيخ مستفزّاً :

ـ ماكان فيه واحد منا وواحد ليس منا .

تراجع الشيخ ، وحيرت نبرة عزيز الساهرين . قال حمادي مهوناً :

ـ الشيخ لم يقصد هذا . اشرب كأسك .

قال الشيخ :

ـ كلامك صحيح ياعزيز . أنت لاتنسى ، هاه ؟ وماقلته أيضاً أنا صحيح . كل انسان له قومه ، كل انسان له عشيرته وطائفته وملّته .

قال عزيز وقد توهجت وجنتاه بالعرق :

ـ أعرف . ولكن ماالنفع ؟ يجوز أن يكون ابن دينك أو عشيرتك أو طائفتك أقسى عليك من الغريب . اسألني أنا . فرنسا نفسها كيف تلعب ياقوم ؟ عملت دولة للعلويين ؟ ودولة للدروز ؟ ودولة . .

قاطعه الشيخ قائلاً :

ـ الفرنسي فرنسي والتركي تركي قبله ، وليس فينا من تلعب على ذقنه دولة هنا ودولة هنا . بلدنا واحد من يوم يومه ، ولا أحد يقسمه غير الذي خلقه . ماقلنا غير هذا ياعزيز . ولكن الله سبحانه وتعالى أنعم على الانسان بالدين . أنت هكذا ضائع . لاتتضايق مني . أنا مثل أبوك . ابن آدم يتبع دين آبائه وأجداده ، ونحن علينا أن نصون

الأمانة . الدين أمانة . كل واحد يصون أمانته . ونحن خاصة ، قليل ماذقنا من المرّ ؟ ماالذي حشرنا في هذا الجبل ؟

قال عزيز :

ـ الذي حشر كل الناس . الفقر ، الظلم ، الأتراك ، مئة سبب وسبب .

قال حمادي متضايقاً مما بدا له من مماحكة عزيز :

ـ كل هذا لأن الشيخ قال لك كلمة ياعزيز ؟ لاتكبر المسألة . أنت حرّ ياأخي . اترك طائفتك وعشيرتك وقومك . اترك دين أجدادك إذا كان هذا يرضيك ، ولاق دين غيره ، عشيرة ثانية ، طائفة ثانية . خلّك ياسيدي ، لامعلق ولامطلق ، وأنت الخاسر . غيرك سبقك ، وماأكثر من كان على دين المسيح وصار على دين محمد ، وهذه هي فرنسا ، ماذا تفعل في الجبل ؟ من قبية حتى هنا . بل من الجسر ، قل من جبل الحلو ، حتى هنا : أما سمعت أو رأيت بعينك ؟

قال الشيخ :

ـ مليح لم يقع عزيز بين يدي مبشّر .

تراجع عزيز مستاءاً من جفاء حمادي وهزء الشيخ وماقدر من ميل الآخرين إليهما . أقبل على كأسه عازفاً عما استغرقهم ، مؤكداً لنفسه أنه ليس كافراً ، وهذا يكفيه الآن ، مادامت الدنيا لاتفسح له . وماكان قادراً على أن ينتسب إلى أحد ، مادام قد تضافر عليه ابن الدباس وبشاره وعبود بك الرشدة والأتراك والملك وفرنسا ، وفيهم المسيحي والمسلم ، العلوي والسنّي ، المؤمن والكافر ، ومادام قد آخى في السرّاء والضراء حمادي نفسه ، كما العم حاتم ، وفياض العقدة مثل هولو التكلي ، وعبد الودود السعد مثل ياسين الحلو واسماعيل معلّا ، وفيهم مثل غيرهم من كل نسب ، وفكر ـ ربما للمرة الأولى في حياته ـ أن هذا النسب الذي يتحدث عنه حمادي والشيخ ليس مايجمع الناس ، ومايفرقهم ، أو ليس وحده على الأقل يجمع ويفرق . ثم فكر بأن مثل هذا النسب لاينبغي أن يكون من يفعل ذلك ، فالقريب قريب حقاً والغريب غريب ، وفيه من هو منا وفيه من ليس منا ، ولكن القريب ليس الظالم ، بل المظلوم ، والغريب ليس المظلوم بل الظالم . القريب من يريد لك الخير ويناصفه بينك وبينه ، والغريب من لايقول غير : اللهم إني اسألك نفسي ، وجهنم للبشر . هذا ليس منا ـ كان يهتف في أعماقه ـ ولو كان أبو عزيز اللباد نفسه .

ولعله كان أقدر الآن على أن يعود إلى الآخرين ، يحدثهم بما دار في خلده ، لولا أن انفجاراً هائلاً قد شق الليل ، فصمت الجميع وتلفتوا ، وإذا بانفجار ثان ، فثالث ، فهبوا واقفين ، واندفعوا خارج البيت ، وكانت السماء صافية ، تضيئها الشهب المنطلقة من الظهرة ، لترتمي في أنحاء البودي .

★★★

من الوادي القريب تعالت الأصوات وألسنة النار تتراقص . صارت الشهب كرات ملتهبة صغيرة تتلاحق بين الظهرة والبودي ، وكان عزيز يدقق فيها مهمهماً :

ـ انه المدفع اللعين . ماذا فعلنا إذن ؟

قال حمادي الحسون :

ـ أخشى أنهم يستعدون للهجوم علينا .

قال عزيز :

ـ اجمع من معك ، وأنا سأجمع من معي ، لقاؤنا أسفل القرية .

قال حمادي :

ـ وثوار القرية ؟

قال عزيز :

ـ أنت أدرى مني . .

وقبل أن ينقسم الرجال بينهما ـ ومع كل مجموعة عدد من ثوار القرية ـ سقطت قنبلة على سطح بيت الشيخ ، وجاء صوت الشاويش الجريح أشبه بالعواء . فقفزوا جميعاً فوق الدباقة ، وتناثروا في الحاكورة ، فيما شبت النار داخل البيتين . ماءت ابنة الشيخ وأمها ، وتدافع صغار لم يظهروا من قبل ، وصاح الشيخ :

ـ اخرجوا البهائم ياأولاد . تعالوا هنا تعالوا .

صاح حمادي بمجموعته :

ـ هيا الحقوا بي .

وأمر الشيخ أن يتفقد الشاويش وهو يعدو نحو أسفل القرية .

كانت النساء والأطفال أمام عدد من الرجال يتدافعون صاخبين شمالاً ، نحو الحرش الذي يغطي جانبي الوادي ، ويعج بالمغائر والضباع والجقلان ، فيما كانت أعداد

حرى من الشبان خاصة تتدافع إلى أسفل القرية ، منهم من يحمل عصاً ، أو فأساً أو منجلاً ، ومنهم من يحمل بندقية .

انتشرت مجموعة حمادي الحسون على السفوح الجنوبية ، ومجموعة عزيز اللباد على السفوح الشمالية ، وخلفهما على امتداد الانكسارات الحادة للحواكير تعربش الرجال مثل السنديان والخرنوب والزيتون . وطلعت الشمس قبل أن ينتظم ذلك ، ويلوح الخيالة الفرنسيون قريبين ، يتزاحمون في المسالك الضيقة الوعرة الصاعدة ، وينوؤون تحت ايحملون .

من السفوح الجنوبية انطلق الرصاص ، ولم يلبث الجميع أن أخذوا يطلقون ، وقد ضاع صراخ عزيز أمراً بالانتظار . تفرق الفرنسيون سريعاً ، وغيبت أكثرهم الدباقات والأشجار ، ولكن رصاصهم انصب غزيراً ، وشوهد أكثر من حصان يجمح أو يعدو وحيداً ، أو يرفع قائمتيه ويصهل ثم يهوي . وبين المدافعين تلاحقت صرخات الموت .

خلخل صفوف المدافعين اقتراب الفرنسيين من السفوح الجنوبية والوسط . التحم عديدون بالمهاجمين ، وأخذ الرصاص يتراجع ، فيما كانت مجموعة حمادي تنحدر جنوباً ، ،عدد ممن مع عزيز يخلون مواقعهم ، ويقتربون من أسفل الوادي .

تناهبت عزيز الفرحة بالضربة الموجعة التي قدر أن الفرنسيين نالوها ، والخشية من ن يكونوا قد تسللوا من قبل ، أو شرعوا يتسللون الآن ، إلى أعلى ، فيباغتون بالتالي من لخلف . ولعل ذلك لم يطل بعزيز قبل أن يعود القتال أشد ، وبات جلياً أن الفرنسيين قد حكموا السيطرة ، فأمر من معه أن يعجلوا بالانحدار ، ليبعدوا عن مرمى الرصاص الذي انهمر أغزر .

كانت الغيوم قد تكاثفت ، والشمس تمرق بينها واهنة ، وكان عزيز يدعو الله أن عجل بالمطر ، عسى أن يساعد على إطفاء النيران التي تتعالى في القرية . ومن جلسته نحت خرنوبة عجوز ، أخذ يتفقد الرجال ، فإذا بواحد يجرّ ساقه وراءه ، وإذا بواحد معلق على الدباقة القصية المقابلة بلا بندقية ، وخيل لعزيز أن الرجل لايرين ، سوى أن الهواء يعبث بشعره . وبما أن الشاويش قد بقي في بيت الشيخ ، فقد نقصت المجموعة ثلاثة إذن ، ومجموعة حمادي اختفت عن العين ، كذلك ثوار القرية ، فيما تلامح عدد من الخيالة الفرنسيين هابطين من بعيد ، من فوق ، يلاقون عدداً أقلّ ، يعاند في الصعود .

زحف عزيز نحو الجريح ، وحمل معه ساقه إلى الوهدة التي تظللها الخرنوبة من اليمين ، ولحق بهما قبيل الظهر أو بعده أربعة . وكان وجع الجريح يلجم ألسنتهم أو يدور

برؤوسهم . ولعل ذلك قد امتد بهم حتى العصر قبل أن ينفلت صوت عزيز ، يأمر اثنين بحمل الجريح إلى كتف الوادي المحاذي للظهرة ، حيث البيوت الثلاثة أو الأربعة التي آوتهم قبل أن ينطلقوا إلى الظهرة ، أما هو ومن سيبقى معه ، فقد قرر أن ينتظروا المساء ، ويروا مايمكنهم أن يفعلوا ، وقال وهو يمد ذراعه إلى أقصى الشمال الغربي من سلسلة الهضاب ، حيث يفترض أن تكون بعض مراكز الثوار :

ـ في الصباح نلتحق بكم بإذن الله ونتابع . إذا كان الواحد منا هنا لم يعد ينفع ، فيمكن أن ينفع هناك .

★★★

منذ ذلك اليوم لم يكد عزيز يلتقط أنفاسه ، حتى رمى البارودة ، وانطلق صوب تركيا . من البودي انتقل والرجلين اللذين تبقيا من مجموعته ، بين قرية وقرية ، ومن مجموعة أخرى الى مجموعة ثالثة ، والضغط الفرنسي يتفاقم ، ويطبق على الثوار ، معركة بعد معركة .

كان يتردد حوله أن مصطفى كمال قد اتفق مع الفرنسيين ، وأن الطائرات التي تحوم فوق الجبل وترمي بالمناشير قد قالت محذرة ومنذرة : انتبهوا أيها العلويون لصالحكم . وقد أخذ بعض الثوار يعودون إلى بيوتهم ، بل إن الخيار بات للجميع : من يريد أن ينسحب فلينسحب .

كان الصيف يقترب ، وقد أنكر عزيز أنه لم ير في أية من القرى التي تقاذفته سنبلة واحدة ، أو شتلة دخان واحدة . فمالم تدمره الطائرات دمرته المدافع . ومانجا من هذه وتلك أحرقه الخيالة . وتراءى له الجبل كله مثل مرجمين ، حين التقى في خرائبها بنجوم الصوان ، فأيقن أنها النهاية ، ولئن لم تكن في هذه المعركة ، ففي التي ستلي . إنْ لم يكن في هذا الوادي ، فعلى تلك الذروة . وللمرة الأولى بدا له أنه يذوق طعم الهزيمة . لقد فرّ في أكثر من موقعة بين الأتراك والانكليز ، ومن مرجمين فرّ ، من سهل عكار فرّ ، ولعله غادر قبية والتلّة وصافيتا كلها فارّاً ذات يوم . لقد انهزم من قبل أمام كثيرين ، لكن هذه الهزيمة وحدها لها هذه المرارة . ربما كان الأمر من قبل نجاة ، بل نصراً وإنْ اشتبه بالهزيمة . كان إقداماً وإنْ اشتبه بالفرار ، أما ماهو فيه الآن ، فأمر جديد .

انتظر طويلاً أن يريحه مما به الأمر بانسحاب ، أو بالهزيمة . إلا أن أحداً لم يفعل ، مى أخيراً ببندقيته تحت جذع البلوطة التي أحرقتها قذيفة فرنسية ، فوق واحد من زارات الكثيرة المطلة على البحر ، وترك عينيه تتأرجحان ، ماشاءتا ، صوب قبية ، وهو ع الحسرة . فلو انتصر ، لكان قادراً على أن يعود ، لكن الفرنسيين لم يهزموه فقط ، عينوا ابن الدباس في المجلس الذي يحكم دولة العلويين منذ أسسوها . وليس لعينيه إذنْ إلا أن تلويا ، بعيداً عن هذه البلاد . ولئن كان مصطفى كمال قد اتفق مع الفرنسيين ، فهم ليسوا هناك على كل حال ، ولا ابن الدباس ، ولا عبود بك . وماعاد الأتراك كما يقول الجميع مثلما كانوا ، فمصطفى كمال لاأحد يشبهه بالسلطان ، والكماليون ليسوا مثل من عرف هو وسواه من الأتراك .

فلتنم هذه البندقية ـ فكرّ وهو يغادرها ـ هنا ، ولتعجل الساقان الكليلتان إلى تلك الأرض القصية .

★★★

ومثلما فعل حين فرّ من قصر عبود بك الرشدة ، راح يتحاشى الشريط الساحلي ، تقط أصداء الثورة المهزومة والكماليين المنتصرين . حتى اللاذقية دار حولها ، وأضاع يومين قبل أن تهدأ نفسه ، ويتأكد من أنه يسير على طريق كسب .

كانت المسالك كلما تقدم تزداد وعورةً وصعوداً ، فلا تكاد تخلو ثنية من شجرة ، وفوق رأسه تتقافز أصناف غريبة من الطيور والحيوانات الصغيرة . بين قدميه أيضاً تتقافز أصناف أخرى مما لم يعرف من قبل في أي مكان . وكانت قطع الأرض المستصلحة تتناثر متباعدة ، صغيرة ، مثل بقع شوهاء في الغطاء الحرجي السابغ والكتيم . حتى الأشجار التي يبدو أن الفلاحين قد غرسوها فيما استصلحوا ، كانت تبدو نشازاً .

ماعادت شمس الظهيرة حارة مثلما كانت منذ يومين أو أربعة . وعلى الرغم من التعب الذي خلف المشي في ساقيه أياماً متتالية ، رأى نفسه أوفر عافية ، أشبه باليوم الذي آب فيه إلى قبية بعد الحرب .

قرب بللوران أغواه الماء المنساب بأناة ، صافياً مثل ينابيع قبية ، يتلوى حول الأشجار وخاصرة التلة ، ويغري بنزع النعلين المهترئين ، وأن تهجع القدمان المنهكتان فيه ، زمناً ، ثم تعبث بالحصى الناعمة النقية .

خلع قميصه ، وهو يتلصّص حواليه ، ثم خلع سرواله ، واستلقى رويداً في الماء الرقيق ، يعبث مثلما كان يفعل وهو صغير . اختار حصاة تملأ كفه ، خشنة ، يحكّ جلده بها ، مزيلاً الفتائل السود الغليظة الغزيرة التي كرجت على الجلد ، وتعجب من أن الدود لم يأكله ، مادام على هذا القدر من القذارة .

ارتدى السروال متمهلاً ، وقلب ثيابه الأخرى متقززاً . رمى الثياب في الماء واندفع يدعكها بقدميه جذلان ، ثم نشرها على الأغصان المظللة للماء ، وقرفص على حافة المجرى ، يضن بظهره النظيف أن يستلقي على التراب المغطى بالأوراق المؤبرة . إلا أن الخدر غلبه ، فتمدد وأغفى قريراً . ولما فتح عينيه كانت العتمة تنفرش فوق المكان ، وبطنه يتضوّر . نفض الأوراق عن ظهره وجنبه ، وارتدى ثيابه على عجل ، وهو يخشى أن يداهمه الظلام قبل أن يصادف مأوى لهذه الليلة . عاد إلى الطريق عدواً ، فإذا بالشمس تمرق من فرجة واسعة بين الشجرة ، فالوقت لازال عصراً هنا ، وإنْ كان المساء قد حلّ عند مجرى الماء . ترامى إليه صوتٍ رقيق يشكو :

ـ قصر عمري والله يابني .

أنصت متشككاً فإذا بالصوت أقرب وأوجع :

ـ عشرين سنة وأنا أشقى أكثر من هذه الدابة .

تلفت نحو مصدر الصوت متيقناً من أن هذا الصوت هو صوتها ، وإنْ يكن قد تقادم . لنجوم الصوان وحدها مثل هذه البحّة ، بل هذه الغنة ، بل هذا الوجع ، فما الذي أتى بها من حمص إلى هذه الأدغال ؟! من أين لها بابن وبعشرين سنة من الشقاء ، وهي التي قد لاتكون بلغت العشرين بعد ، ولم تتزوج ؟!

عاد الصوت ينشج :

ـ متى أرتاح يارب ؟

لكنه بدا لعزيز يبتعد ، وإذا بصوت فتيّ يأتي من الثنية المقابلة :

ـ الله كريم ياأمي . مابعد الشدّة إلا الفرج .

فوجىء الشاب وأمه والدابة بعزيز ، مثلما فوجىء بهم . ألقى الشاب التحية قبل أن يحاذوه . حيّتْ الأم ، وهزت الدابة أذنيها . وتمتم عزيز يرد التحية ويفرك جفنيه ، فتلك نجوم الصوان على الرغم من غضون جبينها و السمنة التي لم تكن . كانت الدابة تتوسط الأم والشاب وقد أوشك الثلاثة أن يتجاوزوه ، حين خاطب الشاب :

ـ دلّني ياابن الحلال على مكان قريب يأوي إليه المسافر .

توقف الشاب ، وتباطأت الأم والدابة وهما ترمقان عزيز الذي أردف :

ـ عابر سبيل مهاجر من هذه البلاد إلى تركيا يابن الحلال .

استرق الشاب نظرة من أمه ثم اندفع يرحب بعزيز ، ويدعوه إلى مرافقته . كررت الأم دعوة ابنها ، وهزت الدابة أذنيها . لحق بالشاب ، وتجاوز الدابة ، وهو يزداد بلبلة ، فهذه المرأة ليست نجوم الصوان ، ولابد أن أمراً قد جرى لنجوم ، أو يجري الآن ، مادامت لم تخطر له على بال ، منذ زمن بعيد ، إلا هذه اللحظة . ولعل ذلك ماجعله يلجأ إلى الصمت ، مثل الأم ومثل الدابة ، فيما كان لسان الشاب لايكاد يهدأ .

★★★

11

نجاح ياسين الحلو في خدمة الأمير دشاش كان يسعد هنداً ، ويرفع من مكانتها ، بين اللائي يعملن في المضارب . غير أن الإمساك بياسين كان يزداد عسراً على هند ، خاصة بعد أن توفي غنيم الضرس فجأة ، دون مرض أو أذى ، وبدا أن ياسين أخذ يقوم بما كان يقوم به المرحوم ، فضلاً عن المهمات الأخرى التي تتواتر ، ولايحدث ياسين عنها هنداً ، إلا أن يقول : سأغيب يومين أو ثلاثة ، أوصيت فلاناً أو علاناً بأهلك ، ادعي لي . . وعلى الرغم من أن هنداً كانت تجهر باعتزازها به أمام الأخريات ، إلا أن الغصة في غيابه خاصة كانت تكبر ، وهي تراه يملص منها .

خطوة ياسين الأولى في خدمة الأمير ، بعيداً عن غنيم الضرس ، كانت خروجه ، من عين آدم إلى شرقي مسكنة ، باثنين من الفرنسيين واثنين من العبيد ، أحدهما يلغو بالفرنسية ، فيطلق قهقهات الفرنسيين اللذين يلغو أحدهما بالعربية ، فتصطخب في سر العبدين وياسين القهقهة . وكانت المرة الثانية التي يقطع فيها نهر الفرات .

كان الفرنسيون يزيلون آخر ماتبقى من آثار محاولتهم في الملاحة على النهر ، وكان على ياسين أن يشرّق معهم في أول مرة قطع فيها النهر ، ويبلغ سورية من طرفها الآخر ، كما تباهى أمام هند . بيد أن غنيم الضرس هو الذي دبر له ذلك ، ويبدو أن الفرنسيين قد أثنوا عليه من بعد في حضرة الأمير ، مما عجل بالخطوة التالية المستقلّة ، وألفت إليه عيوناً كثيرة ، من العبيد ومن الشيوخ وسواهم ، وربما من النساء أيضاً ، حتى الشيخات ، إذ صارت هند تُسأل أحياناً عن زوجها ، داخل المضارب وخارجها أيضاً .

حين جمعه غنيم الضرس بالفرنسيين ساء ذلك هنداً ، لكن ماساءها أكثر أن الأمير نفسه يستقبل الفرنسيين في مضافته . كانت تحاذر فيها تقول ، دون الحاجة إلى اشارات ياسين الذي تعالم عليها أيضاً بطبيب الأمير ، ومرافقيه ، فتساءلت غضبى :

ـ يحرقون الأخضر واليابس هناك ويتصدرون المضافة هنا ؟ طيب وإذا سمع الثوار ؟

سعى إلى أن يهون عليها ، فقال :

ـ الثوار بدأوا يرمون سلاحهم ياهند . في اسكندرون استسلم قائدهم وعدد كبير منهم ، والباقون على الطريق . والأتراك قلت لك من آخر سفرة لي إلى هناك مع المرحوم . بعيني رأيت ، اتفقوا مع الفرنسيين . والسفرة كانت أهون ألف مرة من أختها السابقة . أنت ماأدراك ؟ يجوز أن الأمير دشاش وضع يده في يد الفرنسيين حتى يحمي العشائر والفلاحين .

ولم يشأ أن يحدثها عما بات يعلم من العهد القديم بين الفرنسيين والأمير ، فهذا مايخصّه هو ، ولاشأن لها به ، كما علمه غنيم الضرس .

خروجه مع الفرنسيين مابين عين آدم شمالاً والفرات جنوباً ، ثم خروجه معهم على مجرى النهر شرقاً ، جعله يشفق على هند ، وعلى من كان يردد حوله أخبار الثوار زمن الزنبقلي . قال لها مرة : الفرنسيون أقوياء ياهند . الفرنسيون أقوى مما تقدرين ومما أقدر . أقوى مما يظن الثوار . وافهمي ياهند : الفرنسيون في كل مارأيت هنا ماأذوا نملة . بل أفادوا عشرات وعشرات في طول هذه المنطقة وعرضها .

وفي مرة أخرى جرؤ على أن يذهب أبعد ، فخاطبها ، ولعله كان يخاطب نفسه :

ـ كما رحل الفرنسيون بالحسنى عن كيليكيا يرحلون عن سورية . فقط لو يتفق الثوار معهم كما اتفق الأتراك ، أو كما اتفق الأمير . أما القتال فلا يعود على أحد بخير . أنت لاتعرفين الحرب ياهند . يجوز جعت فيها ، يجوز خفت ، ولكن الحرب غير الجوع وغير الخوف . الحرب معناها الموت ياهند . ماذا استفاد الأتراك من الحرب ؟ قولي لي : ضاع سلطانهم وطارت الدنيا من يدهم ؟ ماذا استفاد ملكنا من الحرب ؟ مرة وصل بها إلى العرش ومرة طار العرش ... سمعت لك أنه يسنّ أسنانه على عرش العراق . يجوز فهم النصيحة ، وعساه يلبد هذه المرة حتى لايطير العرش ثاني مرة وآخر مرة ، والله أعلم . سمعت لك أن سلطان مكة نفسه قد طار ، ومن بعده طار ابنه ، وتقولين لي الحرب ؟ وبعد كل هذا اسأليني أنا . بعيني رأيت وبأذني سمعت ودمي على كفي . الفرنسيون ياهند غير الأتراك ، كما كان الانكليز غير الأتراك . وليس هذا فقط . الفرنسيون غير الألمان ، مثلهم مثل الانكليز .

كانت هند تزورّ عنه ، فلا يبالي ، ولعله كان يحدث نفسه بذلك أيضاً بعيداً عنها ، وهو يستلقي في الخيمة التي خصّه والعبدين بها الفرنسيان في مسكنة ، وقد أحسّ أنه لم

يعد ضعيفاً ، ولا غراً ، فمادام غنيم الضرس قد توفي ، ومادام سن الأمير قد ضحك له ، فهو لم يعد يخشى أحداً ، سوى الأمير نفسه . ولعل هذه الخشية أيضاً ستغادره ، كما كان يأمل ، حين يحل لغز الأمير ، ويتيقن من حقيقة مابات يحفظ عنه ، فيعرف كيف يفتك مثلاً بخصومه ؟ كيف يقاتل ؟ لماذا يقاتل ؟ ماهي حربه ؟ وماذا يعني السلاح كله في المضارب ؟ ماذا يعني هؤلاء المسلحون ؟ من منهم تحسين شداد ومن منهم فياض العقدة ؟ من يكون منهم ياسين الحلو ومن يكون حمادي الحسون أو عزيز اللباد أو اسماعيل معلا أو راغب الناصح ؟ ماذا يساوي هنا رستم آغا وزلمه المسلحون ؟

على وقع الفرات ، لصق الخيمة ، أمعن في ذلك ، والعبدان هاجعان ، والفرنسيان هاجعان ، فتراءى له أنه في مخيم من مخيمات ذلك الجيش الميمم نحو الشمال : صحراء مبهمة مثل هذا النهر ، مغوية ومفزعة مثل هذا النهر ، وجمع من البدو ، على رأسهم باشا من العراق اسمه نوري السعيد ، وليس الأمير دشاش ولا ياسين الحلو ولا الجنرال الانكليزي ولا الأمير الحجازي . وحول الباشا ضباط وعساكر ممن سبقوا ياسين الحلو إلى الفرار . حول الخيمتين أو المخيم مئات أكثر هزالاً وبؤساً ، وأقل شدة ، مما حول مضارب الأمير دشاش . ولكن هؤلاء الأشداء لم يجربوا مثل الذي جرب ياسين الحلو . لم يعرفوا الحرب كما عرفها ، على الرغم من سوالف الغزو . وإذ اعترته الرعشة لذلك ، تكوّر مدارياً النسيم الرطب المنسرب من صفحة النهر ، يبعد الحرب أياً كانت ، عمومية مثل التي عاش أم غزوة أم ثورة . فما ذلك ، كما تمنى أن يدرك الجميع ، سوى بلوى للانسان . بل هي أكبر مابتلاه به الله . وعلى الانسان أن يتجنب البلوى ، عليه أن يعيش بأمان ، يربي أولاده ، ويسعى من أجل رزقه ، كما يفعل ياسين الحلو .

ولكن صوت النهر تسلل من شقوق الخيمة أقوى مما كان للتو ، كأنما ينكر عليه مايهجس به ، يردد في سمعه وقع نهر العاصي ، أو وقع نهر الذهب ، يلوح له بما كان ينطوي عليه ذات يوم ، سواء تجاه رستم آغا أو تجاه صادق آغا الباعا أو سواهما ، ممن ظلموه ، فتقلب يخشى أن يداهمه الغيب بمثل ذلك من جديد . وفكر في أن عليه أن يدبر لذلك جيداً ، حتى لو غضبت هند ، بل حتى لو أتى مما لايرضي نفسه ، وقد لايرضي الله ، وكانت عيناه إذ ذاك مركوزتين في ظهر العبد المقبل على العبد الآخر المقبل على خيمة الفرنسيّين .

★★★

بعد مسكنة جاءت المهمة التي كانت في شطرها الأكبر ، أو الأهم ، غير محددة . كان عليه أن يرافق سطام العبد الله الذي جاء إلى المضارب مستجيراً من شيخه ، فإذا بالجَلْد يدمي ظهره ،لأنه ـ لاريب ـ قد أغضب شيخه ، ولولا ذلك لما حكم عليه بالتهجير . وبعد الجلد أمر ياسين بإعادة سطام إلى الطفطافة ، وإصلاح مابينه وبين الشيخ سلامة . وقبل أن ينطلق أشار الأمير دشاش ، فاقترب ، فنهره الأمير ، فابتعد ، فضحك الأمير ، وصاح به :

ـ قرب أذنك . لن أقطعها . مابك ؟

تبسّم ياسين ، وضحك من حوله ، والتقطت أذناه بعض الكلمات :

ـ لاترجع بسرعة . على مهلك . انظر كيف تسير الدنيا . الشكوى من شيوخ الطفطافة تكبر ، وليس من غريب . الولدة وحدها ، من شيوخها لأبنائها ، عجيب ؟! توكل على الله .

ربما فاتت ياسين كلمات أخرى ، فتركته حائراً فيما عليه أن يفعل في الطفطافة ، بعد أن جعل سطام العبد الله يقبل يد الشيخ سلامة ، والشيخ سلامة يتأبى ، مقسماً برأس الأمير دشاش أنه لولا كرامة الأمير دشاش ، لما كان يغفر .

هذا الشطر الواضح من المهمة أنجزه ياسين ساعة وصوله . وقد أسعدته دعوة الشيخ سلامةأن ينزل في ضيافته يومين أو ثلاثة . ولكنه لم يلبث أن تساءل عن طول مقامه دون أن يشتبه أحد بغرضه ، إذْ سرعان ما رأى أن يومين أو ثلاثة لن تكفي كي يعرف مايجري في الطفطافة .

عشية وصوله دخل ثلاثة من الرجال إلى المضافة ، يجرّون فتى فارع الطول ، نحيلاً ، عاري الرأس ، وعقاله في رقبته يتدلى ، ثوبه مشقوق في الصدر وفي الظهر .

بدا الفتى أشبه بسنّور أعجزه الفخ ، ولازال يحاول الفكاك . خارج المضافة تعالى لغط نسوي ناحب . ما كاد الفتى يتجاوز العتبة حتى شب الشيخ سلامة يلطمه على خديه ، ويشتمه . صاح الفتى مستجيراً ، والتف الرجال الثلاثة حوله ، أو أمسكوا به ، فرأى ياسين نفسه ينهض متشفعاً ، ويعود بالشيخ المستثار إلى مجلسه . صاح الشيخ بالفتى :

ـ يوم منعت الحلال من الرعي في الحصاد قلنا مجنون ، وعفونا . أكرمنا أمك التي ربتك بدموع عينيها ، وقلنا : خله يعقل على مهل . رجعت تتعرض لي ياكلب ؟

ـ صل على النبي ياشيخ ، صلوا على النبي ياوجوه الخير .

بالكاد سمع نداء ياسين ، وهمهم الرجال ، واستطرد الشيخ سلامة يستغفر الله .
تساءل ياسين :
ـ العفو منك ياشيخ سلامة . نوّرني طال عمرك .

هدأ الفتى وأرخاه الرجال ، فيما جاء صوت من أقصى المضافة ، إلى اليمين :
ـ هذا الولد ياوجه الخير جنّي في ثوب بشر . مسكينة أمه ، ماذا فعلت حتى بلاها الله به ؟ والده ، رحمة الله على ترابه ، كان طيباً . عاش بيننا ، وراح ، وماسمعنا له صوت ، لكنه لم يخلف إلا هذا القرد . كل يوم وتاليه يطلع جنونه ويحكي حكاية : مرة هذا حصيدي ، ولايرعى فيه رأس ، لا للشيوخ ولا لغيرهم . مرة هذه أمي ، ولا تنقل الحطب ، لا للشيخ سلامة ولا لابن امرأة ، من الولدة . طيب إلى متى الصبر ؟ لو كان عند الأمير كان قطع رأسه أم لا ؟ اسمعني ياشيخ سلامة : لو بقي هذا الجني بيننا ، أفسد الطفطافة . أفسد العشيرة كلها ، وأنا برأت ذمتي ، فاشهدوا .

ود ياسين أن يدلي بقول ما ، فصعب عليه أن يجمع أشتاته في الصمت الذي أعقب الرجل ، حتى سبق الشيخ بصوت لايكاد يسمع ، كأنه لم يكن من يزأر لتوه :
ـ مع الفجر تهدمون له الدبدابة . الأغنام يخرج بها الأولاد . أمه تختار : إذا رغبت تبقى معنا ، مثلها مثل غيرها من القوم . أما الولد فساقه تقطعونها إذا دخل الطفطافة . سمعتم ؟ تقطعونها . خذوه إلى الدبدابة وقيدوه حتى الفجر .

لم يرفع ياسين رأسه عن البساط حتى جرّ الفتى خارجاً . ولم يقدر أن يشارك الرجال فيما راحوا يتسامرون به ، كما يفترض بموفد الأمير دشاش . تمنى لو أن الشيخ كان أكرم وأعف ، ولم يقس على الفتى . أحزنه أن الفتى متهور ، يؤذي نفسه وأمه .

وفي فراشه حاصرته خيالات أهل هند المهجرين ، أولاد الجقلة ، سفلو الكردي ، هو وهند ، أبوه على رأس سلسلة لاتنتهي ممن هجرهم رجب آغا الباعا أو ابنه صادق آغا الباعا ، سوى أن لون الظلم الذي تنضح به هذه الخيالات ماكان لياسين عهد به . لون جديد هو ، ليس فجاً ولا محدداً ، يثير الأسى والرثاء ، أقرب إلى نشدان العطف والرحمة ، دعوة إلى الصبر والطاعة ، يخلف في الحنايا فراغاً مبهماً ومزعجاً . وفي الصباح تضاعفت وطأة تلك الخيالات على ياسين ، وكان الفتى وأمه قد غادرا الطفطافة ، تاركين الدبدابة على وجه الأرض ، فوق متاعها القليل . أما الأغنام فألحقت بقطيع الشيخ سلامة

★★★

في مساء أعقب ظهيرة عاصفة بالغبار والحرّ المفاجئين ، استطاع ياسين أن يخرج وحيداً ، يتمشّى نحو الفرات . بدت الضفة اليسرى نائية ، يعجز المرء أن يصدق أن أحداً يستطيع أن يقطع النهر إليها . عبر بنصبة يجرها كسلان ثور أقرب إلى أن يكون هيكلاً ، شأن الثيران التي رآها في الطفطافة . وكان سطام العبد الله الذي صادفه ياسين مراراً في اليومين الفائتين يسوق الثور ، أكسل منه ، كأنه غير آبه بنصف السهم الذي سيكون له من جملة الموسم .

لم يكن الموسم طيباً هذا العام . وقد تردد سطام قبل أن يقسم لياسين الذي تحرش به :

- ورأسك لو كفت الحصة الأولاد حتى نهاية الشتاء لبست ركبة الشيخ سلامة .

قال ياسين بهدوء :

- فكر أنت ياسطام : هل يقدر الشيخ أن يعطيك أكثر ؟ نصف سهم من خمسة ونصف ، أجر معقول لمن يسوق الثور . وبدل الشكوى شدّ حيلك .

وتابع سيره وئيداً ، يتأمل الماء الذي يرتفع من النهر ، على الرغم من وهن وكسل سطام والثور ، ويسيل دافقاً ونقياً في الجدول النحيل الطويل ، نحو الأرض التي بات ياسين يعرف أنها أرض الشيخ هَجَر ، ابن عم الشيخ سلامة .

قريباً ، إلى اليمين ، صادف ياسين الحلو شقيق سطام ، عبد الله العبد الله ، المعروف بالجمال . بادر الجمال محيياً ، ورد ياسين متكاسلاً ، لكأن سطام والثور قد أصاباه بالعدوى . كان عبد الله قد وصل إلى الطفطافة صبيحة تهجير ذلك الفتى وأمه ، يسوق جماله الثلاثة ، بعد غيبة طويلة .

- متى تنوي أن تسافر ؟

سأل ياسين دون أن يتوقف .

- حسبما ييسّر الله .

أسرع عبد الله ، فتراخت كلمات ياسين :

- سمعت أنّ نقل الملح أجزى . أظنك جربت .

قال عبد الله :

- تعبت من السفر . أظن أني سأكتفي بالرّجاد هذا الصيف .

توقف ياسين وسأل وهو يتملى النهر :

- الرّجاد يكفي الأولاد ؟ شف حالة سطام .

أشار الجمّال إلى الأدغال التي تتراجع عن الضفة ، وقال :

ـ أنا والأولاد يمكن أن نشلع من الحرش كثيراً . يجب أن أفاتح الشيخ . القنوات تصل إلى هناك كماترى . احك لي معه كلمتين .

تبسم ياسين وهو يتلفت متابعاً القناة نحو الحرش ، وحضرته صورة القناة الحجرية التي تهدر فيها ماء العاصي ، كأنها نهر صغير ، فعرضت ابتسامته ، وخاطب عبد الله :

ـ هذه قناة ؟! حرام عليك .

وسرحت عيناه في النصبات الأخرى المتناثرة على طول الضفة ، إلى يمينه ويساره ، ترفع بالكاد جداول ناحلة من ماء الفرات ، وهمهم مستخفاً بها ، مكبراً نواعير حماة والزنبقلي على العاصي ، وتعجب من أن الناس هنا لايفعلون مثلما يفعلون في الزنبقلي وسواها على ذلك النهر ، على الرغم من أن الله أنعم عليهم بالفرات الأكبر . وانتزعه من خواطره صوت الجمّال :

ـ مارأيك ؟ الأولاد كبروا ويرغبون . سطام أيضاً يرغب ، وأنا محتار .

ـ توكل على الله . اليوم أحكي لك مع الشيخ .

قال ياسين متابعاً سيره ، متلذذاً بما يدور في نفسه بين الزنبقلي والطفطافة . فقد جعل الشيخ سلامة الفلاحين يمدون القناة ـ بل الجدول ـ التي يدور سطام حول نصبتها . والشيخ هَجَر جعل الفلاحين يمدون الجدول التالي ، كما فعل رستم آغا في الزنبقلي . إلا أن عقوبة الشيخ هنا لمن كان يتغيب عن الشغل ، تبدو مزاحاً ، لو قورنت بعقوبة رستم آغا . فماذا يعني مثلاً أن يلزم عبيد الشيوخ من يتغيب بشراء التمر لإطعام الذين لم يتغيبوا ؟

فيما بين نصبة الشيخ هجر والنصبة التالية انحرفت قدما ياسين ، فواجهه الحرش . تساءل عما ينبغي أن تسمى إذن الأحراش من الزنبقلي إلى اسكندرون ، مادام هذا الذي يواجهه يسمّى حرشاً . سوف تطلع لعبد الله العبد الله ـ فكر ياسين ـ بعض أشجار الغرب أو الطرفه الكبيرة ، وسوف يعجزه وأولاده وأخوه اقتلاعها ، فيدور حولها وهو يشلع الحرش ، أو وهو يفلح من بعد ، مااستطاع أن يكشف من التراب . بيد أن ذلك سوف يكون على كل حال نادراً ، ومحدوداً . وماهو أهم أن يعرف المرء كيف صار هذا الحرش ملكاً للشيخ سلامة أو للشيخ هجر أو لشيوخ الولدة هنا ؟ كيف لم يضع رستم آغا وغير رستم آغا إذن يده على تلك الأحراش الحقيقية ؟ ولكن ماأدرى ياسين الحلو أن تلك الأحراش ليست ملكاً لأغوات وبيكوات وآخرين مثل شيوخ الولدة ؟ فإذا

لم تكن كذلك ، فلمن تراها تكون ؟ افرض أنها كانت في يوم من الأيام ملكاً للسلطان ، افرض أنها أميري أو غير أميري ، افرض أنها للحكومة ، فهل منع ذلك فاتح بك المعلم أو رشاد بك الجويبري عن أرض البوعابد أو أرض الفردون ؟ ولماذا لايكون الشيخ سلامة ـ أو الشيخ هجر ـ أو أخوه أو ابن عمه الآخر شريكاً في الأرض التي سوف يكشف عنها عبد الله العبد الله أو سطام العبد الله أو أي كبير أو صغير من الولدة ، خاصة أن السلطان لم يتخذ لنفسه ملكاً بعد مسكنة ؟

كانت العتمة قد لفت الطفطافة وخلفت حول ياسين ، من أمام ومن خلف ، بقعتين داكنتين ، من كلٍ تنسلّ أصوات خافتة وغامضة ، من الحرش ومن النهر ، فتلفت ياسين نحو الضوء الشحيح الذي تلامع غير بعيد ، وقدر أنها المضافة ، فتوجه إليها سعيداً بما بات يعرف من أمر هذه الأمداء التي يضرب فيها ، منذ وصل وهند إلى البوعابد حتى اليوم . وقدر لنفسه أنها تزداد دراية يوماً بعد يوم ، فأثنى عليها وجدّ نحو المضافة ، وفي الصباح الباكر سافر الشيخ سلامة إلى حلب لأيام .

★★★

غيبة الشيخ يسّرت لياسين أن يخالط الناس طوال النهار ، يباسطهم ويقبلون عليه . وفي اليوم الأول همس سطام له :

ـ الشيخ سلامة راح يقابل الفرنسيين في حلب .

ـ هو قال لك ؟

سأل ياسين ساخراً .

ـ لا ، أنت الصادق ، قال لغيري ، وغيري قال لغيره ، وغيره قال لي . أنت غريب معك حق . الطفطافة كلها تعرف ، ولو ماقال واحد لواحد كلمة .

أعجب ياسين بطلاقة سطام المفاجئة ، لكأن غياب الشيخ حرر لسانه ، فقال :

ـ اترك الثور يدور وحده وتعال . علمني إذن ، أنا الغريب والجاهل بينكم .

اقترب سطام أقل مداراة :

ـ حاشا لله . ماقصدت . لاغريب إلا الشيطان وأنت تعلّم عشيرة . ماذا تريدني أن أقول ؟

ـ الشيخ وفرنسا ياسطام ؟

ـ من يوم جاءت ، والشيخ سلامة ، لا ، قل : اخوته وأولاد عمه كلهم ، استقووا بالغريب على القريب . استقووا بفرنسا ولكن على من ؟ علينا . هه . سالفة بايخة . والأمر ماعاد سراً . ابن الشيخ سلامة نفسه قالها بلسانه . قل : زلق لسانه ، فنهره أبوه في المضافة ، ولكن على من ؟ يظنون الناس بهائم ؟ طيب حتى البهيمة تفهم على قد عقلها . صح ياياسين ؟ فرنسا تلزمهم من أجل سطام العبد الله ؟ عال العال ! غنّ ياسطام غنّ . فرنسا تلزمهم من أجل الأمير دشاش ولو جئت للحق ، مابيننا من يصدق أن عنزة سترفع يدها في يوم من الأيام عنا . ومع ذلك ، شهادة لله ، أمامك وأمام غيرك ، قلب الأمير دشاش أرحم من قلوب شيوخنا ، وإلا كيف كنت ألجأ إليه ، جلدني ، نعم ، يبقى أرحم . من غيره كان يرجعني بعدما هجرني الشيخ سلامة ؟

ـ عد إلى شغلك .

قال ياسين وهو واجم ، وأطرق يلوم نفسه على مافاتها ، فلا بد أن الأمير على دراية بما يحسب شيوخ الولدة أنهم ينسجونه خفية مع فرنسا . وقد يكون هذا هو الشطر المبهم والأهم في مهمته . ولكن كيف يصح إذن كلام سطام وعبد الله وغيرهم وغيرهم من أن سطوة عنزة على الولدة هي التي مكنت للشيوخ فيهم أكثر ؟

نادى ياسين ثانية ، فأقبل سطام عجلاً ، وكان ياسين يقول :

ـ احك لي حكاية الذبائح .

ـ ثانية ياياسين ؟ سمعتها من عبد الله ومني ومن غيري !

ـ وأسمعها من جديد . هات .

ـ كل ابن آدم منا عليه لشيخ من الشيوخ ذبيحة أو عشرة . ماذا أحكي لك ؟

ـ والشيخ هو يحدد ماعلى فلان وعلى . .

ـ هاأنت حفظت الحكاية .

قال سطام مقاطعاً . قال ياسين :

ـ على قدّ مايربي الواحد منكم من الغنم أو الجمال أو القرود . .

ضحك سطام وأردف :

ـ وقد يزيد على من يفلح ويزرع ، وأنت تعرف أنه يأخذ السدس من محصولها ، إذا كانت النصبة ترويها .

ـ اتركنا من هذه . حكاية تائهة . احك لي كيف طردك الشيخ سلامة ؟

ـ ثانية ياياسين ؟

ـ وعاشرة .

قال سطام بضيق يخالطه الشك في مرام ياسين :

ـ قلت لك : بست يده حتى يقبل ذبيحة واحدة هذه السنة مادام الموسم ياحسرة . غضب وحلف بالله أن يزيد الذبائح ذبيحة مادام لساني يطول . غضب الله عل وبربرت . حلف بالله : ذبيحة جديدة ، وزاد : كل مافتحت فمك زدت ذبيحة غضب الله عليّ وقلت : هذا ظلم ، والظلم لايرضاه الله ولاعبيده . وقف وقال لاترجع إلى النصبة وخلّ غيري يشغلك ويؤويك .

دعاه ياسين إلى الجلوس ، وراح يحدثه عما فعل شيخ الفردون بعشيرته على الذهب ، فاحتار سطام وقال :

ـ مامن شيخ يجور على أولاد عشيرته غير شيوخنا ، وظلم القريب أمرّ .

نهض ياسين مؤكداً :

ـ الشيخ هو الشيخ ياسطام ، وعشيرتك هي عشيرتك . عد إلى شغلك .

وتابع إلى الضفة التي استأثرت به في غياب الشيخ سلامة . كان يترك خطاه تزحف أبطأ فأبطأ نحو الماء ، يترك الماء يلحس حذاءه ، والدوار يتسلل إلى رأسه رويداً رويداً ، خاصة حين يقف على الجرف ، والماء يدوّم تحته ، وهو يجرب أن يمد حذاءه أنملة أنملة ، ثم تسبح عيناه على صفحة النهر الفسيحة ، تذهبان نحو الضفة الأخرى ، فيعجزهما أن تبلغاها ، لكأن ياسين لم يقف من قبل على ضفة العاصي ، ولا على شاطىء البحر .

عصراً عرّج مرة أخرى على النصبة التي يدور حولها سطام والثور . هش سطام وانتظر أن يسأله ياسين أو يرمي له بطرف خيط ، كي يفيض بكلام كثير محتبس ، يود لو يحكيه لإنسان ما ، ولعله فعل ذلك من قبل مراراً ، إلا أنه لم يكن قد هُجّر وأعيد . كان يحسّ أنه أقدر على أن يحدث ياسين الذي استماله منذ قاده من عين آدم ، إلا أن ياسين بدا عازفاً ، يتأمل النصبة ، كأنه يراها للمرة الأولى ، يتفحّص جذع التوتة الذي انتصبت البكرة عليه ، يعدّ العونات التي تشد الحبل ، ينقل عينيه بين طرف الحبل الذي شد الثور إليه ، والطرف الآخر الذي شدت القربة إليه ، تعود عيناه إلى البكرة المتدلية فوق الجرف ، بهت لونه فجأة وقد تماثل له الفيضان القادم مودياً بالجرف ، وبسطام ، فأدار رأسه يميناً ، واطمأن إلى أن سطام قد هيأ الحفرة الاحتياطية قبل أن يطرده الشيخ سلامة .

كانت النصبات جميعاً تبدو له في هذه اللحظة مثل أوتاد راسخة ربط إلى كل منها هذان الحيوانان اللذان يدوران حولها . ثمة بعض الأوتاد أغلظ ، ربط إليها زوجان أو ثلاثة ، فبعض الأجراف أكبر ، وقد أقيمت على الواحد منها نصبتان أو ثلاث . وعسر على ياسين أن يصدق أن سطام أو ثوره أو أي من أزواج الحيوانات الأخرى يمكن لها أن تظل تدور وتدور وتدور حتى تنفق . إنها تدور الآن نهاراً فقط ، أما في الليالي الصيفية القائظة القادمة ، فلن تهدأ ليلاً ولا نهاراً . بل إن من تلك الأزواج من سيتباهى ، كما تباهى في الصيف الماضي ، بدورانه ليلتين متتاليتين دون أن يغمض له فيهما جفن . إنها حيوانات قوية رغم هزالها ، ولكن حياتها ليست بحياة ، تماماً كما لم تكن حياة ياسين الحلو في الزنبقلي ، كما لايزال أبوه يعيش هناك . والغرافات التي رأى صغيراً وكبيراً على نهر الذهب أرحم ألف مرة .

وفيما أيس سطام من الحديث مع ياسين الساهم والمنقبض ، وعاد يغرق مع ثوره ، كان ياسين يرمي بالنصبة في الفرات ، ويأتي بالغراف من هناك ، من تلدف مثلاً ، أو من أي من المواقع القليلة التي رأى ، بعد التحاقه بالأمير دشاش ، على ضفتي الفرات . ولم يفهم سبب عزوف شيوخ الطفطافة حتى هذا العصر عن الغراف ، فتمنى أن يؤوب الشيخ سلامة ، أو يظهر الشيخ هَجَر فوراً ، كي يقنعهما بنزع النصبات ، وإقامة غراف أو اثنين مكانها ، فذلك أفضل للشيوخ ، ولسطام ، ولثوره ، ولسائر أزواج الحيوانات التي تدور قربه .

لم ينأ ياسين عن الضفة كثيراً قبل أن يظهر عبد الله العبد الله ويلوح له ، فتقدم ياسين منه مخلفاً شوق سطام إلى أن يجتمعوا ثلاثتهم ويوقف الثور ولو لبرهة . سأل ياسين قبل أن يصل إلى عبد الله :

- أين أنت ؟

- أروح إلى هناك .

قال عبد الله مشيراً إلى الحرش . سار ياسين معه الهوينى ، يودّ لو يمتد هذا الشريط الأخضر الضيق الذي ترويه النصبات ، ويفصل بين النهر والحرش . ترك عبد الله يلغو فيما لم يسمع حتى صار أمام واحدة من فرج الحرش العديدة ، فتساءل :

- إلى أين تأخذني ؟

ضحك عبد الله وقال :

- الأولاد هناك .

ثم تأوه :

ـ لو أننا نستطيع نقل الماء حتى هذه الأرض !

دار ياسين حول نفسه ، متأملاً النهر ، فالشريط الأخضر ، فالحرش . وتبع عبد الله صعداً في الحاوي ، حيث ظهرت له الأرض تنبسط غير بعيد . وفكر في أن الفرات كله قد لايكفي لإرواء هذا المدى ، ولكن أي خير يمكن أن يغمر البشر لو تحقق مايتمناه عبد الله العبد الله ؟

كانت بعض القطعان تتناثر بعيداً ، حيث تلاحت بعض الهضاب ، وكانت نفس ياسين تهدأ ، فيما قال عبد الله بصوت آخر :

ـ لو وصلت الماء إلى هنا فسوف يحل بالعشيرة ماحلَّ بها على النهر .

خاف ياسين من أين يكون قد نطق وهو ساهٍ بما يكدر ، فسأل حذراً :

ـ وماذا حلّ ؟

قال عبد الله :

ـ ألا تعرف ؟ أنت بيننا من كم يوم ؟ أما رأيتَ ؟ هذا الحاوي وهذه البادية كلها ، اليوم ، ملك للعشيرة كلها .

ـ طيب .

قال ياسين مستحسناً ، فأردف عبد الله :

ـ وماوراءك كان في يوم من الأيام ملك العشيرة كلها أيضاً .

ـ وكيف جرى إذن ؟

سأل ياسين متوجساً .

ـ أنا لاأعرف كيف جرى . الكبار يعرفون . الكبار عاشوا وشافوا ، ومات منهم كثيرون قهراً . بل ماتوا قتلاً . من هنا جاءت القواجين الخاقانية ومن هنا جاء البلاء . ماكفى الشيوخ أنهم طوبوا ماشاؤوا من الأرض ، بل صارت أرض غيرهم ، مهما كانت صغيرة ، شوكة في جلدهم .

في بعض الوهاد التي ظهرت فجأة ، وقريبة ، أركز ياسين عينيه ، لاهياً عن عبد الله الذي ساءه ذلك ، فجاء صوته أعلى وقد امتدت ذراعه أماماً :

ـ اترك هذا . تطلع أبعد .

أذهلت ياسين المسيلات المزروعة ، ولم يفت عبد الله ذاك ، فتابع :

ـ وهذه أيضاً حل بها ماحل بالضفة .

ـ الشيوخ أيضاً ؟

تساءل ياسين ببراءة ، فقهقه عبد الله :

ـ من إذن ؟ أنا ؟ هربنا من النهر والضفة والطفطافة ، هربنا منهم ، فلحقونا . الله سبحانه وتعالى منّ على البشر بهذين الشبرين . هنا يمكن أن تزرع شيئاً ، والشبران ملك للعشيرة كلها . ولكن إذا زرع واحدنا شبراً في المسيل ، أو نظف شبراً من الحرش ، جاء الشيخ يسأل عن حصته . صاروا يتسابقون علينا . الحمد لله ، مازالت المراعي للجميع .

تساءل ياسين ببراءة أكبر :

ـ ألا تزاحمكم على المراعي عشائر . .

قاطعه عبد الله :

ـ مادامت عنزة لاتزاحم فلا أحد يجرؤ . كل عشيرة ولها مراعيها ، والبادية لها أول بلا آخر كما ترى . مراعي الولدة والحمد لله من أطيب المراعي . أما في السنين السوداء فلا تسأل . رحمة ربك وقوة زندك .

كانت ظلال الغروب قد امتدت تلون المسيلات والهضاب البعيدة والحرش ، فدار ياسين مشفقاً وداعياً :

الله يبعدها . تعال ياعبد الله .

دار خلفه عبد الله ، ثم تجاوزه متباهياً بمعرفته للدروب مهما دقت في هذه الأنحاء كلها : من الطفطافة حتى حلب وحمص ودير الزور وتركيا . تساءل ياسين عن الأولاد والرعاة الذين لم يظهروا ، فضحك عبد الله ، وأشار يميناً وشمالاً ، ووعد بالأصوات عما قليل ، وقد اختار منفذاً أضيق ، من الحرش إلى الضفة . أنكر ياسين أن يكون لم ير أحداً ولم يسمع صوتاً ، وكان عبد الله يستذكر فزع سطام في طفولتهما من العواء الذي كان ينطلق أحياناً من هذا الموقع من الحرش ، تبسّم ياسين وأنصت شغفاً إلى عبد الله الذي قتل خنزيراً يوم كان فتى هنا ، وجرى مع الشبان خلف الجقلان ، فقد كان الحرش نور بها وبالخنازير والذئاب أيضاً . كان الحرش أضعاف مايرى ياسين الآن ، إلا أن لوحوش هجرته بعد أن نالت منه الأيادي . حتى الوحوش زهدت بالحرش ، كما قال عبد الله ، فضحك ياسين . أما عبد الله فقد حسم أمره ، ولسوف ينال هو أيضاً ، وأولاده ، وسطام ، من الحرش ، فقد جاء أخيراً دور بيت العبد الله ، وحين يعود الشيخ سلامة سوف يبدؤون .

إلا أن غيبة الشيخ طالت ، وبدأ ياسين يتململ منذ غادره عبد الله وتابع وحيداً إلى المضافة ، وفي الصباح قدر أن غيبته هو الآخر قد طالت ، وفكر في الرحيل عما قليل ، وإنْ بدا له أن بقية مما كلفه به الأمير دشاش لم ينجز ، وكان الشجار قد اندلع بين الشيخ هَجَر ، وجار لسطام العبد الله .

★★★

ذلك الجار المعروف بقانص ابن قانصة ، والذي ينوف على الخمسين ، سبق للشيخ هَجَر أن هجّره مرة من قبل . كان الشيخ لايزال في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، وابن قانصة لما يبلغ العشرين ، وقد سرح مع ابن عمه لرعي القطيع في البادية . كان في القطيع خمسة وعشرون ثوراً وماينوف عليها من الأبقار . وكانت أجرة رعي البقرة ضعف أجرة رعي الثور الذي لايسرح إلا حين تتوقف النصبات عن الدوران والمحاريث عن الفلاحة . تنكة حنطة وتنكة ذرة عن البقرة ، وواحدة منهما عن الثور . إلا أن الشيخ هَجَر أصرّ على أن الثيران في القطيع ثلاثون ، أو خمسة وثلاثون ، والأبقار عشرون ، أو خمس وعشرون ، وأقسم على ذلك ، ولم يشأ الشيوخ الأسنّ أن يكذبوه ، كما لم يجرؤ أحد في الطفطافة أن يجهر ضحكته ، أو يجادل في نسيان الشيخ هَجَر للعدد ، إلا قانص ابن قانصة وابن عمه ، فأمر الشيخ هَجَر بتهجيرهما . وشاعت من بعد لسنين حكاية الشيخ الصغير الذي لايميز الثور من البقرة ، حتى لو كانت هذه تضع ، أو كان إحليل ذاك يتطاول ذراعاً .

منذ عشرين سنة أو ثلاثين كان على قانص وابن عمه أن يترحّلا حتى عين التركمان ، حيث قضى ابن العم بعد قليل ، ولبث قانص عشر سنين على الأقل ، قبل أن يعود إلى الطفطافة ، ليصالح الشيخ هَجَر ، ويتزوج وينجب ، وتتوطد صلته بالشيخ ، فتشيع حكاية أخرى عنهما تؤول انقلاب الخصام إلى ود ، ثم نسي الناس ذلك ، حتى اندلع الشجار هذا الصباح ، وأقسم الشيخ هَجَر على ألاّ تطأ قدم قانص ابن قانصة هذه الأرض ثانية ، مادام هو حياً ، فلماذا ؟

لم يقصّر ابن قانصة بحق الشيخ كما يعرف الجميع طوال السنين . والشيخ نفسه يتسامح مع ابن قانصة حين لايكون الموسم طيباً . أما في هذا الموسم فلا أحد يتسامح . ولكن هل هذا هو السبب ؟ أم أن ابن الشيخ هَجَر قد تطاول على قانصة بنت قانص ابن قانصة ، مما تتهامس به الطفطافة منذ حين ، وجعل أولاد قانص الكبار الثلاثة يتطاولون على ابن الشيخ الصغير؟

ربما كانت ثمة أسباب أخرى يجهلها أولاء الذين تحلقوا حول دبداية ابن قانصة ، وفكوا بين أولاد الشيخ ومن معهم ، وبين أولاد قانص ومن معهم ، وكان ياسين الحلو أحد الذين تحلقوا ، ثم فرقوا ، ثم هرع إلى المضافة ، ثم كظم غيظه ، وعاد إلى الدبداية يعاين أولاد قانصة يحزمون أمتعتهم ، والبنات ينحن كأنهن في جنازة ، وقانص وزوجته لابدان كالأموات .

سار ياسين خلف الأسرة المهجرة مع من سار حتى الضفة ، وبوغت بأولاد قانص ورهط من أقرانهم وقد هيأوا طوفاً صغيراً بجذوعه المتشابكة طبقة فوق طبقة ، كأنهم قد أعدوه لمثل هذه الساعة منذ زمن .

تكومت الأسرة فوق الطوف مع متاعها ، وخاف ياسين أن يظل الطوف يغوص في الماء ، بيد أن الطوف كان قد استقر عند طبقته الأخيرة ، وراح الشبان يدفعون بأيديهم ، ثم بالعصيّ ، والطوف ينأى عن الضفة ، يستسلم للماء ولما ترسمه شفاه وأيدي من يحمل ، ولغط من انزجّ ياسين بينهم .

قال سطام العبد الله :

ـ قانص سيعود إلى عين التركمان .

سأل أحدهم :

ـ هو قال لك ؟ مافتح فمه الرجل .

قال سطام :

ـ هو ماقال . ولكن أين تريده أن يذهب ؟

قال آخر :

ـ الله يرحمنا جميعاً ويزرع الرحمة في قلوب شيوخنا .

لهجت ألسنة عديدة مؤمنة ، واستدار ياسين مع بعضهم حائراً في الوجهة التي يتجه ، ولعله ظل كذلك وهو يمشي أسرع فأسرع إلى المضافة ، وبعد قليل ، وأسرع فأسرع ، بعيداً عن المضافة ، وعن الطفطافة كلها .

★★★

لم يتأخر وصوله إلى عين آدم ، أقل لهفة ، خاصة بعد أن علم أن الأمير دشاش قد غادر ، وبعد أن رأى هنداً هي الأخرى أقل لهفة ، وقد ثقل عليها الحمل الجديد ، ومرض الطفل في غياب أبيه .

أغلب من كانت تعجّ بهم المضارب قبل أن يتوجه إلى الطفطافة ، كانوا أيضاً قد رحلوا ، فبدت عين آدم هادئة ، تنام باكراً ، تصحو على مهل . ولئن راق ذلك لياسين في يومه الأول ، فقد جعل المكان يبدو له أكبر وحشة ، وأبعث للضيق . هو ذا وسط عدد ممن لاشأن لهم في المضارب ، وأربعة من العبيد ، مثله مثلهم ، بلا عمل سوى أن يكرعوا القهوة . إنه يتنصت لأحاديثهم وضحكهم الأبله ، يندم على تأخره في الطفطافة ، فذلك ماجعله الآن مرمياً بين أولاء ، وهم الذين كانوا للتو لايجرؤون على أن يرفعوا عيونهم إليه . إنها خطيئته الأولى منذ التحق بالأمير دشاش ، وهاهو صوت غنيم الضرس يترجّع في الصدر : لاتبتعد عن الأمير ، لاتتخلف عنه . متى فعلت نسيك واستباحوك . هاهو العبد حمود يتطاول ممازحاً :

- ماذا فعلت في غيبتك الطويلة ياياسين ؟

إلا أن ياسين يستذكر دروس غنيم الضرس ، فيرد متمسكناً :

- أراك تسأل عما يخص الأمير ياحمود ؟

ارتجفت ذقن المسكين وتأتأ معتذراً ، واربدت وجوه العبيد الثلاثة ، وعنّفت العبد المتمادي نظرات الرجال الآخرين ، وأمتع ياسين أن يتذكروا من يكون ؟ بماذا يفضلهم ؟ ولكن ماقيمة ذلك مادام الأمير لم يترك له وصية ، وخلفه بينهم أو نسيه ؟

كان يدرك أن لعبيدالأمير جميعاً ماله ولسواه من الرجال ، وإنْ كانوا عبيداً . فهم الذين يجمعون مايتوجب للأمير على العشائر والقرى . والأمير يجزل لهم مما يجمعون . هم الذين يخدمون في المضارب ، وهم الذين ينفذون العقوبة ، ويحصون على الناس الأنفاس . في عين آدم وفي سواها يفعل العبيد ذلك ويفعلون سواه . وإذا كان ظاهر الأمر أن لا حقّ للعبيد لدى الأمير دشاش أو لدى أي سيد آخر لهم ، فللعبيد - رغم ذلك - مايباهون به البدو والفلاحين جميعاً ، سواء أكانوا ينتسبون على نحو أو آخر للعشيرة أم لا . وقد أسرّ المرحوم غنيم الضرس لياسين مراراً بالحذر من العبيد ، خاصة أولاء الذين جيء بهم من نجد ، ولدى الأمير دشاش عدد منهم ، أهداه إياهم شيخ الحسنة . أما العبيد الآخرون - من اشترى منهم الأمير ، أو أُهدي إليه من المضارب المنتشرة في كل مكان - فشأنهم أقلّ . ويندر أن يعهد إلى أحدهم بغير الحراسة أو الخدمة . وكان حمود والثلاثة الآخرون من أولاء .

قبل عودته من الطفطافة ، لم يسبق لياسين أن التقى عن قرب بأي من العبدات اللائي يخدمن الشيخات . كانت هند تحدثه أحياناً عمن تصادف منهن ، خاصة لدى

الشيخة حليمة ، الشيخة الأولى ، أو الزوجة الأولى للأمير . ومن بين العبدات كانت شعيلة ـ التي يعرف ياسين كسواه أنها آخر وأفضل ماأهدى شيخ الحسنة للأمير دشاش ـ الأقرب إلى هند ، تزورها في غياب ياسين . كما أن ياسين أخذ يسمع اسمها يردده حمود في آخر السهرات التي تجمعه بالعبيد على مضض .

كان حمود إذْ يفعل ذلك يبالغ في الهمس ، كأنه يريد للجميع أن يسمعوا وألاّ يسمعوا . أو كأنه يريدهم أن يسمعوا جميعاً إلا ياسين . بيد أن الحرارة التي خيل لياسين أن صوت العبد العاشق يشع بها ، ووجع الآخرين له ، جعلاه أقلّ جفاء ، ومن بعد أقل تعالياً . ولعل حمود قد لحظ ذلك أقوى فأقوى ، قبل أن يطلق العنان لما يكابده بصوت أعلى ، وإنْ ظل خافتاً : صوت يتردد فيه الأمل الحييّ ، الوجل ، فكل شيء موقوف على كلمة من الأمير دشاش : هو الذي يزوجه أو لا يزوجه ، هو الذي يخصّه بشعيلة أو لايخصه ، هو الذي سينعم عليه بما يجعله مثل كل الناس : رجلاً يملك امرأة ومتاعاً ، كما جعله من قبل يملك هذا السلاح . ومن يدري ، فقد يلهم الله الأمير دشاش أن يخصّ عبده حمود ، عريس شعيلة ، بقطعة من الأرض ، كما فعل مع عبيد عديدين سواه !

وفيما حمود يلغو ، يروح الآخرون ـ العبيد الثلاثة بخاصة ـ يتبارون في مزايا الأمير دشاش ، فيدفعون أبعد ذلك الذي كان والداه قبله عبدين أثيرين عند والد الأمير أو عمه أو جدته . ولم يختر الأمير دشاش هدية الى من يؤثر من الشيوخ والأمراء إلا من أخوته وأخواته ، فلما لم يبق منهم سواه ، احتفظ به .

كان حمود يصغي أحياناً لما يدور حوله ، تتهدج عيناه ، تتدلى شفتاه مثل طفل مبل . وكان ذلك يوجع ياسين ، يجعله يحمد الله على أنه لم يخلقه عبداً . وإذ يعود إلى سند الغافية حاضنة الطفل ، يحمد الله على أن حفظهما له ، ويرثي لحمود .

في الصباح كان يخرج كل يوم إلى العين بجوار المزار ، يتأمل النبع المتفجر ، الساقية الزاهية التي تذهب بعيداً ، تروي الأرض يمنة ويسرة . وكثيراً ماكان يصادف حول المزار زواراً سبقوه مع نذورهم التي لاتلبث أن تساق إلى دار سوعان ، مادام الأمير غائباً .

لقد عبر ياسين قبل هذه الصباحات الخالية بالمزار والعين مراراً ، ابتهل لله وتشفع بسيدنا آدم الذي أضفى اسمه وبركته على النبع والحجر والشجر والخيام والزرع والضرع . وفي أيامه الأولى ، أدهشته النذور الكثيرة والسخية ، ومايهيىء العبيد للزوار

من الغداء العامر بقطع اللحم ، على العكس مما يتهامس به هذه الأيام حمود ورفاقه ، مما يسمح سوعان بتقديمه للزوار ، ومايحتفظ به لنفسه ، والأمير غائب .

لسبب ما ، بكر ياسين هذا الصباح ، سبق الزوار ، وطلع عليه المزار والنبع جديدين ومذهلين ، كأنه لم يرهما من قبل . تساءل عما يجعل المرء يقضي أياماً وأسابيع ، وربما شهوراً وسنيناً ، في مكان ، دون أن تلتقط عينه مثل هذا اللون للسماء ، أو ذلك الصوت للنبع ، أو تلك الهيئة للخيام ، أو ذلك الفراغ المقدس الذي خلفته مضارب الأمير ؟

تعلل لنفسه بملازمته ليل نهار للأمير من قبل ، سواء أكان عليه أن يقوم بعمل أم لا ، سواء أكان غنيم الضرس حياً أم ميتاً . تعلل لنفسه بغيابه كل حين ، مر اسكندرون إلى الطفطافة ، وفكر فيما سلك بين الزنبقلي وسفيره ، في سعيه بين البوعابد والفردون والهنادي ، فساءه أن الدقائق تغيم ، وأنه لم يتبينها يوماً كما يتبين ذرات التراب هذا الصباح ، فسار جنوباً ، وأطلق عينيه على الطريق التي سبق أن سلك إلى الرقة ، ثم دار على عقبيه شمالاً ، وأطلق عينيه على الطريق التي يتمنى أن يسلكها ذات يوم ، ليس إلى تل أبيض القريبة فقط ، بل إلى أورفه نفسها .

★★★

كانت هند تنتظر في هذه الآونة أن تضع بين عشية وضحاها ، عازفة عن الكلام والطعام ، ثم عن النوم . كان ياسين ينطلق صباحاً ولايؤوب إلا متأخراً ، فإذا بها أكبر عياء . يحنو عليها ويود لو يفضي بما بات يشغله من أمر هذا المكان يوماً إثر يوم ، بالأحرى صباحاً بعد صباح ، وخاصة أنها كانت قد دللت من قبل مراراً على أن لديها مايجهله أو يخلط فيه ، ولكن هند كانت تطبق جفنيها ـ كشفتيها ـ دون أن تنام ، فيخيل إليه أنها قد سدت أذنيها أيضاً ، فينكفىء .

بعد عودته من مهمته الأولى مع الفرنسيين ، ومثوله بين يدي الأمير حتى منتصف الليل ، أسرع إليها ، ينوء بالكثير الذي سيقوله لها . إلا أن ثناء الأمير شوش عليه ، فراح يرمي بنتفه ، وهي تضحك وترتبها وتملأ ثغراتها ، فيتذكر ويندفع مباهياً :

ـ هل سمعت أن فرنسا عملت من خمسين سنة شركة للمراكب ، وادعت يومها كما تدعي اليوم أن مياه الفرات لاتحمل المراكب ؟

ـ يجوز لاتحمل المراكب الكبيرة .
ـ هكذا قالوا . ولكن هل تصدقين؟ هذا الفرات ياهند ، وليس العاصي ولانهر الذهب .
ـ الله أعلم . أنت تقول دائماً : فرنسا تعرف مالايعرفه البشر كلهم .
ـ صحيح . والعجيب أن الألمان حاولوا أيضاً أثناء الحرب . كان لهم سبعة أو ثمانية صنادل في النهر .
ـ وما الصندل ؟
ـ ألا تعرفين ؟
ـ لا .
ـ ولا أنا.

إذ ذاك ترقرقت ضحكتها وصدحت ضحكته، وتابع بحماسة:

ـ الانكليز ياهند كانواقبل كل الأمم راغبين في أن تسبح مراكبهم في الفرات. من أيام جد الأمير حاولوا، والقبائل كانت ناطرة الخير.

قالت هند:

ـ صحيح أن فرنسا كانت تحمل المراكب بالطعام لقواتها في الرقة؟

هز ياسين رأسه هزة العليم، وقال:

ـ الطعام فقط؟ هكذا قالت لك الحريم؟ كل شيء . قولي كل شيء يا هند. ليس لقواتهم في الرقة وحدها، قولي: دير الزور أيضاً. النهر وهو نازل من مسكنة ساعدهم، وبعد هذا يقولون: النهر لايحمل المراكب، خاصة في آخر الصيف وفي الخريف! أنا رأيت البحر يا هند. الفرات بحر، وليس نهراً، ولابدّ أن الأمم كلها عجزت عنه.

تلك الليلة أدارت ظهرها للطفل وكورت ياسين في حضنها، فأغفى قريراً، لأن الانكليز والفرنسيين والألمان ـ وربما سواهم ممّن يجهل ـ قد أعجزهم الفرات .

كان كلما توثقت صلته بهذا المكان رأى نفسه أكبر انشغالاً بما يشدّ أولئك الناس من بلادهم القصية، التي يقولون إنها غنية، إلى هنا؟! لقد اختلط عليه قرب مسكنة، مابربر به ذلك العبد وذلك الفرنسي، واحد بالفرنسية والآخر بالعربية، إلا أنه قد لايكون أخطأ إذْ فهم أن الانكليز قد حاولوا منذ تسعين سنة أن يتسللوا إلى هذه البلاد. تغلغلوا بين القبائل، حملوا الهدايا للشيوخ، قايضوهم بالمزيد من الهدايا مقابل ما يحتاجون إليه من جذوع التوت والطرفاء والجوز. وحين سأل ياسين:

ـ ولماذا الجذوع؟

ضحك الفرنسي كأن ياسين ألقى نكتة، وقال العبد منتفجاً:

ـ ألم تسمع؟ من أجل الفحم. قل لي: ولماذا الفحم؟

ردد ياسين ببله:

ـ ولماذا الفحم؟

تطامن ياسين خجلاً، ولما روى لهند ذلك رقرقت ضحكتها وقالت:

ـ ما حكيت لي أن القطارات التي كانت تنقلكم في الحرب تبلع الفحم بلعاً؟ تكو مراكب الانكليز مثل القطارات؟

ـ لا أعرف؟

ـ ولا أنا

وعلا ضحكهما.

وفي مسكنة، كما في الرقة تردد اسم سايكس واسم بيكوأمام ياسين، فخيل إليه أنه قد غدا يفهم مايتحدث عنه الفرنسيان، ووشوش العبد بذلك، فوشوش العبد الفرنسيين، فضحكا، وخاطبا ياسين طويلاً، وهو يجهد في أن يرسم تقاطيعه بحركة شفاههما وعيونهما، إلا أن العبد سأله منتفجاً:

ـ فهمت؟

تأتأ ياسين، فضحك الفرنسيان والعبد الذي تابع:

ـ صاحبك سايكس هذا مرّ من هنا منذ أكثر من عشرين سنة، وكان الشراكسة والتشاشان يتوافدون إلى الرقة. كان الشراكسة يفصلون في شجار دام بين الناس، وما كان في الرقة للحكومة غير ولد واحد. فهمت؟

أقبل ياسين متلهفاً:

ـ قل لهم إني سمعت أن سايكس هذا اتفق مع بيكو على اقتسام بلاد العرب كلها. من هنا يرحل الأتراك وتنتهي الحرب ومن هنا تكون القسمة. اسألهم: صحيح أم كذب؟

ضحك أحد الفرنسيين، وحدث الآخر، شرع العبد يحدثهما، فإذا بالأول يسأل ياسين:

ـ هذا كلام الأتراك. كلام البلاشفة حتى يفرقوا بيننا وبينكم. اسأل الأمير دشاش نفسه.

تراجع ياسين خشية أن يكون قد أخطأ، وود لو يقدر على أن يؤكد للفرنسي أنه يصدقه، دون الحاجة إلى سؤال الأمير. إلا أن هند عندما روى لها ذلك لم تشاركه يقينه

ولا خشيته، وقالت:

ـ ماحكيت لي أكثر من ذلك يوم فرّ حمادي الحسون؟ وها الحرب انتهت والقسمة صارت يا ياسين أم لا؟

ـ لا أعرف؟

ـ ولا أنا.

رمت بكلمتها إذ ذاك، دون أن تضحك، ودون أن يضحك.

★★★

ماكان أمام ياسين كل ليلة تنقضي بانتظار الولادة الصعبة إلا أن يتمدد مستجدياً النوم، يداور النجوم التي تلوح عبر فرجة الخيمة الصغيرة، ثم تستبد به واحدة من بينها، عرف فيها من كانت تساهره في ليالي أخرى، بعيداً جداً، وهو ملقى على الرمل، بلا خيمة، حوله فياض العقدة وعزيز اللباد واسماعيل معلا وراغب الناصح وحمادي الحسون وعساكر كثيرون وضباط كثيرون وجمال وخيول وبنادق ومدافع وبغال وعبيد وأمير، اسلام ونصارى وعرب وانكليز. ومثلما صار يعرف كل واحد من أصحابه، ولو كان يدير ظهره مغموراً بعشرات، صار يعرف تلك النجمة ـ هذه النجمة من مرج النجوم الأزرق الصافي المشعشع بالذهب.

كانت النجمتان تتوحدان مرة، تتفردان مرة: واحدة تهديه والركب من أقصى الجنوب إلى الشام، نجمة توجعه لأنه لم يلتق بأي من صحبه بعد أن غادر القشلة الحميدية سوى مرة، حين جاء عزيز اللباد الى الزنبقلي، وشوى رستم آغا طيز العريس على الصاج، ومرة حين ومض حمادي الحسون في خان الكوبرلي، ونجمة تنسبه إلى الأصحاب الخمسة الذين تلازموا دهراً، أو تنسبه إلى ذلك الركب، فثمة كانت قبيلته وعشيرته وأسرته، إذ كانوا قبائل في قبيلة، عشائر في عشيرة، قرى ومدن وأسر وخيام في جيش ميمم إلى الشمال. أما النجمة الأخرى فكانت تضيء مسالك أخرى، تغالب العتم الغامر في هذا المكان حين تختفي النجوم من السماء، قبل أن يطلع النهار، وياسين يخرج من أطراف الصحراء، كما خرج الذين سبقوه من قبله، يتدافع مع الناس كما في يوم الحشر نحو هذه الأرض، وكلما أوشك أن يصل هو أو سواه، يدمى فؤاده وتتضرج النجمة، فالفرسان يتساقطون، والخيام تقوض، والمراعي ينتزعها اللاحق من السابق، والسابق يفر أمام اللاحق، واللاحق يعير السابق بمجرفة ومحراث وكوخ وطامة، ويطوح

بالأشياء في الفلاة، أما الرؤوس فتتناوشها أطراف السيوف والرماح، ولا يهدأ ذلك حتى يئز الرصاص، فإذا بمرج النجوم الأزرق الصافي يحمرّ ويتعكر، يضج بالغبار والمسامرات التي تملأ الخيام دوماً عن الصراع الجديد أو القديم، وياسين الحلو يصغي، يتشوف ويكاد أن يؤخذ مع هذه القبيلة أو ذلك الفارس، لولا أن أنين هند يوقظه، يقرعه، يقلقه، فيقترب منها وهي نائية، يلبد على كوعه حتى ييأس، فيستلقي ثانية ويغمص عينيه، يبحث عن النجمة التي تاهت في مرج النجوم، وإذ تعجزه بعزم على أن ينطلق خلفها، فتغل ساقيه ولادة هند الصعبة الوشيكة، وغيبة الأمير دشاش، فيتقلب على جنبيه متوعداً، إذْ ما إنْ تضع هند، ويعود الأمير، حتى ينطلق ياسين خلف نجمته هذه أو نجمته تلك، يضرب شرقاً، شمالاً، ثم يلوي جنوباً، فغرباً، عبر المسالك التي ما رادها بعد، متقفياً أثر ذلك البدوي السابق أو ذلك البدوي اللاحق، حتى يصل حبة الرمل الأولى التي اندفعت منها موجات البشر، ومن هناك، من اليمن نفسها، حيث سيخلف هنداً وطفله السابق وطفله اللاحق، سيعدو خلف الشيخ أو الأمير، سوف ينقذف شمالاً مع زبيد، ومن بعد ينقذف من نجد، مع شمر، أو ينقذف من الحجاز، مع عنزه، وتروح تدفعه الموجة تلو الموجة، فهو في الجيش الميمم إلى الشمال، والأمواج لايطلقها البحر إلا شمالاً، حيث تباغته الهنادي، يلويه سبق ابراهيم باشا، بل سبق الموالي لابراهيم باشا، بل آخرون وآخرون، غير أن ياسين الحلو يصيح ملء صدره:
- الأرض واسعة، وما هم أن وصلتم قبلي أو وصلت قبلكم، فترطن الألسنة في أذنيه: أكراد وتركمان وتشاشان، شركس وأرمن وأتراك، فرنسيون وانكليز وألمان، وهو ليس بذلك البدوي اللاحق الذي لايفلت منه البدوي السابق، هو ليس من عنزة، وإنْ كان غنيم الضرس قد ألصقه بها، هو نثرة مشلوحة، نكرة وحسب، شأن أي من أولئك الفلاحين الذين تتقاذفهم أمداء الأرض، سواء أكانوا من الصلب البدوي أم من أي صلب بشري، تماماً مثلما عرفته تلك النجمة لسنين خلت، في الجيش الميمم إلى الشمال، فماذا تساوي النثرة؟ ماذا تساوي النكرة؟ ماذا يساوي نثار الفلاحين ونكرات العساكر أجمعين؟

وكانت الأسئلة تصمّ سمعه عن توجع هند، حتى شق صراخها الخيمة وجأرت به النجمة: انهض يارجل، انهض يا ابن الحلو. هند تضع ولابد لواحدة من نساء الخيام أن تحضر. كان الأمر أسهل في الزنبقلي، فأم هند هناك، أم ياسين، أبوه وأبوها، زوج معه وزوج معها، أما الآن فزوجة سوعان تعير ياسين باضطرابه كالأولاد، وحمود الذي كان

يسير بين الخيام ، يشتمّ أثراً لشعيلة الراحلة مع الشيخة حليمة ، حمود أيضاً يعيره ، والنجوم كلها ضاعت بعدما شقشق الفجر. وياسين ساهم حتى أطلت الشمس، فأدرك أن هنداً قد وضعت بنتاً، تشك زوجة سوعان في أنها سوف تعيش. وعلى الرغم من تجهمّها، وانقباض حمود وهند نفسها، فقد كان سعيداً ، ولكنه لم يشأ أن يجهر بسعادته، حتى جاء في الضحى سوعان، يهرول وينادي:

ـ ياسين يا ياسين: الأمير يا ياسين.

فتبسم، وأنكر أن تكون البنت دوماً علامة شؤم، ووشوش هنداً مرة بعد مرة، حتى جعلها تضحك وترنو الى الوليدة، ثم فوجيء بها ترنو إليه، كما لم تفعل منذ زمن، فأكب يقبل جبينها، غير آبه بزوجة سوعان المتجهمة، وخرج يصيح بابنه الذي كان يعبث أمام الخيمة:

ـ الحريم ياولد. أنت الآن الرجل الوحيد هنا.

ولوح للذين تجمعوا حول الخيمة مدلاً.

★★★

اختار أن يبدأ بما هو أبعد وأغمض مما نقل إليه العبد من أمر الأمير، وتوجه إلى الرقة، حيث كان عليه أن يعاين ماجمع من السوس. تمنى وهو يروز أكداس جذور الشجيرات ملء الخان الكبير، لو أمكنه أن يرافق القافلة التي ستنقل الأكداس الى اسكندرون. كان الخان أكبر ما رأى من الخانات، وكان حشد النساء والأولاد والرجال يسبقه الى الخان مهما بكر هو أو هؤلاءالذين يتباهون باشتغالهم دهراً في شركة اندوس وموريس. ولم يوفر ياسين جهداً كي لايفوته أمر، مهما دق. فمن يدري: قد يسأل الأمير عما لايخطر ببال، مادام لم يحدد ما ينبغي على ياسين أن يقوم به بالضبط. وياسين لاينبغي له أن يكون جاهلاً ولا مقصراً. تلك واحدة أخرى من وصايا غنيم الضرس. ولذلك فياسين يعد النساء اللواتي شكون من الجور عليهن في كيل ما جمعن من الجذور. لذلك أيضاً حاول أن يعرف ما إذا كان هذا الخان أكبر ماشيد في الرقة منذ جاء إليها الشراكسة قبل عشرين أو ثلاثين سنة. . فليس يعقل أن الأمير قد أرسله من أجل أن يعود إليه بعد حين، وينغم صوته:

ـ كل شيء على مايرام يا طويل العمر.

لو أن الأمر كذلك، لأرسل الأمير واحداً من عبيده، حمود مثلاً، فقد كانت هذه أول مرة يرسل فيها الأمير واحداً من الرجال، لامن العبيد. وقد عد ذلك ياسين امتيازاً له، فراح يتقرى كل مايصادف يومه المديد، ينأى عن السوس إلى تفاصيل الرقة وأشتاتها، يتأمل السور المتهالك، يكتم الخشية من أن تطلع له جنية، يشيح عن خيال لسور الزنبقلي يداهمه، يدور حول مقام ويس بقلبٍ خاشع، يقترب من الفرات، يتقرى آثار الصيابيط والفيضان الماضي، وفي وجوه الناس كان يمعن ويخمن: هذا تركي جاء من براجيك، وذاك أرمني فرّ من أورفة، وصار يشهد أن لا إله إلا الله، وذلك شركسي فرّ من الروس، والآخر كردي، والرابع الله أعلم، وياسين صادر قادراً على أن يميز بينهم من نظرة، أما الآخرون الذين يغلبون على هذه الرقة، فمن أين له أن يخمن من يكون منهم من هذه العشيرة أو تلك؟

كان العبد الذي نقل إليه أمر الأمير قد قال وعيناه تومضان:

ـ الشيوخ في المكحل يلعبون بذيلهم. منذ متى كانوا يجمعون المشيخة؟ انظر ماذا يجري هناك.

كان ذاك شطراً آخر من المهمة، أبعد من الرقة، وأقرب إلى ماكان عليه أن ينجز في الطفطافة، وقد التقى في الخان، ببعض من كشف له الحديث، أو واحد من حوله، أنهم من المكحل، وخيل إليه أن بين أغلبهم وبين العبد الذي نقل أمر الأمير شبهاً ما. حتى إذا قدر أن الوقت صار يمضي جزافاً في الرقة، اختار اثنين ممن كانوا يتوجهون إلى المكحل، خلفهم بعض النساء، وانطلق معهم.

كالطفطافة، كانت المكحل على ضفة النهر، وسوى ذلك يندر الشبه بينهما. الدبدابات وبيوت الشعر أكثر، وأكبر، كذلك آثار الصيابيط. الفلاحون يغزون التلال المحاذية للضفة، ينأون عن الشريط الضيق بين النهر وبين التلال، والنصبات في المكحل ذات شأن آخر. عد منها ياسين ثلاثين، وبينها ما اجتمع عليه أربعة من الفلاحين، ومنها ما كان لفلاح واحد، شأن أي من الشيوخ. وسواء أكانت النصبة لواحد أم لأربعة، فمن أقامها يقدم الثور، ومن يدور مع الثور ـ مثل سطام العبد الله ـ له فقط ثلاثة شنابل من الموسم، مقابل أربعة للنصبة، فلماذا لايأتي سطام إذن ـ تساءل ياسين ـ إلى هنا مادام نصيبه هناك أدنى بكثير؟ حتى لوكانت الأرض التي ترويها النصبة لفلاح آخر، أولواحد من الكثيرين الذين ينادون بالشيوخ، حتى لوطار من الموسم عشره لصاحب الأرض، ألا يظل نصيب سطام هنا أوفى؟ أما الأبقار والجواميس فهي هنا أضعاف مافي الطفطافة،

تشي بخير وفير، شأن سواها مما دقق ياسين فيه منذ وصل ذلك الضحى، وفي رأس ذلك المضافات.

تناول الغداء في المضافة الصغيرة الأولى التي صادفته. أعجزه أن يفلت من وعده لصاحبها، على الرغم من أنه كان جائعاً، ولا يعرف أين سيأكل، وكانت المكحل تتناقل خبر قدوم رجل جديد للأمير دشاش.

في المساء نزل في أقرب مضافة صادفته أيضاً. كانت الدلال النحاسية الزاهية أمام النقرة تتلامع، ورائحة القهوة والهيل عابقة. ولم يكن قد رأى مثل لمعة ونقوش هذه الدلاء عند أي من شيوخ الطفطافة، ولافي المضافات التي دخل إليها في الرقة. أنعشته النكهة الخاصة وأذكرته بمجلس الأمير. امتنت عيناه للشاب المجدور الذي عاجله بالفنجان فور تربعه في الصدر، حيث أفسح له الحاضرون. وفي زاوية المضافة اليسرى القصوى، ألفت عينيه بعد لأي، وهو يرد على ترحيب الحاضرين، هامة مطرقة. عادت عيناه الى من خمن أنه كبير الحاضرين على يمينه، فهزّ الشيخ رأسه وتمتم:

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله.

ألحت عينا ياسين، وتراجع اللغط سريعاً، فيما الرجل الملاصق لصاحب الهامة المطرقة يخاطب ياسين:

ـ ماذا تفعل بضيفك ياوجه الخير عندما تكتشف أنه خانك؟

أجفل ياسين السؤال، وعاد اللغط يتعالى، وعادت عيناه الى الشيخ الذي ربت على فخذه، مشيراً إلى الهامة المطرقة:

ـ كان ضيفنا وخاننا، فاحكم عليه.

تراخت ملامح ياسين وأقبل يحدق في المتهم. أردف الشيخ:

ـ أكرمناه ولم نقصر بحقه. حاشا لله. ذبحنا له وأتخمنا بغاله، ويوم وصل اختفى المسدس. أراد أن يرحل صباح اليوم الثاني فحلفت عليه. أراد أن يرحل صباح أمس فحلفت عليه. وفي هذا الصباح سقط المسدس من عبه، وهو يودعنا.

استوى جذع ياسين وقد خيل إليه أنه أدرى بشؤون هؤلاء الناس، على الرغم من أنه ليس بدوياً، ولم يقض في المكحل غير سحابة هذا النهار. ونحوه اشرأبت الأعناق، كأنه ذو جاهٍ عظيم. الأعناق تعرف والهامة المطرقة تعرف: من حق هذا الرجل أن يبقى لو شاءمعززاً مكرماً يوماً أو يومين، أياً كانت فعلته. من حقه أن ينسلّ وينجو من أي عقاب. كذلك قال ياسين بأناة، قبل أن يباغت المضافة بتساؤله:

- أم أن أحداً ينوي أن يخرج على الشرعة المقدسة؟

هلل الرجال له وللشرعة المقدسة، فاتقدت في عينيه ووجنتيه خبرة المشيخ ووجاهتها، وتراءى له أن يطرق الحديد وهو حام، فسكت مكبراً إلهام الله له، ومقدّ نفسه حق قدرها، وأومأ للرجال فصمتوا، ثم راح ينقل عينيه بين الشيخ والمتهم:

- اتركونا من هذا وتعالوا نفكر في الأهم. الشرعة المقدسة تأمر بدفع الخوة للأمير، و ينقض أحد ذلك. ولكن يوم يدفع الناس فوق الخوة خوة، ولغير الأمير، فهل تكون الشرعة لازالت مقدسة؟

تململ الشيخ وهمهمت بعض الأصوات:

- لا والله.

- يجوز واحد يفكر أن يتشبه بالأمير، ويجعل لنفسه على الناس حقاً جديداً. والأمير، طال عمره، أدرى بأحوال الناس، وأرحم بهم، ولا يرضى أن يحملوا فوق طاقتهم، كما لايقبل أن يخرج أحدهم على الشرعة المقدسة، وليس فينا من يقبل.

قال مصيغاً عبارته الأخيرة بين السؤال والجزم، فهمهمت أصوات أعلى:

- لا والله.

كان وجه الشيخ قد اغبرّ، وعجز عن أن يكتم برمه وغيظه، فيما كانت وجوه أخر قد تقلصت متشوفة أو مشجعة. وقال الشيخ:

- لاحاجة لهذا الكلام يا وجه الخير. كلام معروف، كلام صحيح. والصحيح والمعروف بعد ذلك: الحمل زاد على الشيوخ. غيرنا حمله أخف، وأنت أدرى، والأمير نفسه أدرى الجميع. جيراننا حولنا يجمعون المشيخة مثل الخوة، والناس عندنا حالها أفضل والحمد لله. حتى الذي يعمل في السقاية أو الرعي، حتى الذي يعمل بالربع عند غيره، حاله أفضل بيننا من مثله بين غيرنا. يجوز بين الناس اليوم من لا يأكل غير خبز الذرة أو الشعير، ولكن ما من واحد بلا السمن أو اللبن. وهذا الحرش قريب، هذه التلال قريبة، صاحب الهمة يقدر أن يلحق بغيره.

كلمات الشيخ تلونت على وجوه الذين كبتوا غيظهم من ياسين الحلو، وهزت رؤوسهم استحساناً، كما تلونت على وجوه الذين هللوا لياسين أعلى فأعلى، وجعلت أعناقهم تتهدل وتتطامن. ولم ينج ياسين نفسه من وقع كلمات الشيخ، وهو الذي يعرف أن سطام العبد الله وعشرين سطام العبد الله يدفعون في الطفطافة المشيخة فوق الخوة. واذا كان سطام واحد في الطفطافة يعجز عن الدفع، فليس في المكحل من يعجز. ولكن

الأمر ليس كذلك، فوراء التلة ما وراءها. فضلاً عن أنه كما فكر وهو يتابع لسان الشيخ الزلق، غير قادر الآن على أن يخوض إلا في رفع المشيخة عن الناس هنا. وقد يأتي يوم يكون قادراً فيه على أن يخوض مع الأمير نفسه في رفع المشيخة عن الناس هناك، في الطفطافة وفي سواها، وهذا سيكون أفضل للناس وللأمير، وياسين همه فقط: الناس والأمير. أما الآن فعلى هذا الشيخ أن يرضخ بالحسنى، قبل أن يرضخه الأمير بغيرها. ولا ينبغي لصوت ياسين أن يلين، ولا لحجته أن تضعف. لاينبغي لهيبته أن تصغر، وهي أولاً وآخراً من هيبة الأمير، وقد أسعده أن سعيه من أجل ذلك لم يطل، فالشيخ آثر السلامة، وياسين يشجعه على ذلك، ويجازيه عليه، إذْ يضيف:

ـ أنت تولّ الآخرين إذن. سأترك الأمر على عاتقك، ولن ينسى لك الأمير ذلك. أما هذا البواق فلا تلوث يدك به، ولا لسانك بذكره، واترك فعلته تفضحه بين الناس.

وكانت الهامة المطرقة تود لو تلتصق بالأرض، أو تحتال بذلك، كاتمة فرحتها بالنجاة، فيما هللت أصوات الحاضرين، مستبشرة بانشراح وجهي الشيخ وياسين، فنهض ذو الوجه المجدور يدور بالقهوة، ولم يتأخر المنسف.

★★★

على عجل غادر ياسين المكحل في الضحى التالي، وقد عزم على ألّا يضيع وقته الثمين كما فعل في الطفطافة أو في الرقة، فلا زال أمامه الكثير.

توجه شمالاً، حيث الشطر التالي من مهمته. وفي السبيل عرج على عين آدم ليلة. كان الغروب وشيكاً وهو يقترب منها، فبدت له كما تركها، وكان بوسعه أن يقسم على أنها يمكن أن تبقى كذلك إلى يوم الحشر، مادام الأمير غائباً.

كان يتعجل الوصول إلى هند. وعلى الرغم من أن الشمس قد غابت، فقد لاقاه ابنه أمام الخيمة، ودار حوله وهو ينادي أمه، فرفعه ياسين عالياً وسأله عن الحريم، وهو يحسب أنه قد غادر الخيمة للتو، واختلط في سمعه صوت سوعان يصدعه بأمر الأمير، بصوت الوليدة داخل الخيمة، فعجّل، وإذا بهند تحمل الوليدة في فرجة الخيمة وتهدهدها ضاحكة.

أنزل الطفل عن حضنه، وضمّ هنداً وتفرج على الوليدة التي لم يسمّها بعد، وصلى على النبي، ثم دخل الخيمة متمهلاً، ينكر أن تكون عين آدم لم تتبدل في غيبته أو في غيبة

الأمير. فها هي الخيمة قد اتخذت هيئة جديدة، وهند أيضـاً. وصوت العبد حمود الذي يناديه وهو لما ينزع حذاءه بعد:

- احزر من جاء في غيبتك يقصد الأمير ويعرف ياسين الحلو؟

استدار ملاقياً العبد، عاجزاً عن التذكر، فإذا بصوت هند وضحكتها:

- نسيت أقول لك، جاء رجل يقول إنه صاحبك من أيام الحرب. راغب الناصح، يا ياسين. قال لي: قولي لياسين راغب وبسّ. هو يعرف. وذكر أصحابك الذين حكيت لي عنهم. والله يظهر أنه ابن حلال، ويحبك مثل عزيز وأكثر.

حياه حمود، وعاتب هنداً على أنها لم تنتظر قبل أن تبوح باسم راغب الناصح، فيما راغب يتماثل أمام ياسين، يحل محل حمود، يحضنه ويذرو خلفه أصداء بعيدة، فيها ضحك ونقار وشوق وعتاب ومواويل ودخان ورغاء جمال وبكاء الوليدة وهدهدة هند. وفي صمته فيما حمود يهرف، فكر في أن ماتبدل في غيبته القصيرة هذه المرة ليست عين آدم وحدها. الدنيا التي لا أحد يعرف كم هي كبيرة قد تبدلت أيضاً. بالأحرى صغرت، وجاءت إليه براغب الناصح من العال الى عين آدم. ومن يدري، فقد تصغر مرة ثانية وثالثة ورابعة، وتجمعه هنا أو في مكان آخر بعزيز اللباد أو اسماعيل معلا أو فياض العقدة أو حمادي الحسون، وبعد أن تفعل ذلك، لن تكون أبداً مثلما كانت من قبل. إلا أن راغب لحق بالأمير، كما أشار عليه حمود وسواه، ولا أحد يعرف ماذا يبتغي، وإنْ كان قد ردد أسماء أمراء آخرين وشيوخ آخرين من الجولان.

ظهور راغب عجل بخطوات ياسين نحو الشمال، أملاً في أن يلحق هو أيض بالأمير، ولو لم يطلب أحد منه ذلك. وكان مافعل بهند وما فعلت هند به تلك الليلة ق جعله ينهض مبكراً، قادراً على أن يظل يعدو من عين آدم إلى عين التركمان.

في العشية عرض حمود أن يرافقه، مادامت المسافة قريبة، والغيبة قصيرة، فراق ذلك لياسين، واستحسنته هند. وهكذا انطلقا، كل منهما يرى الآخر يزداد قرباً منه، خاصة حين عاد حمود إلى راغب ، وعاد راغب بياسين الى نثار شفيف وحارّ من الحرب والأخوة، فجاء صوته أشجى من النسيم الصباحي، يفيض بالود ويعانق الروح، وليس كما ألف حمود، سواء مما سمع عن تلك الحرب نفسها، أم مما شهد ، على قلته، من الغزو. كانت نفس حمود تشف وهي تلامس النخوة والشجاعة والرحمة، الشوق والموت، كما لم تألف، كأنها تفعل لأول مرة، فلم تعد لذلك العبد الذي لابد لياسين الحلو أن يحرص على حاجز ما دونه، ولم يعد ياسين الحلو ذلك الدخيل البغيض المتكبر. ولعل حمود

قد تلمس ذلك منذ بات بوسعه أن يتحدث عن شعيلة أمام ياسين، كما يفعل أمام العبيد الآخرين وصحبه من رجال الأمير الأقربين. ولعل ياسين قد تلمس ذلك أيضاً منذ صار يرى في حمود العاشق القلق، وكانت السهول كلما تقدما تدّل عليهما بالبليخ، وتزيد من وقدة المهجتين.

شرقي الرقة تأمل ياسين لقاء البليخ بالفرات، والفرنسيان يستحثانه. لقد رأى المصب قبل النبع القريب. وهاهو حمود يستحثه، لايدعه يلتقي بالنبع على مهل، يستحثه، لايدعه يلتقي بالنبع على مهل، فيجتازان عين عرموس، بعد أن أصر ياسين على أن يدعا عين التركمان اليوم جانباً، ليبدأ مهمته من تل أبيض، حيث رأس الخيط الذي قدر أن عليه أن يمسك به.

حول مقام ابراهيم الخليل كانت الاستراحة التي يقسم حمود أنها قد طالت كثيراً، فيما يقسم ياسين أنه لم يكد يسخن مطرحه حتى بدأ حمود ينق:

- قم بنا.

كان ثمة سوعان آخر للمقام، يرعاه ويتلقى النذور، يذبحها ويطعم الزوار. أما ياسين وحمود فما كانت بهما حاجة إلى أن يحملا نذراً كبيراً ولا صغيراً، وسوعان مقام ابراهيم الخليل ليس على كل حال مثل سوعان عين آدم، كما يؤكد حمود.

شارك في الغداء رجلان من ادلب والجسر كما قال سوعان، دون أن ينبسا. فأقبل ياسين على الطعام صامتاً، يتلصص على الرجلين ملهوفاً، فهما قريبان من الزنبقلي، وإذْ أعقب الشاي الغداء، لم يستطع أن يكتم فضوله، فتساءل:

- ما الذي يأتي بالواحد من ضفاف العاصي إلى ضفاف البليخ والفرات؟

قال سوعان:

- القصب يا أخي.

ولوحت ذراعه بعيداً، وهو يهمّ بالشاي، وتبعه أحد الرجلين:

- إنْ شاء الله نبدأ هذا العام بنقل القصب إلى ادلب.

- وماذا تفعلون به؟

تساءل حمود ببله. قال الرجل الثاني:

- نبيعه.

- تحمل القصب من هنا الى آخر الدنيا حتى تبيعه؟ ومن هذا المجنون الذي سيشتريه؟

تساءل حمود وهو يقهقه. قال الرجل الأول مبتسماً:

ـ واحد يصنع الكراسي، يصنع الحصر والزرب، الدنيا مليئة بالمجانين.

صمت حمود فجأة وحدق بالرجل، ثم حدق في صاحبه، وخاطبه:

ـ تكون أنت وصاحبك. . ؟ من سنة أو سنتين جئت الى عين آدم؟ كنت توشوش الأمير والأمير يضحك؟ بالله عليك قل الحقيقة. . ؟ آه ياحمود. والله العظيم هو أنت، تذكرتك وأنت تذكرتك. .

قال الرجل الثاني:

ـ وأنت حمود. نسيت؟

قال حمود وعيناه لاتهدئان بين الرجلين:

ـ واحد منكم حضر قبل الثاني ومعه هدية من. . من ياحمود؟ وأنت أيضاً حضرت بعد يوم أو يومين ومعك هدية. .

قاطع الرجل الأول مشيراً إلى الرجل الثاني:

ـ هو وصل قبلي. تأخرت في الرقة.

ـ آه، والهدية؟

سأل حمود الرجل الثاني الذي تبسّم قائلاً:

ـ هي هدية واحدة يا حمود؟ من الجسر إلى ادلب إلى حلب حملنا للأمير هدايا وتحيات كثيرين، من الأفندي للباشا.

صاح حمود مباغتاً:

ـ أنت من قال لك الأمير: يا ابن الحرام، ودوت ضحكته من بعد.

وأطلق حمود ضحكة ربما كانت أعلى من ضحكة الأمير حينذاك، وأقبل على ياسين يحثه على النهوض، وياسين يود لو يفسح له كي يتقرى أمر الرجلين جيداً، وليس فقط كي يتنسّم فيهما الزنبقلي.

خرج سوعان في وداع ياسين وحمود، وهمس وصدى شرب الرجلين للشاي لم يختف:

ـ كل واحد ابن حرام أكثر من صاحبه. صدقت يا حمود. الأمير له نظرة في الناس. كل واحد يلعب بالذهب أكثر من صاحبه.

قال حمود متخابثاً:

ـ وأنت يا سوعان: اعترف. لا أحد غريب بيننا. لو خصّك من الجمل أذنه فهي نعمة من الله.

قال سوعان متمسكناً:

ـ سوعان مثل غيره يا حمود. الأمير أرسل من قال لي: القصب ياسوعان. عندك كريم الظاهر في تل أبيض.

ـ القصب والذهب، قالوا لك.. هاه؟

قال حمود وهو يلكز سوعان في خاصرته.

ـ والذهب نعم. كل واحد منكم يكلفه الأمير بشغل فماذا يفعل؟ ما عاد المقام وحده شغلي، والحمد لله، الله سبحانه وتعالى أنعم على المساكين بعد نعمة المقام بنعمة القصب. إذا كنت لاتعرف فأنا أقول لك. قبل أن تنقطع قصبة وتطير إلى ادلب، كوّم ذاك الابليس وذاك الابليس ملء حرجك من الذهب قدام الأمير. أمام عيني حصل، وهنا، قرب المقام. وأنت نفسك تذكرت الهدايا والوصايا. الله سبحانه وتعالى عندما يعطي يعطي بلا حساب.

عاد سوعان مخلفاً صمت ياسين الذي شوشه القصب والذهب والمقام والأمير الذي تصل يده إلى الزنبقلي نفسها، وليس إلى تلدف أو حلب كما كان يحسب. ولعله كان يفكر في أنه يجب ألاّ يكون بعيداً عن ذلك. ينبغي أن يجد له موضع قدم فيها بين عين آدم والزنبقلي، إلا أن حموداً كان ينقض صمته، يبارك للذين يتكوكبون حول مقام ابراهيم الخليل، ويتنادون باسمه، ومنهم سوعان نفسه، وليس فيهم من لايخدم المقام، وإنْ كان سوعان على رأسهم. فمن بركة المقام، مما يخصّ هؤلاء من نذور المقام، الى القصب والذهب، أعطاهم الله سبحانه وتعالى بلا حساب، كما قال سوعان، وهم الذين طفروا في يوم من الأيام من حوران، ورحلوا الى هنا، جاوروا الينابيع والمقام، فالينابيع جاءت بالرزق، والمقام حماهم من غزو العشائر، حتى عنزة نفسها تركتهم بسلام، بل أضافت حمايتها الى حماية المقام. وكان حمود يدعو كل حين:

ـ يا رب اذكرنا بنعمتك.

ورأى ياسين لسانه يردد أخيراً:

ـ آمين اللهم آمين.

وكانت تل أبيض قد صارت على مرمى حجر من مقلاع حمود، يوم كان مقلاعه مضرب المثل في عين آدم.

★★★

كريم الظاهر، ذو الذراع المبتور، والعينين الفاحمتين اللتين تبرقان، كان أول من التقى ياسين وحمود في تل أبيض. وعلى الرغم من أنه لم يكن لياسين شأن معه، فقد استجاب لرغبة حمود في الجلوس إليه أمام الخان الصغير، مادام صاحب تاجري القصب، كما أومأ سوعان ، ومادام هو من لاتقوم طاحون على البليخ من يوم الانقلاب الأول على السلطان حتى هذا اليوم، اذا لم يكن حاضراً.

كذلك أسرّ حمود لياسين وهما يقتربان من الخان، ثم أسرّ له وهما يبتعدان بعد أن قدم لهما كريم الظاهر الشاي:

ـ هو الذي جاء به أول مرة الى الأمير دشاش، وما كانت ذراعه مبتورة، ابن الرها، نديم آغا، رحى الطاحون هرست ذراعه، ولم يمنعه ذلك من الشغل كأنه بعشرين ذراع. وكما رأيت، حتى وهو عجوز مازال وحده من يشير على كل الذين يقصدونه، من حران الى هنا. حين يشرع واحدهم بطاحونة على الماء.

سر ياسين لأن كريم الظاهر كان على صلة بنديم آغا، ولعله لايزال بعد أن قامت الحدود. وتمنى أن تكون الصلة لم تنقطع، فهاهنا، في تل أبيض، حيث رأس الخيط الذي ينبغي لياسين أن يمسك به جيداً، كانت لنديم آغا هذه الأمداء من الأرض التي يزرعها عشرات الفلاحين من البقارة بالذرة والشعير والحنطة.

كان نديم آغا يقدم الأرض والماء والبذار، والفلاحون يفلحون على دوابهم، يزرعون ويحصدون، ويأخذون النصف، وتلك قسمة أخرى مما تنقسم به المواسم بين الفلاحين والأغوات والشيوخ، ورأس ياسين صارت تدور مع ماعرف من أصناف ذلك، يخشى أن يخلط بينها.

ما كان نديم آغا طماعاً ولا جائراً فيما يلوح، فهل كان ذلك عن طيب خاطر أم لأنه ابن الرها الغريب، والفلاحون هم أبناء البقارة، والجار هو الأمير دشاش؟

كل ذلك قد ولى على كل حال بعد ما رحل الأتراك وقامت الحدود. لم يعد الفلاحون يدفعون نصفاً ولا ربعاً. الأقوياء منهم استأثروا بأرض نديم آغا . نديم آغا باع لمن دفع . وثمة من لم يدفع، دون أن يرفع يده عن الأرض. ثمة من باع الأرض التي لم يدفع ثمنها، ومثلما اشترى بعضهم من نديم آغا، اندفعوا يشترون ممن عجزوا عن متابعة مشوار الشراء. ومهما يكن شأن الجميع، فلمن يدفعون الربع أو نصف الربع بعد أن صار نديم آغا تركيّاً، وصارت الرها خلف الحدود؟

كل ذلك قد كان على كل حال خلال السنين القليلة الفائتة، يجري بصمت وبطء، شأن الحياة في أعقاب الحرب، والأصداء التي كانت تصل الى عين آدم أساءت الأمير. فلما تعالت الأصداء، وتواتر البيع والشراء، وقد يكون لغير ذلك، مادام الأمير قد أصدر الأمر من مشتاه ـ جاء ياسين الحلو.

في العشية التقى وحمود الى جانبه بعدد من الفلاحين الذين كان ماظفروا به من أرض نديم آغا أكبر وأخصب. كان بيت كريم الظاهر الذي آثر ياسين أن يكون اللقاء فيه، يضيق بالمدعوين، كما ضاق ياسين بما كان يرمي أولاء بين يديه.

قال ابن جرادة الأحول وهو يلاعب عينيه:

ـ هل يرغب الأمير أن يريح الناس من ميراث نديم آغا ومن كل هذا التعب؟

وشوش كريم الظاهر في أذن ياسين:

ـ نصف ميراث نديم آغا صار ببطن ابن جرادة. اشترى من نديم آغا ومن الفلاحين. اليوم قبل وصولك اشترى.

تضرع ابن جرادة مفرداً كفيه:

ـ يا رب ألهم الأمير يارب.

قال ياسين حانقاً:

ـ اذا كنت تعني أن يشتري الأمير، فلا حاجة له، ولا مطمع.

اندفع ابن جرادة مبالغاً في اللعب بعينيه:

ـ حاشا لله:

تابع ياسين بصوت أعلى:

ـ إذا كنت وحدك تريد أن تبيع، قل بصراحة. اترك الناس وتعبهم وراحتهم. أنت تشتري حتى تبيع للأمير أو لغير الأمير؟ لا والله.

انكمش الرجل يحدق بعداء في ياسين، وسُمِع صوت يحثه على أن يجيب، ثم سُمِع صوته بعد لأي يعلو على اللغط:

ـ نحن للأمير والأمير لنا.

سُمع صوت آخر يقول:

ـ مابيننا وبين الأمير حجاب، وما يريده يصير، نحن وأولادنا وحلالنا وأرضنا للأمير والأمير لمن؟

قال ياسين حازماً:

ـ وبعد هذا الكلام نقول: كل واحد منكم ومن غيركم حرّ، يشتري، يبيع، هو حرّ. والمهم: ما كان نديم آغا يدفعه للأمير، كل واحد منكم يدفع منه على قدّ الأرض التي يفلح ويزرع. وعندي بعد هذا الكلام كلام. كل من زاد فوق ماكان تحت يده من أرض نديم آغا يدفع زيادة، وعن كل سنة من السنين، بعد ما راح نديم آغا، حيث الذي مازاد، حالته ضعيفة، والأمير لايحمل الانسان فوق طاقته، وأنتم تعرفون عفته وكرمه ورحمته.

وأرخى ظهره على الوسادة، وصدى كلماته يتردد في أذنه، يملؤه مهابة، فيما ظهور الآخرين تتقلقل، من حمود الى كريم الظاهر الى ابن جرادة الى الذين أعجبهم ما قال ياسين والذين لم يعجبهم. ولم يلبث اللقاء أن انفضّ وحمود يتهيب من أن يقطع على ياسين استغراقه وزهوه، ويذكره بأنهما لم يفكرا في المبيت.

في بيت كريم الظاهر قضيا ليلتهما. كان ياسين أشبه بالمنوّم قبل أن يطفأ القنديل، وقد خيل إليه أنه منذ قليل لامس العدل والقوة معاً، ولا بد للأمير دشاش أن يوافق على مارسم للناس. كانت صورة الأمير المدجج تبرق في أرجاء البيت، وصوت ياسين يتردد فيها، مقدراً لكل ذي حق حقه. ولو كان قادراً على الكلام لسأل حمود وكريم، كيما يتأكد مما يختلج في أعماقه، ويذهل عينيه. وقد زاده، ما به عزماً على ما ينتظره في الغداة في عين التركمان، فأطبق جفنيه قريراً. ولعله ظل كذلك. بين النائم والحالم، بين اليقظة والنوم، حتى صاحت ديكة كريم الظاهر التي ذبح منها في العشية جمعاً.

في الصباح أقبل بشوشاًعلى حمود، الا أن حمود لم ينس ما ارتسم بغتة من حاجز أعرض أو أعلى أو أمتن بينه وبين ياسين، فخلد الى الصمت، بل صار يتأخر عنه في سبيلهما الى عين التركمان، أما في القرية فقد تكوم كتابع وحسب.

هاهنا لم يبع نديم آغا إلا للأمير دشاش. الآخرون من أغوات الرها باعوا لمن دفع سراً ـ آل الى جهر فوراً ـ أكثر من الأمير. وقد استوى في ذلك الأغوات جميعاً، من التركمانيين ومن سواهم، مما ساء الأمير، ليس لأن البيع تم سراً، أو دون العودة إليه على الأقل، بل لأن الذين اشتروا لايعرفون كيف يشترون، وهم من رعيته، يجهلون ما ينفعهم وما يضرهم، والأمير هو الأدرى بما يصلح لهم، كما يذكر ياسين من مسامرات قديمة، ربما قبل أن يموت غنيم الضرس.

أغوات الرها جميعاً كانوا يدفعون الخوة بانتظام وسخاء. كانوا لايكادون يظهرون في عين التركمان الا في ذهابهم الى الأمير دشاش، أو في إيابهم من لدنه. فكيف أخطؤوا إذن. - سوى نديم آغا الذي أخطأ بدوره في تل أبيض - وباعوا لسوى الأمير؟

في الطريق لم يفد حمود بجواب، أو لم يشأ أن يفيد، وهو الذي لابد أن لديه قولاً في ذلك، كما يظن ياسين. أياً يكن الأمر، فالأمير يود أن يوكل ما اشترى من نديم آغا - وهو ينوف على ربع الأرض - الى المختار الذي اشترى بدوره أكبر مما يتوقع، ولكن ليس من نديم آغا، بل من الأغوات الآخرين. وفي الآن نفسه، قدر ياسين أن الأمير مهتم بالخوة عن كل مابيع وما اشتُري، هنا كما في تل أبيض.

إلى بيت المختار توجه ياسين وحمود فوراً. ولم تكد كفه تهز فنجان القهوة الأول حتى سأل المختار:

- وصل قانص بن قانصة يا مختار؟

- الى أين باسم الله؟ طردوه من جديد؟

قال ياسين متمطقاً باللهجة الآمرة:

- طردوه وقانص في طريقه إليك. اعتن به يا مختار. وصيتي عندك.

- أضعه في عيني، ولو كان شوكة، كرمى لك.

قال المختار متلمظاً، فبادره ياسين بما عنده، فنهر المختار بالقهوجي أن يدور ثانية، وهلل للضيفين العزيزين، وقال والفنجان في يده:

- ماذا كنت أفعل إذن منذ رحل أولاد الرها؟

ثم أشار الى الرجل الوحيد الذي كان يجلس بعيداً، قرب باب المضافة، وعلا صوته:

- حتى في هذا الموسم كيف كنت تقسم المياه. احك. قل كيف كان نصيب أرض الأمير؟

ثم التفت الى حمود وتابع:

- دوريات العبيد رأت مرة بعد مرة. ويمكن حمود كان على رأس واحدة منها.

أومأ الرجل الذي يراقب السقاية، كما أومأ حمود، مؤكدين صدق المختار. وسر ياسين لذلك، كما توقدت عيناه، وعاودته الالتماعة التي حركت لسانه في تل أبيض، فقال:

- ليس هذا بالمهم. هذا نعرفه. من الآن فصاعداً كما قلنا: أنت وكيل الأمير في الحمام. وليس هذا بالمهم. هذا نعرفه. من الآن فصاعداً تتبع الراغبين بالبيع من هؤلاء الذين

اشتروا من أغوات الرها. أبدأ بنفسك، ثم تأتي بهم من بعدك، واحداً واحداً، فالأرض كلها بعد كم يوم، لاكم شهر تكون للأمير، والمختار وحده القادر، لذلك خصّه الأمير، وصار المختار والوكيل، وبدل الحصة له حصة فوق حصة، فهل بعد هذا الكلام كلام؟

نظر المختار الى الرجل القابع قرب الباب ولهج شاكراً. فخاطب حمود ذلك الرجل:

- أنت أخرس وأطرش.

- أخرس وأطرش.

ردد الرجل، وانفرجت أسارير المختار، وأرخى ياسين ظهره على الوسادة، وصدى كلماته يتردد في أذنيه، يزيده مهابة وظهر حمود وحده هذه المرة يتقلقل.

ثانية أخلد ياسين الى الصمت، حتى بعد أن حضر الرجال، فقد كان يفكر أن ما وقع في تل أبيض لاينبغي أن يتكرر هنا. وهذا الذي عالج به عين التركمان الساعة، سوف تأتي ساعة مماثلة، غير بعيدة، ويعالج به حينها تل أبيض.

كان الرجال يرسلون الكلام أنى شاء لهم المختار، بعيداً عن الأرض وأغوات الرها والبيع والوكيل الجديد للأمير دشاش، يرتشفون القهوة مرة بعد مرة، والمختار ينهر بالقهوجي، والرجال يعبرون عن زهدهم بالأرض تارة، يترحمون تارة على عهد آبائهم وأجدادهم، حين كانت عين التركمان أهدأ وأهنأ، نصفها يتقاسمه الفلاحون بينهم بالتساوي، ونصفها لمن جاء بالغم، حين باع بعضهم لأغوات الرها، كانوا تارة يسخرون من مراقب الري، أو من الحارس الذي لايقدم ولا يؤخر - وكان الاثنان حاضرين بينهم يضحكان - ويتبارون فيما بينهم تارة، فيمن يقيم سكراً أفضل، أو يروي أفضل، واستطرد بعضهم الى العربان التي مازالت تأكل الشجر، على الرغم من أن ذلك يغضب الأمير، وحلفوا بالله أن الشجر لن يكثر يوماً في هذه الأرض، على الرغم من نهرها ومطرها، مادام الحارس هو الحارس والعربان هم العربان.

كانت ممازحاتهم أيضاً تضاعف اللغط وتزيده شتاتاً، وياسين لاه عنهم، ينتظر أن ينفض مجلسهم ليخلو بنفسه، ويتفحص ما أنجزت من الطفطافة الى هذه المضافة. ولما خلت المضافة إلا من أنفاسه وأنفاس حمود، أسعده النجاح السهل والسريع الذي حققه في كل مكان، فراح يفترض أن هذا المختار لم يقبل أن يكون وكيلاً، فيكون إذن على ابن الحلو أن يختار بديلا، وهو الجاهل بأهل عين التركمان، ولايدري أين هي الخبرة والأمانة

والمكانة والعشيرة والتركمان وسوى ذلك من الكثير الذي ينبغي أن يراعى في الوكيل. ولأن ذلك يقتضي من ياسين مغامرة أكبر، وأياماً مفتوحة، ترك لنفسه أن تستمتع باليسر الذي خصّها الله به، وتغفو حالمة بعين آدم في الغداة.

★★★

ألح حمود في العودة على أن يعرجا على أرض القنب التي يفترض به وبمن معه من العبيد ألّا تغيب عن عيونهم لحظة. ولم يكن ياسين قد اقترب من تلك الأرض، على الرغم من قربها من عين آدم. ولكن ذلك لم يجعله يلين لحمود، لولم يتعلل بشكه في أن يكون العبيد الآخرون قد تكاسلوا في غيبته، كما يفعلون عادة.

كانت الأرض لاتزال بعيدة حين تجرأ حمود على الحاجز الذي قام بينه وبين ياسين منذ تلك العشية في تل أبيض. ولأن ياسين قد لان، استطرد حمود مزيناً له:

ـ واحد مثلك عليه أن يعرف اليوم كل شيء، يرى كل شيء، وما لايلزم اليوم يلزم بعده.

هزّ ياسين رأسه مستحسناً، وتراءى له أن بعضاً من الوقت يقضيه في أرض القنب قد يكون أفضل، حتى بالنسبة لهذه المهمة التي أنجزها، وإنْ كان لايتصل بها من قريب أو بعيد.

حين لاحت الأرض، أعاد حمود شكوكه في العبيد، وزلق لسانه الى شكوكه في المختار وقال:

ـ لا أحد يمكن لك أن تؤمنه وتنام، من كل تلك العشائر التي ربطت نفسها بالأرض. وكل الذين كانوا رحّلاً وصاروا شوايا، ليس فيهم كبير ولا صغير، شيخ أو مختار أو فلاح أو راع، يخلص للأمير أو لعنزة أو لغيرها من العرب السيار، إلا إذا كان النعل فوق رقبته. وأنت ما فلحت الا لأنك طلعت عليهم بالعين الحمراء من أول كلمة. بالقوة وحدها يطيعون، واسأل من تشاء. لاتسألني أنا. أول فرصة تجيء للواحد منهم يبدأ اللوص. العربي مثل التركماني مثل الكردي، لافرق.

قال ياسين:

ـ عرفت بعض ذلك، ورائحته عتمت على صدري في المكحل والطفطافة.

فشجع ذلك حمود الذي أردف:

ـ يقولون لك من سنين غير معدودة، من جيل بعد جيل، والحرب بين السيار والشوايا

قائمة. تظن عنزة وحدها؟ لا. يجوز أني أعرف ما لا تعرف. أنت رأيت من الدنيا ما رأيت، ودرت من مكان الى مكان، أما أنا فقد ولدت هنا وعشت هنا، والله أعلم أموت هنا. متى ما حل الصيف واقترب البدو من الماء وقعت الواقعة. صحيح أن هذا قل في عهد الأمير دشاش، وما عاد واحد من الشوايا يرفع رأسه، ولكن انظر هذا الذي يجري هنا وهناك، أنت بنفسك حكيت: من المكحل الى الطفطافة، ومن بعد، أمس وأول أمس، من تل أبيض الى عين التركمان. لماذا؟ لأن الأتراك رحلوا؟ لأن فرنسا جاءت؟ يظنون أن الدنيا ضحكت لهم. هم يدفعون الخوة، نعم، ولكن هذا لا يكفي. كنت أريد أن أسألك: ماكان أفضل لو أن الأمير عيّن بدل المختار واحداً من العبيد؟ مرات كثيرة فعل هكذا. ماكان أفضل لوعيّن ياسين الحلو؟

كان ياسين يؤمن في سره على مايقول حمود، ويخشى في الآن نفسه من أن ذلك يظلم عشائر جمة راضخة ومسالمة، فهؤلاء الفلاحون المسالمون حول مقام ابراهيم الخليل، أو في عين آدم، هل يصحّ فيهم ما يصحّ بغيرهم ممن رأى ومن لم ير؟

حمود لايستثني أحدا. فمن في عين آدم شأنهم شأن سواهم. كانوا ذات يوم يترحلون، ربما منذ مئة سنة، منذ مئتين، الله أعلم، ثم حلا لهم البليخ، جعلهم يتركون الجمال والخيول، ويفلحون على البقر والحمير. صاروا يزرعون الحنطة والشعير والذرة والعدس. صاروا يبنون السكور على البليخ، وهاهنا النبع أيضاً، والأرض الطيبة، وصاروا يمشون على أقدامهم ليلتين الى أورفه ويفيدون، ولكن كيف يفلتون مما كتب الله لهم؟

من شرقي حلب عبر والد الأمير الفرات، وفرض حمايته عليهم وعلى سواهم، من هناك الى هنا الى هناك، أبعد مما رأى ياسين جنوباً، حتى شمالي تل أبيض، مما اقتطعت الحدود الجديدة بين سورية وتركية، ومن حيث يعرف ياسين غرباً، على نهر الذهب، الى مالم ير بعد شرقاً. ولولا حماية الأمير - يؤكد حمود ويؤكد رأس ياسين - لما كان أحد إلا الله يعرف ماذا يمكن أن يقع.

بعد رحيل الأتراك أراد الأمير أن يسجل باسمه له بعض أرض عين آدم هذه، ولكن كان بعضهم قد بدأ يلعب بذيله. هل تصدق؟ سأل حمود، فاحتار ياسين وسأل نفسه:

- ماعين آدم لولا الأمير؟ من كان يمنع الأمير لو شاء أن يسجل عين آدم كلها؟

قال حمود:

ـ هذا هو قلب الأمير. القلب الذي يضرب به المثل. أقسى من الحديد، وبعد ساعة يفيض رحمة.

كان ياسين يعرف أن الأمير قد سجل سهمين فقط من أرض عين آدم التي تبلغ اثنين وعشرين سهماً. وقد تعجب وغنيم الضرس يشرح له، وهما في الطريق الى عين آدم، من أن يكتفي الأمير بهذا القدر اليسير، وكرر عجبه أمام حمود مترحماً على غنيم، إلا أن حمود ليس بغنيم، حمود ينكر على ياسين عجبه، وياسين يطوي جفلته من قسوة حمود المفاجئة، وحقده على الشوايا، وعلى كل ماليس ببدوي قحّ، على كل ماليس للأمير. ولعل ياسين كان سوف يخاتله. بذلك، لولا أن استوقفهما الصخب الذي أخذ يعلو من أرض القنب.

كان ثمة دخان يتعالى، وجمع من الشبان والأولاد يتصايحون وينطون، وتشمم ياسين رائحة أليفة لهنيهة، ثم جرى يصرخ بحمود كالملذوع:

ـ أبعدهم أبعدهم.. من جاء لهم بهذا؟ هاتوا الماء.. الماء يا حمود..

واندفع يهيل التراب على الكومة الصغيرة التي ينبعث الدخان الصافي منها، ويأمر حمود أن يرفسها. ارتد الجمع هلعاً. أبعد حمود وشتائمه الأولاد خاصة، وعينا ياسين تهومان فوق البقعة الخضرا، ولسانه يخاطبه قبل أن يخاطب حمود:

ـ قنب هه؟ أرض القنب ياحمار؟

إنها الرائحة التي يميزها أنفه جيداً، رغم أنه افتقدها منذ زمن طويل. فغنيم الضرس لم يمد يده الى ياسين الحلو بسيجارة في عين آدم. ولم يذكر، لاهو ولا سواه، زراعة الحشيش هاهنا بكلمة. ولعله مات وهو يجهل. بل ان ياسين نفسه مالبث أن نسي الحشيش ونقله وأطيافه واسكندون ونساءها وهفل وصادق آغا الباعا. أما حمود الجحش فيتحدث عن القنب، والحراس الأشداء قد غافلوه، فناموا، وتركوا المجانين يعبثون.

نادى حمود على اثنين من أكبر الشبان، فتقدم أحدهما شامخاً، بينما يقدم الآخر رجلاً ويؤخر أخرى، وقد تملكه الرعب، وشحب وجهه.

قرأ ياسين في عيني الشابين أثر الحشيش، وصرخ حمود:

ـ من فعل ذلك؟

قال الشاب الشامخ:

ـ أنا..

صفعه حمود على خديه وهو يهدر:

- وتقولها؟ كيف مددت يدك يا ابن العايبة؟ والله والله سأقطعها وأرميها للكلاب
بكى الشاب الآخر وهو يتهاوى، فقرفص ياسين قبالته يهدئه ويسأله:
- كم مرة فعلت قبل هذه المرة. قل لي ولاتخف.
- هات المصحف لأحلف لك. أول مرة ياعمي.
وانتفض فجأة ثم جرى بعيداً وهو ينغم صوته الشجي:
- مال أبوكم؟ الجحاش طارت في السماء. جحشنا يا أمي بين السماء والأرض..
قهقه الشاب الشامخ وفتح ذراعيه في وجه حمود وياسين الذي اقترب:
- ماعجب أمك أن ترسلك لتجد لها الجحش الا هذا الوقت؟ تراه يرعى هنا أو هنا. أين يروح الجحش. قل له بالله عليك. لا، قل له أنت.
جرى خلف الشاب الباكي بعض الأولاد والشبان، وعلا نباح الكلاب، وهياج حمود، واذا بالشاب الشامخ يفلت من صفعات حمود وقد سخن خداه وتوردا، فتناول حصاة قذف بها الكلب ونهره:
- ولك أنا الأمير أم أنت؟ كيف تنبح بدون أذني؟
رمت الحصاة أحد الأولاد أرضاً، فقذف الشاب الكلب بسواها وصوته يشق الفضاء:
- أنا الأمير. زاد انت أمير ولاّ كلب؟
أخرست الحصاة الكلب، الا أن مسدس حمود كان قد دوى، رصاصة، رصاصتان، رصاصتان فقط، أرقصت الأولى الشاب، وكومته الثانية قرب الكلب والولد، والشاب يقهقه ويقلد عواء الكلب ويعيّر حمود بعبوديته.
كانت كف ياسين قد أطبقت على كف حمود، ثم انتزعت المسدس منه، وفرّ بعض الأولاد والشبان، فيما صاح حمود بآخرين:
- احملوه الى الخيام.
ولم يسمع أحد صوت ياسين:
- ماذا فعلت يا حمود الجحش؟
كانت عيناه تغيمان، والطنين يعلو في أذنيه، لايكاد ينقطع. ولعله ظل كذلك حتى كانت عين آدم قد شبعت الشاب الذي قتلته رصاصتا حمود، والولد الذي قتلته حصاة الشاب، فيما البنادق تحرس الجنازتين، وحمود مازال مقعياً قرب الحشيش، وياسين حبيس خيمته، مصماً عن هند والطفل والناس والوليدة، حتى إذا لفت العتمة الخيمة، وتناهى

إليها صوت حمود، انتفض ياسين، واضطربت أنفاسه، فاندفع خارج الخيمة، لكن النداء المشروخ ألجمه، وكان صوت هند يخترق فؤاده:

ـ امش من هنا قبل أن أجمع عليك الناس.

اندفع ياسين نحوها، وشدها من ذراعها وراءً، فارتمت وهو يصيح بحمود:

ـ ماذا تريد؟

تراجع حمود كسيراً:

ـ أنت أيضاً مثلها؟ ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ سمعته مثلي؟ هل تجرؤ أن تقول للأمير ماقاله؟

قال ياسين:

ـ اترك الأمير يعاقبه. ما شأنك أنت؟

حشرج حمود:

ـ وتطير رأسي ورأسك. صدقني ياياسين: رأسي دارت لما ملأ الدخان صدري. صدقني: دارت الدنيا بي وجوفي يتلوى حتى العصر. لعنة الله على القنب وعلى من بلانا به. لو تدري كم عبد منا طاحت رأسه بسبب هذه البلية، واليوم جاء دور حمود!

تلمس ياسين رأسه، وتربع قبالة حمود، يخترق العتمة ويتأمل عيني العبد الذابلتين، وقد عاوده الطنين الذي يخرشه صوت حمود:

ـ كل البلاء من الفرنسيين. أنت مشيت معهم. شفت الطبيب القصير. صدق من قال كل قصير في الأرض فتنة. الطبيب أول من أهدى الأمير حفنة من بذر القنب. والله لا أعرف. مرة يقولون الطبيب القصير مرة يقولون غيره، واحد من الفرنسيين الذين في بيروت. لعنة الله عليه ولو كان رئيس فرنسا كلها.

صمت حمود، ونأى الطنين بياسين عنه، فغنيم الضرس قد أخفى ما أخفاه، على الرغم من كل ما لقنه، ومات وربما مات السر معه، فمن يمكن له أن يعرف أول من جاء بالحشيش إلى الأمير، أو أول من زرعه، أو أول من نقله، إلا غنيم الضرس؟ وغداً أو بعد غد، حين يعود الأمير، ماذا عساه يقول ياسين الحلو؟ هل يدافع عن الشاب؟ وبأي وجه؟ هل سيحييه أم سيحيي ذلك الولد لو دافع عنها؟ وهذا العبد المسكين الذي كان قبل الظهر وحشاً كاسراً، هل ستطير رأسه حقاً؟ بماذا سيتعلل ياسين لخروج حمود معه؟ ألن يصيب ابن الحلو من غضب الأمير ولو بعض الرذاذ؟

ظل الرجلان متربعين وصامتين حيناً، حتى نادى الطفل على أبيه، فنهض حمود يجر قدميه مبتعداً، وعاد ياسين الى الخيمة، ليلاقي صوت هند المجافي:

- كيف قعدت مع هذا الكلب ودم المسكين ما نشف بعد؟

- وحّدي الله ياهند.

تمتم وهو يتهاوى قربها. قالت هند:

- لا إله إلا الله. لعب بعقلك؟ من الفجر تلحق بالأمير وتحكي له على كل شيء.

نظر إليها منبهتاً، وتراءى له أن هيئة قديمة لها قد عادت، فتململ يود أن ينزع عنها تلك الهيئة، يذكرها بما تبدل من سنة الى سنة، ومن مكان الى مكان، إذْ ماعادت هي التي تفكر جيداً، وهو الذي يغتبط أو يضيق، وينفذ بما تشير. وعزم في سره على ألّا يذهب إلى الأمير، حتى لو كان صواباً ماتقول هند، فكيف إذا كان عليه أن يتريث حتى يرى مايؤول إليه مصرع الشاب ومصرع الولد؟أما هند فراحت تصب سخطها على عين آدم وعلى الوليدة التي لم ينقطع بكاؤها منذ المساء. ولعل لسانها تطاول أيضاً على ياسين كما لم تفعل أبداً، وهو يهرب من عيني الطفل، ومن نفسه، محتمياً بالصمت لأيام، حين وصل عدد من رجال وعبيد الأمير، بينهم طبيبه الفرنسي القصير، وراح يتردد أن الأمير قادم، وأن القنب قد أتلف كله، وسوف يزرع بعيداً جداً، وكان لون حمود قد أخذ يلمع، كأن الحياة تدب فيه من جديد.

★★★

12

على الطريق بين بللوران والقرية كان عزيز اللباد قد عرف الكثير من سبب شكوى المرأة. فهي أرملة منذ سنوات، مادام زوجها لم يعد من الحرب. وسواء قبل سوق المرحوم الى الحرب أم بعد، فهي ما انفكت تعمل ليل نهار. بل إنها كانت تعمل ليل نهار عند أبيها قبل زواجها في الرابعة عشرة. وعلى الرغم من أن عثمان قد كبر، وأخواته الثلاث أيضاً، فلازالت أم عثمان تفلح وتزرع وتحصد وتحتطب وتهيء مشاتل الدخان وتقطفه وتشكه. وقد أضاف عثمان الى همومها هذه السنة هم حاكورة القطن كما أضاف السنة الفائتة هم كرم الزيتون الجديد.

كان عثمان يضحك ويقاطع أمه، بل ويناكدها، فهو أيضاً يعمل ليل نهار منذ غاب أبوه. لقد حصد وحده هذا العام، وشقيقتاه الكبريان هما اللتان نقلتا الحصيد وقامتا بدرسه. وهو الذي قطف الزيتون العام الماضي، والشقيقات الثلاث هن اللواتي يتكفلن بحاكورة القطن. وعثمان منذ سنتين يقطع من الحرش الملاصق ويزيد في الحاكورة الصغيرة. وكانت أمه تتنهد وتدعو له، وتزيد فيما يقوم به متباهية، ثم ترسل شكواها أعلى، وتقول: الهموم مفرّقة والأبواب مغلّقة.

مع الأسرة الصغيرة قضى عثمان السهرة على البيدر المواجه للبيت، غربي القرية التي لم تكن بقعة صغيرة تلطخ الغطاء الحرجي السابغ، كما حسب.

كشف ضوء القمر أمامه عشرات البيوت، ومساحات كبيرة من الحواكير، فيما كانت تتصادى الضحكات والمواويل والأهازيج من أكثر من بيدر. قال عثمان:

ـ البيادر صارت جاهزة للتذرية. شاهين اغا يحضر إنْ شاء الله غداً أو بعد غد، ويأذن بالتذرية، ونبدأ.

قالت أم عثمان:

ـ وتبدأ القسمة، تبدأ المصيبة، مثل كل سنة. لطفك يا رب.

كان عثمان قد رافق وفد القرية الى سرايا شاهين آغا التركماني منذ اسبوع، فهو لم يعد ولداً حتى يترك أمه تجري خلف هذا الجار أو ذاك القريب كي يحمل هديتها الى الآغا، ويتعلل لشاهين آغا التركماني بترملها وعجزها، حتى يوسع لها، وإنْ تكن هديتها أقل شأناً من هدايا الفلاحين.

حمل عثمان الى السرايا خروفاً وديكين وكومة كبيرة من الباميا والكوسا، وكومة كبيرة أيضاً من ألوان العصافير التي وفق باصطيادها عشية انطلاق الوفد.

أثنى شاهين آغا على عثمان، وترحم على أبيه، وسأله عن القاصرات وعن القطن والزيتون، ولكن لم يسأله عن أمه وعن الموسم. وكان عثمان سعيداً بذلك، كما روى لعزيز متفاخراً، إذ أن شاهين آغا عامل من كان أصغر من في الوفد مثل أي من الفلاحين الآخرين. وكانت أم عثمان تتشرب كلمات ابنها، كأنما تسمعها لأول مرة، وعزيز يرقب شغفاً وجهها الذي أضاءه القمر، ولم تعد غضونه بادية. بل إن الغضون التي لمح في ظاهر كفها قد اختفت، وسمرتها بدت أقرب الى ما يذكر من سمرة نجوم الصوان، أوهيلانة، كما ردد صوتها في أذنيه صوت نجوم، أوصوت هيلانة، وجعله يتساءل، مؤنباً نفسه، عن نسيانه للكثير الذي عاش قبل أن يطلق الرصاص على عبود بك الرشدة.

كان عزيز أشبه بمن يلجأ الى دفء هذه الأسرة، يدقق في عثمان الذي أذكره بشقيقه يوم سيق هو الى الجيش، يحنو على الصغيرات الثلاث، ثم يسترق من أم عثمان نظرة تطول أو تقصر، يخيل إليه أنه يقضي الصيف المقمر كله على هذا البيدر، ويداري لوعته على أسرة مثل هذه الأسرة، يعيش معها هناك، في قبية، أو هنا، أو في أية أرض يسوقه قدره إليها.

وإذ تراجعت أصداء البيادر، وحثت أم عثمان بناتها على النوم، تمدد وعثمان الى جانبه على البيدر، بلا غطاء، منذ هلاً بالقمر الذي أوشك أن يصير بدراً. أحسّ أنه لم ير القمر كذلك منذ ساقه القدر بعيداً عن قبيه. امتلأ خشوعاً وهو ينصت الى تمتمات أبيه الضارعة الى قمر قبيه. اختلطت تمتمات أبيه بتمتمات حمادي الحسون الضارعة الى قمر الصحراء، وشك في أن يكون أي منهما قد فعل، وإنْ هي الا هواجسه التي جعلته يأتي بحمادي وبشيخ البودي وكثيرين سواهما الى هذا البيدر، الى هذه الأحراش، فثمة، كما قالت أم عثمان، مع التركمان والأرمن وغيرهم علويون أيضاً، ينتشرون حتى انطاكية، حيث يمكن لعزيز أن يلتجىء، إذا لم يشأ أن يتابع أبعد.

بعد قليل سرت في جلده برودة الليل والأحراش، ووجف للصمت الدقيق، فتماثلت له الصحراء : قمرها وليلها وبرودتها ، والخوف الذي يغشاه فيها قبل أن يسرقه النوم ، فيما فياض العقدة يتمدد الى جواره، في مثل سن عثمان الآن، في مثل طوله، لايكاد يغفو حتى يفاجئه بسؤال، بعد سؤال ، وقد هجع الجيش الميمم الى الشمال، كما هجعت هذه القرية. ولعل عزيز كان قدأغفى حين تسلل إليه همس عثمان:

ـ نمت؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ كنت على وشك. وأنت.

ـ كنت على وشك. كنت أفكر. وأنت.

ـ كنت أفكر.

ـ بماذا.

ـ قل أنت.

ـ فكرت بشاهين آغا. في الصباح، يمكن، تراه.

ـ ياما شفت أغوات قبله. وياما أشوف بعده، والله أعلم.

ـ تخاف منهم؟

ـ كنت . وأنت؟

ـ شاهين آغا له رهبة. أغوات التركمان كلهم.

قال عثمان، وسكت عزيز قبل أن يستحثه حانياً:

ـ هه؟ قلت لي تخاف الأغوات؟ كلما كبرت يقل خوفك.

قال عثمان:

ـ حظنا من المساء.

ـ كيف؟

ـ ما عاش آغا بيننا. لوتراهم في السرايا.

ـ كيف؟

ـ الأغوات يتسابقون لبناء قصورهم فيها. واحدهم في وجهك ليل نهار. الله يساعد الناس في السرايا.

ـ وما الفرق؟

ـ هكذا تقول؟ يجوز معك حق. أنا وأمي وأخوتي لانهدأ ليل نهار ولا نكاد نشبع. الخير كثير ولايكاد الواحد منا يشبع. لافي هذا البيت ولا في السرايا. خوفي يصح قولك يا أم عثمان.

سأل عزيز:

ـ وقولها ماهو؟

قال عثمان بأناة:

ـ مثلنا مثل الدواب، أولهم للعذاب، وآخرتهم للكلاب. أقول لك ياعمي؟

سأل وصمت كأنه يتردد أو ينتظر من يحثه. قال عزيز:

ـ قل يا عثمان. أسمعك.

ـ من يوم كنت صغيراً فكرت بالسفر، واليوم يدور في بالي: امش ياعثمان من هنا، ولكن ليس بعيداً.

فكرت في اللاذقية، في انطاكية. من جيلي راح كثيرون. خالي نفسه طفش، ومن لم يوفقه الله منهم يعيش أحسن منا. ولكن قل لي: لمن أترك أمي وأخواتي؟ الكبيرة صارت صبية، وبعد كم سنة تتزوج، وبعدها، وبعدها، وأمي تهرم مع أنها صغيرة. ماذا أفعل؟

بعد لأي همس عزيز، كما كانت أم عثمان تخاطب ابنها عصراً:

ـ الله كريم.. مابعد الشدة إلا الفرج.

وأغمض عينيه يفكر في هذا الذي بكر الزمن عليه، مثلما بكر على فياض، بل مثلما بكر على ابن اللباد. وسواء أكان أبو عثمان قد عاد من الحرب، أم لا، فقد كان على ابنه أن يصل الى ماهو فيه. على أن عثمان يظل في منجاة مما كابد كثيرون. هو على الأقل كان صغيراً زمن الحرب. لم يكتوبأسياخها، ولم يعرف الأتراك. لم يعرف في هذه الأحراش العصية الفرنسيين. هو يتدفأ على كل حال بحضن أمه. واذ يعود صوته يهمس، ويرف جفنا عزيز، يبدو أشبه بطفل يتضرع إلى جدته من أجل حكاية أخرى، أكبر تخويفاً، إلا أن عزيز يتلعثم، فهو لايريد أن ينكأ الجراح الغافية، منذ أن رمى بالبندقية تحت البلوطة. عزيز يريد أن يشد من أزر عثمان، لا أن يخيفه. على أن هذا الولد لايفتأ يتكشف عن شاب أكبر ممّا يحسب عزيز. إنه يعرف بعض مايريد على الأقل. بل إنه يعرف مايريد أكثر من عزيز نفسه. فعثمان يحدد حاجته الأولى فيمن يقف معه، ريثما تكبر شقيقاته ويتزوجن. بعد ذلك قد يتزوج هو، وقد ينتظر ، لكن سيكون بوسعه أن يختار سبيله،

ويمضي، يعيش حياته، لاحياة شاهين آغا ولا أم عثمان ولا المرحوم ولا القاصرات. وبغتة اتكأ عثمان على مرفقه، ودنا من عزيز:

ـ هنا مثل تركيا. ابق معي. أنا وأنت نستطيع أن نضاعف كل شيء، ولن يكون نصيبك في تركيا أكبر. مادام لاخلفك ولا قدامك مايلزمك بمكان، كما قلت، جرّب. أمي قالت إنك ابن حلال، وتحت ثيابك رجل غير باقي الرجال. قلبي رق لك. بودي لو أناديك: يا عمي.

كان عزيز يتشرب كلماته، كما كانت أمه تفعل بعد العشاء، وهو يزهو بذهابه مع الفلاحين الى السرايا. وربما كان عزيز يستمد منه قوة وبصيصاً يضيء السبيل المعتم، وفي أذنيه يترجع نداء عثمان: يا عمي، اذ لم يسبق لأحد أن ناداه بذلك.

استلقى عثمان وترك عزيزاً يتحسر، لأن الزمن مضى به سريعاً، ولابد أنه قد كبر كثيراً، حتى يحلو لعثمان أن يناديه: ياعمي، أو تقول فيه أم عثمان ذلك القول. ولئن كان لسانه قد حرن عن إجابة عثمان، إلا أن ساقيه كانتا تتراخيان، كأنما لاتريدان أن تسيرا أبعد، غداً أو بعد غد، على الأقل.

كان القمر قد أخذ يشحب ويدنو من رؤوس الأشجار. وخيل لعزيز أن ماحوله يؤكد أن لافرق بين أن يستجيب لعثمان، أو أن يداور رفضه، فقد قاده قدره الى هذا المكان، مثلما قاده من قبل الى سواه. ولن يجديه أن يتذمر أو يتساءل عن الزمن الذي ستطيع فيه لمرة واحدة أن يقود هو قدره، ويختار السبيل.

★★★

وكما في المنام سمع عثمان يخاطب أمه:

ـ عمي عزيز سوف يبقى معنا.

ففتح عينيه على وهن، واذا بالشمس تطل أشبه بالقمر الذي ودع منذ قليل. نهض يحيّي أم عثمان التي كانت تبتسم وتقول:

ـ خير إنْ شاء الله. هي صغيرة ولكن تتسع لك وله. كم قلت لك خلنا نكبرها ياعثمان!

وكانت عيناها تومئان الى غرفة صغيرة ملحقة بالبيت الكبير العتيق. قال عزيز:

ـ لاتستعجل ياعين عمك.

قال عثمان جذلان:

ـ تأخرنا عن الشغل.

وتقدم نحو الحاكورة الملاصقة للحرش، ثم دار بعزيز من حاكورة القطن الى مسيل الماء الى البيدر من جديد، فالبيت العتيق والخم الملاصق والسطح الذي تتشمس عليه خيوط الدخان الصفراء. وفي غضون النهار دارا في أزقة القرية، وتأرجح عزيز بين أن يتأمل وجوه الناس، أو يهرب منها، كما تفرج على الخيمة التي تنصب منذ الضحى فوق التلة الصغيرة الحادة المشرفة على أغلب البيادر، حيث سيقيم شاهين آغا. ومن على التلة أمعن في الطريق الضيق الذي يتلوى غير بعيد، وهو يومىء الى كسب والملجأ الذي ينتظر أقصى فأقصى، وكان الطريق من الجهة المعاكسة يفضي إلى بللوران، كما أكد عثمان.

في المساء أحس عزيز أنه قد بات يعرف من القرية ما يكفيه كيما يقرر البقاء فيها أو أن يتابع السير الى الملجأ البعيد، ولم يبق عليه إلا أن يلتقي ذلك الذي تتأهب القرية للقائه. وقد تحاشى وعثمان وأمه أن يذكروا البقاء أو السفر في سهرتهم، ولم يتبادل وعثمان الكلام بعد أن تمددا متأهبين للنوم.

شاهين آغا والشوباصي، وصلا الى القرية قبل طلوع الشمس. وربما كان عزيز إذ ذاك لازال يفرك جفنيه، أو يتبول خلف البيت. وحين ذهب يتقدمه عثمان، وخلفه أم عثمان، للسلام على الآغا في بيدر غير بعيد، الى الشمال، كان عدد كبير من الفلاحين قد سبقوا، وكانت عصا الشوباصي قد بدأت تقسم.

رحب الآغا بعثمان وأمه، وتحدثت أم عثمان عما تفكر وابنها بشأن عزيز اللباد، فضحك الآغا وردد:

ـ توكلوا على الله.

ورحب أصحاب البيدر بالغريب في القرية، وردد الشوباصي مداعباً عصاه:

ـ توكلوا على الله.

وقد سرّ عزيزاً ذلك، فاندفع وعثمان نحو البيدر، وشرعا يذريان، كأنهما في سباق، خاصة أن الهواء كان مواتياً، ولم يكد النهار ينقضي حتى كان الإنهاك قد غلّ ذراعي وساقي عزيز.

على البيدر قضت الأسرة التي زادت رجلاً سهرتها القصيرة، ولم تلبث أن تركت أغلب البيادر ساهرة ونامت، سوى هذا الرجل الذي أخذ يتشكك في اليسر الذي جرى عليه بقاؤه في القرية، أو انضمامه للأسرة. لقد بدا شاهين آغا التركماني للرجل آغا آخر، لايشبه عبود بك الرشدة، ولابشارة، ولا ابن الدباس، ولارستم آغا، فهو أقرب الى

القلب، واللكنة التي في لهجته جاذبة ومثيرة. والشوباصي أيضاً ودود ولطيف، سوى أنه يرطن بالتركية أكثر من سيده. وسر الرجل لأنه تذكر بعض الكلمات التركية، وأشاح عن صوت عبود بك يتسلل الى نومه وهو يرطن بالفرنسية، فتودد إليه الصوت، أثاره واجتذبه في البداية مثلما كان ذات يوم منسيّ، لكن عزيز نفر، وتقلب يقرع نفسه على ميلها السريع الى شاهين آغا والشوباصي، فقد آن له أن يتعظ، ولا يمحض ثقته لمثل أولاء، وهذا وحده يقتضي أن يتريث في البقاء هنا، فلعله يقضي اسبوعاً أو شهراً، لعله يقضي الصيف كله، قبل أن يقرر.

سكن الهواء أغلب النهار التالي، فتأخرت التذرية على بيدر أم عثمان، وقد أغاظ ذلك الرجلين المتوفزين. وكان عثمان لايفتأ يرسم لما عزم عليه من دعوة الآغا هذا الموسم الى سهرة في بيته، وأمه تعارض، وهو يلح على أنه لم يعد صغيراً، فضلاً عن وجود رجل آخر معه، فلا ينبغي إذن أن يظل الآغا ينتقل كل ليلة من بيت إلى بيت، إلا هذا البيت، رحمة بترمل صاحبته ويتم أولادها. قال عثمان:

- ماعاد هذا يليق بنا يا أمي. أنت نفسك كنت تسألين: متى يعود الدور لهذا البيت ويستضيف الناس مثل كل البيوت؟

والتفت الى عزيز كأنه يستميله أو يرجو مناصرته:

- آخر مرة كان فيها لنا دور سبقت سوق المرحوم للحرب بكم يوم. كنت صغيراً حقاً، ولكنني أذكر. اسألها. ذبح المرحوم خروفين إكراماً للآغا والشوباصي وضيوفهم. كانوا ستة أو سبعة أو ثمانية، لم يكونوا كثيرين، ولكن المرحوم ذبح خروفين، وما كان دورنا في الضيافة قد حل، لكن الآغا قدم دورنا على غيره، ونمت والناس تغني وتضحك. صحيح يا أمي؟

ازورت أم عثمان عن ابنها وعن عزيز الذي لم يفته أن الذكرى الغافية تنغص عليها. ولما ألح عثمان قالت وانية:

- زيارة الآغا للقرية تكلفها ما يكفيها لشهر ولشهرين. الشوباصي يظل أمره أهون. صحيح أن دور طعامه يحل على كل بيت مرتين أو ثلاثاً، وهو لايكاد يغادر من بداية الحصاد الى نهاية الدخان، وصحيح أنه لايرضى في فطوره بغير الزبدة وفي غدائه أو عشائه بغير الديك، ولكن هذا كله هين أمام عشاء الآغا ومن يكون معه، وأمام سهرهم.

كان عزيز يتقرى نبرتها، يشك في أنها لاتعني فقط ما قالت، ولعله لذلك احتال كيلا يدلي برأي، ونهض يستجدي الهواء الذي عاد رخياً، أهدأ مما ينبغي، وقد ظل

كذلك حتى وصل الآغا والشوباصي، وكان عزيز وعثمان قد انتهيا للتو من التذرية.

سأل الآغا أم عثمان ممازحاً:

- ما نقلت التبن؟ أم أنك جعلت هذا الموسم للشوباصي فيه نصيب؟

قال عثمان معتذراً:

- الهواء أخرنا يا آغا. ماكدنا ننتهي كما ترى، ولولا عمي عزيز ما انتهينا اليوم ولا بعده.

- قواكم الله.

دعا الآغا وهو يتأمل الرجل الغريب، ويشير الى الشوباصي، فأشار الشوباصي الى عثمان وعزيز، والآغا يردد:

- بحبح يدك. لاتبخل على أم عثمان. هذه الأسرة تستأهل كل خير، ومثل كل سنة ابسط يدك معها. كل سنة أقول لك هذا الكلام.

ولما انقسمت كومة القمح الى حصتين.

قال الشوباصي:

- اختاري يا أم عثمان، كل مرة أنت تختارين.

ثم أمر بعد أن أومأت الى الكومة المحاذية للآغا:

- عدّ يا عزيز ست تنكات، ضعها هنا.

سارع عثمان وعزيز ينفذان، والشوباصي يقول:

- الموسم القادم يكون عندك باذن الله بدل الصمد صمدان، وتكون حصتي منك يا أم عثمان اثنتي عشر تنكة. شد حيلك ياعثمان بعد ما جاءك هذا الغريب.

- يا رب.

دعت أم عثمان بلهفة، وأمر الشوباصي:

- عد يا عزيز خمس تنكات وضعها فوق الكومة الثانية.

تباطأ عزيز، إلا أن عثمان اندفع، فيما الآغا يخاطب الشوباصي:

- لا لا. من أم عثمان يكفينا ترابية ثلاث تنكات. ما قصّرت هذا الصيف في إرسال الخضرة الى السرايا. قلنا لك بحبح.

والتفت الى أم عثمان:

- والله لولا أنها عادة، أباً عن جد، ما أخذت منك ترابية.

- الله يزيدك يا آغا.

دعت بصوت أخفض، والشوباصي يأمر:

ـ عد ياعزيز الآن ثمانية.

عزل وعثمان سريعاً ثماني تنكات.

ـ ضع تنكتي العشر هناك.

أمر وعصاه تشير إلى كومة الآغا التي أخذت تعلو، فيما كومة أم عثمان قد تناقصت كثيراً، ربما الى النصف. وقبل أن يفرغ عزيز وعثمان قال الآغا:

ـ هذا الموسم لن نأخذ منك بدل عفارة البيدر يا أم عثمان.

ـ زادك الله يا آغا.

دعت بصوت راجف. وقال الشوباصي:

ـ رضيت هكذا يا آغا؟

ـ المهم ترضى أم عثمان.

قال الآغا، فالتفت إليها الشوباصي:

ـ احسبي كم وفرت عليك من العشر: بالأول رفعت الشوبصة والترابية، ومن بعد العشر. وفرت ياستي ثلاث تنكات على الأقل، والآغا وفر عليك العفارة واثنتين من الترابية. راضية يا أم عثمان؟ راض يا آغا؟

قالت أم عثمان تصطنع الابتسامة:

ـ الرضا من الله.

ـ على البركة اذن. ابدؤوا بالنقل. خلنا نسمع صوتك ياعثمان.

قال الآغا وهو يغادر البيدر، واندفع عثمان وعزيز وأم عثمان الى تعبئة حصتي الآغا والشوباصي، وأخذت شقيقتا عثمان تسوقان الحمارين المحملين، نقلة بعد نقلة، الى الفسحة التي تطل عليها خيمة الآغا، حيث تكدست الأكياس.

كان الشوباصي لايفتأ يستحثهم، فقد فاحت رائحة الشواء من البيت المقابل، حيث دور الاستضافة لهذه الليلة، كما أخذ لغط الجيران يعلو. ولما انصرف الشوباصي كان القمر قد هلّ، فجلس عزيز وعثمان على حافة البيدر، ينتظران عودة الفتاتين والحمارين من النقلة الأخيرة، وأسرعت أم عثمان تعد العشاء، وكانت الروائح التي يلفحها الهواء من بيت الجيران تستحلب الريق.

بعيد العشاء استلقى عزيز فيما كانت عينا عثمان لا تغادران البيت المقابل. كان عثمان يحوص وقد ضاق بصمت أمه وعمه، حتى وقف يتساءل:

ـ لماذا نتفرج من هنا؟ ما قولك ياعمي؟ قم نسهر معهم.

ـ ما أحد قال لنا تفضلوا، ومن راح بلا عزيمة رجع بلا قيمة.

قال عزيز، فأسرع عثمان:

ـ عندنا العادة هكذا. العزيمة للآغا ورجاله، وغير ذلك: القرية كلها بيت واحد. معقول لاتعرف ذلك؟ عندكم عادة غيرها؟

قالت أم عثمان بجفاء:

ـ كأنا معهم هنا يا ابني.

قال عزيز مدارياً:

ـ والله ليس لي نفس ولا لي حيل.

والتفت الى أم عثمان بحنو:

ـ مالك يا أم عثمان مكروبة؟

قال عثمان:

ـ كل موسم لها زعلة، مع أن الجماعة أكرمونا هذه السنة أكثر من غيرها. هذا على وجهك أنت.

قالت أم عثمان:

ـ كل انسان يزعل على تعبه يا ولدي.

قال عثمان:

ـ طيب احمدي الله أنها كانت ساعة مواتية وضحك لنا سنّ الآغا. أنت يا عمي لم تره كيف يقسم إذا نفر عرق الغضب في جبينه. حتى لو كان الغضب من جارك فمن ينجيك من الجزاء؟

قالت أم عثمان:

ـ تصدق يا عزيز: العفارة يمكن أن يقدرها الشوباصي بعشر تنكات على موسم مثل موسمنا هذا

تعوذ عزيز من الشيطان، فتابعت أم عثمان:

ـ هذا إذا ما صاح قبل القسمة: الموسم مسروق يا آغا، فيقول الآغا: كم تنكة تقدر؟ واحدنا يحلف ألف يمين، والآغا لايسمع. يقول الشوباصي: يمكن عشر تنكات يا آغا، يمكن أقل، يمكن أكثر، فيقول الآغا: احسب حسابك إذن. المرحوم نفسه اتهموه بالسرقة وكانت سنة صعبة، وكان عثمان لم يكمل الأربعين يوماً. اتركنا منهم يا ابني بالله عليك. ابعد عن الشر وغن له.

أرخت أم عثمان بظل الكآبة والصمت على البيدر. تربع عثمان الى جانب شقيقاته يتفرج على البيت المقابل، ولبثت أمه واجمة، فيما عزيز يسترق النظر منها، ثم يلجأ الى القمر، يحتار في أن تكون صابرة أو قانطة، حاقدة أو مسامحة، صعبة أو سهلة، ويوجعه أنها حزينة على أية حال، وكان القمر يبث فيه روحاً أقوى، يؤكد أنه وابنها وهي وأمثالهم ممن يسهرون في البيت المقابل أو على البيادر الأخرى أو في سائر القرى، يستطيعون، لو شاؤوا، أن يضعوا حداً للحزن، ويفرحوا. يستطيعون أن يفعلوا الكثير ضد شاهين آغا وأي شاهين آغا سواه، ضد الحكومة نفسها، ضد فرنسا نفسها. وهفت نفسه الى أن يحدثها عما فعل هو، وكيف واجه الظالمين مرة بعد مرة، وكيف سيواجههم حتى يموت، فهذا هو السبيل الذي اختار، وليس بالسبيل الذي قاده اليه القدر. لقد كان بوسعه مثل غيره أن يؤثر السلامة ويحني رأسه. ولو فعل لكان الكلب المدلل عند بشارة، أو الرجل الأول عند ابن الدباس. ولو فعل لصار شاويشاً عند الحكومة، أو لكان قد نال من عبود بك الرشدة مالم ينله ابن امرأة، لكنه اختار أن يواجه بشارة حتى لو غضب أبوه، اختار أن يواجه ابن الدباس ويقاتل في مرجمين، ويقتل عبود بك الرشدة، ويقاتل الفرنسيين، وحين تأتي الساعة المواتية فسوف يختار أن يقاتل من جديد، لايهم أين يكون المكان، هنا أم في انطاكية، ولايهم من يكون الخصم: شاهين آغا التركماني أم فرنسا كلها. حين تأتي الساعة المواتية لن يتأخر عزيز اللباد، وقد يخسر في المعركة القادمة، قد يخسر معارك كثيرة كما خسر، وقد ينتصر كما انتصر، لكنه سوف يعود الى القتال مادام حياً، ومادام الظلم قائماً. وإذا أقام عزيز اللباد في هذه القرية فلن يربي عثمان على غير ذلك. بل إنه إذا أقام فلن يكون ذلك من أجل اللقمة، وهذه الغفوة على البيدر، بل لكي يكون عثمان مقاتلاً مثله ضد الظلم، سوف يقيم. بهذا وحده يكون للمقام هنا معنى. بهذا وحده لن يندم من بعد على أنه أضاع من عمره مايمكن له أن يقضيه في هذه الأرض الجميلة، الخصيبة، الغامضة، مثلها مثل وجه أم عثمان الذي أخذ يقترب وهو ينأى، فقد انصرفت لتنام، وتركته وحيداً مع القمر والبرودة التي أخذت تنمل الجلد، وعثمان ينغم مع الأصوات الهازجة والأكف المصفقة في البيت المقابل، وشقيقاته يضحكن.

★★★

قبل أن تنتهي قسمة البيادر التقى عزيز شاهين آغا مرتين. كانت الأولى حين ألح عثمان باستئذان شاهين آغا في استصلاح ما يقدران عليه من الأرض، شرقي الحاكورة

الصغيرة. وقالت أم عثمان:

- هذا يوفر علينا هدية والمشوار الى السرايا.

قال شاهين آغا وهو يعلن موافقته:

- عثمان يعرف، وعزيز يعرف، لابدّ: ماعدنا نكسر الحرش بلا موافقة المستشار الفرنسي. والموافقة لها ثمنها. في السنتين الماضيتين سامحتك يا عثمان، ودفعت المقدّر من جيبي. الآن لم تعد وحدك، والمستشار لم يعد يرضى بالقليل. والأرض الجديدة مثل الأرض القديمة، ملك من يا عثمان؟ أنت تعرف وعزيز يعرف، لابدّ.

- يعني ملك من تكون؟

تساءل الشوباصي، وتابع الآغا:

- وموسمها؟

أسرع عثمان:

- أول موسم لنا وبعدها كالعادة ياعمي.

قال الآغا:

- عزيز يعرف ، لابدّ.

- يعني عزيز ابن مدينة أم ابن صحراء حتى نعلمه كل شاردة وواردة؟

قال الشوباصي بهزء.

- أوله شرط آخره نور.

قال الآغا ملوحاً بالانصراف.

في المرة الثانية - بعد أيام قليلة - صادف عبور شاهين آغا وركبه قريباً من حاكورة القطن التي كان عزيز يجلس على دباقتها ساهماً، وشقيقات عثمان يعزقن العشب. كان الوقت - كما في المرة الأولى - عصراً، والى يمين شاهين آغا اثنان من الأغوات التركمانيين اللذين وصلا ظهراً، وخلفه الشوباصي، أما عثمان فقد اختفى في وهدة قريبة، ولعله كان يتغوط.

لم يقف عزيز للموكب حتى نهره الشوباصي، فأجفل وشبّ وضحك الأغوات الثلاثة. أشار شاهين آغا إليه، فاقترب. تابع الآخرون سيرهم، إلا شاهين آغا الذي وقف قليلاً يتأمل الفتيات والقطن، وعزيز يقسم أنه كان غافلاً. قال الآغا:

- لاعليك. أنت مؤدب وتعرف الواجب.

وأقبل يدقق في وجه عزيز كأنه يراه لأول مرة.

ـ خير يا آغا؟

حاول عزيز أن يتغلب على ربكته بالسؤال. قال الآغا:

ـ هه ياعزيز. ظني أنك تريد أن نحكي كلمتين على انفراد. عثمان ولد وما كل شيء يجب أن يعرفه.

ـ خير يا آغا؟ ماعندي سر لا عليك ولا على أحد.

ـ طيب. أنت ما عندك، أنا عندي، ومرة ثانية أقول لك: عثمان ولد.

ـ عثمان والله من خيرة الشباب. خير، ماعندك يا آغا؟

ـ اترك كلام عثمان لعثمان وأمه، ولا تتشاطر. أنا لم أسألك حتى اليوم من تكون من البشر؟ لامن أي دين ولا من أية ديرة. إياك أن تقول إنك بلاقصة. هل تريدني أن أصدق أنك عابر سبيل التقى بعثمان وأمه، وعرضا عليه أن يبقى فبقي؟ من تظنه صدق ذلك من كل هذه القرية أو من السرايا نفسها؟ بعد يومين أو ثلاثة أنتهي وأعود، وقبل ذلك أريد أن أخلص من قصتك مع أم عثمان.

قاطعه عزيز بغلظة:

ـ مافيه قصة بيني وبين أم عثمان يا شاهين آغا.

قطب الآغا وغرز أصابعه في كتف ياسين:

ـ لاترفع صوتك ولا تتشاطر. من يرفع صوته في وجه شاهين آغا ما خلقه الله. أم اللين غرّك؟ إذا كان قصدك شريفاً فأهلاً وسهلاً بك. أم عثمان لا أحد يحميها غيري. ماعاد من أهلها أو أهل زوجها من يقدر أن يحميها، وأظنك تعرف. أنا الآن مسؤول عنها أمام الله. الناس حولك بدأ لسانها يلوك الكلام. أنت نفسك، رجل ملء ثيابك، كيف ترضى أن تنام في بيت غريب، مع امرأة غريبة وأولادها حولها؟ إذا كنت قدرت أن تلعب بعقل الولد فكيف تلعب عليّ وعلى الفلاحين؟ كثيرون قبلك حاولوا أن ينفردوا بالأرملة الحلوة الشابة، ومنهم من نجح شهراً أو شهرين. ماذا أفعل بقلبها الأبيض؟ ماذا أفعل إذا كان الله سبحانه وتعالى خلق المرأة ناقصة العقل والدين؟ افتح أذنيك يا عزيز: مثلما قطعت ساق غيرك أقطع ساقك. إذا كنت ترغب بالحلال الحقني الى السرايا، واطلبها مني على سنة الله ورسوله، ولن أجعل مهرها ثقيلاً عليك. لولا أن أخذت الأمر على عاتقي لطردك الفلاحون، أمس قبل اليوم. ارجع الى شغلك، وإياك ثم إياك أن يسمع أحد بهذا الكلام.

ابتعد الآغا عجلاً، مخلفاً عزيز في دوامة، ولعله لم يدرك أن الآغا كان جاداً إلا بعد أن نأى، وهكذا إذن، فألسنة الفلاحين تلوك بعزيز وأم عثمان. هكذا إذن، عليه أن يغادر أو يخطب. وليس لأم عثمان من يطلب يدها منه في القرية. أم عثمان بلا أم ولا أب. وعم عثمان الحي الوحيد قعيد على الفراش من سنين، وخال عثمان الكبير مات في الحرب، والثاني غرق في البحر، والثالث طفش الى اللاذقية، ولايظهر في القرية كل سنة غير مرة، والآغا هو المسؤول. هو رجل العائلة ولن يثقل المهر، فكيف فات عزيزاً أن يفكر في ذلك؟ وماذا يفعل الآن؟ ماذا سيقول لعثمان قبل أمه، إذا اختار السلامة، ورحل غداً؟ هل يهرب ويترك لها الظنون؟ وسواء رحل سراً أم جهراً، فهل يحمي ذلك أم عثمان من ألسنة الناس؟

كان قد عاد الى الدباقة، لكنه لم يجلس ، يأكله الندم على كل ما أتى في حياته، يلعن سوء الطالع الذي يلازمه، يخشى أن تظل قدمه تزل به، هكذا، من منزلق الى منزلق. وكلما ظن أنه قد غدا أكبر، اذا به يعود ولداً صغيراً، أصغر من عثمان بلا ريب.

كان عثمان يرقبه من طرف الحاكورة، يتلهف كي يعرف ما دار بينه وبين شاهين آغا، ويتوجس كلما طالت وحدة عزيز الذي عاد بعد لأي زائغ العينين، يدعي أن الآغا اطمأن على أن القرية قد راقت له، فزاد كذبه الفاضح من قلق عثمان، ولم يقدر أي منهما على أن يتابع الشغل، فسبقا الفتيات صامتين الى البيت.

حاول عزيز أن يتخلص من اضطرابه، وهو يتحاشى أم عثمان، لكنها بادرته:

ـ خير ياعزيز؟ هل تشكو من شيء؟

قال عثمان بجفاء:

ـ منذ وقف الآغا يا أمي وهو كما ترين.

أصر على أن عثمان واهم، وساءه أن تقلق عيناها بسببه. تشاغل بغسل وجهه، وهش للبنت الصغرى التي جاءت تزقو:

ـ إذا كان عمي عزيز تعب، وعثمان تعب، فكيف لا أتعب؟

تأمل الفتاة المشاكسة، وود لو يقدر على الضحك. رأى عينيها أشبه بعيني أمها، بل إنها وحدها من بين البنات الثلاث لها شبه طاغ بأمها. أيقن أن الأم كانت جميلة جداً وهي صغيرة، بل إنها لاتزال جميلة كما قال شاهين آغا. فكر في أنه ليس من العدل أن يكون لها ولد في مثل طول عزيز اللباد. أنكر أن تكون قد استمالته بحة صوتها أو غنته، أو

أن يكون قد ألف أن تكون قريبة منه دوماً، تغسل التعب والضيق من نفسه، تغمر المكان بالهدوء والحنان، لكأنها زوج وأم وشقيقة كبرى وصغرى.

هربت به قدماه الى السطح، فإذا بظلها يضبطه ثمة، يهزأ من أن يكون له امرأة قد تكبره بسنين، أرملة وأم لأربعة أولاد. أقسم للظل أن شاهين آغا مجنون، أو أنه يبيت أمراً آخر، وزوق لنفسه وللظل الضائع أن شاهين آغا يريد أن يحتفظ بعزيز اللباد، فتعلل لذلك بالزواج، ولكن الظل صدعه: لاتكذب على نفسك يا عزيز. من أنت حتى يريد شاهين آغا أن يحتفظ بك أو يبيتّ لك؟ حتى لو أن عثمان أفلت لسانه في القرية باليسير الذي يعرفه عنك، فليس لشاهين آغا أن يأبه، ولو شاء لسلمك بطرفة عين الى المستشار الفرنسي. وما يجديك أن تتمنى لو أن الأمر كذلك.

أنقذته أم عثمان من نفسه ومن ظلها بندائها الى العشاء، إلا أنه لم يستطع أن يكمل رغيفه، وكان الهواء قد أخذ يهب أبرد مما رأى، منذ نزل في هذا البيت. هون عليه أن يرمي عثمان وأمه بنتف عن الخريف وعن الشتاء، وتلهى من بعد باللعب مع البنت الصغرى: بس بس نو، حتى أمرت أم عثمان البنات بالدخول والنوم، فخاف أن تلحق بهن، ورنا إليها داعياً:

- اجلسي. اتركيهن. مازال الليل في أوله.

كانت البنات قد وقفن وهي جالسة، فأجفل مما قال، والتفت الى عثمان الذي كان يغرغر بالكوز، ثم التفت اليها، فإذا بعينيها تتأملانه متشككتين. هربت عيناه، ثم عادتا اليها، فأشاحت، أومضت العينان فيها، ودار وجهها يمنة ويسرة، ثم نهضت تملأ الكوز، فجرت عيناه خلفها، وشك في أن يكون قد رأى امرأة من قبل لها مثل هذا القوام. متى لو أمكنه أن ينفرد بها، بعيداً عن عثمان، قبل أن يرحل، فهي وحدها يمكن أن تفهمه، وسوف تجعل عثمان يفهمه بعد الرحيل. وكانت قد عادت، فجلست قرب عثمان، وهي تقول:

- الى متى نظل نؤجل الطحين؟ كم مرة ذكرتك؟ كلها كم خطوة، وقبل أن تحمى الشمس تكون رجعت. برضاي عليك خلنا نحضّر ست سبع تنكات.

قال وهو يتطلع الى عزيز:

- إذا كان يأتي معي فأنا جاهز.

نهض عزيز متحمساً:

ـ هيا بنا

ـ الى أين؟

صاح عثمان ضاحكاً:

ـ نحضّر الطحنة.

قال عزيز حائراً، فنهض عثمان مقهقهاً:

ـ ظننت الى الطاحون.

ـ ما حاجتك بي هناك؟

سأل عزيز، وأم عثمان تنهض ثم تعنف ابنها على ضحكه وتقول:

ـ الصلاة على محمد، رجلان من أجل طحنة! والله سيضحك عليكما الطحان. أنا وعزيز نفرع الدخان، بينما تكون خطفت رجلك ورجعت.

قال عثمان:

ـ شرط أن يذهب المرة القادمة وحده.

ـ وتترك الطحان يلعب عليه بطاسة أو طاستين زيادة. روحنا تزهق مع كل حبة حنطة يا ابني.

ـ وأنت التي كنت تقولين . طاسة زيادة ياعثمان، ثلاثة ياعثمان، عدها حسنة لوجه الله. الطحان فقير أيضاً مثلنا يا عثمان.

قال وهو يقلد صوت أمه، وينتزع الضحكة منها ومن عزيز، ثم أردف:

ـ أناأقول لك يا أمي: لوكانت زيادة الأجرة تروح للرجل، والله ما زعلت، ولكن كل شيء مهما لف ودار، يعود أخيراً الى شاهين آغا. ولو راح عزيز وحده، تكون الزيادة عشر طاسات.

ـ الله يسمع ويرى يا ابني. الله فوق الجميع.

قالت وهي تتجاوزهما، فلحقا بها يعدّان الطحنة، وعثمان يرسم الطاحونة المائية، والطريق المظلل اليها، من أوله الى آخره. إلا أن عزيزاً كان لاهياً عنه باليدين السمراوين اللتين تمسكان بأطراف الكيس، لكأن الشغل لم ينل طوال العمر من ملاستهما. وإذْ امتلأ الكيس وأحكما ربطه، عاد الى البيدر، متعجلاً النوم، مديراً ظهره لعثمان، مفتقداً القمر هذه الليلة التي يحتاجه فيها. ولم يلبث عثمان أن أغفى، فيما هو يتأرجح بين أحلامه وكوابيسه، لاتكاد أنفاسه تهدأ حتى يتنفض ويبسمل، يخشى أن يكون شاهين آغا أو عثمان

أو أي من البشر قد ضبطه يتلصص على المرأة الغافية وحيدة في البيت، يشد الغطاء الرقيق محتمياً من الهواء الذي ما فتيء يهب أقوى وأبرد، يغفو سريعاً، فاذا بأم عثمان مستلقية أمامه وهو واقف، يسرح عينيه على مهل فوقها، ينحني غير مصدق، يوشك أن يلتقم ثديها الريان، بل ثدييها معاً، وهي مستسلمة، شهية ورضية، ولكن عيناً حمراء تضبطه، فينتفض ويبسمل، يحكم الغطاء ويغفو أسرع، يبحث عنها في كل مكان، يجري خلف قضيبه في أثرها، من البيدر الى البيت، من السطح الى التنور، من الوهدة التي يتغوطون فيها الى تخم الحرش، يتوغل في الحرش فاذا بها تلوح له، مستلقية في القمرة الوضيئة الوحيدة، وعلى الرغم من أنه كان مغمض العينين، فقد رأى فخذيها يبرقان وينفرجان، بل إن أحدهما قد تراجع مفسحاً له، وعلى الرغم من أن الثياب عادت فجللتها، فقد همّ في أن ينبطح فوقها ويدع قضيبه يخترق الثياب الى حيث يشاء، ولكن القضيب يتوه، يعود خذلان، وعزيز يدفعه، يخاف أن يكون الخصاء قد أتى عليه وهو نائم، فيفتح عينيه ويطمئن، يتذكر أنه كان على وشك الزواج من هيلانه، لولا عبود بك الرشدة، يغفو من جديد ويندفع نحوها يلاقيها واقفة أو جالسة أو مستلقية، يهم بها، فتمهله ريثما يتزوجان، ولكن شاهين آغا التركماني والشوباصي واثنين من أغوات التركمان وشقيقها الطافش الى اللاذقية وعشرات العيون من هذه القرية، تضبطه عارياً، وتتلامع العيون مثل عيون الذئاب، تقدح شرراً فتنزاح الثياب عن أم عثمان قبل أن تحترق، يندغم الجسدان العاريان والذئاب تنهش منهما وهما يتقلبان فوق الأرض التي استنقعت بالدم، فينتفض مبسملاً، ويتذكر أن المنام بلا شأن إنْ سال فيه الدم، فيهدأ وجيب فؤاده، وينقلب على جنبه الآخر، ينشد النوم.

★★★

حيته أم عثمان وعثمان يبتعد مع الدابة والكيس، وذيل فستانها يتطاير وخصلات شعرها، مع الهواء القوي. قالت:

- هوت هواها والمطر وراها. ظنّي اليوم تنام وعثمان جوّه.

ثم اختفت قليلاً، وعادت إليه بطاسة الحليب، وهي تتساءل:

- قولك أترك البنات ينمن أيضاً قليلاً؟ الشمس بعيدة.

شرعت تجمع غطاء عثمان وغطاءه، وهو يقرب الطاسة من شفتيه ويبعدها، قبل أن يضعها قرب الكوز ويناديها:

ـ أم عثمان: اتركي مابيدك. اجلسي قليلاً.

تربعت أمامه كأنها تنتظر دعوته، وهو يغالب بقايا أحلامه وكوابيسه. حضن طاسة الحليب الساخنة، وتشرب في البخار الذي يلاعبه الهواء، دفء أنفاس المرأة القريبة. كانت عيناها تكسران العتمة، تحثانه على أن يفضي إليها بما يعذبه منذ الأمس، وقالت بعد لأي:

ـ يمكن أكون أدرى منك ومن عثمان بوجع الواحد منا. أسمعك.

كان يفكر في أنها لم تجلس قريبة منه كما هي الآن، كما لم يكونوا وحيدين من قبل. حرك لسانه، فخانه، واكتفى مما قاله شاهين آغا بأقل القليل، فصمتت هنيهة قبل أن تطرق وتقول:

ـ شاهين آغا لف وبرم حول هذا البيت سنة بعد سنة. وكان الواجب أنك تعرف. قبل وفاة المرحوم وبعدها، لف وبرم وكلبه قدامه وخلفه.

تساءل ياسين:

ـ الشوباصي؟

ـ أعوذ بالله منه. متل حية التبن، بتلسع وبتختفي، يمكن شاهين آغا أهون.

قالت ثم صمتت، حتى ضاق بنفسه وبها، فأزاح طاسة الحليب بعيداً، وتقلقل في جلسته قبل أن ترفع رأسها إليه وتقول:

ـ حاول معي بالحرام وحاول بالحلال. وكما قال لك: غيره حاول. وشهادة الله حماني منهم، ولكن السماء أقرب له مني. لو قطعوني قطعة قطعة لن يلمسني. أنت لاتعرفه ياعزيز. يشد مرة ويرخي مرة. أنت رأيته يتسامح معنا في القسمة، وكنت عارفة أنه يلعب. كنت عارفة أنه لن يسكت على بقائك معنا. الحق عليّ. كان الواجب أن أقول لك. أنا نفسي لا أعرف كيف وافقت عثمان. لاتزعل مني يا عزيز. لو بنفسي الزواج كنت تزوجت وشاهين آغا يكسر على أنفه بصلة. سود قلبي، ربي يسود وجهه. عثمان لايعرف. أنا قلبي انفتح لك، يشهد الرحمن عليّ. قلت يا حرمة هذا غريب، يكون مع ابنك سندك في وجه شاهين آغا وغير شاهين آغا. يكون سندك على الدنيا. واليوم أنت حر يا عزيز. تعوّدنا عليك ويجوز تعودت علينا. لو شئت تبقى معنا، تابع طريقك، الله معك. أنا أعرف أنك لن ترحل خوفاً من عدو الله، ولكن عثمان؟ ماذا أقول له وماذا ستقول له أنت؟ سبحانك يارب! لوكان من لحمك ودمك ما تعلق بك أكثر. يا حسرتي، تيتّم وهو صغير، والحمد لله، صار زينة شباب القرية.

وقف عزيز ولحقت به. فرك جفنيه ورفع رأسه الى السماء التي أخذت تضيء. عادت عيناه الى أم عثمان ترمقانها وتحميانها، يود لو يقدر أن يجعلها تستريح وتسعد، وقال بعد لأي:

ـ نادي البنات. الشمس طلعت. لاتهتمي.

ثم سار متمهلاً نحو حاكورة الدخان، عازماً على ألّا يرحل قبل أن يأمن عليها من شر شاهين آغا وسواه، مهما امتد به ذلك، أو مهما كلفه. وكان ملمس الندى تحت قدميه الحافيتين يضاعف يقظته.

منذ ذلك اليوم غدا رب البيت. الفتيات يخشينه ويهفين اليه، وأم عثمان التي ترسم للبيت شؤونه وحدها، تأخذ بما يراه عزيز، سواء أوافقها أم لا، أما عثمان، فلعله كان ينتظر ظهور أبيه، أو من هو كأبيه، كي يكبر ويكبر.

منذ ذلك اليوم صار يخالط وعثمان من في القرية، ثم صار يخرج اليها وحيداً، وقد يتذكر كل حين ما ينتظر شاهين آغا منه، فيستهين ويلوي. وصارت عيناه أجرأ على أم عثمان التي تغضي مرة، تضحك مرة، تزجر بعينها أو تعتب، فيلح عليه أنه رجل وأنها امرأة، يستهين أيضاً ويلوي، ثم يسعى أرق وأغوى، ولعله كان سيذهب أبعد متى ماواتته فرصة، لولا أن الشوباصي ظهر فجأة، ورفض أن يغادر البيت الا برفقة عزيز.

لم يتبادل الرجلان كلمة طوال الطريق الى السرايا، حيث كان ينتظر شاهين آغا، وقد نفر ذلك العرق في جبينه، أمر الشوباصي بالخروج، ولم يدع عزيز الى الجلوس، بل صاح في وجهه:

ـ أراك رميت كلامي وراءك ياعنتر زمانك! إذا نسيت قل لي حتى أذكرك.

ـ لا يا آغا. مانسيت.

ـ لماذا لم تشرفنا إذن؟

ـ لأني أشتغل كالحمار. أجمع المهر يا آغا.

ـ تجمع المهر؟

دوت صيحة الآغا، فارتدّ عزيز، وأردف الآغا:

ـ وكيف عرفت ياعين أمك أني سأزوجك؟

ـ أنت قلت لي: لوكنت ترغب بالحلال فأهلاً وسهلاً بك، ولن أثقل عليك المهر. اذا نسيت قل لي حتى أذكرك.

- اخرس ياكلب. تسخر مني؟ طيب كيف تجمع المهر وأنت لاتعرف ما أريد؟
- لوطلبت حليب السنونو فلن يعجز عزيز اللباد.
- عنتر وعبلة ياعين. تعالوا اسمعوا ياناس وتفرجوا. مئة ليرة ذهب يا عريس الغفلة.
- عثمانللي يا آغا.. هه؟ ومن لايريد أن يزوج بنته ماذا يفعل؟
- يطلب حليب السنونو. أنا أريد أن أزوج أم عثمان. مئة ليرة ذهب والبقية يوم نقر الفاتحة. أمامك من اليوم حتى قطاف الزيتون.
- احسبها يا آغا: قل: سنة سنتين، عشرة. أنت مستعجل على هذه الزيجة أكثر مني.
- تريد أن تسرح وتمرح في بيتها عشر سنين، ثم تختفي كالحية؟
- لا أنا أريد ولا أنت تريد. أم عثمان حكت لي من طق طق الى السلام عليكم يا آغا. أم عثمان ليست لي وليست لك. سمّ بالرحمن واتركنا من هذا الكلام كله. أنا باق في البيت حتى يصبح عثمان قادراً على حمايته، وقبل أن أرحل سأحكي له اذا لم تحك أمه. خاطرك يا آغا.

ثانية ادعى لعثمان أن شاهين آغا التركماني يطمئن على عزيز اللباد، بيد أن عثمان لم يقرأ في عينيه هذه المرة مايريب. كان يفيض حبوراً وثقة، يحلو له أن يظفر بنظرات أم عثمان المتواطئة اللهفى مثله الى خلوة، مهما قصرت.

في الصباح جاءت الخلوة أهدأ وأطول مما يأملان. كان عثمان قد ساقَ أمامه الحمارين المحملين بأكياس الدخان، فالعربة تنتظر محصول القرية على طريق كسب، لتنقله الى اللاذقية. وعزيز وأم عثمان يسابقان النهار في جمع جوزات القطن الباقية، والصغيرات يتقافزن بين أقدامهن وبين الحاكورة والبيت.

همس لها ضاحكاً:
- مبروك يا أم عثمان.

شرقت بضحكتها ورمقته دون أن تنبس. قال حرداً:
- طيب باركي لي. من البارحة أنت خطيبتي.

كان كل ماحولهما يفسح لهما في مداورة النفس، والالتفاف على الآخر، والهزء من شاهين آغا، حتى اذا آب عثمان قبل الظهر، كانت قد غدت لهما أسرارهما الصغيرة الماتعة. غير أن عثمان وصل مع بعض من رافق على الطريق، وهو يكاد يتفجر، ويصيح بأمه:

ـ الريجي أرسلت عربة مع عربة الآغا. وفي عربة الريجي القبان والمال والجماعة، وهذه هي الحصة التي أنتظرها من سنة الى سنة. خذي. نصف ماكانت العام الماضي، على الرغم من أن الدخان هذا العام أفضل وأكثر.

ورمى بالليرات القليلة في حجرها، ملتفتاً الى عزيز:

ـ الرخصة باسمك ياشاهين آغا، فهمنا، الأرض أرضك فهمنا، ونحن من المسكبة الى الكرّوسة، نشتل ونزرع، نقطف ونفرع، نشك ونقلب وننقل ونلعن الدخان وساعته، وفي الآخر: ثُمن لك وسبعة أثمان للشيطان. طيب الربع على الأقل ياناس. لو كان الموسم تلة ماذا يساوي الثُمن؟

هرب عزيز منه الى عيون الآخرين، وتحاشى أم عثمان، ثم اندفع الى حاكورة القطن يكتم سخطه وخوفه من أن يكون شاهين آغا قد بدأ القتال. أقعى عثمان على حافة البيدر، يغالب القهر حتى لايبكي، ووقفت أمه قانطة، فيما شرع الآخرون يسوقون دوابهم متفرقين، وتحلقت الفتيات حول أمهنّ، وكان الرذاذ يعجل، على الرغم من ندرة الغيوم، في السماء، وفي الحرش تتململ الأشجار والأطيار.

★★★

ما إن بدأ قطاف الزيتون حتى ظهر شاهين آغا في القرية وحده، ففي موسم الزيتون لاحاجة به للشوباصي. قسمة الزيتون أسهل، وسرقته مفضوحة، وتلك عادة شاهين آغا أيضاً، فعلى الرغم من أن الشوباصي عينه الساهرة وعصاه الضاربة، الا أنه يؤثر أن يمارس وحده بين حين وآخر بعض سلطانه.

كذلك شرحت أم عثمان لعزيز الذي افتقد الشوباصي، فحدث نفسه أن ذلك سيكون أيسر عليه، إن بدأت المعركة مع شاهين آغا.

كان حمل الكرم الصغير هيناً، فلم يتأخر القطاف، ولم يتأخر شاهين آغا، يحف به عدد من الفلاحين المسنّين، حيّاه عزيز وعثمان، ورد التحية باشّاً، كأن ليس ثمة ما يسوء، وأمر:

ـ عد يا عزيز ثماني تنكات هنا، وواحدة هناك. تعلمت قسمة الزيتون عندنا، هه؟

قال عزيز متودداً وهو ينحني على كومة الزيتون:

ـ لا والله ياآغا.

ـ قسمة الدخان أصعب وسمعت أنك تعلمتها، كيف فاتتك هذه؟

رفع عزيز رأسه محملقاً، وأطرق عثمان هنيهة، ثم اندفعا صامتين يقسمان الزيتون تكوّمت الى اليمين أربع وعشرون تنكة، والى اليسار ثلاث، وظل بين أقدامهما ما يملا اثنين أو يزيد قليلاً.

أمر الآغا:

ـ ضع الباقي فوق هذه.

وأشار إلى الكومة الكبيرة، ثم أردف هادئاً:

ـ عرفت لماذا يا عزيز؟

ـ لا والله.

أجاب بجفاء. قال الآغا:

ـ احتياط، يمكن تكون وقعت سرقة ولو صغيرة.

ترك عزيز الزيتون ووقف يغالب حنقه:

ـ نحن لانسرق يا آغا. لقمتنا حلال والحمد لله.

قال الآغا دون أن يغادره هدؤه:

ـ قصدك يا عزيز؟

ـ فهمكم كاف يا آغا، والقصد قصدك.

ـ قصدي ما عليه غطاء، مثلك وأمثالك يمكن أن يمدوا يدهم إلى الحرام، أما قسمة الزيتون وقبلها قسمة الدخان، وغيرها وغيرها، فهي قسمة العدل والحلال، مابيننا من يجهلها من يوم آبائنا وأجدادنا، وأنا أعرف الخاطر الذي يخطر لك بينك وبين نفسك.

ـ يا شاهين آغا: إذا كنت تلمح فأنا أصرح، هذه القسمة وغيرها حرام، تلاقيها أمام الله يوم الحساب. أنا قلت ذلك أمام الناس، وأقوله أمامك، غيرك يعطي الربع والخمس على الأقل وأنت تستكثر علينا الثمن والعشر.

التفت الآغا الى الفلاحين وقد نفر العرق في جبينه:

ـ سمعتم؟ ركبناه ورانا مدّ إيده على الخرج، كان يجب ان أصدق ماسمعت عنه من أول يوم، كان علي أن أطرده من أول يوم، هذا جزاء طيبة القلب، خبيث الروح لاتنفع معه الطيبة.

والتفت الى عزيز ملوحاً بكفه:

ـ كلمة بتّ ولا عشرة لتّ: معك يوم والثاني وترحل عنا. اكفنا شرك ولا تتركنا نجعلك عبرة.

اندفع عثمان نحو الآغا:

ـ كيف يصير هذا ياآغا؟

ـ أيضاً أنت فسدت يا جربوع؟ زعلت على عمك عزيز؟

ـ مايقع على عزيز يقع علينا. عزيز واحد منا يا آغا.

ـ إذن ارحل معه بحفظ الله وصونه. وخذ معك أمك وأخواتك لو كنت رجل بيت، وإذا ضاقت الدنيا بك وصلحت روحك ارجع، أرضنا واسعة وصدرنا أوسع.

وانطلق يأمر أحد الفلاحين بنقل الكومة الكبيرة، وعزيز وعثمان مسمّران.

★★★

لم يفاجىء قرار الآغا أم عثمان، لكأنها كانت تنتظره، بل لعلها فرحت به، خلاصاً من بلاء أكبر. سوف يطلق الآغا لسانه الآن على هواه. والذين كانوا يسمعون فحيح حية التبن وما يومىء إليه الشوباصي في الأيام الأخيرة، لن يستهجنوا من بعد أو يقلبوا شفاههم غير مبالين. سوف يطلقون ألسنتهم على هواها أيضاً، ولكن ذلك يبقى أهون من أن تغادر القرية ذليلة، منكسة. الآن سوف تغادر شامخة ومعتزة، فمن غير عثمان وعزيز تصدى لشاهين آغا التركماني؟

قال عزيز، ربما للمرة العاشرة:

ـ على مهلك يا أم عثمان، فكري على مهلك واحسبيها. شاهين آغا لايريد أن يطردك، المقصود أنا ولا ذنب لك. وكلمة عثمان مع الآغا لها ألف حلّ.

وللمرة العاشرة ربما ردت حازمة:

ـ والثمن؟ عيب يا عزيز. رجلنا ورجلك.

كان همها الأكبر أن تحلج كومة القطن، ولم تشأ أن تطلب عوناً من جاراتها كما تعودت، إلاّ أنهن تقاطرن متخفيات منذ الغروب، وامتدت السهرة اللاغطة الصامتة طويلاً، وفي ضحى اليوم التالي كان كل شيء معداً للرحيل.

كان شاهين آغا وعدد من الفلاحين على يمين الطريق، يتحلقون حول كومة هائلة

من الزيتون، حين ظهر الثوران والحماران المدجحان، وظهر الراحلون يحمل كلٌّ ما يغطي ظهره، إذْ لم يبق في البيت غير التبن الذي لاينقل عادة، ويكون لمن يحل محل من غادر.

حيت أم عثمان الفلاحين، فلم يرد أحد، فأحجم عزيز عن التحية، ولكن عثمان قال ساخراً:

- السلام لله. لاتخافوا.

نهر أحد الفلاحين:

- استح ياولد.

قال الآغا:

- مع السلامة ياروح امك. حيف على التربية. ماكل النساء تعرف كيف تربي بعد موت رجالها، خصوصاً إذا بلاها الله بمن يفسد ديرة.

توقف عزيز ثم استدار يخاطب الآغا:

- خلصنا من شرك ما خلصنا من لسانك؟

- الله يقطع لسانك. كان عليّ أن أقطعه لك قبل ما أتركك تفلت، ولكن إلى أين ياعزيز اللباد؟ شاهين آغا خلفك ولو طرت لسابع سماء. خلّني أر من يرضى أن تلوث له أرضه.

- قدها وقدود، لاتقصّر يا شاهين آغا، والخوف من الرب لا من العبد. يا مافيه ناس قلوبها تعرف الرحمة، تعرف الحلال من الحرام والعدل من الظلم، تقدر الناس حق قدرها.

- دوّرلك إذن على مسيحي، دور لك على كافر مثلك، لو كان له ظفر يحك جلده مصّ دمك.

قال شاهين آغا وهو يضحك، والفلاحون حوله يتبسمون، وعثمان يهش على الدواب، فيما كانت أمه وشقيقاته قد ابتعدن، وعزيز يتأسّى على بندقيته ويخبط خلفهنّ.

لم تكن ثمة وجهة محددة. كان عثمان مثل شقيقاته يتطلع الى الوراء ويغصّ، منذ أخذت أنجوق تختفي. وكان عزيز وأم عثمان يفكران في الملجأ التالي، هي تعد الأسماء التي تحفظ للقرى والأغوات، وهو يرجح ما ترجح، ثم يتشكك، فيستبعد وتستبعد، حتى لاح المكان الذي جمعهما أول مرة، فتقدم وقد خاتله الفرار فجأة، وتسمرت أم عثمان والدواب والبنات، وتساءل عثمان:

- مابه يا أمي؟

في المكان عينه تسمّر هو، فهش عثمان على الدواب، لكن الرصاصة التي انطلقت

سمرتها وأخرسته، وكان عزيز يومض ويختفي، ورصاصة أخرى تلاحقه، ثم ثالثة، ثم وقع أقدام تجري مبتعدة.

بعد قليل ناداه عثمان، ونادته أم عثمان، ثم اندفع واندفعت الى المكان، والفتيات يبكين، وإذا به يظهر قريباً منهن ويهمس:

ـ يا حيف.. خفنا يا عمي؟

ثم ينادي أم عثمان التي كانت تنحب وتنوح.

أقبلت عليه تتلمسّه، تحمد الله ولا تصدق أنه قد نجا، تلعن القاتل الفاجر، وعثمان يحبس دمعته وفرحته، وهو يتساءل:

ـ تظنين يعملها شاهين آغا؟

ـ ومن غيره؟

سألت وهي تمسح دموعها وتأمر بالإسراع والحذر، وما إن تجاوزوا ذلك المكان حتى قالت:

ـ ليس لنا الا القزلي.

ـ قلت آرو مسيحي وأرمني، والناس تكفرنا إذا قصدنا آغا غير مسلم. نسيت؟

قال عزيز، ثم قال عثمان:

ـ نسيت كلام الآغا؟ لن يبحث عنا إلا عند الأغوات المسيحيين والأرمن.

قالت أم عثمان:

ـ لن يؤوينا أحد غيرهم. واحدهم يعطي الفلاح حتى النصف، وفي قلبهم إيمان. تعالوا نتفق معه سراً. السر واجب بعدما وصلت الى الرصاص.

استحسن عزيز رأيها، وإن ظل وعثمان يتشككان في السر الذي يخفي لجوء أسرة الى القزلي وآرو آغا عن عين شاهين آغا أو غيره، خاصة أنها أسرة مسلمة. لكن أم عثمان لم تتراجع، وأصرت على أن السر يمكن أن يحفظ لشهر أو لسنة، فالناس لاهية باللقمة والهم، وشاهين آغا نفسه وراءه ما يكفيه وينسيه، ولأن أياً منهما لم يكن لديه بديل، كشأنها، ولأن النهار كان يمضي سريعاً، فقد صارت القزلي وجهتهم، وآرو آغا رجاءهم.

★★★

لآرو آغا القزلي صمدان، أما بقية صمود القرية الصغيرة فتتوزع على أفندي لاذقاني وآخر أرمني من كسب. ووحده آرو، دون الآخرين، ماكان له خارج القزلي

سوى القليل، ولذا راح يسعى منذ دخل الفرنسيون ووطد صلته بالمستشار، الى ان يوسع ملكه، على حساب الأحراش.

كذلك رحب بالأسرة الجديدة، ولكنه أصر على أن يعرف سرّ قدومها إليه، لا إلى أسعد أفندي مثلاً، المسلم مثلها، ولا إلى هيكازون الأرمني الأقوى، وقد زادت شكوة النظرات التي تبادلها عزيز وعثمان، وحرصهما على أن يلتقياه على انفراد.

- مشكلة مع شاهين آغا التركماني.

قال أخيراً عزيز متردداً وملغزاً.

- أين؟

سأل آرو متوجساً.

- في أنجوق.

- ومن منا يتطاول على شاهين آغا؟ هذا قتّال قتلى..

- خل الأمر بيننا وبينك حتى يبرد الدم، مع أنه ما صار بيننا دم، ماصار غير الكلام.

صمت آرو مستحسناً، وقد محضه بعض الثقة صدق حدسه، كما زاده بعض القوة طمعه بهذين الشابين اللذين يمكن أن يستصلحا من الأرض بقدر ما يستصلح فلاحوه جميعاً، ولم تلبث أن انطلقت اساريره، فأمر عثمان أن يحمل الفانوس ويسير خلفه، وكانت أم عثمان والبنات والدواب تنتظر خارج البيت.

اشترط آرو على عزيز - باعتباره عم عثمان وكبير الأسرة - تنظيف الكتف الغربي بكامله من الأشجار. وقد أثار ذلك شهية عثمان، ولم يكن لدى عزيز خيار آخر، فرضخ وهو يخشى ألّا يكون بوسعه وعثمان أن يفيا بالشرط. فضلاً عن أن الحواكير الثلاثة ضيقة، والبيت الذي يتوسطها، قبالة الكتف صغير، مما سيجعل حالة الأسرة عسيرة لسنة أو سنتين.

كانت أم عثمان وهي تقسم البيت الصغير، وتوزع ما حملوا من أنجوق، لاتفتأ تعنف نفسها على أنها لم تسمع من قبل بأسعد أفندي ولا هيكازون ، تخشى أن تكون قد أخطأت في اختيار الآغا الأضعف، وكان عزيز يهون عليها:

- الحق علَى الليل. بكر علينا، ولو كانت الدنيا نهاراً كنا درنا خلف واحد من الاثنين.

ولكن ذلك نسي منذ الصباح الباكر، كما نسيت أنجوق ولو الى حين، إذ لم يفسح لهم الشغل لأيام طويلة إلا للطعام والنوم. كان البيت المهجور يلح بالطين والحواكير الثلاثة بالزرع، والدجاجات بالقن المتهدم. كان الشتاء يلح، والكتف الغربي والبيت

الملاصق الذي ينشد عزيز أن يقوم الليلة قبل الغد، مادام ينحشر مع الحمارين والثورين والأجساد الخمسة تحت سقف صغير وضيق واحد، كما طفق يردد كل مساء.

في العشايا كانت أم عثمان تنصرف الى حوك القطن، فيما يضطجع عزيز وعثمان، أو يتمددان قرب الفتيات المنهكات الغافيات. وكانت وحدها في مثل هذا الوقت الدافىء القصير ترمي بالنتف التي تجمع أثناء النهار ممن تصادف في القرية، على الرغم من حرصها على العزلة. إلا أن القزلي كانت تؤالف على مهل، في غفلة ممن تقوقعوا فيها، خاصة بعد أن بدأ عزيز وعثمان بقلع الأحجار للبيت المنشود من المقلع القريب.

ظلت البنتان الكبريان تنقلان الأحجار على الحمارين طوال اسبوعين، حين قدر عزيز أنها صارت تكفي، وشرع يعمر، على الرغم من أن آرو أصر طويلاً على أن يحضر أحد البنّائين من اللاذقية، أو من أي من القرى المجاورة.

كان عزيز في عجلة من أمره، فالبنّاء قد لايأتي طيلة الشتاء، فضلا عن أنه سوف يقيم في البيت الضيق، ويأكل من المؤونة الضئيلة. وإذ كان آرو يبالغ في تحذيره لعزيز، وفي سخريته منه، فالبناء ليس مثل قطع الأشجار ولا الفلاحة، فقد كان عزيز يكتفي بالقول:

- إذا أعجبك شغلي اعطني نصف ما ستعطيه للبنّاء، ومسامح بالباقي.

ماكادت جدران البيت تعلو بمداميك معدودة حتى أخذ بعض شبان القرية يتعاورون على مساعدة الأسرة الجديدة النشيطة التي لايسمع لها صوت. وقد سرّ ذلك آرو، وشكر للمسيح أنه لم يحضر بنّاء، وإن كان البيت سيؤول إليه أولاً وآخراً، فقد وفر عليه عزيز الكثير.

أثار شبان القزلي أن البيت يعلو سريعاً، بل يسقف ويسكن، وما كانوا ليدعوا هذا التحدي يفوت دون أن يكون لهم فيه يد، خاصة من كان منهم من رعية آرو، وما عاد أحد يماري في أن عزيز وعثمان سوف ينظفان الكتف الغربي، كما تعهدا للآغا.

ربما كان الاستغراق في الشغل قد أعان الأسرة الجديدة على أن تندمج في القزلي، وتترك أنجوق غافية في الحنايا. وبالطبع، كان ذلك على عزيز أهون. أما حين حلت القزلي الشرنقة، وصار عزيز وعثمان ينامان في البيت الجديد، فقد أخذ الانتماء الى القزلي يغدو حقيقة أرسخ وأجمل لهم جميعاً، وكان موسم الأمطار قد انتصف، وذلك أوجه.

إذ ذاك بدأ الشغل على الكتف الغربي دون أن يكون للأمطار والريح التي تعصف بأعالي الأشجار شأن بعزيز وعثمان، كانا يتسابقان من الفجر حتى العتمة، وإذ تشتد

الريح، أو تدفق الأمطار دفقاً، يصير لقطع الأشجار طقس آخر، يطلق غناء عزيز، يضاعف من عزمه، يرسل صرخات عثمان الوحشية فيرمي آخر ما يستر صدره ويلوح بفأسه، ينط كالقرد كلما ضرب ضربة، وأم عثمان تضحك وتدعو وتخاف، والفتيات الثلاث يتقافزن حولها. يغلب صراخهن على ندائها للرجلين المجنونين أن يكفا حتى تصحو السماء.

أخذ البحر يطل على البيت الجديد خاصة، كلما ازداد انكشاف الكتف الغربي وتهاوت الأشجار العملاقة. كانت البنت الصغرى أول من أعلن ذلك وهي تفتح الباب ذلك الصباح الذي عادت فيه الشمس بعد غياب طويل. تدافعوا جميعاً مباغتين بقرب البحر، لكأنهم لم يسمعوا من قبل هديره يتردد في البيت، وتقدم عزيز منه مأخوذاً، وقد هاله ما فعل وعثمان، وبدا له أن أنجوق قد اختفت أمس فقط.

كان الربيع قد بدأ في غفلة منهم، ومثلما كانت السماء تنجلي، والبحر يروق، والأرض تفيق، كانت نفس عزيز، وهو يتلمس كتفيه، لكأن الحمل الثقيل قد انزاح عنهما الآن فقط، فغدا قادراً على أن يغفو أعمق، يتأمل مكبراً مافعل وأسرته الجديدة، يستعيد ثناء الجيران وعجبهم، وينتظر ظهور آرو الذي قضى كعادته الشطر الأكبر والأصعب من الشتاء بعيداً، في اللاذقية، وترك البيت القرميدي الجميل مهجوراً.

صار لعزيز من الوقت ما يقضيه على سطح البيت الجديد، يعاين الغروب، ويركن إلى الزرقة التي تملأ الأفق، يغمره الخشوع وهو يفكر في قدرة الله، يسخن الدم في عروقه وهو يفكر فيمن ركبوا هذا البحر وعبروه، أياً كانوا، من قرى صافيتا إلى الفرنسيين أنفسهم. فالإنسان أيضاً جبار، له خوارقه، مهما بدا ضعيفاً أو مغلول اليدين.

في بعض أماسي وحدته تلك، كان يرين عليه ظل من اليقين الشامل، بدءاً من الخلعة الخضراء التي كانت أمه تلفها حول رسغه أو معصمه أو عنقه، شفاعة من الشيخ خليل، إلى سلطان هذا البحر، ورحابة هذه السماء، وغموض هذه الأحراش.

وكان أسعد أفندي وزاهراب قد ظهرا في القزلي، وأم عثمان ترمي بنتفها عن الآغا المسلم والآغا المسيحي، الآغا العربي والآغا الأرمني - وتتحاشى الآغا التركماني - كما كانت ترمي بنتفها عن الفلاح السني والفلاح المسيحي والفلاح العلوي، ولعل ذلك ما جعل أيضاً تلك الخلوات المسائية لعزيز أشبه بصلاة خاصة، يؤديها دون طقوس، إذ يهجس بالله والطبيعة والإنسان، يشفق على أم عثمان وجاراتها، يتذكر حمادي الحسون ويتضرع لنجاته، يشفق عليه وعلى شيخ البودي، يحكّ ذاكرته من أجل سورة أو دعاء، فيعيا اثر

كلمات معدودات، ولكنه يخلد قريراً وقوياً إلى ما يملأ جوانحه، بعيداً عن الآغا المسلم والآغا المسيحي، بعيداً عن الآغا الأرمني والآغا العربي، الفلاح السني والفلاح العلوي والفلاح المسيحي، فلا فرق بين آغا وآغا، كما لافرق بين فلاح وفلاح، الآغا هو الآغا، والفلاح هو الفلاح، الغني هو الغني والفقير هو الفقير، الظالم هو الظالم والعدل لايصير عدلين والحق لايصير حقين، وما الدين الذي يدين به عزيز اللباد غير هذا، ومن بعده لتقل أم عثمان وجاراتها مايحلو لهنّ، ليقل كل إنسان ما يشاء، وإذ تفيض نفسه بذلك، يقف على سطح البيت شامخاً يعب الهواء عباً، وأم عثمان تنادي، فقد برد العشاء.

★★★

لم يدخل غريب القزلي بعد وصول عزيز إليها ـ مالم يكن الأغوات الثلاثة ـ حتى مرّ أمام البيت ذلك الكهل الممتلىء، ذو الوجه الصبوح، يسوق حماره الأبيض أمامه وينادي.

كان عزيز يهم بالصعود إلى السطح، حيث استوقفه النداء، وأذكره بباعة جوالين كثيرين رآهم في قبية، صغيراً وكبيراً، فلاقى الكهل وحماره مرحبّاً.

قال الكهل:

ـ أنت جديد يا ابني هنا. حتى الخريف ما كنت في القزلي.

ـ صحيح يا عم.

ـ عمك أبو وليف، أبو وليف كيروز، وهذا حماره الذي يعرف الدروب شبراً شبراً، من انطاكية الى اللاذقية.

ـ وأنت تعرف الناس واحداً واحداً.

قال عزيز ضاحكاً، فكظم أبو وليف:

ـ كأنك لاتصدق؟ كيف عرفت إذن أنك غريب عن القزلي؟ ماعلينا، فيه مطرح عندك للنوم، وعليقة للحمار؟

تنحى عزيز مهللاً، ونادى أم عثمان لتعد العشاء للضيف الأول الذي يطرق باب هذا البيت، ثم نادى عثمان والفتيات، وهو ينفلش، لكأنه يحيا ثانية عهداً انقضى، كان يدعو فيه ضيفاً إلى مكان ما، أو كان يدعى ضيفاً، وإن يكن لبيت في أنجوق، ومن شاب وأرملة، ولعل عدواه أصابتهم جميعاً، فأقبلوا على الرجل، يلحون عليه أن يأكل، يمدّ ساقيه اللتين لابد أن السير الطويل قد أضناهما. وكان أبو وليف منذ أنزل حمولة الحمار،

وتربع على البساط في صدر البيت، لايفتأ يقسم أنه لم يأنس منذ سنين لأحد، كما هو الآن، لكأنه في بيته، مع أم وليف، وقد عاد وليف من غربته.

أيقظ حضور البائع الذي قطع مابين حلب وانطاكية والقزلي، وسوف يقطع مابين القزلي واللاذقية، شوق عزيز إلى عالم آخر كان غافياً في قرارته. أصغى للرجل مثل البنت الصغرى، لايصدق أنه قد أمضى كل هذه السنين وهو قابع بين أربعة جدران، بناها بنفسه أو بناها سواه، فما القزلي إلا بيت كبير، وجوهه هي هي، وهمومه هي هي. وما أنجوق إلا بيت أكبر، لكن وجوهه هي هي، وهمومه هي هي. وقد طال به ذلك قبل أن يشرع يقاطع البائع، يضيف ويسأل. وأسعد البائع أن مضيفه يعرف مايندر أن يعرفه فلاح في مثل هذه القرية. ولعل ذلك ما جعله يتوخى أن يتحدث بما يتوقع أن يكون عزيز جاهلاً به، كما جعله يلحف على عزيز، خاصة بعد أن أنكرت أم عثمان وأنكر عثمان أنهما قد رأياه من قبل، وبعد أن تلجلج عزيز وهو يدعى الانتساب إلى بللوران، أو أنه عم هذا الشاب الذي أخذت الحرب أبوه، وكان أبو وليف يردد في سره: كل غريب وراءه حكاية، وعزيز ضنين، ينشغل عن نفسه بما يقرأ في خبيئة البائع، كما أن عيني أم عثمان قد أومضتا له محذرتين، فالسر لازال سراً، وإن يكن شتاء بطوله قد انقضى.

كان كيروز قد خرج كعادته كل ربيع من انطاكية التي هدأت منذ تغلب الفرنسيون على الثوار. ولسوف ينجز رحلتين أو ثلاثاً قبل الشتاء القادم.

من انطاكية توجه إلى حلب، فقضى عند ابنه الذي يعمل في مصبغة الفخري ثلاثة أيام، اشترى خلالها الكثير مما دار وسيدور به، مباهياً الباعة الجوالين، ولما آب من حلب قضى مع أم وليف ثلاثة أيام، ثم أسرع كي لايتأخر عن عزيز اللباد، كما قال، فأسال دموع أم عثمان وعزيز الضاحكة، وخبطات عثمان على جنبيه وهو يقهقه، وكانت الصغيرات قد تكومن في البيت العتيق، غافيات.

في كل بيت نزل فيه أبو وليف منذ غادر انطاكية كان لسانه يحرص على ألّا تفوته الإشارة الى ماسمعه في حلب قبل أن يغادرها، كذلك قال لعزيز:

ـ قائد الثوار في انطاكية سوف يصبح رئيساً للشام كلها، وربما ملكاً عليها.

ومثلما هلل كثيرون لإشارة البائع فعل عزيز، إلا أن الرجل أردف كما فعل مراراً من قبل، وكأنما يظفر بصيد:

ـ إذن أنت لاتعرف أنه تصالح مع فرنسا، بعدما حكمت عليه بالإعدام. الناس تقول:

فرنسا تكافىء العاقل بالرئاسة، وربما بالتاج، على ما قدم. فلولا انسحابه لصعب عليها أن تطفىء النار اللاهبة في كل هذا الشمال وكل هذا الغرب من سورية.

كز عثمان على أسنانه:

ـ الخائن!

تراجع عزيز يداري خجله، وأبو وليف يخاطبه:

ـ سمعت أيضاً: تركيا تتوسط له عند فرنسا من أجل الرئاسة. صاحبنا لايحكي إلا بالتركية.

تمتم عزيز:

ـ الله يرحمك يا شاهين آغا قبل موتك. على الأقل يحكي بالعربي، ولو طالعة نازلة.

كان أبو وليف تلبسه، كما في كل مرة، ثأر ما من القائد الخائن الذي ترأس الحكومة العربية الأولى في انطاكية حين رحل الاتراك، وقال:

ـ شاهين آغا أرحم، والأيام بيننا.

تساءل عزيز:

ـ يكون رئيسنا أيضاً صاحب أرض وتحت يده عبيد مثلنا؟

ـ وأكبر وأكبر.

ـ كيف صار قائد الثوار إذن؟

ـ مثله مثل غيره.

تظاهر عزيز بالفهم، أما عثمان فقد طلب من أبي وليف أن يشرح له، فقال:

ـ دلني على ثورة من ثوراتنا هذه كلها قادها واحد مثلي أو مثل عمك عزيز؟ من جبال العلويين إلى إنطاكية إلى حلب الى قلب تركيا؟ من آغا إلى شيخ إلى..

قاطع عزيز مؤيداً ومشيراً إلى الدنادرة، ثم أضاف:

ـ ولكن لاأحد خان غير هذا. أصابع كفك ليست متساوية. وفيه قواد دفعوا من جيوبهم وباعوا أملاكهم من أجل الثورة.

قال أبو وليف وقد ذهبت عيناه بعيداً:

ـ من هذه الناحية ما قصر أحد. ولكن يخطر على بالي كلما جاءت هذه السيرة أن كل شيء جرى في هذه الثورات كما يجري في حياتنا. الفلاحون بطونهم فارغة وجيوبهم فارغة، ومنهم من تكون عينه فارغة، وعلى الرأس دائماً آغا أو شيخ أو. . يقسم المحصول أو يقود الثورة. منهم الخسيس ومنهم الطيب. والحمد لله ماظهر غير واحد هزموه، مااختلفنا،

القوة قوة، ولكن وحده خان. الأمل ضعيف بالذي لم يرم سلاحه. القوة قوة، الكماليون نفضوا يدهم، وماراحت إلا على شبابنا، كثير من شبابنا ماتوا من أجلهم، من مرعش الى عينتاب إلى غيرها وغيرها، أما هم فماذا قدموا لنا؟ قطعة سلاح؟ خرقة عليها العلم التركي وفي قفاها العلم العربي. ومطرزة ـ الصلاة على النبي ـ بكلام جميل: إنما المؤمنون اخوة. . ماذا فعل الأتراك الذين أرسلهم مصطفى كمال بالصقيلبية؟ والله ما قصّر قائدنا حين أعدم قائدهم. يعني إذا كانت الصقيلبية مسيحية يستبيحونها؟ هذه هي المساعدة؟ وأخوة المؤمنين تكون بالمقايضة علينا مع فرنسا؟ والله ياابني يا عزيز عمري ما شبهت لك العرب إلا بالأرمن في هذه الأيام.

عادت عينا الرجل إلى جليسيه تلقي بالوجوم الحزين، حتى عى ام عثمان التي بدا لها أنها تفهم الكثير مما يقال، على الرغم من أنها لم تشغل نفسها به يوماً. تساءل عزيز:

ـ كيف يا عم؟

ـ أنت فيك من ابني وليف شبه. لذلك يمكن قلبي مال لك. يعني تسأل أم ما راق لك شبهنا بالأرمن؟

ـ لا والله أسأل.

ـ ومع ذلك فيك من وليف شبه. وليف يمكن يعرف أكثر مني عن الأرمن وعن العرب ولكن لايروق له كلامي. الأرمن اتفقوا مع الفرنسيين قبل الحرب، ونحن اتفقنا مع الانكليز. ما هكذا فعل سلطان مكة وبعث لنا ابنه سلطاناً؟ فرنسا وعدت الأرمن بكيليكيا كلها، لا بنصفها ولا بربعها. لعبت فيهم وقالت لهم أرجع لك سلطانكم، وساعدوها في الحرب، ساعدوا الحلفاء. كان مع الجيوش الزاحفة على الشام مئات، بل آلاف من الأرمن. جمعوا بعضهم في قبرص وقالوا يا مسيح. طيب. مئات منهم، قل الآف، لاقوا للزاحفين على الشام من هذه الجهة، نزلوا في مرسين، ومن مرسين إلى أضنة، ويد بيد مع فرنسا، ولكن فرنسا بدأت تماطل. من ضرب ضرب ومن هرب هرب ومصطفى كمال كان بدأ، وكما لحس الانكليز كلامهم المدهون بزبدة وعسل، لحست فرنسا. طلعت برأس الأرمن وعملوا حكومة في أضنة، ياحرام! حكومة عمرها ساعة؟ جاءت فرنسا وقالت: بره. حبست الحكومة ونفتها. وجماعتنا طلعت برأسهم وعملوا مملكة . فرنسا تركت الأرمن للأتراك، والانكليز تركونا لفرنسا. يجوز مصيبتهم أكبر من مصيبتنا، روسيا بعد فرنسا اتفقت مع مصطفى كمال عليهم، ومن عشرين سنة والذبح بأعناقهم ما وقف. المهم يا عزيز ليس من مصيبة أهون، منا ومنهم. كلنا في البلاء سواء.

الغريب يحكم فينا وأعناقنا يقصونها وبلادنا يقسمونها كأنك خروف بيد جزار. ولكن لاتزعل. الرئيس هذه المرة منا وفينا، قل الملك، قلت لك يمكن تضع فرنسا التاج على رأس قائد الثوار، أو تجعله رئيساً.

ـ خائن الثوار، لا قائدهم.

قال عثمان مقاطعاً ومستفزاً.

ـ ما اختلفنا يا ابني. الله يستر. الغريب أحياناً أرحم من القريب، وكما ضحكوا علينا من قبل يضحكون هذه المرة. ما نعستم يا جماعة؟

ماكاد يسأل حتى نهضت أم عثمان محيية، ولحقت ببناتها ، ثم لحق بها عثمان تاركاً فراشه للضيف. أما عزيز فأنى كان له أن يغفو بعدما خضّ بركة مائه أبو وليف بالحجر تلو الحجر، خاصة أن حدسه قد صدق، بعد أن أطفأ الفانوس، وراح البائع يتحدث بحياء وإلغاز عما كان يقدم للثوار في انطاكية، وفي الحفة، وهو ينتقل خلف حماره الأبيض من مكان إلى مكان، وفي ذلك الشتاء لم تنقطع جولاته، على الرغم من أن الأمطار كانت تؤخره، وتتلف الأشياء التي يعيش من بيعها في القرى.

كان عزيز يفكر بعد أن أغفى أبو وليف أنه قد أحسن إذ لم يتابع سيره إلى تركيا، مادامت الأمور قد جرت كما روى هذا الرجل، وربما كانت تلك أول مرة يسعده الحظ فيها. كما كان يفكر في أن ماهو والآخرون جميعاً فيه لاينبغي أن يدوم كذلك طويلاً. كل ما هي فيه هذه البلاد لاينبغي أن يدوم طويلاً، فالدوام للحي القيوم وحده، والثوار ينبغي أن يعودوا ثانية وثالثة وعاشرة حتى ترحل فرنسا. هاهو، وأبوه قبله، وجده وجدّ جده، عاشوا تحت حكم الأتراك، ورحل الأتراك، ومن بعدهم ترحل فرنسا، ولو قيض الله له أن يعيش حتى يرى ذلك اليوم فسيكون له ما يعزيه عن حياته الشقية، خصوصاً إذا رحل مع فرنسا كل هذا الظلم وهذا الفقر الذي يربض على الصدر مثل حجر الطاحون ويحرم عزيز أن يهنأ في ليله كما في نهاره.

★★★

في الصباح الباكر همس أبو وليف لعزيز:

ـ لماذا لاتتزوج أرملة أخيك، والأسرة أسرتك على كل حال؟

غاب أبو وليف مخلفاً السؤال يدوم في صدر عزيز، يوماً بعد يوم ، وأم عثمان قد شرعت تعنى بنفسها، تكثر من الاغتسال، تمشط شعرها، ولا تتحفظ في أن تظهر ذؤاباته

من تحت المنديل، وكان عثمان يصلي على النبي، ويقسم أن أمه أحلى من أية صبية في القزلي وفي أنجوق، فيتورد خداها وتعنفه، متلهفة على ضحكة من عزيز أو إغضاءة، وفي أحيان نزرة كانت تخاف مما تأتي، فتستغفر الله مرددة في سرها:

ـ بعدها العمر؟

وتروح تتحاشى عزيز، تهمل ما كانت تبالغ في العناية به من شؤونه الصغيرة، تكلمه بجفاء. ولعل ذلك قد طال بها قبل أن يألف عزيز اندياح دوائر نفسه، ومارمى أبو وليف في بركته الراكدة، ويعود قادراً على أن يرى الدنيا.

إلا أن البحر ما عاد مثلما كان في مطلع الربيع، ولا الأحراش، ولا السماء. فثمة في النهار الطويل متسع أكبر فأكبر للراحة، مادام الحصاد يسيراً، وماشتل من الدخان في الكتف الغربي يسير أيضاً، وليس ثمة قطن.

غيبة عثمان باتت تطول مع أقرانه في الأحراش نهاراً أو ليلاً، يصطادون ويترامون بالأكواز ويطاردون الجقلان ويهرسون رؤوس الحيات. وإن لم يخرجوا إلى الأحراش فثمة البحر، وقد تعلم السباحة أسرع وأمهر من عزيز، غير آبه بتحذير أمه ولا صخب أقرانه.

خرج عزيز مع عثمان مراراً، قبل أن تغلبه غربته بين الشبان الصغار. صار يرى نفسه عجوزاً. وحين جاهر بذلك رافضاً الخروج معهم، ضحكوا منه، وضحك مثلهم من نفسه. غير أن عيني أم عثمان كانتا تتلامعان بأمر آخر، وهي ترغب أكثر مما تخشى، وتخشى أكثر مما ترغب في هذه الخلوة، ومن بعدها الخلوة فالخلوة، لافرق بين ليل أونهار، فالبنات لهن أيضاً ما يلهون به إن لم ينمن مبكرات، وعزيز ما عاد ينفرد بنفسه على السطح كثيراً، ماعاد يتمشى وحده طويلاً في الكتف الغربي. إنه يؤوب إليها، يجلسان معاً أمام البيت الجديد، وهي تدعو الله في سرها ألّا يهدي إليهما أحد من الجيران.

كانا يتكلمان كثيراً، أو يصمتان طويلاً، وأم عثمان تتلذذ بنارها الهادئة، تتمنى أن تظل كذلك، لا أقوى ولا أضعف مدى الحياة، أما عزيز فلم يعد يعرف كيف يظل المرء هكذا، إذ لابد له من أن يكون أقوى أو أضعف، إنه يرى أم عثمان الجديدة، يحلو له أن يجرؤ لسانه عليها مرة بعد مرة، وأن تكون أقل خجلاً ولوماً. أليست خطيبته؟

حين بالغ في الدنو منها أول مرة ليهمس لها بذلك السؤال، نأت عنه باسمة:

ـ سامحك الله. مانسيت؟

صفق فؤاده لرنّة العتاب في صوتها وقد توشت بالدعوة، أردف في خلوة تالية:

ـ طالت بنا الخطبة يا أم عثمان، وحليب السنونو صار أغلى وأغلى.

قالت بصوت قد غادره العتاب وجأر بالدعوة:

ـ اتق الله!

كانا قد دخلا للتو إلى البيت الجديد، فجلست بعيدة عنه. لامها وأشار إليها كي تقترب منه، فضحكت وبعثرت أصابعها فوق وجهها فصدرها. مرددة:

ـ ويلي منك!

نهض إلى جوارها، والتصق كتفاهما، فابتعدت حتى زاوية البيت عابسة وهامسة:

ـ اعقل ياعزيز. الباب مفتوح وعيون الناس ساهرة.

ـ الباب سأغلقه، وعيون الناس سأجعلها تنام، ماذا أيضاً؟

قبل أن يكمل عبارته كان قد أوصد الباب، والتصق بها، وهي في الزاوية ترتجف:

ـ عزيز.. اتق الله.. ويلي منك.. اعقل يا عزيز.

كانت النار الهادئة تتقد وقد سقط المنديل، وطمر عزيز رأسه في شعرها، ويداه تلوبان فوق ظهرها، لكنها لم تدعه يقبلها تلك الليلة.

من بعد، طال بهما الانتظار، قبل أن تسنح لهما فرصة أخرى للانفراد بها. ولعل اللهفة قبل هذه الليلة المقمرة قد أضنتهما، ولم يعد ينقع غلتهما اختلاس ابتسامة أو ملامسة كف لكف. كانا قد صعدا إلى السطح، أقرب فأقرب إلى القمر، كما قالت، وهو يلح عليها كي يأويا الى البيت.

وسط السطح تربعت، وتمدد أمامها، ملقياً برأسه في حضنها، غير عابىء بشهقتها ولا بدفعها لرأسه. كان راغباً في أن يغفو عميقاً على فخذها، لكأنه قد قضى عمره ساهراً. إلا أن شفتيه راحتا تلثمان الفستان الذي شف تحت ضوء القمر، وكانت أصابعها تعبث في شعره وهي تتأوه منه ومن الدنيا.

تململ رأسه فوق الفخذ الطري حتى سقط فوق فوق الوهدة التي تحول دون الفخذ الآخر. شهقت وحاولت أن تدفعه، إلا أنها كانت قد استلقت، وكانت شفتاه تلثمان الفستان فوق الربوة التي كانت وهدة. كانت الشفتان تعضان الفستان فوق البطن والنهدين، والفخذان يلتحمان ويتصلبان تحته، فتلك رائحة الرجل الأول، ليس بعد وفاة المرحوم، بل منذ قبل إنها صارت امرأة ولم تعد طفلة. كان القمر يصير هو الآخر رجلاً، وفي كيانها تسري رعشة الموت أو الحياة، كان عزيز يطبق على وجنتيها وشفتيها وعنقها ونهديها، وهو يغالب الفستان والسروال الطويل. وحين كان السروال ينزل كانت قد غدت قادرة على أن تتوسل إليه كي يكف، فما فعلاه يكفي، وما هو أبعد حرام. كانت

أسئلتها تتلوى، فهل نسي أنها قد تحمل؟ وما ينفع أن يؤكد أنه لم ينس؟ أو أنهم سيتزوجان؟ هل نسي أن ابنها شاب؟ وأنه قد يأتي غداً ليقول لها وله:

- زوجيني يا أمي.. زوجني يا عمي..

غطى الفستان ماكشف السروال، وعصى الفخذان على يدي عزيز وقضيبه، فلم ينفرجا، وكانت دموعها أغزر من مائه وهي تنوح:

- لا ياعزيز. رح دور على بنت باكر. لاتتزوج أرملة، أنت تليق بأحلى البنات، أما أم عثمان فليس لها غير أن تندب حظها وتتمنى لك الخير.

ألوى عزيز كسيراً عنها وهو لايعرف كيف يخفي قضيبه الذاوي. وما كان لجسده من بعد، ولا لجسدها، أن يهجعا. كانا يتقلبان على الجمر صامتين، وقد آلى كل منها الّا يقرب من الآخر. ورويداً رويداً صارت عيناه تهومان بعيداً، لا هرباً من عبود بك الرشدة ولا من الفرنسيين، لاهرباً من قبية ولا من مرجمين، بل جوعاً كاوياً إلى جسد لامناص منه. لايهم إنْ كان زواجاً أم لا. لايهم إنْ كان لأخرى مثل أم عثمان أم مثل هيلانة المنسية. حتى نجوم الصوان صارت تومىء له، صارت النساء اللواتي رأى قبل هذه الأيام يتوحدن في نداء آسر لجسده ولنفسه، يدعوه إلى أن يغذّ السير من جديد، ويحرمه النوم.

★★★

القوة والاعتزاز اللذان كان عزيز يقرأهما في عيون فلاحي الآغا الأرمني الآخر، انقلبا في الأيام الأخيرة إلى وجوم وقلق، أقسى مما كان يعتوره هو. ولئن كان لم يأبه باسم هيكازون آغا من قبل، على الرغم من الشذرات المثيرة التي تجمعت له ولعثمان وأم عثمان عن الآغا القوي والصعب، فإن ما تتهامس به القرلي في هذه الأونة طغا على الجميع.

أبو وليف الذي يعرف الدروب جميعاً، والناس جميعاً، كان قد أثنى على اختيار أم عثمان لآرو آغا، وهي تسأله عما تردد في القرلي من مصرع ابن هيكازون أو ابن أخيه.

قال أبو وليف:

- ليس لهيكازون آغا مثيل في هذا الجبل، من اللاذقية إلى انطاكية، غير شاهين آغا التركماني. صحيح أنه الآن على حافة قبره، ولكن قلبه حديد، وقتل الرجل عنده مثل شربة الماء.

قال عثمان:

ـ ولكن لا أحد من الفلاحين يشكو منه.

قال أبو وليف:

ـ لأنه مشغول عنهم، وبعدما رباهم حتى أنساهم الشكوى. هيكازون آغا أخذ الأرض بالقوة، هنا وفي كسب وفي غيرها. كنت في بطن أمك يوم كانت صرخته تدوي من كسب إلى القزلي، والآن الناس مثل الغنم، فكيف تشكو؟

سألت أم عثمان:

ـ صحيح هرب في الحرب إلى اسكندرون؟

ـ هرب قبل الحرب يا أم عثمان. حكايات قديمة. كان بيته ملفى لرجال الحكومة، ولا ترد الحكومة طلبه. رمى بناس كثيرين في السجن، من الأرمن ومن غيرهم، خاصة من البروتستانت، ويمكن خاف من كثرة خصومه، فهرب إلى اسكندرون، وماعاد إلا بعد الحرب.

سأل عزيز:

ـ صحيح أنه استولى على عنابر التين والزبيب التي تركها الأتراك. وحصد زرع الذين هربوا منهم بعد الحرب؟

ـ كل ما تسمع عن هيكازون آغا صحيح، وزد من عندك ولا تخف.

وجاء صوت أم عثمان واجفاً:

ـ الحمد لله، قلت لكم من أول يوم وأنتم تستخفون بآرو آغا وضعفه: السلطان اللي يبيعد عن السلطان. خلونا مع هذا الآدمي، أرحم لنا.

كانت القزلي تردد أصداء كمين الشبان الذين صرعوا ثلاثة من أسرة هيكازون آغا، ومحاصرة الاسرة في بيوتها التي تشبه القلاع وفيها تردد القزلي اختلطت أخبار القتل القديم بالقتل الجديد، واحد يفصّل في هرب ابنة هيكازون آغا منذ سنتين أو ثلاث مع حبيبها، والآخر يفصّل في اختطاف البنت، والثالث يزهو بابن هيكازون الذي ثار لشرف أخته وقتل شقيق خاطفها، والرابع يأسى على ابن هيكازون الذي قتل من بعد، وكان عثمان يتساءل معجباً مرة، منكراً مرة، ضاحكاً في كل مرة:

ـ البنت وزوجها يعيشان في أمان الله، والرؤوس تتطاير بسببهما؟

ولعل ماكانت القزلي تردد، وعدوى الوجوم والقلق تسري فيها، من فلاحي هيكازون إلى الجميع، قد أشغلا عزيزاً عن نفسه قليلاً، حتى حضر آرو آغا ذلك العصر إلى الكتف الغربي، وكان عزيز يتلهى وحيداً في جمع الأحجار الصغيرة المتناثرة.

توجس عزيز من الحضور المفاجىء للآغا وحده، ولم يكذب حدسه، إذ سرعان مابادر الآغا هامساً:

ـ اسمعني يا عزيز وافهمني. من شهرين وأنا أتعذب بسببك. شاهين آغا التركماني أرسل لي الشوباصي وحكى لي عن كل شيء. هو لم يطلب مني أن أطردك وأطرد من معك، ولكن أنا أفهم. هو ماقال غير أن رأسك له أينما كنت. عندي، عند غيري، أو في آخر الدنيا. هو ما قال غير أن شاهين آغا أراد أن يكون عندي علم، وأنا خائف عليك. وكنت أريد أن أقول لك هذا الكلام من يومه، ولكن أنت تعرف شاهين آغا مثلي. لا أنت ولا أنا نقدر عليه، ورأيي أن تنجو برأسك وتختفي من دربه. أم عثمان وأولادها لاخوف عليهم إذا بعدت عنهم. والكحل أهون من العمى، وكل ما يصير على ابن آدم أهون من القتل. أنت تعرف مثلي ما وقع في كسب، أمس ومن سنة وقبلها وقبلها، أنا برأت ذمتي نحوك، وكل ما أريده أن تنتبه، وتحفظ هذا السر عن الجميع.

انصرف الآغا عجلاً، وعينا عزيز تدققان في الحرش المتاخم، وتبحثان عن عثمان الذي يسبح مع أقرانه.

عاد عزيز إلى البيت، وتحاشى أن يبتعد ثانية حتى حضر عثمان، فتنهد متخففاً، كأنه وقع على السند الذي افتقد منذ العصر، فجرؤ على أن يتمشى ويبتعد قليلاً، ليتبول أو ليتحدى أو ليفرج الكرب الذي زاحم أنفاسه، وإذا بجلده يقشعر، وساقيه تنطلقان كالسهم نحو البيت، والرصاص ينطلق في اثره.

وصل الى البيت سالماً، لاهثاً ومصفراً، وكانوا جميعاً يقفون، وجلين وحائرين. أمرهم بالدخول فساقت أم عثمان الفتيات أمامها، وانطلق عثمان إلى الحرش وهو يناديه بصوت مكتوم ويدين مفتوحتين ويابستين. جرى خلف عثمان خطوات، ثم توقف، ثم عدا يدور حول البيت، يتنصّت ويدقق في العتمة، وحين قدر صوته على أن يدوي منادياً، كان عثمان يقبل متهادياً ببندقية، وهو يصيح ضاحكاً:

ـ مسكت لك الكلاب. هذه بندقية واحد منهم كان يتلطى وراء الدباقة، وراء تلك الصنوبرة جئته من اليمين وغمت فوقه. قطعت له أنفاسه حتى رمى البندقية وناس:

ـ أنا بعرضك يا عزيز. أنا عبد مأمور.

سار عزيز خلف عثمان إلى البيت، وهو يتابع:

ـ قلت له ناد من معك. قال ما معي غير كوزال. عرفت كوزال ياعمي لابد أنك رأيته في السرايا. قلت ناد كوزال. لا لا. قلت له: أين يلطو. قال: مقابلي. معقول تركني وراح؟ قلت له: قم الحق به وسلم على شاهين آغا. أنا لا آخذكم غدراً. هذه المرة عفو. المرة القادمة أبعج رأسك ورأس كل من يقترب منا. قل لشاهين آغا: الغدر عيب. إذا كان شاهين آغا التركماني، ورجاله رجالاً، فلا يلعب لعب الخسيس. خلنا رجلاً لرجل وفي عز النهار.

كانت أم عثمان ترمق عاجزة عن الدموع التي ملأت مقلتيها، وعزيز يطرق سائلاً:

ـ ما قلت لهم إنك عثمان؟

ـ وما الفرق؟

تساءل عثمان وهو يدفع إليه بالبندقية:

ـ خذ يا عمي.. هذه لك.

ترددت أصابعه وتراخت وهي تحتضن البندقية، كأنها لم تفعل من قبل، وكانت أم عثمان تتهدج:

ـ الحمد لله هذه المرة جاءت سليمة. إذا كان عنده وعند رجاله نخوة سكتوا على فضيحتهم وتركونا بحالنا.

تمتم عزيز والحرارة تسري رويداً بين أصابعه والبندقية:

ـ آرو يعرف كل شيء.

ولعله لم ينطق بغير ذلك تلك الليلة، إلا أنه وهو ينتظر الصباح مسهداً، كان يرنو إلى البندقية التي تمددت بينه وبين عثمان، يطمئن إلى أن هذا الذي ينام عميقاً قد صار رجلاً يركن إليه، يحمي أسرته وينقذ عمه من الموت. أما مقامه هو هنا، أمامه أم عثمان وخلفه شاهين آغا التركماني، فما ينبغي له أن يطول. في النهار التالي أعجزته الخلوة، بأم عثمان، إذ لم يخرج عثمان مع أقرانه، وبات يلازمه، كأنه يحرسه. كان يود أن يفضي إليها بما عزم عليه، فهي وحدها سوف تفهم. أما عثمان فقد يظن به الجبن، والنهار يمضي سريعاً، حتى إذا تضرجت الشمس وأخذت تهوي في البحر، نهق الحمار الأبيض قرب الكتف الغربي، وظهر أبو وليف، فوقف عزيز يتمتم:

ـ الله سبحانه وتعالى أرسلك لي.

★★★

13

عادت عين آدم هادئة. غادرها الذين شغلوها أياماً، ولم يحضر الأمير. وسرعان ما بدا أن القنب والقتيلين والعبد حمود نفسه قد نسيتهم القرية، وأحسّ ياسين الحلو بالأمان، فتحرش بهند مراراً حتى أضحكها، وفي فجر الجمعة المباركة التالية يمّم غرباً، حيث الأمير.

في المجلس العامر التقى براغب الناصح. ما إن أذن الأمير له بالدخول حتى هب راغب من أقصى المجلس يلاقيه، قبل أن يلقي بالتحية على الأمير. ارتبك ولم يعد يعرف كيف يحضن صديقه، ولا كيف يحيّ، وازداد ارتباكه عندما لحظ علم الأمير بما بينه وبين راغب، فجلس صامتاً، بعيداً، حتى سأله الأمير عما وراءه؟

كان قد هيأ نفسه جيداً لذلك، فانطلق يفصّل في شؤون الطفطافة، لكنه لم يكد يتجاوز مصالحة سطام العبد الله والشيخ سلامة حتى قاطعه الأمير:

- اتركنا من هذا. غيره؟

اضطرب ونسي سفر الشيخ سلامة إلى حلب وما يدور عن سعيه إلى فرنسا، وأسرع يتحدث معاً عن السوس في الرقة وجمع المشيخة فوق الخوة في المكحل، متحاشياً أن يفصّل، فقاطعه الأمير ثانية:

- اتركنا من هذا. وعين التركمان؟

هذه المرة اكتفى بالنتيجة التي توصل إليها مع المختار. كلمات معدودات أطرق بعدها صامتاً، فنهره الأمير:

- مابك؟ غيره؟ فيه شيء؟

ارتجف صوته، وهو لايقوى على أن يواجه عيني الأمير:

- لا ياطويل العمر.

- قم إذن وانظر متى ستخرج قافلة السمن إلى حلب. اخرج معها.

ثم التفت إلى راغب:
ـ أظن يا ابن الناصح تريد أن تنفرد بصاحبك.
فنهض راغب وياسين، وشارك الآخرون الأمير في الضحك.
خارج الخيمة الأميرية تطلع ياسين إلى السماء، لايصدق أنه قد نجا. كانت خطاه تفسح بعيداً عن الخيمة، وراغب لايكاد يلحق به، وهو يهزأ من اضطرابه:
ـ كنت مثل مجرم أمام قاضٍ سوف يقطع رقبته. مثل العبد يوم الحساب. بربك هل بلت تحتك؟
بعيداً أمسك راغب بكتفيه حدق فيه مشوقاً، فتبسم على استحياء. تبسم راغب، ثم عرضت ضحكتهما، وأخذت تصخب، وقفز ياسين في الهواء، فقفز راغب، وفرش ياسين ذراعيه، فاندفع إليهما راغب، وصاح ياسين:
ـ تعال يا أخي تعال. كنت أخاف أن تغادر الأمير قبل أن نلتقي. احك لي: ماذا تفعل بديارنا؟ هل ضاقت بك الأرض أنت أيضاً؟ اجلس واحك لي بالله عليك: من يوم م ودعتك على باب القشلة حتى اليوم.
من القشلة الحميدية إلى عين فيت، ومن العال إلى اللجاة إلى حوران، حتى الدردارة التي تظللهما الآن، كان ياسين الحلو يتشظى مع راغب الناصح، يوشك أن يرى شظايا نفسه تتطاير أمامه عبر هذه السنين، يوجعه أن الشظايا لاتلتئم، يحث راغب على أن يفصل، يضحك من زيجاته ويتلمظ، يتذكر اسكندرون وغنيم الضرس والأم والبنت، يتمنى لو أن هند تسمع وتغار، أو لو أنها ترى صديقه الذي قاوم اليهود والانكليز والفرنسيين مع عسكري اسمه قاسم السعد وشاويش اسمه أبو جميل، يحذرها من أن تنبس، فالفرنسيون هنا يلازمون الأمير دشاش، ويتباهى ياسين أمام هند وأمام الأمير بما فعل صديقه بزوج دهيبة، لكأنه فارس من عنترة! وتتقد عيناه متوعدتين مع صوت راغب ذلك الشامي الشحيح والجبان، المغرور والناكر: عمر التكلي.
قال راغب الناصح:
ـ لا هو نفسه، ولا ابن امرأة، كان سيعمل في حوران ماعملت، وماذا تظن نابني؟ لاتقل: صديقي، افرضني مثل مرابع عنده، رمى لي بكم ليرة وقال هذه اجرتك. أما أن أدبر لك الذهب وأسلفك، فياحسرة! من أين لي؟ كل مامعي زرعته في الأرض، بين حوران وحمص صرت مثلك، على الحديد. ولو كان معي ما أعطيتك. هذا جنونك فما ذنبي أنا وغيري؟ وكيف تترك دهيبه وحدها هناك؟ كرمى لأهلها أضعها في عيوني، ولكن

كيف يترك الرجل زوجته وأولاده ويدور على باب الله؟ لماذا تظن يا ياسين أنه فعل معي هذه الفعلة؟ أنا حكيت لك حسناته وسيئاته، فكيف تفسرّ لي؟ لو لم يجيبني ماكنت قطعت سورية من طرفها إلى طرفها حتى تراني هنا.

قال ياسين الحلو:

ـ هو عمل خيراً لي. جمعني بك وما كان هذا يحصل في المنام، لولاه. ولكن أظنه خاف من أن يدخل معك بين العشاير والثارات. جبان كما قلت أنت. أظنه طمع بحقك. أنت اشتغلت ما اشتغلت وما أخذت. يمكن رآها فرصة، وقال أخلص منه ومن أجرته. هو ليس بخيلاً، هو أيضاً لئيم وطماع، وأما الكلام الحلو عن دهيبة فمن أجل شقيقها الذي يسمع ومن أجل العشيرة، لاتغترّ به. اتركك منه والتفت لنفسك هنا. ظني أن الله كتب لك هذا حتى تسعد وتسعد من بعد. هنا الخير لا أول له ولا آخر.

كان راغب في سبيله من الشام إلى عين آدم قد عرج على المشرقة، فإذا بفياض العقدة لايزال ينزف من جرح نجوم الصوان. إنه ينزف دماً وحقداً، وراغب يخشى، ويجعل ياسين يخشى مثله، أن يكون الجرح ينزف صديداً أيضاً، ففياض العقدة ماعاد ذلك الفتى الذي يعرفان. ومن جديد جعل لقاء راغب وفياض نفس ياسين الحلو تتشظى، خاصة أن اسماعيل معلا لا أثر له، وعزيز اللباد، وحمادي الحسون الذي عاد فضاع بعد تلك المصادفة في الجسر، وياسين نفسه بلا أثر، ليس بالنسبة إلى أولاء وحسب، بل أيضاً بالنسبة إلى أهله وأهل هند، والشظايا التي كانت هاجعة، أقضّها راغب الناصح قبل أن يتكلم، وتركه موجوعاً وتائهاً وراح يتلفت كلما عبرت تلك العبدة القصيرة الناحلة.

كان الناس يروحون ويجيئون قريباً من الدردارة، قليل منهم من يتوجه إلى خيمة الأمير، وكانت خيام الشيخات تتوزع على يمين الدردارة.

ربما كانت العبدة قد ظهرت واختفت مراراً، ملوية بعنق راغب، وياسين غافل. فلما أفاق حسب العبدة طفلة أول مرة، ثم أذكرته عينا راغب بالعبد حمود، وإذ نهض راغب يتمطى، ويسأله عما إذا لم يكونا قد تأخرا عن القوم، ظهرت العبدة فجأة تحت الدردارة، وراغب يدبر عنه ويهفو إليها:

ـ هه يا شعيلة: تظنين أمزح؟ اضحكي على هواك. سوف ترين.

ـ شعيلة يا حمود!!

هتف ياسين بصوت أجفل راغب وأجفل العبدة التي غاضت ضحكتها وأسرع مبتعدة. عاد راغب ساخطاً:

ـ أفزعت البنت يا أخي! طيرتها. ما صدقت أني أراها وحدها. من يكون حمود هذا؟

قال ياسين واجفاً:

ـ عبد طيب من عبيد الأمير. ما رأيته في عين آدم؟ سوف تعرفه وتحبه. ولكن قل أنت: ما شأنك بها؟

قال راغب وهو يتقدم نحو خيمة الأمير:

ـ سأحكي لك. لاتضحك مني. سبحانك يا رب! فياض هو الذي ذكر لي شعيله، من يصدق. دنيا عجيبة، . قلت له لاتهتم :إذا جمعني الله بها فسأعوض لك ما فاتك منها. الملعون زعل مني. يريدني أن أصدق أنه عشقها. ولكن صدق يا ياسين: هذه العبدة غزتني. تقول انها ليست من العبيد. عينها تخترق صدرك هكذا، مثل السهم.

ـ ألا تستحي يا رجل؟

ـ ولماذا أستحي؟ عيب؟ عمزي ما وقعت في العيب.

ـ أنا واجبي أن أنبهك. حمود عاشق، وسيتزوج شعيلة عما قريب. أما أنت وفياض.. أوف.. ماذا يقول الانسان؟

قال راغب ساخراً:

ـ خله يحلم بها إذن.

تساءل ياسين:

ـ من تقصد؟

ـ العبد حمود.

ـ كفاك مزاحاً يا راغب.

ـ أنا لا أمزح يا ياسين.

ـ هل لجأت إلى الأمير من أجل دهيبة أم من أجل امرأة جديدة؟

ـ لاتقارن دهيبة بشعيلة، دهيبة بنت شيوخ، قلت لك، والأمير يعرف أهلها ويقدرهم.

ـ كيف إذن؟

ـ بنت وأعجبتني. أنت ما همك؟ حضن زوجتك قريب، تريدني أن أعيش سنة بلا امرأة؟

ـ لاتنس يا راغب أنك في حمى الأمير دشاش. إياك ثم إياك، عبد الأمير أو عبدته أغلى عليه من رأسي ومن رأسك.

ـ المعنى؟ حتى لو ألزمني بها ما الضرر؟ أكون رجعت لدهيبة بمهرها وعبدتها، والله العظيم لولا أنها من العبيد لفضلتها على كل النساء. لاتظن اني أقصد لونها يا ياسين. عندنا في الجولان وفي الحوران من هم أكثر سواداً منها، ولكنهم ليسوا عبيداً. عمر التكلي نفسه غاطس في واحدة سوداء، شعيلة أحلى منها بألف مرة. افرض أنها من هناك يا ياسين؟ شعيلة سنونوة. تعرف أنت السنونو؟ ألا تراها كيف ترفرف وتزقزق؟ أنت مارأيت راحتها البيضاء. تراهن إذا لم يكن تحت ابطها أبيض؟ ثديها أبيض؟ كيف يقدر راغب الناصح أن يتركها تطير منه؟

كان راغب يسترسل، وصوته ينأى عن ياسين. راغب نفسه كان ينأى، على الرغم من أنهما كانا يسيران كتفاً لكتف. كانت صورة راغب تتداخل في سمع ياسين بصدى وحشي بعيد لحمود الجريح. صورة السنونوة المتوفة كانت تتكاثف في عينيه، وهو عاجز عن أن يحميها، أو يحول بين حمود وراغب، فأمسك بعنق راغب يهزه وينهره:

ـ كفى كفى..

إلا أن كفيه أفاقتا على فراغ، وراغب ثمة ، في فرجة خيمة الأمير يصطنع الضحك، وآخرون داخل الخيمة يضحكون، فتراجع وهو يهمس:

ـ أبعد عن شعيله ياراغب. كرمى لله ابعد.

★★★

تحاشى ياسين أن يلتقي براغب بقية ذلك اليوم، تشاغل بسفره مع قافلة السمن، واستطاع أن يقدم موعدها ليصبح في الفجر التالي، بدلاً من المساء. ولما أزف الموعد ودّلو أمكنه أن ينسحب، وقد غادره الحنق على راغب، وخاف أن يورط نفسه ثانية مع الأمير أو مع حمود الذي قد يسحب مسدسه ويطلق. رأى نفسه كأنما يفرّ لينجو بجلده، تاركاً من يعزهم لقدرهم. فراغب صديقه الحميم مهما فعل، وحمود ماعاد بالنسبة إليه عبداً وحسب. أما تلك السنونوة المسكينة كما شبهها راغب بحق، فماذا ينتظرها بين هذا وذاك؟

في الطريق الطويل داور هواجسه، أقبل على هرج الحمالين والعبيد الذين يحرسون القافلة ، شارك في الحداء بصوته الناشز ، وكانت القافلة بالغة الطول، تحمل من السمن ما حسب ياسين أنه يكفي سورية كلها. لم يكن قد شاهد منذ الحرب مثل هذه الجمال والنوق والجمّالة والضروف في قطعان الأمير الأربعة من الجمال، والتي ينوف كل منها على

المائة، ولا تسير إلا محمية بالعبيد المسلحين، ماكانت تبدو لياسين كما تبدو هذه القافلة: البنادق أكثر، الحمولة التي لاتقدر بثمن، الرجال الذين تضاعفهم الظلال، والخطر الذي يعظم كلما أمعنت الطريق في الطول، وتراجع النهار، وأقبل الليل، وغلب الصمت، فلم يعد أحد يتندر بقوافل الحمير التي يسوقها بعض الشوايا، حاملة السمن أيضاً إلى حلب، ماعاد سوى وقع مشافر الجمال وأخفافها، وبعض الطيور أو الحشرات التي تتقافز هلعة، وتلك النجوم التي أخفت الغيوم من بينها نجمة ياسين الحلو.

من تلدف أو من عين آدم الى اسكندرون، لم يعتر ياسين مثل هذا الاحساس بالخطر. وفي اسكندرون، أول مرة أو آخر مرة، لم يعرف مثل الانقباض الذي غلّه في حلب، كانت الخانات تعج بالحمالة والرعاة والضروف، ولم يكن له ما يؤديه، فلماذا جاء إذن؟ كل شيء يمكن أن ينجز دونه ـ كما فكر ـ من الطريق إلى المدينة، فلماذا جاء إذن؟

على الجدار المقابل لبوابة الخان كانت تتصدر ثلاث صور لمصطفى كمال. قطع الشارع الحجري نحوها، يتفرج من خلف ظهر عددٍ من الأولاد والرجال. كانت الصورة الوسطى مزنرة بالكتابة التركية، أما الأخريان فقد توجتا بالآية: وما النصر إلا من عند الله، وذيلتا بكلمات عديدة، ظهر منها لياسين: محرك العواطف العثمانية، بطل الأناضول، دولة المشير الغازي.. وعلى يمين كل صورة قرأ بيسر: حب الوطن من الإيمان.

تراجع مستنكراً أن تلصق هذه الصور فوق هذا الجدار، وأن يتفرج هو وسواه عليها. فكر في أن مصطفى كمال بطل حقاً، ولقد سمع عنه الكثير في اسكندرون وربما في عين آدم نفسها، وأعجب به إذ قلب هزيمة بلاده إلى نصر من بعده نصر، ولكن ما شأن حلب ببطل الأناضول وبالعواطف العثمانية؟ أما كفى الناس ماذاقوا على يد الأتراك؟ وماذا فعل مصطفى كمال نفسه لهم عندما كان هنا؟ بل كيف يسمح الفرنسيون بلصق هذه الصور فوق هذا الجدار؟

نادى عليه أحد الرعاة من شبان القافلة، وهو يتوسط ثلاثة أطفال يرغطون ويقرب من عينيه صورة صغيرة. دنا ياسين من الراعي الذي مد يده بالصورة، فاذا بها لنساء يلبسن مثل الذي كانت تلبس تلك الأم في اسكندرون، أو ابنتها. مد الأولاد معاً أيديهم إليه بصور عديدة، فراح يقلبها على عجل، وإذا كل صورة منها لامرأة أبهى، وفي آخر المجموعة تتالت صور لمصطفى كمال وصلاح الدين الأيوبي والقرآن بينهما، كما كانت ثمة صورتان أو ثلاث لمصطفى كمال وحده، وعلى الرغم من إلحاح الأولاد والراعي ، فقد

رفض أن يشتري أية صورة ، وملص منهم يخبط فوق أحجار الشارع، نحو الغرب.

أطلت المآذن عليه من سائر الجهات، وبدا الناس يتكاثرون في أقصى الشارع. عثرت قدمه وأوشك أن يسقط فوق روث خيل العربات،وقد ظهرت خوذ الجنود الفرنسيين بين الناس.

تناهت إليه وهو ينفض الروث عن طرف حذائه هنافات بحياة سيف الاسلام، عبر به شابان مسرعان يوزعان مثل الصور التي رأى على الجدار. ترك الصورة التي رماه بها الشاب تتهاوى على مهل، فوق الروث. وكان آخرون قد توقفوا قربه وأحدهم يصرخ:

- الأتراك أنفسهم لايفعلون هذا كله. كلما انتصر في معركة ضربنا الجنون؟

تدافع صوتان معاً:

- هذه المرة: ازمير، ازمير يا رجل! ازمير تحررت! الله أكبر!

عاد الرجل يصرخ:

- الله أكبر عليكم. لو كنتم رجالاً حقاً فهذه الخوذات أمامكم. . انظروا. كل يوم مظاهرة وكل يوم صلاة في الجوامع وغيره وغيره. . . متى كانت الأوقاف كريمة هكذا؟

قال أحدهم وهو يشب مدارياً قصره البالغ:

- أنت دوماً هكذا. المهم أن تخالف غيرك، إذا كان جارك بخير فأنت بخير. بعنا خواتم زوجاتنا وتبرعنا بها للكماليين، وأنت نفسك دفعت ودفعت، ألا يحق لنا أن نفرح؟ يا أخي على الأقل خذها هكذا: عدو عدوك صديقك. إن شاء الله ما عاد بعيداً اليوم الذي يحرر فيه سيف الاسلام هذه البلاد أيضاً.

قهقه الرجل المعارض وفرك يديه:

- اجلس هنا وانتظر إذن . كل الدنيا تتحرر ونحن نتفرج هكذا.

- وأنت اجلس هنا إذن واندب.

جبهته عدة أصوات فيما كان الحشد في أقصى الشارع يتخلخل، والخوذ اللامعة تتكوم وتتمايل، وتعالت الأصوات حول ياسين:

- هيا بنا قبل أن تدوسنا الأرجل. لن يسكت الفرنسيون هذه المرة.

عدت الأرجل وراحت تنسرب في فتحات الأزقة على جانبي الشارع أو تنشد رأسه المقابل، حيث الخان. دار ياسين حول نفسه ثم اندفع مع المندفعين حتى الخان، فإذا

بأغلب من كان في القافلة محتشد ثمة، وأكف بعضهم تلوح له مستحثّة، ولما وصل كان الخانجي وصبيانه يصيحون:

ـ أسرعوا يا جماعة..

تساءل ياسين:

ـ إلى أين؟

سحج أحد الصبيان:

ـ كلما شرف واحد منكم نشرح له؟

قال أحد العبيد:

ـ اسبقونا اسبقونا.. كل من لاشغل له هنا.. الملتقى على النهر، أول العمار، مكان ماوقفنا آخر وقفة.

بدا الشارع يفيض بالبشر الراكضين، وياسين لاه، حتى صاح به العبد من جديد:

ـ قلت اسبقونا يا هوه، ياسين الحلو عجل عجل. ماذا تنتظر؟ لاتقلق على من يتأخر. أنا أدبر أمرهم. لاتضيّع الجماعة. عونك يا رب.

أطلق ياسين ساقيه، تتدافعه المناكب، توشك أن ترميه مراراً وهو يضاعف عدوه ويتلفت إلى الوراء، ولم يتوقف حتى رأى أنه قد بات وحده يعدو، والناس حوله يمشون على مهل، وقد قلّوا.

إحساس طاغ بالخذلان غمره وهو ينتظر أن يلحق به الآخرون عند أول العمار. لقد سبق الجميع، ولكن في الفرار، ولم يستطع أن ينسى ذلك طوال الطريق في الإياب. كان يرى نفسه صغيراً جداً، لانسب يصله بالعسكري الذي كان، حتى خوف وفرار ذلك العسكري لم يكونا كذلك. كانوا مِنْ حوله يأسون على ما فاتهم من لذاذات حلب هذه المرة، يعدون أنفسهم بموسم جزّ الوبر والصوف، الإبل والغنم، وحلب التي ستكون أهدأ وأحلى، على الرغم مما يقوله الخانجي، فذلك شأن الأمير لا شأنهم، الأمير والخانجي يفهمان بالصوف والوبر، يعرفان سعره الذي يعلو وينخفض، يعرفان تلك الأرجنتين والاستراليا التي صارت أغنامها وصوفها مثل الطوفان، تباع بسعر التراب، وياسين منزو، ينكر أن يكون ما اعتراه في حلب قد هبط عليه من السماء الآن، فمنذ حين سأله راغب عما إذا كان لم يبل تحته وهو بين يدي الأمير. كان يقعي مثل الكلب الشائخ، لايجرؤ على أن يسترق نظرة من صديقه الذي يجلس معززاً مكرماً، في الصدارة، على الرغم من كل ما فعل وما سيفعل.

كان ياسين يقرع نفسه وهو ينتزعها من مكان إلى مكان، يعيرها بذلتها الآن في
لة العودة، وبالأمس والقافلة محملة، ومن قبل بين يادي صادق آغا الباعا، بل بين
ي هفل، وقبل ذلك بين قدمي رستم آغا، فكيف أدركه كل هذا الهوان وهو مغمض
العينين؟

عبثاً حاول راغب الناصح أن يخرجه من صمته، طوال الأيام المعدودة التي انقضت بعد عودة القافلة، وقبل أن ينطلق الأمير بمن معه الى عين آدم، كان عازفاً عن الطعام وعن الكلام يزيده مقتاً أن لاأحد يعبأ به. حتى راغب مالبث أن أيس منه وانصرف عنه إلى أمر ما، قد يكون للأمير نفسه، أو شعيلة، أما هو، فلم يقدر إلا على أن يذبل ويقع في المرض، حتى إذا رأته هند قادماً، لايكاد يقوى على السير، صاحت:

- ويلي عليك! ماذا جرى لك يا ياسين؟

★★★

أشعلت الحمى رأسه أياماً، وهند تبكر كل صباح إلى المقام المقدس، تبكي وتسأل العافية. أما حمود فكان يعوده مراراً كل يوم، بينما حضر راغب مرة واحدة، وتعجبت هند من ازورار ياسين عنه.

كان كلما جاءه حمود يتحامل على هزله ويهمس:

- ما أخبار شعيله؟ هل كلمت الأمير؟

وكان حمود يردد خجلاً:

- بعد أن تقوم بالسلامة.

إلا أن حمود دخل عليه ذات عصر، وكان قد غادر الخيمة متوكئاً على هند، وتربع يداعب ابنه، ويتأمل عين آدم لأول مرة بعد أوبته. قال حمود دون أن يحيّي:

- صاحبك يا ياسين بحوم حول شعيلة.

انتفض ياسين كأنه يغالب الموت، ووقف أمام حمود الذي هدر:

- وأنت تعرف. كان يحوم حولها هناك ولم تقل لي. أنتم تقولون: العبد غدار. حمود عبد، نعم، ولكن عمره ماغدر. إذا لم يلم صاحبك ذيله سأقتله. هل تسمعني؟ سأقتله، واليوم أكلم الأمير.

كانت هند قادمة من خيمة الشيخة حليمة حين رأت حمود ينصرف وياسين يروح ويجيء أمام الخيمة. اندفع نحوها الطفل، فأسرعت تحمد الله مادام ياسين يمشي وحده.

قال الطفل:

ـ يمّا .. حمود يريد يقتل..

قاطعته هند تسأل ياسين. ألحت بالسؤال ولسانه منلجم. تركها ساخطة وابتعد عن الخيمة. كان نداؤها الغاضب يفاقم حزنه وخوفه. كانت الحمى تغادره خطوة خطوة، وعبثاً حاول أن يظفر براغب المرابط في مجلس الأمير.

تسلل إلى المجلس كارهاً. ألقى بالسلام وانزوى في ثغرة بين اثنين، قريباً من الفرجة، ورأى راغباً غير بعيد من الأمير. بدا له أن راغباً يتحاشى أن تلتقي عيونهما، وكان الأمير يهامس مع من حوله، والصمت يظلل الخيمة، ثم قطع الصمت صوت الأمير:

ـ احضروا لي حمود.

كما الرمح الناشب دخل حمود قبل أن يرف جفنا ياسين، وبادر الأمير قبل أن يكمل العبد القاء السلام:

ـ تريد شعيله إذن؟ والله لولا ما فعلت مع ضيفنا لكانت لك اليوم.

حدق حمود في راغب الذي اتجهت عيناه إلى الأمير.

ـ أراك خرست؟

علا صوت الأمير، فرفع حمود رأسه:

ـ مافعلت إلا الواجب طال عمرك.

ـ واجب الضيف أن تلعب بالمسدس بين عينيه؟ اخس.

كان الغضب قد استولى على الأمير، وانعكس في الوجوه المشرئبةإليه. قال حمود كأنما يلفظ أنفاسه:

ـ الضيف ما رعى الحرمة يا طويل العمر. من يوم ما نزل بالديار وهو يحوم حول شعيله. اسأل صاحبه.

وامتدت ذراع حمود صوب ياسين الذي أثقلته نظرة الأمير والعيون التي حاصرته. وقف ياسين صامتاً، يناشد راغب أن ينظر إليه، لكن راغب هرب إلى الأمير الذي صاح:

ـ خرست؟ احك.

ـ يا طويل العمر: راغب أولى بالسؤال مني ومن غيري.

أشار الأمير إلى حمود آمراً:

ـ خذوه.

أطبق العبدان المسلحان على حمود الذي صاح بياسين:

ـ قتلتني.. الله لايسامحك.

ونهض عبد آخر يدور بالقهوة، وجلس ياسين حائراً فيما اخترق أذنيه من صوت حمود، ويقينه بكبر في أن راغب أولى بالسؤال، وأنه لم يخطىء، فهو لايريد أن يبرىء راغب، ولا أن يتحامل عليه، لايريد أن ينحاز لحمود ولا أن يظلمه. مايريده الحق فقط، ولابد أن الأمير قد أدرك ذلك. الحاضرون جميعاً قد أدركوا، فلماذا إذن اتهمه حمود بالقتل؟

قبل أن تصل إليه القهوة نهض يستأذن، وخرج دون أن يأبه أحد به. أمام الخيمة توقف يخمن مطرح حمود، فإذا بآخرين قد خرجوا خلفه، وخيل إليه أنهم يزورّون عنه بجفاء. تمتم منادياً أحدهم، فأنكر صوته، وترك قدميه تزحفان إلى ظل الخيمة، القصي، فأقعى يرقب فرجة الخيمة لايحير.

ولعل ذلك قد طال به حتى خرج راغب، فاندفع نحوه يهمس منادياً، تلفت راغب قبل أن يباغت به ويتأتىء:

ـ مازلت هنا؟

شد ياسين على عنقه قائلاً:

ـ أنتظرك، أم أنك لاتريد أن تراني؟ سمعته بأذنك يا نذل. أنا قتلته وأنت قتلتني. كلمة منك تنقذ الرجل. والكلمة الآن قبل أن ينام الأمير. قلها بينك وبينه حتى لاتنفضح أكثر. وإذا طار رأس حمود اليوم فرأسك تطير بكره، خاطرك.

وابتعد نحو خيمته، فيما راغب يتلمس عنقه ويهز برأسه.

★★★

14

كان أبو وليف كيروز في عجلة من أمره، إذ لمح الفرنسيين يتوجهون إلى كسب، بعدما جرى بين هيكازون وخصومه. إلا أنه لم يكن أكبر عجلة من عزيز الذي فاجأه:

ـ خذني من هنا يا عمي. لن تمشي خطوة بدوني.

ولما هجم أبو وليف بأسئلته، اكتفى عزيز بقوله:

ـ على الطريق أشرح لك.

وأسرع إلى أم عثمان التي كانت منزوية وحدها في البيت العتيق، ترتق قيمصاً له، لم ترفع رأسها عندما دخل، فوقف وقد غادرته اندفاعته. وما لبثت أم عثمان أن شهقت وغطت وجهها بالقميص، ثم وقفت تناوله إياه هامسة:

ـ مع السلامة يا عزيز. ظنك ما كنت أعرف؟ من ذلك اليوم قلت عزيز لايبقى هنا.

التفت خلفاً فأطل البحر عليه من الباب الضيق الخفيض. لغطت الفتيات في الخارج فاستحثته أم عثمان:

ـ ناد عثمان. ويلي عليه!. لن يصدق.

تجاوزته منادية على الفتيات كي يودعن عمهن.

لم تذرف أم عثمان في الوداع دمعة. بدت مسلّمة وشجاعة، كأنها لم تكن تلك التي أجهشت قبل قليل. أما عثمان والفتيات فأنّى كان لعزيز أن يخفف من لوعته ولوعتهن بوعده الأكيد في العودة كل حين إلى القزلي؟

مشى خلف البائع، يتقدمان الحمار، تزيدهما بطئاً الطريق الوعرة، وماكان عزيز بحاجة إلى أن تيسرّ له أسئلة رفيقه، أو تستحثه على أن يفكر بصوت أعلى، لا أن يقص وحسب. كذلك راح يعري نفسه، كأنه معها وحدها، ولم يسرّ عن البائع إلا ما كان له مع أم عثمان. كان وهو يسمع صدى صوته في هدأة الطريق الظليلة، مختلطاً بصدى

حوافر الحمار وأنفاس البائع اللاهثة، يمعن في التعرية، كأنما يفضح، ولا يتبصّر وحسب ومع كل خطوة كان يزداد عزماً على أن يبدأ من جديد: فما مضى يكفي، كانت منعطفات الطريق الحادة، الشديدة الصعود أو الشديدة الانحدار، تدور برأسه، تغل ساقي البائع وظهر الحمار أو قوائمه. كان عزيز يهجس: لاعودة الى الوراء، أشبه بمن يصارع البحر في لجته، ولايهم إنْ كان الشاطىء أبعد فأبعد، لايهم إنْ كان ثمة بعد هذا المنعطف منعطف تالٍ أو آخر. المهم أن يخرج مما أسره، ولو لحين. ولئن كان يسوق للبائع مايطلع على لسانه، فقد تراءى لكيروز أنه يسمع ما كان يسمع من ابنه وليف، وأن ولديه هذين: عزيز ووليف، لايرسلان كعادة الشبان القول جزافاً.

من المؤكد أن كيروز قد سمع من قبل هتاف عزيز الآن: وداعاً أيتها القرى، ولعله لذلك قال:

ـ الله يوفقك يا وليف. هذا أنت، لارحنا ولا جئنا، الفرق بينك يا عزيز وبينه أنه قال مثل هذا الكلام أبكر. بودي لو تعرفه. أنا زعلت منه، لا أنكر، يوم أدار ظهره لنا وصاح: حلب يا حلب. بيني وبينك: معه حق، كيفما كانت الحالة هناك فهي أيسر، المدينة أيسر يا عمي عزيز. أنا اكتويت منك ومن وليف. ولليوم، ليس أحب إلى قلبي من الفلاحة والزراعة. ولكن إلى متى يصبر الإنسان؟ الجوع وحده ليس هماً. ليت كل هم في القرى كان مثل عذاب الجوع. من أجل هذا تركت الفلاحة والزراعة. وبعد سنين كلام وليف هو الذي نورني بذلك، ولكني كما ترى لا أستطيع أن أبعد. يجوز أنك قلت: أبو وليف من انطاكية، ابن مدينة يعني. انطاكية ما هي؟ قريتنا أحلى منها ولو كانت أصغر. مرة واحدة في السنة أفرك كعبي إلى حلب يومين والثالث أعود. أدور وأدور وأعود. ولكن وليف ياعزيز ما دخل القرية من سنتين، وأنت ما دخلت قبة من. . من متى؟ سامحك الله. كيف تصبر؟ كل مرة يعدني، لكن شغل المصبنة يا عزيز. الشغل كله فوق رأسه فخري أستاذ كبير، الأستاذ فخري القجي، من خيرة الناس. إن شاء الله يأتي يوم وتعرفه فيه. كان أيضاً من الثوار، ولكن ليس مثل رئيسنا. عندك علم أن تخمين الناس طلع في محله؟ أنت شغلتني. فرنسا وحدت دولة حلب مع دولة دمشق، وعينت القائد الذي خان رئيساً. الأستاذ فخري كان يتوقع ذلك، وهو غير راضٍ هذه الأيام عن الكماليين. ليس لأنهم توسطوا للرئيس عند فرنسا، بل لأسباب كثيرة. وليف يعرف ذلك أكثر مني. وليف يؤكد أن يد الأستاذ فخري مازالت بيد الكماليين، رغم الزعل، أنا أظن أنه يعتمد على وليف في كل شيء، وليس في المصبنة فقط. وإلا قل لي: لماذا يذهب وليف

حتى إلى أنقره، ولا يأتي إلى أمه في القرية من سنتين؟ حتى لو حرف طريقة قليلاً، يمكن له أن ينام عندنا ليلة.

استزاد عزيز من حديث البائع عن ابنه وصاحب المصبنة، وكان يرى دربه تضيء وهو يصغي، وقد صارت كسب نفسها، لا القزلي فقط، بعيدة هناك، إلى الوراء تعج بالفرنسيين الذين يشوش صخبهم الأفق، ويقربه من رفيقه، من ابن رفيقه ومن الأستاذ فخري، من الذين ارتاحوا بعد ترحيل الفرنسيين لهيكازون وأسرته، كما تحدث الشيخ الذي يؤثر أبو وليف أن يقضي ليلته الأخيرة عنده، كي يطل في الضحى على القرية، وعلى أم وليف.

★★★

لم يعد أبو وليف في عجلة من أمره، على العكس من عزيز الذي رأى نفسه بعيد الوصول قد أضاع سدى يوماً آخر. كانت أم وليف هنيئةً به، تحدب عليه مثلما تفعل بوليف، يفاجئها أنه ينهض أبكر منها، يعينها في إطلاق دجاجاتها من القن، يتأسّى مثلها على الديك الذي ذبحه أبو وليف في العشاء، يؤمن على دعائها لوليف وللبنات الست اللواتي تزوجن، يترحم على الولد الأخير الذي قتل أثناء الثورة، ويلعن القائد الذي خان وصار رئيساً. وكان عزيز يتعجب في سره من أن هذا الذي حل بأم وليف، وأحنى ظهرها، لم يترك بصمة على أبي وليف الذي لايبدو أنه قد تجاوز الأربعين!

كانوا ثلاثتهم يتناولون الإفطار في اليوم الثاني حين قال عزيز:

ـ ما رأيك يا عمي في أن ألحق بوليف في حلب وأجرب حظي؟

هللت أم وليف، وتوقفت اللقمة في حلق كيروز، وأردف عزيز:

ـ ما رأيك أن نتوكل على الله معاً؟ تفرح بلقائه ويفرح بك، وحتماً، بوجودك يهتم بي أكثر، هو والأستاذ فخري.

قالت أم وليف مشرقة:

ـ توكلنا على الله..

قال أبو وليف وهو يبلع:

ـ تلعب بعقل عشرة، كيف خطر ببالك؟ كنت أفكر أن تروح وحدك.

فنهضت أم وليف تعد الزوادة.

★★★

صادف وصول عزيز وكيروز إلى المصبنة وجود الأستاذ فخري القجيّ، يتصد الغرفة الصغيرة، وإلى يمينه طاولة مهترئة وخفيضة، افتقد خلفها كيروز ابنه.

كان الأستاذ بادي الهم، إلا أنه هشّ لضيفيه، وكيروز يردد:

- أين وليف؟

- كما تعرف، لايهدأ. اليوم نستعد لطبخة جديدة.

قال الأستاذ ونادى:

- هاتوا وليف يا شباب.

قال أبو وليف:

- منذ متى لم أرك هنا يا أستاذ فخري!؟

- غصباً عني.

- ما عاش من يغصب عليك. خير يا أستاذ؟ أبو وليف ما سمع الخبر الدسم من زمن.

- تركوا الله وعبدونا يا عمي. عينهم حمراء علينا.

كان عزيز يصغي بانتباه شديد، يحدق في القبعة الناشزة وسط الطاولة، يتابع اختلاج جفني الأستاذ فخري، شفتيه الرقيقتين، حركات أصابعه المتشابكة في حضنه، ذقنه الملساء، أزرار سترته اللامعة، وفي غفلة منه دخل وليف.

قال كيروز وهو يعانق ابنه، ويدعوه إلى أن يعانق عزيز:

- هذا أخوك. أملي أن الله عوضنا عن المرحوم بولد ثان.

والتفت إلى الأستاذ فخري وهو يجلس مومئاً إلى عزيز:

- هذا ابني الثاني.

جلس وليف بجوار عزيز الذي ارتبك فيما كيروز يستفيض، وهو يغضي، يبتهج وتتقد وجنتاه، يهم أن ينكر أن يكون هذا الذي يصف أبو وليف، فهو أقل خبرة بالدنيا الصعبة، أكبر ضعفاً، أدنى طموحاً، وأكثر خبثاً، إلا أن عيون الأستاذ ووليف لم تفسحا له.

كذلك جاء الأمر أهون مما كان يحسب. فهو منذ الساعة سيعمل على التنور، سيقيم مع وليف ريثما يدبر له سكناً، وقبل أن تنتهي هذه الطبخة في المصبنة عليه أن يكون قد صار معلماً، فهنا، كل عامل هو معلم أيضاً. وليف يعلمهم كل شيء، وإذا كان بعضهم قد صعب على وليف أن يعلمه، أو طال به ذلك، فعلى عزيز اللباد أن يتعلم سريعاً. وليف قد يسافر بعد هذه الطبخة. قد تطول غيبته، والأستاذ فخري بطبيعة

الحال لايحضر إلى المصبنة إلا حين لايكون قادراً على أي أمرٍ آخر. ولئن كان وليف قد عود العمال على أن ينجزوا في غيابه أفضل مما ينجزون في حضوره، فمن الأفضل أيضاً أن يكون في المصبنة وليف ثان، حين يغيب وليف الأول.

إلا أن كيروز لاحظ أن غياب ابنه يتكرر ويطول هذه السنة، وهو لايقدر على أن يكتم خوفه وفضوله، على الرغم من ضحك الأستاذ فخري، وتهوين وليف الذي يتعجل العودة إلى التنور، ويدفع بعزيز أمامه، فلا يجد أبوه مناصاً من أن ينهض هو الآخر، يكابر في المغادرة، ويترك الآخرين لدهشتهم، فهو لم يعوّد ابنه ولا الأستاذ فخري على أن يغادر يوم وصوله، كما لم يكن عزيز ينتظر ذلك.

★★★

لم يبرهن عزيز في أيامه الأولى على أنه جدير بما أغدقه عليه كيروز، ولا بما توقع وليف، كان يتعود على هذا العالم الجديد ببطء وعسر. يفكر حيناً في أنه قد عاد إلى مايشبه القشلة، في دمشق أو في طرابلس، يحاصره سقف المصبنة العالي، ونوافذها المعدودة الضيقة. حتى الطابق الثاني، كان يخيل لعزيز أنه قد عاش في شبيه له، في قشلةٍ ما، سوى أن هذا الطابق، في المصبنة، مفتوح من أوله إلى آخره، والنوافذ مشرعة على الدوام.

وليف نفسه أذكره بالملازم تحسين شداد، والعمال الذين حوله أذكروه بأيامه الأولى مع ياسين الحلو واسماعيل معلا، مع راغب الناصح وفياض العقدة وحمادي الحسون. وكان الدخول عبر البوابة الكبيرة للمصبنة يظلله منذ الصباح الباكر بنوع من الرهبة، لاتلبث أن تثقل عليه أنى تنقل، من الآبار الثلاثة التي لم يصدق بعد أنها ملأى بالزيت، أو أن في جوف كل منها ألف خابية، إلى التنور الذي ينوف قطره على ثلاثين خطوة، فيما كان تنور أمه أو أم عثمان أضيق من خطوة، إلى الحلة النحاسية التي تعلو التنور، ويربو عمقها على قامته، ولا تملؤها عشرات الخوابي.

على أن وليف قد أعانه على أن يطوي البداية سريعاً، ليس في المصبنة وحسب، بل في البيت أيضاً.

كانا يقطعان مع بعض العمال كل مساء الطريق من المصبنة إلى الحارة، ووليف ينجلي عن شخصٍ آخر، أقل تجهماً، أكثر كلاماً، لايكاد يصل إلى الغرفة التي أذكرته بغرفة العم حاتم، حتى يغادرها إلى البئر، وسط الحوش، يغتسل وهو يدندن:

ياويل ويلي من جمال وأنور   خلو العالم سبع سنين تتمرمر
شنقوا اللي شنقوا بأول عمنول   يشنقهم ربي هالعالي الفوقاني
ياويل ويلي من الهوا ما مرّو   الله يساعد اللي بيوقع بشرّو
كان بإيدي جوز حمام وفرّوا   مابقي غير الريش ع الحيطاني

ثم يناديه ومن يكون قد عرج معهما، محذراً من الاسترخاء، يسابق في تهيئة العشاء، كما في التهامه، يقسم برأس أم وليف أنه لن يتزوج إلا ممن تجيد الطهي أكثر من نساء الأرض أجمعين، فيقول عزيز:

- إلا أم وليف.

- إلا أم وليف.

يردد وليف ويزدرد لقمة، ثم يسخر من التعب البادي على عزيز، ومن يكون قد عرج معهما، يجرهم جراً إلى الحارة، فالوقت صيف، وثمة جيران يسهرون أمام البيوت، في الزقاق الضيق، منذ ولت الحرب. وعلى الرغم من أن أولاء جميعاً كانوا يقضون نهارهم في ورشة ما، ليست المصبنة بالنسبة إليها إلا جنة الخلد - فوليف أدرى - إلا أن لديهم أيضاً ما يقولون، مما ينبغي للمرء أياً كان، عزيز اللباد أو سواه، أن يعرفه، حتى لايكون كالبهيمة.

ظلت النار تتأجج تحت الحلة اسبوعاً، وكان لعزيز دوره في السهر عليها مثل سواه. ثم أخذوا يخففون النار، يملأون السطول الخشبية وينقلونها الى الطابق الثاني، يلقونها على هواها، حتى غطى الصابون اللزج الأرض من الجدار إلى الجدار. ولعل عزيز اللباد كان ينضج مثل طبخة الصابون: اجتاز في أسبوعه الأول نار وحصار الحلة النحاسية، وراح يندلق لزجاً، ووليف يضحك سعيداً به، يتعود عليه ويصغي إليه، يستزيده وهو يردد في سره:

- نظرتك يا بووليف لاتخيب في البشر. ابنك من يتعجل أحياناً كما يحلو لك أن تقول دائماً.

كان الهواء قد أخذ يهب ساخناً وجافاً، مما ساعد على الجفاف السريع للصابون، فانطلق عزيز يسابق الآخرين، كل يحمل واحدة من القطع الحديدية الطويلة الحادة التي كانت مشلوحة قرب مدخل الدرج. وراحوا يتبارون في سرعة ودقة تقطيع البساط الصابوني إلى ألواح صغيرة، يضحكون من الألواح العرجاء التي خرجت من يدي عزيز قبل أن تستقيم ضرباته، إذ بدأ الثناء ينهال عليه، وحماسته تتضاعف.

خصّه وليف بواحد من الأختام التي تحمل كلمة الفخري. ومع حاملي الخاتمين الآخرين راح ينقش الألواح، بعد أن أنجز سواه رشّها بالعرقسوس. وبدأ العمال ينضدون الألواح المختومة، متشابكة، يمكن للهواء أن يتخللها من كل ناحية. وحين انتهى عزيز من النقش، ووقف يتملى الألواح البديعة، ويتنسّم فوحها، أحسّ أن فؤاده يوشك أن يخونه، إذ راح يخفق على نحو لايمكن له أن يلحق به. ودلو ينط ويضحك ويهزج ويفاخر، لكن ركبتيه خانتاه، فقرفص يمسح دمعة وحيدة، ولم يكن وليف غافلاً عنه، ولا بعيداً.

احتفل العمال العازبون في العشية بإنجاز الطبخة الأفضل منذ أسابيع، وفي وقت أقصر. وكان الاحتفال في غرفة وليف الذي أحضر ثلاث زجاجات من العرق، فيما أحضر كل منهم بعض ما يؤكل.

كانت بهجة الأيام القليلة القادمة التي سيقضونها على هواهم، قبل أن تبدأ الطبخة التالية، تضيء وجوههم. فما تبقى أمامهم قبل ذلك من إعداد الألواح للشحن، وتهيئة الحلة والتنور، أمر أقرب إلى التسلية بحسبانهم، منه إلى الشغل. أما عزيز فربما كان سعيداً لأمر آخر. كان منفلشاً بالأحرى، دونما العرق، بل بسبب ما رأى من صنع يديه، وصنع يدي هؤلاء الذين ضاقت به الغرفة الصغيرة. ولعل لسانه قد خانه مثل ركبتيه قبل قليل، لكنه أغرى الآخرين في أن يأكلوا أكثر، ويشربوا أكثر، ويبتهجوا أكثر، ويفكروا في أن ما أنجزوه شيء عظيم، وإن يكن صغيراً، شيء ذو شأن، ولو كان قطعة صابون عرجاء التقاطيع والنقش. قال:

- في الخريف الماضي عمرت بيتاً. لاتضحكوا. قبله عمري ما عمرت إلا دباقة حاكورة مثلاً. قلت أقطع الحجر مع شاب صغير، وبدأت أعمر. قلت أقطع مع الشاب - اسمه عثمان - من الحرش، وأسقف البيت. طينت السقف مع عثمان وأمه تحت المطر، وساعدنا الجيران، ولم يدلف السقف مرة واحدة. يجوز بينكم مثلي من زرع وحصد، قبل أن يطبخ الصابون. المصبنة يا جماعة غير الزرع وغير تعمير البيوت.

لغير ما سبب باد تعمد وليف أن يناكده. قال:

- كله شغل يا أخي. هذا مثل هذا. واحدنا يزرع، يحصد، يغرس أو يعمر، يطبخ الصابون.. كله شغل. ابن آدم ليس له إلا الشغل. لولا الشغل لايساوي بعرة.

همس أحدهم بصوت شرخه الدخان والعرق:

- صحيح ياوليف. إنما عزيز على حق. شغل عن شغل يفرق. كل شغل له طعم، ولا

أقصد أنه أسهل أو أصعب. بربك واحدنا مثل من ركّب سيارات الفرنسيين التي ملأت حلب؟

ـ همهم الآخرون استحساناً، وقال عزيز:

ـ شغل عن شغل يفرق. إي والله. وليف جرب الأرض وهو صغير. عمي كيروز حكو لي يا وليف، وأنا جربت. والله العظيم عمري ماشعرت أن السنبلة تخصّني، ولا شتلة الدخان. حتى الدجاجة التي أفقسها من البيضة لاتخصّني يا جماعة. لوح الصابون هذا يخصّني. كيف؟ لا أعرف.

تعالى صخبهم وشربوا نخب عزيز، ثم قال وليف:

ـ خلونا نفكر لماذا؟ هه يا عزيز؟ لا أعرف: وحدها لاتقدم ولا تؤخر.

قال عزيز ببطء:

ـ كل شيء هناك أشبه بالكابوس. لا.. كل شيء للكابوس الذي فوق صدرك ليل نهار. أنا مثلاً عشت تحت رحمة أربعة خمسة كوابيس، واحد اسمه بشارة، الثاني اسمه عبود بك الرشدة، لالا، اسمه ابن الدباس، واحد اسمه شاهين آغا التركماني، واحد اسمه آرو..

قاطعه أحدهم:

ـ ماخليت من يسلم من شرك؟ حتى الأرمن والتركمان، المسيحي والمسلم..

قال وليف ظافراً:

ـ وصلنا إلى الزبدة. الكوابيس يا عزيز تملأ الدنيا، نسيت ماذا حكيت لي عن العسكرية والحرب؟

فرك عزيز جبينه متمتماً:

ـ بسّ مع لوح الصابون ما شعرت بشيء يخنقني. ماكان كابوس على صدري.

قال وليف مشفقاً:

ـ أنا كنت أراه على صدرك، وأحسّه في تنهيدتك، في أيامك الأولى بالأخص. ماكنت مثلما أنت الآن. يجوز تعودت أسرع من غيرك. غربتك وغربة كل واحد منا كابوس. صنعتك الجديدة، صنعتنا كلنا. مامنا واحد لا يحمد الله على الشغل عند الأستاذ فخري القجّي. العمال يحسدوننا. إخرج إلى الزقاق واسمع الشكوى من جهة والحسد من جهة، اسأل من تريد، ها نحن حولك. اسأل من تشاء منا. دائماً أنا نفسي أصيح: لاتغمضوا عيونكم. لا أمام الأستاذ فخري ولا أمام غيره. الاستاذ فخري نفسه يعرف أني أقول هذا

الكلام. وهو نفسه علمني ويعلمني حتى اليوم. ولكن ماذا يريد أكثر؟ المصبنة أحسن مصبنة في حلب. ومن خيرها يعيش ويتركنا نعيش. هو، الشهادة لله، ابن حلال. قلبه عامر بالخير، قنوع، لايأكل حق انسان، يريد الخير للناس كلهم. ولكن أولاً وآخراً المصبنة مصبنته. لوح الصابون له، ويمكن ـ سامحوني ـ لوكان غيري ينوب عنه فيها، لقلبها على رؤوسكم كابوساً لايطاق. غلطت يا جماعة في شيء؟

على الرغم من العرق والصخب والإنهاك، لم يفتأ صوت وليف يسهد عزيزاً، يغدو في ظلام الغرفة، بعد أن انفضت السريرة، أقرب إلى القلب، أهدأ وأكبر ثقة: إنه صوت أخ مجرب، وصديق جسور. ولكنه بدلاً من أن ينقع غلة عزيز يفجر اسئلته، ويتركها تلوب على جواب. كذلك صارت الليالي تترى، بعرق وبدونه، مع الآخرين ومن دونهم، في غمرة طبخة الصابون أو في الاحتفال بإنجازها، ولكن وليف حاضر على الدوام، حتى وهو يتقلب في نومه، ثمة، قبالة عزيز المسهد أو الحالم.

★★★

ماظل يحيره كان بخاصة الأستاذ فخري القجي الذي يتردد لماماً على المصبنة، لايغلظ لعامل، حتى إن كان مقصراً. بل إنه كما أكد وليف لم يطرد عاملاً، حتى لو ضبطه متلاعباً، أو مختلساً لبعض ألواح الصابون. وحين فعل، مرة أو مرتين، ظل منقبضاً لأيام.

أذكره الأستاذ فخري بطوله وجلحته ونهمه للدخان بياسين الحلو، خاصة أنه أربعيني أيضاً، ولم يتزوج إلا منذ شهور، ممن لابد أن تكون أصغر من هند. كان عزيز يتساءل في سره أو أمام وليف عما يجعل ثرياً مثل الأستاذ فخري ينفق نصف ماورثه عن أبيه، في سبيل البلاد، ومازال ينفق؟ لوشاء وجاهة أو زعامة أو وظيفة كبيرة، لكانت له دون حاجته إلى أن يضيع ماله، ويغدو أفقر من في أسرته، ويغامر برأسه، أمس ضد الأتراك، واليوم ضد الفرنسيين، وكان وليف يقول إذ ذاك:

ـ الدنيا ماخلت، ولو خلت خربت. الدنيا عامرة بأولاد الحلال، والأستاذ فخري واحد منهم، مثله مثل ابن اللباد. يا عزيز عندك من يركب المال مثل الفرس والمرأة، وعندك من يركبه المال. المال لايقلب صاحبه وحشاً دائماً. فيه من يكون المال خيراً على يده، ليس لنفسه وحدها، بل له ولغيره. أنا نفسي رأيت كثيرين مثل الأستاذ فخري بين الكماليين،

يوم رافقته إلى بعض البيوت، هنا في حلب، أو يوم أرسلني إلى بعض البيوت، هناك في أنقرة.

وإذ لمس وليف أن عيني عزيز باتت تشرق للكماليين، ذهب أبعد:

ـ بين الكماليين يا أخي بلا شفقة. أصدقاء الأستاذ فخري بين الكماليين أكثرهم من البلاشفة، خاصة في السنتين الأخيرتين. الكماليون كما قال لك والدي اتفقوا مع فرنسا، وتركونا وحدنا في وجهها، وعاد الأرمن يهاجرون من جديد إلى حلب، ويمكن إلى غيرها. صدق أن كثيرين منهم جاؤوا إلى الأستاذ فخري وإلى غيره ينصحون: لاتتهوروا.. لاتتعجلوا.. فهمت يا عزيز؟ يعني مقاتلة فرنسا صارت تهوراً، والمطالبة بالاستقلال صارت عجلة! وبالمقابل جاؤوا يحرضوننا على الانكليز. لماذا؟ لأنهم يحتلون استنبول ويدعمون اليونان. طيب وبلادنا يا أخي؟ حتى إلى ذقوننا وصلت النار، وصار الكماليون يطالبون فرنسا بأرضنا. ما كفاهم كل ما أخذوا بعد رسم الحدود بيننا وبينهم. تصدق يا عزيز؟ بيت عمك كيروز مثلاً يريدونه؟

في أول مرة سمع عزيز بعض ذلك تساءل:

ـ كيف إذن مازال الأستاذ فخري أو غيره يمدّ اليد إليهم؟

قال وليف:

ـ هو وغيره وأنت وأنا، لاحيلة لنا. مجبر يا عزيز. إذا ضاقت الدنيا بك وأنت وحدك ماذا تفعل؟ لابد لك من أن يقف معك أحد. إذا اختلفت مع جارك لابد لك من أحد يقف معك. طيب وإذا كان من اختلفت معه الآغا؟ تترك قبية أو التلة أو القزلي وتمشي؟ طيب وإذا كان هذا الآغا هو فرنسا كلها، لارجل ولا أسرة ولا عشيرة، فماذا تفعل؟

سكت عزيز حائراً وحزيناً، ولم يكن ما بوليف أقلّ منه. فقد أدهشه أيضاً ـ كما أدهش عزيز الآن ـ ما حققه الكماليون لبلادهم، بعد أن تناهبها الانكليز والفرنسيّون واليونان والطليان. ووليف يقارن، وعزيز لايكاد يلتقط أنفاسه خلفه، بين الملك الذي رضخ لفرنسا في الشام، وحل الجيش قبل أن تحتل الشام، وبين السلطان الذي رضخ للانكليز في استنبول، وحل الجيش ـ لايذكر وليف ـ قبل أم بعد أن يحتلوا استنبول. وليف يترحم على البطل الذي قال لا، وحمل كفنة على كتفه، وما قدر أن يجمع حوله ألف بندقية، وطار إلى ميسلون، وطار فيها، وصارت فرنسا بعد ساعات تتبختر في الشام، وبالمقابل طلع عند الأتراك من قال لا، وحمل كفنه على كتفه، وجمع حوله آلاف البنادق، وقاتل ومازال يقاتل، بل إنه جذب إليه من الثوار هنا من جذب، من اسكندرون إلى

حلب، وفي يوم غير بعيد، ساعد الثوار هنا حقاً ضد فرنسا، ولو على عينك يا جارة، ولكن ماعدا مما بدا حتى انقلبت الآية؟

كان وليف يتساءل متشككاً وعزيز يعصر صدغيه ويقول:

ـ يوم احتاج إلى يد تقف معه ضد فرنسا، كنا أحباب القلب، ويوم وصل إلى غرضه تركنا وحدنا. يا حيف!

ـ والأمور تتعقد كلما لاح لها حل.

قال وليف وهو يداري مسحة الغم التي غمرت وجهه ولونت صوته، وأردف:

ـ الأستاذ فخري يخشى أن لاتقوم للشام قائمة قبل أن يكون غادر الدنيا. عمري ما رأيته قلقاً أو خائفاً إلا في هذه الأيام. الثورات التي قامت ضد فرنسا ، من طرف الشام إلى طرفها، انطفأت واحدة بعد الثانية، مابقي ليس غير الشرارة الأخيرة. الكماليون يرددون: اللهم إني أسألك نفسي. وإذا كان من خان أول الأمر من الغرباء، والانكليز باعونا بالبخس، فالخائن اليوم منا وفينا، وصار رئيسنا. لا الأستاذ فخري، ولا أخوك وليف، ولا أنت ومن كان مثلي ومثلك، لنا أمل بعد اليوم إلا بمن بين الكماليين من البلاشفة.

ـ الأمل بالله. الأمل فينا ياوليف.

قال عزيز مكابراً، فتابع وليف غير آبه:

ـ صحيح يا أخي، ولكن نسيت أنك بحاجة لمن يقف معك؟ البلاشفة قلة بين الكماليين، صحيح، ولكن وراءهم ثورة هزت العالم. ثورة دكت القصر على رأس القيصر. ومن تظن قام بها؟ مثلي ومثلك ومثل الأستاذ فخري.. عساكر وعمال وفلاحون وأساتذة، يبنون بلادهم اليوم بلا ظلم، بلا قيصر. والبلاشفة ياعزيز يمدون يدهم إلى المظلومين والفقراء. الأنياب تتكالب على ثورتهم. الدول ضدها، وهي، ياخوفي، لازالت فتية، فهل تقدر أن تقدم لنا شيئاً؟

فيما بعد أقلق عزيز أن تلك الثورة ليست فتية ومحاصرة وحسب، بل بعيدة. كما ظل يقلقه أن الأستاذ فخري يسعى إلى الكماليين، حتى لو كانوا بلاشفة، بعدما فعلوا، وكان ذلك يعيده إلى الجيش الميمم إلى الشمال، وحمادي الحسّون الذي فرّ بعدما فضح البلاشفة اتفاق الانكليز والفرنسيين على الشام، وغدرهم بها. كما كان قد بات يردد في وحدته ماردد خلف وليف متلعثماً: ياعمال العالم ويأأيتها الشعوب المضطهدة اتحدوا،

ويفكر في هذا النداء الذي قال وليف إن البلاشفة قد أطلقوه في باكو، وسموه بنداء الجهاد المقدس.

★★★

صبيحة سفر وليف إلى انقرة، لبث عزيز يراقب الآخرين متيقظاً وصامتاً، وهو يضاعف جهده، كأنما عليه أن يقود العمل، وإن لم يكلفه أحد بذلك صراحة. إلا أنه لم يلبث أن رأى أن لاحاجة في المصبنة إلى من يقود، فنسي الأمر، وفي المساء ألح على أصحابه الجدد ـ أصحاب وليف بالأحرى ـ أن يسهروا معه في الغرفة.

قبل أن يستقر مجلسهم أقلقه أن عليه أن يحتفي بهم، ويحدثهم كما كان وليف يفعل، إلا أن كل شيء جرى تلقائياً، كما في المصبنة، كما في الأيام القليلة التالية، قبل أن يعود وليف، والطبخة التي شُرع بها صبيحة سفره، لم تكد تجف.

لم تكن لهفة عزيز إليه بأقل من لهفة أي من العمال، إلا أنه كان منهكاً وقلقاً، يتعجل البقية الباقية من النهار حتى يشبع نوماً.

انصرف الذين رافقوه وعزيز إلى الغرفة مبكرين، قبل العشاء الذي حرص عزيز على أن يعده تكريماً للعائد، فيما وليف يرتب بعض الأوراق، ويدسها تحت فراشه.

لم يفت ذلك عزيز، إلا أنه كتم فضوله، ممنياً نفسه بالكثير الذي لدى وليف، بعد أن يتعشى.

كان كلما حسب أن الوقت قد حان أشفق على صديقه من التعب، ورأى صديقه الذي جافاه النوم يتكتّم عليه، حتى إذا أشار إلى الفراش متسائلاً:

ـ ما خبأت هنا يا وليف؟

ـ أوراق لاشأن لك بها.

قال وليف متبرماً، فتراجع عزيز كسيراً، وبدأ الغيظ يؤاكله، ولعل وليف قد رمى بكلمات شتى، لم يتبينها، ثم قال بعد لأي وعينه على الفراش:

ـ أنا من كان يعد الأيام في غيابك؟ أنت لاتثق بي يا وليف؟ يا أخي يمكن لي أن أسكن في جهنم الحمراء. أنت حر بأسرارك وغرفتك.

تقلصت وجنتا وليف وهو ينقل عينيه بين عزيز وأرجاء الغرفة، ثم قال:

ـ والله لا أعرف كيف أبدأ معك يا أخي، أرجوك لاتزعل مني. الصراحة لا أحد يزعل منها، فكيف بالأخوة؟ الأستاذ فخري نفسه طلب مني قبل السفر أن أجد لك مسكناً

وحدك، شغلنا هذه الأيام غير ماكان عليه. قلت له عزيز منا وفينا وأنا مسؤول عنه. أنت تقدر يا أخي: الانسان يجب أن يكون حذراً ليس من أجلي ولا من أجل الأستاذ فقط، من أجلك أنت قبلنا. من سنتين بدأ الأستاذ يرسلني كل شهرين ثلاثة، أربعة. لا أحد في المصبنة غير جمعة، جمعة الختيار، يعرف أني أغيب ساعة أو عشرة أيام إلا من أجل الصابون، وهذا أنت أيضاً. أحياناً أدعي أني أخرج من أجل القلي. أنت لم تر بعد طبخة صابون بها، بدل الصودا، والحقيقة أني أحياناً أضرب عصفورين بحجر، أقضي للمصبنة شغلها، وأقضي غيره، وفرحة الأستاذ تكون أكبر. جمعة يعرف، وهذا أنت. ماكل شيء تستطيع أن تقوله أمام الناس. لاتتعجل يا عزيز ولا تزعل. يجيء يوم قريب وتعرف فيه كل شيء، تعرف ما يفعل أخوك وليف من أجلك ومن أجل غيرك.

تكوم عزيز وصوته ينضح بالحزن:

- هكذا إذن يا وليف؟ أين أنت ياعمي كيروز؟ الأستاذ لايعرفني، عذره معه، أما أنت؟ أنت على حق. لاشهر ولا سنة تكفي حتى يعرف الانسان الإنسان. ولكن يقولون: يوم واحد أحياناً يكفي، نظرة وحدها تكفي. غداً سأترك الغرفة. ولو شئت أتركها الآن.

اقترب منه وليف متودداً:

- نحن رجال يا عزيز. الحرد والزعل ليس لنا، افهمني أبوس يدك. تترك الغرفة أو لاتتركها، اهم أكبر. هل أنت مستعد لتمشي معنا؟ هل تعرف إلى أين تقودك دربنا؟ الدرب طويلة وفيها ما فيها يا عزيز. نسيت ما حكينا قبل السفر عن البلاشفة؟ البلاشفة ما عملوا الذي عملوه في غمضة عين. عمرهم قضوه في الشقاء حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، دربنا فيها الموت نفسه يا عزيز، كما فيها الحياة.

- ما أشطرك بالحكي!

- ليست شطارة يا أخي، والشطارة نفسها بالحكي وبغيره ليست عيباً. عشرين مرة سألتني عما ينقصنا حتى نكون مثلهم.

- مثل من؟

- مثل البلاشفة، نسيت؟ أم أن عقلك ليس هنا؟ أنا برمت عليك بالجواب، لا أنكر. بصراحة أقول لك الآن. والآن بصراحة أيضاً: الواجب أن تعرف، وبعدها أنت حر. الكلمة أمانة، البلاشفة لولا حزبهم كانوا فاشوش. نحن نحاول، وهذا مابين الأستاذ فخري وبعض الكماليين. البلاشفة منهم يساعدوننا. نحن نحاول ولو كان مافيه شيء واضح. الأستاذ لايقبل مني هذا الكلام. هل تقبل أنت بحزب تركي بلشفي عندنا؟

لماذا؟ ماذا ينقصنا؟ صحيح البلشفي رفيق البلشفي أينما كان، ولكن هل نعمل كما عمل غيرنا؟

ـ ماذا عمل غيرنا؟

ـ جماعة عملت الحزب الثوري الوطني، هنا في حلب. نعم، حزب تركي، هو ضد الفرنسيين، عظيم، ولكن مع الانكليز. طز. هكذا يقال، ولا دخان بلا نار. إلى متى يكون عندنا ظل للحزب التركي الفلاني أو العلاني، بلشفي أو غير بلشفي؟ قبل الحرب وقبل رحيلهم عنا كان يمكن للمرء أن يفهم ذلك. على أيام شباب الأستاذ فخري، مفهوم، أما اليوم؟ الأحوال تغيرت، وهو لايقبل مني هذا الكلام. هو الذي كان يقول دائماً: تجار حلب فرحوا باتفاق الكماليين مع فرنسا، المسيحي مثل المسلم منهم، فرح، لأن سوق الأناضول فتحت من جديد، والأستاذ نفسه استفاد، ولكن أين الفرق بيننا وبينهم؟ هل نحن مثل الحزب الثوري ذاك أم مثل جمعية استقبال أم...

ـ مهلك علي، وما هذه الجمعية أيضاً؟

ـ كمالية أيضاً، وعندنا هنا. يقال كونها الضباط الذين كانوا في الجيش التركي، ومن بعد صاروا مع الملك. يقال لها فرع في الشام، الأستاذ نفسه غير متأكد، هذه الأمور لاتستطيع أن تتأكد منها دائماً ياعزيز، خاصة إذا كان الجميع يعملون سراً. ولكن يا عزيز مالنا ولهذا؟ نحن لسنا تجاراً ولا ضباطاً، نحن لسنا تابعين لمصطفى كمال ولا لغيره، نحن عرب، وهذه أرضنا وبلادنا. قبل وصولك مع والدي بأيام علا صوتي على صوت الأستاذ فخري وأنا أقول مثل هذا الكلام. أخاف أننا بدأنا نختلف والدرب مازالت في أولها. أنا غلطت معه، ماكان لي أن أرفع صوتي، على الأقل لو تكلمت معه كما أتكلم معك الآن، ولا أظن أنه نسيها لي، ولو كان يبدو أنه نسي. والخلاصة يا عزيز: طيرت النوم من عيني، جعلتني أحكي كل شيء. هل تسير معي يا عزيز؟ مد كفك لي يا أخي.

اندفعت ذراع عزيز وهو يهتف:

ـ معك يا وليف.

وقال وليف:

ـ لا جمعة ولا غير جمعة يسمع بحرف.

★★★

دسّ وليف أصابعه تحت الفراش، أخرج الأوراق المخبأة، وفرش بعضها فيما بينه

وعزيز، داعياً:

ـ تعال انظر إلى هؤلاء الشباب. ماذا تعطي هذا من العمر؟ عشرين سنة؟ أصغر منك ومني. كلهم في الحبس. انظر هنا..

وأشار إلى كلمتين تركيتين في رأس الورقة مهجياً:

ـ كانج كو مونست.

ثم ردد الكلمتين أسرع، فسأل عزيز:

ـ ماذا يعني؟ ليس هذا بالعربي.

ـ يعني الشاب البلشفي، يقولون أيضاً: الشاب الشيوعي. أنا أعرف كيف أفك الحرف التركي. ولكن الأستاذ بلبل. بلبل بالتركي والفرنسي. هو يترجم هذه الأوراق.

ووضع فوق الكانج كومونست صحيفة مطوية بعناية متابعاً:

ـ هذه من موسكو يقولون. هذا الحرف فرنسي.

ـ وما أدراك؟

ـ قالوا لي، وأنا ابن آدم أم حمار؟ انترناسيونال روج. حفظت اسمها، ولكن لاتسألني عن معناها. الأستاذ فخري يشرح لي ولك.

ووضع فوقها صحيفة ثالثة وهو يضحك:

ـ وهذه انترناسيونال كومونست.

ثم أعاد ترتيب الأوراق، ودسّها تحت الفراش، وهو يقول:

ـ فرحة الأستاذ ستكون كبيرة، ولكن هل سيقدر على الترجمة حقاً؟ دائماً مشغول ونحن منذ متى لم نتحرك؟

تمدد وليف، واضطجع عزيز قبالته برنو. كانت عينا وليف تهومان بعيداً، تعانقان ذكرى عزيزة، وأصابعه تربت على صدره، تدندنان ـ ربما ـ بلحن ما، وعزيز يتشوف.

قال وليف:

ـ أول ما جربني الأستاذ كان في لصق أوراق صغيرة على الحيطان. كان يقربني إليه قبل ذلك، يتبسّط في الكلام معي، وأنا أفهم ولا أفهم. أخذني معه إلى أنقرة، وأنا أفهم ولا أفهم. رأيت كثيرين سكارى من الفرح، ورأيت الحزن يأكل كثيرين، طبول يا عزيز، مزامير، غناء ودبكة، هزّ نهود وبطون، وباعة مثل عمك كيروز، مع حمار أبيض وبلا حمار أبيض، يبيعون الفستق والكرز الحامض، والراقصة تقرقع بملعقتين خشب مثل التي تأكل بها طول عمرك، وترقص الأرض تحتك، تصدق يا عزيز: جيش تركي بحاله، جيش

أحمر، بلاشفة يا عزيز، كيف تعمر عمارة، لابيتاً فقط، وقبل أن تسكنها تنقلب عل
رأسك؟ هكذا صار يا عزيز. ولكن الأمل عمره ما انقطع. ابن آدم بلا الأمل لا يساوي
بعرة. الشغل، قلت لك يا أخي، في يوم من الأيام، والآن أقول لك: الأمل، دائماً في
ناس تغرس الشجر، وأولادهم يقطفون. المهم: لايأتي ظالم من الظالمين ويقطف أو يقلع
الشجر. أول مرة نمت مع الأستاذ في أوتيل يواجه المحطة، ولصقنا جامع وخان، ولم
سافرت وحدي نمت في حارة مثل هذه الحارة، لالا، هذه الحارة قصر، نمت في بيت من
الخشب والتراب المدكوك، على الأقل هذه الغرفة من الحجر. وكل مرة أعد نفسي: النوم
في الأوتيل، والفرجة على مسرح كمال، ولكن لا هذه ولاهذه.

ـ ألا تخاف من السفر وحدك يا وليف؟

ـ لماذا تسأل؟ تريد أن ترافقني؟ إن شاء الله يا أخي. أنت ألا تخاف، إذا كنت وحدك أو مع غيرك؟ من يقول لك: لا أخاف، لاتصدقه. المهم ماذا يفعل بواحدنا الخوف. أول مرة جربني الاستاذ عافت نفسي الأكل يومين من الخوف. الخوف من الثلج وحده كان يكفيني، كيف اذا كان عليّ أن ألصق الأوراق على أبواب الفرنسيين؟ أعطاني الأستاذ سبع ورقات وقال: الصقها على أبوابهم، وإذا عجزت مقابل الأبواب. إذا رآك واحد منهم أو من حراسهم رحت فيها. أخذت الأوراق وناديت: يا ميسّر. من لهفتي ـ أو من خوفي ـ ما قرأت ورقة ولا حرفاً، وتعال يا عزيز اللباد دبّر مكاناً غير مبلل، كيف تلصق الأوراق وتبقى حتى الصباح والثلج لايترك لك نسمة تتنشقها؟ لكنْ أخوك وليف دبر رأسه وجاء الأستاذ بعد يومين يضمني ويقبلني. قلت له: اعطني واحدة لأقرأها. ضحك وماصدق، وبعد يومين أو ثلاثة جاء بورقتين. كان في ذلك الشتاء لايكاد ينقطع عن المصبنة. طلب مني أن أقرأ الورقتين وأعيدهما إليه، دون أن يراني أحد. قال: هذه ـ وكانت الأكبر ـ مما ألصقت أنت، وهذه ـ وكانت الأصغر ـ لصقها غيرك في أيار الماضي، وإذا صعب عليك شيء اسألني. أنت الآن واحد منا يا وليف، ومعك في المصبنة عمك جمعة، جمعة الختيار، ويومها تعاهدت مع الأستاذ مثل عهدي معك اليوم يا عزيز.

أطبق وليف جفنيه وسكت، فنهض عزيز إلى الفانوس يطفئه، وفي عودته إلى فراشه همس:

ـ نمت؟ ماقلت لي ماذا كان في الورقة؟

همس وليف وهو يلجم تثاؤبه:

ـ قرأت ما لعب برأسي. سألت الأستاذمن كتب هذا الكلام؟ أنت يا أستاذ فخري؟ قال

شباب منا. أعجبك؟ قلت: دوخني، ما عجبني وبسّ. قال: نحن نريد أن نعقلك لا أن ندوخك، الورقة التي علقتها كان في أولها يا أهل حلب، وفي أخرها لينين، وكل كلمة فيها تدعونا لنقاوم فرنسا بالبلشفة. الورقة الثانية الصغيرة كانت ضد الانكليز. هذه الورقة يا عزيز دوخت الملك نفسه، فجاء إلى حلب يخطب ضد البلاشفة. أنا سمعته بنفسي، وإن كنت أفهم ولا أفهم. كانت فرنسا على الباب وهو يخطب فينا ضد الخطر البلشفي الذي نط فوق الحدود التركية، والأستاذ قال: إن الملك أرسل نسخة من هذه الورقة إلى الانكليز حتى يؤخروا فرنسا عنه، ويتصدى هو للبلاشفة.

قال عزيز وهو يشفق على صديقه من صوته الناعس:

اسأل لي الأستاذ. إذا كان عنده من هذه الأوراق أو من غيرها يا وليف.

ولم يرد وليف، إذ يبدو أنه كان قد أغفى، وتركه مسهداً أو حالماً، مرة أخرى.

★★★

أخذ وليف يتغيب عن المصبنة وعن الغرفة، وعزيز يتلهى عن ذلك بالشغل في نهاره، أما في ليله، إذ يثقل عليه الانتظار، فيروح يتنقل من بيت إلى دكان، لايكاد يبدأ مع جار حديثاً حتى يقطعه ويغادر، أو لايكاد ينتظم في لعبة باصرة أو اسكمبيل، حتى ينسحب وإذا قدم أحدهم، من المصبنة أو من الحارة، وهو يمضي الوقت جزافاً في الغرفة، لبث صامتاً، فإن كان الوقت متأخراً ومازال وحيداً، قرّب الفانوس، ومدّ يده بحذر إلى إحدى الأوراق التي صار يتولى إخفاءها في البيت، ويحاول أن يعالج كلماتها الدقيقة دوماً، والعصية دوماً، على الرغم من أنه يقرأ جيداً، والأستاذ فخري نفسه يثني على فهمه، إلا أن هذا الكلام غريب بقدر ما هو قريب، لم يسبق لعينيه أن ألفتاه، كما أن أذنيه تفتقدانه فيما تسمعان. ولعله لذلك كان يسترق النظر من جمعة الختيار في المصبنة، يتمنى ويخشى في آن أن يكون قد قرأ تلك الأوراق، وفهمها.

وإذ يؤوب وليف منهكاً، أو جائعاً، وخائفاً دوماً، يحنو عليه عزيز، ينسى غيظه من وحدته، يسترق النظر من صديقه الذي يزدرد بقايا العشاء ثم يتمدد مديراً ظهره.

كان الصيف يولّي سريعاً، أسرع من ألفة عزيز لغياب وليف ـ بعد أن قرر الأستاذ أن يظلا مقيمين سوية ـ وأبطأ مما يدوم في رأسه، ويرمي منه أمام العمال، في الغرفة أو على طريق المصبنة، أو في بيت أي منهم. وربما كان يتحرش بجمعة الختيار وهو غافل، بعد أن أعياه أن يقرأ في عينيه أيَّ أثر لسرٍّ يجمعهما. وهكذا، كان يثير اللغط والعجب،

السخرية والقليل من الاهتمام ، إذ يبدو لبعضهم أنه على حقٍ مثلاً ، وهو يقارن بين انتصار الأتراك بعد الهزيمة ، وهزيمة العرب بعد الانتصار . أو حين يومىء إلى العرش الذي انهار في الشام ليستقر في بغداد ، على الرغم من أن الملك هو هو . ولكن عزيز ظل عاجزاً عن أن يميل بالرؤوس إلى حيث مال ، فيلوي عن الأسئلة التي تتلاحق :

ـ كيف يمكن أن نكون بلاشفة ؟ هل نستولي على المصبنة ؟ كيف يمكن أن يكون الأستاذ فخري منا أو من البلاشفة مثلاً ، وهو من أنعم الله عليه برزق يكفينا جميعاً ؟

كان وليف في أحيان نادرة ومتباعدة ، إذ يتناهى له بعض ذلك ، يكتفي بالقول :

ـ الحذر الحذر يا عزيز . لاتفضح سرنا قبل وقته . عين الاستخبارات الفرنسية ماعادت تغفل لحظة عن الأستاذ فخري وأصحابه . .

وربما قال وليف ذلك أول مرة عقب زيارة الأستاذ فخري لبيروت ، وما شاع من بعد عن لقائه بأحد الكماليين هناك . إلا أن عزيز الذي كان يسيئه ذلك حيناً ويفرحه حيناً ـ مادام وليف لابد أن يكون قد سمع من جمعة ما جعله يحذره ـ لم يتراجع ، إلا لأنه كان قد بدأ يكثر من النزول إلى المدينة ، بعد أن ألوى عنها أغلب الصيف .

في لقائه الأول بها بدت له مثل سواها من المدن التي رأى ، غير أنها سرعان ما أخذت تتكشف له عن مدينة أخرى ، فليس بردى في الشام مثل قويق هنا ، ولا العربات التي تقف أمام أوتيل فيكتوريا هناك مثل التي تقف أمام أوتيل بارون . الأصوات والقنابيز وزقزقة الكنادر ، الفرنسيون الذين لم يرهم في مدينة من قبل ، وسوى ذلك الكثير الذي لايقدر على تبيّنه ، كان يكشف له عن المدينة ، فينكر أن يكون ذلك فقط لأنه ظل لسنين تائهاً ، بعيداً عن أية مدينة ، منذ أودع نجوم الصوان عند العم حاتم ، وفرّ من حمص . ولعل ما أجتذبه بخاصة الأرمن ، إذ رأى نفسه ينكر أن يكون آرو ، أو على الأقل هيكازون ، من هؤلاء المشردين البؤساء ، ويتساءل عما إذا كانوا أولى منه و من وليف وأمثالها من العرب في أن يتبلشفوا . فالنذر الذي بات يعرف عنهم يكفي لأن يكونوا أكثر الناس شقاءً . ومثل البؤس الأرمني ، بدت له المدينةَ تعجّ بالنساء اللواتي جعلن ريقه يتحلب ، أو جعلنه يندم على أنه لم يسرع إلى هذه الشوارع منذ وصل مع عمه كيروز إلى المصبنة ، فلعله لو فعل ، لما نقعن على وفرتهن غلته . كذلك بات جسده يفور ، مثلما كان في الربيع القريب ، وأم عثمان تضيء .

كان يجاري من يخرج معه في جراءة العين ، أكبر فأكبر ، على أية امرأة يصادفون ، يتبذل مثلهم في التشهي ، غير آبه بما يلفحها ، متأسياً ، مرة بعد مرة ، على

أم عثمان التي عافها ربما إلى حضن سواه . وعلى الرغم من ذلك ، كان يهز رأسه رضياً ، يتبسّم ، ويردد ما يقرعه به أحدهم حين يبارح إلى بحسيتا ، ليضاجع أول عاهرة تطلع له . أما هو ، فيكتفي بالوقوف في زاوية من زوايا باب الفرج ، يرقب ساعته وباعته ، أو ينسلّ إلى سوق المدينة ، يحتمي بسقفه الاسطواني المتطاول وعقوده الهائلة ، يخبط خبطاً على الأحجار الصغيرة التي ترصف أرضه ، يضيّع غالباً في الزحام من يكون قد تبقى برفقته ، ثم يلتقون كل مرة أمام القلعة ، على الرغم من الزحام الأشد في سوق الجمعة .

في تلك الفترة بدأ معاً موسم الزيت والبرد المبكر ، فعاد يلوي عن المدينة . ليشرف على الضروف ، حين يغيب وليف ، يدقق بنفسه امتلاء الجرة ، وعدد الجرار . يشك في أن شهراً سينقضي قبل أن تمتلأ الآبار الثلاثة . وكانت نوى الزيتون المشتعلة في الغرفة تعجز عن إشاعة الدفء في جسده ، فيما وليف يسخر من ضعفه ، وهو الذي يعود متأخراً يوحوح ، ويدير ظهره لمباهاة عزيز بما تمرس عليه من برد قبية أو الصحراء أو القزلي ، ويقهقه لحلفانه على أن يرد حلب عذاب من الله ، مثل عذاب ناره الحامية . وإذ يبالغ وليف في المناكدة ، فيفتح الباب كي يتبدل الهواء النتن . يصيح عزيز :

ـ نتن من فسوك .

ويقفز إلى الباب فيصفقه ، ويتدثر ، ووليف يدندن :

إي ها دقت الطبول والزمر غنى لها
إي ها يا محلا عروستنا ويا مكوس دلالها
إي ها يا ست الحسن إجت من إكليلها
إي ها وعشرين من الصبايا شاقليلها ديلها

ويطلق زغرودة تضاعف من غيظ عزيز ، فيغطي رأسه ، وربما يغفو أو يشخر غافلاً عن صديقه الذي أخذ يحوص منذ أيام ، يتحرش به كي يحدثه بغير حديث غيباته ، يسهر مهما تأخر في العودة ، يزفر ويتقلب سواء أكان الفانوس مطفئاً أم لا .

ولعل عزيزاً قد تأخر كثيراً قبل أن يصيح به :

ـ صدعت رأسي بأويها وأويها . يقول عنك الواحد : عاشق . ابن كيروز عاشق .

فهمس وليف :

ـ العشق عيب يعني ؟

دفعت عبارة وليف بعزيز في فضاء الغرفة وهو يردد :

ـ قل هكذا من الأول. وأنا الأعمى الذي كنت أظن غيباتك لوجه الله . قلت لي بلاشفة وأستاذنا وتركيا وفرنسا والخطر ؟

انكمش وليف ، فأقبل عليه عزيز :

ـ استحيت مني ؟ لا لا . تخبىء عني ؟ والله والله لن يغمض لك جفن وفي صدرك كلمة . أين عمي كيروز ؟ أين أم وليف ؟ تعالي زغردي تعالي .

ازداد وليف انكماشاً وهو يتأبى ، لكن عزيز حاصره حتى قال :

ـ مسيحية يا عزيز .

ـ المعنى ؟

ـ ألا تعرف ؟ أخوك العاقل ما دارت بعقله إلا واحدة مسيحية ، ولليوم لا أعرف أصلها من فصلها . مرة واحدة لمحتها قبالة بيت من البيوت التي نجتمع فيها ، وغصّ قلبي حتى كدت أبكي .

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ، كما تراني . لا أمل يا أخي .

ـ لا أمل ؟

ـ قلت لك مسيحية . عمرك سمعت بمسلم تزوج مسيحية ؟

ـ سمعت أو ما سمعت . لجهنم . سألت عنها ؟ رحت لها ؟

ـ حفظت كرمى لها ما تسمعني أغني .

ـ حلو ، وبعد ؟

ـ وبعد ، أكتم لوعي وأشكولك .

ـ وأنت من ظننت أني أشد به حبلي إذا انقطع ؟ رح . أنت لا تصلح لها ولا لغيرها .

ـ قل ما تشاء . أنت على حق . ولكن هذا أنا وهذا حظي . حماك الله من وقعة مثل وقعتي .

ـ لو كنت مطرحك كنت آخذها بليلة مافيها ضوء .

ـ الهزل هزل والجد جدّ . رح نم واتركني لهمي .

وعلى الرغم من أن عزيز قد تأذى وحرن وصمت ، إلا أنه أغفى ووليف يساهر الدندنة المكتومة في صدره ، وعيناه تداعبان القمر في تلك الليلة الباردة التي لمح فيها صبية ما ، وأذناه تهفوان إلى شقشقه حبات الفستق مثل صوت العصافير ، فبيت الصبية

سوّر بشجيرات الفستق ، وعرائش الحَبّ مضرجة مثل خد الصبية ، وهو ماعاد قادراً على أن ينتظم بين الساهرين ، ولا يصبر عن لقاء آخر بهم في ذلك البيت ، والأستاذ فخري يتبسم ويهمس : مسيحية ياوليف . دعك منها ، وعد إلينا

★★★

لم ينم عزيز وحيداً إلا أثناء سفرة وليف تلك إلى أنقرة . كان وليف يعود مهما تأخر بابه . بل إنه منذ كفّ عن الدندنة ، وبدا لعزيز أنه لم يعد عاشقاً ، ما عاد يتأخر في لسهر ، حتى تلك الليلة .

ربما حدث عزيزاً في الصباح أنه سيرافق الأستاذ فخري إلى بابلّي ، على الرغم من الشتاء العاصف ، ولكن عزيز نسي ذلك ، كما نسي من قبل أن وليف والأستاذ فخري يترددان في الشتاء ، لا في الصيف ، على بساتين بابلّي والجانكية وسواهما .

انتظر عزيز حتى كلت عيناه ، فأغفى وترك الفانوس مشعلاً . أفاق كعادته وبوغت بغيبة وليف . أطفأ الفانوس ودعا الله ألاّ يكون قد وقع صديقه في سوء . وفي المصبنة لم يستطع أن يخفي اضطرابه ، حتى إذا أوشك أن يواجه قلقه ، ويفاتح العمال بشأن الغائب ليلة بطولها ، ليرى ما يمكن أن يفعلوه معاً ، وصل وليف بالغ الغبطة ، وبادر جمعة الختيار وعزيز معاً :

- من سمع بما جرى في تركيا ؟

هفا العمال إليه ، وصاح أحدهم :

- ولا في سورية .

قهقهوا جميعاً ، إلا عزيز ، وقال وليف :

- اسمعوا إذن : نحن نشخر هنا ، وهم رموا السلطنة في البحر.

تساءل جمعة الختيار :

- والسلطان يعرف السباحة ؟

- ليس السلطان يا جمعة . قلت لك السلطنة . ألقوا السلطنة . كما ألقى الروس بعرش القيصر في البحر ، ألقى الأتراك بعرش السلطان .

تسلّل صوت وان من بينهم :

- كيف يكون ذلك ؟ والخلافة إذن ؟

قال وليف :

ـ لاتخف . عينوا خليفة .

قال عزيز برماً وهازئاً :

ـ طز . كانت سلطنتنا أم كانت خلافتنا حتى نزعل عليها . جهنّم تحرقهم ببعضهم

عاد الصوت أقوى :

ـ لا تغلط يا ابن أخي لاتكفروا ياشباب ، الخليفة أمير المؤمنين ونحن مسلمون والحـ لله .

قال وليف :

ـ والخليفة الذي خرب بلادنا وبلاده هو أيضاً أمير المؤمنين ؟

قال جمعة الختيار :

ـ بلا هذا الكلام . ماعاد أحد يسمعه ولا يأخذ به . لا خليفة ولا سلطان . بكره يرمو الخليفة في البحر .

قال أحدهم :

ـ العلم علم الله : زمن العروش ولّى . حتى عندنا ، ما كادت قفا الملك تدفأ على العرش حتى . .

والتفت إلى عزيز :

ـ في روسيا فعلوا أيضاً ، أنت حكيت لنا يا عزيز .

قال جمعة الختيار :

ـ حكاية روسيا حكاية ، وحكاية الأتراك حكاية . .

قاطعه أحدهم :

ـ كفى كفى . وحكايتنا حكاية ؟ قلها . فرنسا رمت عرش ملكنا في البحر : ما الفرق ؟ جهنّم تحرقهم ، ما شفنا منهم غير البلاء .

قال جمعة الختيار .

ـ الفرق كبير .

قال عزيز :

ـ جاءوا بالأسوأ .

قال أحدهم :

ـ حتى لاتبرد قفا الملك نصبوه على عرش بغداد .

علت قهقهة بعضهم ، وقال عزيز :

ـ كما نصبوه أمس يرمونه غداً في البحر .

قال جمعة الختيار :

ـ في دجلة يا عزيز .

قال وليف :

ـ لا تختلفوا ، المهم زمن العرش ولى .

قال عزيز :

ـ ماذا تقول إذن في الحجاز ومصر والانكليز . . ؟

ـ قال وليف ؛

ـ أنا لا أرجم بالغيب .

علت أصوات عدة :

ـ نراك رجمت .

ـ لا لا . كل ما قصدت أن الزمن الذي كان يتربع فيه فوق رؤوسنا ملك أو سلطان أو خليفةأو ابنه أو أخوه أو قحب من أقحابه أو قحبة من قحباته ، هذا الزمن ولّى .

تسلل الصوت الذي تأسّى على الخلافة :

ـ وما زمانك الجديد يا وليف ؟

ـ هو زمانك معي ، هو زماننا كلنا لا زماني وحدي .

التفت جمعة الختيار إلى الرجل المجايل له :

ـ أنت أفقر واحد فينا يا أخي . كم مرة لعنت هذه العيشة وقلت إنك لا ترضاها لأولادك ؟ كم مرة قلت لك وقلت لي نريد عيشة نشبع فيها اللقمة ونمشي برأس مرفوع ؟

قال وليف :

ـ هذا زمانك وزماني . هذا زماننا الجديد ، بلادنا فيه لنا وضحكتنا فيه شبر . ادعوا معي : يا رب تقرب هذا الزمن يا رب .

وتركهم يدعون ويتباحكون وعاد إلى الغرفة الصغيرة في مدخل المصبنة ، فلحق به عزيز ، وأطبق الباب خلفه هامساً بحنق :

ـ أين كنت ؟ تركتني أضرب أخماسي بأسداسي ولا أنام الليل . .

قاطعه وليف ضاحكاً :

ـ مهلك عليّ . ما خلصت من أم وليف حتى جاءني عزيز اللباد ؟ علقنا الأوراق يا عزيز .

علقناها على حائط الحاكم نفسه . جعلنا حلب تغلي . لو رأيت الناس هذا الصباح . أنا ما غمضت لي عين أيضاً . ولكن الله يسترنا ياعزيز . امش الآن امش ، عد إلى شغلك والليل قدامنا طويل . اليوم معك .

تلفت عزيز نحو الباب ، وخيل إليه أن أحداً يطرقه ، فهم أن يفتح ، لكن عددا من الجنود الفرنسيين كانوا قد دفعوه وهم يرطنون ويشهرون أسلحتهم .

★★★

15

وضعت أم عاطف بنتاً وصبياً . كادت روحها أن تزهق في الولادة . مات الصبي يوم طهوره ، قبل أن يكمل الأربعين ، فعادت حالة أمه تسوء ، بعد أن كانت استطاعت أن تخرج من القبة الطينية بمفردها .

نوى أبو عاطف أن يسمي ابنه الجديد باسم ابنه المتوفّى ، والبنت باسم زوجته المتوفاة . بيد أنه آثر أن يؤجل ذلك حتى تتعافى فاطمة التي ما فتئت تنادي : أبو عاطف ، محملة نداءها ـ رغم إعيائها الشديد ـ غنة خاصة ، لم تخف عليه . أما هو فما فتيء يناديها منذ ولدت : أم التوم ، ويحثها على الشفاء السريع ، فإلى متى الصبر؟ قبل أن تلد بشهر ، إن لم يكن أكثر ، لم يقربها ، وها هو شهر آخر ينقضي ، كما أنه راغب بتوأمين آخرين .

بعد وفاة الصبي أعلن أنه سوف يسمي البنت : فطوم . وما كانت فاطمة بقادرة على أن توافق أو ترفض أو تتساءل برفيف جفنيها . ولعل ذلك ما جعله يفكر بذلك الاسم للبنت التي أخذت تذوي هي الأخرى .

ظل شبح الموت مخيماعلى القبة الطينية طوال الشتاء . ولئن كانت فلاحة الأرض ورش الشعير قد شغلته أسابيع مضنية ، فقد عاد في الأسابيع التالية أشبه به في أيامه المعدودات في كفر لالا ، حين كان الموت يملأ بيته ، لكأن أم عاطف وعاطف قد توفيا الآن .

كانت مواساة جيرانه وإشفاقهم عليه وعلى المريضتين تضاعف من بؤسه ، مثلما كان يضاعفه قلق صاحب الأرض على الموسم الذي قد لاينهض به أبو عاطف وحده .

مع انسحاب الشتاء بدا أن الموت ينسحب ، ولم يكد الدفء يسري ، والزرع يخضرّ ، حتى غادرت فاطمة القبة الطينية ، وأخذت تعين زوجها ، على الرغم من إلحاحه عليها في ألاّ تطمع بالعافية التي منّ الله بها أخيراً ، فضلاً عن أن فطوم لازالت

تصارع المرض الذي لم تستطع أيّ من أمهات القرية تحديده ولا معالجته ، كما لم تفعل بـ
بعد أدعية وحجاب الشيخ علم الدين إلا فعلاً يسيراً .

ظلت فطوم على شأنها طويلاً . كما أن فاطمة كانت تتردى بين حين وآخر ، فتضطر إلى ملازمة الفراش ، وهو يلهث وحده خلف الشعير والجلبانة والعدس ، يلاحقه صوت صاحب الأرض مقرعاً على التقصير ، نائحاً على الموسم ، نادماً على تسليمه الأرض لهذه الأسرة التي غضب الرحمن عليها ، ومقسماً أنه لن يسلم لأبي عاطف حبة من حصته ، حتى لا يفرّ منه ، قبل أن يعوض في الموسم القادم ما تسبب به من خسارة .

حين أوفى الرجل بقسمه ، تيقن أبو عاطف من أنه لن يرحل حقاً إلى كفر عيد كما ظل يأمل منذ سنة . ولم يكن يقينه بسبب حجز حصته من الموسم ، وتسليمه منها ما يقدر الرجل أنه يكفي ليومين أو ثلاثة ، بل لأن فاطمة وفطوم عاجزتان عن الرحيل . كذلك استسلم ، وتهدّل ، كأنه على وشك الوقوع في المرض ، أو كأنه قد أبّل للتوّ ، حتى إذ لوح الخريف ، بدا ، وامرأته وابنته ، كأنما يقفلون من سفر كاد أن يودي بهم ، وعاود الأمل بالانطلاق بعيداً عن هذه الأرض المنحوسة ، غير عابىء بعيني صاحبها اللتين ترصدانه . إلا أن أصداء الثوار والفرنسيين والكماليين أخذت تتردد في لياليه ، ثم في نهاراته ، فتستأثر به ، كما الجميع .

ربما كان قد علم ، قبل نزوله في هذه الأرض ، غرب كفريا ، أو بعده ، أ الفرنسيين ما عادوا على الساحل فقط ، بل دخلوا الشام ، وطفشوا الملك . وربما كان قد علم أيضاً أن الأتراك الذين انهزموا قبل أن يرمي البذلة العسكرية ، عادوا فالتفوا حول ضابط منهم ، اسمه مصطفى كمال ، وراحوا يطردون الذين احتلوا بلادهم ، غير آبهين بالسلطان الذي طأطأ للمحتلين في استانبول . إلا أن أباعاطف بوغت في الآونة الأخيرة بما راح يغزو القباب الطينية ، وخيام البدو القريبة ، من أصداء الكماليين والفرنسيين والثوار .

قال الشيخ علم الدين ذات مساء وهو يشيح عن تبرّك فاطمة ، وعزوها الشفاء لحجابه :

ـ الكماليون عبروا قربنا وهم يتوغلون شرقاً في البادية . سمعت يا اسماعيل ؟

ـ سمعت ولكن ما رأيت .

ـ أنا رأيت .

ـ كانوا كثيرين ؟

ـ لا . . كم مسلح ، ولا تصدق الذين يحلفون أنهم رأوا عشرات أو مئات .
ـ وماذا يقدرون أن يفعلوا إذن ؟
ـ سمعت أنهم لايقاتلون ، بل يحرضون الآغوات والفلاحين ضد فرنسا .
ـ كيف نسونا إذن ؟
ـ يمكن يأتي غيرهم .

وفي مساء آخر هرع أبو عاطف إلى الشيخ علم :

ـ الشباب هاجوا يا شيخ ، كأنهم يتمنون أن يندلع أي صراع حتى يرتموا في ناره .
ـ إذا حلق جارك بلّ ذقنك يا اسماعيل . البدو سبقونا ، وأنت نفسك أرى عينيك تلمع .
ـ لا أنكر عليك : الشباب ذكروني بالحرب ، والبدو سبقونا كما تقول . طاب الموت يا شيخ ، وأنا محتار .
ـ محتار يا اسماعيل ؟
ـ كيف نقاتل مع الكماليين ؟ التركي تركي يا شيخ ، وما أحد يقاتل معنا كرمى لسواد عيوننا .
ـ في هذه معك حق .
ـ وزيادة يا شيخ : فاطمة . عيونها تقول لي خايفة أفقدك . تعرف كيف فقدت زوجها المرحوم في الحرب .
ـ أنت كبرت يااسماعيل . هذا حكي نسوان .

كانت فطوم قد أخذت تحبو وتثغو وتتفجر عافية ، كأنها تعوض ما فاتها . وكان أبو عاطف يلجأ إليها مما يضطرم في أحشائه ، خاصة بعد أن اختفى ابن الشيخ علم الدين وعدد من الشباب ، وامتلأت القباب بما يفعل الموالي وعلى رأسهم أميرهم بفرنسا .

كان والشيخ قد صارا يتلازمان أغلب العشايا ، في بيت أحدهما ، وقد أقبل الشتاء بطيئاً ، برده أقلّ ، إلا أن مطره أغزر من العهد به . ولأن الشيخ كان يهرب من قلقه على ابنه فقد بدا يتحاشى أصداء القتال . كان يسأل اسماعيل عن فطوم ، فيرد اسماعيل عجلاً :

ـ بفضل دعاك : عال العال . ما عندك خبر جديد ؟

إذ ذاك يشيح الشيخ ويسأل بصوت واجف :

ـ طيب اسألني أولاً عن الصغار .
ـ الصغار يكبرون بعزّك يا شيخ . بين غمضة عين وأختها يصير عندك بدل الشاب

خمسة ، وبدل الصهر ثلاثة . ما قلت لي : عندك خبر اليوم ؟

فيقول الشيخ :

ـ الموالي يا اسماعيل كانوا وحدهم في هذه البادية حتى جاء بنو خالد . من الإحسا جاؤوا ، قبل مئات السنين ، وجاء من بعد الشمريون . الشمريون الوهابيون ، قبل مئتي سنة جاؤوا ، وبعدهم جاءت عنزه ، وكل موجة تدفع الموالي إلى الوراء وتدفع من سبقها .

أو يقول :

ـ من صلب الموالي باشاوات في الشام ، لعلمك . هولو باشا كان من صلبهم ، واليوم منهم شكيم باشا وغيره وغيره . ومن أولاد عمهم في الجولان نفسها أمراء . الأمير جهجاه من صلبهم . أنساب البدو والعشائر تدوخ ، ولكنها لاتضيع يااسماعيل .

هكذا لايجد اسماعيل أمامه إلا أن يتناسى القتال ، مكتفياً بما يلتقط من غير الشيخ في نهاره ، داعياً للذين التحقوا بالثوار ، وعلى رأسهم ابن الشيخ ، ملحاً على كل من يصادف ، وعلى فاطمة كل صباح ، أن يدعوا لهم بالسلامة والنصر .

★★★

في غمرة هطول الثلج لأول مرة هذا الشتاء وصل بعض الخيالة من البدو والفلاحين ، يشرعون رماحهم وسيوفهم وبنادقهم ، ويحملون جثة ابن الشيخ علم الدين . ناحت النساء على الشاب الشهيد ، وبدت القرية فارغة بعد أن غادرها رفاقه ، قبل أن يدفن ، ولما توقف الثلج ، واستطاع الناس أن يغادروا القباب الطينية ، كان قد بات لهم ما يعملونه ، مهما كان ، مما ينفع المقاتلين الذين سيرسلون كل حين من ينقل إليهم ما أعدّ ، خاصة من المؤونة أو الثياب .

فجأة أخرجت القباب عدداً من السيوف والرماح الصدئة ، وتولى الشيخ علم الدين شحذها ببعضها ، وبما أخرجت البيوت أيضاً من الأحجار الصوانية . وفجأة أيضاً نأت أصداء القتال ، وحين يصل بعضها تكون شديدة الاختلاط ، وما عاد الشيخ علم الدين يتحاشاها .

قال أبو عاطف وهو يتناول زجّ الرمح الذي أعجز الشيخ شحذه :

ـ يقولون العشائر بدأت ببعضها ياشيخ . لو كان ذلك صحيحاً ، أما كان شباب القرية رجعوا ؟
ـ الشباب يقاتلون فرنسا ، والعشائر أيضاً ، ولا يجوز غير هذا .
ـ العشائر دائماً تعلق ببعضها . الربيع الماضي ، نسيت ؟ كان المرحوم لايزال بيننا حين تعارك الموالي مع الحديديّن .
ـ أعرف ، تعاركوا من السيف للرصاص ، وحرقوا المحطات وخربوا سكة الحديد ، وقبل ذلك كان عراكهم أشد ، ويمكن بعد سنة أو عشر يكون أشدّ . أما اليوم فهذا لايجوز .
ـ معقول أن فرنسا يومها صالحت القوم ؟
ـ قبلها توسط ابن حكره وابن البزّار ، حكيت لك يومذاك . مهدوا الدرب للصلح . ولكن لاتنس يا اسماعيل : فرنسا بنت حرام . صالحتهم . وفي الوقت نفسه انتزعت من الموالي كما سمعت بعض القرى ، وسلمتها للحديديّن . تعرف السبب ؟
ـ عقاب . أذكر أنت نفسك قلت لي هذا .
ـ يجوز قلته وماكنت فكرت فيه ، يجوز أنت سمعت خطأ . بهذا عاقبت فرنسا الموالي ، وفي الوقت نفسه تركت الفتيل شاعلاً ، حتى ترمي الناس ببعضها يوم تشاء . وظني هذا مافعلت اليوم ، إذا كانت العشائر علقت ببعضها حقاً ، ولكن هذا لايجوز.
ـ صحيح الحديديون من الحضر ياشيخ ؟ من الصغر في كفر لالا وأنا أسمع هذا الكلام . صدقت أني عليم بأنسابهم يا اسماعيل ؟ سمعت مثلك ، وظني أن هذا غير صحيح . ظني أنه خلط بينهم وبين عشيرة الحدادين ، الحدادين أبناء جبل ، وعلويون ويمكن اختلط هؤلاء وهؤلاء ، يمكن كما يقول بعض العارفين : الحديديون التجؤوا للحدادين عقب معركة مع الموالي ، وربك أدرى . المهم اليوم أن يكون الجميع يداً واحدة . ترى هذا السيف يااسماعيل ؟

ولوح بسيف كان يشحذه بصعوبة :
ـ جدهم كان يلويه كما تلوي الغصن . زجّ الحديد الذي بيدك هذا ، كان جدهم يلويه كأنه يتسلى . هم بدو ، لابدّ ، يا اسماعيل . وجدهم شيخ وصاحب كرامة عند الله ، يقولون إن مقامه على الفرات ، وربك أدرى الجميع .

ما كادت الأشجار تبرعم ، والأولاد يعودون بالكما ، حتى ظهر أبناء القرية ممن كانوا يقاتلون ، تسبقهم أصداء انتصار فرنسا ، وفلاحها في تحريض العقيدات ـ وربما

سواها ـ على الثوار وهم ينسحبون . وما كان أحد على يقين من أن هذا ماوقع في الصيف المنصرم ، أم أنه أمر آخر . وكانت علائم الحمل قد ظهرت على فاطمة ، على الرغم من أن اسماعيل لايذكر أنه قد ضاجعها منذ جاء الثوار بابن الشيخ علم الدين شهيداً .

★★★

ضحكة صاحب الأرض كانت تعرض وهو يتقرى الموسم الخصيب الوشيك الذي سيعوضه الله به أضعاف مافات ، فيما أبو عاطف يعمل كأنه ثلاثة رجال معاً ، وقد أطبق شفتيه أغلب الوقت ، وعزف عن لقاء الشيخ علم الدين ، ومداعبة فطوم ، وظل كذلك حتى ظهور الخيالة الفرنسيين .

كانت القرية ، وخلفها البادية ، في أبهى حلّة . وعلى الرغم من ظل الوجوم والحزن ـ أو الهزيمة ـ الذي يغّل جباه الشباب خاصة ، فقد كانت البهجة تسري في الآخرين ، مثل نسغ الربيع الذي لم يضج منذ سنين ، كما هو الآن .

في الضحى أقبلوا من عمق البادية ، يتبخترون . رمى أبو عاطف، شأنه شأن سواه ، مابيديه أرضاً ، ولبث في موقعه ، بعيداً عن القباب الطينية ، يرقب الخيل والبنادق ، يلجم سخطه وفضوله .

أوشك الخيالة أن يختفوا في المنحدر الغربي ، على الطريق الترابي إلى حماة ، حين انطلقت عدة رصاصات ، فهوى اثنان من على ظهر حصانيهما . انفلت الحصانان المذعوران على جانبي الطريق ، وأخذت البنادق تطلق في كل اتجاه . جرى الفلاحون نحو القباب الطينية ، وتخفى بعضهم في الوهاد ، ورأى أبو عاطف من مكمنه ، خلف حافة البيدر العالية ، أحد الحصانين الهاربين يقلب برأسه امرأة ، ويدوس فوقه ، ثم يختفي . غلبت أصوات النساء والأطفال والخيل على صوت الرصاص الذي تراجع ، وقبل أن يظهر أبو عاطف من مكمنه ، رأى حمارين يهويان قرب القبة الطينية التي لابد أنْ تكون فاطمة وفطوم داخلها .

بعد أن توقف الرصاص تردد صوت المختار من مكان ما داعياً الناس إلى التجمع . جرى أبو عاطف يحمل فطوم ، وخلفه جرت فاطمة متعثرة بحملها ، وتكوم الناس في الباحة الصغيرة أمام قباب المختار . كان عدد من الخيالة يتربصون من داخل القباب وعلى يمينها ويسارها ، مطبقين على الباحة ، وقد تدابر بعضهم ، فأحكموا على أمداء الباحة نحو القرية .

تسمر أبو عاطف يهجس : أولاء هم الفرنسيون إذن ، صغار وبيض ، وليس فيهم واحد أو اثنان من المعمرين السمر . إنهم لايشبهون الأتراك . إنهم أشبه بالانكليز الذي عرفهم جيداً . أما هذا الذي يصيح بالناس فلابد أنه من السوريين الذين يقال إنهم قد تطوعوا في الجيش الفرنسي . بحثث عيناه عن الشيخ علم تعاتبانه على ماجزم به من أن عربياً لايمكن أن يفعل ، لكن صراخ الخيال أجفله ، وهو ينذر بحرق القباب والشجر والزرع إذا لم يسلم الفلاحون من أطلق الرصاص ، لاب أبو عاطف على بندقية كي يطيح برأس الخائن المزمجر . أدار عينيه فيمن حوله ، يود لو يعرف من قتل اثنين من الخيالة ، في ومضة عين ، حتى يقبله في جبينه ، ويفديه بنفسه . صرخ الخيال بالمختار :

ـ عرفت الغائبين ؟ من هم ؟

اخترق المختار الحشد ، وخلفه الخيال ، يتمعنان في الوجوه ، وشفتا المختار تغمغمان مع أحدهم بين خطوة وأخرى ، قبل أن يتوقف قريباً من أبي عاطف ، وتطوف عيناه سريعاً بالباقين ، ثم يقول بصوت عال :

ـ الشيخ علم .

تمايل الحشد وهمهم ، فليس ثمة من لايعرف أن الشيخ علم الدين يحتفظ ببندقية ابنه ، وليس ثمة من لم يسمعه يدعو الله أن يمد بعمره حتى ينتقم للشهيد ، ولكن اسماعيل معلا على الأقل يصعب عليه أن يصدق ، فيطرق رأسه خجلاً من نفسه ، يخشى أن يكون قد صار لايساوي اللقمة التي يأكلها ، مادام الشيخ علم نفسه قد قاتل ، وهو مازال يحتضن فطوم .

سرعان ماغادر الخيالة بعد ذلك ، وقد تبين أن أحد الخيالة الصريعين فرنسي ، والآخر تابع سوري . كما تناقل الناس أن البدو قد ساعدوا الشيخ علم ، ولعلهم لحقوا بالخيالة متخفين ، ولولا الشيخوخة ، أو الحرص على النجاة ، لأتى كمينه أو الكمين البدوي الذي اندس فيه على الخيالة جميعاً . وفي اليوم الثالث عاد الخيالة ، فهدموا قبتي الشيخ ، وجروا زوجته العجوز من شعرها المكشوف ، وخلفها بناتها يندبن ويستجرن ، ثم انصرفوا يجرون خلف خيولهم اثنين من أبناء الشيخ اليافعين ، أما ولداه الآخران ، فكانا قد اختفيا قبل يوم أو يومين .

آوى أبو عاطف العجوز وبناتها وولديها ، غير آبه بتحذير المختار ، ولا صاحب الأرض ، ولكن العجوز لم تتمّ يومها الثاني ، وهي تدور بين القباب مقرعة الأعمام والأخوال ، معيرة بالغريب اسماعيل معلا وبالبدو ، ثم تهوي ميتة .

خرج الجميع في جنازة العجوز . حتى المختار لم يتخلف . وقد أثار اقتراح أبي عاطف بدفنها إلى جوار ابنها الشهيد حماسة الشبان وعويل النساء . واثر الدفن اصطحب الأعمام الولدين، والأخوال البنات ، وانفضّ الآخرون رويداً قبل المغيب ، إلا أبو عاطف الذي لم يستطع أن يغادر القبرين ، حتى جاءت فاطمة تحمل فطوم ، وهما تنهنهان .

تناول الطفلة يمسح دموعها ومخاطها ، فيما تهدج صوت فاطمة :

ـ خلنا نرحل يا اسماعيل . اليوم قبل الغد . لم نر الخير هنا . لاتخف علي . أستطيع أن أمشي النهار بطوله ، والليل أيضاً . قم يا عيني بالله عليك .

أعاد إليها الطفلة التي هدأت ، ونهض يتقدمها صامتاً ، يكبت امتنانه على أنها تجهر بما لايستطيع ، أو أنها باتت ترى في هذه الأيام أفضل مما يرى . وقبل طلوع الشمس كان كل شيء معداً : ثلاث صرر كبيرة محزومة على الحمار ، وزوادة صغيرة .

★★★

فاطمة هي التي زينت له أن يأخذ الحمار عنوة . فما دام سيترك كل شيء لصاحب الأرض ، فالحمار من حقه . وما داما راحلين ، فلن يستطيع أن يؤذيهما ، وإن فعل ، فأبو عاطف أقدر .

وفاطمة هي التي زينت له أن يعودا إلى الزيارة ، على الرغم من الأيمان التي لم تنسها ولم ينسهابألا يعود إليها أبداً ، حتى في النعش .

قبل أن يغفوا متأخرين همست له :

ـ الله رحيم ، والله غفور . تذكر كلام الشيخ علم ؟ والزيارة يا اسماعيل ملجأ حصين .

همس كأنما يناجي نفسه :

ـ يجوز البدو ثاروا هناك أيضاً ، ووصلت فرنسا إليهم .

ـ تبقى الزيارة حصينة . وصلت فرنسا ، وصل شياطينها ، ما وصل أحد ، لايهم .

ـ على رأيك .

قال مديراً ظهره ، وأخلد لنوم عميق . ولعله ظل كذلك ، على الرغم من إيقاظها له قبل طلوع الشمس ، وسيره أمام الحمار الذي حملها وفطوم فوق الصرر ، حتى إذا وصل الزيارة رفرف جفناه ، كأنه يصحو الآن فقط .

كانت الزيارة ثائرة حقاً ، ولكن ليس ضد فرنسا ، بل ضد الخواجة اللبناني الذي اشترى أرضها من الثري الحلبي ، وأرسل وكيله يرغي ويزبد ، قبل أن يتابع طريقه إلى حلب ، مخلفاً الانتظار الممض المقلق وراءه .

ماكانت الزيارة فيه زاد في مشقة عثور أبي عاطف على عمل عند أحدهم ، على الرغم من أن لقاء الكثيرين له جاء أرحب مما أمل . ربما كان أي من أصحاب البيادر الكبيرة سيهلل لأية يد جديدة ، لولا انتظار عودة الوكيل ، فضلاً عن أن الناس جميعاً قد حزموا أمرهم ، ولن يسلموا إلا ما تعودوا أن يسلموه للمالك الحلبي من قبل ، حتى لو عاد وكيل الخواجة بالفرنسيين ، كما أوعد .

نسي أبو عاطف ماكان يملأ يومه من صياح أو شتم أو وعيد أو شجار مع الكثيرين ، قبل أن يغادر الزيارة . ولما مازحه بعضهم ، أو سخروا منه :

ـ غبت وغبت ، ورجعت لنا بحمار مقصوص الذنب ؟ هذا ماقدرت عليه يااسماعيل معلّا ؟!

عفّ ، فقد كان يشغله ماهو أهم حتى من عثوره على عمل ، ونومه مع زوجته وابنته وحماره في العراء ، ليلة بعد ليلة . كان لسانه لايهدأ ، يحرض الناس على أن يقاوموا الخواجة ووكيله والمالك الذي باعهم وفرنسا التي ستأتي مناصرة ، ومدمّرة . وكانت فاطمة تهمس له قبل أن يغفوا متأخرين :

ـ لاتتعجل يااسماعيل . انتظر حتى يعود هذا الوكيل ونرى . لاتنس أنه وحده يستطيع أن يأمر لنا بقطعة أرض ، وإذا لم يفعل رجعنا كما كنا قبل سنتين ، نعمل عند فلان أو علان ، هذا إذا قبل واحد منهم أنْ يشغلنا ، والزيارة كما ترى .

لكن اسماعيل ازورّ ، بل إنه ضاعف لغطه ، حين دعاه شقيق المختار إلى العمل عنده ، وكان البغل قد رفس زوجة الرجل الحامل ، فأجهضها .

عشية ذلك اليوم وصل الوكيل ، وتسابق الرجال إلى مجلسه في بيت المختار . أما أبو عاطف فقد تأخر في الدخول ، ريثما سقى حصان الوكيل ، وهيأ له العلف ، وذبح الدجاجتين اللتين أشار بهما المختار ، ثم توجه إلى الغرفة الطينية الفسيحة ، يداري وعيده .

قبل أن يلقي السلام تملى من الوكيل ، وعين المختار تزجره ، وربما كانت عيون أخرى تفعل ، فإذا به يهتف :

ـ فياض ؟ فياض العقدة ؟

وقف المختار ممتعضاً يصيح في وجهه :

ـ مابك يااسماعيل معلا ؟

لكن فياض كان قد نهض صاخباً ومعانقاً ، ثم مفسحاً لصديقه الذي شاخ . فتصدر أبو عاطف المجلس ، بين فياض والمختار ، وهو ينكر أن يكون ذلك الفتى الغض قد آل إلى هذا الرجل الضخم المهيب ، وكانت الدهشة ترين على الجميع .

انطلق لسان فياض معتدّاً ، يرمي المختار خاصة بأشتات حياته ، قبل الحرب وبعدها ، ملتفتاً إلى أبي عاطف كل حين ، يسأل عما جاء به إلى الزيارة ، لايمهل له حتى في السماع ، وأبو عاطف يلهث خلفه ، يلجم التوق إلى أن يعرف ماحل بعزيز اللباد بعد ذلك اللقاء العابر به وبفياض نفسه في الخان ، وحماه تضطرم ضد الحكومة ، أو يحن إلى ياسين الحلو وراغب الناصح وحمادي الحسون والملازم تحسين شداد ، يهم أن يقاطع صاحبه ليصحح له مايروي خطأً من ذكرياتهما ، يوشك أن ينهره كما كان يفعل في ليالي الصحراء البعيدة :

ـ برضاي عليك يابني قم اسقني .

إلا أن فياض كان يباغته بخبطة على فخذه مستشهداً ، ويضحك مسترسلاً غير آبه ، فيطرق أبو عاطف متعللاً بخلوة وشيكة سوف تكون له مع فياض ، وحدهما ، دون أم عاطف نفسها .

كانت شفاه المستمعين وصدورهم تسترخي سعيدة به ، تعول على لقائه العجيب بالوكيل الذي خضَّ حياتهم في الأيام الفائتة ، تداري ماغزل اللقاء من أمل في فضاء الغرفة العابق بالدخان ، تتمنى أن يعود الوكيل من ذكرياته ليدحض ماتبقى من وجلهم .

شقيق المختار كان يشمخ كلما التقت عيناه بعيني أبي عاطف ، يرميه بغمزة أو ابتسامة ، ثم يتلفت حوله مزهواً ، فهو وحده من شغّله هذا اليوم ، وتلك وحدها بشارة طيبة ، لابد للوكيل أن يقدرها ، مهما كان أمره مع الآخرين .

أعلن المختار بعد لأي ، متفاخراً ، أن العشاء جاهز ، فدعا فياض بصوت أجفل أبا عاطف :

ـ أسرعوا إذن . جوعتموني .

نهض شقيق المختار وعدد من الرجال ، وهم أبو عاطف أن يلحق بهم ، فضغط المختار على كتفه :

ـ إلى أين ؟ عيب . لاتتحرك . خل غيرك يخدم اليوم . كرمى لعين يكرم مرج عيون .

تبسم ممتناً ، واسترق من فياض نظرة ، وهو يلوم نفسه على ماكانت تنوي ، فليس له ولا عليه حقاً أن يشارك الآخرين في خدمة هذا الوكيل . ولعله الآن في عيونهم جميعاً مثل فياض نفسه .

عجت الطاولة بالصحون النحاسية الصغيرة وأرغفة الخبز والملاعق ، والمختار يدعوه بعد فياض ، ثم يدعو الآخرين ، فتتدافع أيمانهم تؤكد أنهم قد تعشوا قبل أن يحضروا ، وكان فيهم من يبلع ريقه ، ويتلصص على الآكلين ، يود لو يقبض على رائحة الدجاج ويعضها عضاً .

فرغ أبو عاطف من الطعام سريعاً ، فصاح به فياض :

ـ أكل العصافير صار أكلك ؟ كم لقمة بالله عليك ؟ استحيت ؟ أين أبو عاطف الذي كان لايشبع أيام الحرب ، يأكل مثل الجمل والطعام ياحسرة قليل !

اثر الطعام حضرت الملّيسة ، فملأ أبو عاطف صدره منها ، وصلى على النبي وهو يرتشف ، فرمقه فياض ثم تنحنح مرة بعد مرة ، حتى صمتوا جميعاً ، فقال :

ـ إلى أين وصلنا ؟

فرك المختار كفيه والتفت إلى أبي عاطف :

ـ قل انت ياإسماعيل . قل له إلى أين وصلنا .

تساءل فياض هازئاً :

ـ ماشأنه بهذا ؟

همهم الآخرون فيما المختار يؤكد :

ـ أبو عاطف واحد منا .

علت الهمهمات ، فزجرها فياض :

ـ أمس ماكان بيننا .

قال شقيق المختار :

ـ كان قبله ، من سنتين عاش بيننا ، واليوم عاد . احك ياإسماعيل .

ـ عليه ماعليكم إذن . أنا أبدأ يامختار بأقرب الناس إلى قلبي . من ساواك بنفسه ماظلمك . كم كانت مساحة الأرض التي استلمت ياأخي ؟ وكم موسماً جنيت منها ؟

قال فياض وهو يتلفت بين المختار وأبي عاطف والآخرين .

ـ أبو عاطف ماأستلم من الحلبي . كما شغلته عندي اليوم شغّله غيري عنده موسماً أو موسمين . احك يااسماعيل . احك كلمتين .

قال شقيق المختار ، فهز أبو عاطف رأسه مؤمناً ، ثم هم بالكلام لولا أن عجّل فيّاض :

ـ اتركونا منه إذن . هه يامختار ؟

تكور أبو عاطف يداري خجله واستياءه من لهجة فياض . ووضع المختار فنجان المليسة ، وجاء صوته حائراً :

ـ سمعت الجميع المرة الماضية ، وفي الإعادة إفادة . الخواجة ثابت اشترى أرض الزيار من الحلبي بعد الحرب ، بعد دخول فرنسا . . المهم ، أهلاً وسهلاً بمن باع وبمن اشترى . الزيارة مارأت منذ قامت الحرب ، لا الحلبي ، ولا الخواجة . أنت أول من شرفنا ، وأنت أدرى بسنين الحرب ، وشفت حالنا اليوم . وبعد هذا تطلب منا حصة الحلبي عن سنين وحصة الخواجة عن سنين . بعد هذا اليوم حصة الخواجة بالحفظ والصّون . حصة الحلبي راحت معه ، وعفا الله عما مضى . نحن أولاد اليوم . هذه واحدة . والثانية : كيف تترك لنا الخمس بدل الربع ؟ تصرفنا بالمواسم هذه المدة كلها ، هذا صحيح ، ولكن الناس تسأل عن ذنبها ، إذا كان الخواجة لم يرسل أحداً قبلك ؟ لو شرفتنا سنة بسنة ماقلنا لا . هذه الثانية ، والثالثة : جئت تطلب حق الخواجة والحلبي دفعة واحدة هذا العام . معقول هذا الكلام ؟ من أين ؟ من الخمس الذي سيبقى ؟ لو بعنا ما فوقنا وما تحتنا ما وفينا بالمطلوب الذي تقول . هذا ماعندي وعند غيري ، والقول قولك ، والأمر أمرك ، والرحمة نرجوها من الله ومن عبد الله . أبو عاطف ماسمعت هذا الكلام من يوم وصلت ؟ ماقلت أنت نفسك ؟ هذا فوق طاقة البشر ، وخل فرنسا نفسها تشرف .

تعالت الأصوات تحث أبا عاطف على الكلام ، وفياض يحدق مستنكراً ، ثم يقول :

ـ مطرح ماخري شنقوه . هذا الكلام لايفيد . الحق علي . كان الواجب أن تحضر الخيالة معي وأتركها تتصرف ، وحينها نرى . قلت يافياض : الرحمة أولى ، كما قلت أنت يامختار ، لكن يظهر أن الرحمة تولد الطمع .

جمع أبو عاطف أطرافه ، وقاطع فياض بصوت متلجلج :

ـ صلّ على النبي ياأخي . صلّوا عليه ياجماعه .

ضاعت كلماته الأولى في همهمة الفلاحين التي طالت قبل أن ينفرد صوته واثقاً وعالياً :

ـ فياض واحد منكم. فياض ليس غريباً. فلاح ابن فلاح، ووالده كان من خيرة الرجال رحمه الله . دوخ الأتراك والأغوات ، وفياض من ظهر والده . اتركوا هذا الموضوع الآن ، وغداً إن شاء الله لايكون إلا مايرضيكم ويرضي أخي . اتركوا ذلك عليّ . اترك ذلك عليّ يافياض .

تعالى اللغط يثني على ابن الحلال والجوهرة التي نطق بها ، فيما فياض يهمس في أذن صديقه :

ـ إذا كنت غير قادر على هذا الحمل فلا تتدخل .

ـ أنا أخوك يافياض . ولو !

همس أبو عاطف باعتداد ، فأعلن فياض :

ـ اتركونا الآن وحدنا . الطريق كانت متعبة وقد يطول بنا الكلام .

هبوا مستبشرين مودعين ، سوى المختار وشقيقه الذي تباطأ ، وعيناه تلاحقان أبا عاطف الذي أخذ يتهامس مع فياض ، وقد أشرق وجهه . حث المختار أخاه على الخروج ، فالتفت فياض فجأة إليه وسأل ضاحكاً :

ـ هل تنوي أن تبقى معنا ؟ أحضر الفراش وعجل إلى حضن زوجتك .

اضطرب المختار ، فتقدم شقيقه يسأل أبا عاطف :

ـ هل تنام هنا أنت أيضاً ؟

ـ أين ينام إذن ؟ خل حضن زوجته يبرد اليوم .

قال فياض وهو ينهض ، وأردف :

ـ أين تبول الناس هنا يامختار ؟

★★★

حمل المختار بنفسه الفراشين الصوفيين الرقيقين ، ولبث في الباب يهمس :

ـ صاحبك صعب يااسماعيل . إذا لم تحل المشكلة فلا حل لها . إذا نجحت ، قل : أبواب السماء انفتحت لك . شد حيلك .

وما إن سمع وقع أقدام فياض حتى اختفى .

أطبق أبو عاطف الباب فيما كان فياض يتمطى قائلا :
ـ مسكين ! لو أنه مختار حقاً لما كان كلب منهم يجرؤ على أن يفتح فمه . الحلبي بنفسه قال لي ذلك . بيني وبينك : لو فرنسا بالها هادىء الآن لما رجعت بلا الخيالة ، لكن الأمر يحتاج إلى وقت ، وغيبتي طالت . إن شاء الله لأذهب غداً حتى تكون مختاراً على الزيارة . لاتزعل . وأنا أبول فكرت في ذلك ، وهذا هو الحل . لماذا يكون هو المختار وليس أبو عاطف ؟ ماحاجتي إليه وأنت هنا ؟ الزيارة متعبة ، وأنت تعرفها أكثر مني . الحلبي قال إنها متعبة ، تراها كذلك ؟ هل تستطيع أن تمسكها بيدك هكذا ؟ أرني شطارتك . ماذا تريد أن تقول لي ؟ هاقد صرنا وحدنا .

قال أبو عاطف متمهلاً ومدارياً :
ـ شوشتني ياأخي . عندي الكثير لأقوله لك ، ليس عن الزيارة وحدها . أبو عاطف مختار ؟ عجيب . مافكرت يافياض : أنا هنا غريب ، بلا عزوة ، لاعشيرة ولا عائلة ولا . . . هذا الثوب ليس ثوبي . المختار مسكين . كلنا مساكين . هو أدرى مني ومن غيري بالزيارة . لماذا لم يرسل الخواجة أحداً منذ اشترى ؟
ـ فكر يااسماعيل واحسبها معي . ماكان اليوم ، يكون بكره . وإذا طأطؤوا رؤوسهم نؤجل الموضوع ، ولكن هذه المخترة لك . أنت ترتاح وأنا أرتاح والخواجة يرتاح .
ـ ماجاوبتني عن الخواجة ؟
ـ أرسل ، لم يرسل ،ماالفرق ؟ ماله أمانة عندهم ولو غاب عشرين سنة . مال الحلبي أمانة أيضاً ، والخواجة اشترى الزيارة ، ومالم يحصله الحلبي منها .
ـ الجماعة ماأنكروا الأمانة يافياض . في غيبتك حكوا قدامي . لعنة الله على الفقر . معهم حق أن يفكروا بالتخلص من حصة الحلبي عن سنين الحرب . نسيت يافياض كيف كنا وكيف كانت الدنيا ؟ من كان يشبع الأكل ؟ أم فياض في المشرقة ؟ الآن الأمر كله بيدك . إذا كان واحدنا لايرحم أهله فمن سيرحمهم ؟ هؤلاء أهلي وأهلك يافياض . ماالفرق بين المشرقة والزيارة وكفر لالا ؟ ظني أنك تقدر أن تنسى حصة الحلبي أو تدبرها .
ـ وظنك أني أقدر أنسى حصة الخواجة أو أدبرها ؟ هل تستخف بعقلي ياأخي ؟ ضحكوا عليك ووعدوك بقرشين حتى تبلفني ؟ هذا كلام أولاد .

انكمش أبو عاطف وقد عاد إليه صوت فياض الذي ملأ السهرة . خيل إليه أن عيون الفلاحين تتعلق به من خلف الجدران ، وصوت المختار يفح في أذنه . ودّ لو أن

بوسعه أن يردع فياض عن أي خطأ ، مثلما كانا في الجيش الميمم إلى الشمال . لو أمكن لهزّ فياض من كتفيه ورماه أرضاً ، ولكن فياض الآن رجل ، لافتى ، ووكيل ، لا عسكري ، ولا فلاح ، ولذا يتلعثم لسان أبي عاطف :

ـ سامحك الله يافياض . أمام الجماعة خيبتني ، بل هزأت مني ، وأنا أكبر منك بعشرين سنة . . نسيت ؟ تبقى على كل حال مثل أخي الصغير . حتى عزيز اللباد كان يراك مثل أخيه الصغير . نسيت ؟ كيف يخطر على بالك أنهم برطلوني حتى أبلفك ؟ قل لي إنك كنت تمزح وأنا أصدقك . ما نطق مخلوق باسمك أمامي حتى دخلت هذا البيت . البركة فيك . ماتجرأ واحد منهم أن يقول غير : الوكيل ، حتى في السهرة . رميت الرعب في قلوبهم . فكر يافياض . عدني ياأخي حتى أستطيع أن أنظر في وجوههم غداً . عدني أن تكون أرحم بهم مما يأملون . أنت قلبك أبيض كالحليب . أنا أعرفك . كنت تغلط وتطوح يميناً وشمالاً ثم تعود مثل الطفل البريء . ماذا سيقدم أو يؤخر معك أو مع الخواجة لو خففت الحمل عليهم ، ووزعته على كم سنة ؟

اضطجع فياض في الفراش وقال :

ـ خلصنا ؟ أنت صاحبي ، وأعز من أخ ، أبو عاطف على العين والرأس . اسأل قلبك . ولكن هذا شيء وماتطلبه مني شيء . اتركنا من كلام الأولاد ومن لعبهم . أنا وقت الجد جد . لو كان الأمر يضرّك كنا قلنا فيها ومافيها . احمد الله على أنك اشتغلت عند واحد منهم ، ولم تأخذ الأرض من الحلبي . وحياة عينك ياأخي لو كان عندك شبر أرض ماسمحت لك بحبة عدس . إن شاء الله أدبر لك قطعة كبيرة وخصبة ، وأرني همتك . إياك أن تكون صرت مثلهم . فياض لاأحد يلعب على ذقنه .

تمتم أبو عاطف منكراً :

ـ هذا فياض العقدة يااسماعيل معلا ؟

استلقى فياض وهو يقهقه :

ـ هذا خياله .

ـ ولا خياله .

قال أبو عاطف حانقاً .

ـ لاتحنق ياأخي . قلت لك ضع يدك في يدي ونم هانىء البال .

ـ من يبرطلني ؟ فياض العقدة أم الزيارة ؟

ـ أعوذ بالله . أبو عاطف ؟ انتهينا . قم اطفىء الفانوس وخلنا ننم .

ـ ألا تريد أن العب لك ببيضاتك ؟
ـ أبو عاطف : مابك ؟ لاتغلط معي كرمى الله . اخز الشيطان واطفىء الفانوس
ـ أنت من يغلط مع نفسه ومع الناس يا فياض .
ـ تعال علمني . علمني شغلي . علمني واضربني خيزرانة فوقها .

قال فياض وقد جثا على ركبتيه فجأة فارتد أبو عاطف وقد غامت عيناه :
ـ إذا ركبت رأسك سأفعل يافياض . الزيارة كلها تضربك . خذها نصيحة مني .
صاح فياض :
ـ اتفقتم على ضربي أيضاً ؟ اليد التي ترتفع على فياض العقدة تنقطع ، ولو كانت يد اسماعيل معلا . الحق علي . لو انتظرت يومين وجئت بالخيالة كنت رأيت البطل فيكم .
ـ حتى الكلب لايعض صاحبه يافياض .
ـ يعني أنا أقل من الكلب ؟ طيب . كرمى لك لن أفتح فمي غداً بكلمة . فياض سيخرس حتى تحضر الخيالة . أرني ماذا ستنفعهم . مارأيك أن أقول لهم إنك أنت من تسبب لهم بالبلاء ؟ كرمى للخبز والملح قبلت أن تجلس الى جانبي ، وتأكل على طاولتي . كرمى للعشرة قبلت أن تبيت معي ، وهذا جزائي ؟
ـ من منا ناكر الخبز والملح ؟ من منا ناكر العشرة ياناكر أصلك وفصلك ؟ صدقت أنك وكيل ؟ تستقوي علينا بالخيالة ؟ نسيت كيف وقف أبوك وعمك بوجه أمثالك ومن كانوا يستقوون بهم ؟

كان أبو عاطف يصرخ وهو ينتعل حذاءه ويندفع خارجاً ، يكاد يختنق بأنفاسه التي تلاحقت ، كأنه كان يجري منذ المساء . وكانت فاطمة لاتزال سهرى قرب فطوم ، على سطح بيت شقيق المختار . وفي ضوء القمر الشاحب الموشك على الغياب ، رأته يدور حول البيدر ، ثم حول البيت ، قبل أن يصعد إليها وهو يبربر .
ـ مابك يااسماعيل ؟ ماذا جرى ؟

همست تسأل مدارية خوفها ، فلا بد أن مصيبة قد حلت ، وهو يلوح بكفيه في وجهها كالأبله ، يعجزه أن يبوح إليها بما يكويه ، فمن يصدق أن فياض العقدة هو هذا الوكيل الذي كان يتمدد إلى جانبه منذ قليل ؟ فياض العقدة يتطاول على اسماعيل معلا ويرمي الزيارة بما لم يرم به ، لا ابن البزار ، ولا ابن حكره ، كفر لالا ، ولا كفر حبوس ؟ كم سنة انقضت على ذلك العسكري الذي يستدر الشفقة من الصخر ؟ مثل ابن لهم كانوا يحنون عليه ، فكيف ينقلب ابن آدم هكذا ؟ كيف تدور الدنيا هكذا ؟

الفقير ابن الفقير يحلل لنفسه أو لأي إنسان لقمة الفقراء ؟ المظلوم ابن المظلوم يصبح أمرّ وأدهى على المظلومين ، من أي ظالم ؟ وماذا يفعل اسماعيل معلا الآن ؟

كان قد أقعى بجوارها ينشج ويسأل :

ـ قلتِ الزيارة يافاطمة ، قلت توكلنا على الله . هربنا من النار هناك لحقتنا نار ألأم . هل أدور على البيوت الغافية التي تنتظر بشارتي في الصباح ، وأقول للناس : فياض العقدة لايعرفني ولا أعرفه ، لاهو صاحبي ولا أنا صاحبه ؟ هذا العصر كنت أحرضهم على الوكيل وفي الصباح أحرضهم على من يافاطمة ؟ هل أقول لهم هذا عدوي وعدوكم ؟ هل يسيرون معي حتى أطرده طرد الكلاب ؟ وإذا فعلنا ، وبعد يوم أو عشرة جاءت فرنسا ، فماذا يعمل اسماعيل معلا ؟ الزيارة حتى خنجر ما بقي فيها . غير العصي ماذا في الزيارة يافاطمة ؟ وأنت التي ما قطعت الطريق إلا بألف ويل ، تقدرين أن تمشي من هنا قبل مايهون الله عليك وتضعين حملك ؟

همسه المدمى كان يزيد القمر شحوباً ، يدفعه إلى الغياب ، ويلف فاطمة بالظلام . ولعل دموعها قد زادته بلبلةً وقهراً ، حتى إذا سكت فسكتت ، تمدد بعيداً عنها ، دون أن يخلع حذاءه ، يدقق في كبد السماء السوداء . ولعل جفنيه لم يرفّا حتى أخذت السماء تزرق ، فتلفت حوله ، وإذا بفاطمة متكورة حول فطوم .

نهض متثاقلاً يوحد الله . تمطى ودعك جفنيه . تململت فاطمة ونهق الحمار قرب البيدر ، وصاح عدد من الديكة معاً . حيته ووحدت الله وعيناه تدوران فوق أشيائهما الصغيرة المتناثرة على السطح ، ثم تنسحبان نحو البيدر . كانت قد وقفت خلفه وهو غافل ، وهمست :

ـ هدأت والحمد لله يااسماعيل ؟ خلنا نتوكل على الله .

التفت إليها مرهقاً ، وعيناها تفيضان حناناً . تمشى نحو فطوم ، وقرفص يتملاها ، فندت عنها شهقة خافتة . وقف ورآها تميل بظهرها إلى الخلف وتجمع كفيها فوق بطنها . أسرع إليها :

ـ مابك يافاطمة ؟

ـ ابنك يرغط .

ـ استريحي في الفراش . ماعليك .

ـ ماعليك أنت . ماذا قلت ؟ أجمع الصرر ؟ هذه المرة بلا زوادة يااسماعيل .

ـ لن تقوي يافاطمة .

ـ قم إذن حضّر الحمار . خلنا نمش قبل أن تفيق الزيارة .

انفرجت شفتاه ، وأمسك بكفيها ، يود لو يضمّها ، لكن فطوم نادتها ، والحمار نهق من جديد .

★★★

انسل السرب الصغير متخفياً . هو يستحث الحمار ، والحمار يمشي الهوينى ، غير آبه بوخزات قضيب الرمان ، ولا بفاطمة التي تلكز بطنه بقدميها . وكانت فطوم ترخي رأسها على كتف أبيها ، ترسل أنفاسها الدافئة فوق عنقه ، فتندفع يمينه لتطويق ظهرها ، لكن قضيب الرمان يرخي ذراعه ، فيخز الحمار اقوى ، ويتوعده .

ما إن تراجعت الزيارة حتى ناول فاطمة قضيب الرمان ، وتقدم الحمار ، يشد على فطوم التي أغفت ، يدعو الله ألا يجعل فاطمة تلد قبل أن يصلوا إلى كفر عيد ، يختلس النظر من جانبي الطريق ، يطمئن إلى أنه قد نجا من العيون ، ويقلقه أنه لن ينجو من الألسن التي سوف تكتشف هربه عما قليل ، فتصمه بكل مايطلع عليها ، خاصة أن فياض الآن يصول ويجول وحيداً ، وقد يجعل لاختفائه ألف سبب تدينه جميعاً ، تجعل الزيارة تنكره وتلعنه ، ولعله يموت قبل أن يبرىء نفسه أمامها ، ويفضح لها فياض العقدة .

كان ما يضطرم في سريرته يغذ خطاه ، والشمس تعلو ، وفطوم تفرك وجهها في كتفه ، وعلى عنقه ، تطالب بالطعام ، وليس في الأفق بيت ولاخيمة . كما أن حلقه أخذ يجف ، والحمار ينهق ، فقد جاع هو الآخر ، ولعل حلقه قد جف أيضاً . أما فاطمة فقد غرقت في الصمت ، ولم يكن هو ليجرؤ على أن يلتفت إليها ، خوفاً من أن تكون جائعة أو عطشى أيضاً ، أو أنها تمسك بطنها بكفيها وتشهق .

كفّت فاطمة عن حث الحمار الذي صار يجهد ليلحق بأبي عاطف ، وطفقت تطلع في سائر الأنحاء ، تخشى أن يكونوا قد تاهوا ، تحمد للجنين أنه هادىء ، تتفقده كفها كل حين ، فتمسّد رقيقةً فوق البطن ، تتحاشى أن تنظر إلى فطوم التي تضرب كتف أبيها براحتيها ، وهي تزيح الشملة عن رأسه ، تصرخ وتبكي .

إلى اليمين راح الحمار يجنح مرة بعد أخرى ، وفاطمة تلوي عنقه ، فيستجيب على مضض ، قبل أن يباغتها بالاندفاع بعيداً ، يكاد يرميها عن ظهره ، غير آبه بقضيب

الرمان ولا بصياحها ولا بأبي عاطف الذي ركض نحوه ، وعجز عن أن يلحق به قبل أن تهتف فاطمة :

ـ انظر إلى أين يطير . . انظر يااسماعيل .

على رأس التلة العارية ، بعيداً ، لاحت خيمة كبيرة وحولها مجموعة من الخيام الأصغر ، ولم يكن قادراً على أن يحدق ولايحدد ، إلا أنه كان يمتلىء بالعرفان للحمار الذي أخذ ينهق ويتباطأ .

في السفح كان عدد من الأطفال والحمير والأغنام حول نبع ناحل وعدد من الشجيرات المؤبرة العارية . علا نهيق الحمار فيما أبو عاطف يعين فاطمة على النزول . اندفع الحمار نحو الحفرة الصغيرة التي يتجمع فيها الماء ، وبعد أنه ارتوى ، تقدم نحو حمارة صغيرة رقطاء ، وراح يمسح جبهته المعروقة في عنقها . أبعده أكبر الأطفال . وأبو عاطف يضحك ويسأل الطفل عن الخيام . سأله الطفل بعداء عمّن يكون . نادى على الأطفال صوت امرأة من على التلة ، فطمأنها صوت أبي عاطف ، ولوحت لها فاطمة . عاند الحمار في متابعة السير إلى الخيام ، حيث تجمع عدد من النساء . سأل أبو عاطف عن الرجال ، فتعالت أصوات النساء تسأل بعداء عمن يكون . تحرك الجنين فجأة بعنف ، فارتد ظهر فاطمة واجتمع كفاها في أسفل بطنها . ظهرت من خلف الخيمة الأخيرة كهلة تؤرجح بندقيتها ، وتدعو الأخريات إلى إعانة الحامل . عاد أبو عاطف يسأل عن الرجال وعينه على البندقية ، فقالت الكهلة بصوت أجشّ :

ـ اسأل الفرنسيين . ياحسرتي ! من يعرف أين الرجال ؟ هل يلاحقكم الفرنسيون أنتم أيضاً ؟

ذهب سؤالها بفضوله وجوعه وجعله يطأطىء ، يترك لفاطمة أن تحدثها عمن يلاحقهم من مكان إلى مكان ، وهي تتوجع . اليوم فياض العقدة يلاحق ، وأمس سواه . اليوم الفرنسيون ، وأمس الأتراك ، واليوم كالأمس : النحس يلاحق ، الفقر والجوع ، الخوف والظلم ، ومن يوم ماخلق الله الدنيا وهي تلاحقهم .

كلماتها النزرة المتقطعة كانت تتردد في صدره سهاماً حادة لاتخطىء ولاتنتزع ، وهي التي جعلته يجرؤ على أن يطلب زوادة ، وقربة ماء ، ويرجو فاطمة أن تنهض ، مشيحاً عن تحذير الكهلة من أن هذه الحامل ستضع الليلة . ولما ساق الحمار نحو السفح ، قالت الكهلة :

ـ احذروا الفرنسيين . لاأحد يفلت من يدهم . الرجال يقولون إنهم يكثرون في هذه الجهة .

تساءل في سره عما إذا كان لن يجد الفرنسيين بانتظاره في كفر عيد ، فيما أردفت الكهلة :

ـ خلفنا أسلم . إلى أين أنتم راحلون ؟

ـ إلى كفر عيد .

أجابت فاطمة .

ـ أين تقع هذه ؟ لم أسمع بها من قبل .

أوقف أبو عاطف الحمار ، وتابعت الكهلة :

ـ ليست هناك . ارجعوا خلفنا . تلك الجهة أعرفها مثل راحة كفي ، وليس فيها كفر عيد . ربما كانت خلفنا .

أرجف الحمار أذنيه ، وأبو عاطف يمعن فيه ، يخشى أن يكون قد ضلّ لولاه . ألوت إشارة قضيب الرمان عنق الحمار ، وتقدم أبو عاطف في الاتجاه المعاكس ، يلهج بالشكر للكهلة التي كانت تمسك بالبندقية من وسطها ، وكانت فطوم تغني .

بعيد التلة تكاثرت الشجيرات المؤبرة العارية ، وعلى جانبي الدرب الحائل راحت تتناثر بين مسافة وأخرى بعض البيوت وبعض الخيام .

سألت فاطمة كل من صادفوا عن كفر عيد ، إلا أن أحداً قبيل العصر لم يؤكد لهم أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح .

ضاعف انكسار حدة الشمس ، وظهور الأشجار المورقة ، من نشاطهم ، إلا أن البيوت والخيام أخذت تندر وتتنائى ، حتى اختفت قبيل المغيب . تابعوا السير في ضوء القمر الشاحب ، يأملون أن يلمحوا بصيصاً في أي من الجهات الأربع ، مهما بعد . تطاولت الدرب وبدأت الوحشة تغطي ما لازال فيها ظاهراً ، وأصوات الحشرات تملأ الفضاء . أفسح أبو عاطف للحمار كي يتقدمه ، وهو يرجو ألّا يكون قد ضلّ ثانية ، ثم عاد فتقدمه ، وهو يخشى أن يباغت الحمار أي من وحوش هذه البراري . أخرست فاطمة هواجسها ، وأغفت فطوم على كتف أبيها . انتفض الجنين أعنف مما فعل ، منذ بدأ يتحرك في رحم فاطمة . حاول الكفان أن يهدئاه ، فملص منهما ، وانتفض ثانية وثالثة ، وراح يتقلب في أرجاء الرحم المضنى . أوقفت الحمار ، فاستدار إليها أبو عاطف ، وإذا بها توشك أن تهوي . أسرع يسندها ، فرجته أن ينزلها عن الحمار . لم يجرؤ على أن

يعترض أو يسأل ، ولا على أن يتبعها وهي تتمدد على حافة الدرب . وضع فطوم برفق قربها وقرفص . كان الجنين يرفس عنق الرحم ويجعل فخذيها ينفرجان . أطلق الوجع في ظهرها وخاصرتيها الأنين المكتوم ، وغرز أصابعها في التراب .

ـ رحمتك يارب .

راحت تردد مؤكدة لأبي عاطف أنها الولادة ، فوقف يدور حول نفسه ثم يصيح :

ـ ياسامعين الصوت .

صرخت تطلب إليه أن يكفّ ، ثم صرخت تعلمه ماينبغي عليه أن يفعل . أعانها في نزع السروال الطويل ، وأفرد الصرة الكبرى ، وفرشها تحت فاطمة . أفاقت فطوم هلعة واقتربت منها تبكي . ناول فاطمة شملته ، فخشتْ طرف الشملة في فمها وأخذت تعض وتتلوى . جثا بين فخذيها لايجرؤ على أن يفتح جفنيه ، ولا على أن يمد يديه ، وهي تئن ، ترفع الشملة من فمها ، تصرخ وتستجير ، تعلمه ثم تعض الشملة ، فيما انطلق صراخ آخر ، غير صراخ فطوم ، فارتد أبو عاطف فزعاً ، تاركاً يديه تذهبان إلى الطفل ، تشدانه برفق ، تكادان أن تنزلقا عنه ، وكان جفناه قد انفرجا ببله ، يغالبان ظل رأسه وضوء القمر ، وكان صوت فاطمة يستحثه على أن يأتي بحجر دقيق ليقطع المشيمة .

★★★

ليلة أخرى أعجزه النوم فيها . إنه يتمدد إلى جوارهم ، على الطريق ، دون أن يخلع حذاءه أيضاً ، يحدق في كبد السماء السوداء ، وفي صدره تتردد أنفاسهم : الحمار إلى يساره ، وفطوم إلى يمينه ، وإلى يمينها فاطمة وعاطف

لن تقوى فاطمة على السير غداً . وقد تنقضي أيام قبل أن تفعل . أما الزوادة وقربة الماء ، فإلام تكفيان ؟ قد تكون البيوت أو الخيام لاتزال بعيدة . قد يعبر بالدرب عابر سبيل ، يسلب أو يقتل أو يشحذ أو يضحك منهم ، فماذا سيفعل اسماعيل معلّاً ؟

إنه يتقرى أنفاس عاطف خاصة . يعاتبه على أنه لم ينتظر يوماً أو يومين قبل أن يولد في البراري . يتساءل عما إذا كان ولداً منحوساً حتى جاء في ليلة كهذه ، على الدرب ؟ أم أن قدومه سوف يجلو النحس الذي يلاحق أمه وأخته وأباه من مكان إلى مكان ؟

قبل أن يكمل عاطف يومه الأول ، كان وفاطمة ينظران إليه ، غير مصدقين ، يصليان على النبي . كان اسماعيل يفكر في أنه لولا عاطف الذي قضى في كفر لالا ،

وعاطف الثاني الذي قضى غربي كفريا ، لسمّى عاطفاً الثالث هذا بسعد الله ، أو شكر الله . فمع قدومه أخذت الدنيا تبسم ، وقبل أن يطلع عليه النهار الأول ، عبر بهذا المكان رهط من البدو ، وانفردت ثلاث من نسائه بفاطمة ، فأنجزن لها ولعاطف مالم يستطع ومالم يعرف هو أن ينجزه ، ولفت إحداهن حول معصم عاطف خيطاً أزرق اقتطعته مما يسور معصم ابنها الرضيع .

ألح الرجال في ذلك الرهط البدوي على أن يرافقهم وأسرته . ألحوا على أن يتركوا معه بعضاً من النساء والرجال . وقبل أن يتابعوا خلفوا له زوادة وقربة كبيرتين ، وحماراً ، وإشارات عديدة تهدي إلى كفر عيد .

قبل أن يطلع النهار الثاني على عاطف اعتلت أم عاطف الحمار البدوي ، وفي حضنها فطوم والصرر ، وعلى جانبي الحمار الكبير تدلّت الزوادة والقربة . واعتلى أبو عاطف الحمار الآخر ، وفي حضنه ابنه الباسم ، وفي المساء لاحت لهم بقايا الخرائب الرومانية في كفر عيد .

كان أبو عاطف قد عرف منذ عهده الأول في الزيارة الكثير عن كفر عيد ، مما نسيه الآن . إلا أن ما ظل حياً في ذاكرته ، يدفعه نحوها ، أن الفلاحين فيها يفلحون الأرض ويزرعونها ويربون الدواب ويتقاسمون المواسم سوية ، بقدر مايعيل كل واحد ، وبقدر مايشتغل أيضاً . تلك هي الأرض التي ينشد ، لا كفر لالا ولا كفر حبوس ، لا كفريا ولا غربي كفريا ولا الزيارة ، فهنا ، لاسوط لابن البزار ولا لابن حكره ، لا البدو الذين أعجزهم أن يصيروا فلاحين ، ولا الفلاحين الذين أعجزهم أن يظلوا بدواً . لا الشيخ منصور ولا هذا المختار أو ذاك ، ولا فياض العقدة نفسه . ولم يكن أبو عاطف لينسى أن بدو بني خالد يخيمون حول كفر عيد ، لايدعونها تهنأ . كان يسوءه في البداية أن كثيرين من أهلها غير القادرين على مواجهة أولاء البدو ، قد أخذوا يؤجرون حراساً ، إلا أن ذلك مالبث أن تلامع فرصة ذهبية له وهو يغادر الزيارة أول مرة . وهو الآن يحمد الله على أن فياض العقدة لم يستجب له ويسبقه إلى كفر عيد ، فالفاسد فاسد ، سواء أكان وكيلاً أم أجيراً ، ولو سبقه فياض إلى كفر عيد ، لأفسد فيها ، وجعل مقام هذه الأسرة البائسة عسيراً .

على الطريق غزلت له نفسه أنه سوف يشارك أحدهم عما قليل ، في الشغل والأكل ، ويجعل الجميع يعرفون كيف يدفعون أي عدوان عليهم ، دون أن يؤجروا من أجل ذلك أحداً . كانت تتناوشه بين الميل والنفور صور البدو الذين يحاربون فرنسا ،

والذين ينغصون على كفر عيد وسواها ، ويعزم على أن يجد لنفسه دوراً وسط ذلك . إلا أنه اكتشف ليلة وصوله أنه لن يكون أكثر من حارس ، يخفي البندقية التي زوده بها أول من صادفه واستجداه عملاً ، في النهار بخاصة عليه أن يخفي البندقية تحسباً لظهور الفرنسيين فجأة ، فيضبطونه بسببها ، أو يقتلونه أيضاً .

ومنذ يومه الأول في كفر عيد ، بدت له دون أن يشرح أحد ، وقد أخذت تضيق بمن فيها . وذلك الزمن الذي كان يأتي إليها فيه أبو عاطفٍ ما ، فيعمل ويأكل ، قد ولّى . الأبناء والأحفاد تكاثروا كما قالت أم عاطف نقلاً عمن خالطت في النهار من النساء . الحرب نفسها جعلت الفلاحين الباقين يغلقون الأرض دون أي وافد جديد . بل إن كثيرين منهم ، بعد أن انتهت الحرب ، أخذوا يغادرون إلى أرض الشيوخ ، قريباً من الجسر . فالشيوخ يرغبون بالقاوون ، وليس لفلاحي كفر عيد من منافس في زراعته ، وثمة العاصي والخصوبة والتجار الذين ينقلون القاوون إلى حماة أو اللاذقية أو انطاكية .

★★★

قرب أي من الحفر التي خلفتها الخرائب الرومانة الشمالية كان يقضي الليل ساهراً . يغرف كل حين من الماء المتجمع في الحفرة ، ويغسل وجهه . يلوم نفسه إذا أسرف في الماء الذي يداريه الناس طوال الصيف ، ليس من أجل غسل وجوههم ، بل ليشربوا ويسقوا الدواب والحقول الصغيرة التي لم يخربها البدو هذا الصيف .

أخذت الليالي تترى ، بلا بدو وبلا فرنسيين ، وبلا نوم . فمنذ التقى فياض العقدة في الزيارة لم تكد عيناه تغفوان في ليل . كانت فاطمة تحثه على أن ينام في النهار كي يحرس أفضل في الليل ، ومثلما يفعل الآخرون . وقد حاول مراراً ، إلا أن النوم كان يجافيه ، فيتمدد قليلاً ، يداعب فطوم ، يتملى من عاطف ، ثم يخرج إلى حقول القاوون والكرمة ، يعين من يصادف ، يصغي إلى أخبار البدو الذين حاولوا هذه السنة مرة واحدة ، في عز الشتاء ، أن يسرقوا الدواب ، فيتحسّر على أنه كان بعيداً ، ولم يقيض له حتى اليوم أن يري كفر عيد كيف يدافع عنها . وقد ينجذب في العصاري إلى حلقة من رجال ، تستذكر الأرض التي قدمت منها ، شرقي الغاب أو غربيه ، أو تستذكر الذين أخذتهم الحرب ولم تعدهم ، والحراس الذين قتلهم البدو ، فتركوا لكفر عيد أراملهم وأيتامهم .

ولئن أعانه جسده في البداية ، إلا أن احتمال العيش بلا نوم يذكر ، أخذ ينحله ، ويذهب بلونه ، وصار جفناه ينطبقان أثناء الحراسة ، حتى إذا صحا فجأة لصرير جندب أو عواء كلب أو حفيف النسائم خلل الكرمة أو صدى ضحكات وغناء ، اندفع إلى ماء الحفرة ، خائفاً وخجلاً من أن يكتشف غفلته أحد ، قبل أن يكتشفها البدو ، وربما الفرنسيون .

فاطمة تعودت أن تصرف النهار أيضاً في حقول القاوون والكرمة ، أو في كروم التين ، خاصة حين يحاول أبو عاطف النوم . وكان يقلقها أن تسمع نداءه بعد حين ، أو أن تراه يلحق بها ، ويظهر لها في حقل مجاور . وعلى الرغم من أنها في أيامها الأولى كانت تمتلىء باليقين من أنها لن تغادر كفر عيد أبداً فقد جعلتها عيناه المحمرتان تفكر في أنه لن يقوى على أن يعيش بلا نوم ، ولابد له من شغل آخر ، غير الحراسة . ولعلها لذلك صارت تسأل في الحقول وعلى التنور ، وفي العشايا ، عن أرض الشيوخ . وترمي بيديه بما تسمع ، ويسعدها أن تجد لديه أكثر مما عرفت ، ويمضها ألا يحاول هو وألا تستطيع هي متابعة الكلام .

كان البدر الصيفي الساطع يؤكد لها أن الأيام الأربعين التي لاينبغي لأبي عاطف أن يضاجعها خلالها ، اثر الولادة ، قد انقضت . ولما اختفى البدر البتة ، لاح لها الصيف مودعاً ، وأبو عاطف يكبر في كل ليلة مالم تلحظ منه في سنة ، وأكدت لها الشمس التي صارت تغيب أبكر ، أن أياماً أربعين أخرى توشك أن تنقضي ، وأبو عاطف ساهٍ ، كأنه لم يكن لشهور قليلة خالية ذلك الذي لايشبع من جسدها ، فهل غدا فجأة ابن أربعين ، بل خمسين أو ستين ؟ أم أنه قد شبع منها بعد أن أولدها عاطف ؟

دون أن تدري ، صار الفجر يداعبها ، مرة بعد مرة ، يجعلها تتقلب متشهية ، تتخفف من حيائها ، تترقب وقع خطاه ، فتباعد فخذيها ، وتتظاهر بالنوم ، مؤملة أن يعجل إليها ، إلا أنه كان يحنو على فطوم وعاطف ، ينزع حذاءه أو يدور في البيت ، حتى يضبط عينيها المتلصصتين ، فيهمس منهكاً :

ـ الله يصبحك بالخير . إن شاء الله لم يعذبك عاطف الليلة ؟

صارت تتباطأ في النهوض ، تغريه بالنوم ، فالوقت لازال مبكراً ، وإن تكن الديكة جميعاً قد صاحت ، وأصوات الجيران تتردد ، وتفسح له إلى جانبها . وقد طال بها الانتظار قبل أن يستجيب إليها ، فلا يتمدد بجوار فطوم أو عاطف ، وإذ ذاك ، بدت لها عيناه ، رغم عتمة البيت المغلق ، أنهما تؤوبان من غيبة مديدة ومضنية ، فأغضت

والتحمت به . وطارت بها أنفاسه ، خفيفة مثل الريشة ، وجعلت يديها تنهبان سروالها نهباً .

ذلك الصباح أغفى وهي ترضع عاطف ، ثم تخرج به وبفطوم إلى المصطبة ، تفيء إلى الدالية الفتية ، وترقب يقظته حتى الظهيرة . وقبل أن يغسل وجهه حياه صوتها الدافىء وقالت :

ـ أبو عاطف . خلنا نتوكل على الله . الحراسة ليست شغلك . لو ترى كيف صار وجهك ! خلنا نحاول في أرض الشيوخ . هذا الشغل باعد بيننا ، ونحن ماخلقنا الله إلا للفلاحة . أصعب مما رأينا لن نرى ، وقد يفتح الله لنا على وجه عاطف مرة ثانية ، وأحلى . ماقولك ؟

كان يصغي وهو ساهم ، حتى إذا فطن إلى أنها تسأل ، التفت إليها وتبسّم ، ثم نادى فطوم لتأتيه بطاسة ماء ، وبدأت أمعاؤه تتلوى جوعاً .

★★★

16

متلفحاً الليل ، مغافلاً الجميع ، رمى حمادي الحسون البندقية . تفل على الآنكليز والأتراك والألمان والفرنسيين . تفل على الخيانة ، وعلى الأغبياء من أقرانه الذين يتابعون السير إلى الشام ، ومشى وحيداً .

مراراً حاول أن يغري راغب الناصح ، ياسين الحلو ، اسماعيل معلا ، فياض العقدة ، عزيز اللباد ، وكانوا يوافقون على كل مايقول ، ثم يتابعون السير ، مثله ومثل الكثيرين ، حتى إذا بدأ بعض العساكر والضباط يختفون ، حزم أمره ، وترقب الليالي غير المقمرة ، والسماء الملبدة ، ومشى وحيداً .

ظل يسير طوال ذلك الليل ، والنهار الذي أعقبه ، يتحاشى البدو الذين طلعت خيامهم وقطعانهم في وجهه قبل الظهر ، والبيوت التي طلعت بعد العصر . إلا أن الجوع العطش والألم المضني في ربلتي ساقيه وباطن قدميه ، دفعه أخيراً نحو واحد من تلك لبيوت الآمنة .

أمام البيت المظلل بالعرائش ارتمى متهالكاً ، ومن بيت إلى بيت ، من قرية إلى ية ، ظل يتقدم غرباً ، يتزود بالطعام والماء ، وقد قايض منذ الأيام الأولى بذلته عسكرية المهترئة بقنباز مرقع وصرماية مثقبة ، بالغة الضيق .

قبل الفرار لم يفكر إلا في أن يتوجه غرباً ، حيث قدر أن الشاطىء المنداح من فلسطين إلى اللاذقية ، ينتظره . وهاهو البحر قد ظهر أخيراً ، وعليه أن يغذ الخطو ، لولا أن وجع قدميه ألجأه . إلى ذلك البستان الكبير ، قرب عكا ، حيث المقام البهائي .

الى المقام البهائي لجأ يتنسم الراحة ، بين العشرات ممن يأكلون ويشربون ويناموت ويصلون ، كأن لاشأن لهم بما تستعر به الأرض قريباً منهم . خلع حذاءه على أمتار من المقام ، كما ألف في زياراته للمزارات ، قبل أن يجنده الأتراك . تقدم خاشعاً يقبل

الأعتاب ، يتشرب البهو والوجوه المؤمنة . يفتقد القبر الذي افترض أنه يتوسط البهو ، يردد أشتاتاً من صلاته التي جنده الأتراك قبل أن يتقنها ، وبعد لأي ، استطاع أن يدقق فيما يزين البهو من الخطوط المعجزة والسجاد الوثير.

غادر البهو إلى المضافة ، تناول الطعام وأنصت إلى من حوله . تجنب ماوسع أن يتكلم . ادعى أنه قد قدم مثل الآخرين من بلاد بعيدة ، مشياً ، ليزور المقام . وظل يخشى أياماً مغبة كذبته التي جعلت عديدين يبالغون في تقديره ، حتى نسيها .

في البداية لازم المضافة ، لايغادرها إلا إلى المقام لماماً ، يخلد إلى نفسه والأمان ، يلتقط أنفاسه بعد عناء أشبه بعناء الموت . بل انه ربما مات منذ جنده الأتراك حتى أدار ظهره للحرب ، أو حتى آواه المقام ، وأوشك أن يجعله من تابعيه .

صار يتراءى لحمادي الحسون حيناً بعد حين أن صاحب هذا المقام هو حقاً صاحب القدرة التي يخشى ويجلّ . إنه البهاء الذي ينعته هؤلاء بظهور هذا الزمان للإمام المنتظر . وحمادي الحسون بات يعرف أن قيامة صاحب المقام قد كانت بعيداً ، في بلاد العجم ، وإذ تظاهر عليه المنكرون ، لجأ إلى هذا البستان المبارك ، وفي ركبه من آمن به .

إلى البستان ، قالوا لحمادي ، وعاين حمادي في أيامه المعدودات ، كيف يتوافد المؤمنون ، من عرب وعجم . وفي البستان ، بعد أن صار يخرج إليه ، زادوه بما أربكه . فذلك الذي أعلن ظهوره في بلاد العجم ليس بصاحب هذا المقام ، بل هو الباب . أما البهاء نفسه فقد كان في رأس من اتبعوا الباب ، ثم خلفه بعد اللجوء إلى هذا البستان المبارك ، واختار لنفسه هذا اللقب الذي حمله أيضاً من آمن به .

ربما ضاعف من ربكة حمادي أنه كان يردد في سره ، ماسنحت له الخلوة ، صلاته التي تتجه إلى إله آخر ، فيما أخذ يشارك من حوله بعض صلاتهم للبهاء ، وخاصة في النهار . وقد يكون أسعده أن يجد أولاء متخففين ، مثل الذين نشأ بينهم ، مما يلازم صلوات الآخرين ، من حركات ، كما سمع ورأى بعد أن جنده الأتراك ، سواء في المساجد أو الكنائس . فمن حوله يصلي واقفاً أو ماشياً أو متربعاً .

بين حين وحين ، كان يستغفر الله عما يدور في خلده ، يتذرع بالتقية التي لابد منها ، ويعد النفس برحيل وشيك ، لايتوقف إلا في تلك القرية . وهناك سوف يحدث الكبار عما شاهد في هذا البستان ، ويسألهم عن ظهور هذا الزمان للإمام الذي ينتظرون . ومن يدري - بات يتساءل قبيل مغادرته المقام - فقد يضع الله سره في أضعف خلقه ، ويكون حمادي الحسون قد أُلهم أن يعرج على البستان ، ويمكث فيه أياماً ، كي

يتعلم ، ويتعظ ، ويتابع السير إلى أهله وقريته ، فيحدثهم عما رأى ، ليس في القطارات والصحراء والبلدان والحرب ، وحسب ، بل في البستان ، وفي المقام .

لما وصل إلى المقام كان باطن قدميه قد انتفخ . وقد علل ذلك لنفسه ، وعلل سواه له ، بالصرماية الضيقة التي حبست الدم في قدميه . إلا أن الورم الذي خف قليلاً أورثه وجعاً أكبر ، حتى قاده أحدهم إلى ذلك الحكيم الفارسي .

كان الحكيم لايغادر المقام ، ولايكاد ينطق بالعربية ، على الرغم من أنه يردد من القرآن أضعاف مايحفظ حمادي الحسون . وقد أتى الحكيم بلفافة قماشية طويلة ونظيفة ، وفرش في وسطها واحداً من عقاقيره ، ثم لفّها على القدمين الموجوعتين ، وصعد بها الى منتصف الساق ، وأمر حمادي ألّا يفكها حتى يأذن له .

قبل ذلك صادف حمادي الحكيم مراراً في المقام ، وشده إليه ماسمعه من الآخرين عن اللمسة المباركة ليد الحكيم ، والبرء الذي لابد أن يكون إذن . وفي ذلك الضحى ، بعد أن انتهى الحكيم من إحكام اللفافة ، ومن تمتماته ، استأذنه حمادي في البقاء قليلاً ، فأذن له ، ولبث حمادي حتى الظهر ، يتفرج على كؤوس الهواء الصغيرة التي يستخدمها في علاج من شكوا له من صدورهم ، وقريباً منها السيخ الذي كوى به بطن أحدهم ، فوق السرّة بقليل . كما تملى حمادي مأخوذاً من اللصيقة التي نزعها الحكيم عن عيني عجوز ، لم يسبق له أن رآه في المقام ولا في البستان . وطفق يرقب البصلة المشوية التي تتوسط اللصيقة ، وأنامل الحكيم الطويلة النحيلة الرشيقة ، تنطف موضع اللصيقة ، وتكحل على مهل ، حتى إذا شرع الحكيم يتمتم ، لهج هو بالدعاء .

في المساء عاد حمادي إلى الحكيم الذي بشّ له ، وهو يزيح الحقنتين الشرجيتين النظيفتين من أمامه . جلس حمادي يصغي لتلاوة الحكيم القرآن ، وتمنى لو أنه يقدر على أن يتلو كذلك أمام الكبار في قريته . ولما انتهى الحكيم من التلاوة ، وأخذ من حوله ينفضون ، لم يجد حمادي مايقوله ، ولم يكن راغباً في الانصراف ، فلبث صامتاً قليلاً ، ثم همس :

ـ يدك مباركة ، خف الوجع عني .

قال الحكيم :

ـ الله هو الشافي المعافي ، وما الواحد منا إلا واسطة .

وانصرف إلى تذكرة مجلدة صغيرة يقرأ بصمت ، فنهض حمادي مودعاً ، ولم يعد حتى قدر أن قدميه قد برئتا ، وسرّه أن تقديره قد أصاب ، فلم ينصرف ، وكان الوقت مساءً .

بعد التلاوة أحضر الحكيم تذكرة أخرى غير مجلدة ، فسأل حمادي عن الأولى ، فتبسم الحكيم وسأله عما إذا كان يقرأ ، وأحضر التذكرة قائلاً :

ـ تسلّ . هذا أفضل لك على كل حال من السمر والنوم .

قبل أن يغادر المقام كان قد أتى على شطر كبير من تذكرة داود الطبية ، وانتصر على خجله في سؤال الحكيم عما يقرأ ، خاصة بعد أن أثنى عليه ، ودعاه إلى أن يلازمه ويتعلم منه . كذلك بات يعرف الكثير عن دود البطن والرمد والدمامل والصرع ، ولكنه مالبث أن تخلّى عن ذلك كله ، عازماً على الرحيل ، وكانت أصداء تقدم الانكليز نحو الشام وانهزام الأتراك ، تتردد في البستان .

فجأة استولى عليه خوف لم يعرفه في الحرب ، ولا في الليالي الحالكة العاصفة في قريته . لم يدعه الخوف يغفو تلك الليلة . كان يصدعه بالحساب عن كل ماأتى في هذا الملجأ ، فكل مافي المقام كفر بكفر ، وما كان اللجوء إليه غير امتحان عسير لحمادي الحسون في إيمانه الضعيف . كذلك طفق يلهج بالصلاة ومايحفظ من الأدعية والآيات حتى انبلج الفجر ، إذ تأبط الصرماية الضيقة ، وانسل من البستان ، يفكر بالابتعاد عن عكا القريبة ، عن البحر كله ، واللحاق بالجيش الميمم إلى الشمال ، عبر حوران ، لعله أن يكون أسلم .

★★★

في ازرع باع الصرماية العتيقة وتابع نحو الشام حافياً ومتخفياً . لم يكن متعجلاً ، إذ أن الجيش الميمم إلى الشمال لازال بعيداً ، إلى الخلف ، وإن كانت أصداء انتصاراته تترى ، وعلائم الهزيمة على الأتراك والألمان ماعادت خافية .

في وضح النهار دخل الشام . ضاع منه ما أسرّ له يوماً العم حاتم أبو راسين عن معين ها هنا . نسي اسم الرجل والطريق إليه ، ولم يتذكر إلا أنه ثمة دكان في الشام ، سوف يلجئه حين ينقل إليه تحية من القطار .

بيد أن الشام ملأى بالدكاكين . بل إنها ليست غير دكان في اثر دكان . والدكاكين تضحك من حمادي الحسون ، تجعله ينسى العم حاتم وصاحبه ، ويخبط أخيراً في سوا

مقبيّ ، ينشد مبيتاً ، حتى تقوده قدماه إلى الجامع الأموي ، فيصطنع المرض ، وهو يرقب حركات المصلين ، ويجهد في استظهارها .

في الفجر التالي أدى صلاته الأولى ، متعمداً أن يكون في الصف الثاني ـ الأخير ـ لمصص على يمينه ، ويشجعه أنه ينجح في التقليد ، وهو يردد في سره مايعن له من صلاته . واثر ذلك جرؤ على أن ينطلق في الحارة .

أسرت عينيه الدكاكين المغلقة التي لايحصرها عد . ولما شرع بعضها ينفتح ، أسرت عينيه الصرامي الوفيرة الجديدة ، فراح يقلب بعضها ، يتذكر مارأى منها في اللاذقية ، يصغي شغفاً إلى البائع الذي يشيد بالجلد البقري ، والآخر الذي يشيد بجلود الإبل أو الماعز أو الغنم ، يمرر إبهامه على الجلد بقوة ويتفحص الصباغ ، ثم ينصرف مصماً عن نداء البائع .

في دكاكين أخرى نسي الصرامي ، واستحوذت عليه الكنادر النسائية وبزازيم لصبابيط ، ولكن سخرية الباعة الصامتة أو الصائتة من قدميه الحافيتين ما لبثت أن دفعته بعيداً ، وكان المؤذن يؤذن لصلاة الظهر .

تلفت حوله فإذا بجامع آخر غير الجامع الأموي. تلمس في جيبه ماتصدق به بعض المصلين ، عليه وعلى اثنين من الحفاة ، كانا يرابطان أمام الجامع ، وراح يمشي أسرع ، من زقاق إلى زقاق ، حتى تراخت قدماه أمام عدد من المطاعم المتلاصقة ، وعبق صدره بروائح الطعام . وماكاد يتجاوز المطعم الأخير ، حتى تتالت الدكاكين التي فرش التجار زواداتهم على حواجزها الخشبية ، فتوقف غافلاً أمام دكان للأقمشة ، حتى أجفلته دعوة الشاب :

ـ تفضل ياأخي .

بلع ريقه وسأل عن الجامع الأموي ، فقهقه الشاب وقال متعثراً بلقمته :

ـ أنت غريب ياأخي ؟

لم يعد يستطيع أن يرفع عينيه عن صحن الحمص الذي يغمس فيه الشاب قطعة الخبز . مدّ الشاب يده باللقمة قائلاً :

ـ خذ لك لقمة ياأخي .

تلقف حمادي اللقمة ، فدفع الشاب ببقية الصحن والخبز إليه ، واندفع حمادي ، والشاب يتجشأ حامداً الله ، ويسأل ضاحكاً :

ـ مابك ياأخي ؟ ماأكلت من سنة ؟

ازدرد اللقمة الأخيرة بعسر ، وأطرق مسنداً كفيه على الحاجز الخشبي . ومالبثت معدته أن أخذت تتقلص ، ورأى نفسه يتطامن ، ينشد أن تنشق الأرض تحت قدميه وتبلعه . ولعل الشاب أدرك مابه ، إذ ربت على كتفه وقال :

ـ هون عليك ياأخي . تعال اجلس .

غدا عاجزاً عن سماع الشاب وعن رؤيته ، فيما يد الشاب تقوده إلى خلف الحاجز ، تجلسه على أحد الكرسيين ، وتهرع إليه بكأس من الماء . وقبل أن يشرب بادره الشاب :

ـ حلّفتك بالله ، ويدي فوق رأسك ، فراري أنت أم لا ؟

رسم رأسه هزتين ، واحتار وهو يجرع الماء فيما إذا كان فرارياً من الانكليز أم من الأتراك أم من مقام البهاء . أعادت الماء إليه الروح ، ودعا في سرّه ألّا يعاقبه الله ثانية بمثل هذا العقاب . تجاوز الشاب الحاجز الخشبي وهو يقول :

ـ انتبه للدكان .

وقف حمادي ، وماكاد أن يتبين ماقال الشاب ، ويتلفت حوله في الدكان ، حتى كان الشاب قد عاد يلوح بصرماية جديدة ضاحكاً ، ولما تجاوز الحاجز همس لحمادي :

ـ خذ ياأخي . حسنة لوجه الله . ادع لي .

تردد حمادي وهو لايجد مايقول ، فيما كان الشاب يدس في جيبه بعض النقود :

ـ خذ ياأخي . قلت لك حسنة لوجه الله . مابك ؟ أنت يظهر عليك ابن ناس والزمن غدار . شف الصرماية ، على قدّ رجلك ؟

جرب الصرماية دون كلام ، وأبهجه أنها مريحة ولامعة ، فأمسك يكتفي الشاب يحشرج بالدمع ، والشاب يضحك ويردد :

ـ ادع لي ياابن الأوادم .

قال حمادي وهو يخرج متعثراً :

ـ الله يحميك ويبارك لك .

وسمى باسم الله وهو يمسح دموعه ، كأنما يفيق من منام .

★★★

مشياً أيضاً ، من الشام تابع إلى حمص ، يتحاشى الناس مااستطاع ، سوى مرتين : الأولى كانت حين بات في الخان الصغير الملاصق لقبة العصافير ، أول الطلعة

التي سمع من يسمّيها من نزلاء الخان بثنية العقاب ؛ والثانية لما حاول أن يبيت فيها قدر أنه خان كبير ووثير في النبك ، يطل على الساحة ، ولكن المكان كان فندقاً ؛ ولايفي بأجره ماتبقى في جيب حمادي ، فانسلّ ذليلاً ، وسهر على النبع في طرف الساحة ، حتى ناداه واحد ممن رأى في الفندق ، وتصدق عليه بما ينقصه من أجر المبيت . وهكذا تابع بلا قرش ، يبيت كيفما اتفق ، في العراء ، قبل أن يتجرأ على أن يستجدي الطعام ، ثم المبيت . ومن حمص اهتدى بالإشارات التي جاد بها كثيرون إلى الساحل ، عبر الجبال .

بعيد حمص دفق المطر ، ولم تلبث ريح مثلجة أن عصفت به من الخلف ، وطال به ذلك حتى ظهرت تلك القرية التي عرف فيها بعد أنها مرجمين . كانت الأزقة خاوية ، وأغلب الأبواب مغلقة ، على الرغم من أن المساء في أوله ، وكانت ثيابه وصرمايته تفيض بالماء . خبط على أحد الأبواب ، قرب ساحة القرية ، وما إن انفتح الباب حتى ارتمى مغمياً . ولعله ظل كذلك حتى الضحى المشمس التالي ، حين أفاق فألفى نفسه في ثوب آخر ، ملفوف الرأس ، مدثّراً بلحاف سميك ، وقربه منقل مليء بالجمر .

دخل رجل مسنّ ، خلفه امرأة تحمل رضيعاً تهمس :

ـ الله يستر . قولك ضربة الثلج مثل ضربة البَرَد ؟

قال الرجل :

ـ قولي أشد . أشد حتى من ضربة الشمس . لو نجا منها بجسمه ، يجوز تأخذ عقله .

رف جفنا حمادي للرجل متبسّمين ، مطمأنين وشاكرين . حمد الرجل الرحمن الرحيم وأقبل عليه يتلمس رأسه ، ويسأله عما جعله يمشي حاسراً . لم يرد حمادي ، فقدر الرجل أنه فراري . لم يرد حمادي ، فسأله الرجل عن اسمه . تمتم حمادي :

ـ حسون .

قال الرجل :

ـ ابن من ؟ حسون من ؟ من أين أنت ؟

تمتم حمادي :

ـ حسون ابن أمون . من الغرب . من الساحل ، من الجبل .

وكانت أمه تتماثل له في المرأة ، حين جنده الأتراك ، وتركها تبكي أمام البيت وهي تحمل أخته الرضيعة .

قبل أن ينقضي النهار كان قد عوفي ، سوى وجع خفيف تحت جلدة رأسه ، يخزه كل حين . وكان من حوله ينادونه بحسون ، وهو يتبسّم فقد بات له سرّ مضحك أخيراً !

وقبل أن يتناول أحد لقمة من العشاء دخلت صبيّة تغالب دموعها ، فبا المرأة :

ـ خير يانجوم ؟ خير يابنتي ؟ أمك جرى لها شيء ؟

غرغرت الصبية :

ـ اليوم وجعها أكبر وأكبر ياخالتي . تعالي معي .

نهضت المرأة ، وحمادي يحدق في الصبية مأخوذاً ، والرجل المسنّ يبعد عن القش ويقول :

ـ كل ياحسون . والله عافت نفسي الطعام . كان الله في عونها . شهر من العذا يارب ؟ الموت أرحم .

ابتعد حمادي عن الطبق متسائلاً :

ـ ماالحكاية ياعم ؟

قال الرجل :

ـ من يوم ولدت المسكينة ، لا الداية ، ولا كبيرة ولا صغيرة في مرجمين ما جربت ، وكل يوم حال المسكينة أصعب . الموت أرحم .

قال حمادي :

ـ احك لي ياعم . خلّ واحدة من النساء تحكي لي .

التفت الرجل مستهجناً :

ـ تكون حكيم زمانك ياحسون ؟ النسوان وعللها ، ما للرجال بها علم . عيب ياابن أخي .

ـ الله وحده الشافي المعافي ، وما الواحد منا إلا واسطة .

قال الحكيم الفارسي على لسان حمادي ، فردد الرجل المسن العبارة ، واقترب من حمادي الذي أردف :

ـ قد يكون عندي ماينفعها ، والنافع هو الله .

شده الرجل من ذراعه متهدجاً :

ـ قم معي . عسى الله أن يكتب شفاءها على يدك ياحسون . والله البركة تشعّ من وجهك .

ظل حمادي صامتاً من البيت الذي ألجأه إلى بيت نظير الصوان . ولما استنكر نظير النساء الثلاث اللواتي يحطن بالمريضة ، والمريضة نفسها ، أمعن في صمته ، وتقلّصت وجناته ، إلا أن الرجل المسنّ أصرّ ، ودفع بنظير الصوان مع حمادي نحو المريضة ، وأخرج النساء والأطفال سوى نجوم . وقاومت المريضة يدي زوجها وهما تخرجان ثديها لهذا الرجل الغريب ، كما قاومت يدي الغريب وهما تجسّان الثدي ، وشق صراخها السقف الترابي . تراجعت أصابع حمادي نادمة على أنها لم تسرق تذكرة داود الطبية ، وعادتا تجسان برفق الدمامل الصغيرة المسوّرة لحلمة الثدي . اتقدت ذاكرة حمادي ، وخيل لنجوم ووالدها وذلك الرجل المسن الذي أغضى خلفهما ، أن عيني هذا الغريب تقدحان بشرر سماوي . أمر حمادي بصنع لبخة من البصل والزيت ، ولبث قرب المرأة التي سكنت ، يتلو ما عنّ له من الآيات والأدعية . أحضرت نجوم اللبخة ، فأحكم شدها على الثدي ، وما عادت المرأة تصرخ . ولما انتهى خاطب نظير الصوان :

ـ لاترفعوها قبل يومين ، وإن شاء الله لاتحتاج لبخة ثانية .

قال الرجل المسنّ :

وإذا احتاجت ؟

اتجه حمادي إلى نجوم :

ـ تعالي أعلمك كيف تصنعينها .

جاء صوت نظير آسراً :

ـ لا والله ، لا أحد يصنعها غيرك . وإذا شفاها الله على يدك ، لك عندي ماترغب وتتمنى .

قال حمادي مسلّماً بالأسر :

ـ اليوم عندكم ، وبكره . .

قاطعه الرجل المسنّ :

ـ أبو عبد اللطيف على حق ، وكلمته واحدة . ابق عندنا يومين أو ثلاثة ، حتى نرى كمل معروفك ياحسون .

دارت عيناه حائرتين في الوجوه الراجية ، ورفع يده إلى جبهته يمسح ، إذ وخزه الوجع ثمة ، ثم أنزلها إلى صدره ، وهو يفكر في أنه قادر على أن يبقى هاهنا يومين أو شهرين . وربما تلفظت شفتاه بذلك ، إذ أن نجوم غادرت عجلى ونشطة ، وأبو عبد

اللطيف دفع الرجل المسنّ أمامه وهو يردد :
ـ أهلاً وسهلاً ، أهلاً وسهلاً ، العشاء المعتبر يوم تقوم أم عبد اللطيف بالسلا

★★★

نزع حمادي اللبخة في الموعد الذي قدر . شق الدمامل بالسكين التي نقعها طاسة العرق منذ الصباح . صب العرق فوق الثدي . غسل السائل المصفرّ الذي الثدي ، والمرأة تصرخ ، ونجوم تعض شفتيها وتلجم دموعها ، وأبوها يغضي ، وحماد يتمتم . وفي اليوم التالي نهضت المريضة .

أصرّت مرجمين على أن تستضيف حمادي يومين آخرين ، أو أكثر ، وهي تنظر إليه على أنه رجل مبارك ، لا حكيماً وحسب ، فيما هو ينتقل من نجاح إلى نجاح في معالجة المعتلّين الذين تكاثروا في بيت الصوان ، أو في بيت الرجل المسنّ .

كانت لمسته السحرية التالية بعد شفاء أم عبد اللطيف حين أمر بجمع ماأمكن من العلق الذي يكثر في خزانات الماء الصغيرة المعمرة أمام البيوت . سلط العلق على ظهر وذراعي أحد العجائز الذي يكاد لون وجنتيه وسائر جلده يتفجر حمرةً ، فيما هو يذوي منذ الخريف . كان الشبان يحسدونه على مايشي به لونه من عافية ، وهو يذبل ويتوجع ، حتى جاء حمادي ، وسلط العلق عليه ثلاث مرات ، وبدا أنه أفضل منذ المرة الأولى .

في بيت أبيها كانت نجوم تحرص على أن تظل قريبة من حمادي . كانت في سبيلها إلى أن تكون امرأة فاتنة ، وركاها لم يمتلأا بعد ، وثدياها لازالا مثل اجاصتين مخبأتين تحت فستانها الملون . وحين همس الرجل المسن في أذن حمادي ، وكانا وحيدين يستعدان للنوم :
ـ اسمع مني ياحسون : اقعد هنا . مرجمين أحبتك . شف واحدة من بناتها ، تزوج ، ومرجمين تعمر لك حجرين ، وتصير مثل أولادها ، والدنيا كلها ياابني مثل بعضها . مطرح ماترزق الزق . الجبل كله يمكن يقصد مرجمين ويتداوي على يديك . ويوم يعنّ على بالك أهلك ، سافر جمعة ، جمعتين . . ماقولك ؟

تراءت له نجوم مومئة ، تحثه على أن يستجيب ، ورأى نفسه يضحك ، إذ صار حسون بن أمون ، زوج نجوم الصوان ، ومن أهل مرجمين ، وهو أيضاً حمادي الحسون ، ابن تلك القرية الجبلية المنسيّة ، وزوج واحدة من بنات أعمامه أو أخواله .

ضحك مضيفه مثله ، ونام قريراً ، إلا أن الوجع عاد يخز حمادي تحت جلدة رأسه كلها ، كأن الريح الثلجية تضربه الآن ، عليها ، فأغمض عينيه متأوهاً ، وإذا بالسماء الكتيمة تنشق عن نجوم ، فتسطع متلوية ، كأنها حورية من حوريات الجنة ، وهو يلوب عليها ، تجتذبه إلى صدرها العاري ، فلا يكاد يدنو حتى ترميه من كبد السماء إلى كبد الأرض ، وينبض قلبه مدوياً في أنحاء رأسه ، فيجمع قوته الضائعة ، ويهفو إلى الكوكب الدري ، يتشظّى الكوكب نثاراً من الشهب التي تمرق في القلب ، يتخلق وتتخلق الشهب في نجوم الشاحبة الحزينة التي لاتكاد تلمس ولا ترى ، ويهوي حمادي من جديد إلى فراشه آيساً ، تلاحقه أصداء جليلة للمصلين الذين يملؤون الكون .

كانت الأصداء تنجلي رويداً عن أرواح المؤمنين ، ممن اصطفى الله وأدخلهم ملكوته ، ثم تنبهم رويداً ، فلا يعود حمادي يميز فيها بين توحيد الله وعذاب الجحيم ، ولا بين ما حفظ صغيراً في قريته وكبيراً في مقام البهاء ، فيغرس سبابتيه في أذنيه ، ويتكوم في الفراش ، ولعله يرتجف خوفاً أو برداً ، حتى تثغو نجوم قربه ، مثل أخته الصغيرة ، فيحنو عليها ، وتتعلق به ، تقبله ، ويخشى أن يقبلها ، وقد يفعل وهو غاف ، يحكم ذراعيه حولها ، فتلتحم به ، تنفث بين فخذيه حراً ، وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم ، وينأى ، لكنها تبكي ، وذراعاه تطيران إليها ، تلفانها برفق ثم تهصرانها ، وهي ليست بالطفلة التي حسب ، إنها امرأة تدفىء الفراش البارد ، تكبر نجوم الصوان بكثير ، وفيها من نجوم الصوان شبه كبير ، فيخشى أن يكون قد أخطأ أو اخطأت . إنها أم عبد اللطيف مشرعة الثديين ، تنفث في روحه حراً ، تشق أصابعه الدمامل والحلمتين وسروال المرأة أو قميصها ، ويسطع صدرها أو فخذاها ، فتعشى عيناه ، وهو يطبق على المرأة من كل صوب ، فإذا بها تنطوي تحته ، تتقصف ، تستجير بصوت نجوم منه بالله ، والأصداء الجليلة عادت تملأ الفضاء ، وهو جاث وعار ، راغب وخائف ، يود أن يبقى في مرجمين وقد بدل اسمه ، يتزوج من نجوم ويكون له بيت ، ينشد أن تخلص روحه من أوشابها ، لتندغم في هذا الملأ النوراني الصادح باسم الله .

حين صاح الديك الأول في بيت مضيفه تناءت الأصداء السماوية سوى صوت خافت وحيد ، ظل يحثه على أن ينهض ويعجل إلى ماينتظره بعيداً عن مرجمين . فقد اختارته السماء لأمر آخر ، سوى الزواج والتطبيب .

فتح عينيه بعسر ، وعضوه لايزال منتصباً . استوى في الفراش ، والديك الثاني يصيح ، وعضوه يذبل ، وهو يتذكر بقايا ليلته ، يمتلىء يقيناً أن تلك الصبية ، التي لم تعد

طفلة ولا هي بامرأة ، ليست غير شيطان رجيم ، اسمه نجوم الصوان ، شأنها شأن سا النساء ، كما علمه شيخه قبل أن يجنده الأتراك .

وكما تسلل من مقام البهاء ، أو من الخيمة العسكرية ، تسلل من مرجمين .

★★★

أشبه بمن أصابه المسّ ، ظل حتى أطلّ على البحر ، وكانت نقوده قد نفذت ، وكل من استجداهم مبيتاً أو زوادة ازورّوا عنه ، وهم يقدرون أنه فراري أو مخبول . كذلك امتدت يده إلى ماتصادف من الأعشاب النزرة ، تحشوها في فمه ، وفمه يدفعها بما وسع إلى بطنه الذي لايفتأ يتلوى ، كما يتلوى الدمع في مقلتيه أو في فؤاده ، وقد عاد الوجع إلى باطن قدميه .

من السفوح الدانية هجم على جبلة ، ينشد جامع السلطان ، وبين القبور الملاصقة للجامع أقعى ، والمصلون يتوافدون لأداء صلاة المغرب . مقابل القبر الذي أرخى ظهره على شاهدته مرت عجوز تتوكأ على عصا رفيعة ، ثم توقفت ، وعادت إليه تتمعن وتسأل :

ـ غريب ياابني ؟

احتار لسانه وعيناه في جواب . اندست يد العجوز تحت ملاءتها السوداء ، وأخرجت كسرة خبز . انقض حمادي على الكسرة موشكاً على النباح ، وترك العجوز مذهولة تبسمل وتسأل الله الرأفة ، وسار نحو باب الجامع .

شعره كان قد طال وتلبد . ذقنه الشعثاء المائلة إلى الحمرة أيضاً . الصرماية الجديدة تثقبت من فوق ومن تحت . ومن ثيابه التي لم تغتسل بعد أن غسلها مطر مرجمين ، انبعثت رائحة مخرشة ، جعلت الرجال أمام باب الجامع يزورّون عنه ، سوى واحد تمعن فيه راثياً ، وكان أكبرهم ،

تربع حمادي مرسلاً عينيه في البساتين المقابلة ، وخيل للرجل أنه قد رأى هذا المسكين القذر في حال آخر ذات يوم . قال الرجل وهو يهم باللحاق بالآخرين إلى داخل الجامع :

ـ من أين جئت ياابن آدم ؟

لوح حمادي بذراعه صوب البحر . قال الرجل :

ـ أين تقصد ؟

برم حمادي رأسه شرقاً . صاح الرجل ساخطاً :

ـ من أي البلاد أنت ؟

حملق حمادي فيه ولم يجب . تقدم منه الرجل ، فتوقف متوفّزاً ، يهم بالهرب ، لكن الصوت الساخط كرر السؤال ، مذكراً بصوت أليف ، ومالبث أن تساءل :

ـ حمادي ؟ ابن أخي ؟ مازلت حياً ؟

إنه العم إذن ، يعيد الروح إلى ابن أخيه ، يبكي ويبكيه ، يلوي من أجله عن الصلاة ، ويسعى إليه بلقمة ، يطمئنه على أسرته ، ويغمره بلهفته . يحثه على أن يعجل إلى اللاذقية ، حيث سيبيع أبوه في خان الغريب حمولة الحطب ، ويشتري بعض المؤونة ، اذا لم يكن قد فعل .

غير أن الصمت كان قد غدا العادة الجديدة المستبدة لحمادي ، ولو أغاظ ذلك عمه ومن معه ، تلك الليلة التي أووا فيها إلى الجامع ، كما أغاظ والده ومن معه في خان الغريب ، ذلك العصر التالي ، المشمس والبهيج .

ماكان قادراً على أن يقول لأحد إلا أنه فراري ، وقد قطع الطريق مشياً من فلسطين . كان يجهد كي يجمع في صدره ، أو على لسانه ، ماضاع منه على الطريق ، وعيناه تتوسلان لعمه وأبيه والناس جميعاً أن يمهلوه قليلاً ، حتى يستطيع أن يجيب على مايسألون . كان مايثيرونه أمامه يعينه على التقاط نثار من روحه ، يصله بعمره المبتور مرة بعد مرة ، بفعل الحرب وبفعل سواها ، لافرق بين مايفرح ومايقبض ، لافرق بني نجاة شقيقه الأصغر من العسكرية ، وخدمة شقيقته الكبرى في بيت السكادة ، بين شلل أمه واستجابة أخواله للمبشرين البروتستانت ، بين مانقده صاحب الخان لوالده والسوق الخاوي ، بين أن يظل متخفياً في الأحراش مع سواه من الفارّين ، أو يعمل في حمى بيت السكادة ، ريثما تنجلي الغمة .

★★★

في بيت السكادة التقى شقيقته مساء يومه الأول في عمله الجديد . لقد كبرت الطفلة التي كانت ، وصارت مثل تلك الصبية الشيطانة ، لها معاً الشعر عينه ، الثديان الصغيران والوركان الضامران ، فهل يكون في هيلانة الحسون مافي نجوم الصوان ؟ ماذا تفعل في بيتِ السكادة إذن ؟ كذلك طفق يتقلب مسائلاً عقب لقائها القصير ، يخاف أن

يدنس أحد شرفها ، أو تندفع إلى أحد بما في روحها الخبيثة من الفساد ، يعتب على والد أن يأتي بها للخدمة في بيت هذا أو ذاك ، حتى لو سيق بعده شقيقاه إلى الحرب ، فكيف إذن مادام قد نجا واحد وسيق واحد ؟ مَنْ مِن بنات الجبل الصغيرات كله ، من أقصاه إلى أقصاه ، سيقت إلى الخدمة ، وعادت معززة مكرمة ؟ هو أدرى من أبيه ، وأبوه أدرى منه ، بمن اختفت من بنات قريته ، ومن لاتزال حية، ربما في اللاذقية نفسها، أو في الشام أو في بيروت ، يبيعها سيدها إلى سيد آخر ، أو تفرّ منه إلى سيد ثالث ، أو ترتمي على باب الكرخانة ، فهل هذه هي الدرب التي تسير عليها بنت الحسون ؟

خوفه من ذلك لم يزايله من بعد ، فصار هاجسه الأكبر أن لايترك بيت السكادة حتى يعود بهيلانة ، مهما طال الزمن . وماهمَّ إنْ كان الشغل في اللاذقية أم على ضفة النهر الكبير . ماهمَّ إنْ كان الشغل في زراعة البندورة والباذنجان ، أم في نقل الكوسا والخيار على الحمير إلى اللاذقية . ماهمّ إنْ كان يغربل في مجرى النهر ، قبيل الطاحون ، أو يسبق الجميع في قطاف الزيتون . لقد عاد الوالد إلى القرية قريراً بولديه ، أما حمادي فراح ينتقل من عمل إلى عمل . لم يطل مقامه في اللاذقية . قاده واحد من بيت السكادة إلى ضفة النهر الكبير ، ثم قاده آخر إلى موقع آخر ، وهو يجترح الجرأة قبل أن يتعود أن يسأل عن شقيقته ، ولايكتفي بالثناء عليها ، ولا بما يجزل له سادته من أجر ، ولا بالفرج الذي أتى سريعاً ، إذ انهزم الأتراك ، ولم يعد فرارياً ، كما لم يأبه للانكليز الذين احتلوا اللاذقية ، والهلع الذي أصاب أسياده حين حل محل الانكليز ذلك الضابط الفرنسي ، وهو يختال على رأس السباهيين .

عندما فرّ الأتراك ، نغص البهجة في عيون من حوله بوعيده عما قريب بمن هو أدهى . كان يتحدث كالعرافين . ومالبثت الأيام المعدودة أن أكدت صدق عرافته . وربما كان الأمر بالنسبة إليه محتوماً . فلا بد أن يأتي الانكليز أو الفرنسيون أو سواهم ، كيلا يذهب هباءً فراره ، وماقضى بعد ذلك ، حتى الفرحة الواهمة لمن حوله بالنصر على الأتراك .

تلك العرافة أعلت من مكانته في عيون من حوله ، فاستذكر مرجمين والتطبيب ، واستيقظ على ماأغفل منذ شهور ، إذ ندرت صلواته وتأملاته . وماكاد يعود إلى ذلك ، ويسلو همّ هيلانة قليلاً ، حتى اندلعت النيران في جلّ مايملك بيت السكادة على ضفة النهر ، وفي اللاذقية .

كان الشتاء في أوله ، والغيوم الخفيفة تظلل اللاذقية ومجرى النهر دوماً ، بلا مطر . وكان حمادي يؤم اللاذقية في بعض العصاري ، كلما أفسح له الشغل ، أو تطلب أن يتوجه إلى المدينة ، يتناول اللحم المشوي وهو واقف ، يلتهم رغيفين ، ويتحلى ، ويدفع القروش الخمسة بثقة ، ثم يطمئن على هيلانة ، ويرفض أن يتناول الطعام على مائدة بيت السكادة ، ويعود مطمئناً .

بعد الحريق نقل إلى الطاحون . وقد شغله في البداية أن يراقب الماء المندفع شلالاً صغيراً على الدولاب ، أو يدور مع حجري الرحى الصوانيين فوق الحبّ ، حتى أذكره الحجران بنظير الصوان ، وحبة الحنطة التي يلقمها سواه في القمع الكبير ، بنجوم ، فتبادل مع الفتى الذي يراقب الصندوق الخشبي ، حيث يهمي الطحين ، وظل ثمة حتى نسي نظير الصوان ومرجين ومن حوله ، وماعاد في دنياه سوى نجوم التي تنهرس هرساً ، وتغدو هذا الطحين الناعم ، على الرغم من أنَّ أحداً لم ينخله ، فترك الصندوق ، وفكر في أن يبادل البغل الذي يدير الدولاب ، لولا أنه لن يقدر على الحجرين المركوزين في وسطه ، فهرع إلى الخواجة جبرا ، يرجوه أن ينقله إلى أي عمل آخر ، وفي ذلك المساء هاجم ملثمون الطاحون وأحرقوها .

قبل أن ينقشع دخان الحريق كانت ابتسامة الخواجة جبرا تعلن أنه كان حائراً في إيقاف الطاحون ، ريثما يحلّ محركاً بخارياً محلّ البغل ، وقد تفضل عليه من أشعل الحريق . وكان اللغط حول حمادي ـ الذي ظل عاطلاً لأيام ـ يشك في أن الحريق عقاب ، فبيت السكادة ماعادوا أصدقاء الانكليز ، إذ أقاموا حفلاً لم تشهده اللاذقية للفرنسيين الكبار في دولة العلويين ، وربما في الشام وبيروت ، وصاروا أصدقاءهم . وفجأة ظهر الوالد ينعي الأم لحمادي وهيلانة ، ثم اختفى .

ماعاد حمادي يفكر إلا في أنه قد آن له ولهيلانة أن يؤوبا إلى القرية . كذلك توجه إلى بيت السكادة ليلاً ، وكانت سيارتان فرنسيتان تربضان أمامه . على الباب اضطره الخواجة جبرا إلى أن يعلن غرضه بجفاء ، مادام لم يدعه للدخول كالعادة . لكن الخواجة قال بحزم وبلطف :

ـ ماذا ستفعل أنت هناك ؟ تقبر نفسك ؟ إذا كنت غير مرتاح في الشغل قل لي . لدي شغل آخر وآخر . أنا أعرف حمادي الحسون أكثر مما تعرفه أنت . هل تظن أنني أغمض عيني على من يشتغل عندي ؟ تعال اشتغل في الشركة . هذا أفضل لك ، وأنا بحاجة

لمثلك ، أم تريد أن تظل كما كان أبوك وجدك ؟ واحدكم يرفس النعمة ويشكو إلى الله تريد أن تحل هيلانة محل المرحومة ؟ خذها الآن . أما أنت فانس القرية . على الأة لازال الوقت مبكراً . اسع خلف رزقك كم سنة ثم ارجع كما تشاء وأنت قادر على ا تعمر بيتاً ، تتزوج ، تعين أهلك . . هيا ياحمادي . مع السلامة .

أياماً أقلّ ظل اثر ذلك حائراً ، قبل أن يستجيب ، وينتقل إلى شركة السكادة التي تصدر الزيوت والتبغ والحنطة وسواها ، منذ عشرين سنة أو ثلاثين ، وتستورد ما ظل حمادي يجهله طويلاً ، على الرغم من تقدمه الحثيث في الشركة .

ما يوفر كل شهر كان يودعه لدى هيلانة . والفرنسية تعلمها في غفلة من الجميع ، وهو يصدّ عامداً عما يعلو كل حين في المدينة من أنباء الثوار الذين يقاتلون الفرنسيين ، بعيداً أو قريباً ، في الجبال ، من الحفة إلى طرطوس .

همه الوحيد كان قد غدا في مسابقة الزمن من أجل أن يعود إلى القرية بهيلانة ، وبكيس مليءٍ بالنقود . وهاهو من أجل ذلك يسعى إلى أن يركب أحد المراكب التي ترسلها الشركة بعيداً ، فتغيب ثلاثة أشهر أو أربعة ، لتعود بغبطة من عليها ، وقد عمرت جيوبهم ، ورأت عيونهم أيضاً من الدنيا مالم يره القابعون على البر ، مهما علا شأنهم .

وحده ، مركب من تلك المراكب ، إذن ، هو ماسيوفر على حمادي شهوراً ، إن لم يكن سنيناً . وكل من حوله يشجعه على ذلك ، لا الخواجة جبرا وحده ، ولا هيلانة وحدها . كذلك بات يهرع إلى البحر كل مساء ، يجثو أمامه ، مقارناً بين مايرى منه هنا ، ومارأى في زمن بعيد ، من قناة السويس إلى عكا ، إلى جبلة القريبة ، وتفور حماسته ، فهذه المرة سوف يرى البحر وهو حرّ ، على ظهر واحد من مراكب بيت السكادة ، لاتقيده بذلة عسكرية ، ولافرار . ولن يسخر هذه المرة من العساكر الذين كان البحر يرعبهم ، يرغطون بين يديه مثل الأطفال ، وهو يعلمهم السباحة في الليالي المقمرة .

صوت البحر كان يتردد في جوانحه دعاءً حاراً ، مفعماً بالأماني والجلال ، إذ يوقظ إيمانه العميق ، يشحذ بصيرته ، يفجر الصلاة في سرّه ، وينهضه أكبر أملاً ، فيتمشى على الرمل ، يلتفت بين خطوة وأخرى إلى المغارة ، يدع عينيه تترثثان فوق المراكب والظلال

الباهتة المتطاولة على صفحة الماء الهادئة ، ثم يؤوب إلى غرفته الملاصقة للقشلة ، يودع يوماً آخر ، بانتظار السفر الوشيك .

★★★

لم يكن ركوب البحر في أيامه الأولى كما أمل . فجأة اصطخبت الأمواج وراحت تلعب بالمركب الذي بدا ضئيلاً وضعيفاً . تلوت أمعاؤه وغامت عيناه . أثقله الخوف من أن يكون قد أخطأ أو أغضب الله من جديد . اختلط في صلواته وابتهالاته ما لقنته إياه القرية قبل أن يجنده الأتراك ، أو مذ كان في المهد ، بما لقنه إياه ذلك البستان قرب عكا ، أو الجامع الأموي . وعلى الرغم من أن البحر عاد هادئاً ، وعين حمادي قد ألفت الزرقة المترقرقة ، فقد زاد المركب ضيقاً ، وظلت الرائحة الواخزة تقلب جوفه ، ولم يغادره الخوف لأسابيع بعد عودته .

على البر نزل مراراً أثناء الرحلة ، بعيداً عن عكا وعن قناة السويس ، حيث كان يأمل . بيد أنه كان يقضي اليوم أو اليومين في كل نزول ، كأنه لايزال على ظهر المركب . وكذلك قضى أيامه الأولى في اللاذقية : عينان زائغتان غالباً ، ونظرة ساهمة ، غثيان لايدفع بما في جوفه حتى إلى الحلقوم ، ونوم يهدهده المركب أو يتقاذفه ، يملؤه عزيف الأمواج الناعمة أو الخشنة ، والنجوم المشعة تزيد ليله البحري حلكةً ، فيهرب من حكايات من معه عن أسماك البحر أو حيتانه ، حورياته أو قراصنته ، ويتوه بين الشواطىء التي رأى والتي لم ير ، والبر الذي حاذاه المركب أو ربض عليه ، وإذ يغرق في النوم ، ينقذف إلى تلك الأرض التي يسورها البحر من كل ناحية ، يختنق بفوح البخور والعطور ، يتعبد بأناة نور الشمس الساطع ، يتلو أبرع من الحكيم الفارسي : وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، ويتلو الحكيم الفارسي أروع منه ، وموميئاً إليه : فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي ، فينتفض مجفلاً ، يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويسمي باسم الله الرحمن الرحيم ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويغفو أعمق من جديد ، فإذا بامرأة تأتيه في هيئة حمامة أو نورس أو حجل ، فيها من نجوم الصوان شبه ، ومن هيلانة الحسون شبه ، ومن سواهما فيها شبه أكبر ، تخلو بحمادي على البر أو على البحر ، تتخلق أحلى كلما اهتزت رموشه ، تطبق بغوايتها عليه ، فإنْ أجابها صبّ الله غضبه عليه ، وإنْ قاومها مسخته تلك الساحرة كلباً أو سلطعوناً . وقد تعجز عنه ، فتستعين بساحرات البحر والبر ، ليخطفنه إلى ركن من أركان السماء

السابعة أو الأرض السابعة ، يذبحنه من الوريد إلى الوريد ، يطهونه ويتقربن به إلى العفاريت ، ومن بعد ماتكاد نفسه أن تزهق يبعث حياً ، وهو يسأل الله أن يمد له في العمر حتى يكفّر عن ذنوبه .

لم تجزل له الشركة في الأجر كما حلم . فالصفقة التي سافر في ركابها خسرت . بل لعله لو لم يغب عن اللاذقية الشهور الأربعة لوفر أكثر .

مساءً لوحت اللاذقية للمركب مهنئة ، وصباحاً عرف حمادي نصيبه ، فترجعت في سمعه همسات أقرانه على المركب ، تنال من الخواجة جبرا ومن خبث بيت السكاف جميعاً . وقبل أن يصحو من خيبته وذهوله ، أطل الخواجة غاضباً . لم يهنىء حمادي بالسلامة ، ولم يكذب همس الأقران ، بل صاح على باب غرفته ، عبر الممر الطويل :

ـ هيلانة اختفت ياحمادي . سرقت ذهب المدام وبلعتها الأرض .

لفّه الدوار أقوى منه في البحر ، ولم يصح منه إلا في خان الغريب ، ينعي في صمته هيلانة وما أودعها من وفره ، وما أضاع منذ التقى بالده في هذا الخان . وكان الخواجة قد شكاه إلى المخفر ، بعد أن طرده من الشركة ، واتهمه بالتواطؤ مع شقيقته ، وطالبه بالذهب .

رمى به الشاويش الفرنسي في السجن شهراً ، قبل أن يجد نفسه أمام السراي ، بلا محاكمة ، يلاحقه صدى أمر الشاويش منذ ثلاثين يوماً : ارحل عن اللاذقية ، ارحل عن دولة العلويين كلها ، قبل أن أجعلك ترحل عن سورية . وسارت قدماه نحو القشلة ، لكنهما لم تقتربا من غرفته ، بل تابعتا على الطريق المحفّر الطويل .

★★★

هو فراري من جديد ، على الرغم من أن الحرب قد انتهت ، وماعاد عسكرياً ، وليس خلفه من يتعقبه . إنه أقل سوءاً منه في الفرار السابق . فثمة من يدعوه إلى لقمة أو كأس من الزوفا . ثمة من يشير بالشغل هنا أو هناك ، ويهون عليه ضاحكاً :

ـ فرنسا ماعندها شغل غير مطاردتك ؟ كبّر عقلك يارجل . الشاويش نسيك ، والخواجة جبرا ، واختك لها الله . الله لايقطع بمخلوق .

لكن حمادي لايستطيع أن ينسى : فرنسا أعانت الخواجة عليه قبل أن يفتح فمه بكلمة . وسوف تعين الخواجة وغير الخواجة على هيلانة . أما هيلانة فهي أس البلاء ، مثلها مثل نجوم الصوان ، أو أية امرأة على وجه الأرض . وإذا كان الله سبحانه وتعالى

ند أنقذه من شراكها في مرجين ، فهل ينقذه في اللاذقية ، أو في هذا الجبل ؟

على نحو أكثر تشوشاً ، كان يفكر أيضاً في أن فرنسا نفسها أسّ البلاء . هي التي انعطفت بدربه في فلسطين . هي التي اتفقت مع الانكليز على اقتسام الشام بعد هزيمة الأتراك . ولولا ذلك ماكانت اليوم على هذه الأرض . لولاها لما وصل حمادي الحسون إلى شركة بيت السكادة ، ولما انتصر عليه الخواجة جبرا . ولكن إذا كان يستطيع بعد اليوم ن يتيقظ لشراك الشيطان الرجيم ، وينجو منها ، حتى لو عاف هيلانة مثلما عاف نجوم ، فكيف يستطيع مع فرنسا أو مع الخواجة جبرا ؟

لم تفارقه تلك الأسئلة حتى التقى الثوار قرب الجسر . فبعد خبط طويل آثر أن يعمل في النافعة التي تشق الطريق إلى الجسر ، على أن يلتحق بأي من ملاكي الأراضي الخصيبة على ضفتي النهر الكبير ، وهم الذين تربطهم كما يعرف صلات وثقى ببيت السكادة .

ربما كان الأجر المحدد والمجزي للعمل في النافعة قد جعله يؤثرها أيضاً . وقد يكون ذلك لما قدر من أنه هاهنا يستطيع أن يرحل متى شاء ، ولابد له من أن يرحل حين يقدر الله اليوم الذي ينصره فيه على من سرقه وشرده ، وخطف شقيقته ، وزاد بلواه . ولعل ما كان يتردد ، أقرب فأقرب ، من أنباء الثوار ، قد دفعه أيضاً إلى النافعة .

أصوات الرصاص وعواء الضباع كانت تتناهب بعض لياليه الأولى في شغله الجديد ، ثم صارت تشغلها من المغيب حتى الفجر ، ومن بعد صار الرصاص وحده يشغل النهارات ، وهو ينصت خجلاً وحزيناً لما يهمس به العمال من شجون المقاومة ضد فرنسا . لم ير نفسه أجهل منها الآن . وعلى الرغم منها ومنه ، كانت حماسة العمال حين تغفل عين الملاحظ الفرنسي ، تنتزعه من قوقعته ، خاصة حين تشتم همسة أحدهم الدولة التي أقامتها فرنسا هاهنا ، والذين تطوعوا في صفوف القوة الفرنسية ، أيّاً كانوا .

كان يبتهج في صمته لمحاصرة الثوار تلك القوة ، ينكر على من هب لمحاصرة الثوار مع النجدة الفرنسية . لاتشفع عنده ، كما في همسات العمال ، أن يتذرع أحد بإنقاذ المتطوعين في القوة المحاصرة . كان فؤاده يخفق للهمس الذي يعدد ويمجّد مايفعل الجبل ضد فرنسا ، من هاهنا حتى طرطوس ، يود لو يتيقن مما يخمنه من حوله من أواصر الذين يحاربون فرنسا في كل مكان ، وينشد ليلة بعد ليلة أن يساهم في ذلك بنفسه .

وفي لجة ماكانت نفسه تمور به كان يتأسّى على من يكبرونه في هذا الجبل ، على أجداده وأجداد أجداده أيضاً ، يستعيد الحكايات عن الجور الذي يوقعه بهم جيرانهم ،

ينكر منن نفسه وممن حوله من العمال أنه قد نسب نفسه إلى جبلة ، لا إلى قريته ، اتقاءً لأن يكون بينهم من تعود أن ينال في اللاذقية أو في جبلة من أبناء الجبل . ولعله لذلك أيضاً كان يبالغ في صمته ، كي لاتفضحه لهجته ، أو كان يهرب إلى حكايات أبعد عن استعصاء الأحراش والوديان والمغائر على الأتراك ، والوظائف المحرمة على أي أبناء هذا الجبل . فيمتلىء شماتة بالسلطان الداهية الذي أخذ يرمي بالطعم تلو الطعم في الجبل ، يبني جامعاً ومدرسة ، يجود على أحدهم ، حتى لو كان شيخاً ، بالوظيفة أو بالأرض التي تحيله أفندياً أو آغا . ومن تلك الحكايات يركن إلى الوعيد ، يقرب اليوم الذي سيمتلىء به شماتة أيضاً بالفرنسيين ، ماداموا لم يتعظوا بما جرى للسلطان ، ويعيدون سيرته اليوم ، يقيمون دولة ويحرقون القرى ، يحبسون حمادي الحسون نفسه ثلاثين يوماً دون أن يرتكب ذنباً ، ثم يحرمون عليه اللاذقية ، ويستميلون أخواله إلى غير دينهم .

على مشارف الجسر عاين ومن معه القتال بين الفرنسيين والثوار . كان الجبل يطل على الجسر بانحداره الحاد ، يكشف التلال والسهلْ والمستنقعات في ضوء القمر ، كما في منتصف النهار . لاتنفع في كسره الانعطافات المتتالية التي تتلوى بها الطريق .

تلك الليلة ، وحده من بين العمال لم يستطع أن يغفو ، مذ اشتبه بأصوات قريبة ، وشك في أنها لبشر ، على الرغم من أنه همس مراراً :

ـ من هناك ؟

ـ لاتخف .

جاءه الهمس حازماً ، وطلع أمامه اثنان من المقاتلين ، لم يلبث أن تبعهما عدد آخر لم يتبينه ، وكان العمال قد هبوا يحيون ويدعون ، ويحمدون الله على أن الملاحظ لم يعد يلازمهم في الليل ، منذ اقتربوا من الجسر .

قال أحد الثوار :

ـ إذا تابعتم العمل الآن فسيكون أسهل عليهم أن يضغطوا علينا . عشنا عمرنا بلا هذه الطريق ، ويمكن أن نعيش أيضاً بدونها حتى يرحلوا .

تساءل حمادي :

ـ ماذا نفعل إذن ؟

قال ثائر آخر :

ـ من أراد منكم أن يأتي معنا فأهلاً به . نحن بحاجة إلى زنودكم أكثر من الطريق . من

يريد أن يعود إلى أهله هو حرّ ، والرزق على الله . تحجحوا بنزلة إلى الجسر ، ومن هناك تيسروا . ظنهم أنهم يستعبدونكم بالقروش ؟ فشروا .

هب اثنان من العمال معاً :

ـ رجلنا على رجلكم .

وسارا مع الثوار .

صباحاً لم يظهر الملاحظ ، ولم يتابع الآخرون العمل وهم حائرون ، حتى تقدمهم حمادي آمراً :

ـ الحقوني إلى الجسر . نتظاهر بالبحث عن الملاحظ ، وإذا لقيناه نخبره بما جرى ، ونتوكل على الله . كل واحد لبيته ، ومثل ماقالوا لنا ، يوم يريد واحدنا يلتحق بهم ، يلقى ألف سبيل .

★★★

عبر المفارق التي قامت لتوها على يمين ويسار الطريق ، أخذوا ينسربون ، منهم من عاد إلى القرية التي قدم منها ، ومنهم من يمّم إلى ثوار الحفة . وحمادي لايني يحدث من بقي بما كتمه طوال اشتغاله في الطريق . ربما أطلق لسانه لقاؤه بياسين الحلو ، أو ذلك للقاء الأقصر بالثوار . وحين بقي وحيداً قرب مصب النهر تابع يحدث نفسه ، سوى أن صوته غلّ في داخله .

على المفرق لطى حتى تقدم الليل ، يخشى أن تضبطه عين الشاويش الفرنسي ، فتحرم عليه دولة العلويين ، أو سورية كلها .

متنكباً اللاذقية ، مشى محاذياً البحر ، حتى قدر أن عليه أن ينعطف صعداً إلى الجبل ، وإذا بالليل يغدو أشد حلكة ، وسط الأحراش . كان الهواء ساكناً ، ولكن أصوات الخنازير أخذت تدوّي في صدره ، فتراءى له ياسين الحلو يحضن ابنه ويتقدم امراته في درب مثل هذه الدرب ، إن لم تكن أصعب . تأسى لأنه لم يستطع أن يشكو لياسين هذا العيش ، فياسين أو عزيز أو راغب أو اسماعيل أو فياض يظلون أقرب إليه ممن رافق حتى عصر اليوم ، على طريق الجسر ، أو منذ شهور ، على ظهر المركب ، أو قبل ذلك في الشركة ، وعلى ضفة النهر الكبير . بل لعلهم أقرب إليه من كل من عرف قبل أن يجنده الأتراك ، أو بعد أن فعلوا ، على الرغم من أنه نسيهم طويلاً ، وربما كان لن يذكرهم من بعد ، لولا الجسر .

لم يتوقف عن السير حتى القرية . أجفل وقع خطاه الكلاب فنبحته . وأجهد ضرباته أخوته ، كما أجفله ألاّ يفتح والده الباب ، وألاّ يسمع له صوتاً . كان الوالد ممدداً في الزاوية ، يكز على أسنانه ، ويدير عينيه بين حمادي وشقيقه . وكان حمادي ينهار لما حل في غيبته : فالمخفر أكد لوالده أن هيلانة قد عثر عليها مقتولة قرب طرابلس ، والوالد نقل من اللاذقية إلى هذه الزاوية على دابته ، لايقوى على الحراك أو النطق .

في الصباح أقبل كثيرون يسلمون عليه ، ويواسونه . وفي الضحى عبر الثوار بالقرية . وكما في كل مرة عبروا بها خلال الشهور الفائتة ، التحق بهم واحد على الأقل من شباب القرية . وكان حمادي الحسون هو من فعل هذه المرة ، كأنما هو على موعد معهم ، أو كأنما قد أمضّه انتظارهم . ولعله ظل كذلك وهو يقاتل من مكان إلى مكان ، حتى نجا من الموت في البودي ، بقدرة القادر وحده ، كما لن يمل من الترداد من بعد .

كان رصاص الفرنسيين ينهمر حوله مثل الريح المثلجة التي ذهبت بلبه قبيل مرجمين ، لكأنه غدا الهدف الوحيد لهم . توقف عن الإطلاق ، وتلفت يبحث عمن كان معه ، فبدا له أن الجميع يتطوحون . حتى عزيز اللباد لاح له يتلوى ، ثم يغور في باطن الأرض . عجزت يده عن البندقية ، وامتلأت عيناه بحرائق البودي ، فأقعى يلهج بأسماء الأنبياء والمزارات ، وإذا برصاصة تخترق ساقه وأخرى تخترق أخمص البندقية . التحم بالأرض قرب ثلاث من الجثث المزرودة الهامدة ، وبعد لأي مزق سرواله عن الساق ، وشد شملته على الثقب الذي يفور بالدم ، وتمدد متظاهراً بالموت ، حتى ابتعد الرصاص .

من موقعه في ذلك السفح زحف شمالاً إلى أن غيبه مجرى الوادي الخفيض ، وبات وحيداً . التقط أنفاسه ، وتابع الزحف صعداً إلى التلة الصغيرة على التخم . وسط التلة المغطاة بالسنديان فاجأه مزار مجهول . تردد في الاختفاء خلف الباب المخلع الخفيض المقدس ، ولكن أنى كان له أن يختفي إلا هناك ؟ ملأ حفيف السنديان العتيق صدره يقيناً أن هذا المزار جزء من القدرة التي دعاها فأجابت دعاءه ، وحمته الآن كما حمته دوم . ثقل عليه فخذه ، فجرّه جراً عامراً بالرجاء والرهبة ، يردد صلاته كما كان يفعل في شعاب الصحراء . ولعله قضى مابين جذع السنديانة الذي كان يسنده ، والمزار ، أضعاف ماقضى في الزحف من الوادي إلى ذلك الجذع .

لم يوقف الرباط النزيف . صارت الشملة تنزّ دماً . رمى القميص السميك وجعله رباطاً جديداً ، وكانت العتمة قد أطبقت . حاول أن يفتح باب المزار ، وقد خيل إليه أن

السنديان يقطر . أعجزه الباب فاستلقى خلفه ، يغالب تثاقل جفنيه ودقات قلبه المتسارعة . ولعله ظل كذلك ، أو أغفى ، أو أغمي عليه ، تلك الليلة بطولها ، أو ليلة أخرى بعدها ، لعله مات وبعث . بل إنه حين أفاق وألفى نفسه بعيداً عن الباب ، وسط المزار ، متمدداً إلى جانب القبر الطويل الأبيض الخفيض ، أيقن أنه قد مات حقاً ، وهاهو من يحيي ويميت قد بعثه من جديد ، وقد ساق إليه من ملائكته من أخرج الرصاصة من الفخذ ، ورمى الرصاصة إلى جانبه ، وجاءه بالماء والخبز . إنها معجزة هذا المقدس المجهول ، وإشارة أخرى لحمادي الحسون ، ولحسون بن أمون ، من السماء ، آن له أن يقدرها حق قدرها ، بدءاً من هذه اللحظة التي يعرج فيها نحو عتبة المزار ، فيقبل العتبة المباركة ، يتمتم ببعض ما يحفظ ، ويخرج مهيباً ، يتوحد بجذوع السنديان ، والريح التي تدوم في أعاليها ، وينحدر مع التلة على مهل ، يندغم في الوادي الذي جرى ماؤه موحِّداً ونقياً ، وإن كان رقيقاً ، وراح ينأى عن الجبل .

★★★

ترك قدميه تقودانه إلى حيث اعتقد أن الله يقدر لهما . كل خطوة كانت تضاعف إيمانه بأن كل ما عاش إنما كان مهاداً ، وفي ذلك المزار المجهول بدأت حياة حمادي الحسون التي ليس له أن يصرفها من بعد على هواه . هذه الحياة الجديدة التي وهبها الله له - كان يفكر في كل آن - ليست فقط لطعام أو شراب ، لنكاح أو إنجاب ، لشغل أو قتال . إنها لله وحده . وعلى حمادي الحسون أن يصرفها في العبادة وحدها ، أما ما سوى ذلك فهباء .

كذلك قضى زمناً بين الجبل والساحل ، على الرغم من أن سواه يقطع المسافة بين طلوع الشمس وضحاها وكان الصيف قد حل .

هللت البيوت التي عرج عليها للشيخ الأعرج ، وهي تندب الثوار المهزومين ، ربما في الشام كلها . ولما أشرف على جبلة طلع له الفرنسيون ، يسوقون عشرات الفلاحين نحو قطعة ضيقة من الأرض ، عراها الحصاد .

تقدم نحو الحشد دون أن يسوقه أحد ، فإذا بعدد أكبر من الفرنسيين يتوسط الأرض ، أمام كومة عالية من الحطب والقش . اندسّ بين الفلاحين الذين يتهامسون مومئين بعيونهم إلى رجل يقيده العساكر أمام الكومة . تطاول فلم يبصر أحداً . سأل جاره عمن يكون ذلك الرجل ، فوشوشه الجار :

ـ واحد من الذين قاتلوا مع عز الدين القسام . جاء من بعيد ، من جبال اللاذقية . ر من الحفة نفسها . حكم عليه الفرنسيون بالإعدام ، ففرّ مع من فروا إلى فلسطين خلف القسام . ولا أحد يعرف كيف رجع وحده ماشياً ، حتى قبضوا عليه أمس هنا .

تطاول ثانية والجار يوشوشه ، فحال السوار العسكري بين عينيه والرجل . وحال اللغط الذي علا ، بينه وبين الجار ، وبين ما شرع يصيح به ضابط فرنسي . كانت شفتا الضابط تنفرجان وتنطبقان سريعاً ، تتقلّصان وتتراخيان ، وأذنا حمادي تضجان بما تبين من لغط الفلاحين أخيراً :

يا رحيم ويا رحمن   غرّقْ أسطول الطليان

لكن شفتيه راحتا تهمسان :

يا رحمن ويا رحيم   اخز الشيطان الرجيم

وإذ تأكد له أن الفرنسيين سوف يحرقون الرجل حيّاً ، التفت إلى جار آخر يوشوشه ، ثم تطاول ، فإذا بعسكري فرنسي يفرغ سائلاً من وعاء صغير على أنحاء الكومة ، والضابط ينحني ، والنار تشتعل سريعاً ، والحناجر تردد :

يا رحمن ويا رحيم   اخز الشيطان الرجيم

فانطلق صوته عالياً ، ثم صمت مقدراً أنه قد أنجز ماندبه الله له ، إذ ساق هذا الدعاء على الألسنة ، ولا بد أنه جلّت قدرته ، سوف يستجيب في يوم مكتوب ، فيحرق الفرنسيين عاجلاً ، كما سوف يحرقهم بنار سقر ، آجلاً . وكانت عيناه ترمحان بعيداً ، في كبد السماء ، فوق النار والدخان ، تمجدان الروح الطاهرة التي تحلق ثمة ، وترثيان لابن آدم أياً كان ، مادام يلبس القميص الإنسي .

بعد دهر ترمدت فيه جثة الرجل الذي صار الهمس يسميه بالحاج البطل ، كما ميز حمادي ، متأخراً ربما ؛ وبعد دهر أطول ، ترمدت فيه كومة الحطب ، واختلطت روائح الدخان والحر والعرق والروث والعظام والدموع المالحة ، انصرف الفرنسيون مثل الطواويس .

كان حمادي يودع الشمس التي سوف تغطس الآن في البحر ، أو تختفي في مغارة كبيرة حتى الصباح التالي ، كما يؤثر أن يعتقد . كان يفكر في الحوت الذي يمكن له أن يبلع الشمس حين تكسف ، أو يمكن له أن يبلع القمر أيضاً ، ينكر على الآباء أن يدعوا

أطفالهم يخرجون حين يخسف القمر ، يشلعون القضبان من تخوم الحرش ، ويقرقعون بها على تنك الماء أو قطع التنك الصدئة المنسية فوق الرجوم ، ويغنون :

اترك قمرنا ياحوت يا بنطلعلك بها لعود

ويتلمس خده لأنه فعل كذلك صغيراً ، وتباهى به أمام أبيه ، فصفعه صفعةً ظلت بعدها أصابع الأب مرسومة في خد الابن ثلاثة أيام .

كان الرجال يتجرؤون خطوة خطوة على الاقتراب من كومة الرماد الذي لونته الشمس الغاربة ، وحمادي في حيرة من أمره : يتلو في سرّه بخشوع : لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ؛ فتتزاحم على صدره أشتات مما حفظ لسنين ، ويهزأ من الحوت والأطفال والمغارة ، ويوشك أن يهزأ من البحر ، لولا أن تتزاحم على عينيه الأمواج والمراكب والجزر والأرض الزرقاء والسماء الزرقاء ، ويزداد إيماناً بأن مايراه ابن آدم من الشمس ليس ظهرهاولا بطنها ولا وجهها ، كذلك القمر ، وليس صحيحاً أن أياً منهما قد كسف أو خسف إلا حين توفي سيدنا آدم . وقد يكونان كسفا أو خسفا إذ ذاك ست ليال أو ستة دهور ، فلا أحد يعلم ، بيد أنه يخلق بهما أن يفْعلا الآن ، مادام الفرنسيون يفعلون مايفعلون ، والبشر عاجزون ، بل يخلق بالحوت إن كان حقاً يحمل الأرض على ظهره ، أن يرميها عنه الآن . وإذ صحا على ما توسوس به نفسه ، استغفر الله ، واندفع نحو الرجال الذين تفجّر ما حبسوه في حناياهم هذا النهار ، وصاح بهم آمراً :

- احفروا القبر .

وكانت نسائم المساء الطرية قد أخذت تهب من جهة البحر ، فخشي أن تذرو الرماد ، وتلفت حوله ، ثم نادى على النساء أن يسوّرن الكومة ، ريثما ينتهي الرجال من حفر القبر . ولما فعل الرجال أقام لأول مرة في حياته صلاة الميت ، ثم انسلّ من الحشد ، يستره الظلام ، إذ فطن بعد أن ختم الصلاة وتراجع عن القبر قليلاً ، إلى أن أحداً لم يعلمه تلك الصلاة ، وقد يكون أخطأ أو افتضح أمام النساء الجاهلات ، فكيف بالرجال ؟ وإنْ لم يكن ذلك ، فقد يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي ألهمه ، كرمى للحاج البطل ، ومهما يكن الأمر ، فقد اندفعت قدماه خفيفتان رغم العرج نحو الشمال .

★★★

زمناً آخر قضى قبل أن يصل إلى قريته ، على الرغم من أن سواه يقطع المسافة بينه وبين ذلك السهل الذي اكتنف القبر ، بين طلوع الشمس ومغيبها ، وكان الشتاء قد حل .

كان والده قد قضى ، وشقيقه قد التحق بالثوار ، ولم يعد ، شأنه أو شأن من عادوا سالمين من رجال القرية . فغرق في صمته وصلواته وعزوفه عن الطعام والشغل إلا فيما ندر .

تهامست القرية في البداية أسيانة :

ـ الحزن على والده وأخيه وأخته ، الحزن على شبابه بعدما صار أعرج ، الحرب من قبل ، والثورة بعدها ، ما جعل حمادي هكذا . والزمن يعينه على السلوان .

ولبثت تنتظره أن ينهض مما به ، وهي تتعود عليه أيضاً ، شأنها شأن الشيوخ الذين صاروا يزورونه من القرى القريبة ، فالأبعد ، يختلون به ، يثيرون فضول الشبان من أقرانه خاصة ، ويفوح من مجالسه معهم البخور ؛ والقرية التي أنهكها الشتاء ، شأنها كل عام ، تتدفأ بما يغبطها عليه الشيوخ وسواهم ممن يجاورونها ، إذ خصّها الله بهذا التقي الذي نحل عوده ، ووهن ، حتى لم يعد يقوى على النهوض أو السير دون العصا .

سرعان ما صار حمادي الحسون شهيراً ، وأنحاء الجبل القريبة ، والعصية ، تردد على الدروب والتنانير أو في الجنازات والدكاكين ، وما يرسم شؤونها الصغيرة ، خبر ذلك الشاب ـ أو الكهل العازب ـ الذي نذر حياته للعبادة ، بعد أن طاف في الدنيا ، وعرف منها مايجهله الآخرون . وقد قبل الله النذر ، فبارك ابن الحسون الذي نُسي أبوه وأمه وذووه ، وباتت ليده لمسة الشفاء . حتى النقرس والجنون يقدر على معالجتهما .

في الآن نفسه بدأ بعض الشيوخ يشفقون على الناس مما يهولون ، وربما ندم بعضهم على أنه قد تسبب في بعض ذلك . وذهب بعضهم إلى أن كل ذي عاهة جبار ، وعاهة ابن الحسون العرج . ولعله قد تعلم في غربته مما يعالج به الحكماء المرضى . وماكان ذلك بعيداً عن حمادي ، إلا أنه عوّد من يتهامس به أمامه على أن يغضي ، يلوذ بالله وبالصمت . وقد يكون لم يأبه حقاً ، لولا أن بعض الشيوخ راحوا يجهرون بخوفهم من أن يكون الأعرج البهلول قد ضلّ ، وصار يجدف ، وينسب إلى نفسه مالايجوز لابن آدم أن ينسبه ، ويفشي من الأسرار مايمسخ الله بسببه ابن آدم إلى قرد ، وليس إلى امرأة ، أو إلى رجل كافر .

في فترة قصيرة ، فصلاً ربما كانت من السنة أو فصلين ، تعددت الألقاب التي ألصقت بحمادي . فهو الشيخ الأعرج ، وهو الحسون المبارك ، وهو الولي الوحيد الحيّ . ولم تكن بعض الألقاب تخلو من تهوين لشأنه أو تعريض به ، فهو المؤمن المصروع ، أو الأعرج المجذوب ، أو الشيخ الملعون ، إلا أن الألقاب المعظمة هي التي غلبت . وكانت أنحاء الجبل القريبة والعصية قد أخذت تضجّ أيضاً بخبر شاب صغير أغمي عليه فجأة ، وطال إغماؤه يوماً بعد يوم ، فلا يكاد يصحو إلا لينثر مايحير من القول ، رافضاً الطعام والشراب ، ولا يعرف إنْ كان حياً أم ميتاً ، وعاقلاً أم مجنوناً هو الآخر .

كانت القرية تردد على حمادي مايصلها عن ذلك الشاب ، وبالطبع ، تضيف عليه من لدنها . وحمادي يهز رأسه ، موقناً أن أحداً سوف يأتيه ، ليطلب إليه أن يذهب إلى الشاب ويعالجه .

إلا أن انتظار حمادي طال ، وصيت الشاب قد طغا على صيت حمادي . بل إن القرية صارت تردد أن ما بذلك الشاب ليس مرضاً البتّة ، فماذا يكون إذن ؟

استبد السؤال بحمادي . بات يملأ يقظته ومنامه ، يشوش عليه صلاته وصفاءه ، يشتته وينأى به عن الناس ، ثم عن بيته ، ثم عن القرية . وفي الوكنات التي كان يختار ليختفي ، من أعماق الحرش ، كان الشاب يطغى عليه ، يذهب بوعيه هو أيضاً ، ويطيل من إغماءته . كذلك طلع له الحصان ، يعلوه ثعبان ، وللثعبان رأسان ، واحد ينفث السمّ ، وآخر الترياق ، والحصان يصهل باسم مبهم وآسر لذلك الشاب ، والصهيل يعلن قيامة الغائب من غيبوبته ، فإغماءة الشاب لن تطول ، مادامت الجبال كلها ، والوديان كلها ، حبلى به ، وقد عسر مخاضها ، وآن لها أن تضع .

أمر الحصان أو الثعبان حمادي الحسون أن ينهض ، يرمي بالعصا ، يتلو ويدعو وهو ينطلق حتى الفراش الذي يستوي عليه الشاب ، ينشد يقظته حتى يستوي على صهوة الحصان ويشرع الثعبان ، فإذْ ذاك يكون له وللشاب الوعد .

صدع للأمر وهب واقفاً . جرب أن يتلو فاختلط عليه مايحفظ ، جرب أن يدعو فازداد ضياعاً . كان يعدو مسابقاً الريح ، بلا عرج ، ومن يصادفه ، ممن عرفه أو اشتبه به أو أنكره ، شكّ بمسٍّ أصابه ، وفي صدره تترجع تلاوة وأدعية من لدنه ، لايهمّ إن كان فيها مما قبل عهده الجديد ، الذي بدأ بوصوله إلى الرجمة .

على الطرف الغربي للرجمة كانت قطع من التنك الصدىء وعيدان وبقايا مصع ا بعر وأوراق ذابلة ، وعلى الطرف الشرقي قام البيت الذي دخله حمادي لاهثاً ، دون أن يرشده أحد من الأطفال الذين تقدموه أو جروا خلفه . حيّا من في البيت ، وسمّى باسم الله وهو يطل على الشاب الذي تكاد جثته أن تملأ زاوية البيت الجنوبية . بدا له الشاب كما وصف الحصان أو سمّى أو صهل ، مستدير الوجهة ، يزين شفته العليا العريضة شاربان غزيران وطويلان ، وصدره المنتفخ يعلو ويهبط بهدوء تارة ، واضطراب تارة .

تقدم أحد الرجال يسأل متهيباً :

- ابن الحسون ؟ .

- وأنت من تكون ؟

سأله بثقة ومهابة .

- أنا أبوه .

- كيف عرفتني ؟

- سبحان الله !

- لماذا لم تطلبني إذن ؟

- سلمت أمري لله .

- وله الأمر . كم يوماً مضى عليه ؟

- عشرون ، ثلاثون ، يعني هكذا .

- وماذا يقول حين يصحو ؟

- يحكي حكاية الدنيا ، من يوم آدم وحواء .

- ماذا كان يعمل ؟

- ماذا يعمل الواحد منا ؟ كان يرعى الماعز لنا وللجيران .

- ماذا تعلّم ؟

- ماذا يتعلم الواحد منا ؟ سبحان الله ! حفظ صلاته ، ولا يقرأ ويكتب أو يحسب إلا مثلي .

- أين سافر ؟

- من هنا إلى هناك . يعني إلى جهتكم ماوصل . يمكن نزل إلى اللاذقية مرة .

- لم يذهب إلى الحرب ؟

- كان صغيراً .

تعالت خارج البيت أصوات الأطفال ، تردد عن لسان حمادي صهيل الحصان ، وسمع صوت امرأة تزجرهم وتجزم بهبلهم وهبل ابن الحسون ، وتصيح :

ـ حصان بدون خيّال ؟

نهرت المرأة والأطفال أصوات الرجال ، وسأل والد الشاب :

ـ ما قصة الحصان والخيال ؟

قال حمادي بثقة ومهابة :

ـ علمها عند الله . أهي أمه ؟

ـ أمه ماتت أثناء ولادته . ولم يقبل ثدي امرأة .

ـ أليس لك أولاد سواه ؟

ـ كان بكرها . من بعدها لم يرزقني الله بذكر . تزوجت مرتين وماجاءني إلا البنات . ماذا أفعل إذا وقع له مكروه .

أسرع حمادي إلى الباب ، فإذا بنساء مقرفصات ، والأولاد يترقبون . سأل :

ـ أين الحصان ياأبالسة ؟

قال أكبرهم :

ـ اختفى في الحرش .

عاد يعرج على مهل ويلعن الطفل . تربع قرب رأس الشاب هامساً :

ـ انهض انهض .

انفرج جفنا الشاب عن عينين عسليتين واسعتين . تبسم حمادي ، والشاب يتحامل على نفسه .

أسرع إليه أبوه يعاونه ، ووقف الرجال . أمر حمادي بثقة ومهابة :

ـ اتركوه . وحده يقوم .

تمايل الشاب وهو يستوي في الفراش ، ثم تمايل وهو يقف ، ويتمتم بما لم يتبينه أحد . دعا له حمادي بكأس من الحليب ، وزغردت امرأة في الخارج ، واهتاج الأطفال وكبّر الرجال . مشى الشاب إلى الباب ، وأرسل نظره بعيداً صوب الحرش . لحق به حمادي وحده ، ورأى أن الشمس تضاعف سطوعها . تراجع الشاب إلى فراشه ، وحمادي يأمر بالبخور ، ثم يأمر الرجال بالخروج ، لايستثني والد الشاب . خرج الجميع مأخوذين ، ثم أحضر أحدهم البخور ، فتناوله حمادي وصفق الباب ، وأقبل يدور حول الفراش حتى أمره الشاب أن يكف ويأتيه بالطعام . نكس رأسه للأمر الذي بدا له

مقدساً ، وغامت عيناه ريثما أحضر أحدهم دجاجة مسلوقة أو مشوية ، وأرغفة ساخنة فأتى عليها الشاب ، ثم استلقى ، كأن ليس به سوء . أرعشت حمادي رائحة الدجاجة أو الخبز أو البخور أو الشاب الذي لم يغتسل منذ شهر أو شهرين ، فنهض مدارياً نوم الشاب ، وخرج مغلقاً الباب خلفه ، آمراً بابتعاد النساء والأطفال ، ثم تقدم يهوّم بسرّه حتى طرف الرجمة المطل على الحرش ، والرجال يتبعونه . انحنى يهيء لنفسه مطرحاً ، ولما تربع تطلع في الوجوه العكرة يسأل عن الشيوخ ، ويأمر بأن ينادى عليهم من كل صوب ، فالدنيا تشهد ما لا تشهده إلا كلما دار الفلك دورة ، بين قبة وقبة ، أو خسوف وكسوف ، وأُظهر الغائب أو غيّب الظاهر . وصدع الرجال للأمر وهم حيارى أو سكارى .

★★★

17

ياسين الحلو ، هذه المرة ، هو الذي اقترح على الأمير دشاش المهمة ، وتنطع لها ، بعد أن ضاق بما لاح له من كيد التاجرين اللذين يتوليان القصب ، سنة تلو السنة ، وبكريم الظاهر في تل أبيض ، وبالأكراد جميعاً ، سواء في تل أبيض أم في الرقة .

ربما بدأت مزاحاً المنازعة الصامتة الأولى لياسين في عين آدم ، بعد منازعته الصائتة الأولى ، والجادة ، مع راغب الناصح . وكما أقلقه في هذه أن الأيام تمر ، وهو عاجز عن أن ينتصر أو يتحرك ، كان شأنه في تلك . ثم زاده قلقاً أن تبدأ المنازعات في حياته وفي شغله ، فتعيق نجاحه الهادىء ، وتخضّ أمانه . ولعله لذلك كان يعزو مايقوم بينه وبين كردي أو آخر إلى تاجري القصب ، وكريم الظاهر ، إذ لاينبغي لأي رتق ، مهما هان ، أن يتّسع فيما ينسج لنفسه ولأسرته .

كان قد حلا له في هذا الربيع أن يكثر من الخروج إلى البادية مصطحباً ابنه أحياناً ، والأمير غائب ، وهو بلا مهمة . وقد صادف أغلب ذلك حيث ينتجع البيجان من الأكراد . ولأنه لازال جاهلاً بالطيور التي يتسامر فيها الأمير مع الرجال ، فقد كان يتأمل أسرابها ، ويسعى إلى أن يتفرج عليها في أيدي الشبان الذين يصطادون ، ويتعالم بها في الأماسي ، فيثير الضحك من حوله ، ويمقت من نفسه أنها لاتميز بعد هذا العمر وهذه المكانة بين القطاة والحباري ، أو بين الزرزور والحمام البرّي ، كما يمقت ممن حوله أن يتطاولوا عليه ، وينتهزوا تبسّطه .

على النهر ، وفي عين عرموس ، كان الأمر اسوأ ، إذ ورط نفسه نهاراً بين الوز والبط الأسود ، وورطها ليلاً بين صقور الأمير وهذر تاجري القصب وكريم الظاهر ، وكانت الشكوى تعلو من جور التاجرين على البليخ ، ومن استقواء كريم بعصبته من الأكراد ، في تل أبيض وخلف الحدود . كما كانت أصداء ثورة الأكراد في ديار بكر ضد

إلغاء الخلافة تتردد حول ياسين ، وترسم له على الوجوه الكردية عصبة أشد ، واستقر لايجوز في حمى الأمير دشاش .

اختلط الأمر على ياسين سريعاً ، وعلى حين غرة . فالتاجران يتوددان إليه ، ولكنهما لايأبهان بما يقول . والفلاحون يهزؤون في صمتهم من شكواهم ، ومن مناصرته لهم . أما كريم الظاهر ، فيدير ظهره له ، ساخراً مما يلمح إليه . وقد كان سوعان لاينِي يهمس في أذنه عن سرّ ما ، بين كريم والتاجرين ، لعله تجارة أخرى بالقصب ، من خلف ظهر ياسين ، قبل الأمير . فالأمير لن يحاسب إلا ياسين ، أو لن يبدأ إلا به ، وقد يكون السر توطئة لاتّجار جديد بالأرض في تل أبيض . وقد يكون لأمر أكبر ، مادام كريم لايتغنى فقط بمن ثار في ديار بكر ، بل بمن ثار في العراق أيضاً من الأكراد ضد الانكليز . وكان يغيظ ياسين أنه جاهل في ذلك كله .

ولأنه لم يكن قادراً على أن يظل يتفرج طويلاً ، فقد تحرك لسانه أخيراً أمام الأمير ، من القصب والفلاحين إلى التاجرين وكريم إلى الأكراد والأرض . ولأن لسانه كان يتحرك جزافاً ، نهره الأمير :
- مابك ياياسين لاتجمع كلمة مع أختها ؟ قل ماعندك وخلّصني .

عندئذٍ جفّ حلقه ، وأطرق ينتظر أن ينزل به عقاب الأمير الذي التفت إلى سواه . ولما طال انتظاره رفع رأسه مدارياً ، ورأى الأمير رائقاً ، فلعن وساوسه وعجلته ، وفكر فيما يملص به من هذا المأزق ، وتمنى أن ينساه الأمير الآن ، لكن الأمير عاد إليه بعد قليل رضياً :
- هه ياياسين ؟ ماقلت ؟
- أقول ياطويل العمر بعد اذنك ، الحق الكذاب لباب الدار ، وخسارة مافيها . أخطف رجلي من هنا إلى ادلب والجسر . أشوف بعيني ، وأسمع بأذني . أبدأ من بعيد ، والقريب بين أيدينا . نعرف قصبنا من أوله إلى نهايته . ويمكن أيضاً أن نرى له نهاية أفضل ، ومايذهب إلى غيرنا نحن أولى به . يمكن أن يكون هناك تجار يدفعون أفضل . بعد هذا نرجع إلى تل أبيض . يمكن أن نكون مسكنا برأس خيط . والعين على كل حال لايجب أن تغفل ، حتى لو ماوصلنا إلى شيء هذه المرة . الاحتياط واجب ، طال عمرك ، والرأي رأيك .
- توكل .

قال الأمير ، فوقف ياسين :

ـ يومين والثالث . . .

ـ على مهلك . ماخلفك شيء حتى تركض هذه الأيام .

قال الأمير مقاطعاً ، فتضاعفت فرحة ياسين ، وحيّا مودعاً . ثم ركض إلى هند ، يزفّ إليها بشرى المهمة الجديدة الخطيرة ، قريباً من الزنبقلي ، وهللت هند للقائه الوشيك بأهله ، بعد انقطاع طويل ، داعية أن يجمعها الله بأهلها في يوم قريب ، فأقسم ياسين على أن يحقق لها ذلك ، أسرع مما تأمل .

★★★

في الطريق استوقفته حلب التي كانت تفور ساعة وصوله إليها : المناشير تغطي الجدران ، ناهية عن الفحشاء والمنكر ، معرضة بتجار العطور ، وداعية إلى طاعة الله وأداء الفروض .

من كل منشور قرأ ياسين نتفة ، وتوقف أطول عند زجرها للشبان عن بيوت المومسات وأسواقهن ، وعند تخويفها من الداء الفتاك الذي تورثه معاشرتهن ، فضلاً عما ينتظر من يقترف ذلك من عذاب النار .

من أجل الفقرات الأخيرة هذه ، زاحم الذين يقرؤون ، أكثر مما فعل أمام صور مصطفى كمال من قبل ، وتمعّن في الكلام أكثر مما تمعّن يومئذٍ في صور النساء . ولما انتهى من القراءة ـ وقد فاته كثير ـ أنصت إلى بعض الواقفين ، يندبون زمن الإسلام الذي انقضى ، ويتنبؤون بما هو أعظم ، مادامت راية الخلافة قد طويت إلى الأبد ، فتذكر كريم الظاهر ، والأكراد ، وثورة ديار بكر ، ومشى متلفتاً في سائر الجهات ، يتوقع أن يتراكض الناس ، ويظهر الفرنسيون ، وكانت الساعة تدق خلفه . وإذْ اطمأنّ ، تمهّل في سيره ، وتجرأ على أن ينظر إلى النساء المعدودات اللواتي صادف ، يستذكر عهده في اسكندرون ، ويبلع ريقه .

لم يغادر حلب في اليوم نفسه كما كان يعتزم . فقد ألحت عليه نفسه بيوم لها وحدها في هذه المدينة ، ورأى أن يكون سخياً معها ، فتركها تجري على هواها ، من سوق الكتان إلى سوق الجوخ إلى سوق الحرير إلى سوق العطارين . ودار معها على هون في خان الجمرك ، أمام الدكاكين والمكاتب والمصارف . ولأنه صادف ثمة الصيرفيّ الذي

يتردد منذ سنة على الأمير دشاش ، وشرب على كرسي مقابل له الشاي ، فقد كافأ نفسه بكأس آخر في مقهى الكلداني ، وهو يفكر في مكتب الشركة البريطانية الشرقية الذي يلاصق الصيرفي ، فكيف يستقيم أن يكون ذلك المكتب الكبير الصاخب ، والفرنسيون يحكمون البلاد ؟ على أنه لم يشأ أن يثقل على نفسه بذلك ، فتابع تجواله ، وتملّى بخاصة مطاعم الشوائين والكراسي الوسخة والفلاحين المتزاحمين أمام صحون الكفتة ، ووعد معدته بطعام أنظف وأشهى في مطعم يليق بياسين الحلو . وهكذا ملأها بصحنٍ من الباذنجان المحشو ، وآخر من الكوسا المحشو أيضاً ، وثالث من المخللات ، وأوشك أن يستجيب وهو يبتعد عن المطعم الراقي ، إلى شواء طلع له في زاوية الشارع فجأة ، منادياً بصوت رخيم :

- تع معلق .

فتوقف يتفرج على عجوز هاله منه شبهه بغنيم الضرس ، ونهمه أيضاً ، إذ كانت كومة من الأسياخ تصطف أمامه على لوح خشبي صغير ، وملء الحفنة من السماق والملح والفليفلة ، وهو يغمس بسخاء عدة قطع من اللحم الساخن ، ويحشو فمه حشواً ، وقبل أن يبلع يعيب على الشواء أنه جعل القطع كبيرة ، أو ترك اللهب يلسعها في المنقل .

مساءً تنقل من المنشية وصنوبراتها وحوضها الدافق ، إلى حافة قويق المصطخب ، ثم عاد إلى باب الفرج ، متمهلاً أمام آلات الخياطة التي تعرضها شركة سنجر ، وفي كراج مودرن ، وعلى زاوية خان عزيزة ، حيث خفت الأصوات الصارخة بالمسافرين ، ثم أوى إلى أول فندق صادفه قرب مقهى النافعة ، ولم يشأ أن يلبي دعوة صاحب الفندق إلى كأس من الشاي ، ونفس من الأرجيلة ، إذ كان السير قد أنهك قدميه . كما كان يرى أنه قد منح نفسه أكثر مما كانت ترجو منه ، على الرغم من أنها ظلت تلح عليها طويلاً قبل أن يغفو ، باسكندرون وبحسيتا .

في اليوم التالي لم يعرج على ادلب ، وهي الأقرب ، إذ كانت الزنبقلي هاجسه . الذي بات أقوى ، كلما نأى عن حلب . كذلك تابع إلى الجسر ، ثم استأجر بغلاً وهو يخفي امتعاضه ، فقد كان يفضل أن يدخل الزنبقلي على حصان ، ولو أمكن ، في سيارة بويك ، مثل التي يقال إن الأمير دشاش اقتناها في حلب . إلا أن الخانات لاتؤجر إلا البغال والحمير ، وإن كان ياسين غير عابىء بالأجر .

أمر المكاري أن يدور خلفه على بغله الأهزل ، ريثما دار حول السور ، ورأى كرم الزيتون في أرض أم مرعي ، فإذا بالزيتونات التي غرس قد كبرت ، حتى كاد أن

ينكرها ، كما أنكر الحارس الجديد على بوابة السور بعد قليل ، وأبويه اللذين شاخا ، شقيقه الذي غلظ شارباه وصوته ، والبنتين اللتين تزوجتا في دير عفّان ، ورستم آغا الذي انتفخ وجهه ، وتهدلت عيناه ، ورحب به ، ودعاه إلى أن ينام في المضافة ، فياسين الحلو الآن من رجال الأمير دشاش . ورستم آغا يجلّ الأمير دشاش ، على الرغم من أنهما لم يلتقيا ولم يتصلا من قبل ، كما يعرف ياسين أو كما يجهل . ولسوف ينقل للأمير تحيات الآغا ، وشوقه إلى لقاء قريب ، وهدية لائقة ، لولا أنه سوف يقضي وقتاً غير معلوم بين الجسر وادلب .

قبل أن ينام حيث كان ينام وهند ، قبل أن يبرح إلى أرض أم مرعي ، حاول أن يغري أبويه وشقيقه بالانتقال إلى حمى الأمير دشاش ، أو العودة إلى تلدف ، إلا أن العجوزين تعللا باليسير الذي تبقى من العمر والقوة ، مما لايحتمل ، رحيلاً جديداً . وشقيقه تعلل بالشقيقتين المتزوجتين في دير عفّان . ونوه مثل أبويه برستم آغا الذي لان . ثم فاجأه بمن جاء منذ سنة ، أو أكثر ، يسأل عن ياسين الحلو . إنه أبو عاطف ، وقد خرج إليه شقيق ياسين ، إذ لم يسمح له الحارس القديم الذي كان لايزال حياً ، بالدخول ، كما لم يسمح الحارس الجديد بعد ، للشاب الذي سماه أبو عاطف : ياسين الصغير ، برد الزيارة ، إلى أرض الشيوخ .

استل منه ماطالع به ذويه أول وصوله من ثقة ومباهاة ، إخفاقه في أن يرحل بهم من الزنبقلي . ولم يخفف عنه أبو عاطف الذي يستطيع أن يراه غداً لو شاء . وإذ هجعوا وتركوه مسهداً ، غصّ فؤاده ، وهو يرى أن بضعةً منه سوف تظل نائية ، ومجهولة ، وأنه لن يكون إذن قادراً على أن يرأب هذا الشرخ في أعماقه . ولما سبقهم إلى النهوض ، تشاءم ، وهو يفتح الباب الذي ازداد اهتراءً ، ويطل على الزنبقلي التي لازالت أسيرة ومقبضة ، من أن يخيب فيما تنطع إليه بين ادلب والجسر ، كما خاب أمس في هذا البيت . ولعله لذلك رد تحية أمه التي لحقت به ، بفتور ، وعجل في الانصراف ، والشمس لما تكد تشرق .

★★★

عاد به المكاري إلى الجسر ، وهو يكتم رغبته في أن يسلك الدرب الذي سلكه مع هند ذات يوم قريب . وفي الجسر لبث في خان الكوبرلي ، يزجي الوقت مع النجار الذي

لم يره بالأمس ، ولا حين التقى ثمة بحمادي الحسون . ثم انقاد إلى مكاري آخر نحو أرض الشيوخ ، وهو حائر فيما قدم من أجله ، ونفسه تزداد كلما اقترب من اسماعيل معلا انقباضاً .

من كل صوب تدافعت إليه العيون ، وهو يطل على البيت الذي قيل إن اسماعيل معلا يسكنه . كانت العيون تبحلق بياسين ، من قريب أو بعيد ، وقد خيل إليه أنها أكثر صفرة من القاوون الذي يملأ الهضبة ، وأخشن ملمساً . وساءه أنه لايميز فيها بين عين مرحبة وعين نافرة ، بين عين صديقة وعين عدوة ، بين عين ساخرة وأخرى شامتة وثالثة لامبالية ورابعة وخامسة أو سادسة وعاشرة وحدها مشجعة ، تعشيه عين هند ، أما العيون الأخرى ، فربما كانت لرستم آغا نفسه ، في شدته وفي لينه ، لراغب الناصح أو العبد حمود ، لشعيلة أو لتاجري القصب ، لصادق آغا الباعا أو لهفل ، للصيرفي أو لشيوخ المكحل والطفطافة والطبيب الفرسي والأكراد وشقيقه الذي يعد اسماعيل معلا برد الزيارة ، فقد صار الولد رجلاً ، وتزوجت الفتاتان الصغيرتان ، وشاخ الأبوان ، وربما يكون أبو عاطف قد شاخ أيضاً ، أما هو فلا يزال يراوح مكانه ، وقد ضاق به المكاري والبغلان ، فيما يظن نفسه أنه قد أخرج الزير من البير ، وصار رجل الأمير دشاش ، ولكن العيون التي تحاصره من كل صوب ، وفي رأسها عينا هند نفسها ، تشك في أنه قد استطاع أن يحقق شيئاً ، أو أن يكون هو نفسه شيئاً ، تهز يقينه ، وتجعله لايعرف كيف يسلم على أبي عاطف الذي هرول إليه صاحباً ، فأجفل المكاري والبغلين ، دون أن يرمش لياسين جفن .

★★★

18

لم يستطع أبو عاطف أن يخرج ياسين من كآبته . ظل مقطباً ، وعازفاً عن الكلام ، يتململ كل حين ، ويهم بالعودة ، حتى ظهر عزيز اللباد ، وأقسم أبو عاطف أن هذا اليوم يوم السعد ، والسماء قد ضحكت له ، ونادى فاطمة كي تحتفي بصديقيه الغاليين .

كان عزيز قد حسم تردده في مغادرة الغاب نهائياً ، والتوجه إلى حمص ، إثر ماجرى بينه وبين فياض العقدة ، في نهاية موسم الصيد ، لقد أيقظه فياض على أنه قضى في الغاب أطول مما ينبغي ، كأنما يغط في سبات عميق . ولولا ظهور فياض على رأس متعهدي الصيد ، لامتد السبات حتى أتى على كل ماعاش عزيز قبل مداهمة الفرنسيين للمصبنة ، واعتقالهم لوليف كيروز .

عصر ذلك النهار خرج من حلب متخفياً ، قاصداً الغاب ، كما أشار عليه جمعة الختيار . وفي تعرجات الطريق به ، عاد إليه الأمان ، إذ لازال الغاب ملجأ العصاة . وثمة في ناحية منه ـ لابد ـ اسماعيل معلا ، ولسوف يلتقيه عزيز اللباد ، وقد يعيشان معاً ، حتى يكون بوسعه أن يعود ثانية إلى حلب ، أو إلى حمص ، أو إلى الشام ، وربما إلى قبية نفسها . إلا أن أبا عاطف لم يظهر في أي من محطات عزيز المتلاحقة ، لافي غرب الغاب ، ولا في شرقه ، ولا في وسطه ، حيث أناخ أخيراً .

أصداء القتال مع الفرنسيين ظلت وراءه ، ولعلها أول أو أكبر ماأخذ يغرقه في الغاب . كان القتال على أشده ، من البادية إلى الجبال التي تسوّر المستنقعات والسهل ، بين البدو والفرنسيين ، كما بين الفلاحين والفرنسيين . وكان ماأخذ يتواتر من هيمنة الفرنسيين يجعله يبالغ في التخفي ، فينهي مقامه فجأة في مكان ، ليحل فجأة في سواه ، يحتال على اليأس ، بنوع من النسيان ، لايكاد يخلد إلى البدو ، أو من كانوا بدواً شرقي الغاب ، وهم يسوقون قطعان الغنم ، حتى يعجل إلى الفلاحين الذين انحدروا من

الجبال إلى غربي الغاب ، وهم يسوقون قطعان الماعز . ولما أيقظه فياض العقدة ، رأى نفسه بين جمع من هؤلاء وجمع من أولئك ، في الوسط ، سوى أنه افتقد قطعان الغنم والماعز ، فليس ثمة إلا قطعان الجواميس ، كما حلت في الجزر الصغيرة أخصاص القصب محل البيوت الطينية أو الحجرية أو الخيام .

كان البعوض وحده في البداية كافياً ليجعل النوم هاجساً أوحد ، حتى بعد أن صار له كيسه الخاص الذي يحشر نفسه فيه محتمياً من اللسع والأزيز ، شأن كل من هناك ، من كبار أو صغار ، ورجال أو نساء .

على ضفاف المستنقعات الشاسعة فقط انتظم عيشه على نحوٍ ما : يبدأ نهاره بالإطلالة التي تعود على القلعة المهيبة رغم تآكلها ، يدور بعينيه حولها ، كأنما يلقي بتحية الصباح من إحدى زوايا قبية على برج صافيتا ، ثم تنحدر العينان بأناة إلى وادي العاصي ، فالمستنقعات والجزر وأطراف السهول والجواميس التي تسبح أو ترعى . ذلك هو عالمه الجديد الذي لايلبث أن ينهض ، فيملأ النهار ومطلع الليل بصخبه ومجازفاته وألوانه : الوجوه الصفراء ، الوجنات الغائرة ، القامات النحيلة ، البطون المنتفخة ، الطيور والحيوانات مما عرف وجهل وألف واستوحش ، لاتفسح للعين من أعالي السماء حتى قاع الماء . ولاوقت إلا لعصا تهشّ على جاموس ، أو تدفع قارباً . لاوقت إلا للصراخ أو المرض أو الموت أو النحيب أو الصيد أو النوم . ولئن كان قد حيره أول الأمر أن من حوله يتزوجون وينجبون ، رغم أنهم لايهدؤون ولايبتسمون ، فقد سلا عن ذلك سريعاً ، مثلما تعود ألاّ يقلقه إسهال مديد أو مفاجىء ، أو أن يتلمس بطنه خوف أن يكون قد انتفخ ، مثل سائر البطون .

موسم الصيد كان المفصل الأكبر في حياة عزيز هذه . انتظر بشغف قدوم متعهدي الصيد وانطلاق القوارب الصغيرة الطويلة ، ليجرب واحدة من الحراب القصيرة ، أو واحداً من الرماح المثلثة البراثن ، ويقاتل السنّور الأسود ، ويكون له الأجر الجزل ، فلا يعود يستجدي الشغل يوماً هنا ويومين هناك ، ثم لايجد في المساء مايتعشى به .

قبيل وصول المتعهدين جرب الصيد مراراً . ركب الجرف الخشبي ، تعلم كيف يمسك بالعصا الطويلة ، يرسلها بقوة في القاع ، فينزلق الجرف هيناً عن الضفة ، ويندفع بين أكمات الأعشاب والقصب . تعلم كيف يتحاشى الأعشاب الدبقة التي ترسل ألسنتها بعيداً ، كأنها زُرعت فخاً للجرف . وعلى الرغم من حذره الشديد ، فقد ساق الجرف مرة إلى الفخ ، وصاحب الجرف يصرخ ويشتم ، ولكن ما النفع ؟ لقد أطبقت الأعشاب

على الجرف كالاخطبوط من كل جانب ، ولم تفلح استماتة عزيز في التملص منها ، فيما صاحب الجرف يلعلع :

ـ يلعن والدي إذا ماكنت أجحش منك . كيف قبلت تشغيل أعمى معي ؟

وعزيز يلعلع ، فتضيع أصواتهما وسط نقيق الضفادع المستثارة ، وربما بفحيح الأفاعي وخشخشة السلاحف . وطال انتظار مرور جرف آخر ، وحد الأصوات جميعاً في طلب النجدة .

إثر إفلاته من الفخ أمره صاحب الجرف أن ينزل إلى الجرف الآخر الذي رفض صاحبه أن يحمل عزيزاً ، لولا أن صمم الأول على أن يرميه في الماء والأعشاب .

ربما كان قادراً آنئذٍ على أن يضرب الرجل بعصا التجديف على رأسه ، ويرميه لقمة سائغة لما في المستنقع من نبات أو حيوان . وربما أبطن أن ينتقم ذات يوم ، وهو يرى حياته تتأرجح بين عناد صاحبي الجرفين ، لولا أن صاحب الجرف الأول مالبث أن لوح له وهو يبتعد ، مثنياً على رجولته ، يؤكد أنه سوف يتعلم الصيد سريعاً ، ويوصي به من في الجرف المنقذ ، فانقلب الخوف والانتقام هذراً أبله .

وصل المتعهدون تباعاً . وجاء بعضهم بصيادين وقوارب وشباك من طرطوس ومن جزيرة أرواد أيضاً . وبدا لعزيز أن سباقاً يزداد وحشية كل يوم ، قد انطلق . وأنه قد يهوي بين الأقدام أو القوارب أو رؤوس السللور السوداء الهائلة ، إذا وقع في أدنى خطأ ، ويتلاشى وسط الغطاء الجديد لوجه الماء ، حيث لم تعد الأجراف تظهر إلا لماماً ، ولا الجواميس التي يمتطيها الرعاة الملوحون بعصيّهم فوقها ، وهي تسبح بهم بين جزيرة وجزيرة . حتى السماء أخذت تحتجب بأسراب الطيور وأصداء الطلقات التي تلاحقها ، فتندفع عالياً أو تهوي ، توشك أن تلامس رؤوس الصيادين ، مرسلة دوياً أعلى من دوي البنادق .

لم يتقدم في الصيد كما كان ينشد . ولم يتقاض سوى الأجر الذي يدفع للصبيان والمبتدئين . غير أن النقود صارت تتجمع في جيبه . كما صار له اليوم أضعاف ماكان يأكله قبل موسم الصيد . غادر الهزال جسمه ، مثل الآخرين . ولم يأبه بما تردد قبيل نهاية الموسم عن الخواجة الذي حضر بنفسه ، يشتري الجواميس بأثمان مغرية ، ويسوقها إلى بيروت . كما لم يأبه بذلك بعد أن هدأت جلبة الصيد ، وأخذت مياه الفيضان تنحسر ، لتخلف ذوائب خضراء يتسابق الجميع إليها ، يرشونها بالذرة ، ويرسلون فيها مناجلهم ، ويشعلون النار .

شارك عزيز أحدهم ، وفعل مايفعله الآخرون ، وهو يشك في أن النار لن البذار ، أو أن الرماد وحده سوف يغطيه ، ويجعل التراب الشحيح الذي خلفه الفيض أغنى من أية أرض ضاقت بالزبل .

وسواء أصابته عدوى الذرة ، أم لا ، فقد كان عليه أن يعود شأنه قبل الصيد ، عاجلاً أم آجلاً ، لولا أنه صادف ذلك الخواجة ، وهو يتلوى على الجرف في عمق البحيرة ، يحاذر التيار ، ويتشبه بفياض العقدة .

إلحاح الشريك ، وسطوع الشمس لم يتيحا لعزيز أن يتبين جيداً من يكون هذا الخواجة ، حتى حل العشاء ، فخف لأول مرة إلى الخيمة النائية التي نصبت للضيف الكبير ، بين يدي الجدار الغربي للقلعة . وتسلل عبر الدخان الذي يسور الخيمة منذ المساء حتى الصباح ، ليطرد البعوض ، وهناك ، رأى فياض العقدة ، لا الخواجة . يتوسط الرجال وكؤوس العرق والصواني العارمة .

★★★

ـ أنت الخواجة إذن ؟

صاح عزيز ضاحكاً . إلا أن الخواجة فياض العقدة لم ينهض ، ولم يضحك ، كم لم يفسح من حوله لعزيز أن ينهضه بنفسه ، فغادرته الفجاءة والفرحة ، وكاد أن يتراجع مجللاً بالخزي ، إذ أنه ـ لاريب ـ أخطأ خطأ كبيراً .

ـ عزيز اللباد ؟

ناداه وقدماه تدوران صوب الخواجة المقهقه فجأة ، فعزيز لم يخطىء إذن ، إلا أن الفرحة التي انطفأت لتوها ، استعصت عليه . لم يقنعها أن فياض ماتذكر صاحبه . مادامت عيناه قد غارتا ، ونتأت عظام وجنتيه وذقنه ، وظهرت عروق رقبته .

لقد طرأ على فياض ماطرأ أيضاً . ازداد سمنة ، وابيضّ خداه وتوردا ، وصارت لشعره هيئة جديدة ، إلا أن عزيز اللباد عرفه منذ الضحى . كما أن فياض قد أشاح عن ذلك مستخفاً ، وعاد إلى صحبه ، يشرب في صحة أحدهم ، يتابع حديثاً انقطع بوصول عزيز ، ففياض يماحك في اجرة سوق الجواميس إلى محطة حماه ، ويزدهي بإطراء رجل آخر ، ثم يعود إلى عزيز ، معيراً بما آل إليه ، دون أن يبدو ملهوفاً إلى أن يعرف ماجرى له بعد مرجين ، أو دون أن يحدثه عن نجوم الصوان ، ولا عن العم حاتم . ومالبث

بفناه أن ثقلا ، قبل أن يأتي على كأس العرق الثاني ، إلا أن فياض لكزه أول مرة ، ثم زجره في المرة الثانية ، فهم بالانصراف ، فيما فياض يأمر الآخرين بالانصراف . وقبل أن يستعيد عزيز يقظته ، سأله فياض كأنما يخاطب نفسه :

ـ هه ياأخي ؟ حكايتنا طويلة والليل طويل . قل لي : رأيت اسماعيل معلاّ من مدة قريبة ؟

هز عزيز رأسه نافياً ، وقال :

من يوم ماكنا سوية في ذلك الخان ، في حماة . تذكر ؟

قال فياض بأناة ضاعفت انتباه عزيز :

ـ هل تريد أن تراه ؟ ابحث عنه اذن في كفر عيد أو في أرض الشيوخ ، قرب الجسر . قل له إذا صادفته أنني من أرشدك إليه . ظنه أني لاأعرف أين طار بعدما هرب مني ، ولكن الزمن بيننا . قلت لك حكايتنا طويلة والليل طويل ياعزيز ؟

كان ماجرى بين فياض العقدة واسماعيل معلا آخر مايمكن أن يخطر لعزيز اللباد . ولئن كان ذلك قميناً أن يدفعه من ساعته إلى كفر عيد أو إلى أرض الشيوخ كي يسمع قول أبي عاطف ، فلا فكاك له أيضاً من أن يروي ظمأ الأسئلة والهواجس التي تفجرت في صدره ، وفياض يتقافز به ، لايهم أن يبدأ بالزيارة واسماعيل معلا ، أو ينتهي بنجوم والعم حاتم ، أو يعود إلى نجاته من الموت ، وماكان له من كفريا إلى البدو ، أو يبدأ وينتهي بعمله لدى الخواجة ثابت ، إذ سرعان ماتداخلت الأسماء والأصوات والوجوه والأزمنة : من موت العم حاتم وهو يقاتل الفرنسيين أو يهرب منهم ، إلى زواجه من نجوم الصوان ، إلى القطيعة بينها وبين فياض ، ومن الخواجة البيروتي الذي أوكل لفياض جلّ أموره في سورية ، إلى عثور فياض بنفسه على أخوة نجوم ، وتربيته لهم مع أخوته ، إلى إخفائهم عن نجوم حتى تموت بحسرتهم . . وما كان لعزيز أن يظل يلهث حتى الصباح ، فيما الزمن يمضي ، والأواصر تتقطع ، والبشر يبدلون جلودهم ، والأجفان تعجز عن العرق وسحائب الدخان وضوء اللوكس ، والصدر يضيق بصوت فياض وشماتته وهزئه ومباهاته ، فيتلوى لسان عزيز ، متردياً بين سؤال وجواب . قال :

ـ لماذا تسكت يافياض على أنك الخواجة هنا ؟

ـ ماالفرق ؟

ـ الفرق كبير . أقله : الكذب . ويمكن : الفضيحة . وأنت لايناسبك هذا ولا هذه .

ـ انس ذلك .

جاء صوت فياض حازماً ومجافياً ، فأجفل عزيز ، وقال ممازحاً :
ـ تظن نفسك في الزيارة ، أم تظنني اسماعيل معلا ؟ هذا الغاب يافياض وأنا عزيز.
ـ طز . تشرفنا .
همس فياض ، ثم أطلق قهقهةً طويلة ، وأردف بعدها :
ـ انس اسماعيل ، وانس هنا أنني فياض .
ـ كيف ؟
ـ لاتؤاخذني . أعلّمك كيف . جاء اليوم الذي يعلم فيه فياض العقدة عزيز اللباد . نسيت ؟
ـ والله ماذكرتني بما يفرح . ماحكيت لي إلا الغم ، وكفاك مسخرة أيضاً .

وماكان يريد لصوته أن يفيض خيبة أو يضمر جفاء . مرغماً فعل ، أو وهو مطبق الجفنين ، وقد يكون العرق مافعل . كما أن العرق قد يكون هو ماجعل فياض يتأذّى ، وينهر ، لايسأل ولا يعاتب :
ـ حتى هذا العز الذي تراني فيه ماأفرحك ؟ أنا اليوم الخواجة . .

قاطع صوت عزيز ساخراً ، رغم أنه أراده مشفقاً :
ـ صدقت الكذبة ؟ أنت فياض العقدة ، طلعت ، نزلت ، شرقت ، غربت ، أنت فياض ياأخي .
وقف فياض غاضباً :
ـ قلت لك انس هنا أنني خرا . كنت فياض العقدة .
رفع عزيز رأسه ملياً إلى الرجل الغريب الذي يصيح به ، وقال متمهلاً :
ـ وإذا مانسيت ؟
ـ تهرب من هنا غداً كما هرب اسماعيل معلا .
ـ وإذا ماهربت ؟

وجد عزيز نفسه ينساق في التحدي ، وكان قد وقف قبالة فياض الذي ازورّ عنه وقال :
ـ أحملك على ظهري ، وأرميك هناك . يجوز أن يطلع لك تمساح ، يريحني منك ويريحك مني .
ثم عاد إلى مجلسه يملأ كأساً له وكأساً لعزيز .

تمهل عزيز في الجلوس ، وهو يفكر في أنه قد سكر ، أو بالغ في الإساءة لصديقه ، خاصة بعد أن رفع فياض الكأس هامساً :

ـ اشرب .

بلع عزيز جرعة صغيرة ، وقال وهو يعيد الكأس ، متوخياً أن ينأى عما يعيد النقار بينهما :

ـ تكون هكذا ركعت الزيارة وغير الزيارة يافياض ؟

ـ وبالخيالة أيضاً . واحد وحده ، مثلك أو مثل اسماعيل ، هكذا أركعه . أما الجماعة . .

قال فياض ضاحكاً ، فلم يستطع عزيز أن يكتم حنقه الجديد . قال :

ـ قلت لك بلا مسخرة يافياض نحن اخوة ، لانتمرجل على بعضنا . أنت تعرف قبل غيرك : لاأحد يركّع ابن اللباد ، ولا ابن معلا أيضاً . على كل حال ، قلت لي بالخيالة إذن ؟ استعنت على قومك بالفرنسيّين .

ـ الخيالة فيهم مثلي ومثلك ، وفيهم من فرنسا ومن السنغال . يزعجك هذا أيضاً ؟ استعين عليهم بالشياطين إذا لزم الأمر .

ـ من أجل ماذا ؟

ـ من أجل الخواجة . من أجل فياض .

ـ ألا تخاف أن يقتلوك كما يقتلون الفرنسيين ومن معهم ؟

ـ تركت لك هذا الخوف . فرنسا نفسها تخاف اليوم أن تدور في حمص ، وفياض لايخاف .

ـ نفسك أغلى عليك من قومك ؟ والغريب أغلى عندك من القريب ؟

ـ أنت سكرت . من أول كأس سكرت .

ـ عزيز ماسكر يافياض . والحق كان مع العم حاتم يوم تزوج نجوم . ماأخطأ أحد غيري ، يوم مشيت معك . كان عليّ أن أعرفك على حقيقتك .

ـ والله ياعزيز يظهر أنك مثلهم . واحد شيطان والثانية أفعى والثالث . .

ـ اخرس . قطع الله لسانك .

صاح عزيز وهو يقف ، وصاح فياض وهو قاعد ، ثم صاح وهو واقف ، وأمسك كل منهما بخناق الآخر ، لكن كفي عزيز استطاعتا أن تطبقا على العنق الذي غلظ ، تحرمانه من أن يستغيث ، وترميان بفياض أرضاً وهو يكاد يختنق .

★★★

من الخيمة انطلق راغباً في الجري وعاجزاً عنه ، راغباً في البكاء حتى القتل ، وعاجزاً ، يشتم الليل الذي لاينقضي ، والصباح الذي لايأتي . لاينحشر في كيسه ، ولايهش عنه البعوض . يطير إلى الأرض التي دُسّ فيها رفات العم حاتم ، والبيت الذي يؤوي نجوم الصوان ، ينادي وليف كيروز كي يرى بعينيه ، ينادي اسماعيل معلا وياسين الحلو وراغب الناصح وحمادي الحسون ، ليحدثهم بما آل إليه فياض العقدة قبل أن يبلع الواحد منهم ريقه . ففي هذا النهار تركه عزيز في أرض مرجمين يتأرجح بين الحياة والموت ، وفي هذا المساء مات ، وفي هذا الشطر الأخير من الليل تخلّق جاموساً وحشياً ، سلحفاة أكبر من الصخرة ، لاتقدر عصا التجديف على أن تزيحها ، اخطبوطاً من الأعشاب لاتقطعها السكاكين ، خواجة من حمص أو من بيروت ، بل إن الخواجة قد يكون أهون ، فكلب الآغا أشرّ من الآغا ، والشوباصي أشد وطأة من شاهين آغا التركماني . بل إن فياض العقدة الآن ليس الشوباصي ، ليس الوكيل ، وليس أيضاً بشاره ولا رستم آغا ولا ابن الدباس ولا عبود بك الرشدة ولا واحداً من الخيالة ، فمن يكون إذاً ؟

★★★

19

كان السؤال لايزال يصدعه وهو يقترب من بيت أبي عاطف ، يشكر ، قبل أن تلوح أرض الشيوخ ، فياض العقدة على أنه قد خضه هذه الخضة ، فأعاد إليه الروح ، وجعله قريباً جداً من حمص وحماة وحلب ، من قبية والقزلي والبودي وعبود بك الرشدة ، يصل ماانقطع بينه وبين العالم منذ اعتقل وليف كيروز ، فيهفو إلى نجوم الصوان ، لايأبه إنْ اشتبه عليه صوتها بصوت أم عثمان ، يترحم على العم حاتم الذي عاش رجلاً ومات رجلاً ، يتذكر هولو التكلي وعبد الودود السعد وماكان عزيز اللباد ، ويفسح الخطى إلى أرض الشيوخ ، ليفسحها من بعد إلى الشام كلها ، يكنس من دربها فياض والفرنسيين ، والذين اجتمعوا عليه ، قبل أن يغيبه الغاب .

أمام بيت أبي عاطف التقوا ، كأنهم على عشب القشلة الحميدية منذ سنوات ، ينتظرون الإجازة ، ومن حولهم أطلت الأحراش التي يتلوى فيها الطريق الأبيض القادم من اللاذقية إلى الجسر ، وتحت أقدامهم يلتف العاصي .

أسرعت فاطمة بالشاي ، وانصرفت تدبر الغداء ، وتبعد فطوم وعاطف عن الرجال . ولم يكد عزيز يشرب كأسه حتى سأل سؤال العارف :

ـ ماذا جرى بينك وبين فياض ياأخي ؟ أبو عاطف : كلمة كلمة ، لازيادة ولا نقصان .

كان عزيز يحملق في الكأس ، فيما استوى جذع ياسين ، وغاضت الفرحة من محيا اسماعيل ، الذي زفر ثم تساءل :

ـ رأيته ؟

ـ الليلة الفائتة .

قال عزيز مشجعاً .

ـ ماأخباره ؟

سأل ياسين ملهوفاً .

ـ فوق الريح .

قال عزيز كأنما يرثي .

ـ بودي أن أراه حتى يعرف مافعل راغب الناصح معي .

قال ياسين ، فتساءل عزيز ساخراً :

ـ وبينك وبين راغب الناصح قصة أيضاً ؟ عال عال .

قال أبو عاطف :

ـ الحمد لله جعلك عزيز تنطق بكلمة مفيدة . أين رأيت راغب ؟

ـ هو معي ، لاجىء إلى الأمير .

التفت عزيز إلى اسماعيل الذي أعاد عليه بعض ماعرف لتوه عن ياسين والأمير دشاش ، ثم التفتا معاً إلى ياسين الذي أوجز فيما كانٍ من راغب الناصح بشأن العبد حمو والعبدة شعيلة . وقبل أن يبدو أنه قد فرغ من ذلك ، قال عزيز :

ـ عجل إذن إلى فياض . فلفلْ له الكلام ، وعسى الله أن يرمي كل واحد بشرّ صاحبه .

قال أبو عاطف :

ـ اسمعني إذن ياياسين . عزيز ، يبدو أنه يعرف كل شيء . هذا ماكان بيني وبين فياض . .

عينا ياسين كانتا تهربان من أبي عاطف ، كلمة إثر كلمة ، ولم يفت ذلك عزيزاً ، فبادره قاطعاً الصمت الكئيب الذي ران عليهم ، بعدما أنهى أبو عاطف حكايته مع فياض :

ـ ماقولك ياياسين ؟

ـ ماقولي ؟ عيب على فياض ، عيب ومئة عيب .

قال ياسين بحماسة لم ترض عزيز ، فسأل :

ـ فقط ؟

ـ ماذا تريدني أن أقول ياعزيز ؟

قال عزيز :

ـ اسمعني أنا إذن . هذا ماكان بيني وبين فياض حتى هذا الصباح . .

ولما انتهى ، قال ياسين :
ـ لاحول ولاقوة إلا بالله . ياحيف . عيب عليك يافياض . .
ـ ومئة عيب .

قال عزيز مقاطعاً ومتبسّماً .
ـ ماذا تريدني أن أقول ياعزيز ؟ أخنقه كما خنقته ؟ زيادة منك أيضاً .
ـ هينة . بعد قليل أكون أنا المخطىء .

ـ لاياأخي . ماقصدت . فياض هو المخطىء . والعيب لايخبىء نفسه . إنما أنت زدتها قليلاً . أنت وهو مازلتما صغيرين . الدم فائر . تصدقني ياعزيز ؟ الواحد منا يوم يعمل عند كبير من هؤلاء الكبراء ، يخلط بين رجله ورأسه . يمكن أنا أفهم فياض أكثر منك . إن بصق واحدنا لفوق وقعت البصقة عليه ، وإن بصق لتحت ، هي عليه . احمد الله على أنك ماابتليت بمثل هذه النعمة . واحدنا محسود ولكن من يأكل العصي ليس مثل من يعدها .

ـ اسكت قبل أن تبكيني . مساكين . أنت وفياض مساكين . قلبي يحدثني ياياسين أنك تفعل في حمى الأمير دشاش كما يفعل فياض في حمى الخواجة ثابت . ماخطر لك أن تكون هنا الأمير كما عمل فياض هناك الخواجة ؟

ـ اسأل عني إذن . والله لو لم يكن لراغب مكان إلا في عيوني ، مابخلت بها ، ولكن يرضيك مافعل ؟

ـ ما قصدت راغب الناصح . هو من الطينة نفسها كما يظهر . قصدي ياياسين كيف تعامل الناس ؟

ـ قلت لك اسأل عني . وعلى كل حال يوم تقع الواقعة ماباليد حيلة . العين بصيرة واليد قصيرة ياعزيز . لو كنت مكاني ، أو مكان فياض ، أنت بنفسك ، ماالذي تقدر عليه ؟
ـ ومن قال لك إني أرضى أن أكون مكانك أو مكانه ؟

تدخل أبو عاطف مدارياً احتدام صديقيه :
ـ الدنيا خربانة ، وعمارها ليس علي وعليك .

ـ لاياأخي . لاتغلط . خربانه علينا ، صحيح ، ليس عليهم . انما عمارها علينا ، وبعد هذا وقبل هذا خيرها لهم ، وبسّ .

نهض ياسين ممتعضاً ونادى المكاري ، فنهض أبو عاطف يسترضيه ، ويعنف عزيزاً الذي أدار ظهره قائلاً :

ـ اتركه ياأخي اتركه . دربه غير دربنا . أنا جئت لك على ساقيّ ، وهو جاء لك على بغل ويجرّ خلفه بغلاً .

أصر ياسين على ألاّ ينتظر الطعام ، ومشى دون أن يودع عزيزاً ، أو يودعه عزيز . وكانت فاطمة قد خرجت تستطلع اللغط . ولما ابتعد البغلان استدارت تعنف زوجها ، وتأسى على ماآل إليه الأصحاب ، ولعلها ذكرت فياض ، فخاطبها عزيز :

ـ كفي يامرأة أخي عن الندب ، والنصيحة . كنا أخوة . أكثر من الأخوة كنا . واليوم واحد منا فوق الريح وواحد على التراب . اليوم واحدنا يدوس على رقبة أخيه وغير أخيه . ماذا تريدين لزوجك أو لي أن نفعل كرمى لعيون ياسين وفياض ؟ أنا لاأتباهى ، ولكن لو كنت مكان زوجك لقطعت رأس الحية من يوم الزيارة ، وجعلت ابن العقدة كأنه ماكان .

أمام العتبة توقفت حتى انتهى ، ثم دخلت تلعن الخصام ، وأبو عاطف يهمس :

ـ دعك منها . الحق علينا نحن . الحق علي وعليك . صحيح أننا كنا نعيش مثل الأخوة ، ولكن يظهر ماكان واحدنا يعرف صاحبه .

ـ ليس ذلك ياأخي . تلك الأيام عرفنا بعضنا بما يكفي . ومن بعد كل واحد سار في درب . هكذا هي الدنيا .

ـ ترى ذلك حقاً ياعزيز ؟

ـ كيف إذن ؟ درب فياض وياسين واحدة أم لا ؟ يجوز واحد منهما تأخر عن صاحبه . لايهم . راغب الناصح يمكن له نفس الدرب . أما اسماعيل معلا وعزيز اللباد ، وغيرنا وغيرنا ، فدربنا غير دربهم . يمكن أن تكون لحمادي الحسون وغيره وغيره درب ثالثة ورابعة . هكذا هي الدنيا .

لحق أبو عاطف بفاطمة ، وسرحت عينا عزيز خلف البغلين البعيدين اللذين ضؤلا . فوجف فؤاده ، وتسلل الحزن إليه ، ففرّ منه إلى البيت يتعجل الغداء . وعلى الغداء غلب الصمت ، كأنما تحاشى أي منهما ـ كما تحاشت فاطمة ـ أن يُذكر ياسين أو فياض .

كان الغداء متأخراً ، وقد بدأ عزيز يحوص اثره ، وأبو عاصف يهيء بالقاوون ، ثم بالشاي ، ويستزيده عما يجري بعيداً عن أرض الشيوخ . ولعل ماتناثر على شفتي عزيز قد ألهب حماسة أبي عاطف ، ليس ضد الفرنسيين وحدهم ، بل ضد الظالمين جميعاً . ولعل ماتراءى لعزيز من حماسة أبي عاطف ، هو الذي جعله يتقمص شخصية وليف ، فيحدث صديقه ، كأنما يحدث نفسه ، عن البلاشفة الذين مالبث أن نسيهم ، بعيد حلب ، ويدعو أبا عاطف إلى أن يحذو حذوه ، فييمم إلى المدينة ، حيث العيش مهما عسر يظل أهون من أرض الشيوخ أو حمى الخواجة فياض والأمير ياسين . وكانت فاطمة تصغي بشوق يخالطه البله ، ثم خالطه الإنكار . إلا أن أبا عاطف قال :

ـ أترك الأرض وأجرّ ورائي هذه المسكينة وهذين الولدين إلى المدينة ؟ وأية مدينة ؟ حماة ؟ أم أسبقك إلى حمص ؟ أم إلى الشام نفسها ؟ وبعد هذا العمر أتعلم صنعة جديدة ؟ أنت لازلت صغيراً كما قال ياسين ، ودمك حام . أنا أحسدك على ماعشت في هذه السنين القليلة ، في المدينة وفي البرّ . ولكن إذا أبعدتني مرة ثانية عن الأرض أموت . الحرب كفت وأوفت . رحمة الله عليك ياالمكاري . تذكرينه يافاطمة ؟ تذكره أنت ياعزيز ؟ صوته يرن في أذني الآن : أنت فلاح ابن فلاح . وأنت نفسك ياأخي : لماذا لم تبق في حلب التي يضيع فيها الجمل ، وجئت تتخفى في الغاب ؟ حالي اليوم والحمد لله أفضل .

أنا لاأعمل الآن ، لا مقابل الربع ولامقابل الخمس . توكلت على الله وضمنت هذه الأرض ، قدامك ، كما ضمن غيري من الشيوخ الذين يشبهون شغلنا بلعب القمار ، ويقولون إنه غير حميد . نحن نضمن مانضمن ، ويمكن أننا نربح أكثر منهم ، ويمكن أننا نخسر ، ولايخفى عليك أنهم يريدون أن نظل مرابعين أو مخمّسين أو . . أملي بالله كبير .

بكره أحسن من اليوم . واليوم أحسن من البارحة . اسأل فاطمة . ولاتزعل ياأخي ، بيني وبينك ، كلامك عن المدينة ووداعك للقرى ماصدقته ، وليس فقط لايعجبني ، وإن شاء الله يأتي اليوم الذي أزورك فيه في قبية . هنا ياعزيز الظلم الذي تحكي عنه أكبر ، وهنا المقاومة أشد ، وأنت لاتحتاج لشرح . أما المدينة فلها ناسها . كل ديرة همها يكفيها ، ولا أحد يقصّر ، من الظالم إلى المظلوم .

أحسّ عزيز أنه بقدر ما اكتشف أن أبا عاطف قريب منه ، إلا أن له دربه أيضاً . أما هو ، فليس له أن يتراجع . لقد ماتت قبية قبل غيرها في القلب . وحمص على الأقل

تلحّ عليه منذ الأمس . دربه التي اختار ، تناديه . فنهض مودعاً وهو يضحك ، لأن الفراق لن يطول ، والدروب التي تتوزعه وأبا عاطف وغيره وغيره ، لن تلبث أن تتقاطع وتلتقي ، مادامت ليست درب ياسين الحلو ولا فياض العقدة . أما أبو عاطف فكانت ذقنه ترتجف حزناً ، وفاطمة تلهج بالدعاء ، وتحبس دموعها ، وتزجر الطفلين اللذين عدوا خلف عزيز اللباد .

★★★

20

ماكاد أن يتجاوز العاصي حتى أدار عنقه الصهيل والصياح . كانوا يقتربون من بيت أبي عاطف ، وفي أذني عزيز تختلط نداءات وعبارات فرنسية وشتائم ، وإذا بأبي عاطف يجري نحوه ، والرصاص يسبقه ويتقفاه . انبطح عزيز حتى هدأ الرصاص ، فتلصص ، ولكن أبا عاطف اختفى ، وابتعدت بعض الخيول ، فيما ظل بعضها يحوم في المضبة ، وعلى ضفة النهر المقابلة ، قريباً منه ، حتى المغيب .

متستراً بالعتم اجتاز العاصي ثانية ، ومن البيت الأول الذي صادفه علم أن الخيالة قتلت هذا الفلاح الجديد الذي كان جاسوساً للثوار ، وطردت امرأته وولديه بعيداً ، فيما فرّ جاسوس آخر ، ولم يخف ذلك الشاب الخائف شكه في أن يكون واحد من جواسيس الفرنسيين هو من وشى بجاسوسي الثوار .

اختفى عزيز عن عيني الشاب ، وربما ظل مختفياً عن وجه الأرض ، حتى وصل إلى حمص ، وهو يزداد يقيناً في أن من وشى بأبي عاطف وبه ، ليس سوى فياض العقدة . كان ذلك يطير به إلى حمص ، ليس هرباً من الخيالة ، بل ملاقاة لفياض في عرينه ، وسعياً إلى الثوار الذين أكد فياض نفسه أنهم يرعبون فرنسا في حمص . كان عزيز يسبق خطاه كي يكشف لأولاء من يتجسّس عليهم ، وينتقم منه لأبي عاطف ، وللعم حاتم ، ولنفسه ، ولنجوم الصوان .

طالعته المدينة كعهده بها ، والوقت ضحى ، وهو يتحاشى وسطها ، وينعطف عن طريق المشرقة كما كان يعتزم ، إلى ذلك البيت الذي تذكره قدماه جيداً . إنه بيت العم حاتم ، بيت نجوم الصوان ، بعيد المحطة . إلا أن البيت الخاوي يدفعه إلى جاره ، والعجوز تناديه باسمه ، ترحب به وتتنحى له كي يدخل ، فسوف يؤوب الشيخ رزق من بيت نظمي بديّر عما قليل . أما نجوم فقد عادت إلى مرجمين منذ زمن طويل ، كما عاد

إليها بشرها جميعاً سوى أخوة نجوم الذين ظلوا وحدهم ضائعين ، ولايبدو أن الله سو يهدي نجوم إليهم ، أو يهديهم إليها ، على الرغم من أنها ما فتئت تخرج بين وق وآخر ، تتشمّم أثرهم ، ثم تنطوي .

كان قد خلف وراءه صوت العجوز وصرير الباب حين أرجف أذنيه وقع عص الشيخ رزق ، فالتفت إلى الجسد الذي زاد انحناءً ، وحين هم بملاقاته ، بادره الشيخ :
ـ الحمد لله على عودتك ياابني سالماً . لماذا أنت واقف عندك ؟

فاض عزيز حناناً ، واستبدت به الدهشة ، فقد عرفه الشيخ دون أن يسمع صوته . هجم على يد الشيخ يقبلها ، ويستسلم للذراعين الوانيين وكأنه راغب في البكاء . وسأل الشيخ :
ـ عرفت ماجرى لنا ياعزيز ؟
ـ نعم ياعمي .
ـ حكت لك العجوز .
ـ منها ومن غيرها ياعمي . عرفت من مدة .

ـ وهذا الذي جابك ؟ ابن حلال . قلت لي قريب المرحوم ونجوم أختك أو أخته ، والله نسيت . تذكر كذبتك على عمك الشيخ رزق ؟ كذبة بيضاء ياابني . ماعليك . الحمد لله على سلامتك . قطعنا الأمل منك .

أمر الشيخ العجوز بإعداد مايؤكل ، وأمر عزيز بالاغتسال ، وتساءل عما إذا كان الجلوس في فسحة الدار أفضل ، ثم خاطب عزيزاً :
ـ ماقلت لي ياابني : كيف عرفت أخبارنا ، وماوصلك منها ؟
ـ فياض ياعمي . فياض العقدة . تعرفه ؟
ـ لعنة الله عليه . أين رأيت هذا الوغد ؟ ماذا قال لك ؟

تسمّر عزيز ، والشيخ يلحّ غاضباً ، فانصاع راغباً ، وأفلت لسانه على هواه ، والشيخ يهز رأسه مغيظاً ، ثم يقاطع مؤكداً أن فياض العقدة هو الذي وشى باسماعيل ، وربما أراد أن يضرب عصفورين بحجر ، ويوقع بعزيز اللباد .

فكر عزيز في أن الشيخ رزق إذن على صلة بالثوار ، والشيخ يقول :
ـ يجب أن ينال عقابه . هذا هو العدل . الجواسيس مصيبة ياعزيز .

أشرقت عينا عزيز ، وربما تبسّم ، إذ قالت العجوز وهي تضع طبق القش أمامه :

ـ خير ياابني . فرّحنا معك . مازال في الدنيا مايفرح الانسان له ؟ ماذا قال لك عمك حتى تبسمت ؟ والله نسينا الضحكة .

نهرها الشيخ :

ـ اسكتي أنت . مئة مرة قلت لك انسي هذا الكلام . إن بعد العسر يسراً . حفظتها ؟ قلب المؤمن لاييأس ، وأنت مؤمنة . حفظتها ؟ تفضل ياعزيز . سمّ باسم الله .

مد أصابعه إلى الرغيف وهو يسأل :

ـ ماأخبارهم ياعمي ؟ ماسمعت إلا مايقبض النفس .

ـ من ياابني ؟ الثوار أم الجواسيس ؟

توقفت أصابعه في الصحن ، وأسرع ضاحكاً :

ـ الثوار ياعمي .

تبسمت العجوز ، وتبسّم الشيخ قائلاً :

ـ مارأى الفرنسيون حتى اليوم غير المزاح . مالم يروه في جبل حوران يرونه هنا إن شاء الله .

بلع عزيز اللقمة بعسر وهو يفكر في أن الثورة إذن لم تتوقف ، أو هي توقفت قليلًا ، ثم اندلعت في كل مكان ، وهو متخف أو تائه في الغاب ، لولا أن تفضل عليه فياض ، فكيف لو أنه لم يفعل ؟ هل كان يظل مدفوناً هناك ، فيما الشيخ رزق ، لا سواه ، يقاتل الفرنسيين ، ولو بعصاه ؟

ـ هل ستأخذني إليهم ياعمي ؟

سأل عزيز وهو يدفع الطبق ، عاجزاً عن أن يأكل .

ـ بارك الله فيك ياابني . ولكن المقاتل لاتكفيه لقمة .

قال الشيخ متبسماً ، وعرضت ابتسامة العجوز ، وعزيز ساه عنهما .

★★★

تباطأ عليه المساء ، وهو ينتظر اللقاء بنظمي بديّر وصحبه ، يداور لهفته وتوفزه ، يقرع نفسه على ماساورها بالأمس ، حين رمى البندقية إلى جانب السنديانة ، وهو يحسب أن الثورة قد انتهت . كانت أشتاته المنسية تنهمر عليه ، تؤكد له أن هولو التكلي وعبد الودود السعد يقاتلان الآن في الشام أو في الغوطة ، وقد يكون حمادي الحسون نجا

من الموت في البودي ، ويقاتل الآن في الجبل أو على الساحل ، وليس لأحد أن يتفرج كما يقول الشيخ رزق بحق . حتى نجوم الصوان يمكن لها أن تقدم نفعاً ، ولعل قبية كلها قد سبقته ، فيما هو ينتظر انتهاء الصلاة التي لم يدعه الشيخ رزق إليها ، ثم يلحق به م أمام الجامع إلى بيت نظمي .

خلف الباب وقف ، ريثما تهامس نظمي والشيخ ، ثم انفتح الباب على عدد من الرجال المتربعين ، ردوا التحية عجلين ، والتفتوا إلى أحدهم يستحثونه ، فتابع قائلاً :

ـ وكما كانت الأحزاب أيام الملك بلا نفع ، رأيناها في السنين الماضية . لذلك الناس تأمل الخير من الحزب الجديد . على الأقل قيادة هذا الحزب هنا ، بيننا ، في البلاد . أين هي قيادات الأحزاب بالله عليكم ؟ من مصر إلى أوروبا ، يريدون أن يحرروا البلاد من بعيد ، حتى يظل الصباط يلمع ، والكرافة مكوية . من منكم سمع أن حزب الوحدة حل نفسه منذ أيام ؟

ـ خاف من أن تحرقه النار التي أشعلها الثوار من جديد .

قال نظمي بديّر وهو يمعن في عزيز ، لكأنه يخاطبه وحده ، ثم التفت إلى الشخص الذي كان يتكلم :

ـ أخاف أننا نظلم الناس يافرحان . كيف نساوي بين حزب الاتحاد السوري وبين الحزب الحديدي ؟ مابيننا من نسي كيف كان شبابه يقاومون الفرنسيين سراً . حتى في المظاهرات كنت لاتعرف الواحد منهم ، وهم يلهبون الناس . أيام الملك نفسه ، كيف نساوي بين الحزب الوطني السوري مثلاً وبين الحزب الديمقراطي ؟ صحيح أن رجال الحزبين سوية كانوا من الذوات والأغوات ، ولكن ليس من يدعو إلى تنشيط جمعيات العمال والتجار مثل الذي يحرم المرأة حقها في الانتخاب .

قال الشيخ رزق :

ـ سبق طلبت منك يانظمي : اتركنا من الماضي .

قال نظمي :

ـ أمرك ياعمي .

قال أحدهم :

ـ ماسمعنا يافرحان : ماذا يقول هذا الحزب الجديد ؟

قال فرحان :

ـ حزب الشعب يدعو إلى المساواة بين الناس .

قال نظمي :

ـ يسميها اشتراكية ، قلت لي .

قال فرحان :

ـ اشتراكية نعم ، ولكن بدون نقطة دم . الحزب يعيّر أوروبا بما بين بشرها من حروب .

قال نظمي :

ـ والدم الذي يجري عندنا ، ليس بيننا وبين الفرنسيين ، بين الفلاحين والأغوات قل .

قال عزيز :

ـ نسينا مرجين ؟

تلفت إليه بعضهم مكبراً ، وقال فرحان :

ـ الحزب يريدها ثورة سلمية . ثورة هنا في الرأس .

قال نظمي :

ـ قلت لك منذ العصر : هذا لايكفي . ثورة بدون قتال كيف تكون ؟ قد تسير الناس خلف هذا الحزب ، أكثر من غيره . كل جديد وله لذة . المهم اليوم من يحارب ومن لايحارب .

قال فرحان :

ـ قيادة الحزب تتعاون مع الثوار . وهذا ليس سراً ، ولو كان سراً .

ـ على بركة الله . وفي بيروت قام حزب الشعب أيضاً كما حكيت لكم قبل قليل . هذا حزب الشعب وهذا حزب الشعب . الله يعين الشعب .

تساءل عزيز :

ـ وماذا يقول الثاني ، حزب بيروت ؟

قال نظمي :

ـ حزب الشعب لا حزب بيروت .

وضحك ، وضحك آخرون ، ثم أردف ، وعزيز يداري خجله :

ـ يدعو إلى مساواة الناس . يدعو إلى الاشتراكية ، ولايخاف من الدم ، يدعونا إلى أن نأخذ حقنا بيدنا . ليس من فرنسا وحدها ، بل من الذي يمص دمنا من بيننا .

سأل عزيز مدارياً :

ـ ويتعاون مع الثوار ؟

ـ يجوز . حتماً يفعل .

قال فرحان :

ـ قلت لك يانظمي : خلف هذا الحزب يتلطّى الشيوعيون . لماذا لاتقول لهم

ـ ماأدراك وما أدراني ؟ وما الفرق عندي لو كان القرود يتلطون خلفه ؟ المهم من يأ بيدي إلى حقي يافرحان .

قال عزيز بجرأة أكبر :

ـ يعني في بيروت بلاشفة اليوم ؟

قال نظمي :

ـ في بيروت وفي غيرها . ماالفرق ؟ ماعندي قلته .

في البداية كان عِزيز ينتظر أن ينتهي نظمي وفرحان من سيرة الأحزاب التي يجهلها ، فليس من أجل ذلك جاء ، والآخرون ، كما قدر ، لم يأتوا ليتسلوا بذلك ، بيد أن الشيوعية أرهفت سمعه ، فإذا بأحدهم يتحدث عن البواريد الثلاثة الأخيرة التي رفض البائع أن يسلمها بالسعر المتفق عليه ، وعلا اللغط ، ثم غطى عليه لعن الشيخ للبائع الخسيس ، فهزّ عزيز رأسه مؤمناً ، ولكن الجدال في غلاء البواريد والطلقات والمخاطر المتفاقمة في نقل السلاح ، اختلط عليه ، ورأى نفسه بعد قليل يخرج مابجيب من نقود ، راجياً أن تنفع في تأمين بارودة له ، فحيته الأصوات ، ونوه الشيخ بما سبق لعزيز أن قام به ضد الفرنسيين ، ولكن نظمي بديّر قال :

ـ سنحتاج إليك في التدريب إذن ياعزيز .

ـ والقتال ؟

سأل مستنكراً .

ـ كل شيء في وقته . كل واحد منا ينتظر دوره على أحر من الجمر .

قال نظمي ، فتراجع عزيز ، يسترق النظر منه ، ويرجو أن تكون لهما خلوه وشيكة ، مؤملاً أن يكون لدى صاحب هذا البيت مالم يقله بعد عن البلاشفة ، في بيروت أو في حمص ، وربما في حلب ، بل لعل الله أن يعوضه به عن وليف كيروز ، ويصل ماانقطع بينه وبين عهده في المصبنة . إلا أن السهرة انفضت فجأة ، ولن يكون بمقدور عزيز أن يلتقي نظمي قبل ستة أيام ، كما أكد له الشيخ رزق ، فهذا مايسيرون عليه منذ مطلع العام . وعندئذٍ قال عزيز متضايقاً :

ـ ماذا سأفعل ياعمي من اليوم حتى ستة أيام ؟

★★★

فكر عزيز في أن يذهب الى المشرقة ، وحدث الشيخ رزق بذلك ، إذ تساءل عما جعله لايفضي للشيخ بسرّ أولاد الصوان الضائعين ، ورأى نفسه يزداد تكتماً ، وهو يفكر في الذهاب الى مرجمين ، يحمل المفاجأة الكبرى . وأسعده أن الشيخ رزق ، لم يعارض ، وإن استحثه على الرجوع قبل انقضاء الأيام الستة . فأسرع نحو المحطة ، يترحم على العم حاتم ، وتجاوزها وهو يعد نفسه بلقاء آتٍ من هولو التكلي ، ثم غذّ السير على الطريق التي مشى عليها مع نجوم ، في يوم من الأيام .

ماكادت أطراف المدينة المنفلشة تختفي ، حتى مشى أسرع ، يسابق الوهج الحار لشمس الضحى ، يركز عينيه غالباً في تراب الطريق ، يتنصت على وقع خطاه الناعمة ويدرأ الغبار ، وقد يرفع رأسه وينظر بعيداً ، خلف الجبل الذي يقترب ، فيضطرب ، ولايستطيع أن ينسى أن شعاباً عديدة تصل مرجمين بقبية ، عبر الجبل ، ويرى نفسه وحيداً في هذا المدى ، فيخشى أن يطول به ذلك ، على الرغم من أنه سوف يصل قريباً إلى مرجمين ، ويكون مع نجوم الصوان .

مرة بعد مرة ، انحرف عن الطريق إلى البيوت التي تلوح قريبة ، يشرب الماء ويستظل ، ويسكت خوفه من أن يكون قد تاه . ثم يعود وحيداً ، فلا يستطيع أن يسكت خوفه من أن يكون قد تأخر عن قبية ، فلعل أباه قد انحنى مثل الشيخ رزق ، وقد يكون مات ، فإلى متى سوف يظل هكذا ؟ بلا أب ولا أم ولا أشقاء ؟ ولئن هانت عليه قبية ، فهل يهون عليه هؤلاء ؟

شرع الندم يحزه أوجع من حر الشمس . لقد كان قادراً وهو يجوب هذه الآفاق ، بين حمص وعكار وأنجوق والقزلي وانطاكيه وحلب والغاب وحمص ، على أن يتسلل إلى قبية كل حين ، سواء أظل أبوه غاضباً أم صفح . وعلى مشارف مرجمين تساءل عما يجعله يقاتل مرة هنا ، ومرة في البودي ، ولايقاتل في قبية ؟

هون عليه التساؤل مابقي من الطريق ، على الرغم من تخوفه ألّا يكون ثمة في صافيتا كلها قتال ، وليس في قبية فقط . ولما ظهرت له التلة المشرفة على مرجمين ، توقف مأخوذاً ، يلهث دون جري ، يبحث عن المدفعين اللذين انتصبا هناك ، وهو شاهد . ثم تحدرت عيناه مع التلة ، تتقرى المعركة ، فلا تقع لها على أثر . وكان عدد من الرجال يعبرون عكس وجهته ، فتحرشوا به ، ولعله هو الذي فعل . ومهما يكن ، فقد سمع

منهم ماجعله يقاطعهم ويسرع إليها ، فإذا بها هادئة ، وعامرة ، كأن قذيفة لم تقع عليها يوماً ، أو قتيلاً لم يسقط فيها ، ولم يهتد بمفرده إلى بيت الصوان ، كما كان متيقناً ، وه يقترب من ساحة القرية .

★★★

21

الوقاف الأعور الذي جاء به ابن الفطيم أخيراً إلى مرجمين ، خضها خضاً منذ مطلع الصيف ، وجعل الرحمة على كل لسان ، لذلك الفلاح الذي قيل إنه قلع عين الوقاف ، في قريةٍ ما ، في يوم ما .

نجوم الصوان هي أول من تصدى له ، حين جثا حول القدر الذي كانت تطهو العدس فيه . ومرجمين لاتزال تشك في أنه كان يفتش القدر حقاً ، أم أنه يتحرش بالأرملة الصبية . ولم تكن نقمة من يرجح هذا أو ذاك ، بأقل ، إذ ليس يعقل أن يفتش الوقاف في الماء المغلي ، حتى يتيقن من أن العدس قديم ، من الموسم الماضي ، وليس جديداً ، أي ليس مسروقاً ، من هذا الموسم الذي لما يحسم بعد .

لم يأبه الوقاف بنهي نجوم . لم تردعه شتائمها ، فرمته دفعتها البسيطة على قفاه . ولما نهض يلوح بكفه ، صدته بعود الحطب المشتعل ، وأذكرت مرجمين بأبيها ، وأطلقت هزأها من الخبيث الذي لم تسلم من أذيته واحدة ممن يجمعن السنابل في موسم الحصاد ، في سائر القرى التي سلطه عليها ابن الفطيم .

الشكوى الملونة بالسخرية ، شاعت على كل لسان في أيامه الأولى ، ثم أخذت المرارة تغلب ، فالوعيد . إنه يفتش كل من يشك في أنها قد خبأت بعض الحب ، وعينه السليمة لاتعين يده على أن تفتش جيداً ، ولذلك قد تضرب اليد النجسة في أية ناحية من جسم المرأة . كما أن شكوك الوقاف لاحصر لها . فقد تخبىء المرأة الحب في صدرها ، أو في سرواها . والوقاف الذي لم ترض امرأة بالزواج منه طيلة حياته ، كما نقلت مرجمين عن قرى معلومة ومجهولة ، يتلمظ وهو يبحث عن الحب .

بعض النساء كنّ يشتمنه ، يستفززن الرجال الذين يهونون أو يضحكون ، وإن كانوا يطأطئون أو يهربون ، ويرضخون على كل حال للعقوبة الصارمة . فمن يعثر

الوقاف معها على حفنة من الحب ، يقتطع من حصة أهلها علبة أو علبتين أو ثلاثاً حسبها يقدر . ومن ليس لأهلها حصة ولاأرضاً يزرعون ، يفرض عليهم ذبيحة ، قد تكون ديكاً ، وقد تكون خروفاً .

خفت وطأة الرجل بعد أن نال عود الحطب من شاربه ، على يد نجوم الصوان وفي الآن نفسه ظهر مأمور النفوس مع عدد من الموظفين الذين قيل إنهم يحصون الناس من أجل الضرائب ، أو من أجل تجنيد الشبان ذات يوم . وأياً ماكان ، فقد أخذ مأمور النفوس يتلاعب بالأسماء والأعداد ومواعيد الولادة أو الوفاة ، كما كان يفعل في القرى التي حكت لمرجين ، لقاء ما يطلب من الليرات الذهبية .

مرجين كانت خالية من الذهب ، إذ لما تكد تلتقط أنفاسها بعد مافعل مهجروها من أجل أن يعمروها ، على الرغم من مساعدات جيرانها ـ على جانبي حدود الدولة العلوية ـ والذين رفضوا أن يحلّوا محل أهليها ، مزورّين عن إغراءات ابن الفطيم .

لقد رضخ الآغا أخيراً . وهو الذي أرسل خُلف المهجرين كي يعودوا ، يعمرون الخراب ويزرعون ، كأن شيئاً لم يكن . وسرعان ماأغرقتهم اللهفة والشغل ، فنسوا ، وبدا أن ابن الفطيم قد نسي حقاً ، حتى جاء بالوقاف الأعور ، ومن بعد ظهر مأمور النفوس .

على مضضٍ رضي المأمور من بعض الفلاحين ماغامروا به من حصتهم في البيادر . وكلف الوقاف بضبط ذلك . أما الذين عاندوا مثل عم نجوم ، ولم يدفعوا شيئاً ، فمن يدري ماسجل المأمور بشأنهم في دفاتره الضخمة ؟

داور الوقاف والمأمور ابن الصوان طويلاً . هدداه أيضاً . فهو من يحرض الفلاحين اليوم ، كما كان شقيقه نظير الصوان يحرض منذ سنين منسية . وهو من رفض أن يرسل ابنة أخية ـ مادامت الصبية الوحيدة الآن في بيت الصوان ـ لتخدم في بيت المأمور في حمص ، لقاء إعفاء مرجين كلها مما يطالبها به . وهو كذلك من حمى ابنة أخيه حين شتمت المأمور ومن معه ، فتجمهر الفلاحون أمام بيت الصوان . ولعل القتال كان قد نشب ، لولا أن الخيالة غادروا مرجين ظهيرة ذلك اليوم .

قيل إن المأمور صاح بنجوم الصوان :

ـ ياقحبة : تتكبرين على الخدمة في بيتي ؟ ألا تعرفين من تكونين ؟

فجن جنونها وجنون عمها . وظلت مرجين تترقب لأيام انتقام المأمور وعودة الخيالة . ثم شغلتها قسمة الوقاف للموسم .

هل الآغا هو الذي كلف الوقاف أن يقسم على هذا النحو الذي لم تعهده مرجمين ولاجاراتها من قبل ؟ لقد بسط ابن الفطيم يده في الموسمين الماضيين . وفي عهده القديم لم يفعل رجل له في مواسم مرجمين مايريد الوقاف في هذا الموسم ، فهل ينتقم الوقاف على هواه من بيت الصوان خاصة ، ومن مرجمين كلها ، وهي التي لم يسلم من لسان لها ؟ حتى الذين وعدوا المأمور بما وعدوا ، وتوسطوه لدى الوقاف ، لم ينجوا . ولئن تململوا جميعاً ، وتهامسوا ، فإن أول من جهر وتصدى للوقاف كان عم نجوم :

ـ خل عندك وجدان ياعدو الله . هذه القسمة لاتمشي علينا . امش أنت من هنا .

وعلى رأس عدد من الفلاحين المسنّين توجه إلى ابن الفطيم ، وقد انضم إليه من بعض جارات مرجمين عدد أكبر ، إذ كانت القسمة واحدة في ملك ابن الفطيم .

كان الآغا مسافراً ، ولا أحد يدري متى يعود ، والموسم على البيادر ليس في أمان ، لا من الطقس ، ولا من غيره ، فماذا يفعلون ؟

نجوم هي التي اقترحت على عمها أن ينقل الفلاحون الموسم إلى بيوتهم ، ثم يذهب إلى السراي في حمص من يشكو الوقاف والآغا معاً . وعلى الرغم من أن كثيرين ـ من المسنين خاصة ـ رأوا في ذلك إضراماً للنار ، حتى لو كانت الشكوى على الوقاف وحده ، فقد اندفع الفلاحون جميعاً في نوع من الحمى ، يكنسون البيادر ، ويملؤون العنابر ، حائرين فيما فاض عنها ، وهم الذين ندر أن رأوها تمتلىء . وسرت عدوى مرجمين في الجوار ، سواء ما ملك ابن الفطيم ، أو سواه .

يوماً واحداً اقتضى ذلك كله . كل أسرة ، من صغيرها إلى كبيرها ، جرت بين البيدر والبيت ، في سباق مع سواها ، ومع زمن مبهم . والوقاف يلهث من بيدر إلى بيدر ، يهدد ويتوعد ، والآذان مصمة ، والبشر غارقون فيما بدا أنه احتفالهم الأول بالخصب والقوة . كانوا أشبه بالسكارى . لافرق بين عاقل أو جاهل ، عجوز أو فتى ، صبية أو شاب ، خاصة بعد الضحى . كان يوماً يختصر عمراً ، يضج بما تكتم أغوار النفوس ، ترفرف فوقه أرواح الموتى وأسراب الطيور والغيوم الصيفية والنسيم الذي لم يأت طرياً طوال الصيف ، كما أتى الآن ، وكانت عيون العديد من الشبان والصبايا تتغامز ، ولعل رجالاً كثيرين تعجلوا الليل ، وركبوا نساءهم بفحولة ندر أن عرفنها منهم ، وسرت عدوى مرجمين في الجوار .

عادت نجوم تلح على عمها أن يقود الفلاحين إلى حمص ، محذرة من أن تنقلب الفرحة إلى مأتم . ولم يتأخر وفد مرجمين حقاً . كما أن وفداً أكبر من جاراتها ، خلف

حدود الدولة العلوية ، توجه إلى اللاذقية . إلا أن الوفدين قفلا مطرودين ، ليجدا الوقاف خلف القلابق السود والبواريد اللامعة ، وهي تنتقل من قرية إلى قرية ، فقد وصل الخيالة ، وبدؤوا ينذرون الفلاحين من مغبة جنونهم ، وينصحون بتسليم الموسم كما قسم الوقاف ، قبل فوات الأوان . وعلم الفلاحون من قائد الخيالة أن المأمور والآغا أقاما الدعاوى العاجلة عليهم ، وسوف تصدر الأحكام بين عشية وضحاها . وعندئذٍ سيكون الحال أسوأ مما لو رضي الفلاحون بقسمة الوقاف . عندئذٍ ستكون الغرامات ، والحبس . فما قام به الفلاحون ليس سرقة لحق الآغا والمأمور ، وحسب ، بل هو مخالفة للقوانين ، عصيان على الحكومة ، شأنه شأن مايقوم به المجرمون في القرى ، ولو لم يحمل أحد هنا سلاحاً .

سادت البلبلة صفوف الفلاحين وقتاً قصيراً ، ولم يصدق كثيرون أن المأمور قد أقام دعوى ، أو شارك في دعوى ابن الفطيم . ثم سرت بينهم دعوة إلى تشكيل وفد صغير يسافر إلى بيروت ، ليقابل أكبر رأس فرنسي بها ، يقيم الدعاوى المعاكسة ، على الآغا والمأمور والوقاف . وإذ سرت العدوى في الجوار ، اتفق على أن يكون الوفد موحداً ، وشُرع في جمع مايقتضيه السفر والدعاوى من مال .

على رأس الوفد كان عم نجوم الصوان الذي لم ييأس من مقابلة المفوض الفرنسي ، على الرغم من الانتظار المقلق ، والخواء السريع للجيوب ، قبل أن تقام دعوى واحدة .

كانوا يتسكعون كل يوم من باب المفوضية إلى أبواب المحامين والمحاكم العديدة ، يغالبون ضيق أنفاسهم من الرطوبة ، يهربون مما يخيل إليهم أنه قد وقع بعد سفرهم في قراهم ، يختلفون في جدوى مايأتون ، يخوضون في سيرة الثوار الذين ليسوا بأشجع ، ولم يلجؤوا إلى بيروت ، ولا إلى سواها ، بل إلى البواريد . ويستعيد رئيس الوفد سيرة شقيقه ، نظير الصوان ، ومن قتل معه في مرجين .

ظهيرة اليوم العاشر كانوا ينسحبون من الرصيف المقابل للمفوضية ، مطرقين وصامتين وخائبين، حتى ظهرت سيارة المفوض، فرمى رئيس الوفد بنفسه عليها، فزعق لجامها ، وبوغت الحارس والمارّون والمفوض وسائقه ، وبهت أعضاء الوفد .

لوح عم نجوم للمفوض بورقة كبيرة في يده كان قد كتبها له المحامي ، كي يقدمها إلى المحكمة ، لو أن الجيوب لم تفرغ . فتحت نافذة السيارة ، واختلطت الكلمات الفرنسية بالعربية ، وصياح السائق والحارس بصياح رئيس الوفد ، وتكاثر الناس على

خطوات من السيارة ، كالسوار ، وقبل أن يرضوا فضولهم كانت نافذة السيارة قد أغلقت ، والورقة المكتوبة تلوح في الوجوه ضاحكة وشاكرة ، وجعرت السيارة ، فأفسح لها السوار الذي أقبل على الرجل المسنّ عجباً ، فقد وقع المفوض على الورقة ، آمراً بانسحاب الخيالة من القرى ، وقسمة هذا الموسم مثل المواسم السابقة ، ونقل المأمور جهة أخرى ، وقال السائق أو الحارس إن برقية سوف تصل إلى السراي في حمد والسراي في اللاذقية ، بعد قليل .

★★★

العـ

تتو
فقا
ماد

نفـ
مر

يحـ
و
ـ
بـ
لـ

ـ
بـ

22

أنّى لعزيز أن يملأ عينيه منها ، ويحتفظ بكفيها ، ومن حوله هذه الأزواج من العيون ! وأنى لنجوم أن تبرد لهفتها ، وتعي مفاجأتها ، فتبكي أو تضحك ؟

تساءلت عيناه عما إذا كانت قد كبرت في هذه الغيبة ، على الرغم من أن الشامة تتوسط ذقنها ، والخصلة تغطي جبينها ، وصوتها زاد شبهاً بصوت أم عثمان ؟ أما هو ، فقد كبر حقاً ، مادامت هي التي تقول خجلى . وليس له إلا أن يدعها تبتعد قليلاً ، مادامت هي التي تومىء إلى العيون المسوّرة الفاغرة .

إلى عمها قدم نفسه ، يبلع ريقه محرجاً . فعلى الرغم من ترحيب الرجل به ، رأى نفسه غريباً في هذا البيت ، لايكاد صوتها يؤنسه ، حتى تجعله عينا عمها يفكر فيما إذا كان من حقه أن يأتي إلى مرجين ، يسأل عن نجوم الصوان .

من يكون بالنسبة إليها حتى يفعل ؟ كان السؤال يخصّه ، والرجال يتكاثرون ، يحاصرونه بفضولهم ، يهمّ أن يفضي إليهم بسرّ أولاد الصوان ، حتى يخفف عن كاهله وطأتهم ، أو ينتزع لنفسه مكاناً بينهم ، أو يؤكد نسبه إليهم ، لولا أن نجوم هي الأولى سرّها ، ومادام قد احتفظ لها به حتى الآن ، فلن يضيره أن يصبر قليلاً ، فيما الرجال قد بدؤوا يغرقون في أحاديثهم الجانبية ، وهو يعد الشيخ رزق بعودة أبكر مما ينتظر ، حتى لو لم يحل الموعد مع نظمي بديّر .

ماأخذ يأتيه من جانبيه ، أكد ماسمعه على مشارف القرية . ومادامت إذن في خطر ، فلا بد له أن يجتلي الأمر ، وإن ضاق بأسئلته عم نجوم وسواه ، أو ضاق هو بالأجوبة المجتزأة السريعة .

كان الوفد قد عاد من بيروت الثلاثاء الماضي ، وبوصوله غادرت القلابق والبواريد ، واختفى الوقاف ، وتردد أن الآغا لايزال مسافراً ، ثم تردد أن المأمور قد نقل

إلى حوران . وتعالت الزغاريد أقوى فأقوى ، وتألقت عينا نجوم ، وشمخ رأس عمها وبجدت مرجين بيت الصوان عالياً .

إلا أن الوقاف الأعور ظهر أمس ، مرغياً ومزبداً ، يشتم الكبير والصغير ، يضرب أيضاً ، لاتنجو من لسانه امرأة ولا طفل ، لكأنه يبحث عمن يشاجره . وقد تحرش خاصة ببيت الصوان ، وعيرهم بأولادهم الضائعين . ولئن أطلقت أفعاله في الضحى الشماتة والضحك ، فقد صارت في الظهر أذىً لابد من ردعه . لقد أطلق الرصاص على ثور وخروفين ، وكاد أن يصيب الأطفال الذين يرعون على التلّة ، فهل جُنّ ؟ هل أفقدته الهزيمة صوابه ؟ أم أنه كيد مدبر جديد له ، وربما للمأمور ، وللآغا ، حتى وهو غائب ؟ ولئن عاد غداً أو بعد غد إلى مافعل من الضحى حتى الظهر هذا اليوم ، فهل يواجهه الشبان ، أم يظلون يتجنبونه ؟ هل تشكوه مرجين هذه المرة وحده ، خاصة بعد أن صرع الثور والخروفين ؟

شوشت الأسئلة عزيزاً ، وأوجعته كما فعلته بالآخرين الذين سرهم أن الوقاف لم يعد إلى مرجين ، دون أن يطمئنهم ، إذ أن الوقاف كرر اليوم في القريتين المجاورتين مافعل هنا أمس .

مضى الوقت طويلاً ، واختفت أصوات الأطفال والنسوة والشبان في الخارج قليلاً ، قبل أن يتعالى الصياح :

ـ قتلوا الأعور .

هب من في البيت مذهولين ، وتدافعوا ينهرون على من يصيح ، وسمع عزيز مع سواه عدداً من الشبان يقولون معاً :

ـ على التلة جثته مشلوحة . مطعونة بالسكاكين .

وقبل أن تهدأ الأصوات كان الوقاف قد عثر عليه في آخر الوادي ، وكانت السكاكين قد أبدلت برصاص كثير ، وكان القاتل واحداً فصار اثنين ، وربما عشرة ، من مرجين ومن سواها ، وليس ثمة من يقدر أن يجزم أو ينفي . وكانت نجوم تومىء لعزيز ، ثم تناديه ، منذ لأي ، قبل أن يلتفت إليها ، ثم يشق الجمع نحوها ، ويسمعها تتضرع :

ـ بالله عليك امش من هنا . لاأحد يعلم ماذا يقع الليلة أو غداً .

سأل مستنكراً :

ـ كيف أمشي ؟ لماذا ؟

ـ خائفة عليك ياعزيز .

ـ نجوم تخاف ، وعزيز يهرب ؟

قال وقد أحسّ برعشة تعروه ، فعيناها اللتان تقدحان ، يغشاهما أيضاً ظل من الخوف ، قد لايتبينه أحد سواه . ولعله ليس خوفاً ، بقدر ماهو لهفة أو حناناً ، يلوب عليهما عزيز منذ زمن بعيد ، وغامض .

ـ اهدأي يانجوم واتركيني معهم .

خاطبها متجاهلاً ، ثم اقترب هامساً :

ـ اخوتك بخير . اطمئني . غداً إن شاء الله بعد أن تنكشف هذه الغيمة نروح ، أنت وأنا ، إليهم .

كان لسانه لايزال يهمس حين تلفتت حولها ، وتلفّت ذراعاها ، قبل أن يشداه إليها ، وهي تغمغم ، فيمسح على منديلها ، وتتوه شفتاه وهو يبعدها :

ـ سبحان الله يانجوم ! اهدأي . أنا لي في مرجمين نصيب . بل هي التي لها فيّ نصيب . وشوفي : كل مرة كيف تكون ؟!

كان كفاها قد غطيا وجهها ، وهو يغدو أقدر على أن يبتسم للعيون الدهشة ، ثم يتوجه إلى عمها ، ويقطع الصمت محذراً من أن يدفن أحد الجثة ، حتى لاتتدنس بها هذه الأرض ، وريثما تأتي الحكومة وتحقق فيما جرى .

أرخت كلماته غضون الجباه قليلاً ، فأردف :

ـ يجوز من الأفضل أن نخبر الحكومة في حمص ، قبل أن يسبقنا إليها المأمور أو غيره ، وحتى لايستغلّ أحد المسألة ، ويستعدي الحكومة علينا .

استحسن الرجال رأيه ، وأضاف بعضهم أن ذلك سوف يفوت على ابن الفطيم والمأمور وغيرهما مادبروه ، إذ لايعقل أن يكون ماجرى بالأمس واليوم بريئاً .

كذلك قرروا أن يُرسل شابان أو أكثر إلى الجيران الذين شاركوا في وفد بيروت ، فالوفد هو من سيذهب في الصباح إلى حمص ، وعلى رأسه دوماً عم نجوم الصوان . ومضى الليل جزافاً ، فلم يفكر أحد في العشاء ولا في النوم ، لا في كلام ولا في صمت . وتأخرت عودة الشبان الأربعة ، وقد بدأ عم نجوم الذي تهيأ قبل شروق الشمس ، يغضب ، وعزيز حائر فيما إذا كان عليه أن يعود إلى حمص ، بصحبة الوفد ، ويأخذ معه نجوم ، أم لا .

قبل أن يعود الشبان تعالى الغبار على مشارف مرجمين ، وسمع صهيل الخيل . كانت المصطبة غير المظللة ، أمام البيت ، تضيق بالرجال ، وحولها يتناثر الأطفال والشبان والنساء . كانت نجوم جالسة على حافة الجرن ، لاترفع عينيها عن عزيز ، وهو لاهٍ في زحام الرجال ، وتعالت الأصوات :

ـ الخيالة .

تلاحم الناس ، واشرأبت عيونهم نحو الطريق ، كأنما يستطلعون خطراً مداهماً وفادحاً ، ويتنحون من دربه في آن . اقترب الصهيل من البيت ، فيما خط الغبار يتطاول حول البيوت الشرقية ، في طرف مرجمين ، قبالة التلّة . انطلق الرصاص من بعيد ، من أقصى خط الغبار ، وتلاحق في وسطه . دارت الخيول المتقدمة والقلابق السود حول البيت ، وتابعت إطباقها على هذا الطرف من مرجمين . انطلقت البواريد اللامعة الحديثة قريبة جداً من الرؤوس والآذان ، فتكومت الأجساد فوق بعضها ، ونهرت بعض الأصوات بالنساء والأطفال ، كي يدخلوا إلى البيت ، فيما نهرت أصوات أخرى بالجميع ، كي يتجهوا إلى للوادي .

ملأ الرصاص الفضاء ، وبان جلياً أن الخيول هاجمت جيران مرجمين من قبل ، ولعلها لازالت تفعل . تحسرت أصوات على البواريد التي بيعت أو خُبئت بعيداً ، اثر العودة من الشتات ، والصلح مع ابن الفطيم . نادت أصوات باللجوء إلى المناجل والفؤوس ، فأنكرت أصوات أعلى ، واندفع عم نجوم وعدد من الرجال المسنّين إلى جهة ما . تدافعت بعض النسوة والأطفال نحو الوادي ، ورآها عزيز على الحافة الخفيضة للحاكورة ، تتطلع إليه حائرة . أشار إليها من فوق الرؤوس كي تسرع بالفرار ، فهزت رأسها . قفز نحوها يصيح :

ـ الوادي أفضل . البيوت غير آمنة . عجلي يانجوم . هذا ماكنت أخافه . خطة لئيمة ومرتبة .

لم تتحرك ، فشد كفه على كتفها مستحثاً .

ـ لن أتحرك .

صاحت محتدة وعيناه تلوبان عليها وعلى سرب النساء والأطفال الذي تطاول ، وقال راجياً :

ـ عجلي يانجوم . لاوقت للعناد . إذا ضعنا ، خلنا نلتق عند الشيخ رزق . سمعت ؟

تعالى الدخان من أحد البيوت القريبة ، فهزها ضارعاً :

ـ كرمى لله روحي . يحرقون البيوت يانجوم .

ـ كل مرة نهرب ؟

تملصت منه صارخة ، وابتعدت ، فلحق بها :

ـ هذا هرب ؟ نموت تحت الحوافر وليس بيدنا قشة ؟ لاتخافي على الناس . كل واحد يدبر رأسه .

التفتت إليه حانقة :

ـ وأنت ؟

كانت عيناه تغالبان الدخان الذي تكاثف سريعاً ، وبدأ يتلامع خلاله اللهب ، في أكثر من بيت مجاور . ألوى به سؤالها إليها ، فأشاحت عنه . هم أن يمسك بذراعها ، وينجو بها من هذا الموت الغادر . أعجزه أنه لايقدر على أن يحميها بظله ، ولايخبئها بين ضلوعه . اقترب هامساً :

ـ لاتقلقي علي . كل واحد يدبر رأسه ، قلت لك . أمامك الآن الوادي . وإذا ماالتقينا فيه ، أمامنا بيت الشيخ رزق . واحد منا يكفي هنا . وكلنا الآن لانساوي شيئاً . انتبهي لنفسك وطاوعيني . توكلي على الله .

وتراجع نحو من بقي على المصطبة ، تشويهم النار التي أطبقت على أطراف القرية بسوارٍ آخر . ولما اختفت نجوم خلف دباقة الحاكورة التالية ، خشي أن يسقط فؤاده بين قدميه ، وانحبس صوته في حلقه ، وكان صوت يصرخ به :

ـ أخفض رأسك يامجنون . الرصاص يامجنون .

بين رصاصتين مرق رأسه قبل أن يرتمي تحت المصطبة ، يتلمس صدغيه ، ويدعك موضع الإصابة القديمة . وكان الخيالة ينزلون أمام البيت الأقرب ، إلى اليمين ، يتركون الخيل تصهل وترفس ، ويغيبون في الداخل .

زحف عدد من المنبطحين نحو الحاكورة ، ثم نهضوا يعدون ، وبعضهم يحذر من النار التي ستندلع في ذلك البيت ، ويندب من تبقى في بيت الصوان من النساء والأطفال . صاح صوت آخر شاتماً :

ـ مابقي أحد في البيت .

حمد عزيز الله ، وهو يحبو إلى نهاية المصطبة ، فإذا بيد تهوي بالمنجل على حصان . شبت قائمتا الحصان عالياً ، وانطلق يصهل ، بينما انغرزت سكين في حصان آخر . انقذفت من داخل البيت الملاصق إلى اليمين الأكياس ، وشب حصان آخر وانطلق ،

وهوى رجل ، ودوى الرصاص . انفلش القمح تحت الأقدام ، وتلوّى واحد م الخيالة ، وهو يضرب بيديه السكين المغروزة في ظهره ، وهوى رجل آخر ، فالتحم عز بالأرض ، يمنع من كان خلفه من الزحف ، بحذاء جدار بيت الصوان نحو البيت الآخر . ملص الرجل من عزيز ، ولحق به آخر ، يحاول عزيز منعه . لطا الرجلان خلف اثنتين من أشجار التوت الضخمة التي تفصل بين البيتين . أشارا إلى عزيز كي يستطلع لهما من مخبئه . اعتلى عدد من الخيالة صهوات خيولهم واندفعوا إلى بيت الصوان . أشار عزيز إلى الرجلين اللذين أجفلا الخيل ، فهوى واحد من الخيالة قرب الجرن ، وترنح أحد الرجلين ، قبل أن يلتقط الآخر بندقية الخيال ، ويطلق على الذين كانوا ينطّون أمام البيتين . استدار آخر الخيالة إلى ذلك الرجل ، وقبل أن يكمل الحصان استدارته ، أردت رصاصة واحدة الخيال ، وازدردت الرجل رصاصات عدة ، وصارت لعزيز بندقية تطلق دون أن تنتظر سبابته على الزناد ، وسقط خيّال ثالث ورابع ، وانتفض عدد من المنبطحين حول عزيز ، كما الدجاجة الذبيحة ، قبل أن يلتحم هو بظهر بيت الصوان قليلاً ، ثم يجري .

كان الوادي حين تمكن من الوصول إليه خالياً ، وصوت الرصاص قد انقطع ، أما سحب الدخان فتتعالى كيفما أدار رأسه . وكانت ثمة كومة صغيرة من البشر رابضة فوق التلة ، وسرب نحيل ييمّم صوب الجبل ، وفي الفضاء دخان ، سوى دخان مرجمين ، يتعالى من بعيد .

فكر عزيز في أن نجوم على رأس النازحين واطمأن إلى لقائها الوشيك ، وكان الوقت عصراً ، وهو يقلب البارودة الحديثة بين يديه ، يتعجب من أنها أطلقت دون أن يهيئها أو يلقمها ، وييئس لأنها غدت الآن عصا وحسب ، فليس فيها ولا في جيبه طلقة . هم أن يرميها ، ثم خطر له أنها سوف تكون لقيا سعيدة للشيخ رزق ولنظمي بدير وسواهما ، وسوف يلتقي بها نجوم معتزاً . إنها بندقيته هو ، فلتكن النقود التي دفعها في بيت نظمي بديّر من أجل بندقية لسواه . وإذا شاءت نجوم أن تحمل بندقية ، فلتكن إذن لها . وحينئذٍ سوف ينطلقان معاً ، يقاتلان مع الثوار ، يعودان إلى مرجمين ، بل يذهبان إلى المشرقة ، ليلقى فياض العقدة مالقي الوقاف الأعور هذا النهار .

★★★

لم يعجزه التخفي من الوادي إلى حمص كما أعجزه بعد أن صار قريباً من بيت الشيخ رزق . ظل حبيساً طيلة ماتبقى من النهار ، حتى أعانته العتمة ، وكانت نجوم والشيخ رزق والعجوز واجمين ، ينتظرون ظهوره .

وحدها العجوز أقبلت تتلمسه وتمسح على البندقية . وأقسم الشيخ رزق أنه كان واثقاً من عودة عزيز هذا المساء ، ونجوم تبتسم بعيدة ، ثم تسبق العجوز إلى إعداد العشاء ، وترمقه وهو يلتهم الرغيفين ، وتهمس متساءلة

- كأنك لم تأكل منذ يومين !

على بساط بالٍ تمدد في باحة الدار ، وأغفى على هدهدة صوت القطار الداخل أو الخارج إلى المحطة . ولم تستطع الشمس المبكرة أن توقظه ، فيما حاذرت نجوم والعجوز أن تحدثا أدنى جلبة . وكان الشيخ رزق قد خرج إلى صلاة الفجر .

بدا لنجوم وهو مسجىً كالميت ، فالتفتت عنه مذعورة . ثم تلصصت عليه ، تطمئن إلى أنه حيّ معافى ، فودت لو تتفقده ، ولو كان بوسعها أن تهيء له الماء الساخن وتمسد أصابعه لفعلت ، ثم أعادته إلى الداخل ، وهدهدت له حتى يغفو ، لينهض وقت يشاء ، قوياً كالحصان ، فمن بقي لها سواه ؟ مايدريها ماحل بعمها ؟ من يدري بما حل بمرجمين كلها ، إذا كان هو لايعرف ؟

فكرت نجوم وهي تتحاشاه من جديد في أنه قد يشبه حاتم في شبابه . وساءها أنها تتمنى له السلامة الآن من أجل أن يقودها إلى اخوتها وحسب ، فأسرعت تعدّ الزوفا . ولما انتهت تريثت ، تأمل أن تعفيها العجوز من حمل الفنجان إليه . كانت العجوز تنفخ في نار الموقد ، وتستحثها كي تملأ الدلو ، فثياب عزيز ملطخة بالدم والتراب ، ولعل جسمه أكثر قذارة . تساءلت وهي تجري إلى البئر عما إذا كان سيستحم داخل البيت ، أم في الباحة ؟ وأين ستذهب هي والعجوز على كل حال ريثما يفرغ ؟ ماذا سيرتدي حتى تجف ثيابه ؟ هل يعقل أن لايكون له إلا الثوب الذي يرتدي ؟ كيف لايكون لابن آدم في هذه الدنيا التي يبطر فيها أولاد الحكومة والمأمور وعشرات ومئات إلا الثوب الذي يرتديه ؟

كان عزيز قد أفاق وهي ساهية عنه وعن سواه . لم يفته صمتها ولاتوتر خطاها بين البئر والعجوز . وفكر في أنها ماعادت تستطيع انتظاره ، فليحدثها عن اخوتها ، وإن كان لايريد أن يحضر فياض بينهما في هذا الضحى الناعش . حياها بصوت عال ، وقال :

- الأولاد في المشرقة .

قالت العجوز :

ـ ماذا يفعلون هناك ؟ لماذا لم تقل لنا ياعزيز ؟

ـ البشارة لنجوم أولاً .

قال مدلاً ، فتابعت سيرها وهي تتطلع إليه ، لايعرف إن كانت فرحة أم حزينة راضية أم غاضبة أو عاتبة ، وهمست :

ـ ثاراتنا تكثر عند فياض .

قالت العجوز :

ـ لعنة الله عليه . دعونا من ذكره . قم اغسل نفسك ياابني . الماء سخن .

في عتمة البيت الموصد ، نغص عليه وقع بشارته لها ، وخطر له أنه يقيد نفسه ب هباءً ، وليس لذلك أن يدوم طويلاً ، كما أنها قد تكون متعبة لمن يعيش معها في بيت واحد . وربما كانت كذلك مع المرحوم ، ولاتصلح كزوجة .

ترقرق الماء المندلق عن جسمه في الطست ، أقلّ نقاوة من ماء بللوران ، حين استحم في العراء ، قبل أن يلتقي أم عثمان وعثمان . كان جسمه أكثر وسخاً ، إلا أنه لم يكن أسير طست وباب موصد . وفكر في أن أم عثمان قد تكون أفضل لأي رجل كزوجة ، وإنْ يكن ابنها شاباً ، ثم خجل من أنه ينشغل بذلك ، وكان الماء الساخن قد نفذ ، وصوت الشيخ رزق الذي عاد من الصلاة متأخراً ، يحثه .

ماكان ثمة مايجفف به جلده ، فارتدى سروال الشيخ وقنبازاً عتيقاً له ، وخرج يداري بلل الثياب بالماء . وإذ رأته نجوم ضحكت مرغمة ، وهمست خجلة :

ـ الشيخ عزيز .

تبسم وهو يقترب من الشيخ رزق وقد تراءى له شيخ من قبية ، أو من البودي وبين أيديهما ، إلى جانبه ، حمادي الحسون ، وقد بدوا شيخين فتبيّن ، ونجوم تطل من مكانها ، فعرضت ابتسامته ، والتفت إليها ، وتلاقت ابتسامتهما هنيهة ، ثم أغضيا .

توجه الشيخ إلى صلاة الجمعة ، وأقعى عزيز ينتظر جفاف ثيابه داخل البيت ، قبالة نجوم ، وقد انصرفت العجوز إلى الموقد ، تنفخ تحت قدر البرغل .

قرب الباب كانا ، يتكلمان على مهل ، كأنهما يتواطآن على أمر ما ، يتحاشيان ماهو أكثر ضرورة ، وإحراجاً . فكل منهما مشغول بسوى مايقول ، ولكنه ليس متعجلاً . قالت :

ـ مارأيك أن أذهب وحدي إلى المشرقة ؟

أشار إلى البندقية ممازحاً . قالت :

ـ وما الغريب ؟ أحملها .

ـ والفرنسيون ؟

ـ لص منهم . لاتخف .

ـ م ؟

ـ إذا لم يسلمني فياض اخوتي تكون النهاية .

ـ يعني ؟

ـ أقتله . والله العظيم أقتله ، حتى لو لم تكن معي بندقية .

كانت كلماتها تترجح بين الجد والهزل ، هادئة ومفعمة بالثقة . وكان يماحك متلذذاً مطمئناً ، وإن نهاها أخيراً . فالقتل ليس من شأن النساء ، كما أن فياض لم يعد يخصها حدها ، أو يخصهما معاً . أمره الآن للثوار ، وهم من يقرر مصيره ، سواء أأخفى الأولاد ، أم مانع بينها وبينهم ، أم لا . وقال :

ـ تعالي الآن نفكر في حالك وحالي . الشبه بيننا قوته الأيام . وهاهي قربتنا من بعض ، بعد مارمت كل واحد في بلاد .

وقد فعلا ، حتى في صمتهما الذي صار يطول ، قبل أن يقفل الشيخ رزق ، أسرع مما كانا يأملان .

★★★

نهضت مسرعة إلى الباحة ، كأنما تخشى أن يعثر عليها أحد ـ لا الشيخ رزق وحسب ـ في خلوتها مع عزيز . وكان صوت نظمي بديّر يعلو على صرير الباب ، وهو يحيّيها ، ثم يحيّي عزيزاً ، يشد على كفه ، ويثني على شجاعته وشهامته .

أمر الشيخ بتقديم الطعام . وفكر عزيز في أنه قد ظفر بنظمي على مهل ، وسوف يعرف مالديه عما قليل عن الشيوعيين . ولكن نظمي سبقه ، وهمس مغافلاً الشيخ :

ـ بعد الغداء نخرج سوية .

هشّ عزيز ، وعجل في الأكل ، ثم تعجل جفاف ثيابه ، وهم يتناولون الزوفا في الباحة . ارتدى الثياب الرطبة ، رغم معارضة نجوم والعجوز ، وإذ انفلت ونظمي خارجاً ، التصق به سائلاً :

ـ سمعت حديثك وحديث فرحان ، وفكرت . .

ـ وأنت معي أم مع فرحان ؟

سأل نظمي مقاطعاً . قال عزيز :

ـ كلنا مع بعضنا ياأخي . من أنت ومن فرحان ومن عزيز اللباد . . كان الله بعوننا .

ـ تكون منهم ياعزيز ؟ قلبي يحدثني .

قال نظمي متشككاً ، ومبالغاً في الهمس والحذر ، ثم ضحك وأردف :

ـ عرفت واحداً منهم الصيف الماضي . كان معنا يعمل في المحطة ، هنا . أصغر منك هو ، اسمه بديع الطارة ، والآن رجع إلى رياق . هو أول من حدثني عن حزب الشعب . الملعون يعرف كل أحزاب الشام .

قال عزيز ملهوفاً :

ـ وأنا عرفت واحداً منهم في حلب ، اسمه وليف كيروز . عملت معه في مصبنة . صاحب المصبنة منهم أيضاً .

ـ صاحب مصبنة ومنهم ؟ أنت وصاحبك إذن لاتعرفان شيئاً .

ـ أنت لاتعرف شيئاً . الأستاذ فخري القجّي رجل طيب ، عادل ، والله أنعم عليه . ابن عائلة ثرية أباً عن جد . هو الذي كان يأتي بأخبار البلاشفة من تركيا ومن غيرها .

ـ اسأل لك بديع يوم نلتقي ، ولابد أن نلتقي . أجمعك به وتسأل بنفسك . تصدق ؟ هو كان البلعوص بيننا ، وهو الذي حرضنا على النقابة . ماكان عندكم نقابة .

ـ لا والله . ولاتضحك عليّ إذا قلت لك أني سمعت بها وماعرفت عنها مايفيد .

ـ وتقول لي صاحب مصبنة ؟ طبعاً يهمه أن تظل أنت وغيرك بلا نقابة ، وجاهلاً بها .

ـ كنا مثل الأسرة يانظمي . وكان مثل واحد منا .

ـ شطارة منه ياذكي . ويجوز أن صاحبك وليف متفق معه على ذلك .

ـ إذا أعطانا الله وجمعنا ، ترى بنفسك كيف تظلم الناس . وليف في السجن يانظمي والأستاذ فخري ، لاأحد يعلم عنه شيئاً .

ـ لاتخف عليه . دائماً تطلع المصيبة بالصغار ، ووليف صاحبك هذا ، مثلي ومثلك ، من الصغار . على كل حال إن شاء الله لاتطول كربته . قل لي ياعزيز : تقرأ ؟

ـ وأكتب . لماذا ؟

ـ ترك بديع عندي جريدة يطبعونها في بلده . هو من زحلة . جريدة الانسانية . الليل تقرأها عندي . كانت المحطة لاتسع بديع حين يرجع من زحلة أو رياق ومعه جريدة أ

كتاب أو حتى ورقة . صرت أعرف من أول نظرة إذا كان يحمل غنيمة أم لايحمل ، ويقول لي أنت أدهى من الفرنسيين .

ـ وليف أيضاً جاء بأوراق كثيرة من انقرة .

ـ وجاء بكتب ؟

ـ لا .

ـ بديع جاء مرة بكتاب اسمه الدولة والثورة ، سمعت بهكذا اسم ؟

ـ لا والله .

ـ قرأ فيه مدة طويلة . شهور . قال إنه سرق الكتاب من قريب له كان في مصر . فرض علي أن اقرأ معه ، وجربت وحدي أيضاً . ولكن ، لاتضحك علي ، مافهمت كلمة . الكافر كان يقول : هذا انجيلي . كنت ألعنه وأقول له : لينين مسيحك إذن ؟ فلا يقبل ، يزم شفتيه ويقول : لينين ليس نبيّاً .

ـ معه حق . زمن الأنبياء راح مع سيدنا محمد . الكتاب للينين ؟

ـ ماذا أقول إذن ؟

ـ بديع كان يفهمه ؟

ـ كيف أعرف ؟

ـ لو كان يفهمه كان ساعدك عليه . كان شرح لك مافيه .

ـ ومن قال لك إنه لم يفعل ؟ رأس نظمي بديّر يابس كما كان الملعون يقول . كل مافهمته أن الشرطة والموظفين والجيش . . سلاح للدولة .

ـ هذا يحتاج إلى شرح وفهم يانظمي ؟

ـ يعني أنت تفهم هذا ؟ اشرح لي إذن يافهيم كيف تزول الدولة ؟ وإذا زالت كيف يعيش الناس ؟

ـ مافكرت بهذا ، ولاأحد حكى لي عنه . هذا كلام كبير . ويمكن إذا صار تخرب الدنيا .

ـ شفت ؟ لا ياأخي . لاتخرب ولا من يحزنون . ظنك أن الناس ماعاشت بلا دولة من عهد آدم إلى هذا اليوم ؟ ما حاجتنا ، أنا وأنت ، إلى الجيش والشرطة والموظفين والسجون والضرائب ؟ الذي يمص دمي ودمك هو الذي يحتاج .

ـ دوختني يانظمي . صاحبك صعب وكلامه أصعب .

ـ قلت لك مافهمت كلمة . كلام بديع صعب ، والكتاب أصعب ، ولكن هو مثل الطفل . وكما دخت أنت كان يدوخني . آخر مرة جاء ينط من الفرح . حوران وجبلها

تحترق ، وهو يلوح بورقة صغيرة . قلت : نزعتها من انجيل جديد لك ؟ أتعرف ماكانت ؟

ـ كيف أعرف ؟

ـ معك حق . حلب بعيدة . بيان من جماعته ضد فرنسا . بيان مع الثوار . ما سبقهم أحد إلى ذلك . وهذا هو الفرق بين من يدعو للثورة بلا دم وبين غيره ، ولكن فرحان لايفهم .

ـ لو كانت الدنيا تمشي رائقة لكل البشر بلا دم ، ماكان أفضل يانظمي ؟

ـ لو ، لو ياعزيز ، لاتقدم ولاتؤخر . ماانقضى عليك بعد إلا يوم واحد ، ومرجمين خلفك . لاتظن أنني ضد حزب الشعب الجديد هذا في الشام . إذا وقف مع الثورة ، وقفت معه ، شبعنا من الأحزاب التي تعلك الحكي علكاً . اسألني عنها . قبل بديع وبعد ، أنا أتابع أخبارها . فرحان النقشة هو الذي أفسدني بها ، ولكنني سبقته . فكر معي ياأخي : كم سنة مضت على فرنسا في بلادنا ؟ ماتركها الفلاحون ، حتى البدو ، ماتركوها ترتاح ليوم . لا أحزاب ولا من يحزنون . هذه حمص قدامك ، مثلها مثل الشام ، ماذا فعلت الأحزاب ؟ كأن الحكي للمدن والفعل لغيرها . كل يوم حزب جديد ، ولكن ماالنفع ؟ بديع كان يوافقني على هذا ، إذا غاب فرحان . وفي حضوره يلوص . فرحان يرى أن ثوراتنا فشلت لأنها بعيدة ، لأنها ماقامت في المدن .

ـ على قدر مافهمت منك ، لاتؤاخذني ، يجوز معه الحق .

ـ لا . لا ياعزيز . لاأنت ولاهو على حق . لو كان للثورات رؤوس غير تلك الرؤوس كانت النتيجة غير مارأينا حتى اليوم .

ـ هذا صحيح . ولكن اليد الواحدة لا تصفق . الكثرة خير وبركة ، والقلّ ذلّ .

ـ وهذا صحيح . إذا قامت حمص مع قومة قراها ، أفضل وأفضل . إذا قامت المدن وجبالها وبواديها ، أفضل وأفضل . البلاد كلها تثور . الأمل كبير . ولكن قصدي غير هذا . قصدي ياعزيز ما ابتدأنا به : الأحزاب التي تعلك الحكي علكاً .

ـ قد يكون فيها من هو أفضل مني ومنك . ومأدراك أن ليس فيها غير أولاد المدينة ؟

ـ يجوز . أصابع اليد ليست واحدة . فيه حزب أفضل من حزب ، وفيه ناس أفضل من ناس . ولكن ظني أن الدنيا اليوم غيرها البارحة . والحزب الجديد اليوم يقوم بطريقة جديدة . إن كان حزب فرحان أو حزب وليف أو حزب القرود .

كانا قد وصلا إلى بيت نظمي الذي لايكاد المرء يميزه وسط صف من البيوت المماثلة . اقترح نظمي أن يقضيا فترة المغيب جالسين أمام الباب ، على حافة الدرب الحجري ، ودخل يحضر كرسيين دون أن ينتظر موافقة عزيز الذي تلفت كأنه لم يأت إلى المكان من قبل . أحسّ أن نظمي بديّر قد شوشه . كان يريد فقط أن يعرف ما إذا كان بلشفياً أم لا ، فإذا به لم يعد يعرف إذا كان هو نفسه كذلك . وغشيه الزهد بما كان بينه وبين وليف ، أو بما بين بديع الطارة ونظمي بديّر وفرحان النقشة ، أو بقصاصة قد قرأها وعشر قد قرأ أي منهم ، بيد أنه فكر ، وصوت نظمي يتردد في الداخل ، أن أمر هذا الصديق الجديد أيسر من أمره هو ، أوضح وأسهل ، فنظمي مازال يسعى ومن معه في المحطة وفي غيرها من أجل نقابة . ونظمي يعلم مالايعلمه هو عن الأحزاب والثوار ، وهذا البيت له ، وثمة له زوجة في الداخل ، وربما أهل ، والكرسيان اللذان سيحضر ، وابريق الشاي ، أما عزيز اللباد ، فلا خلفه ولا قدامه إلا عسكريته وفلاحته والمصبنة الضائعة والعمر الضائع من مكان إلى مكان . وكان ذلك قد كدر عينيه حين جاء نظمي يلعن النساء جميعاً ، ويحسده على أنه لازال عازباً .

لوح برأسه ساخراً ، فقال نظمي وهو يتشمم فوح البخار من الفنجان الكبير المزخرف :

- قبل أن أنسى ويأتينا أحد ، أردت أن أحكي معك كلمتين . لماذا تظن أني حضرت مع الشيخ رزق ؟ قل لي : أين ستقيم ياعزيز ؟

- لا أعرف .

قال قانطاً .

- وماذا ستشتغل ؟

- لا أعرف .

قال بقنوط أكبر ، وتقلقلت جلسته على الكرسي الصغير ، ثم أردف :

- ألن نقاتل ؟

- ليل نهار ؟

- كيف اذن ؟

- قلت لي إنك عملت في مصبنة . ماقولك إذا دبرت لك الشغل في مصبنة هنا ؟

- والقتال ؟

ـ وقت للشغل ووقت للقتال . وقت لك ووقت لربك كما يقولون . على الأقل هكذا الأمر في البداية .

ـ مافكرت بذلك . شف ماتراه يناسب ، ويدي بزنّارك .

ـ واليوم تنام عندي . ابق عندي حتى تدبر أمرك .

همّ عزيز بالسؤال عن بيت الشيخ رزق ، وبيت العم حاتم الموصد منذ زمن ، فالشيخ رزق لن يؤوي فيه أحد بعد نجوم الصوان . انحبس السؤال ، فعض عزيز شفته العليا ، ووضع الفنجان . ربت نظمي على كتفه وقال :

ـ مابك ؟ أنا أخوك . عندي أرحب من بيت الشيخ رزق ، ويجوز أن تطول إقامة نجوم الصوان هذه المرة . لايجوز أن تناموا كلكم محشورين سوية .

تناول الفنجان ينتزع الابتسامة ، وغمض عليه ألّا يكون له أو لنجوم البيت الذي يغلقه الشيخ رزق ، وشكّ في أن نظمي والشيخ قد رتّبا ذلك ، وغاظه أنه لن يستطيع إذن أن يرى نجوم كلما رغب ، خاصة بعد أن تستعيد اخوتها من فياض . وكان نظمي ينهض مسائلاً :

ـ أحضر لك الجريدة تتسلّى بها ؟

فرد مباغتاً :

ـ أية جريدة ؟

ـ الإنسانية ؟ مابك ؟ ضيّعنا ؟

قال نظمي وهو يشير إلى صدغيه معاً ، ويضحك ، ثم انسرب إلى الداخل ، وعزيز يتصنّع الضحك ، ويملأ الفنجان الذي لم يفرغ بعد .

★★★

لم تستطع الجريدة أن تلهيه عما نبق في صدره من الوساوس . اختلطت عليه كلمات الشعار الذي يتوج الجريدة بالشعار الذي حفظه من مؤتمر باكو . تمعن في عمود يدعو العمال السوريين إلى الانتظام في النقابات ، ثم قفزت عيناه إلى عمود آخر ، وتاهت بين السطور ، ولم يكن حاله بأفضل على العشاء المبكر ، ولا بين الرجال الذين توافدوا .

كانت الوساوس تشغل نظمي ايضاً . لقد حدث الشيخ بعد الصلاة بمبيت عزيز . ومنذ السهرة السابقة مال إلى هذا الغريب . وفي مشوارهما الطويل من بيت الشيخ إلى

هذا البيت ، ازداد ميلاً إليه وإلفة ، ولم يدر في باله قط أن عزيز ونجوم قد يكونان متحابين . إلا أن ماطراً على عزيز ، منذ دعاه إلى أن يقيم معه ، حرك الوساوس . وجعله يفكر طوال الوقت فيهما ، يلوم نفسه تارة على ظنونها ، وتارة على سذاجتها ، فلعل مابين العاشقين قديم ، قبل أن يموت العم حاتم أبو راسين . لماذا إذن قاتل عزيز اللباد أول مرة في مرجمين مع فياض العقدة ؟ لماذا قاتل بالأمس ثانية ؟ لماذا سعى خلف أخوة نجوم أكثر منها .

كان نظمي يتقلب ، مدارياً ظهر زوجته ، يمضه أن يحشر أنفه فيما لايعنيه ، شأنه دوماً ، كما يقول فرحان النقشة والشيخ رزق نفسه . كان يهرب من السؤال عما يريد من نجوم الصوان ، إذا كان لايريد من عزيز اللباد شيئاً ؟ لماذا ينشغل بها حين تظهر ، وينساها عندما تختفي ؟ لقد فكر مراراً في أن يتزوجها ، لاينكر ، على الرغم من أنه سلّم بعقمه وعقم زوجته منذ سنين . وبسوى نجوم فكر أيضاً في أن يتزوج ، قبل أن تترمل ، ومن بعد ، فما الذي جدّ إذن بعد ظهور عزيز اللباد ؟ ولِمَ كان كالأبله طوال السهرة ؟

كانت أنباء حماة التي ثارت تطوح بالساهرين ، إلّاه . رويداً كان يتحاشى أن ينظر إلى عزيز ، والرجال يتأسون على سبق حماة لحمص ، ويكبرون استيلاء الثوار فيها على السراي ، ولو لساعة .

آخر من حضر منهم كان نجيب أبو كارة ، الذي يعمل مع نظمي ، وقد جلس لصق عزيز ، وما فتيء يلح منذ وصل على أن تكون ضربتهم الكبرى هنا ، في قلب حمص ، كما فعل الثوار في حماة . إلا أن فرحان النقشة والشيخ رزق وآخرين هولوا مما فعلت الطائرات بحماة ، وما وقع على الجسر أمام السراي . أما عزيز فقد ظل صامتاً حتى ذكر الشيخ رزق المشرقة وفياض العقدة ، واقترح أن يسارعوا إلى استعادة أولاد الصوان ، وقدر أن ذلك سوف يكون إشارة أو تحذيراً كافيين لفياض العقدة ، علّه يرتدع عن معاونة الفرنسيين ، ويوفر على الثوار جولة قادمة ، وقال :

- يروح عزيز ونجوم واثنان أو ثلاثة منكم ، مع السلاح .

عندئذٍ همس نظمي بحياء :

- أروح معكم .

فقال عزيز :

- اتركوني . اذهبوا بدوني .

فوجىء الشيخ رزق ، أما نظمي فقال متخابثاً وهو يحدق في الشيخ :

ـ لماذا ؟ عزيز يجب أن يكون أولنا .

ـ ربما يستفزّ حضوري فياض . هكذا أسلم .

جاء صوته حازماً ، وأيده بعضهم ، فأردف متردداً :

ـ وإذا كان الفرنسيون هناك ؟ إذا صادفوكم على الطريق ؟ ماذا تفعلون بالسلاح ؟ إذا وقع الصدام تعرقل ماتخططون ، وهو الأهم . قد يؤذي ذلك الأولاد أيضاً ؟

ـ قل ماتريد ياعزيز . لاتلهونا عن الأهم .

خاطبه نجيب أبو كارة ، وقد أحسّ نظمي أنه يقبض عليه متلبساً ، وشك في أنه غير راغب حقاً في أن يذهب إلى المشرقة ، أو أنه يحتال كي يؤجل ذلك إلى بعد مايبدو أن الآخرين مجمعون عليه من الشروع غداً بالقتال .

أما عزيز ، فلم يكن يعرف مايريد ، ولعله لذلك تلجلج ، ثم سكت لما هو أهم ، كما عاد نجيب يلح ، ولم يستطع من بعد ، لا هو ولا نظمي ، أن يشاركا فيما كان الآخرون يقررون .

★★★

تحدّد موقع الضربة بعيداً عن المدينة . سوف يلاقون النجدات الفرنسية المتواصلة التي أكدتها عيونهم . لن ينتظروها حتى تصل إلى حماة ، وربما إلى حمص . في الفجر سوف تنطلق الدفعة الأولى ، وفي عدادها يكون عزيز اللباد ، والبندقية التي يحضرها الشيخ رزق من بيته قبل صلاته الأولى . سوف يجمعون ماأمكن من المقاتلين في القصير . والبرية مع الليل سوف يعينانهم على أن يباغتوا الفرنسيين شرّ مباغتة . سوف يعينهم النهار أيضاً ، فثمة الكثير مما يمكن لهم أن يقوموا به : الجسر ، وسكة الحديد ، وقد يظفرون بما يغنيهم عن تجار البنادق والرصاص ، وبعد ذلك ، لن يكون عسيراً عليهم أن يدخلوا حمص .

لا في الطريق إلى القصير ، ولا في الأيام التي تلت وصول الدفعة الأولى ، والدفعة الثانية التي كان نظمي فيها ، ولا في أيام القتال جميعاً ، تغلب أيٌّ نظمي أو عزيز على ما أرقه منذ ذلك المساء .

كان يخيل لنظمي أحياناً أن عزيزاً يقاتل مكرهاً ، لايقصّر ولايخطىء ، ولكنه يبدو أشبه بالنول . وكانت الانتصارات السهلة ، وانفلاش المقاتلين إلى جماعات متباعدة يزيدهما وكثيرين تشوشاً ، خاصة بعد أن تردد أن جماعة أو أكثر هاجمت بعض القرى المسيحية والعلوية القريبة ، ونهبتها ، أو جعلت زعماءها يفرون ، وفي واحدة منها على الأقل قتل واحد على الأقل من موظفي الكاداسترو .

وقد يكون ذلك ماجعلهما لايعودان يتحاشيان أن يجلسا معاً ، حين يسنح لهما ، وأن يلحّا معاً على سواهما بالعودة إلى حمص ، خاصة بعد أن دمر الجسر ، وقضبان طويلة من سكة الحديد ، وعربات عديدة من القطار ، وكان ماجرى في حماة قد انتهى أيضاً ، وأحكمت فرنسا قبضتها على المدينة .

ربما كانت عودة عزيز سالماً هي التي جعلته أجرأ على أن يفكر بنجوم الصوان ، وفي الآن نفسه أجرأ على أن يفكر في مصيره ومستقبله : هل يتابع القتال هنا ؟ ولئن كان القتال قد قاده في المرة السابقة إلى أم عثمان وأنجوق والقزلي وحلب والغاب ، حتى أرض الشيوخ ، فإلى أين يقوده هذا القتال ؟

في طريق العودة الذي طال وتفاقم خطره ، اقترب منه نظمي بديّر ، ونجيب أبو كارة ، وقال نظمي :

ـ غداً أو بعد غد إن شاء الله تبدأ الشغل في مصبنة الناجح .

أثلجت المفاجأة صدره ، ولكنه قال :

ـ دعنا نصل أولاً .

ـ سنصل بإذن الله ، وستشتغل . نجيب رأيه كذلك أيضاً .

ـ وإذا لم يوافق ؟

لسببٍ ما ذهب لسانه إلى ذلك ، فقال نجيب ضاحكاً :

ـ ندور على مصبنة غيرها . ندور على شغل ثان . تعال إلى النول . ماخلقك الله في المصبنة .

قال عزيز :

ـ قد أعود إلى قبية . قد أسافر إلى الشام .

قال نظمي :

ـ والمشرقة ؟

قال عزيز :

ـ تركتها لك .

أردف نظمي متغاضياً :

ـ وحلب ؟

قال نجيب غامزاً :

ـ إلى مصبنة الفخري . ياسلام !

بازدراء خاطب عزيز نظمي :

ـ ليس لك سر .

ـ ليس بيني وبين نجيب أسرار . ولا بيني وبينك . لاتخاطبني هكذا ياعزيز . هذا جزائي ، بدل أن تشكرني ، أنا أفكر في شغلك وفي . . .

ـ خيرك سابق وغامر يانظمي .

قال عزيز مقاطعاً ومزوراً ، ولم يستطع نجيب طوال ماتبقى من الطريق أن يجلو عكر الرجلين ، حتى إذا شرعوا يتفرقون في مشارف المدينة ، بدا عزيز كأنه يتخفّى عن نظمي ، إلا أن نجيب لحق به في المجموعة التي سار معها ، منذ تجاوز سكة الحديد المسوّرة للمدينة ، وانتحى به هامساً :

ـ نظمي ينتظرك .

تساءل عزيز متجاهلاً :

ـ خير ؟

قال نجيب بضيق :

ـ لا تعرف ؟ أين تروح الآن ؟

ـ حمص واسعة .

قال عزيز

ـ تعال معي ياعزيز .

جاء صوت نجيب حانياً وحازماً أيضاً ، ولكن عزيز رد ساخراً :

ـ بيتك عامر يانجيب . اتفقت مع نظمي على ذلك ؟

ـ اسكت ياعزيز . عيب .

هذه المرة وشى الألم صوته . فأردف عزيز كأنه يعتذر :

ـ ألست متزوجاً ؟ أعني هل يتسع بيتك ؟

ـ البيت الضيق ينام فيه ألف صديق .

قال نجيب وهو يدفع بعزيز أمامه ، وعزيز لايرفع عينيه عن حجر الزقاق ، خشية أن يكتشف أن بيت نظمي قريب ، ولايجرؤ على أن يتلصص من فرجات الزقاق على البرية ، خشية أن يكون بيت الشيخ رزق أيضاً قريب .

★★★

أسعده أن نجيب عازب ، وليس في البيت الصغير البالغ الارتفاع سوى والد نجيب الذي أهزله المرض منذ أعوام ، فما عاد قادراً على أن ينهض أو يأكل بمفرده .

قبل أن يلتجىء إلى الفراش كان قد أخذ يحسّ بالألفة التي افتقدها في بيت نظمي ، فنجيب ووالده وهذا البيت والمرحومة والشباب المشتتون بين أزقة حمص وطرابلس والبنات اللواتي متن أو تزوجن ، كل ذلك بات أقرب إلى نفسه كلما استرخى جسده المنهك ، وزاد دفء الفراش . كذلك غط في النوم العميق ، حتى أوشك الليل أن ينقضي ، ثم أيقظه مراراً خوفه المباغت على والديه من مصير والد نجيب . ولعل ذلك ماجعله يتحامل على نعاسه وتعبه ، ويسبق نجيب في النهوض . ولما غادره نجيب قائلاً :

ـ ادع لي حتى أعود لك ببشارة الشغل .

هزّ رأسه متبسماً وداعياً ، ثم تشاغل بوالد نجيب ، وتشاغل عن الوالد بنجوم وبنفسه ، حتى جاءت إحدى شقيقات نجيب ، أصغرهن كما قال الوالد ، فأعدت الغداء ، وخرجت بأبيها إلى خلف البيت ، مديرة ظهرها ريثما يتبول أو يتغوط ، وعادت به ساخطة ، وغير آبهة بعزيز ، شأنها دوماً ، كما قال الوالد ، وهي تخرج دون وداع ، وهو يدعو لها بالتوفيق . فلولاها لكان الجوع والوسخ قد قتلاه ، ونجيب الكسول الذي يتقدمْ به العمر ، ويصعب عليه العيش ، لايعرف كيف يدبّر زيجة ، مهما كانت .

اثر الغداء استأذن في الخروج ، ورأى نفسه وهو يقطع الزقاق الحجري على مهل يسأل أول من صادف عن المحطة ، ثم يغادر الزقاق من إحدى فرجاته ، عازماً على أن يؤجل كل أمر حتى يبرىء ذمته نحو نجوم ، ومن بعد لن تكون به حاجة إلى نجيب أبو كارة أو نظمي بدير أو الشيخ رزق ، لن يكون بحاجة إلى من يتكرم عليه بمأوى أو بتدبير شغل ، فالأرض واسعة ، وكلما كانت تزداد ضيقاً فيما مضى كانت تتسع دوماً ، وهكذا ستكون .

مثلما فوجئوا به ، فوجىء بهم . كانوا ثلاثتهم يشربون الزوفا ، وبقايا الغداء إلى اليمين . هللوا له . وفيما جلس بين الشيخ رزق والعجوز ، ظلت نجوم واقفة مذ دخل ، ترمقه مشوقة وعاتبة ، وفرحتها تزاحم غلالة شفيفة من الأسى .

لم ينظر إليها ، ولم يبادلها سوى التحية ، حتى قال الشيخ :

ـ نجوم كأنها على نار . والوقت صار غير مناسب حتى يذهب أحد إلى المشرقة .

ـ من قال ؟

سأل عزيز منكراً . قال الشيخ :

ـ الجماعة هنا رأيها هكذا . هم أدرى مني ومنك .

ـ الجماعة على خطأ .

قال محتداً ، فاقتربت نجوم سعيدة به :

ـ الحمد لله ، وقف واحد معي أخيراً . لا الشيخ رزق ولا نظمي ولا أحد يوافقني ياعزيز .

قال الشيخ متبرماً :

ـ صبرنا كثيراً . خلنا نصبر القليل .

قال عزيز :

ـ اترك الجماعة الآن ياعمي . الأحوال تسوء . وقد لايصبح الوقت مناسباً قبل شهر . الأمر الآن بيدنا نحن . رأيي أن نقصد المشرقة اليوم قبل بكره .

عارض الشيخ ، وترددت نجوم ، فنهض عزيز يعلن عزمه على أن يذهب وحده إذن . سألته نجوم عن سلاحه ، فقال :

ـ خبأه نجيب مع سلاحه في بيته . لماذا ؟ لن أحمل عوداً .

وقف الشيخ غاضباً ، إلا أن عزيزاً كان قد تجاوز الباب راجياً :

ـ ادع لي ياعمي . هيا يانجوم . لاتضعفي .

بعد خطوات لحقت به ، ثم تجاوزته صامتة ، فسار في اثرها ، يلاحقه دعاء الشيخ ونهيه ووصايا العجوز ، ولم يحاذ نجوم ، أو يتبادلا الكلام ، حتى ابتعدت المدينة عنهما .

خطاها الصغيرة المحيرة كانت تقصّر خطاه ، وتقذفه بصورة تلو صورة ، له ، لفياض ، لمشوار وحيد قديم إلى المشرقة ، للمرحوم ، ولنظمي بدير أيضاً . وإذ يتعثر في مشيته في الطريق الذي صار ترابياً وممهداً ، تتكسر الصور في نفسه . ولعلها كانت كذلك ، وكل منهما يلوب على أن ينظم مايدفق به الماضي في تكوين آخر ، ينبغي أن

يكون أهدأ ، كيما يسمح لأحدهما بأن يخاطب الآخر ، أو ينظر إليه ، قبل أن تطل المشرقة .

إلى الظلال التي تكاثرت وتطاولت متاخمة للنهر ، تأخر عنها وأفاء ، وهو ينادي بصوت غير مسموع :

ـ اجلسي قليلاً . كأننا في سباق .

تباطأت في الوقوف قائلة :

ـ وصلنا . والنهار مابقي منه الكثير .

مد يمناه برجاء ، وهتف :

ـ بحياة المرحوم تعالي اجلسي . خلنا نتفاهم على الأقل ، قبل أن . .

تراجعت يده ، والتفت رأسه إلى النهر ، وهو حائر في أي المرحومين يعني : أبوها أم زوجها ، وحائر فيما يدعوها إلى التفاهم فيه .

تربعت قربه ، وحدقت فيه ملياً قبل أن تسأل :

ـ أراك سكتّ ؟ تخبىء عني شيئاً ؟ مابك ؟

ـ ماذا أقول ؟

ـ قل ولاتستح مني . أم أنك فعلاً صرت مثل . . السكوت أفضل .

هفا إليها :

ـ مثل من ؟ ماقصدك ؟

ـ قصدي خيبتني ياعزيز كما خيبني غيرك . ماقلت لي كيف اختفيت عني دفعة واحدة ؟ أعرف أنك كنت مع الثوار ، وبارك الله فيك وفيهم . وغير هذا ؟ ماعندك شيء تقوله ؟ نسيت نفسك كيف لاقيتني اليوم ؟

ـ ماذا كنت تريدين أن أفعل ؟ أنت لاتعرفين .

ـ عرفني إذن . قل ولاتستح مني . الحكي مرسوم في جبينك .

ـ طيب ، هونك عليّ ، واحدة واحدة . نظمي بدّير ؟

ـ ماله ؟ لو كنت راغبة في الزواج منه أو من غيره ؟ لاأنت ولا غيرك يمنعني . أنت لاتعرف نجوم الصوان ، أين كنت عندما طلب يدي ؟

ـ نظمي طلب يدك ؟

ـ كأنك لاتعرف .

ـ ظني محله إذن .

ـ اتركني من ظنك وظنه . ماذا قلت له عني ؟
ـ ماجاء ذكرك بيننا بحرف .
ـ كيف قال لي إذن حين رفضت طلبه : روحي إلى عزيز اللباد ؟
ـ اسأليه هو . ماذنبي ؟ مليح يانظمي بديّر ؟ واحد زوجته بحضنه ، وحامل روحه على كفه ، ويروح يخطب ، ويظن بالناس الظنون ؟
ـ بعدما رجعتم جاء . أمس ، قبل أن يغسل التراب عن وجهه .

قالت وهو يلاحق انبساط جبينها ، وخفق فؤاده يعلو ، وهو يتأرجح بين الحنق على نظمي والطمأنينة التي تلوح ، ويغدو أقدر على أن ينهض ، ثم ينحني ، ويمسك بكفها منهضاً ، فتستجيب له خفيفة ، وتمشي على مهل ، لاينكر غيرته عليها ، وإن كان لايريد منها شيئاً ، ثم يصحح لنفسه ، فهو لايعرف ماذا يريد منها ، ولا ماذا تريد منه ، وتزيده جرأة وتوهاناً إذ تكرر ماقال ، لكن المشرقة كانت قد أطلت .

★★★

لم يكن في البيت الذي يذكرانه جيداً أحد . قالت الجارة التي تذكرت نجوم فجأة :
ـ أم فياض ، العمر لك . قبل أن ينتقلوا إلى بيت الوكيل .
ثم كمت فمها بكفها كأنما فطنت لأمر خطير ، وأردفت من خلال أصابعها :
ـ ماذا جئت تفعلين هنا ؟
تجاوزها عزيز يستحث نجوم ويقول :
ـ جاءت تسترد الأمانة من الوكيل . دلينا على بيته .

كان فياض يستعد لركوب حصانه حين وصلا ، وحوله عدد من الرجال ، بينهم مسلحان . ألقى عزيز بالسلام ، فبترت نظرة فياض الزاجرة ردّهم . اقترب المسلحان من عزيز ، ونجوم تحدق فيه ، حتى رفرف جفناه ، فأشاح عنها نحو عزيز ، وأرخى ابتسامة صفراء ، قبل أن يتساءل متمسكناً :
ـ خير ؟
ـ أين أخوتي يافياض ؟
صدح صوتها بين البيوت ، فاقترب المسلحان منها .

ـ الآن جئت تسألين ؟ تأخرت ياحسرة .
ـ أين أخوتي يافياض ؟

أشار حاجباه إلى عزيز :

ـ اسألي البطل .
ـ كلمة ورد غطاها يافياض . من بعدك بقي بطل في الدنيا ؟ أين أولاد الصوان .

قال عزيز ، فنتر فياض اللجام وصاح :

ـ لن تفلت هذه المرة ياعزيز اللباد .

صاحت نجوم وقد اندفعت إلى لجام الحصان :

ـ اترك عزيز اللباد واسمعني : أين أخوتي ؟

صوب المسلحان بندقية نحو عزيز وبندقية نحو نجوم ، وقهقه فياض . دفعت نجوم بالبندقية ، وعزيز يقول :

ـ وأنت إلى متى تظن أنك ستفلت ؟ نصيحة لوجه الله يافياض العقدة ، خذها مني ، حتى لاتقول ولا يقول أحد في المشرقة : أخذوا المرحوم غدراً . لا اثنان ولا ثلاثة ولا مئة يحمونك ، وأنت تعرف ما أعني ، وتسمع أكثر من غيرك بما يجري في البلاد . دم اسماعيل معلا مانشف .

ـ من أجل هذا شرفت مع الخانم ؟

قال فياض ، ثم التفت إلى نجوم :

ـ ليس من أجل الأولاد .

قال عزيز :

ـ كل واحد جاء لغرضه . فهمت أم أزيدك من الشرح ؟ الدور دورك يافياض ، وهذا الإنذار الأخير . وقبل ذلك وبعده : الأولاد .

تراجعت قدما فياض خطوة صغيرة ، فلامس ظهره الحصان . امتدت أصابعه إلى السرج تعبث به ، قبل أن يتهدج صوته وتغيم عيناه :

ـ عبد اللطيف تطوع مع الفرنسيين ، وترياق في بيروت ، في بيت الخواجة . والصغير هرب من سنة . ماذا تريدين أيضاً ؟ أمامك البيت . خلّ صاحبك يفتش . أمامك المشرقة : اسأليها . أما أنت ياعزيز اللباد ، فحسابنا ماحان وقته .

التفتت نجوم إلى عزيز ضارعة ، تغالب ارتجاف ساقيها ، وكان فياض قد اء صهوة الحصان ، وأمر المسلحين أن يتبعاه ، فهمس عزيز :

- امش يانجوم . لاتضعفي أمامه . لا تتركيه يشمت بنا .

وتقدمها ، تلاحقه وتلاحقها عيون الرجال ، ومن بيت الوكيل إلى البيت الأخير شيعتهما المشرقة التي سرى خبرهما فيها ، وسمع بعضها الصياح . ثم سارا صامتين حتى نأت .

كانت ملامح الأطفال الصغار الثلاثة تضيع منها خطوة فخطوة ، وهي تفكر في أن عبد اللطيف صار رجلاً ، مثل هذا الرجل الذي يحاذيها ، وارتدى عبد اللطيف البذلة الفرنسية ، مثل الخيالة أو الجنود الذين ضربوا مرجمين ، ولابد أنه قد أرخى شاربيه ، ولم يعد ناحلاً كالقصبة . أما ترياق فصارت صبية ، لها نهدان ووركان ، ولاريب أنها الآن أجمل من نجوم ، ولو كانت في مرجمين لألوت بأعناق الشباب ، ولكن ماتراها تفعل في بيروت إلا إذا كانت خادمة ؟ هل باعها فياض العقدة إلى الخواجة ؟ بنت الصوان خادمة في نهاية الزمان ؟ لو سيقت نجوم أيضاً إلى بيت مأمور النفوس لكانت بنات الصوان مضرب مثل : خادمات ، وجميلات ، وصبايا ، فلا تكتفي الستّ منهن بالغسل والكنس والطبخ وحمل الصغار ، بل على الواحدة منهن أن تخدم الخواجة ، أن تخدم المأمور ، تغسل له قدميه ، تحضر له الكأس ، ترقص له أو تغني إذا رغب ، وتفعل غير ذلك إذا رغب ، ولا فرق إذا كانت الست راضية أم غاضبة ، حاضرة أو غائبة ، فماذا ستفعل نجوم إذا كان هذا قد وقع لترياق ؟ كيف تعيد لها شرفها إذا كانوا اعتدوا عليها ؟ كيف تخلصها منهم حتى لو كانوا فعلوا بها مافعلوا ؟ ونافع ، الصغير المدلّل ، الرقيق ، هل كبر هو الآخر وخشن ؟ أين مقامه الآن ؟ ماذا فعل به فياض العقدة حتى جعله يطفش ؟ وكيف لم يرجع إذن إلى مرجمين ؟

كانت الغيوم البيضاء تتكاثر وتسرع غرباً ، وهي تلهث خلف مايصطخب في صدرها ، وعزيز يود لو أن خطاها أكبر ، فحمص لازالت بعيدة ، والمساء أقبل ، وهو يتلفت كل حين خلفه ، مغافلاً نجوم ، خاصة في انحناءات الدرب وانحداراتها . تومض له الطمأنينة قليلاً ، فيزداد عجباً من فياض ، ورثاء لنجوم ، وحيرة في أمره ، ويسخر مما اعتزمه على الذهاب بعيداً ، حتى يبرىء ذمته نحو نجوم ، فالذمة لاتبرؤ مالم يصلها بأخوتها ، وماكان يأمل أن ينتهي في المشرقة ، إنما بدأ حقاً فيها .

أقبل المساء أسرع مما كان يحسب ، ولم يعد تلفته يجدي عذراً ، وبعد قليل إذ أعتمت : ولا تبصّراً في الطريق ، كما أخذت نجوم تبطىء ، فسأل مشفقاً :

ـ تعبت ؟

لم تجب ، فتوقف :

ـ نرتاح ؟

ـ كما تريد .

ندم على أنه لم يقترح عليها قبل المغيب ، وتنحى عن الدرب ، صوب النهر ، فتبعته ، ووقفت خلفه وهو يغترف ويغسل وجهه ويشرب ، ثم قرفصت إلى يساره ، ومطّت جذعها ، فأوشك فؤاده أن يسقط في النهر ، وهمس محذراً وهو ينحني عليها ، فبرمت رأسها ، ولعل ذقنها لامست ظاهر كفه أو باطنها ، قبل أن تعود إلى النهر ، وذراعاه يعلوان ويهبطان مع حركتها . فلما نهضت لم يقدرا على أن يتركاها ، ولم تستطع أن ترتد إلى النهر ، أو تحول دون جسمها أن يدور ، فإذا بها في حضنه ، وإذا بذراعيه يطيران بها خطوة أو خطوتين ، ثم يدعانها لضحكه وخوفه عليها ، وهي تبتر ضحكتها ، وتقسم أنه قد أخافها أكثر من النهر ، وتجلس .

تراءى له أن العتم يرخي على وجهها ظلالاً بالغة الشحوب والإبهام ، وأنها في خطر داهم ، لاتقدر على درئه وحدها ، وأجفلته كفها تنشب في وجهه وعيناها تهمسان ، تأمران بالصمت والانتباه ، وتحذران ، فتلفت ، ثم أصغى ، وخيل إليه أن حصاناً يلطو غير بعيد ، وأن فوهات تجوب الدرب وصفحة النهر . كانت دقات قلبها تتصادى في أذنيه ، تضاعف خوفه من أن يكون قد سها عمن يتبعهما ، فدنا موشوشاً ، إذ لن يرسل فياض جاهلاً مثلهما بهذه الأرض ، ولن تكون الدرب المكشوفة والمعروفة آمنة ، وماعليه إلا أن يبحث عن ركن آمن ، ويلبد وتلبد حتى النهار . وماكانت قادرة على أن تهز رأسها ، ولا تحرك جفنيها ، موافقة أو رافضة ، كما لم تكن قادرة على أن تنام كما يأمرها ، بعد أن قدر أن الركن الذي يجلسان فيه ، أفضل من سواه . أما هو ، فقد سبق له أن وصل الليل بالنهار ، بدونها ، فكيف مادامت تحتمي به ، وتساهره ؟

كان انقضاء الليل يؤالفهما مع الخطر ووقع الماء على الضفة القريبة ، فيجرؤان على أن يتهامسا أطول فأطول ، ويصغيان أقل فأقلّ . وكانت برودة الهواء تلفحهما أقسى فأقسى ، ونجوم تذكره بالليلة التي قضياها معاً أول مرة في مرجمين ، بين الأنقاض ،

فتساءل عما إذا كان لم يبق في الدنيا سقف واحد يظلّهما ، لا البيت المدمر ، ولا المعمر سوى هذه السماء المرصعة بالخوف .

كانت تغمغم مثله ، فقد ثقل عليها العيش أيضاً ، وهي تلوب على سقف يحمي ، وكتف ترمي عليه الرأس الكليل . ولعلها أقسمت في سرها أنها كانت ستموت ، دون أن تهفو إلى رجل ، لولا أنه هو الذي يغمغم . ولولا أنه هو الذي يذكر الزواج ، لظلت متيقنة أنها الأرملة المؤبدة . كما ألمحت لنظمي ثم صرحت . لكن عزيز اللباد ليس نظمي بدير . ليس ماكان فياض العقدة ، ولا مايكون . ليس حاتم أبو راسين نفسه . وقد يكون هو الرجل الذي خلق لها ، وخلقت له . فلولاها ، كما يلهج ، وهي تصدق ، ماعاد من الغاب إلى حمص . ولولاها لكان قد تزوج من أم عثمان ، أو عاد إلى قبية ، أو قتل في القصير ، أو ذهب إلى الشام ، أو رجع إلى حلب ، إذ كانت تسكن في أعماقه دوماً ، وسوف يكون بوسعهما معاً أن يعمرا بيتاً ، تغطيه أصابعهما المتشابكة ، أما أولاد الصوان فهم أولاد اللباد ، وفياض العقدة ليس عدوها وحدها ، بل عدوه هو أيضاً ، ومرجمين هي قبية ، وحمص هي أي مكان آخر ، ونجوم هي التي تفجر لوعته بصمتها ، وتعجز عن لوعتها ، فتبكي ، وتتوسل إلى أصابعه أن تمسح دموعها ، وتدغدغها ، حتى تتبسّم ، وتشهق ، وتضحك ، تعنّفه على معابثته ، وتنأى حردةً وداعية ، والليل لازال ينقضي .

★★★

23

تريث هولو التكلي في السفر الى حيفا، يأمل أن يأتي فرج ما ، هكذا ، كالحلم المباغت ، مادامت حُسْن قد أطبقت شفتيها ، وإنْ ظلت تتكلم أو تتبسم أو تتلمس بطنها . وقد ظل كذلك حتى وهو يتوجه الى الحرزة ، ليس ليودع أمه وأخواته وحسب، بل ليهيىء لحُسْن كيف تعيش في غيابه ، وربما ليطمئن على القبور وبعضاً من القلب الذي لن يسافر معه .

وقف أمام البيت ، يتهيب الدخول ، كما يتهيب أن يملأ عينيه من حورة الحاج ، وكانت أمه أقرب إلى الموت ، وإن تكن استطاعت أن تحضنه كعهدهما حين كان طفلاً ، فلم يجرؤ على أن يودعها ، أو يذكر لها حيفا . إلا أنها كانت توصيه بنفسه وبأخيه ، كأنها تودعه الوداع الأخير.

آب من الحرزة في المساء ، ووقف أمام بيته يتهيب الدخول أيضاً، إذْ خيل إليه أن البيت ممتلىء ، وأن خطباً ما قد حلّ ، ولم يستطع أن يخرج مما اعتراه ، وهو يفتح الباب محاذراً، ويرى عبد الودود وخديجة ، وعمر أيضاً .

هبّ الرجلان يلاقيانه ، كأن صبرهما قد نفذ ، وأشاحت خديجة وحُسْن دامعتين ، فيما تسلل صوت طه اليتيم من خلل رشفة الشاي ، في أقصى البيت :

- الضيوف عندك وأنت هارب ؟

- كيف حال العجوز؟

سأل عمر بلهفة باغتت هولو :

- حالتها بالويل.

قال ، ولم يقو على أن يكمل العبارة ، وشهقت خديجة :

- أمي . .

نهرها عمر، وأفسح لهولو بينه وبين عبد الودود ، فيما قدمت له حُسْن الشاي وقال :

إلى أين أنت ذاهب إذن؟ افرض لاسمح الله أنها ماتت في غيابك؟

قال عبد الودود :

ـ هذا أخوك جاء بنفسه يا هولو، ولوكان جاء ليودعك ، ولكن مازلت أقول لك ، نحن جميعاً نقول لك : لاتسافر. ها أنت رأيت العجوز ، لا أنكر اليوم كما لم أنكر البارحة : معك بعض الحق ، ولكن ماعاد أمامنا إلا كلمة نعم ، لا أريد أن أسمع منك غيرها ،

ـ خير يا أخي؟

ـ قل نعم أولاً .

ـ قلت. نعم. خير؟

ـ كأنك لاتعرف، الشغل مع عمر، لافي حيفا ولامع غيره، ومابي حاجة ولابك حاجة للكلام الكثير ، الشمس مابتتغطى بغربال ، وحالتنا لاتطاق ، وعمر جاء بنفسه من قبل ، ماقلت له اليوم : أخوك مسافر بكره ، حتى قال : قم معي إليه .

ارتجفت الكأس في يده ، وحاصرته العيوم، فتمتم:

ـ أنت نفسك ماذا. .

قال عبد الودود مقاطعاً :

ـ أنا بصمت، وهذا إبهامي مرة ثانية.

ـ ماقلت لي ذلك من قبل.

ـ اليوم ألهمني الله، البارحة، وبصراحة كنت يائساً منك ، لكن الآن خلصنا والحمد لله.

فكر هولو في أن هذا قد يكون بعض أو أول الفرج أو الحلم المباغت الذي انتظر، وأنه قد يكون أفضل، ريثما تلحق العجوز بالحاج ، إلا أنه لم يكن قادراً على أن يوافق بسهولة ، قال:

ـ هي صدقة يا عمر؟ صدقة يا عبد الودود؟ كم قلت لك وقلت لي: مالنا قدرة على شغل عمر، ولانفهم فيه .

قال عمر ، وصوته يحيّر بين الرجاء والأمر :

ـ انس القطار واترك الباقي علي .

ـ وعدتك ، تصدقني؟

قال عبد الودود :

ـ انتهينا من هذا .

همس هولو:

ـ انتهينا .

خاطب عمر طه اليتيم :

ـ ابق في الشام، أسافر وحدي هذه المرة، وقبل أن أرجع يكون هولو وعبد الودود قد صارا يعرفان اكثر مما تعرف، في كل كبيرة وصغيرة، مفهوم ؟ لاتفارقوا بعضكم ليل نهار .

ووقف يصلح هندامه مردفاً :

ـ اضحكي يا حُسْن ، اضحكي يا خديجة ، قم يا طه ، ما امتلأبطنك من الشاي!

وخرج منتصراً ، مخلفاً للمرة الأولى منذ ترك هولو وعبد الودود العمل في كراج البر والتيسير، فرحة صغيرة، وطمأنينة أكبر، في ذلك البيت.

★★★

كان عبد الودود أكبر حماسة من هولو في التعرف على هذا العالم الجديد الذي يكشفه لهما بمهارة وغواية وعجلة طه اليتيم: من السوق الى العنيف ، وفيما بعد : من الجولان الى حوران . ولئن أذكر ذلك عبد الودود بعهده لدى الباشا شكيم ، وسليم أفندي البسمة ، إلا أن لعهد عمر التكلي نكهة أخرى ، أقرب الى الفؤاد ، وأعصف به ، لاحدود فيها بين الوكيل والتاجر والملاك والحبوب والذهب وزير النساء وزمن انقضى ومعلوم ومجهول وخطر أو أمان ، كان هذا العالم يستهوي عبد الودود ، خاصة بعد أن ظهرت له أم نور الدين في جولته الوحيدة مع طه ـ دون هولو ـ في الجولان ، ينهيان ما كان عالقاً لعمر التكلي في عين فيت والعال . أما هولو فقدتاه في البداية بين الإذعان والفضول ، بين الدهشة والإنكار ، وأحياناً : الاشمئزاز ، ثم أخذ قلقه يكبر على عمر وعلى كل من معه : فالمال كثير ، والعلائق ملونة وملغزة ، بلا حصر ، وثمة رائحة واخزة للفرنسيين ، وربما لليهود ، وليس الأمر على أية حال كما كان على القطار ، أو في المحطات ، أو لدى تيسير عبد البر . ولم يلبث صبره أن نفذ ، فعادت حيفا تناديه ، بعد أن تسلل الى محطة الحجاز مرتين ، يتشمّم ويتلصّص ، لعل العودة صارت ممكنة ، ولكن الأبواب ظلت مغلقة ، وطريق عمر ـ مرة أخرى وحاسمة ـ ليست طريقه، خاصة بعد أن

صار له ولد يكرج في البيت ، وصار هولو ينادى أحياناً : أبو حاتم ، أو أبو الحاج . كان قد بات يخشى إنْ تابع في طريق عمر إلاّ يجني على نفسه وحسب ، بل على غيره أيضاً . ومادام عاجزاً عن أنه يعود بشقيقه عن هذه الطريق ، فليعذْ بنفسه على الأقل ، أما عبد الودود فهو حرّ ، وذنبه على جنبه ، ولم يبح هولو بشيء من ذلك إلا لحُسْن .

★★★

جاء وقع رحيله على عمر أكبر مما حسب الجميع ، إذ لم يكن أحد يعلم أنه فكر في التخلص من طه اليتيم ، تعويلاً على أخيه وصهره . كان قادماً من حمص كبير البهجة ، حين نغص عليه طه وعبد الودود برحيل هولو المفاجىء ، ولم يكن أمامه بعدهما سوى حُسْن التي رحلت إلى الحرزة بالأمس ، فعجل إليها ، يصب غضبه وخيبته ، غير عابىء بانهيار أمه ، ولا بموتها قبل أن تنقضي تلك الليلة .

أما وقع الرحيل على هولو نفسه فقد جاه أهون مما كان يحسب ، إذ تيسر له أن يعمل في المحطة سريعاً ، وتجدد أمله في العودة إلى القطار ، وبات له مايشغله عن نفسه ، من المحطة الى المدينة ، إذ أن بديع الطارة ظهر في المحطة بعد أيام ، وكان هولو قد دبر غرفة رحيبة في المنشية ، تفضي في يمينها الى جنينة صغيرة يزنرها الجوري ، وتتوسطها شجيرة فتية من الأكدنيا .

أدهش هولو أن لبديع الطارة أصدقاء كثيرين في حيفا ، وأنه يعرف المدينة أفضل مما يعرف هو الشام . ولعله كان يداور الحسد على ذلك ، حين خاطب بديع الذي كان يتأهب للعودة :

ـ أنت تعرف حيفا أكثر من أبنائها .

فقال بديع متباهياً وغامزاً :

ـ وغير حيفا . وكل الفضل لك .

تساءل رضوان عرفة ، وكان أول من التقاه هولو ، وهو يسعى الى عمل في المحطة :

ـ أنت هين يا هولو؟

قال هولو عاتباً :

ـ بديع يمزح كعادته .

ـ قال بديع ضاحكاً ، وهو ينظر الى ساعة المحطة :

ـ أمزح ولا أمزح . في رياق من دعاني للهرب؟ لولاك يا هولو ماطردوني ، وما شلحوني في حمص بعدما قبلوا يرجعوني للشغل . وبعد حمص كرجت رجلي . كل سنة في محطة ، هذه المرة تأخروا عليّ في بيروت ، صرت أدور هكذا . .

فكر هولو في أن حظه وحده هو الأسوأ ، إذْ ظلت الإدارة ترفضه بعد رياق ، حتى لجأ إلى حيفا ، وكان رضوان يهمس كأنما يتكتم على سرّ :

ـ شاطر يا بديع الطارة . تدور هكذا . !

سأل هولو بعد قليل :

ـ ومن رأيت في محطة حمص يا بديع؟

ـ رأيت كثيرين . من تقصد ؟

ـ العم حاتم . حاتم أبو راسين .

ـ الله يرحمه . استشهد قبل وصولي . والمحطة كلها تلهج بذكره .

انلجمت شفتا هولو ، وفغرت عيناه ، فيما القطار يتعجل المسافرين ، فغاب بديع الطارة ، وحفّ رضوان عبد القادر والآخرون بهولو ، كأنهم يعزونه . ولعل فقدان العم حاتم ما دفعه أقوى نحوهم ، خاصة أنهم ملأوا عشايا غرفته التالية ، فما عاد يفارقهم من المقهى المطل على الميناء الخشبي المتآكل ، إلى مطعم المسالخي ، أو بيت رضوان خاصة ، وسرعان مابدا أن بديع الطارة قد خلف له سوى ذلك أيضاً ، تلك المفردة التي ستلازمه طويلاً : الصهيونية .

عشية سفره عاد بديع إلى ما كان لايلبث أن يقود الحديث إليه كل مرة ـ وكانوا في غرفة هولو ـ من هجرة اليهود الى فلسطين . كان هولو قد حمّله لتوه فستاناً لحُسْن ، وجنيهين ، مادام سيعرج على الشام قبل عودته الى بيروت، وقبل أن تستغرقه الاستطرادات والمماحكات ، كان يهجس بالإشارات التي رسم لبديع ، كي لايتوه عن الشيخ حسن ، ويلتقي بعبد الودود ، فلا يفارقه حتى يتسلم رسالة وافية ، تطمئن الغائب ، وتبرد توقه .

رويداً نسي حُسْن والفستان وعبد الودود وما كان بديع أو سواه قد ذكر في الأيام الفائتة ، وأقبل يصغي ويفكر في أن عينيه كانتا مغمضتين عما يجري حوله ، هنا في حيفا ، أو ثمة في فلسطين كلها . ولعله ظل كذلك طويلاً بعد عودة بديع . ولعله من

أجل ذلك ألح على رضوان عرفة كي يخرج به إلى المستعمرات التي تقام، أصغر أو أكبر، على الطريق الساحلي، أو أبعد إلى الداخل، في جهات شتى.

كانت البيوت الخشبية الكثيرة، والحجرية النادرة، في تلك المستعمرات، تملؤه بالرثاء والهزء، وتطلق زفراته في هواء حيفا الذي بات معكراً ومقلقاً. وحين تخلو به الغرفة، يعود الى السنين التي قطع فيها طول الشام وعرضها، مع العم حاتم أبو راسين، وبدونه، فيما اليهود يتقاطرون من أصقاع شتى، مصدّقين الكذبة الكبيرة.

ضحى الجمعة التي قاده فيها رضوان وآخرون الى زمارين، قال وهم ينأون عن حيفا:

- كأنهم يسابقون الزمن!

قال رضوان:

- كانت المسألة صغيرة في البداية. خلّ والدي يحكي لك، حتى إذا اهتز العرش في استنبول، كثر المهاجرون. وبعد الحرب، وبعد ما قاله بلفور، بعدما غطّانا الانكليز بعباءتهم، صاروا يسابقون الزمن، كما قلت.

قال هولو كأنما يصل حديث البارحة في بيت رضوان، وأبوه صامت؟

- قبل أن نقول الانكليز وبلفور والصهيونية واليهود، خلّنا نحكي على بعضنا.

ربما كان أيسر عليه أن يصدق، قبل سنتين أو ثلاثاً، لو أن رضوان أو سواه، قد تعلل بسذاجة من طرف، ودهاء من طرف، وهو يحدثه عن الانكليز الذين جمعوا ملك الشام الأول، بعد مئات السنين، مع قائد صهيوني كبير أو أكبر، مرة في الغويرة، ومرة في الكارلتون، قريباً أو بعيداً من بيت الست لميعة والمستر بيجيت، في لندن. أما الآن، فهولو شكاك. حتى شقيقه لاينجو من شكوكه، وهو يخاطب رضوان أو سواه، كما يخاطب نفسه، بعد أن خلت به الغرفة، وزمارين لاتفارقه:

- كيف يقبل ملك أو سلطان، في مكة أو في الشام أو في آخر بلاد العرب أن تكون فلسطين ملجأ لليهود من مشارق الأرض ومغاربها، ثم يتشاطر ويشترط السيادة العربية؟ من هنا يؤيد هجرة اليهود، ومن هنا يتحزر على المبالغة فيها من هنا يؤيد التعاون مع الصهيونية، ومن هنا يتحفظ على تأسيس دولة لها؟ والله لم يقصّر، لا اليهود، ولا الانكليز، حين رفضوا أن تكون فلسطين تحت عرش من يلعب هكذا.

وفي مساء آخر بات هولو أقدر على أن يقول :

ـ اليهودي الذي عاش في هذه الارض، أباً عن جد، مثله مثلنا . أما الغريب الذي يترك أرضه ، مرة من روسيا ، ومرة من بولونيا ، ومرة من بلاد الواق الواق ، فلا أرض له عندنا ، لا إذا باع ولا إذا اشترى ، لا بالصهيونية ولا بالانكليزي ولا بمن يمكر منا أو يضحكون عليه ، في الشام بيننا يهود يعيشون مثلنا ، هنا في حيفا ، أما هجرة ومستعمرات ودولة تمط فلسطين من الحجاز الى الشام ومن النيل الى الفرات ، فلا والله . ما صحّت لهم ولا لغيرهم . مابقي إلا أن يأخذوا الحرزة، وينكشوا لي القبور، ويقولوا هذه زمارين ثانية وعدنا ربنا بها.

وعلى الرغم من استحسان رضوان لما قال، وضحك الآخرين مما خصّ به الحرزة ، فقد عدّ هولو نفسه ، منذ ذلك المساء ، ولوقت طويل ، المغفّل الأكبر ، ساخراً مرة ومغيظاً ، وجاداً وضاحكاً منذ أن عرف أن صاحب الغرفة؛ نسيب الضلّة، لوّاط ، وقد كان ذلك صبيحة الجمعة الأولى التي لم يخرج فيها مع أصدقائه الجدد ، خارج حيفا .

★★★

نسيب الضلّة بنفسه هو من أعلن متباهياً . صبيحة الجمعة فقط كان ينادي هولو ، يدعوه الى أن يشاركه القهوة ، وينصحه أن يتعود عليها ، مادام الأمر لن يكلف إلا ركوة وحفنة من البنّ ، ولم يتخلف هولو عن قهوة جاره الخمسيني إلا حين خرج الى زمارين .

ماكانا يلتقيان في الأيام الأخرى إلا نادراً . بيد أن هولو بات يميل إلى هذا الذي انفض عنه الأولاد والبنات ، وترمّل ، ولم يبق له سوى غرفة يؤجرها ، وأخرى يقيم فيها ، وجنينة يعنى بها ، والسيجارة المشتعلة دوماً ، ورائحة العرق المسائية ، وعمل مالا بد أن يؤديه كل نهار ، بأجر أو من غير أجر ، لايكاد يزور أحداً ، ولا أحد يزوره .

كان نسيب يمتع هولو بما يسوق مرة بعد مرة من ماضيه ، يغضي لبذاءاته أحياناً ، ويستزيده دوماً ، ولعله هو الذي اغراه هذه المرة ، وقد ذكر اليهود والانكليز والأتراك.

قال نسيب :

ـ يوم أعلن الأتراك عن عشرين ألف جنيهاً ، مكافأة لمن يقبض لهم على الجاسوس الانكليزي قلت : فرصتك يا نسيب . ولكن أين يدور نسيب خلف الجاسوس ؟ غيري سبقني ، وزعلت ، حتى سألنا الضابط والجاسوس يرجف ، قل يشخّ تحته ، من يلوط به أمامنا ؟ أعوذ بالله . ماهذا ؟ المكافأة عشرة جنيهات من جيب الضابط . من عشرين

ألف الى عشرة؟ مليح يانسيب . أفضل من الجيب الفارغة ، ولكن إذا تكلّم الجاسوس وأنا أركبه ، تموت العشرة عليّ ياسيدي ؟ سألت الضابط ، فقال: تموت، قلت: لا. جرب غيري، وكنا نضحك والجاسوس يبكي ، ماقدر واحد منهم ، ما انتصب لهم عود . قال الضابط: العشرة لاتموت ، بيني وبينك يا هولو : خفت وأنا أسمع ، قلت لهم : عرّوه ، ولما لمعت طيزه مددت يدي الى عودي ، ابن الحرام بدأ يتحرك، قلت له : لاتخجلني ، وعشرة جنيهات تنفعني وتنفعك . تركب فيها يهودية محترمة في نابلس ، فصار مثل قضيب الحديد الأحمر . رفع رأسي ونكس رأس الجاسوس والانكليز إلى أبد الآبدين .

قال هولو :

ـ وما تكلم الجاسوس؟

ـ أنا أعرف ؟ أنا عملت ما عليّ ، وابن الحرام كان يتلوى تحتي مثل المرحومة . تعرف من كان ، بعدما راح الاتراك عرفت لك انه كان لورانس نفسه ، لورانس الذي يقولون إنه بيده عمل للشام العرش والملك ، معقول يا هولو؟

قبل ذلك الضحى لم يأبه هولو لأصابع يسرى نسيب الضلّة المقطوعة جميعاً ما عدا الوسطى . ولا ريب أنه قد حزن حين حدثه نسيب عن قنبلة أو رصاص وأصابع تتقطع ، ثم نسي ذلك أو ألفه . أما بعد ماساقه نسيب عن لورانس ، فقد تهيأ لهولو أن جاره إنّما يستخدم تلك الوسطى المنتصبة دوماً فيما قد يكون عجز عنه ، مع امرأة أو مع رجل ، وقد راق ذلك لرضوان عرفة ، وهو يقهقه ويحذر هولو من جاره ، ولم تلبث سيرة وسطى نسيب الضلّة أن شاعت في المحطة.

مساء تلك الجمعة أوى هولو مبكراً، اغتسل وتمدد يفكر في رسالة عبد الودود التي طال انتظاره لها ، وعتب على بديع ، فيما صوت نسيب الضلّة أخذ يعلو :

حنّ الغريب على حالي — وانت ما حنّيت
لو كنت تعلم بحالي — يا ولد جنّيت
يابنت قولي لأمك — تحبسك بالدار
يللي كويتي قلوب — عاشقين بالنار
الخصر من رقته — مايحمل الزنار
والوجه دورة قمر — والعنق من بللور

مع صوت نسيب تسلل صوت أنثوي رقيق ، مالبث أن تابع وحده :

حبيبي عاشق وأبوه عاشق وأخوه عاشق

صاح نسيب :

ـ وجاره عاشق.

ضحكت المرأة وهي تغني :

راحوا يجيبوا الطبيب لاقوا الطبيب عاشق
دس المفاصل قال لي يـــا ولـد مـــالك
مجـــروح جـرح الهـــوى اللي جارحك عاشق

ثم اختفت الأصوات ، فضحك هولو ، وحاول أن يقلد ماسمع ، فأضحكه فشله ، وعجل بنومه ، وهو يعد نفسه بالصبيحة القادمة الأحلى ، بيد أن لقاء نسيب جاء أبكر ، ففي المساء التالي نادى هولو من الجنينة :

ـ تعشيت؟

حمد هولو الله وذكر المطعم والأصحاب . سأل نسيب :

ـ نمت ؟

نفى هولو ضاحكاً ، فصاح نسيب غاضباً :

ـ قل تفضل ، قهوه لا تشرب ، طيب شاي ؟

ـ والعرق؟

سأل هولو وهو يفتح الباب ، فقال نسيب ؟

ـ العرق له رجاله . أمس شربت عن سنة. ما قلت لي : من كان عندك يانسيب؟ ماسمعت أي صوت غريب عليك ؟

قال هولو معاتباً :

ـ سمعت ، قلت جارك يا هولو حظي بصبي .

ـ ما عدت تميز صوت الصبي من صوت البنت؟ معك حق ، أول ماترملت ضيعت مثلك ، أنت بعيد عن زوجتك . دبّر حالك يا مسكين . العمر يطير ، ولا تغترّ بشبابك .

ـ إذا احتجت عليك أنت التدبير. أنت أبوها وأمها .

ـ لا أبوها ولا خرا . يمكن من سنة ما نامت في سريري قحبة . أنا يا هولو ، إذا مانامت

الواحدة عندي من غياب الشمس حتى طلوعها ، لايروق لي ، الواحد منكم يغزّ غزّة والسلام ، لا يا ابني .

ـ المهم ركبتها من خلف أم من قدام ؟

ـ آه . . تقصد حكاية الجاسوس ؟ تكون صدقت يا هولو ؟

ـ كنت تمزح إذن ؟

حيّره حديث نسيب هذه المرة ، فقد أكد له أنه كان جاداً ، ولكنه كان واحداً من بين كثيرين لاطوا بالجاسوس ، ثم أكد له أن الأمر كله مهزلة ، على الرغم من أن لورانس يستحق أن يفعل به ماهو أكثر من اللواط . أما ما لاهزل فيه فهو ما فعل بالجاسوسة اليهودية التي قبض الأتراك عليها قبل لورانس . قال نسيب :

ـ هذه ركبتها من خلف ومن قدام . نعم . ماقمت عنها حتى رميتها كالخرقة . آخ يا هولو ، ماذقت عمري مثل طعمها ، مرة ثانية يا سارة ، وبسّ ، بعدها أموت .

تساءل هولو :

ـ من تكون سارة أيضاً ؟

قهقه نسيب :

ـ اليهودية الجاسوسة قلت لك ، من يصدق انها كانت عشيقة لورانس نفسه ؟ هكذا سمعت لك بعد الحرب ، هذا لعب جواسيس ، لعب كبير يا هولو، ما أدراني به وما أدراك ؟

قطب هولو يستذكر خائفاً ، وهو يهمس :

ـ سمعت عنها شيئاً بعد ؟

أسرع نسيب :

ـ القحبة انتحرت في الناصرة حتى لاتكشف سرها .

ـ الحمد لله .

تنهد هولو مطمئناً ، فقهقه نسيب :

ـ على ماذا ؟

وأردف يتحسر ويتلمظ :

ـ واحدة بسّ منهن يا هولو ما وصلت إليها . تمنيت على الله أن يضعها في دربي وأنا عسكري ، تمنيت بعد الحرب ، وبعدما بدأت أضعف ، ولكن يا حسرة! ما سمعت بالخاتون يا هولو ؟ قالوا لي : هذه سبقت لورانس الى بلادنا ، ونجحت فيها عجز عنه :

قال هولو مستخفا :

ـ جاسوسة أيضاً يا نسيب؟ وما المعجزة التي قدرت عليها؟

قال نسيب باهتمام :

ـ كل شيء تتعجب منه ، أم تستكثره علي؟ وأنا كنت أظن أنك أفهم من غيرك؟ الشباب جاهل دائماً ، أنت ابن الشام ، والانكليز فشلوا في الشام أم نجحوا؟ العرش الذي صنعوه طار أم ما طار؟ أين حطّ بعدما طار؟ الخاتون نجحت في بغداد ، ولورانس ، طزّ ، ماطلع بيده شيء في الشام سمعت لك أنهم ينادونها هناك : أم المؤمنين ، أعوذ بالله ، لاخبر يفوتني من أخبارها، وما رأيك الآن لو ربك استجاب لي ووقعت في يدي ، حتى لو شاخت كما يقولون؟ أرميها كالخرقة أم أتفرج عليها ، وأشكرها وأشكر قومها على عروشهم؟ ماذا يريد نسيب الضلّة اكثر من أن يركب هؤلاء الذين يلعبون بنا؟ ما الفرق عندي بين رجل منهم أو امرأة؟ خذ مني هذه الوصية : لاتعف عن أحد منهم . إذا أنعم الله عليك بفرصة ، فلا تعفّ ، إذا ما قاتلناهم وما قدرنا عليهم ، على الأقل نركبهم .

ونهض يعيّر هولو بالبخل ، فقد ألهى ضيفه عن الشاي ، وهولو يعتذر ويضحك ، ويعجل بنومه ، واعداً بأماسي أحلى مع هذا الجار .

★★★

وصلت قصاصة من بديع الطارة ، يتأسف فيها لهولو ، إذ لم يستطع أن ينتظر عبد الودود ، ولا خبر إذن بعد أسابيع يبرد الشوق المكتوم .

بعيد ذلك هرع هولو الى الحرزة ، عابراً بالشام كالغريب ، وقضى يومين نهب دمعة لاتنسكب على العجوز ، وحضور طاغ للحاج المرحوم ، وللحاج الصغير ، وخوف من لقاء عمر ، وأسى على حُسْن التي حلت الآن محل العجوز ، وإنْ كانت تهون عليه .

لم توارب هذه المرة حين سألها عما إذا كان عمر يضايقها ، إلا أنها أردفت مكابرة :

ـ لاتحمل همي اليوم. حُسْن تعرف كيف تغزل أمورها مع الكل .

بيد أن القبور زادت ، والصغار ـ فطن هولو فجأة ـ لايريدون أن يكبروا ، حتى ابنه كان يكبر في الشام أسرع منه هنا ، وبدا له بيت التكلي في خطر آتٍ ، عليه وحده أن يتحمله ، مهما تردد عمر على أخوته ، وملأ العنبر ، وضاعف من هيبة اليتامى في الحرزة ، ولعل ذلك ماجعله اثر عودته الى حيفا ، يلجأ من المحطة حتى ينتصف الليل الى

الأصدقاء الذين كانوا مشغولين ـ مثل الصحف التي صارت تدخل غرفته ـ بما يشاع عن إعداد الانكليز لعرش جديد في الشام ، بعد أن أخفق الفرنسيون فيها .

كانت أصداء الثورات التي اندلعت قبل أن يأتي الى حيفا ، تتردد هنا أعلى منها في الشام ، وعلى الرغم من أن هزائم الثورات ، قد تواترت ، إلا أن حيفا لا تتحدث إلا عن إخفاق الفرنسيين ، وهذا ما يجعل الانكليز يعاودون اللعب ، كما يقول رضوان عرفه ، فيثور الآخرون ، منكرين أن يكون الانكليز قد توقفوا عن اللعب بالشام يوماً ، وما يقولونه اليوم لواحد أو اثنين أو ثلاثة قالوه من قبل : أنت صاحب التاج ، ضع يدك في يدنا فيأتيك التاج على طبق من ذهب .

كان ذلك يزيد في همّ هولو ، خاصة أن أحداً لايرشح للشام إلا ملكاً غريباً عنها ، والفرنسيون أنفسهم الذين يريدون أن يأتوا برئيس ، كما يبدو ، وليس بملك ، ما اختاروا إلا واحداً يتعتع بالعربية ، لكأن الرئيس ينبغي أيضاً أن يكون كالملك : غريباً ، وفي هذه الآونة أعانه رضوان عرفه على أن يفاصل بين العرش والرئاسة ، ولكنه ظل يعجز عن المقارنة المضحكة التي يركبها رضوان بين العرش الانكليزي والرئاسة الفرنسية ، كما بات يفكر فيما بين القيصر ولينين ، دون أن يجرؤ على الجهر ، خوفاً من لسان رضوان ، ولم يكد يتخفف مما به ، يتصالح معه ، حتى ظهر بديع الطارة في المحطة ، ليغيب يوماً في القدس ، ثم يعود فيقيم مع هولو أياماً ، ويخلف له المفردة الثانية التي ستلازمه ولو الى حين : الشيوعية .

ماعاد سراً على هولو أن بديع يروح ويجيء من أجل الشيوعية التي ينبغي ، كما يقول، أن تقوم في بيروت ، بل في زحلة ، كما هي في حيفا . وما عادت المفردة لهولو ، كسواها، مما يتلفظ به هو أو سواه ، فينجذب أو يستثار أو ينفر أو لايسمع . ما عادت تعني له فقط تلك الثورة التي قوضت عرشاً في روسيا ، بل صارت علامة لما انقضى من عمره الشقي ، وما سوف يأتي من زمن له ، وللحاج حاتم ، وللبشر كلهم ، لاشفاء فيه ، كانت أمداء العلامة تكبر ، بين يدي بديع ، وفي صخب الأصدقاء ، بين جدران الغرفة ، وعلى الشاطىء ، في الوجوه التي يرى فيها شقاءه، والوجوه التي يهم أن ينادي من أجلها نسيب الضلّة ، مادامت لانكليز ويهود طارئين . إنها علامة دقيقة جداً ، وبلا حدود في آن . مبهمة جداً ، وبالغة الوضوح ، تخصه عندما كان يعزّل مجرى الساقية وهو طفل ، كما تخصّ شغله في المحطة ، تتخلق معها صلته بالناس ، تضيء ماعتم عليه ، فيعرف من بعد من يكون العم حاتم أبو راسين أو عمر التكلي . من تكون حُسْن ومن

يكون الباشا شكيم ، ومن يكون إمام جامع الحرزة الذي لايموت ، أو من سيكون حاتم بن هولو التكلي .

على أنه ظل يحضن تلك العلامة من بعيد ، دون أن يمد يده إليها ، كما أخذ رضوان عرفة يردد مؤخراً . لقد جعلته اليقظ الأكبر ، بعد أن كان المغفل الأكبر ، فلا تفوته في المحطة صغيرة ولا كبيرة ، ولذا يداور الإدارة كما يتصدى لها ، أبرع وأشجع من سواه ، لكأنما قضى في النقابة سنيناً، ويحرم نفسه وحُسْن ، ويتبرع لما يحاول بديع ورضوان وسواهما .

هو عاشق وحسب ، هكذا قال رضوان ، فتمنى . ولكن رضوان أردف ممازحاً :

ـ استحلفك بأعز مالديك ،هل نمت مع امرأة غير زوجتك ؟

وفي مرة أخرى أردف رضوان مناكداً :

ـ قم ياعيني ، حرام عليك ، يوم القيامة يشكوك هذا . .

وأشار الى عضوه ، فنفر هولو ، ولم يأبه رضوان ، لأن عاشقاً مثل هولو التكلي ، يحلم ويحلم ، أحق بأن يكون مخصياً ، لانفع كبيراً له ، قال رضوان :

ـ العشق الذي لايتقدم فيه العاشقان ما هو غير خصاء .

وربما كان هولو يؤمّن في سره على ذلك ، إلا أن ما يعشق اليوم . هو مايجعله يبدو لرضوان أو سواه ولهاً مخصياً . وقد تردد طويلاً قبل أن يجهر :

ـ كان عليك أن تفهم من الإشارة، وأنا أشرت إليك والى غيرك كثيراً . نسيت أيامنا الأولى في المحطة ؟ وبعدها في بيوتنا كلنا ، وفي حيفا كلها ؟ نسيت يوم رحنا الى زمارين؟ أنت وغيرك عشقكم فيه وما فيه ، وليس أنا . ولا أعني رذالتك : فحولة وخصاء . أول مرة فتحتم عيني على الصهيونية ، بعدها على الشيوعية ، وما أحد منكم كلف خاطره وقال لي : ماذا يفعل اليهود بينكم ؟ من كلامك لكلام بديع لغيره ، رأسكم الأول والثاني ، ويجوز العاشر : يهودي. هولو التكلي شكاك . لا أنت تشنع عليه ، هو يشنع على نفسه . وقلبي عليكم وعلى حالي . الطبخة التي ينفخ في نارها اليهود هذه الايام ، لاتمر عندي بسلام . أخاف أن يكون فيها كيت وكيت. حضرتك حكيت لي على ملكنا ووايزمان ، وقبله روتشيلد وعرابي في مصر ، وبعد هذا وذاك على السمسار البيروتي الذي ركب اليهود عليه مثل الحمار ، وخلوه يطلب من الآستانة الامتياز بآلاف الدونمات في الغور ، وأخيراً أمير الوادي المسكين هو الآخر ، احتال عليه اليهود . . وبعد ؟ بعد سنة أو عشرين يأتي رضوان عرفه أو بديع الطارة ويقول : لعب اليهود علينا-يا هولو ، فصار

ما صار . فكروا من اليوم يا رضوان : حزبكم هذا خوفي من أن يكون ملغوماً . هو ر
أم لليهود ؟

قال رضوان وهو يسعى ليتخلص من وطأة ما باغته به هولو :

ـ حقك فيما تقول ليس على اليهود ، صهاينة كانوا أم لا . حقك على أولاد بلدك ، سمسار بيروت مستعد أن يسمسر على أمه ، لا على أرض الغور . وغيره مستعد أن يرهن الشام كلها للشركة الفرنسية اليهودية ، وليس فقط هذا الوادي أو ذاك ، الحق يكون على من إذن ؟ على الشركة أم على الأمير ؟ على الفلاحين في المرج أم على ابن الزانية الذي باع مرجهم لليهود؟ على اليهود أم على الأيادي التي يجب أن نقطعها من بيننا؟

ولعله كان قد هدأ قليلا ، إذ أردف:

ـ أما الحزب ، فلا تخف عليه . نسيت أنت ما قلت عن اليهود الطارئين ، وعن اليهود الذين عاشوا وعاش آباؤهم وأجدادهم قبلهم ، بيننا ، مثلنا مثلهم ؟ الحزب لنا ولليهود الذين هم مثلنا ونحن مثلهم . لالليهود الذين يتركون بلادهم وتقوم لهم زمارين هنا وزمارين هناك. قبل تشريفك كانت الأمور أسوأ .

ربما خففت كلمات رضوان الأخيرة على هولو ، خاصة أنه أضاف في أوقات أخرى أن الكثيرين، من بيروت الى حيفا ، يفكرون في هذا الذي يشغل هولو، وحاول أن يهون من الأمر ، فقال :

ـ مازلنا في أول درجة من السلم، كل عقدة ولها حلاّل .

كما خفف على هولو ، أو شغله قليلاً عن ذلك ، أن سعيه كي يعود الى القطار ، ولا يظل في المحطة ، باء بالفشل ، فعلى الرغم من أنه انتزع منذ أسابيعه الأولى ثناء زملائه ورؤسائه ، إلا أنه سرعان ما عُدّ واحداً من النقابيين المشاكسين ، ثم صار يُعدّ واحداً من الشيوعيين أو من أصابعهم الخفية الخبيثة . ولا أحد يدري ، لا رضوان ولا هو ولا سواهما ، كيف بات معروفاً أن هولو التكلي عربي متعصب ، لايرضى باليهود الشيوعيين ، أولا يرضى على الأقل أن يكون منهم من يقود. ولئن نفعه ذلك، إذ جعل بعض رؤسائه من العرب ، يتغاضون عما يرون من تجاوزاته ، فقد ضره أيضاً ، إذ جعله خصماً ليهود كثيرين ، وربما خصماً سهلاً ، كما أن العيون الانكليزية باتت تنشغل به ، داخل المحطة ، وخارجها .

كانت شهور عدة قد مضت ، دون أن يظهر بديع الطارة ، كما بات انقطاع هولو الطويل عن ذويه ينغص عليه ، فحزم أمره، على الرغم من معارضة رضوان ، إذْ أنّ

العيون الانكليزية تشتبه هذه الأيام ، بمن ينتقل بين فلسطين والشام ، وترصده ، ولكن هولو لم يأبه ، أو أن شوقه وقلقه كانا أكبر .

★★★

للمرة الأولى عرج على بيت عبد الودود الذي كان غائباً كالعادة . وقد تأخر حتى انتصف الليل ، وهولو ينتظر صامتاً ، عاجزاً عن أن يصل حديثاً مع خديجة، بعد انصراف سليم أفندي ، كان قد فرغ لتوه من العشاء السخي الذي قدمته ، متباهية بلباسها الجديد وحملها أخيراً ، مرخية شعرها بلا غطاء ، حين دخل سليم أفندي ، فشحب لونها ، وأسرعت الى منديلها . ولم يخف على هولو ارتباك سليم أفندي ، على الرغم من اللهفة التي لاقاه بها ، وسؤاله الأبوي لخديجة عن صحتها . وعن عبد الودود :

ـ كل يوم يعود مخموراً ، نصف الليل ، بعده . . كل يوم !

احتار هولو فيها إذا كانت تشكو إليه أم الى سليم أفندي. كما احتار فيما إذا كان سليم أفندي يخاطبه أم يخاطب خديجة ، إذ كانت عيناه لاتكادان تغادرانها وهو يقول :

ـ يا عبد الودود ، يا ابن السعد ، اترك عمر ، كأني أحكي مع الخشب . كم مرة قلت له ؟ ! هولو ليس مثل عمر . عمر لايرضي أحداً اليوم ، المال ليس كل شيء، عبد الودود نفسه يوافقني على هذا ، أما خديجة فلا تملّ من الدفاع . أخوها على كل حال ، ولكن طريقه نهايتها كما نرى : عبد الودود يرجع مخموراً كل يوم بعد نصف الليل . ومازلنا في اهيَنْ .

سرعان ما غاضت فرحة هولو بحمل شقيقته إذ فكر وهو ينتظر عودة صهره في أن خديجة ليست من الحرزة ، ولا من حارة الشيخ حسن . رنة صوتها تبدلت عليه ، وقد تعوذ من الشيطان، وهو يرى فيها شبهاً من أي من اليهوديات الجميلات الغنجات القويات اللواتي يزاحمنه في شوارع حيفا الضيقة،ويتقافزن بين الأجناب الترابية والأجناب المرصوفة ، لقد قبلته حين دخل ، فأدهشه أنها معطرة . وما فتئت تدافع عن عمر ، بيد أنها كانت تقابله أو تقابل عبد الودود إذ يفعلان، بغير ما قابلت به سليم أفندي ، وسليم أفندي بدا كأنما تعود على ذلك ، كما أن أياً منهما ، هو أو هي ، لم يذكر لعبد الودود مرور سليم أفندي به . فهل شغلها كما شغله سكر السكران وصخبه للقاء هولو؟

انضافت خديجة إلى همومه القديمة والجديدة ، وبات يفكر في أن يوفر ما يستطيع أن يعود به الى الشام ، ويقيم فيها على أية حال ، فبيت التكلي يزداد خراباً ، وهو كالهارب في حيفا .

كان البيت قد خلا من الشقيقة التي يصرّ على أنها لازالت طفلة على الرغم من أن حُسْن تؤكد أنها قد بلغت ، وعلى الرغم من أن عمر قد زوجها من ابن الإمام ، وكان الباشا قد أخذ يبيع ماله في الحرزة ، بعد ان استقل عنه عمر ، وحُسْن تتساءل عما ستفعل إذا جاء في غياب هولو من يقول لها : عزّلي من هذا البيت ، فيهون عليها هولو ، مردداً ما أكد صهره الجديد ، فالباشا سيترك بيت التكلي للأيتام الصغار ، وهولو لن يقضي في حيفا من بعد إلا ما يكفي لأن يوفر بعض الجنيهات . إلاّ أن الانكليز لم يمهلوه ، إذ داهموا غرفته فجأة وهو في المحطة، قلبوها رأساً على عقب ، وفتشوا غرفة نسيب الضلّة ، وبعد أيام قليلة جاءه من يقول له : اخرج من فلسطين كلها . وكان رضوان عرفة قد دخل السجن بالأمس .

على عجل باع أشياءه ، وخبأ ثمنها فوق اليسير الذي كان يدفىء جيبه ، مؤملاً أن لديه ما يكفيه ، مادامت حُسْن في الحرزة ، ريثما يتدبر أمره . وسرعان ما كانت حيفا وفلسطين وشطر آخر من العمر ، كل ذلك يغدو على وقع القطار حلماً ، لم يفق منه إلا على أبواب الشام ، فنهض يتمطى ويتمشى في العربة ، سعيداً على أية حال .

قبل أن يغادر المحطة امتدت أصابعه تتلمس جيبه ، كما لعلها فعلت مراراً في القطار وهو غافل ، إلاّ أن الجيب كانت خاوية هذه المرة . وهذه المرة لم يفق من الدوار لا الحلم ـ حتى الحرزة . كان عاجزاً عن أن يبكي ، قانطاً وناقماً ، يلعن نفسه ويلعن النقود ، يعدّما ضاع منه ، يتساءل عما إذا كان المرء لايستطيع أن يعيش بلا نقود ؟ يفرك إبهامه بسبابته أو سبابته بإبهامه ، وهو يعد العملات التي ملصت منها ، فقد حمل المجيدي ونصف المجيدي وربع المجيدي ، حمل البشلك والبارة والقرش ، البرغوث والمتلك ، الأميري والشوروك ، ولئن لم يحمل الوزيري ولا الذهبية ، لا الانكليزية منها ولا العثملية ولا الفرنسية ، فقد سمع بها ، وربما رآها ، ولكنه لم يضع طوال حياته قرشاً ، ولم يتحرز طوال حياته على مافي جيبه كما تحرز هذه المرة ، فإذا به يعود الى حُسْن وحاتم عاجزاً عن أن يهز يديه ، وينفض جيبه .

كان حنقه لا يبرىء أحداً، فماذا يصنع البشر بالنقود ؟ ماذا يفعل بها شقيقه ، وصهره ، وسليم أفندي البسمة ، ورؤساءه في محطة حيفا ، وأصحاب الدكاكين ،

ونسيب الضلّة ، والقحبة التي صارت تتردد عليه كل اسبوع ، وسماسرة بيروت وغير بيروت ، وروتشيلد نفسه ؟ ماذا تفعل النقود نفسها أيضاً بهؤلاء وبسواهم ؟ لماذا إذن لايقوم من يكنسها عن وجه الأرض ، ويجعل الجيوب كلها مثل بعضها ، لا واحدة عامرة وواحدة فارغة أو مسروقة ؟ ومن غير ذلك كيف يمكن للناس أن يعيشوا متساوين وأحراراً ؟ من غير ذلك ما تكون هذه الشيوعية التي زوقوها له ، حتى زوّقها لنفسه؟ ألا يكفي ابن آدم أن يعمل ويعيش ، خليّ البال ؟ ما الذي يحول بينه وبين ذلك غير النقود ؟ هو يموت من أجلها ، ولايكاد يشبع ، وغيره لايضع إبرة في الخيط ، ولكن النقود تتكاثر عليه ، كأنها من نبع لايزيده الزمن الا قوة ، ولا يزيد هولو التكلي إلا قهراً وضعفاً ، يجعلان حُسْن ، وهي تفتح له الباب ، تشهق ، وتوشك أن تولول ، لولا أنّ أصابعه أطبقت على فمها ، فصارت عيناها هما اللتان تولولان ، وربما كان كفّاها يفعلان أيضاً على كتفيه .

★★★

أفاق الحاج حاتم على الآهة المبتورة لأمه ، والآهة المكتومة لأبيه . وقف في الفراش حائراً ، قبل أن يسمع صوتاً يناديه ، وآخر يأمره بالنوم ، فعابثت يداه الهواء ، وغادر الفراش مرتمياً في الحضن اللائب المقهور ، وراح يمرغ رأسه الحليق في اللحية الشعثاء .

- أين أخوتي؟

سأل هولو جزعاً.

- ينامون في بيت صهرك من أيام . عمر أمر بهذا .

قالت حُسْن ، فيما يدا الحاج حاتم تشدان شعر هولو الكثيف الفاحم ، والأذنين الكبيرتين القاسيتين ، والوسختين. نَمَّل جلد هولو ، وسرت رجفة خفيفة ، كأنها دغدغة في أطراف القدمين ، وهو يهرب منها ، يستزيدها ، يود لو يباعد لها شفتيه ، ولكنه يعجز ، حتى يعض الحاج حاتم شحمة الأذن ضاحكاً ، وتغدو الدغدغة في باطن القدمين ، فيضحك هولو ، ثم يزمّ الشفتين الجافتين ، ويطلب من حُسْن طاسة ماء ، ويضحك ثانية ، ويرفع الحاج حاتم عالياً ، فإذا بخصوتي الطفل الذي بلا سروال، وإذا بالضحكة تعلو وتتواصل ، والحاج حاتم ينقذف عالياً ، وحُسْن تشهق ، وراحتا هولو تتلقفان الطائر المزقزق ، ثم تدوران به ، وحُسْن تدور بطاسة الماء ، والماء يندلق من

أطراف الطاسة على ثوبها وعلى البساط ، والضحكة تغرغر في صدرها ، ترخي وجنتيها ، وتنسيها ما كانت وما كان هولو لتوهما على العتبة ، فتضع الطاسة قرب الجرة ، وتهرع لتسخن الماء ، جذلى بعودة المطرود المفلس ، غير آبهة بالانكليز ولا بالنشال ، مادام هولو لن يسافر ، كما حسبت أنه يقول ، وهو يسعى حولها ، وساقا الحاج حاتم تتدليان فوق عنقه .

في ركنهما الخاوي من البيت أجلسته ، وأقبلت على دعك رأسه ولحيته بالماء والصابون ، لأول مرة . كانت تعينه من قبل على فرك ظهره ، أما الآن فإنها تغسله ، كما تغسل الحاج حاتم الذي عاد الى غفوته ، كأنها تحتّ منه ما انقضى من عمرها ، وهو يرغط قليلاً ، ثم يستسلم ، يكاد يغفو في غمرة الماء الدافىء والكفين الحانيتين ، لولا أنه سمعها تهمس :

ـ خديجة بعث لها الله بنت .

ـ بشّرك الله بالخير . أخيراً ، انفرجت عليها. الحمد لله .

قال مدارياً خدره ، وترقرق صوتها بالماء الذي سكبت فوق رأسه ، ففتح فمه ، وكاد أن يشرق ، لولا أن خيل إليه أنها قد همست بما لم يتبيّن ، أو أنها تحاول أن تكتم عنه سراً . فقال :

ـ عسى أن يكون حالها أطيب .

قالت حُسْن :

ـ عبد الودود طلقها ، طلقها وترك الشغل عند عمر .

أمسك بكفها فوق كتفه ، ضغطت أصابعه وتراخت مراراً ، وهي تحسب يسكتها أو يحثها أو يستمهلها ، وكانت تنهضه برفق :

ـ كل هذا جرى وأنا بعيد ؟

قال أسيان . فهمست :

ـ يظهر أنه بعد سفرتك بقليل ترك عمر ، وقبل أن تكمل النفاس طلق .

ـ ما رجعتْ الى الحرزة ها ؟ راحتْ لعمر ؟

ـ كيف حزرت ؟

خيل إليه أن كان قادراً على أن يحزر أيضاً الكثير ، فهكذا يستوي بيت التكلي جميعاً ، ولايظل هو أتعسهم . بل لعل المهزوم منهم الآن عمر وخديجة ، وليس هو ، كما أن كل ماجرى قد تأخر ، وما كان لعبد الودود أن يصبر حتى اليوم أو حتى شهر مضى .

كانت حُسْن قد انتهت ، وتركته يجفف جلده ويرتدي سرواله النظيف ، لايجرؤ على أن يبوح بما يهجس به ، وقد طال صمته حتى نظفت الركن ، وجاءته بالبابونج ، فسألها عن الطعام ، وأردف وهي تبحث له عما يؤكل :

ـ مارأيك بزيارة عبد الودود ؟ عليّ أن أزوره ، ويمكن أزور خديجة ، حتى لو كانت عند عمر ، على الأقل عليّ أن أعرف السبب ، ماخطر لك شيء ياحُسن ؟

إلا أن حُسْن اكتفت بالقول : وهي تعود برغيف ناقص وصحن كبير من اللبن :

ـ هذا هو المقدّر . افعل ما تريد .

ـ هكذا ؟ زادك الله ، على ماذا أقدر حتى أفعل ؟ بقي لي ما أريد حتى أفعله ؟

قال عاتباً ، وقد خيبه أنها لم تحضه ، ولم تعترض ، وكانت فرحته القصيرة تنسلّ منه ، ويده تقصر عن صحن اللبن ، ومضغة الخبز تجف في فمه ، أما حُسْن فقد راحت تهيء له وطا مطرحاً للنوم ، متلصصةً على الحاج حاتم ، نادمة على أنها لم تغتسل هي أيضاً .

★★★

كعهده بها ، كانت الحارة هاجعة ، وربما لم يكن ابن الشيخ نظام قد أذن العشاء . عبر بما كان بيته وحُسْن ، لايقوى على أن يتابع الضوء الخافت المتسلل من شقوق الباب ، وتابع الى بيت عبد الودود ، باغته العتم والسكون الرذاذ الذي شرع الهواء يحمله ، فاحتمى في شرفة البيت ، ولبث ينتظر يستطلع الجامع والدرب كل حين ، والرذاذ يقوى ، ويده تحجم عن أن تطرق باباً ، وغيظه يكبر من اختفاء الناس خلف الأبواب ، وتأخر عبد الودود .

كان الهواء قد سكن ، إلا أن الرذاذ غدا ماطراً ، حين لاح له أخيراً شبح يجري نحوه ، فلاقاه ، وتعانقا مثلما فعلا في أمس قريب أو بعيد ، حين عاد من رياق أو من حيفا ، لكأن عبد الودود لم يطلق خديجة .

رائحة العرق كانت تفوح من عبد الودود ، دون أن يلمح منه ما يشي بالسكر . وقد عجل بكأسين ، ومن رفّ الكتب الغافية أتى بزجاجة ، ولكن هولو ما كان قادراً على أن يصبر أو يشرب ، قبل أن يسأل عن الطلاق .

قال عبد الودود وهو يسكب الماء فوق العرق ، ويتأمل المزيج الحليبي :

ـ عدني ألا تسخر ، ولا تغضب لو حكيت لك .

ـ وعدتك .

ـ نشرب كأسك أولاً .

جاراه هولو مرغماً ، إذ لم يكد أن يبلّ شفتيه ، فاحتج عبد الودود ، ثم قال وهو يزيد الماء في كأسه :

ـ قبل سفرك الى حيفا ، عرفت مثلي ومثل غيري بما بين عمر وتلك اليهودية ؟

ـ سارة ؟

قال هولو متعجلاً ، تبسم عبد الودود وسأل غامزاً :

ـ ما نسيتها هاه ؟ طلعت لك سارة مثلها في حيفا ؟

ـ ولا مثل غيرها ، أنت تعرف أني لا أركض خلف النساء .

قال هولو متبرماً .

ـ وأنت لا تعرف أني أركض بين وقت ووقت .

قال عبد الودود متخابثاً ، وأردف دون أن يفسح لدهشة هولو :

ـ تلك المرأة السوداء ، أم نور الدين ، تذكرها ؟

ـ أذكرها ، وأذكر أنك كنت والخبيث طه تتهامسان حولها ، كنت تذكرها بلهجة ثانية .

ـ وما زلت ، أنا سبقت عمر إليها بسنين . أنا أحكي لك حتى لايسبقوني ، ولما رأيتها عند عمر تجدد ما كان بيننا .

ـ وضبطك عمر ، فطردك .

ـ هذا قوله هو ، سبقوني وحكوا لك ؟ لاتصدق . أنا ماعندي اليوم ، وماكان عندي ، ماأخفيه عنك ، هذا هو الظاهر ياهولو ، والمخفي أعظم .

ـ أجرنا يا رب ، اطمئن . ما دخلت غير هذا البيت في الشام .

ـ وعدتني أنك لاتسخر ولا تغضب ، أم نور الدين لاتهم عمر ببصلة ، والرجل غضب منها ومني ، أكيد ، صحيح أنها كانت تركض خلفه مثل الكلبة الكلبانة ، وعلى ذمة طه أنه طردها وهددها عشرين مرة ، يمكن أنت نفسك سمعت . المهم ، طلع أخوك عبد الودود بالطريق . فكرت أني أقدم له معروفاً ، وخففت عليه حملها ، لكن الأساس ما هو عند أم نور الدين . الأساس عند سارة ، عند القردة وسرها الكبير يا هولو ، على ذمة طه

أنها كانت تستحق الصدقة يوم عرفها هو وعمر . يمكن أنت نفسك سمعت ، المهم ، عبد الودود إذا خدم يخدم من قلبه . هذا الباشا شكيم ، هذا سليم أفندي ، وعمر نفسه كيف ينكر ؟ طه اليتيم كان ينصحني بالسكوت . وواجبي يا هولو ؟ كان واجبي أن أبعد سارة عن عمر ، طه يحلف أنه جرب قبلي حتى يئس . ويوم تركها عمر ما صدق ، ويوم رجع لها ، لاطه صدق ، ولا أنا ، صارت المعركة بيني وبينها على المكشوف ، وأنا أقول بلا خجل : كانت أدهى مني وأقوى . بالمختصر : هزمتني . وعمر كان يلوب على حجة من تحت الأرض ، بعدما ضبطني وأم نور الدين في بيته ، فقد صوابه ، ونصر سارة عليّ . نفذلها ما تريد ، ودائماً ينفذلها ما تريد . واليوم طردني وكان ماكان ، لكني خائف عليه . رغم نذالته ، ورغم قوته ، خائف عليه ، لا أستطيع أن تراها تلعب به ، وعلى ذمة طه ، بعشرين غيره ، وفيهم من هو أكبر منه . لو ساعدني طه يجوز كنا انتصرنا عليها . هو اليوم شامت بي ، ولكن يوم شماتتي به قريب ، وأنت شاهد يا هولو .

كان يتكلم ويشرب ، يطير من كلمة الى أخرى حيناً ، يتمطق حيناً ، يقرع كأسه بكأس هولو ، يشي صوته بالحقد تارة . بالحزن تارة ، وتارة باللامبالاة ، ولئن ألهى هولو عن الطلاق بعمر وسارة ، ثم بانشغاله في صحن الزيتون وقطعتي المكدوس ، فقد عاد هولو يسأل ؛

- وخديجة يا عبد الودود ؟

تسمّر الكأس على شفتي عبد الودود هنيهة ، ثم أبعده قائلاً :

- مثل كل الناس تزوجنا على سنة الله ورسوله ، وطلقنا على سنة الله ورسوله .

تابعت عينا هولو السؤال ، وعبد الودود يقرب الكأس من شفتيه ثم يبعده قبل أن يتلعثم :

- تدور حول السبب اسألها هي .

- أسألك أنت ، خديجة أختي ، وأنت كنت ، ويمكن تبقى أقرب إليّ من عمر .

والله لا أعرف ، صدقني ما عندي ما أقوله ، نحن أخوة ، ولو باعدنا الشغل عند عمر مدة . الشيطان دائماً له ساعة . لعنة الله على الشيطان وساعته . أنت نجوت برأسك وتركتني أغوص ، كل القصة أننا ما عدنا نطيق بعضنا ، لانقدر أن نعيش سوية .

- والبنت يا عبد الودود ؟ كيف نسيت أنك أب وكيف نسيت هي أنها أم ؟

- كيف نسيت هي ؟ اسألها . أما كيف نسيت أنا ، فلا أعرف ، عمر يحاول أن يرجع البنت ، وأظن خديجة راضية ، أنا لا أريدها .

ـ تضحك علي يا عبد الودود؟ هذا الكلام يكفيني؟ ظنك أني أفهمه؟
ـ إذا كنا أخوة كما تقول وأقول ، فهو يكفيك ، ولو فهمته على مهل . كل عمره صاحبك ودود مقطوع من شجرة ، قلنا طلع لنا أصل وفصل في عين فيت ، طلع لنا قريب ، نسيت يا أخي ؟ بيت السعد طاروا من عين فيت يوم قصدتها ، صاحبك ودود يروح الى البحر ، ينشف لك إياه ، حتى راغب الناصح اختفى ، وقاسم السعد اختفى ، وأبوه مات ، وخديجة وبنتها بحفظ الله ، هذا نصيبي . أقسم لك بالله أني راضٍ . رجعت كما كنت عند الباشا شكيم . يوم تقربت من بيت التكلي وتزوجت خديجة طار صوابي ، ما صدقت أن الله رزقني بأهل ، بيت التكلي ماكانوا أهل زوجتي ، كانوا أهلي ، بيتك كان بيتي ، وبيتي كان بيتك ، أصدقاؤك كانوا أصدقائي ، نسيت؟ عزيز اللباد ، وفياض العقدة ، ومن أيضاً؟ كانوا يخصّوني كما يخصّونك ، رجعت أبشع من يومي عند الباشا شكيم ، ما عاد لي صاحب غير طه اليتيم ، صدقني يا هولو انك كل يوم تخطر على بالي ، ليس لأنك خال البنت ، هولو صديقي وأخي ، وطلاق خديجة لايفرق بيننا .

كانت الكأس ترتعش في يده ، وهولو يجهد كي لايسمع ، ثم يجهد كي ينطق ، وعينا عبد الودود معلقتان بشفتيه ، وشفتاه تغرقان في اللحية الفاحمة النظيفة ، ثم يعلو الكأسان سوية ، في لحظة مبهمة ، يتعانقان ويومضان في جوف الرجلين الصامتين ، وكأنهما يؤديان شعيرة عزيزة وجليلة ، أوشك النيسان أن يأتي عليها ، وكان وقع المطر على سقف البيت قد بلغ أشدّه .

★★★

لما حملت خديجة خيل لعبد الودود أن العشرة النكدة لهما قد ولّتْ . ولم تكن فرحته بذلك أقل من فرحته بالحمل ، أو من فرحته بلقاء أم نور الدين في البطيحة ، ومن بعد في بيت عمر التكلي نفسه . ولعله كان قادراً على أن يقضي مع خديجة العمر كله ، لولا أن عمر لم يكتف بطرده ، ولا بالصياح في العفيف ، بل فضحه . أمام خديجة ، واتهمه بالخيانة ، مادام يغافله ويأتي بقحبة سوداء من البطيحة الى البيت المحترم .

عادت العشرة أكبر نكداً، فهو لم يلتفت لامرأة بعد زواجه إلا هذه المرة، ولم ينتهز سفر عبد الودود أو يضرب لأم نور الدين موعداً . هي جاءت ، وهو يحمل مفتاحا لبيت عبد الودود منذ أسابيع ، مثل طه اليتيم . ولأمر نسيه ، كان تلك الظهيرة في بيت

عمر ، ربما كان ينتظر طه اليتيم بلا ميعاد ، أو يتلذذ بنعيم ذلك البيت الذي عزم على أن يكون له مثله ، خاصة أن خديجة قد حملت أخيراً ، لكن أم نور الدين جاءت ، وماكاد لسانها يصل الى بطنه حتى جاء عمر ، وما فتيء من بعد هو وخديجة يجعلانه الخائن منذ عهد الباشا شكيم ، وكانت صلته بسليم أفندي قد عادت تتوطد قبيل ذلك ، وصارا يتزاوران .

زيارات سليم أفندي كانت أطول ، وأكثر ، خاصة بعد ولادة خديجة ، وإلحاحه على عبد الودود منذ البداية ، كي يترك عمر ، تضاعف ، خاصة بعد الولادة . كما بات أقوى على عبد الودود ذلك الهاجس الذي باغته في نومه ، ورسم له أن سليم أفندي البسمة يزور بيت عبد الودود السعد أثناء غيابه .

كان الوقت فيما بين المغيب والعشاء حين استفاق الهاجس الذي ألجمته فضيحة أم نور الدين . كان يشرب الشاي في مقهى النوفرة ، عازفاً عمن تعود أن يهلّلوا له عند ظهوره ، من الصبيان والزبائن ، يتمنى أن يظهر طه اليتيم ، يفكر في أن يعرج على الحداد أو على سليم أفندي نفسه ، بعد أن ينقضي وقت العشاء ، ليسهر كيفما اتفق ، حتى تكون خديجة قد نامت ، فيوفر عليها وعليه عراكاً آخر ، قد يجعل ابن الشيخ نظام وحامدة يأتيان ، ولو انتصف الليل .

لم يكمل كأسه ، دفعه الضيق بعيداً عن المقهى ، فإذا به أمام بيت سليم أفندي ، قالت أم علاء إنه خرج بعد الأذان ، ابتعد يتساءل عن أي أذان تقصد : المغرب أم العصر ؟ وفطن أنه قد تسلل هو من بيته بعد أذان الفجر ، أسرعت قدماه نحو الحارة ، تذكر أنه صادف سليم أفندي يشرب الشاي مع خديجة ظهيرة أمس ، أو منذ أيام . رنّ صوت سليم أفندي في مسمعه :

ـ جئت أطمئن عليك ، أنا شامت بك ، اسأل خديجة : ما صدقت كلمة من كل ما يشيع عمر عنك ، ولكنك تستحق ، ما كنت تسمع نصيحتي .

صارت قدماه تعدوان ، وصدره يضيق بأنفاسه واضطرابه ، حتى أطلت المقبرة ، توقف يبحث عن بيته الضائع في العتمة ، فإذا بسليم أفندي قادم من خلف الجامع ، بل من أمامه ، بل من بيت ابن الشيخ نظام ، وعبد الودود يلطو ، حتى يبتعد هذا الذي لاريب أنه كان في حضن خديجة .

على رؤوس أصابعه اقترب من البيت ، ولما تناهى إليه بكاء البنت ، ضحك من نفسه . فعلى من يتلصص إذا كان سليم أفندي قد أمر الآن أم علاء بالعشاء ؟

لكن منديل خديجة لم يكن يغطي رأسها ، وربما بدا شعرها مفلوشاً ، أو أنها كانت تسَرحه ، وما كاد أن يتجاوز العتبة حتى سألته ، على غير عادتها منذ فضيحة أم نور الدين :

ـ كيف خطر لك ترجع ، لاسكران ، ولا العشاء أذّن ؟

فتبسم ، وحمل البنت التي مازالت تبكي ، ثم قال:

ـ اعطيها البزّ.

وناولها البنت وربما كان يضحك ، وشفتا خديجة تتقفيانه ببله ، قبل أن يسأل متشاغلاً بإبريق الشاي الساخن :

ـ كان عندك ضيوف ؟

ـ ماكان عندي حدا .

ـ والشاي ؟

ـ حضرتها لك ، اشتهتها نفسي . . حرام ؟.

كانت تجيبه بقسوة ، وتزجر البنت التي رفضت أن ترضع وتسكت ، فنهض بأناه ، يفتح الباب ، ويقول بهدوء :

ـ الحقيه ، أنا الخائن يا خائنة ؟ روحي احكي لعمر ، قولي له كان سليم أفندي البسمة عندي .

وإذْ لم تتحرك ، دفعها خارجاً ، فيما ابن الشيخ نظام يرفع الأذان ، والبنت قد سكتت ، وهو حائر بين الضحك والبكاء ، لايدري أن خديجة قد خرجت حافية .

★★★

كومضة السيف الذي كان يلاعبه في فتوّته أرجفته تلك الذكرى ، وهو غافل عن هولو الذي يبث الشكوى ، ويرشف الكأس ويكوم نوى الزيتون بعناية . كان مطرقاً ، خجلاً من الدمعتين اللتين تعلقتا بعينيه ، قبل أن يعلو صوت هولو :

ـ لاتسرح يا منحوس .

فسقطت الدمعتان في الكأس ، وتمتم :

ـ أنت وأنا طنجرة وغطاها . منحوس على منحوس ، ولا يغرّك إذا كان واحدنا اليوم نحسه أكبر من الثاني .

وجرع بقية الكأس ، فيما هولو يتساءل عما سيفعلان منذ الصباح ؟ قال عبد الودود :

ـ لاتخف ، مامعي يكفي عشرة من أمثالنا .

ـ كلمني عن الشغل ، لا عن جيبك ، وبصراحة: أنا خائف .

قال هولو مغيظاً ، فترك عبد الودود الكأس ، واصطنع الجد وهو يتبسّم :

ـ من يومين أو ثلاثة فكرت بما لايخطر لك على بال ، كنت في الغوطة ، غرب الكسوة ، لصقها تقريباً ، وتفرجت على كلكة صغيرة في بيت مثل هذا البيت ، عرق مثلث يناديك : اشرب. أصحاب البيت وضيوفهم من جماعة الشيخ الدوماني ، والشيخ بينهم ، هو يلعن وغيره يقطّر ، هو يلعن وغيره يشرب ، والزيادة للبيع ، والجماعة تعيش بأمان الله ، ما رأيك ؟ في هذا البيت الكبير عليّ وعليك ، أنت تحضر العنب ، وتبيع العرق إذا زاد ، وأنا عليّ الباقي .

ـ أخونا ابتدأ يخربط .

ـ أخوك لايخربط ولا يلعبط ، وحياة هولو ، لولا أن الآلات ملأت الشام ، وصارت تقطّر لنا هذا السم ، وما عادت تترك لجماعة الشيخ ما يسدّ الرمق ، لكانت الكلكة الآن قبالتك . وأخوك يغبّ ويلعب بالمئات ، كما كان يلعب بها أيام عمر .

ـ الفضل للآلات ولسمّها ، وأنت اليوم لاخير يرتجى منك ، قم إلى فراشك .

ـ قم أنت إذا نعست ، وخلّني أشرح لك ، اتركنا من العرق ، هذا آخر كأس ، ما سألتني كيف رحت إلى الغوطة ؟ الفضل لعمر . عبد الودود لاينكر الفضل . لولا تجارة عمر بالجلود ما داست رجلي الغوطة ولا ذلك البيت ، اشترى أخوك الجلود ، لا أعرف من أين ، هو بنفسه اشترى ، وطه اليتيم أجهل مني ، باع أخوك الجلود لدباغ ، ابن حرام ، مدبغته قريبة من بيوت جماعة الشيخ. تأخر الدباغ في التسديد . قال عمر : دونك إياه . وأنا أعرف عمر : لو رجعت خائباً لمسح بي الأرض ، رابطت في المدبغة من الضحى ، والدباغ يحوص. في المدبغة سمعت بعرق الجماعة ، أضمرت التعرف عليهم بعد ما أنتهي من الدباغ ، وهكذا كان ، وكانت الشمس غابت ، والجماعة كرام ، تمسكوا بي ، عشاء وعرق ولعنات . في حياتي ما رأيت مثل هذا الشيخ يا هولو . لا إمام الحرزة ولا الشيخ نظام نفسه رحمة الله عليه ، ليس العرق وحده ما كان يسوقني كل اسبوع أو اسبوعين إلى هناك ، الشيخ أيضاً الذي كان يخصّني بلعنة زيادة لأني أشتري وأحمل الى عمر وطه .

تململ هولو ، ثم تثاءب ، فنهض عمر يعدّ الفراش متابعاً :

ـ هذا الشيخ كان في دوما مع جماعته تحت رحمة آغا قوي ، يحسب الوالي له الحساب، كان الشيخ يحرض الناس على الأغوات وعلى أزلامهم ، الأبالسة ، كانوا يقسمون ماء تورا على هواهم ، يسلطون على الفلاحين من طاب له هواء دوما من الحجاج الجاويين ، فنسوا بلادهم ، ونزلوا عند الأغوات . الشيخ وجماعته لايخافون، طردوا الجاويينَ من دوما ، فبدأ الأغوات الحرب ، ولما عجزوا عن الشيخ ، جمعوا مضبطة ، وبصم عليها من الفلاحين من بصم ، واتهموا الشيخ بالكفر ، طلبوا نفيه ، وشهدوا ـ فوق هذا ـ أنه يعادي الحكومة . الشيخ ليس هيناً ياهولو ، يعرف الدنيا بطولها وبعرضها، وصل لفرنسا وللجزائر ، ولكن الحكومة يا أخي بعد الأغوات ، ما هدأت حتى رحل مع جماعته .

خلع هولو حذائه ، ووقف يتمطى ويتثاءب قائلاً :

ـ خلصنا منك ومن شيخك ؟ وعد لك مني أن أرافقك مرة إليه ، لالتشرب العرق مع جماعته ، ولا لتشتري ونكسب اللعن . لن أطلبُ منه غير أن يدعو الله عساه يهديك .

ـ الله يهديك أنت صبرك قلْ بعد حيفا . تعال تمدد ، من سألني عن الشغل وقال إنه خائف ؟ قلت لك اتركنا من تقطير العرق وبيعه ، إنما شربه : لا . وما سألتني كيف رحت إلى الغوطة من يومين ؟ لو سألتني عرفت فضل عمر عليّ وعليك ، كنت كلما أزور الجماعة أعرج على المدبغة . لو تعرف كيف تدفق بالمئات ياهولو ! طه اليتيم ياعزيزي غافل سيده وجاء يواسيني ، كما سألني عن الشغل ، لعنته ولعنت الشغل وقلت له : امش إلى الغوطة ، نغبّ العرق عند الجماعة ، حتى ينضح من جلودنا ، احزر ماقال :

ـ عجزت .

ـ اسخرْ كما يروق لك ، لو جربت حتى الصباح لا أظنك تحزر ، قال يا عزيزي ؛ اعمل مدبغة يا عبد الودود هناك ، ويكون العرق بجانبك ليل نهار . هو كان يسخر مثلك ، وما مشي معي ، أما أنا ، فمن ساعتها عرفت شغلي الجديد ، مدبغة عبد الودود السعد بإذن الله ، طه اليتيم له الفضل مثل عمر عليّ وعليك ، في الصباح نذهب ، وترى بنفسك الأرض ، والمدبغة ، والنهر ، وندور في الغوطة . لاتخف ، لانشرب العرق ولا نكسب لعنة ، فكر معي يا هولو ، اسند كتفك الى كتفي ولا تخف ، معي ما يكفي لمدبغة ونصف ، لثلاثة ، والتوبة على يد عمر . عبد الودود لايشتغل عند مخلوق ، أنت قلْ : نعم ، وبعدها اشخرْ حتى الضحى .

ـ كما قلت لك : نعم ، ومشينا خلف عمر؟ مرة ثانية يا ودود ؟

ـ ودود غير عمر ، وأنت لاتحتاج إلى من يبصرك ، ما ضاع لك في حيفا أو في القطار أعوّض لك إياه بشهر ، اعتمد على الله وعليّ ، وأنا مالي سند اليوم غيرك ، طيرت لي السكرة ، قل لي : نعم ، وخلني أنام .

أدار هولو ظهره ، متوسداً يمينه ، وهامساً :

ـ أقول أبوها شرط أن تنام .

وربما وشّحت الابتسامة وجهه ، أما عبد الودود فقد حدق ملياً في الظلام ، يداري البصيص الذي لاح في صدره ، ويغزل لدنياه في الأيام القليلة القادمة ، ملوياً عن صوت ابن الشيخ نظام الذي تناهى إليه من الجامع ،

★★★

بعد أن جالا في عدد من مدابغ الغوطة طوال النهارين التاليين ، تيقن هولو أنه لم يخلق لمثل هذا العمل ، وعلى الرغم من أن عبد الودود بدا أجهل منه ، فقد فكر في عذرٍ ماله ، مادام قد جمع مبلغاً كبيراً أثناء عمله لدى عمر ، وما دام يطمح لمشروع ما ، ويفكر جيداً ، حتى حين يسكر .

لم يصغ عبد الودود لاقتراح هولو : ورشة لإصلاح السيارات ، كراج مثل كراج تيسير عبد البر ، ولعل هولو كان يفكر وهو يزين ذلك ، أن مثل هذا العمل فقط ، هو مايمكن له أن يقوم به ، مادامت المحطات والقطارات محرمة عليه .

كان يلوم نفسه ، وهو يحبس شهيقه قرفاً من رائحة المدابغ ، لأنه لم يجرب حظه في الشام ، بعدما طرده الانكليز ، فلعل الفرنسيين نسوه ، أو أن محطة الحجاز غفرت له ، فترضى بتشغيله ، إلا أن عبد الودود مطبق عليه ، وهو لايجرؤ على أن يغادره ، ولعل كلاً منهما كان أكبر حاجة إلى الآخر . فعبد الودود لايبحث فقط في هولو عن ساعد أيمن ، كما كان هو أو عمر بالنسبة لسليم أفندي البسمة ، أو كما كان هو وطه اليتيم بالنسبة لعمر . قلب عبد الودود هو من يحتاج ، لامشروع المدبغة ، وهولو لايبحث فقط في عبد الودود عن منجاة مؤقتة أو دائمة ، هيّنة أو دسمة ، مما هو فيه . وربما كان أيسر عليه أن يرفض المدبغة ، وإنْ ظلَّ عاطلاً لشهور ، لو أنّ عزيز اللباد أو فياض العقدة ، أو بديع الطارة أو رضوان عرفة كان هنا ، كانا معاً في مأزقين متشابهين ، أو في مأزق واحد ، وما كانت جيب عبد الودود العامرة لتجعله أفضل . كما لم تكن حُسْن والحاج حاتم ليجعلا هولو أفضل .

هكذا ، وقبل أن ينقضي الأسبوع ، صار لهولو بيت آخر ، صغير وطيني أيضاً ، قريب من بيته الأول ، وأقرب الى بيت عبد الودود من بيت ابن الشيخ نظام ، ولكنه أبعد عن جماعة الشيخ مما كان عبد الودود يرجو . وانفرد ابن إمام الحرزة ببيت التكلي .

وهكذا ، قبل أن ينقضي الاسبوع ، صار لعبد الودود بستان صغير ، شجراته المعدودة شائخة ، وهو أيضاً أبعد عن جماعة الشيخ مما كان يرجو . وقد آثره ، ليس فقط لأن ثمنه بخس ، بل لأن مسافة طويلة تفصله عن أقرب مدبغة .

وقبل أن ينقضي الاسبوع الثاني ، كان الفلاحون الذين استأجرهم من جماعة الشيخ قد حفروا الأحواض والأقنية الموصلة بينها ، وفتحوا مجرى مناسباً للماء . ثم شرع ثلاثة منهم ببناء غرفة صغيرة ، فيما كان عبد الودود وهولو قد أحضرا أحمالاً عديدة من ورق الجوز والعفص وقشورهما ، وأحمالاً أخرى من جلود الماعز والخيطان والحبال والسلاسل .

أغرقت المدبغة هولو رويداً رويداً ، إذ كان عليه أن يشرف على كل شيء ، ويتابع أدق التفاصيل ، وهو الذي اختار ثلاثة ممن قدر أنهم الأفضل بين جماعة الشيخ ، كي يعملوا معه في الدبغ ، أما عبد الودود ، فما لبث أن اكتفى بالسوق ، يشتري منه اللوازم ، ويهيء لبيع الجلود المدبوغة ، وإن كان يقضي وقتاً طويلاً في المدبغة ، يرمي بتوجيهاته وانتقاداته المتكاثرة .

وزع هولو العمال الثلاثة جزافاً . اختار أكبرهم - وكان يبدو في الستين ، على الرغم من أنه لم يتجاوز الخمسين - ليخيط الجلود على هيئة الكيس ، ويثبت السلسلة في عنق الكيس المفتوح ، أما الاعمال الباقية ، فكانت للآخرين الفتيين ، واحد يعبىء الجلود المخيطة بالماء الدابغ ، ويبدله فيها كل يومين ، والآخر ينظم وصول الماء إلى الحوض الأول ، وجريانه إلى الحوضين الآخرين ، كما ينقع الأوراق والقشور .

عبد الودود كان يتعجل الدفعة الأولى ، ينتظر ملهوفاً ما سيسفر عنه هذا الدوران من الصباح الى المساء ، لايكاد ينسى واحدة من الملاحظات التي يجمعها ممن يستشير ، سواء في المدابغ المجاورة ، أم في السوق ، وهو يسعى بين تجار الجلود والقرب والأحذية .

صبر هولو والعمال الثلاثة كاد أن ينفذ ، قبل أن تنقل الدفعة الأولى الى السوق ، ويعود إليهم عبد الودود في المساء مبتهجاً ، ومفاخراً بالسعر المجزي الذي دبره ، فتنفّسوا الصعداء ، وطالب هولو بنهار واحد من الراحة ، فوافق عبد الودود على مضض ،

متذرعاً بالسوق التي تنتظر القرب الجديدة المتميزة لمدبغة السعد ، وفي العشية أنصت هولو إليه ، كما أنصتتْ حُسْن والحاج حاتم .

ـ اذهب الى جماعة الشيخ واختر منهم ثلاثة آخرين . يجوز أن نبني غرفة ثانية ، ولكن أولاً نحفر الأحواض الجديدة . يجوز أن ترى نفسك تنام هناك ، ولو خطر لك أن تبني غرفة ثالثة ، أنت حرّ ، وهكذا تأخذ حُسْن معك . والآن ، هاهي الغلّة بين يديك : اختر منها لنفسك وللجماعة ما تشاء .

ومثل حُسْن ، وربما الحاج حاتم ، رأى هولو نفسه قلقاً ، فقد ألفوا سريعاً هذا البيت الطيني الصغير ، كما أن النقود التي وضعها عبد الودود في حرج هولو كثيرة ، لم يجتمع مثلها من قبل في ذلك الحرج الذي غادره حاتم . ولا يعرف كم سيقتطع منها لنفسه أو للعمال الثلاثة ، ولا حُسْن تعرف ، أما عبد الودود فقد انصرف الى الحاج حاتم ، يلاعبه ويغني له ، والطفل لايستجيب ، وفي غمرة ذلك طرق الباب ابن الشسخ نظام ، وسمع لغط حامدة، فأزاح عبد الودود الطفل ، وجمع هولو النقود ، وتريثت حُسْن ، لكأنهم خافوا من فضيحة ، فيما كان الحاج حاتم يهلّل للبنت التي تدفع الباب .

★★★

تبخرت فرحة النجاح سريعاً ، وما عاد دعك حُسْن لجلد هولو مساء كل خميس يخفف من الرائحة العالقة . كما صارت المدبغة أبعد في الصباح منها في المساء . وشرع هولو يفكر في أن عبد الودود قد يكون على حق ، أذ أن العيش قريباً من المدبغة يوفر المشوار المنهك ، خاصة إذا لم يصادف عربة ، ولعله لن يكون قادراً على هذا المشوار كل يوم في الشتاء، إلا أن حُسْن لا تفتأ تردد :

ـ كيف نقدر على العيش وحدنا ؟ لاجار ، لا امرأة ، لاولد يلعب معه الحاج حاتم ؟ عبد الودود هو الأولى . المدبغة مدبغته ، ومثله الآن مثل الأعزب . عليه هو أن يعيش في تانه .

فينكفىء هولو حائراً ، ينشد أن يريحه النوم ، ليس من وجع مفاصله وربلتي ساقيه ، بل من الضيق الذي أخذ يكبر ، والهموم المبهمة التي عادت تناوش .

كان الخريف يضاعف من وحشة المدبغة ، يدفع بهولو بين حين وآخر إلى بقايا ظلّ واحدة من الشجرات التي ينوي عبد الودود أن يقطعها ، ويبيع جذوعها . ولكن

الاستراحة القصيرة دوماً قد طالت تلك الظهيرة التي ظهر فيها عبد الودود وطه اليتيم ، يحمل كل منهما كيساً ورقياً كبيراً ، فنهض هولو ملاقياً ، يرحب بفتور ، وعبد الودود يخاطبه :

ـ طه حلف بالله أن لايتغدى اليوم إلا معك ما دام سيده سافر ، وفكّ خناقه .

قال هولو معاتباً :

ـ كنت أتوقع أن تسأل عني قبل اليوم .

قال عبد الودود وهو يتملى الأحواض والعمال :

ـ هه يا هولو ؟ بدأت العونطة عندك ؟ القعود تحت الشجرة لايطعم الخبز يا أخي . إذا تراخيت ، عمالك يتراخون أكثر منك .

قال طه اليتيم :

ـ اتركنا من الشغل يا عبد الودود. والله يا هولو أنا مقصّر معك ومع غيرك . أنا وعبد الودود ماالتقينا غير مرة أو مرتين من ذلك اليوم ـ يلعن أبو الشغل . أخوك لايترك من يعمل عنده يحّك رأسه . أنت تعرفه مثلي ، ولكن قل لي : عبد الودود متعب مثل عمر ؟

قال هولو ببرود :

ـ حتى الآن ، لا .

قال عبد الودود وهو يخرج الدجاجة من الكيس ويتلمظ :

ـ لا يا هولو ، يا طه بعد خمسين سنة عمر هو عمر وودود هو ودود .

قال طه وهو يسابق عمر في الكيس الذي بين يديه :

ـ لو تعرف يا هولو أين تذكرناك من مدة قصيرة ؟

تساءل هولو وهو يغضي عن الدجاج المحمّر :

ـ أين يا طه ؟

ـ في المشرقة . في بيت فياض العقدة. نسيته ؟

ـ فياض العقدة ؟! ما أخباره؟ مبهدل مثلي ؟

ـ نعم ؟ عشر أغوات يكومهم في جيبه الصغيرة. فياض اليوم : فرس وحراس وبواريد ومدام لور والخواجة ثابت ، وهو الآمر الناهي ، وفرنسا نفسها معه ، هناك العز يا أفندي . مبهدل ؟ أعوذ بالله . عمر نفسه يطلب رضاه .

قال عبد الودود وهو يمزق الدجاجة .

ـ الدنيا حظوظ .

ثم نادى على أحد العمال ليأتي بكوز الماء . أزاح هولو ـ وقد تربع بين طه وعبد الودود ـ الدجاجة الثانية جانباً ، فجذبها طه محمحماً :

ـ لمن ستخبئها ؟

ـ للعمال ،

قال عبد الودود ساخراً :

ـ دجاجة واحدة لنا ثلاثتنا ؟

ـ ودجاجة لهم ثلاثتهم .

قال هولو وهو يغالب ريقه ، فاندفعت أصابع عبد الودود وصوته :

هات هات ، كل واحد منهم معه زوادته . أين زوادتك أنت ؟ أجلّ لي كرمك حتى نشبع ، كلّ ما يزيد عنا ، غير العظام ، سامحهم الله به .

قال طه اليتيم :

قلت لك يا ودود خلنا نشتر ثلاث دجاجات ، وما كان العمال في بالي ، ما رضيت . المرة القادمة اشتر كما ترغب ، لن أمنعك !

قال عبد الودود وقد اختلطت ضحكته بصدى مضغه ، فيما انقبض هولو ، وفقد اشتهاءه ، خاصة حين رأى عيني العامل الصغير الذي جاء بالكوز تتسعان وتتعلقان بالدجاجتين ، ثم توقف عن الطعام هنيهة ، يهمّ أن يحضر زوادته ، وعبد الودود يستحثّه قبل أن يأتي طه على الدجاجتين معاً ، وهو يضمر العتاب على حُسْن ، فلا ريب أنها أعدت زوادة زهيدة كعادتها ، ولم تلبث يده أن حرنت ، إذ بدا عبد الودود وطه يتسابقان في الأكل وفي الضحك ، وقد نسياه ، ونسي هويده المشرئبة ، قبل أن تتذكره أو يتذكرها ، فينهض حامداً الله ، ويعجل الى مجرى الماء .

لما عاد كان طه قد جمع البقايا في ورق الكيسين ، وعبد الودود يسوّي التراب ويخاطبه :

ـ تعال اسمع ما يقول طه تعال .

همس طه محتجاً :

ـ لا تورطني يا عبد الودود ، الأخ هو الأخ . وعدتني أن تخبره أنت ، لولا خوفي من الله . قلت : عمر من ظهر آخر .

ثم التفت إلى هولو الفاغر :

ـ كيف رأيت اليهود في فلسطين يا أخي ؟ اجلس وقل لي .

قال هولو وهو يتربع الى يمينه :

ـ مثل غيرهم . سؤالك غريب ، فيهم الكيّس وفيهم القبيح .

تساءل طه متمسكاً وهو يغمز عبد الودود :

ـ وما يحاولون هناك ومن خلفهم ، أو من أمامهم ، الانكليز ، كيّس أم قبيح ؟

ـ أعوذ بالله .

ـ معقول أنه بيننا من يتعاون معهم ؟ هنا أو في فلسطين ؟

ـ معقول .

ـ حتى عمر التكلي ؟

سأل عبد الودود بعد صمت قصير ، فلم يجب هولو، أردف طه اليتيم :

ـ مالك تنظر لي كأني أنا المسؤل ؟ أنا لاأعرف بالضبط ما يجري ، ولكنْ عمر مشغول هذه الأيام بالكولونيل كيش ، يركض وراءه من مكان الى مكان . من بيت سارة الجديد الى السرايا ، ويمكن الى بيت رئيس الدولة .

سكت طه وعينا هولو تستزيدانه ، ولما طال سكوته لكزه عبد الودود قائلاً :

ـ احك له كما حكيت لي ، لايجوز أن تخبىء عن هولو .

ـ كنت ألطو بعيداً ولا أسمع من الألف كلمة كلمة . الحكومة خصصت للكولونيل سيارة مع شرطي يرافقه . وعمر أحياناً كثيرة يلطو بعيداً مثلي ، يريد أن يتأكد مني إذا كان اليهود سيأخذون فلسطين كلها أم لا ؟ لو كنت أعرف قلت له ولكم ، يسألني : إذا أخذ اليهود الأرض أين يرحل أهلها ؟ كل يوم سؤال أغرب ، مع أنه يسمع غير ما أسمع ، ويفهم أكثر مني ومنك أنت وودود ، هذا الصباح سألني عن الاتحاد الصهيوني في سورية ، قلت له : علمي علمك . قال : الكولونيل كيش جاء من أجل هذا الاتحاد ، سألته : أين يكون ؟ ضحك مني ، وقال : ماقام بعد ، الكولونيل يحاول ، ما هذا الاتحاد يا هولو ؟

مط هولو شفتيه :

ـ علمي علمك .

ضحك عبد الودود ، وتابع طه :

ـ أنا أشك أن سارة من جماعة الكولونيل .

تساءل هولو :

ـ صهيونية ؟

مط طه شفتيه :

ـ علمي علمك .

ضحك عبد الودود ، فخاطبه طه :

ـ اضحك يا فهيم . من يصدق أن رئيس الدولة يجهل غرض الكولونيل وجماعته ؟

قال هولو :

ـ الكولونيل كيش رأس صهيوني كبير ومعروف في فلسطين .

قال طه اليتيم :

ـ الآن فهمت لماذا ينوي عمر أن يسافر إلى فلسطين ، هذا الصباح قال لي ذلك ، لا ، لا ، قال ما هو أهم : شدّ همتك يا طه ، فور عودتي نبدأ بإذن الله مشاريع كبيرة ، مشاريع كثيرة . هذا هو الشغل يا عبد الودود ، لا هذه المدبغة المقرفة .

وقف عبد الودود يشتمه ويشتم عمر ، وسار نحو الحوض الأول حيث تجمع العمال منادياً :

ـ طالت الاستراحة يا هولو الجلسة مع طه اليتيم تخرب البيوت.

لحق هولو به مسرعاً ، وهو يردف بصوت أعلى :

ـ انظر لأصحابك ، ما شاه الله! ساعة للغداء ؟ لاتتساهل معهم يا هولو .

قال طه ضاحكاً :

ـ يا عبد الودود ، قالوها قبلي وقبلك : اللي بيغيب عن عنزته بتجيب جدي ،

فالتفت هولو منكراً ، وقد انضاف ضيقه من طه وعبد الودود الى ضيقه من أخيه ، وزادت حيرته في أن يكون ما سمعه صحيحاً ، ثم تابع سيره وئيداً الى الحوض .

★★★

أشغل عبد الودود ليل هولو بعد نهاره ، في السهر المتأخر والعرق ، داخل أحد بيتيهما أو خارجهما ، وكان طه يحضر كل مرة في غياب عمر الذي طال ، وتفاقم معه قلق هولو ، أمام تهويل عبد الودود ، وما يلمح إليه هو وطه من علاقة عمر بالفرنسيين أيضاً . ولعل هولو كان سيغفر لشقيقه ذلك ، أما أن يجتمع مع اتصاله بالصهاينة ، أو أن يكون هذا الاتصال وحده حقاً ، فهو ما لا قبل لهولو به ، لامزاح فيه ، ولا قرابة ، ولابد من سبيل الى ردعه ، سواء أكان عمر شقيقاً أم لا .

كان يهرب أحياناً من الندم على أنه لم يزر عمر وخديجة بعد عودته من حيفا ، فلعل ذلك كان قد عرقل سبيل عمر إلى الكولونيل كيش أو سارة ، ثم كان يعزي نفسه بصواب ما فعل . ولكن مابدأ يزيده عذاباً أنه عاجز ، وأنه لو اهتدى إلى وسيلة ، وخرج من عجزه ، فالمدبغة لاتفسح له في النهار ، وعبد الودود لايفسح له في الليل ،وما عاد يرى الشام ، حتى كما كان يراها أول عهده بالشغل على القطار ، زمن الأتراك والحرب .

أما عبد الودود ، فكان لايفتأ يلهث خلف نجاح المدبغة السريع ، ويجعل من معه يلهثون ، وهو يزيد من عدد العمال ، رغم معارضة هولو ، ويخطط لتوسيع المدبغة ، على الرغم من ضيق البستان ، كما يخطط للاشتغال بجلود الأحذية ، لابقرب السقائين وحسب ، مصماً عن احتجاجات الجيران المتعالية على ما ينتهي في أرضهم من حوض المدبغة الأخير ، ولما صار هولو يلح هو أيضاً على ذلك ، صاح به عبد الودود لأول مرة :

ـ ما الذي أقدر عليه ؟ أين أذهب بالماء ؟ حتى لو حفرت بئراً كما تتكرم وتطلب ، فالبئر يمتلىء في اسبوع ، في شهر . أمامهم الحكومة ، أرْضِهم بعشر ليرات ، أرْضِهم بعشرين ، ولا تصدع رأسي كما يصدعونها هم .

كان واحد من العمال الجدد الصغار قد حدث هولو ذلك اليوم بشأن الاستراحة يوم الجمعة ، بلا أجر . وقد ساء هولو أن العامل خاطبه ، كأنّ الأمر بيده ، فنهره قائلاً :

ـ تعرف أنت وغيرك أني هنا أولاً وآخراً مثل واحد منكم .

وساءه بقية النهار أن عيون الآخرين جميعاً كانت تهرب منه ، تكرر ما قاله العامل الفتى ، وفي العشية لم يستطع الحاج حاتم ولا حُسْن ولا كؤوس العرق مع عبد الودود أن تنسيه ذلك ، لكن عبد الودود قد سكر فيما تراءى لهولو ، ولولا ذلك ماكان خاطبه كما يخاطب أياً من العمال ، خاصة في الأيام الأخيرة ، فأضمر أن يؤجل الحديث في أمر الاستراحة الى الغد ، سوى أن لسانه غافله وقال :

ـ العمال يطالبون يا عبد الودود بيوم الجمعة ، ولو على حسابهم ، وأنا معهم .

عندئذٍ نهض عبد الودود يترنح ، وقال ساخراً :

ـ العمال يطالبون ، وأنت معهم! هنيئاً لك يا عبد الودود . أنت معهم عليّ ؟يا سيدي لا على حسابهم ولا على حسابي . تعبتم ؟ السوق نار ، وأنت تريد أن تقعد في البيت ؟ هذا طلبك أم طلبهم ؟ أنا أعرفك يا هولو ، يا أخي أرْضِهم ، زدْ الأجرة ، تصرّف .

قال هولو مدارياً :

ـ ابن آدم يتعب يا عبد الودود ، لو كنت تشتغل ربع ما نشتغل ، كنت تنام بلا عشاء من

التعب ، زيادة الأجرة ليست المشكلة ، يا أخي افرض واحد منا مرض ؟ واحد مات له قريب ؟

ـ ألف من يتمنى الشغل مطرحه ، اصرف من لايعجبه الحال ، الضرورة لها أحكام .

ـ أنا أول من لايعجبني الحال .

ـ أنت ؟

ارتدّ عبد الودود مذهولاً ، أوشك أن يقع فأسنده هولو ، أزاح يد هولو بغلظة ، وبدا أن السكر يغادره ، ثم قال بصوت مطرق :

ـ أنت بطرت يا هولو ، أنت ضعيف ، لاتصلح أن تقود قطة ، فكيف بمدبغة ؟ لاتزعل ، أشك في أنك كنت في حيفا والنقابة وما أدراك ، لعبد الودود تقول هذا الكلام ؟

ـ وما المانع ؟ لو ما كنت أفضل مما تظن ماكنت كلّمتك عن عمالك الآن ، جهنم تحرق المدبغة وتحرقهم ، أنت بطرت . ولا تحتج هذه المرة بعمر . أنت اليوم ودود جديد عليّ ، ماكنت هكذا يوم وضعت يدي في يدك . المدبغة غيّرتك ، ويمكن حملت البذرة في داخلك من زمن عمر . أنا مازعلت . أنت لا تزعلْ ، عطلة يوم بعد ستة أيام ، خربت الدنيا ؟ السوق لايطير ، ومثلك مثل غيرك ، ما يكفينا أنّا نعمل النهار بطوله ، من طلوع الشمس إلى مغيبها ؟

ـ أهلا بالنقابة أهلا ، اليوم تريد عطلة ، وبعدها تقول لي : الشغل بالساعات يا عبد الودود ، هذه مدبغة يا هولو ، ماهي محطة الحجاز ولا محطة حيفا ، نسيت شغلك عند من هو من لحمك ودمك ؟ كان يعطيك أكثر مني ؟ يدلّلك أكثر مني ؟ من في الغوطة يدلّل عماله ويدفع لهم مثلي ؟ وكله بسببك ، لكن بسيطة ، من الغد كل شيء بحسابه .

قال عبد الودود وانصرف دون وداع ، فيما أطبق هولو الباب بعنف ، ولما استدار فوجىء بعيون حُسْن والحاج حاتم قد أفاقت من النوم مذعورة .

★★★

شرع عبد الودود يطيل مكثه في المدبغة ، يتدخل في دقائق العمل ولايكاد وهولو يتبادلان الكلام ، ولعل الخصام الصامت كان سيعلن نفسه أقوى وأسرع ، لولا لجم حُسْن له ، وظهور طه اليتيم ثانية، وكان عمر قد عاد من فلسطين .

صارت المدبغة تستريح يوم الجمعة وقبل أن يفلح طه وحُسْن في مصالحة المتخاصمين ، أعلن عبد الودود أن النهار القصير يحدد وقت العمل ، من تشرين الى نيسان ، ومن نيسان الى تشرين تتوقف المدبغة قبل المغيب بساعة أو ساعتين ، بحسب ضرورة العمل ، وطول النهار .

بعيد المصالحة بدأت المدبغة تنتج جلود الأحذية ، وامتدت قنواتها ، ثم حفرت أحواض ثلاثة جديدة ، وتراكمت الأقذار والسكاكين وجلود الحمير والأبقار ، وأحياناً : جلود البغال أو الجمال ، بعد أن كانت جلود الماعز وحدها تملأ في الأسابيع الأولى الغرفة اليمينية الكبرى ، وخلال ذلك تضاعف عدد العمال ، ولم تعد أكوام الشبّة والأعشاب التي يتباهى عبد الودود بثمنها ومصادرها الخاصة ومزاياها ، تقدر على الروائح .

باتت المدبغة الآن تشغل البستان كله ، وبات البستان يبدو لهولو نشازاً وسط الغوطة التي تفتحت في غفلة منه . وشرعت تنفحه في الصباح وفي المساء بخدرٍ خفيف ، ناعم ولطيف ، فتلعب الألوان في عينيه ، ويسري العبير الغامض في عروقه ، يحيي فيه مامات خاصة من الحرزة ، ويلوح له بربيع آخر ، رآه من نوافذ القطار ، وأومض له في رياق وفي حيفا ، ذات عمر ضائع . كان مشوار الغدوّ والرواح الى المدبغة ينصره على الغثيان الذي يلوي بجوفه ، ولا يقذف قيئه ، كلما ترسخ المقام في المدبغة ، وملأت نسائم الغوطة الربيعية صدره بالروائح المزكمة .

أما عبد الودود الذي ندر أن ساهر هولو بعد المصالحة ، فقد كان يعد نفسه مع كل صباح أو مساء ربيعي جديد بما يجزيها على ما أرهقها في الشهور الفائتة ، ولعل الربيع كان سيمضي وهو يجدد الوعد ثم يلهو عنه ، لولا أن طه اليتيم أو عمر التكلي أو سليم أفندي البسمة أو بلفور نفسه ، قد أخذوا يبعدونه عن المدبغة ، دون أن يلفت هولو أوسواه من العمال الى ذلك ، ولا يوصيهم .

قاده طه أول مرة الى مطعم الرجواني ، حيث تناولا العشاء ، ومازح طه الرجواني طويلاً حول غياب عمر عنه ، وغمزا من المطاعم التي لابد أن عمر بات يؤثرها ، ومن المطعم تقدم طه الى (زهرة دمشق)، مقسماً أنه هو الذي سيدفع ، مادام عبد الودود قد أصر على أن يدفع في المطعم ..

كانت ثمة رئيسة الجوقة الفنية البالغة الطول والنحول ، وحولها امرأتان تبدوان أكبر سناً ، وأقل ملاحة ، ولم تلبث أن لحقت بهما ثالثة مفرطة السمنة . وقد أركزت عينيها منذ ظهرت في عبد الودود .

زجاجة الشمبانيا الأولى أمر بها عبد الودود إلى رئيسة الجوقة ، فحيّت طه بدلاً منه ، وإذْ اكتشفت خطأها بعد قليل ، ضحكت وغمزت وحيت عبد الودود ، وأركزت عينيها فيه أيضاً ، بيد أن طه وشوشه ، فسليم أفندي البسمة عرض دكانه للبيع ، وبوسع عبد الودود أن يشتريه ويجعله دكاناً للجلود ، أو لسواها .

حاول ألاّ يعبأ بذلك ، ثم حاول أن يستعين برئيسة الجوقة عليه ، وأمر بزجاجة ثانية من الشمبانيا ، إلا أن نداء الدكان كان أقوى ، فجرّ طه من ذراعه ، وراحا يدوران في المرجة ، وطه يلعن نفسه وسليم أفندي البسمة وعبد الودود السعد ، قبل أن يتعهد بإنجاز الصفقة ، دون أن يضطر عبد الودود الى الاجتماع بسليم أفندي .

وفى طه بوعده سريعاً ، ورفض ما فرش أمامه عبد الودود من الليرات مكافأة ، لا عمولة ، وفي تلك الظهيرة التي خبأ فيها عبد الودود سند الدكان في جيب صدارته الداخلي ، أصرّ على طه أن يشاركه يوماً مجيداً ، فيأكلا في الحمام ، ثم يدورا على مرابع المدينة ، ولا يغفو أي منهما إلا على أروع فخدين في الشام .

كان في الطريق ، عبر الغوطة ، يلعن الشغل الحلو والمرّ ، ويدعو طه الى أن يفكر في ساعته ، يتشمم النسيم ويتعجل سخونة الدماء بين جنبيه ، كأنه واحد من الحيوانات الكثيرة التي تملأ الغوطة ، تصوّت أو تجري أو تزدهي ملتاعة ، حتى يقيض لها أن تعانق سرها اللاثب .

من دكان قريب من الحمام اشترى له ولطه ثياباً داخلية بيضاء وسابغة ، وفي القاعة زجر هذر طه ، وأقبل يأمر الصبيان ، وكأنه باشا ابن باشا . أوصى على الغداء ، وشدد على اختيار المناشف والوزرات ، واعداً بأجر مضاعف . وعلى المصاطب الحجرية التي تزنرّ القاعة ، رمى بثيابه ، واستسلم للرجل الذي لفّه بالمناشف ، وقاده الى الداخل ، وهو يتحاشى أن يقرقع بالقبقاب ، على العكس من طه الذي عاد الى الهذر .

من مصطبة الى أخرى تنقل متأملاً السقف العالي وتجاويف الجدران ، يرثي لعهد قريب ما كان يجرؤ فيه على أن يدخل الى مثل هذا الحمام ، يتماثل له الباشا شكيم أو سليم أفندي أو عمر التكلي أو سواهم ممن سبقوه ، تتماثل له خديجة وهي تغسله ، ويشك في أنه قد حمل يوماً ليفةً وصابونة الى واحد من الحمامات الرخيصة التي تعود عليها طه اليتيم . ورويداً كان ينفلش ، مثل الطفل ، يصخب في الغرفة المقببة الصغيرة التي اختارها له الرجل ، ينادي طه اليتيم ، يختلط نداؤه بصياحه المجفل من الماء الحار ، ثم يأمره أن يدعك أقوى ، حتى لايبقى للمدبغة أثر فيه .

سبق طه الى الخروج ، وبالغ في تكويم الشراشف والجنبيات على المصطبة التي اختار لتناول الغداء، وصبيان الحمام يدورون حوله ، مأخوذين بهذا الزبون الجديد الذي يبدو أنه ربيب نعمة ، على الرغم من هرجه وهرج صاحبه ، فقد تعود الصبيان على أرباب النعم الذي يفلتون عقالهم في هذا الحمام عادة ، ويأكلون كما يأكل عبد الودود وصاحبه ، ولكن أحداً من أولاء لم يسبق الى توزيع الثياب القذرة على الصبيان .

من الحمام عرجا على الدكان المغلق ، وأزجيا ما تبقى من النهار مع الجيران المباركين ، والذين كانوا يدعون أيضاً لسليم أفندي البسمة في المشاريع التي ينتوي ، دون أن يفطنوا الى استخفاف عبد الودود بذلك ، أو إغضائه عنه ، أو ضيقه منه .

ومن الدكان تمشيا الى المرجة ، يتلهيان فيما ينبغي أن يمضي من الوقت ، قبل أن ينحرفا الى مربع أولمبيا ، كما اقترح طه وهو يتلمظ :
ـ تسع أو عشر راقصات هنا ، أقبحهن أجمل من الجميلة في زهرة دمشق ، فيهن كما سمعت فرنسيات أيضاً ، ولا واحدة منهن تبخل عليك حتى ببوسة من فخذها أمام الناس .

قبل أن تهدأ الكرسي ، أشار عبد الودود الى إحداهنّ ، فلحقت بها أخرى ، وامتلأت الطاولة بالكؤوس . ألفت السخاء الراقصات الأخريات ، فصرن يتسابقن الى الطاولة ، يدعين الرجلين الى الرقص ، وإنْ كانا أقل أناقة من الآخرين ، كانت الدعوة تجعل عبد الودود ينكمش ، فيضحك طه ، ويغمز ، ويهمس مستفزاً :

ـ تفضل يا خواجة . تفضل يا حاتم الطائي ، كل قحبة تلهث أكثر من أختها حتى تكبر حصتها من ثمن الكؤوس ، وأنت يا حسرتي ، مثلك مثلي ، من بيتك إلى المدبغة ، ومن بيتي إلى أين ؟ عمر لايتركك تقعد على خازوق . لو قحبة منهن تفتل أو تدبك كان أهون علينا .

فكر عبد الودود أن أياً من أولاء لن ترضى أن تذهب الى حارة الشيخ حسن ، ولا إلى بيت طه اليتيم ، ولئن رضيت فلن يجرؤ هو ولا طه على أن يصطحباها ، ازداد انكماشاً وهو يهرب من شبه خديجة بأي من الراقصات ، وينكر أن يكون سليم أفندي البسمة أشجع منه ، مادام قد تجرأ على حارة الشيخ حسن ، ليلاً ونهاراً ، ولعل ذلك ما جعله يعزف عمنْ يتحرّشن به ، ويحث طه على النهوض الى كازينو العباسية نفسه

على مضض نهض طه مهدداً بأنه لن يظل ينتقل من مكان إلى مكان حتى الصباح . ولما توقف عبد الودود أمام الكازينو مذهولاً بصخبه الذي يملأ الشارع ، قال طه :

- هذا ليس لك ولا لي ، حتى الأولمبيا ليس لنا . زهرة دمشق نفسه كثير علينا .
- ما ينقصنا ؟ الشام كلها لنا .
- ابن الذوات له مكانه وابن الـ . . .
- ابن من ؟ ابن هذا . . ؟

قال عبد الودود مقاطعاً ومشيراً الى عضوه ، ثم تقدم هازئاً :
- المهم جيبك عامرة أم لا ؟ المهم يدك مبسوطة أم لا ؟ ادخل يا ابن اليتيم .

قال طه :
- الارتيستات غريبات هنا يا عبد الودود. ولا واحد منهن تركب كلمتين عربيتين. على الأقل كنا في الأولمبيا نفهم ولو قليلاً . ابن الذوات ياابن الذوات يتفاهم مع الارتيست هنا بالفرنسي بالانكليزي . . الله أعلم خلنا نمش أشرف لنا.
- وحياة رأسك إذا مشيت من هنا لا أدخل إلا الى بيتي أو بيتك .

قال طه مبتعداً .
- الحقني إذن . هنا واحدنا يصير مسخرة ، وأنا لا أضمن لك ذراعي ، الحقني حتى ندبر واحدة مثلنا ، وأمرك لله .

سار عبد الودود متباطئاً حتى الزاوية ، يغلب عليه الضيق مع كل خطوة . وخيل إليه أن عضوه لن يقوى اليوم على امرأة ، ولم يصدق أنه بات كالمخصيّ قبل أن تلد خديجة ، فتوجه نحو الكشك قائلاً :
- يكفينا اليوم يا طه، ارجع الى البيت .

ثم دعكت الأصابع الأنف ، فخيل إليه أنه يشمّ رائحة المدبغة ، وأن الأصابع تعجن الوسخ ، لكأن أحداً لم يدخل الحمام هذا اليوم ، وكان طه يناديه ، وهو يصمّ ويبتعد .

★★★

تعثرت أصابعه وهو يفتح الباب بقصاصة من الورق ، تبين بعد آن آشعل الفانوس أنها من هولو ، يدعوه فيها الى بيته الليلة ، أو في الصباح ، إذ أنه لن يذهب الى المدبغة في الغد ، وقد كتب ذلك بحروف أكبر وأوضح .

أعاد عبد الودود قراءة القصاصة ، ثم دعكها ورماها عبر الباب الذي ظل مفتوحاً ، يفكر في أن هولو عاد يتهادى ، فلو كان في المحطة ، لما تجرأ على أن يتغيب غداً، ولابد أن الجذر العاطل لبيت التكلي ينمو سريعاً في هولو، ليعوض ما فات .

أخفض فتيل الفانوس وتوجه إلى بيت هولو ، يلوم نفسه على ما انخدعت به ، من خديجة إلى عمر ، ثم هولو في هذه الأيام ، دون أن ينكر أن هولو لم يوفر جهداً من أجل المدبغة ، ولم يخن في قرش . بيد أن عبد الودود أيضاً كان شهماً . عامل هولو كأخ ، بل كشريك . أطلق يده في المدبغة . أعطاه ضعف ما يستحق من الأجر ، بل ثلاثة أضعاف . ولولا أن تحرك فيه داء بيت التكلي ، لما كان عبد الودود ليقسم عنه اللقمة ما عاش . هولو هو الذي جنى على نفسه ـ أخذ عبدُ الودود يهمهم وهو يتجاوز الجامع ـ هولو هو الذي بدأ، وقد صبر عبد الودود عليه طويلاً ، ولكن إلى متى سيظل يصبر ؟ لقد شرع يقود المدبغة بنفسه حقاً ، لعل حسن حظه هو ماجعل هولو ينكشف مبكراً، ولكن ذلك لايكفي . لقد آن لهما أن يفترقا .

كان هولو ساهراً وحده ، وأمامه ثلاثة كؤوس من الشاي . تساءل عبد الودود وهو يجلس عمن يكون قد تأخر عند هولو من الزوار ، وهل لذلك صلة بالقصاصة ؟ وقال هولو وهو ساه :

ـ بلفور في الشام .

اختلجت شفتا عبد الودود ضاحكتين ، وتساءلتا :

ـ لهذا طلبتني ؟ أعرف كما تعرف أنه في الشام . تريدني أروح أسلم عليه ؟

ـ بالعكس .

قال هولو متبسّماً ، وأشار الى الشاي ، فهزّ عبد الودود رأسه متمنعاً ، وقال :

ـ ما فهمت عليك :

ـ مبسوط أن صاحبنا في الشام ؟

ـ ما فكرت في هذا ؟ اسأل عمر .

ـ تعرف أكثر منه ومني أنه أساس البلاء ، ولا يجوز أن ينام في الشام ونحن نتسلى .

معك حق ، ولكن أساس البلاء ، لا . الأساس منا وفينا. وعلى كل حال لو ماكان بلفور كان غيره . وغيابك ما قلت لي سببه ؟

ـ السبب بلفور .

ـ رتب لك عمر الموعد معه ؟

ـ مالك وعمر هذا الوقت ؟ أين سهرت ؟ شربت ؟ الشام غداً كلها في المرجة . حزب الشعب خاصة دعا الناس للمظاهرة. جماعة الشيخ سينزلون الى المرجة . الشام كلها ستنزل ، ولو كنت أجرأ لقلت لك خلّ العمال . . . خل المدبغة تعطل غداً .

ـ وهولو من الأذان يسبق الجميع .

ـ وأنت ؟

ـ واحد منا يغيب . واحد عليه أن يبقى في المدبغة .

ـ لاخوف عليها .

ـ فاجأتني .

ـ نسيت يوم تركت الشغل عند سليم أفندي وخرجنا مع البشر الى المرجة ؟

ـ اتركني أفكر .

قال وهو ينهض ، وجفناه يرفان حيرة ورغبة ، وغيظاً أيضاً . ولعله كان يهرب، وهولو يؤكد له أن المظاهرة ضد بلفور وضد فرنسا لن تنتظره حتى يفكر ، فيرد ببرود :

ـ الصباح رباح . دق علي الباب .

وما إنْ اختفى صوت باب هولو المطبق خلفه بعنف ، حتى داهمه الصداع . وظل الصوت يطرق صدغيه وهو نائم ، حتى تتالت طرقات هولو على بابه ، ونهض متذمراً ، ثم لحق بهولو ومن تجمع أمام الجامع ، وابن الشيخ نظام يصيح :

ـ قطار مسلح خصصت له فرنسا ، البنادق تحرسه من حيفا الى القدم . والآن تحرسه في الأوتيل .

قال أحدهم وقد بدأوا يتقدمون :

ـ حتى المحطات ملأوها بالبنادق .

قال ابن الشيخ نظام بصوت أعلى :

ـ في محطة ازرع هجم الناس على القطار ، ونحن قاعدون .

قال آخر وهو يدافع نحو المقدمة :

- في محطة القدم أجبرناهم على أن يهربوه من القطار إلى السيارة ، من قال لك ك قاعدين .

وهتف عالياً : يسقط بلفور .

مئات من المتظاهرين كانوا قد سبقوا إلى المرجة ، وتوزعوا في مجموعات صغيرة وأصوات غاضبة ، دفقت في عروق هولو دماً جديداً ، ايلّوّن الوجوه والأشجار والنهر ، وجرفته مع عبد الودود ومن معهما نحو أوتيل فكتوريا ، حيث احتشدت البنادق ، وقيل إنّ بلفور ينزل .

كانت الهتافات والمدافعات توحده مع الآخرين ، تعيد إلى حنجرته وزنديه قوة ضائعة ، وتبعث في نفسه ثقتها المزعزعة منذ حين ليس بقريب ، فراح يدور وينط نشوان بانتمائه القديم الجديد ، البسيط والراسخ ، والحشد يملأ المرجة ، وهو يتلفت ، ويصيح بعبد الودود ، إذ تراءى له أن الحشد يملأ أرجاء عديدة من الشام ، بل من الأرض كلها ، يكبر هنا ويصغر هناك ، يتقدم ويتراجَع مثل موج البحر على شاطىء حيفا ، يصخب أو يصمت ، لافرق ، يهيج أو ينقلب وديعاً ، مثل الحاج حاتم وهو غاف في حضن حُسْن ، يهتف بالأمس القريب ضد الأتراك ، يهلل لعرش سوريا ، يدك العرش ، يتصدى لفرنسا ، يتهيأ ليوم آخر ، بل لأيام كثيرة وخطيرة ، آتية كما يوم القيامة ، يملؤها الغضب والحقد والهياج ، والنصر أيضاً والشماتة ، وربما الفرح ،

أما عبد الودود فقد ظل يصحو بعسر ، من الحارة الى المرجة ، يضيق بنفسه وبمن تنزجّ جماعة الحارة فيهم أو يتزجّون فيها ، لايرتاب في أن الجنون قد عصف بالشام ، وأنه قد بدأ يلتاث هو أيضاً ، فأخذ صوته يعلو ، وكفاه يصفقان ، وصدره يثلج للنهر ، فإذا به يسبق هولو إلى الأوتيل الذي سدت أبوابه ، وتمترست حوله البنادق ، وإذا به يبصق في وجه بلفور الذي أطل من نافذة أحد الطوابق ، فترتد البصقة على جبينه ، ويقهقه كثيرون ، ثم يلتفتون عنه إلى الشاب الذي اعتلى كتفاً أو حجراً ، وراح يخطب في الناس ، ويوحد في سمع عبد الودود بين صوت طه وصوت هولو ، بين عمر التكلي وكيش ، بين ساره وبلفور ، وإذا بالأنياب تطلع له من كل صوب ، تنهش الشام من كل ناحية ، ولاينفع في دفعها كتفاه ولا كتفا هولو التكلي ، مادام الشاب الذي يخطب نفسه قد اختفى ، والحشد أخذ يتخلخل ، والرصاص قد دوّى ، وهدير الحشد قد غدا صراخاً حيوانياً ، والدماء قد سالت ، والرصاصة التالية قد تصيبه ، أو تصيب هولو

الأهوج الذي يقاوم يد عبد الودود وهي تجره خلفها ، ثم تدفعه أمامها الى أحد الازقة ، حتى ينأى صوت الرصاص .

ومثلما قاد هولو عبد الودود إلى المرجة ، قاده عبد الودود إلى المدبغة ، بعد أن اطمأن إلى أن بلفور قد غادر الشام ، إذ هربه الفرنسيون من الباب الخلفي للأوتيل ، وجروا به الى بيروت ، وإنْ كان هولو لايكاد يصدق ، كما لم يصدق أن وفداً من الزعماء قد قابل في الليلة الماضية بلفور ، يطلب إليه أن يغادر الشام ، حقناً للدماء .

★★★

24

تواترت الشائعات تملأ المدينة ، عما يجري في جبل حوران ، ومايفعله الدروز في الفرنسيين ، وربما كان ذلك ماجعل ـ بعد بلفور ـ عبد الودود يسكت في البداية عن انصراف العمال المبكر ، قبل أن يحضّهم بنفسه على ذلك.

كان الصيف قد أقبل مبكراً ، وشغل المدبغة يتضاعف ، بعدما نجح طه اليتيم في أن يجمع عبد الودود وسليم أفندي في الأولمبياد ، وساق السهرة ـ أو أنها جرت كذلك ـ بعيداً عن الجلود وخديجة التكلي ثم يسّر للخصمين أن يلتقيا من دونه ، في الخميس التالي .

لم يكن عبد الودود ينتظر أن تكون الدعوة الى البيت ، ولا أنْ يكون هولو التكلي حاضراً ، والعرق يتصدر المائدة السخية ، كما لم يكن ينتظر أن يخاطبه سليم أفندي قبل أن يملأ الكأس الثاني .

ـ نحن رجال ياعبد الودود ، والرجل يفهم الرجل .

ثم يستنجد بهولو :

ـ صح ؟

هز هولو رأسه متوجّساً ، وتابع سليم أفندي :

ـ الكلام لك أنت أيضاً . مارأيك ياعبد الودود في سليم أفندي البسمة ؟

أسرع عبد الودود :

ـ نعم الرجال :

ـ قصرت معك في شيء ؟

ـ الشهادة لله : كنت أكرم مني .

ـ وأنت ياهولو ؟

- خير ياسليم أفندي ؟ نحن في بيتك وعلى مائدتك . سؤالك ملغوم .

قال هولو وقد أدرك أن سليم أفندي يبيت لهذه السهرة غرضاً آخر ، وأكبر.

قال سليم أفندي.

- بودي لو أتكلم على راحتي ، لو نتكلم كلنا هكذا .

رفع عبد الودود كأسه هاتفاً :

- هات ياسليم أفندي .

شرب سليم أفندي نخب ضيفيه ، وراح ينغّم صوته :

- الله سبحانه وتعالى حلل لنا الزواج والطلاق ، مثنى وثلاث ورباع ، حلل لنا نحن الرجال . وخديجة الآن حرة . ولكني مارضيت أن أنطق بحرف قبل أن يجيء يو ونجلس فيه سوية . وهاهو الله سبحانه وتعالى قد يسّر لنا هذا اليوم ، ونيتي أن أتزوج خديجة ، وبنتك ياعبد الودود هي بنتي ، تعيش عندك ، تعيش عندي ، لافرق ، وخديجة موافقة ، أما عمر ، فلابد أنه يوافق ، والمهم نحن الثلاثة . نحن اليوم أصدقاء ، ولولا ما لعبد الودود السعد وهولو التكلي في نفسي ماكنت أقول مأقول ، كنت ناديت على واحد من المشائخ ، وقرأنا الفاتحة والسلام . والآن أريد أن أسمع كلمة نعم ، حتى تصفو النفوس ، وخديجة نفسها لاترضى إلا بهذا . وكما بدأت ، نحن رجال ، والرجل يفهم الرجل .

تراجع عبد الودود قبل أن يسكت سليم أفندي . مد يده الى الكأس فاندلق ، ترك سليم أفندي يحكي ويملأ الكأس . همَّ في أن ينصرف ، فتراءى له ذلك جبناً ، وتراءى له سليم أفندي داهية . فكر فيما يلزم رجلاً مثله على أن يطلب يد امرأة من مطلقها ، وأنكر أن يكون مابين هذا الرجل وبين خديجة ، مثل الذي كان بينه هو وبين خديجة مثل الذي كان بينه هو وبين أم نور الدين . ثم أنكر على نفسه أن تأبه لذلك كله فخديجة الآن حرة حقاً . ولو لم يكن سليم أفندي صادقاً ، ويقدر عبد الودود السعد عالياً ، لما كان مضطراً لأن يستأذنه .

كان جفناه مطبقين ، وفي يد هولو ويد سليم أفندي تنتظر الكأسان المرتفعتان . حتى إذا أفاق ، وارتفعت كأسه ، وقف سليم أفندي ورغط ، كأنه عريس شاب ، يخطب لأول مرة ، ودعا هولو إلى قراءة الفاتحة وهو يشرب ، ثم هجم على رأس عبد

الودود يقبله ، بينما كانت الابتسامة ترتسم بعسر على شفتي عبد الودود ، وبعسر أشد ـ ربما ـ كانت الشفتان تتمتمان :

ـ الفاتحة .

★★★

قبل أن تنتقل خديجة وابنتها إلى البيت الجديد لسليم أفندي في عرنوس ، كان عمر قد طرد طه اليتيم ، فهل كان ذلك حقاً لما اكتشف من صلات طه بهولو وعبد الودود وسليم أفندي ؟ أم لأن طه بات يتغيب فجأة ، دون إذن ، ويطيل غيابه ، كما بات يلح على عمر في أن ينفذه الى حوران ، بعد أن كان لايوفر حيلة كي يملص من أية مهمة خارج الشام ؟ هل يكون عمر قد شك في طه ، بعد أن نشطت متاجرته بالسلاح ، سواء في جبل حوران أم في حمص ؟ـ

سرُّ الطرد ظل حبيس الرجلين . أما سليم أفندي أو عبد الودود أو هولو فكانوا يخمنون ، يفتّقون في النزر الذي يكون لسان طه زلّ به ، في لقاءاته الأولى المتباعدة بهم ، أثر الطرد.

قال هولو :

ـ بدلاً من أن يزداد اعتماد عمر على طه في هذه الأيام ، تخلّص منه ، وصار يعتمد على فياض العقدة في حمص ، فهل يكون اكتفى ببيع السلاح هناك ؟

قال عبد الودود :

ـ تظن أن طه أراد يلعب من خلف ظهر عمر ، ويتاجر بمفرده ، فانكشفت اللعبة ؟

قال هولو :

ـ قد يكون طه صار يعرف أكثر مما يريد له عمر . لافياض العقدة ولا من يخزنون .

قال عبد الودود :

ـ ولكن طه ذكر فياض العقدة ، وذكر أيضاً من الجبل حسين فندي وهزّاع ، هزّاع من ؟

ـ ذكر كثيرين من المقاتلين . يشترون السلاح ممن يبيع ، في الجبل وفي حمص وفي البلاد كلها . حسين وهزاع وغيرهم لايتاجرون بالسلاح . هم زبائن عمر وغير عمر . نسيت من ذكر من حمص أيضاً .

في مساء غير بعيد ، جمعهما مع سليم أفندي دكانه الجديد القريب من البيت ، في عرنوس ، وقال سليم أفندي :

ـ طه ماعاد له شغل الا القتال ، طه مقاتل صيته يكبر كل يوم ، وظني أنه بدأ قبل أن يطرده عمر .

قال هولو :

ـ عمر إذن اكتشف أن طه ليس ذراعه اليمين ، بل ليس معه . على العكس ، هو مع الثوار ، وهذا خطر على عمر ، ليس في التجارة فقط.

قال سليم أفندي :

ـ كأني فهمت من طه آخر مرة أن تجارة عمر بالسلاح في حوران وجبلها بارت . طلع في وجهه منافس قوي ، في الشام هنا كثر المنافسون أيضاً.

قال عبد الودود .

ـ تكفيه حمص :

قال سليم أفندي :

ـ كأني فهمت أن الأمور في حمص ليست على مايرام بين عمر وفياض العقدة ، وغيرنا قالها : ديكين على مزبلة . لايجوز.

كان هولو وعبد الودود قد صادفا في الطريق الى عرنوس ، أمام بيت الرئيس المزين بالأعلام ، جمهرة الجنود الذين اختفت أكفهم داخل القفازات البيضاء ، وقد همّ عبد الودود بالجري خلف موكب الرئيس الذي الذي انطلق نحو السراي ، لكن هولو شدة إلى الوراء مستنكراً وساخراً ، فالأعلام التي زينت أيضاً المرجة والصالحية ، والجنرالات الفرنسيون الذين كانوا ينزلون من السيارات قبل قليل ، والسراي المفتوحة كما يتهامس الناس ، كل ذلك إنما هو احتفال بالخطبة التي ألقاها رئيس الدولة أمس فيها الثورة التي اندلعت جنوباً ، لم تعد شائعات تتصادى في الشام ، بل شوارع تقطعها الأسلاك الشائكة في الميدان ، وخياماً في الفسح المتربة أمام الجوامع ، وبنادق يوزعها الفرنسيون على المسيحيين ، كما أكد عبد الودود نفسه .

اثر ذلك المساء ، انقضت الأسابيع الدامية الطويلة ، قبل أن يعود عبد الودود وهولو إلى سليم أفندي مرة أخرى ، وكانت الثورة قد اندلعت في الغوطة وفي المدينة ، قريباً من المدبغة ، وفي الشيخ حسن .

كل منهما جاء بمفرده هذه المرة ، ولم يكن أي منهما أكبر هماً من سليم أفندي ، وإن كان أكبر بلاء.

سأل هولو سليم أفندي عن السلاح ، وأنصت إلى مايعرفه جيداً:

ـ في الجنوب أرخص . الانكليز يبيعون البندقية وكيس الطحين بليرة ذهب .

قال هولو :

ـ الانكليز مرة ثانية ، وهذا الرخص كرمى لسواد عيون من ؟

ولم يكن لدى سليم أفندي مايبرد الغلّة .

أما عبد الودود ، فقد سأل سليم أفندي عن رئيس الدولة الذي نقل أثاث بيته إلى بيروت ، والوزراء الذين اقتفوا أثره . ثم نسي ذلك ، وهو يتحدث عن نساء الضباط الفرنسيين اللواتي صادفهن في الصالحية أمام الصنابير ، ولم يلبث أن غادر قبل أن يكمل كأس الشاي.

كان عيد المولد النبوي يقترب ، والأسواق تتهيأ له ، على الرغم من الشحوب والذعر والنقمة ، وكان سليم أفندي قد علق ترساً ودرعاً صدئه في صدر الدكان ، وفوق بابه علق الصور التي قرأ عبد الودود بعسر الكتابة تحتها : النصر من عند الله ، الصبر مفتاح الفرج ، وتملّى بجلال من بينها الصورتين اللتين أشار إليهما سليم أفندي ، لصلاح الدين الأيوبي ، ومصطفى كمال.

صبيحة العيد تدفقت العربات منذ الصباح ، تنقل أفواج الفلاحين ، إلا أن البدو لم يظهروا ، كذلك الدروز ، كما ملأت الشائعات المدينة . سوى ذلك ، كانت المدينة تكرر نفسها في كل عيد : ارتفعت الأقواس الخضراء ، سارعت العراضات إلى المرجة ، ملوحة بالسيوف أمام السراي ، تهتف وترقص . وقد خرج عبد الودود وهولو في وفد الميدان ، سعيدين وحائرين في فهم مايجري ، فالناس ليسوا حزانى على الضحايا التي يقال إنها قد كثرت . إنهم فرحون ، وهم غير عابئين أيضاً بالسراي ، بل لعلهم يتحدونها ، يسخرون من احتفال الحكومة بالعيد ، يعفطون للمفرقعات والأسهم النارية التي تطلقها من القلعة أو العفيف أو السراي نفسها . وفي المساء ، بدا كأن الناس يزورّون عن الفرسان الذين حملوا المشاعل ، أو يصمون عن المدافع التي حرصت على أن تكون مسموعة في هذا العيد أضعاف ماكان في العيد السابق.

لسليم أفندي أيضاً بدا العيد مبهماً ، وهو يتوجه في صباح يومه الثاني إلى بيت الباشا شكيم مهنئاً ، ثم وهو يغادره نحو المرجة ، فيجتذبه الهياج إلى السنجقدار ، وإذا

بحطام المقاهي يملأ المكان ، وشبان هائجون يلغطون ، ناهين المسلمين عن الجلوس أثناء العيد في المقاهي.

ارتدّ سليم أفندي خائفاً وساخطاً الى المرجة فإذا بشبان آخرين ، أشد هياجاً ، يصرخون بالذين يغطون رؤوسهم بالعمرات أو القبعات أو السيدارات . وكان بعضهم يحملون البنادق ، ويهددون بالرصاص ، والبنادق الفرنسية تتلامع قريبة ، دون أن تأتي حراكاً . ولعل ذلك قد امتد حتى الظهر ، إذْ ضاعت أصوات المؤذنين في دوي الرصاص ، ولم تلبث القذائف أن أخذت تتساقط ، من أطراف المدينة.

★★★

تفاقم ارتباك المدبغة بعد العيد ، ليس فقط لأن الرصاص قريب منها دوماً ، بل لأن السوق أيضاً شديد الاضطراب . لارغبة لأحد في البضاعة ، والأسعار متدنية جداً ، والناس لاهون عن البيع والشراء ، وعن الشغل . إنهم يتكلمون وحسب . وعبد الودود يتكلم أيضاً . إلا أن المدبغة باتت مقلقة ، والدكان بات مقلقاً ، وهولو أيضاً ، وما عاد طه اليتيم يظهر ، كي يقنعه عبد الودود بالالتحاق به كما خطط أخيراً . أما الفرنسيون فقد أخذوا يمنعون التجول في المساء . والحراس الليليون يشهرون عصيهم الطويلة ، ويزدادون غلظة ، قبل أذان العشاء.

كل شيء حوله كان ينهار . كل ما بناه ينهار . وربما كان ذلك قبل العيد . لكن عبد الودود لم يفكر إلا بعد أن أخذت الغوطة تحترق ، والمدينة تحترق ، فليس يعقل أن يظل هولو يذهب الى المدبغة ، والموت يترصده في كل خطوة ، كذلك من لايزال يأتي من العمال . وعبد الودود نفسه ، لم يعد يجرؤ على أن يتنقل بين المدبغة والدكان . بل إنه لم يعد يغامر في الاقتراب من قلب المدينة إلا لماماً .

إنهم يقتلون بلا رحمة . يدمرون وينهبون . وجاره المقابل أبو ناظم اشترى أكواماً من السجاد من العساكر الفرنسيين . عارف بك ورضا بك الزرب أيضاً اشتريا ، كما يقول أبو ناظم ، فيما كانت أرتال الجمال المحملة بجثث الثوار المقتولين في الشرق ، تخترق الحارة.

كانت الجثث المتأرجحة تبدو مثل الجلود التي تساق إلى المدبغة . ولعل ذلك ماجعل عبد الودود ينقاد خلفها إلى المرجة ، يتأمل الجلود التي عرضت على الأرض ،

الرائحة هي هي ، والجلود إذن قد وصلت إلى المدبغة ، ونشرها العمال حول الأحواض ، إلا أن عبد الودود يفرّ هذه المرة ، يخبط في الأزقة حتى يطلع له الدكان ، يبحث عن جاره وعن السجّاد ، فإذا بعسكريينّ أكثر سواداً من أم نور الدين ينهرانه . يهمّ بالفرار ، فتندفع أصابعه تعالج قفل الدكان ، والعسكريان يأمران بشراء ماينوءان بحمله : شراشف وملابس نسائية ، لايطلبان سوى ذهبية واحدة لكل منهما ، ولكن عبد الودود يرفض ، فالدكان للجلود ، وليس للأقمشة ، كما أنه غير قادر في هذه الأيام على أن يشتري ، ولا على أن يبيع .

توقف خلف العسكريين صبيّ ، فنهره عبد الودود ، إلا أن الصبيّ راح يعيّره بالخسّة ، ويعير العسكريين بالنهب ، قبل أن يطلق ساقيه ، ويجري خلفه العسكريان ، فأسرع عبد الودود إلى إغلاق الدكان ، وانزرج بين من تجمعوا أمام الجامع ، ثم تاه مع من تاه منهم بين الأزقة ، قبل أن يدوي الرصاص ، وتندفع أسراب الحمام تغطي السماء ، فيطلق ساقيه تلاحقه أصوات الرشاشات ، وتحاصره القذائف ، حتى قلّ الناس من حوله ، وصحا على أنه صار في باب توما ، لا في الشيخ حسن .

أمام واحد من الأبواب المغلقة توقف لاهثاً ، يدير عينيه فيما يفسح الشارع الضيق من السماء ، يتقفى هدير الطائرات التي لاتظهر ، يطمئن مع ابتعاد الرصاص والانفجارات ، ومن حافة تلك الزرقة القصيّة ومض وجه من على السطح ، لوحت له ذراعان صغيرتان وأومأت عينان أليفتان ، فأنكر أن تكون الطائرة صغيرة وقريبة وصديقة ، ودارت عيناه تبحثان عن حمامة ، عن طير واحد ، فقد لايكون ماأبصر طائرة ، غير أن الفسحة السماوية النقية المحدودة كانت الآن خالية تماما ، والشارع إلى يمينه ويساره خال ، وفي أذنيه عادت تدوّي أعلى وأقرب الانفجارات .

ربما اصطكت ركبتاه ، أو اندغمت أعضاؤه ببعضها ، تتخفّى وتستسلم ، مثل أية قطة هائمة ، حين انفتح الباب وأطلت مريانا هاتفة :

ـ ادخل ياعبد الودود . ماذا تفعل هنا ؟

تبعها يود لو أن النجاة قد جاءت حقاً ، وكما فعلت فعل ، إذ كانت قدمها لاتكاد تلامس الدرج ، وعيناها تحاذران الأبواب الموصدة ، ثم تمرق من أحدها فيمرق خلفها ، وتجلس فيجلس ، تتنهد فيتنهد ، تجمع قصاصات حمراء قماشية من الأرض ، فيجمع معها ، ويتيقن من صوتها وهي تقول :

ـ راح الفستان ، كنت أحبه ياودود . الفستان الأحمر الوحيد عندي .

قال وهو يقف باحثاً عن كأس ماء :

ـ ما فعلت به ؟

قالت وهي تأتيه بالكأس :

ـ عملته صليباً ، والجيران فرشوا الملاحف البيضاء على السطح . تركوا الصليب عليّ وماصدقوا أنهم يعودون إلى بيوتهم .

جلس يفرك ظاهر كفيه ، يستجدي الدفء الذي سرى ، وتساءل :

ـ ملاحف وصليب على السطح ؟ لماذا ؟

ـ حتى تميز الطائرات المنطقة ولاتقصفها . هكذا طلب البطرك وطلبوا منه . وحظك يفلق الصخر . لو كانوا على السطح ماكنت قدرت أن أدخلك .

ـ وتتركيني أموت أمام الباب .. معقول ؟

قال وهو يتبسّم ، كأنما يدلّ بعهد قديم ، فضحكت وهي ترخي جفنيها ، ثم تنهض إلى النافذة المقابلة ، تحكم إغلاق الستارة ، وتعود وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب ، إذ جعرت طائرة أو قذيفة .

غيبتها العتمة عن عينيه ، فناداها لتجلس إلى جانبه ، وكان الدرج الخشبي يصرّ قريباً . اقتربت صامتة ، وخيل إليه أنها تنحني فوقه قبل أن تلتصق كتفها بكتفه . مد ذراعه على مسند المقعد الصغير ، وراحت أصابعه تمشط شعرها ، كما تعودت بعد أن يكون جسداهما قد ارتويا في زمن انقضى فجأة . ود أن يسألها عما حدث ، إلا أن حنجرته يبست ، ومالبثت أصابعه أيضاً أن يبست ، لكأنما كان جسده يغدو عضواً فعضواً قطعة من الخشب ، مثل مسند المقعد ، ونفسه تغدو شيئاً ما ، بلا حياة ثم تغدو مريانا قطعة من الفستان المقصوص ، قد ذوى احمراره . ولعل هذا الموت قد دام عمراً بأكمله ، قبل أن تنبعث فيهما الحياة ، وتضيء مريانا شمعة ، ثم ترفّ حولها كالفراشة ، وتختفي قليلاً لتعود بالعشاء ، ويعلو صوته :

ـ الله أراد أن نجتمع يا مريانا .

صلبت سبابتها على شفتيها محذرة من الباب ، فنهض يستفزها ، يتظاهر بالشغب ، ثم ينصاع كالطفل الشقي ، ينتظر شغفاً أن تنتهي لمساتها الصغيرة على الطاولة ، وتجلس أمامه شمعة أخرى ، أقل صفرة وأنقى ضياء .

نقل كرسيه إلى جانبها لائباً عليها وعلى كأس من العرق ولقمة من أي من هذه الصحون المنقوشة ، وكان الرصاص يزخّ قريباً ، كأنه المطر الذي كان يزخ في الزينبيه ،

وهو يلجم الحصان ، ويأوي إلى العربة ، يحملها بين ذراعيه ويدور في الغرفة ، تنحني عنقه لذراعيها وهو يوسدها في مكان ما ، عازماً على أن يفارقها أو يلاقيها عمراً آخر ، دون مقدمات ، كما كان في العمر الذي انقضى ، وهو سائق لعربة الباشا شكيم ، أو في العمر الذي انقضى وهو لاجىء إلى باب هذه العمارة ، وفرنسا تلاحقه .

★★★

في الضحى خرجا معاً : هي إلى المستشفى ، وهو إلى ركن ما من الشام الهادئة ، لايهمّ إنْ كان في حارة الشيخ حسن أو في أقصى الغوطة .

كانت ترفرف حيث افترقا أعلام انكليزية وأميركية وإيطالية . وأبعد فأبعد ، حيث راحت تهذي عيناه وأذناه وقدماه ، ظلت الأعلام ترفرف ، فصدّق أن هذه الخرق الملونة قادرة على أن تحمي من القتل ، شأنها شأن الصليب الذي ثبتت مريانا وجيرانها على سطح العمارة ، ولكنه أنكر ألاّ تكون بيوت الشام كلها سواسية ، لايميز بينها أن بعضها يؤوي أميركياً أو انكليزياً أو مسيحياً أو أي إنسان كان .

كانت حامية باب توما خاوية ، وعدد من الشبان يجرون صناديق ثقيلة وأسرّة . تحطم أحد الصناديق وتناثر الرصاص الأصفر الكامد . قريباً من الحامية تعلقت عيناه بجرس الكنيسة الذي لم يرن أمس ، كما قالت مريانا . وأبعد بقليل كانت أصوات الرصاص أوضح ، كما علا صخب اللاجئين إلى البطركية والمستشفى الانكليزي ، خاصة بعدما أخذ هدير الطائرات والمدافع يغلب ، فأسرع عبد الودود في مشيه ، ومن مكان إلى مكان ، توقف ، ثم جرى ، ثم مشى ، ولعله كان سوف يظل يفعل ذلك ، حتي يتسنّى له الأمان ، لولا أنه رأى نفسه قبيل الظهر قريباً مما كان بالأمس بيته ، فقفز إلى الحفرة التي خلفتها قذيفة أو أكثر ، حول البيت أو عليه .

كان الهواء يهب منذ الصباح قوياً ، وهاهو الآن يسفع الغبار من أنقاض البيوت المجاورة نحو حفرة عبد الودود ، ونحو الجامع الذي لم يرفع فيه ابن الشيخ نظام الأذان ، على الرغم من أن الظهر قد حلّ أو انقضى .

بعد لأي تحامل على نفسه ، ونهض ينفض الغبار عن ثيابه وعينيه ، يداري الهواء ويقفز من الحفرة ، يخبط في الخراب ، يتوقف في طرف الحارة ويقرأ الفاتحة ، إذ عبرت ثلاثة من الطنابر محّملة بالأكياس البيضاء التي تنزّ الدم .

تراجعت قدماه نحو بيت هولو ، فإذا بحامدة بلا ملاءة ، منفوشة الشعر وخرساء ، وإذا بحُسْن أيضاً بلا ملاءة ، ولا تكاد الخرقة التي رمتها جزافاً فوق شعرها تستر منه سوى أعلاه . أما هولو فقد اختفى منذ الصباح ، كما نطقت ، قبل أن تخرس هي الأخرى . والحاج حاتم لايهدأ ، ينادي أباه بلا انقطاع ، وحامدة تفرّ منه أو مما يجهل ، وهكذا ما كان له إلّا أن يفرّ ويقيم في آن ، يخرس وينطق ، ويغدو جسده من جديد ، كما في مساء الأمس ، قطعة من الخشب ، تغدو نفسه شيئاً ما ، بلا حياة ، وهو يهوي في حفرة بيته .

★★★

هولو وحُسْن والحاج حاتم كانوا قد لجأوا إلى المقبرة مع الجيران الأدنين والأبعدين ، وعاينوا جميعاً لأول مرة كيف يمكن للنهار أن يتصل بالليل ، إذْ أضاءت قذائف الأمس والحرائق حارة الشيخ حسن والشام كلها ، وجعلت الليل نهاراً . وفي الفجر أخذت أعمدة الدخان والغبار تعكر الضياء ، وتجعل النهار ليلاً . إلا أن الناس شرعوا يقتربون من بيوتهم . وما إنْ اطمأنّ هولو على بيته حتى جرى إلى بيت عبد الودود ، يدور حول الحفرة ، لايجرؤ على أن يدوس فوق أجزاء السقف المرمية على خطوات ، ولا على أن يجوس وسط الحطام المتناثر أبعد فأبعد .

كانت حُسْن قد لحقت به ، وحبست نعيها لعبد الودود الذي لم يظهر بالأمس . أجلست الحاج حاتم فوق واحد من أحجار البيت المدمر ، وتقدمت من الحطام تلملم ثم ترمي ، ثم تؤوب إلى الصغير ، تحمد الله وتطمئن هولو ، فليس لعبد الودود أثر ، ولا بد أنه قد بات خارج البيت ، كما قدرت بالأمس . أما هولو ، فقد انصلبت عيناه على الحفرة ، تخشيان أن يكون عبد الودود مكوماً ثمة . ولما حثته حُسْن على النهوض ، وقادت الحج حاتم أمامها مبتعدة ، نزل إلى الحفرة محاذراً ، وشرع ينكش فيها ، حتى توسطت الشمس الشوهاء السماء ، فخرج من الحفرة ، يدعو الله أن يكون قد نجا بعبد الودود من مصير مماثل في مكان ما من الشام ، ومشى عابراً ببيت ابن الشيخ نظام الذي أتت قذيفة على شطره الأيمن ، ثم عبر ببيته ، فالجامع ، فالمقبرة ، حتى اختفى عن عيني حُسْن اللتين كانتا ترقبانه بصمت ، والحاج حاتم يلهو مع أولاد الشيخ نظام ، بين يديها .

لا هي تعرف ، ولا هو يعرف أين قضى بقية ذلك النهار . لقد آب على كل حال ، وإنْ كانت حُسْن لم تعد تقدر على هواجسها منذ العصر .

من الناس من كان يفترش الأرض حول الأنقاض ، ومنهم من آثر المبيت في المقبرة ، حتى لو كان بيته سالماً . أما حُسْن وعبد الودود والحاج حاتم فقد كانوا ينتظرون على العتبة .

هب عبد الودود يحتضن هولو ويعنفه . وكانت عينا حُسْن أوجع تعنيفاً . إلاأنه ظل صامتاً ، ولم يكد يتكلم طوال الوقت . وكانت السماء تشتعل أحياناً ، كما لم يتناول غير لقمة من الصحن الوحيد الذي دبرت حُسْن لهم جميعاً .

منذ المساء أفسحت حُسْن في البيت لعدد من جاراتها الحوامل والمرضعات مع صغارهن ، ولعجوز مشلولة . أما هولو وعبد الودود فقد انتحيا يمين العتبة ، يتوسدان ما كورت حُسْن لكل منهما من ثياب . ولم يلبث عبد الودود أن استسلم إلى مايشبه الموت . وجفنا هولو أكبر حَزَناً منهما في الليلة الفائتة ، لايجرؤان على أن يغفلا عن الشام ، ولا على أن يدعا حجراً منها أو شجرة أو حمامة أو صبياً يبيت بعيداً . كان الجفنان طوال سيره منذ غادر الحفرة حتى المساء يتشربان المدينة الجريحة ، يدثرانها بالقلب الذي يضجّ الآن ، يود لو ينفجر ، مادام عاجزاً ووحيداً ، تلسعه بقايا الأشجار المكسرة والمدخنة ، يتعثر بالأسلاك الكهربائية المتهالكة ، تدور به روائح السكاكر المحروقة في سوق مدحت باشا ، تلسعه الأطراف الفاحمة والملطخة للكتب والأوراق في المسكية ، ومثلها ذوائب السجاد في الحميدية ، وكان الحبل الذي يحز جباه الحمالين ، يحزّ الآن جفني وفؤاد هولو التكلي ، والأشياء تنقل في سباق مع دمار البيوت والدكاكين ومع اللصوص ، والمصفحات تلاحقه حتى يقترب منه باب شرقي ، ويغدو مزروداً بالرصاص مثل أبواب الدكاكين وسقوف الأسواق ، يحتمي بوشم النساء اللواتي تكومن في ساحة تلو الساحة تلو الساحة ، يعصبن خروق روحه بعصباتهنّ الملونة ومزق ثيابهن الزرقاء والسوداء ، يرششن عليه مما علق منهن بغبار حوران والطرقات ، ويبتعدن مع أطفالهن ، فيضل وحيداً ، مشلوحاً على يمين هذه العتبة ، أو في قعر تلك الحفرة ، أو أمام ذلك الجامع ، والكلاب تحوم ، تتشمم الغطاء ، تزيح الغطاء عنه وعن عبد الودود ، كما كانت تفعل قبل أن تغيب الشمس بجثتي عسكريّين سنغاليّين ، فيطير الخوف بهولو من الكلاب ومن العسكريين ، ويسأل الله أن ينجيه هو أيضاً ، وليس عبد الودود الذي اختفى ، ولم يقع له على أثر حتى في عرنوس . بل إن سليم أفندي نفسه قد اختفى ، وخديجة ، ولم يبق بهولو إلا أن يلجأ الى

ظل الدلبة التي لم تنمْ ليلة عيد المولد ، ولكن ظل الدلبة كما الأرض كلها مغطى بقطعان المهجرين وأبقارهم وأغنامهم ، ولايجدي هولو أن يمد يده مستجدياً كما يمدون ، ولا أن يهرب كما هربوا ، ولايقدر على أن يغفو كما لعلهم يغفون ، على الرغم من أن الهدوء بات يلفّ المدينة ، والهواء قد سكن .

★★★

منذ ذلك النهار تعود على أن يدير ظهره لحُسْن والحاج حاتم والحارة وعبد الودود والمدبغة ، ويمشي . لقد صار لديه ما يشغله مع بعض من اختفى من عمال المدبغة من جماعة الشيخ ، ومع آخرين ممن كان يجهل من جيرانه أيضاً .

أما عبد الودود ، فيكفي هولو ، ويكفي نفسه منه قبل هولو ، أنه لايبخل على الثوار ، وإنْ ترك الحارة ، واشترى بيتاً في أقصى المهاجرين ، وأخذ يلهث خلف الجلود في القرى التي لازال الفرنسيون يدمرونها ، ويسوقون قطعانها وبشرها بعيداً .

تعود هولو في هذا الشتاء أن ينام مفتوح الجفنين ، يلملم ما تناثر في نهاره أو في ليلةٍ ما . كان يحضن الحاج حاتم ويتعجب من أن حُسْن قد حملت . لايكاد يصدق أن يوماً آخر قد انقضى دون أن يجد نفسه يحمل ابنه على صدره ، وحُسْن خلفه ، على رأسها صرة ، وفي كل من يديها صرة ، وفي بطنها صرة ، وهي تعجز عن اللحاق به ، تكاد تضيع وسط الزحام الذي رآه هذا المساء أو ذلك الضحى ، وقد سرى في حمى الشيخ حسن أن فرنسا سوف تقصف غداً ، فاندفع أهل الحمى مذعورين ، ساقوا الحمير وجروا العربات ، حملوا بوابير الكاز والقباقيب وجرار الزيت ، انحشروا في الحافلات نحو الشيخ محي الدين أو المهاجرين ، وملأوا السيارات التي لم تعد تنقل أحداً بين الشام وبغداد ، ولا بين الميدان والصالحية ، إذ أن فرنسا سبقت الشائعة ، وقصفت حين كان هولو لايزال في العامود ، فلجأ مع من لجأ إلى بيتٍ قريب ، وراح يبحث عن أصحابه وعن الجنرال الذي استقبلوه وهو عائد لتوه من شماتته بصلاح الدين الأيوبي . وشلت يد هولو عن نهب التحف والذهب ، بينما كانت أيدي لاجئين آخرين تثقب الجدران المرصعة لتنجو من النار ، وتفرّ بما امتلأت به ، هي وأطراف القنابيز .

لكل ليلة من لياليه كان مايسهدها ، يجري مرة خلف الحاج حاتم الذي ضاع بين الأرجل ، ينادي حُسْن التي ضاعت هي والولد الذي ستلد بعد شهور ، يضيق بالعينين

اللتين عرف أنهما لمسلم دحّه ، وهما تتقفيانه حين يقترب من دكان عبد الودود ، يلوي عن تحذير عبد الودود ، ويحض الدكاكين المجاورة كلها جهاراً على أن تتبرع للثوار ، يحملق في مسلم دحة الذي يتودد ويسأل عن عمر التكلي ، فيعلو صوته شاتماً الجواسيس ، ولكن مسلم دحّه يضحك ، ويثني على من يتجسّس للثوار في حمى الشيخ حسن ، في الميدان أو الشاغور ، في كل مكان من الشام ، وينصرف تاركاً هولو لغيظه وخوفه الدفين .

في لحظات انشراحه النادرة ، بعد أن يأوي إلى البيت ، كان يخرج الكراريس التي تقصّ سيرة هذا أو ذاك ممن يقودون الثوار . يقلب الصفحات تباعاً ، وهو يحكي للحاج حاتم مافيها ، دون أن تقف عيناه عند حرف ، فقد حفظ قبل أن يقرأ ، وزاد فيها يحفظ مرة بعد مرة ، وجعل الحاج حاتم يباغت مع الذين باغتوا القشلة الحميدية ، يكنسها من الذين احتلوها ، يعود إليها بعزيز اللباد ورفاقه ، سوى فياض العقدة الذي يتاجر بالسلاح ، بالأصالة أو بالنيابة . وفي ليلة أخرى ، ينطلق الحاج حاتم مع الذين لايراهم ولايسمع لهم مخفر الجسر صوتاً ، يباغت الرئيس الذي يهدد الثوار ويوعدهم ، أو يطير إلى قضبان سكة الحديد فيخلعها ، فهو مثل أبيه أدرى بها ، وهو مثل أمه ، يحلو له أن يقلب الكراس ، وإن كان لايفقه منه حرفاً ، تروعه السطور الدقيقة المتساوية ، وتجعله يجرب أن يحكيها هو ، فيطوي هولو الكراس قريراً ، ويأمر الولد وأمه بالنوم ، واعداً بالمزيد في ليلة قادمة .

كان هولو يشتري في الأيام الأخيرة تلك الكراريس من الصبيان الذي يجرون بها في الشوارع والأزقة ، منادين بأسماء الثوار ، يكتفون بما ينقدهم الشاري . وقد رأى منهم من يقع في قبضة الفرنسيين ، ورأى الفرنسيين يمزقون الكراريس ، وينهالون على الصبيان ضرباً . ولما روى للحاج حاتم ذلك ، رجاه أن يسمح له بالخروج غداً بما يخبيء الرف ، ليبيعه في الحارة ، وتشفّع بأمه ، مقسماً أنه لن يدع الفرنسيين يظفرون به ، لكن هولو إذ ذاك أمره وأمر حُسْن بالنوم .

كان البيت منذ مطلع الشتاء قد خلا من كثير من الأشياء التي استطاع شراءها قبل أن تندلع الثورة . فالغرامة التي فرضها الفرنسيون على الشام اضطرته إلى أن يبيع ، إلا أن حُسْن وزعت على حامدة ، وعلى سواها ممن غدون بلا رجل ولا بيت . ولمّا علم بذلك شكاها لعبد الودود ، الذي مدّ يده إلى جيبه قائلاً :

ـ هذا غلط ياحُسْن . كل نعجة معلقة بكرعوبها . هذه المرة أعاونكم أنا ، في المرة القادمة من يعاون ؟ حتى أنا ماعدت أقدر أدفع كما كنت أدفع ، لا لهولو ولا لغيره . المدبغة

ماعادت تدرّ ربع ماكانت تدره ، والثورة طالت ، والنصر ماله علامة ، وفرنسا لاتخرج حتى لو دمرت الشام شبراً شبراً . اصحوا ياناس .

لم يشأ هولو أن يرد ، على الرغم من امتعاضه الذي لم يخف على عبد الودود ، ولا على حُسْن . وفي تلك الليلة أسهده عبد الودود ، والمبلغ الذي رفض أن يعدّه ديناً ، والمختار الذي يتهدد من تأخر من الحارة في دفع الغرامة ، وما بات يشيع في المدينة كلها عن الثورة التي طالت ، والنصر الذي ينأى ، وفرنسا القادرة والمقيمة .

وعندما خفض عبد الودود أجره إلى النصف ، لم يشأ أن يرد أيضاً ، ليس لأن المدبغة لا تدر ، أو لأنه عاجز عن أي رد ، بل لأن عبد الودود مازال يتبرع بسخاء للثوار ، ويجعل هولو كلما التقى بأحدهم يرفع رأسه عالياً بمن كان صهره ، ولا يزال صديقه ، مهما صدر عنه ، بينما يذلّه شقيقه أمام نفسه وأمام الآخرين . ولا ريب أن ذلك ماجعله يلفظ تلك الكلمة التي ماتزال تسهده ، على الرغم من بعد العهد بها ، حين همس مخاطباً طه اليتيم :

ـ اقتله .

★★★

كانت ليلة ماطرة وهادئة ، عاد فيها هولو متأخراً ، يحمل عدداً من الصور التي صار الصبيان يبيعونها لمن أعدم الفرنسيون من الثوار . إلا أن الحاج حاتم كان نائماً ، وحُسْن مالبثت أن أغفت ، بعد أن وضعت له العشاء وتصفحت الصور ، مترحمة على الشهداء .

أزاح هولو الطبق ، وأقبل على الصور ، فيما المطر يضاعف انصبابه ، حين طرق الباب أول مرة ، فشكّ هولو في سمعه ، لكن الطرق عاد أقوى ، وإذا بطه اليتيم يندفع مبللاً .

استيقظت حُسْن مذعورة ، وحارت في تجفيف ثياب طه الذي رفض أن يتعشى ، واكتفى بالشاي ، وبالنزر عن غيابه ، ثم قال فجأة :

ـ رأس عمر مطلوب يا هولو . عليّ أن أبرىء ذمتي أمام الله وأمام الثوار ، وأمامك . أنت واحد منا ، وماتقدر عليه قمت به . أما عمر ، ماذا أقول لك ؟ تعرفه مثلي . تعرفه مثلنا جميعاً . سمعت بخطفه للغوطة ، أكيد . كانوا قادرين على قتله . حذرته مرة ،

ومرتين ، ولازال حتى اليوم يلعب بذيله . وفوق كل ما بينه وبين الفرنسيين ، صار يرفض الضريبة التي فرضها الثوار عليه . اليوم أذيته زادت وماعدنا نريد منه لا ضريبة ولا غيرها . عمر فضحني للفرنسيين ولجواسيسهم . أنا لاأنسى الخبز والملح ، لا أنسى أنه أخوك ، ولكن ماعاد قدامي غير أن أدافع عن نفسي . الثوار يحملوني اليوم جريرته . يقولون أنت حميته لأنه صاحبك . كان هدفاً سهلاً عليهم ، اليوم صار الفرنسيون يحمونه في الليل وفي النهار . تعرف أم لا ؟ الجد جد والهزل هزل . القبضاي قبضاي والحريمة ريمة . والخائن ما جزاؤه إذا رفض التوبة وركب رأسه ؟

قال هولو بعد صمت طال حتى قطعته نحنحة طه :

- اقتله .

انصرف طه دون وداع ، وحُسْن تبكي منكرة على الشقيق أن يرخص بدم شقيقه ، وعلى عمر خيانته ، وعلى الدنيا ما ترمي به هذا البيت الفقير كل حين . أما هولو فقد لبث صامتاً ، يفكر في اخوته الذين طال غيابه عنهم هذا الشتاء ، وفي القبور التي قد يكون هذا المطر أغرقها ، وكان طه اليتيم يبدو له ، حيناً ، واحداً من أولاء الاخوة أو من تلك القبور ، لا يَعْقل أنْ يكون قاتلاً ، فهو من الحرزة أيضاً ، وإنْ كانت أمه قد ولدته في وادٍ آخر ، ولعله من أغلق الحرزة على الفرنسيين لأسابيع ، كما أغلق ذلك الوادي لشهور ، لماذا لم تكتب قصته ، ولم يبعها الصبيان ؟ لماذا لم يعدمه الفرنسيون ، ولم تكن صورته في هذه الكومة من الصور ؟

عادت حُسْن إلى نومها بعد قليل أو كثير ، متأسية بما ألفت من صمت هولو وسهره منذ شهور ، وهو يهيء للحاج حاتم حكاية طه اليتيم ، فهذا ثائر آخر بلا كراس ولا صورة . ليس كلباً لعمر التكلي ولا ذراعاً ، كما حسب الكثيرون . ولا بد أن يحدث هولو في لقائهما القادم بما فعل في الوادي أو في سواه ، حتى لايحكي الحكاية على هواه ، هو أو ابنه ، ولا بد أن يختفي عمر التكلي من الحكاية ، حتى لايكذب هولو على الحاج حاتم .

أما طه اليتيم ، فقد انسلّ من البيت ، يرجو المطر ألا يهدأ حتى ينتهي مما عليه أن يؤديه الليلة . ولم يكن البيت الآخر الذي يقصده بعيداً .

كان طه مَنْ سلّم الحاخام إنذار الثوار . فالثورة بحاجة إلى المال ، والتبرعات لاتغني . وعلى الحاخام أن يدفع ثلاثمائة ليرة ذهبية ، ولا يهم إن كان قلبه مع الشام أو مع أعدائها . على الذين يكنزون أن يدفعوا ، سواء أوفت التبرعات بالحاجة أم لم تف . إلا أن الحاخام سلم الإنذار للفرنسيين ، فخصوه بستة من الجنود . وصار هو وذهبه هدفاً

عسيراً آخر ، بعد عمر التكلي ، إلا أن طه الذي قرر أن يقتص من عمر ، سواء أأذن له هولو أم لم يأذن ، كان قد عزم الليلة على أن ينتهي من الحاخام ، مؤجلاً عمر التكلي إلى ليلة أخرى . فهبط على بيت سارة من السطح ، وتخلّق جنياً ، تتعرى أمامه أذرع سارة وأمها ، فأدار الجني رأسه ، يأمر المرأتين أن تسترا جسديهما . ولكن سارة صاحت :

ـ طه اليتيم ؟ هذا أنت . هذا صوتك وهذه أصابعك . ما عرفت كيف تتخفى . وهذا الشرف كله جديد عليك . صرت تأمر بالستر ؟

دفعتها بندقية الجني ، وهو يهمس :

ـ لا ترفعي صوتك وإلا أفرغتها ببطنك وبطن أمك . الله تاب علينا . الثورة تابت علينا .

ثم أمرها أن تأتي بالذهب فقط ، ليرات كان أم عقداً أم قرطاً أم سوارة أم خاتماً ، لايهم ، وحملها سلاماً حاراً للحاخام وحرسه ، ولعمر التكلي الذي كان يغدق عليها الهدايا الذهبية ، ثم كمّ فمها وفم أمها ، وقيّدهما إلى السرير ، واختفى .

إثر ذلك ما عاد له من عمر مفرّ . وكان هولو قد غرق في الأيام التالية في آثار عمر ، فهاله أن يتناقل الناس أنه من دبر مع ضابط فرنسي نهب البنادق في القلعة ، أو أنهما من دبرا نهب مالم ينهبه الثوار منها ، ولعل ذلك مامكن ابن التكلي ، صاحب الصيت الذائع ، من أن يبيع البنادق بأرخص سعر ، فيما الحكومة تسعى مسعورة إلى جمعها . والبندقية التي تُسلّم ، أياً كانت ، تعفي صاحبها ، وصاحب صاحبها ، حتى من حبل المشنقة .

كان عليه أن يدبر الآن مثل سواه بندقية . والبندقية الرخيصة تساوي عشر ليرات ذهبية . وعبد الودود يتجاهل ما يلمح إليه ، والمختار يهدد ويتوعد ، وهولو يغلي كما الحارة ، كما الشام كلها ، وإذا بطه اليتيم ثانية .

قبل أن يجلس كانت عينا هولو تسألان أو تتهمان ، وكان صوت حُسْن يرجف :

ـ إياك أن تكون قد فعلتها .

قال طه :

ـ إذا لم أفعلها أنا فعلها غيري .

قال هولو :

ـ خلّ غيرك إذن .

قال طه :

ـ من أجل هذا ينقط الهم من جبينك ؟

قال هولو :

ـ لا . من أجل الغرامة الجديدة . من أجل البندقية . أنت تعرف .

سأل طه مستنكراً :

ـ ذهبت إليه ؟

هز هولو رأسه دون أن يرد . سأل طه :

ـ كم معك ؟

تبسم هولو ولم يرد . سأل طه :

ـ طلبت من عبد الودود ؟

ـ اتركنا من عبد الودود . حملنا أول مرة ، يكفيه .

ـ وسليم أفندي ؟

ـ لم يخطر ببالي . معقول يردني خائباً ؟

قال طه :

ـ اذهب إليه . ومنه اذهب إلى درب النجا ، تجد راغب الناصح . نسيت هذا الاسم ؟ آخر من طلع في سوق السلاح . سلم لي عليه وقل له : بندقية لطه ، وهذا ما معي . حتى لو ما كان معك فرنك يعطيك .

ـ راغب الناصح يتاجر بالسلاح ؟

ـ راغب جاء من الفرات بقافلة تكفي حمولتها لتسليح الشام .

ـ عجيبة يادنيا !

ـ ابن آدم هو العجيب يا هولو .

ـ والقافلة كلها لراغب الناصح ؟ علمي وعلمك انه ابن الجولان ، لا ابن الفرات .

ـ صار واحد من رجال الأمير دشاش . معه هنا ثلاثة من العبيد . صار داهية . ما باع قطعة سلاح واحدة حتى اتصل بنا . كيف أمسك برأس الخيط ؟ الله أعلم . لا يريد مشاكل وليس طماعاً . قال : الناس ستشتري السلاح وتسلمه للحكومة ، رضيتم أم زعلتم . إذا كان قلبكم عليهم فساعدوني . والحكومة وفرنسا كلها تحت إبطي . أنا أبيع البندقية بنصف السعر . لا أحد يقدر على سعري . ومن توصوني به أبيعه بربع السعر . الداهية حيّرنا . فينا من فكر أنه يضحك علينا ، أو يهددنا ، أو يرشونا ، ولكن الكلام

المعقول ما عليه ردّ . قال : حمولتي كلها سلاح عتيق ، وخلّ عمر التلكي وغيره ينطحوا رأسهم بالصخر .

- تراه يعرِف كل شيء اذن .

- يعرف أكثر منا كلنا . حتى شغل فياض العقدة في حمص يعرفه .

- كلهم عجبتهم هذه التجارة ؟ يا حيف عليك يازمن .

- الشهادة لله أنه شهم . ما أوصيته بواحد إلا وأكرمه . ومعك أنت سيكون أكرم ، إلا إذا ظنّك مع عمر . على كل حال أنا مسئول عن سلاحك ياهولو . نحن اخوة .

وانصرف من دون وداع ، فيما حُسْن تفتح ذراعيها وتنشد له من السماء السلامة .

★★★

الأمير دشاش بنفسه شفع لراغب الناصح ، وسرعان ما فعل ، فقفل راغب إلى الجولان شامخاً ، غير آبه بما تبدل في غيابه ، إذ سُرح الفرنسيون الشاويش كما طلب ، وكبر ناصح ورجب ، واختفى قاسم السعد ونور الدين ابن أم نور الدين ، وورث الأمير مدحل أباه الذي توفي قبل عودة راغب .

من عين آدم طار إلى دهيبة ، لايحمل بشرى الشفاعة التي لا تردّ وحسب ، بل يعلن أنه سيأتي لدهيبة بعبدة تخدمها ، كما تخدم العبدات الشيخات ، ويلعن عمر التكلي . ثم طار إلى الجولان . إلا أن الجولان ضاقت به بعد قليل ، والحنين إلى عين آدم أخذ ينغل في الحنايا ، وما كاده ثمة بحذق وبراعة شرع يلحف عليه ، فيمّم شطر الفرات قبل أن ينقضي ذلك الصيف ، ملوحاً لزوجاته الثلاث اللواتي حملن تباعاً .

قد يكون ياسين الحلو هو الذي أيقظ في راغب الكيد . قد يكون الأمير دشاش نفسه ، أو شعيلة ، أو ما قدّر راغب من ضحكة الدنيا العريضة له . هكذا ، لم يغادر عين آدم حتى غدا ألصق بالأمير من كثيرين ، وخلّف وراءه ماينتظره من عملٍ ما لو شاء ، واستسلام شعيلة ، مادام حمود قد اختفى ، وهدا الحرّ الذي يسطع نجمه في المضارب ، يريدها زوجة رابعة .

كان ياسين الحلو لا يفتأ يرسم لنفسه ولهند سبيل الانتقام من خسّة راغب الناصح . إلا أن الأمير أهمل ياسين ، وبدا أنّه يحلّ راغباً محلّه ، وإنْ كان لايكلفه بأمر كذلك رأى ياسين نفسه يتطامن شهراً بعد شهر ، لا ينشد إلا أن يستعيد رضا الأمير

حتى إذا أكد له راغب قبل أن يغادر أن حمود لم يقتل ، بل أهدي إلى صادق آغا الباعا ، أعلن لنفسه ولهند الاستسلام . فهو لم يخسر حمود ، والأمير ، بل تلدفّ أيضاً .

أما الأمير نفسه ، فقد أدهشه هذا اللاجىء الذي لم يكد يتعود عليه في مجلسه ، حين تجرأ مرة على أنْ يخاطبه :

ـ يا طويل العمر : للغرب وللجنوب ظلك مبسوط ودائم . للشمال قامت دولة وحدود ، ما لنا وما لها ؟ ولكن الشرق يا طويل العمر ، لا أحد يلتفت إليه . صحيح أني غريب . ويجوز غربتي ذكرتني بهذا . يجوز أني جاهل بهذه الديار ، ولكن سورية ثانية كما فهمت من كلمة هنا وكلمة هناك ، خلف ظهرنا ، من هنا إلى الموصل . وهذا هو الوقت المناسب .

كانت إيطاليا قد أنفذت إلى عين آدم منذ أيام من يقلد الأمير دشاش وسام التاج . وقد تردد أنها فعلت عرفاناً بما صنع الأمير ، حين أعاد إليها واحداً أو أكثر من طياريها الذين سقطوا في مكان ما على جانبي الحدود . بل إن الأمير قد حمّل الطيارين أموالاً وهدايا . وقد فكر راغب الناصح وهو يرى الإيطاليين والفرنسيين والوسام والذبائح أن الأمير دشاش ليس مثل سواه من الأمراء والشيوخ . إنه أشبه بالملوك الذين يسمع بأسمائهم ويردد حكاياهم ، من بريطانيا إلى العراق أو مصر . إنه أشبه بواحد من قواد الجيوش وهو ينطلق بالبويك المكشوفة ، وخلفه عبدان ورشاشان ، فلماذا يظل محصوراً بين الحدود التركية والبادية ؟ بين الفرات وحلب ؟ ولئن كان ثمة سواه من القادة أو الرؤساء أو الملوك ، فذاك هو الشرق المفتوح الذي بات راغب يعلم أنْ ليس فيه سوى الشيوخ والأمراء . ولعل اللحظة المواتية قد أزفت مع الوسام . بل إنها قد أزفت حقاً ، مادامت عينا الأمير قد اتسعتا ولمعتا وذهبتا بعيداً ، وهما معلقتان بشفتي راغب الرطبتين اللينتين .

أفاق الأمير من دهشته ، وأمر راغب أن يستعدّ للسفر إلى الجولان مع ما يليق بذهيبة ، ثم يعود إلى ما يخبىء له في عين آدم . وفي الأسبوع الذي تلا ، قبل أن يحتضنه الأمير مودعاً ، كان قد ألمح إلى شعيلة ، والهدايا التي على أحد أن يحملها إلى الشرق ، والسيارات المسلّحة التي قد تعقب الهدايا ، بدلاً من الخيول والسيوف ، كما هو الأمر في الدنيا الواسعة ، وبين الدول الكبيرة والصغيرة : مهابة وجيرة طيبة ، أو إنها الحرب ، فزمن الغزو قد ولّى .

كان لسانه يلغو ، وخياله يتقد ، والأمير يتبسم ويؤيد . ولئن جعله الغياب في الجولان يتخفف قليلاً أو كثيراً من ذلك ، شأن الأمير دشاش ، إلا أن عودته السريعة لوحت بذلك الشرق أقوى وأغوى ، فبادره الأمير وهو يحضنه مهنئاً بالسلامة :

ـ جاهز يا ابن الناصح ؟

ـ جاهز يا طويل العمر .

ـ خذ من ترى معك ، وحمّل ما ترى ، ولا تترك غيبتك تطول .

ـ أمرك يا طويل العمر .

قال راغب بودّ ، لا بخضوع ، وجلس حيث أشار الأمير ، إلى يمينه ، يرد تحية الحاضرين ، فيما كان الأمير يسأله :

ـ احك لنا عن غيبتك . أخبارك وأخبار الديار .

★★★

المحطة الأولى لموكب راغب كانت في رأس العين ، على النبع ، حيث اختار السائق الأرمني ، محذراً من مياه الخابور التي أودت بالكثيرين من الشاشان أول نزولهم ثمة .

قال راغب وهو يترجل من السيارة الأمامية ، ويحث السائق الآخر والعبدين في السيارة الخلفية على النزول :

ـ واحدة جديدة من خراريفك ؟ دوختني من عين آدم حتى هنا !

ونادى الآخرين :

ـ تعالوا اسمعوا .

قال السائق الآخر وهو يومىء إلى ثلاث من النساء الواقفات على الضفة :

ـ احزروا ، من هي البكر ومن لها رجل ؟

قهقه راغب فيما أسرع أكبر العبدين :

ـ المحجّبة هي البكر .

سأل راغب :

ـ وكيف عرفت يا فهيم ؟

وقهقه ثانية . قال العبد متباهياً :

ـ أعرف هذه الأرض من أيام الأتراك وأعرف أهلها . البكر لاتكشف وجهها .

قال راغب متعجباً :

ـ عكس الشراكسة !

خاطب العبد السائق الأرمني :

ـ لو تعرف ما عملوا بجماعتك أيام الأتراك . كانوا يسوقونهم ويموتون مثلهم بالحمى . عفوك يا رب .

سأل راغب وهو يتهيأ للقاء عدد من الرجال الذين اقتربوا :

ـ كيف كان ذلك ؟

أخفض العبد صوته :

ـ تطوعوا مع الأتراك ولبسوا البذلة . ويمكن مات منهم في الحمى بعدد من مات من هذا ومن هذا .

وأومأت عيناه الضيقتان إلى النهر وإلى الفضاء ، فيما كانت النسائم تخز أنوف الآخرين برائحة كبريتية ، وعينا راغب تدققان في وجوه القادمين الذين أدهشهم هذا الموكب ، والسائق الأرمني يهمس في اذنه :

ـ صدقتني ؟ أنا لاأحكي خراريف. اسألهم كم مات منهم فوق هذا وذاك بسبب شمّر؟ بسبب الملّي ؟ ما خلصوا ، لا من عرب ، ولا من أكراد . ويوم مشي الأتراك من هنا وجاءت فرنسا كم مات منهم بين الطرفين ؟

هلل القادمون بحذر لم يخف على راغب ، كما نغّص عليه ما أولم له ، ونومه ، فلم يستطع أن يحدث الذين تحلقوا حوله كما أضمر لكل محطة من محطات رحلته العتيدة ، وإن كان قد ذكر مراراً الأمير دشاش وفرنسا وإيطاليا ، وربما تركيا . استيقظ مراراً قبل أن تبزغ الشمس ، فينهض متعجلاً ركبه ، والمضيف يتمهلهم حتى يفطروا ، كما يليق برجال الأمير ، وبالمسافرين بعيداً ، ويكرر الشكر على البندقية الجديدة التي خصّه بها راغب .

★★★

المحطة التالية كانت كما أشار السائق الأرمني أيضاً في عامودة ، ثم كانت كما أشار العبد العجوز في الدرباسية . يوم هنا ، ويوم هناك ، وقد طال نزول راغب في هذه

المحطة أكثر مما قدر ، كما أهدى من البنادق الجديدة أكثر مما قدر ، وهو يتوه بين العشائر ، ويكتم عجبه وضحكه من اللكنة الكردية الطاغية .

ابتدأ بالملّي ، ولم يميز كما نصح العبد العجوز بين من هلل لفرنسا ، ومن وقف ضدها . كما لم يميز بين اليزيدي منها وبين سواه . ولعل الأمر كان أهون عليه مع الكيكية في الدرباسية ، أو مع المرسينية والكابار والدقورية حول عامودة . وحين غادر أخيراً كان يزدهي بما فعل ، خاصة أنه قفز مثل البهلوان فوق الخصومات بين الملي والكيكية ، وبات أقدر على أن يقفز فيما ينتظره من فسيفساء البشر ومنازعاتهم في المحطة القادمة من ذلك الشرق الذي لاينتهي .

ها هنا ما عاد للعبد العجوز ولا للسائق الأرمني ما يفيضان به ويتبارزان ، على الرغم من أن راغب مافتىء يستفزهما ، وهو يدور بموكبه من مكان إلى مكان ، يختار المبيت لأمر ما في القامشلي ، يخصّ شيخ الأليان ببندقيتين ، بعد أن علم بما فعل ضد الأتراك ، وما فعل الأتراك به وبعشيرته وقريته ، حتى لجوئه إلى هذا المكان الذي بعثت فيه الحدود الحياة . وفي المبيت التالي في قبور البيض ، أهدى راغب ثلاثاً من القنابل فقط ، لأن الآغا قد ثار ضد فرنسا ، كما ثار بالأمس غير البعيد ضد تركيا ، ولأن الشتات قد تضاعف براغب بين السريان والأكراد والمسيحيين واليزيديين والعرب والمسلمين . ولعل ذلك خاصة ما جعله يلوي العنان جنوباً ، على الرغم من أن الشرق القصيّ مازال يومىء .

حمولة السيارة الخلفية من السلاح كانت قد خفّت ، والعيون الجامدة أو المشككة فيما يفعل باسم الأمير دشاش أخذت تتكاثر ، سواء أكانت عيون الشيوخ أم العبيد المسلّحين بالبنادق العتيقة ، وأحياناً بالنوابيت . كما كان التخلّص من الهدايا التي بادر بها بعضهم يصعب عليه . ولكن ذلك كله كان هيناً إزاء ما لاقى وهو يقترب من الحسكة ، ثم يبتعد عنها نحو الدير .

★★★

في مضارب الجبور كان عليه أن يمشي على الصراط بين ولدي الأمير الذي توفّي بعيد وصول فرنسا ، فتنازعا الإرث ، وتنازعت العشيرة خلفهما . وفي مضارب شمّر كان عليه أن يمشي على الصراط بين الانكليز والفرنسيين . ولم يكن ظل الأتراك بعيداً . هاهنا

أخذ الشتات يورثه الوهن ، والسائق الأرمني يحذره من المرض ، وهو يعينه في خلوتهما قبل النوم على أن يصوغ بعض ما يعيش ، ويرى أميراً يقاوم الانكليز وآخر يقاوم فرنسا . أو يرى الأمير نفسه يقاوم الانكليز والفرنسيين ، وينصر الأتراك والألمان ، إلا أنهم جميعاً يغضبون ، يهاجمون ، ويعزلون ، وينصبون ابن العم بدلاً من ابن عمه ، ويتوزعون العشيرة على جانبي الحدود التي يرسمون شرقاً ، شأن العشائر التي وزعتها الحدود الأخرى شمالاً ، ليغدو الشمّري مرة عراقياً ومرة سورياً ، أو ليغدو القيسي مرة تركياً ومرة سورياً ، ولم يكن الأمر أيسر لدى الشرابيّين ، على الرغم من فقرهم ، وعلى الرغم من أنهم لا يفوتون ركعة ، حتى لو كان واحدهم يسرق حين تدركه الصلاة ، وعلى الرغم من أنهم أيضاً ينتسبون إلى حليمة السعدية نفسها ، مادامت نساؤهم ترضع أطفال العشائر ، ويمكن لواحدة منهن أن ترضع الأطفال الثلاثة الذين ينتظر راغب الناصح أن تلدهن زوجاته الثلاث في الطرف الآخر من سورية .

إلى جوار الطويجي وقع مريضاً . عافت نفسه الطعام وشحب لونه ، وظل عسيراً عليه ليومين أن يتغوط . وفي يومه الثالث ، حين بدأ يبلّ ، لهج فؤاده بالدعاء للطويجي المقدس الذي رأف به كما يجزم من حوله ، وإنْ ظل عاجزاً عن أن يوفق بين إيمان أولاء وبين ما صدعوه به من مآثر سلبهم وقتلهم ، حتى لو كان الخصم ذلك اليزيدي الذي يعبد الطاووس كما يقولون .

قبل أن يسبق الآخرين في يومه الرابع إلى النهوض ، ويقسم مثل الشرابيّين بالطويجي على أن يتابع ومن معه سيرهم ، كان الزهد بكل ما أتى قد بدأ يناوشه ، وهو الذي كان يحسب أن الأمير دشاش وحده من بين الأمراء من يخلق بالجهات جميعاً أن تدين له ، كما كان يحسب وهو فتى أن الأمير جهجاه في الجولان سيد الأمراء جميعاً ، فإذا به هنا في حمى أمير فاز بالباشوية ذات يوم ، أو أمير زار بيروت أيضاً ، كما الأمير دشاش ، وتحدى أكبر جنرال فرنسي ، كما تحدى هو نفسه ، أو أمير آخر ، أكبر جنرال انكليزي ، ولم يؤخذ أغلب من صادف هنا ببنادقه الجديدة ، وإنْ هشّوا للهدية ، وباركوا صاحبها وحاملها ، ملوحين أيضاً بما لديهم من بنادق وقنابل جديدة ، لا تشبه ما يحمل راغب .

قبيل الدير استوقفه الفرنسيون سحابة النهار بسبب ما بقي في سيارته من البنادق والقنابل . أغلظ له الضابط ، بعد العساكر ، ولم يحمه ومن معه الأمير دشاش حتى العصر ، إذ سمح له أن يتابع بمرافقة اثنين من العساكر ، وحرّم عليه أن يوزع بندقية أو قنبلة .

من العسكريين ، ومن الخان الذي باتوا فيه جميعاً ، أدرك سرّ ما فع الفرنسيون ، دون أن يغادره غيظه ، أو تبهت دهشته ، وينسى خوفه . قال العسكري إنّ البدو هاجموا سيارة للضباط ، وقتلوا من فيها ، ثم ألقوهم في البئر . ولكن فرنسا ألقت القبض على المجرمين ، وأعدمت عدداً منهم ، ثم رأفت بالباقين ، فنفتهم إلى دولة العلويين ، أو إلى لبنان ، على البحر .

كان السائق الأرمني يترجم لراغب ، ويرطن أحياناً بالفرنسية ، وراغب يضاعف حذره ، ويلجأ إلى الصمت ، حتى في الخان ، حيث أفاض بعض النزلاء وصاحب الخان بما فعل الثوار من العقيدات ضد فرنسا ، هنا في الدير ، أم أبعد إلى الشرق ، في الميادين أو في البوكمال . وكان صاحب الخان خاصة لايفتأ يذكر بما فعلت العقيدات وسواها ضد فرنسا منذ سنوات ، حين رفضت العشائر الضرائب ، ورحّلت النساء والأولاد والعاجزين والحلال إلى الشامية ، وأخذت تصطاد الفرنسيين . ولم يكن راغب قادراً على أن يصدق أن الثوار لم يستسلموا ، حتى قصفتهم الطائرات الفرنسية ، والمدافع ، من هنا ، إلى مصب الخابور ، كما فعلت منذ أيام ، ولكن أبعد ، إلى الشرق .

أصرّ العسكريان على أن يتعشّيا ويبيتا في سيارة راغب . ولعل ذلك ما أفسح للسهر أن يطول ، فزاد رهق راغب ، وعاوده المرض في الليل ، وظل يتردى من بعد ، طوال الطريق إلى عين آدم ، فلم يتمكن أن يمثل بين يدي الأمير حتى المساء الثالث لوصوله . وقد بدا بالغ الهزال ، عاجزاً عن أن يحدث كما كان يأمل ، أو كما كان الأمير نفسه ينتظر ، ومالبث الجميع أن انصرفوا عنه الى ماهو أهم .

كان الأمير بنفسه قد قاد رتلاً من السيارات التي أُركز فوق كل منها رشاش أو اثنان ، وعجت بالمسلّحين ، وانطلقت شمالاً ، حين كان راغب يتوقف في الشرق ، ويدير ظهره للقامشلي أو لقبور البيض .

إنها الغزوة الأولى للأمير دشاش منذ سنوات . وهي الغزوة الأولى له بالسيارات على كل حال . فقد تجرأت قيس على الحمى . تجاوزت الحدود ونهبت الأغنام والبيوت ، وقتلت ثلاثة من العبيد ، ولكن الأمير ردّ قبل أن تغيب شمس ذلك النهار .

من عين آدم انطلق رتل السيارات عصراً ، وفي خراب القرية المغزوّة أمر الأمير بالتربص ـ لا المبيت ـ حتى الفجر ، ثم اندفع الرتل عابراً الحدود ، وفعلت الرشاشات

والبنادق والسيارات في ساعة ما لم تفعله السيوف والرماح والخيول في أيام . إنها غزوة بغزوات ، كما يردد الأمير ، ويؤكد من حوله ، وراغب يهز رأسه ، ويتمتم ، حائراً فيما إذا كان من الأفضل له أن الغزوة كانت في غيابه ، على الرغم من أن أحداً لم يقتل أو يجرح من الرتل .

كان إعياؤه يعجزه عن أن يشارك في اللغط المفاخر والمتوعد ، ثم يعجزه عن أن يتابع ما ترميه الألسن التي تحنّ على كل حال إلى غبار الخيل ، أو تتخوف مما قد تفعل السيارات بالجمال والخيول ، ثم تطمئن على الأغنام التي لاتغني عن حليبها أو صوفها أو لحمها البويك ولا الفورد . بيد أن راغب كان حريصاً على أن يتابع لسان الأمير الذي بات يفسح للآخرين أطول ، قبل أن يقول :

ـ من بكرة تجمعون السلاح العتيق كله . ما عادت لنا حاجة به .

همهم الرجال ، فسُمِع صوت راغب بالكاد يسأل :

ـ تلعّبون به عيالكم .

هدر الأمير ضاحكاً ، ثم سأل مقاطعاً ضحك الرجال وصخبهم :

ـ عندك مشورة يا راغب ؟

أجفله السؤال والصمت ، وقال متحاملاً على ضعفه :

ـ نصرّفه ، طال عمرك . السلاح هذه الأيام مثل الذهب . من حدود العراق إلى حدود فلسطين .

صاح به الأمير :

ـ آه منك يا ابن الناصح ! والله صدقت .

تبسّم راغب ، واستطاع أن يبلع ريقه ، والأمير يستحثّه ، وجاء صوته أقوى :

ـ شرط أن لا ننسى الفرنسيين هذه المرة ..

ـ هذه غلطتك يا راغب ، وغلطة الشاطر بألف . تولّ تصريف السلاح وذنبك على جنبك . قبل رجوعك وصلني الخبر بما جرى بينك وبينهم . كيف تفوتك هذه ؟ المهم : أريدك هذه المرة أن تكون قدّ الحمل ، لاتقض لي الوقت بين المرض والمخافر وغيرها . قبل ماتخطو رتب كل شيء ، وبعدها توكل على الله .

قال الأمير ، وراغب مطأطىء ، فلم يلحظ حركة الأمير الأخيرة التي جعلت الرجال ينهضون مودّعين . وربما كان ساهماً يقرع نفسه على مرضه ، وعلى اخطاء ارتكبها

أو لم يرتكبها في ذلك الشرق ، فلا بد أن الأمير يعرف عنه ما لا يعرف هو ، أياً كان ما نقل السائقان والعبدان وفرنسا نفسها . ولما نهض أخيراً ، وقد قلّ الرجال ، وكان عزمه كبيراً على أن يدفع المرض ، ويُري الأمير وسوى الأمير من ابن الناصح ، ما لم يروا من قبل .

★★★

25

تلاحقت على عمر التكلي المصائب ، فلا يكاد يصحو من واحدة حتى تُطيش به الأخرى ، على الرغم من أن انتصار الفرنسيين قد بات مؤكداً ، والخطر الذي تهدده منذ سنة على الأقل قد بدا أنه يولي ، كما بدا الأمان يعزز النجاح في الثراء الذي تضاعف ، والحظوة التي صارت له عند الفرنسيين ، وفي أي مكان يحلّ فيه .

الضربة التي أحكم في المريجانة وهو يضمر أن تكون آخر الضربات وأوجعها ، أفلتت منه في لحظتها الأخيرة . لقد تدفق الثوار من الجبل ، ومن سوار المدينة ، وهيأ الفرنسيون ، اعتماداً على ما أكده وأكدته عيونهم الأخرى ، كميناً هائلاً ، ولكن أغلب الثوار قد أفلت من الكمين ، واكتفى الفرنسيون بالمريجانة نفسها ، وكان الأمر مثل المعارك الأخرى ، يقتل الثوار من الفرنسيين ، ويقتل الفرنسيون منهم ، ويدمرون المكان ، ويهجرون أهله .

ومثلما شاع في المريجانة ذات يوم أن عمر التكلي هو الذي وشى بأخواله ، وتسبب في طردهم من المريجانة ، وفي انتصار أمير الحج عليهم ، سرعان ماشاع أنه من وشى فرنسيين بحشد الثوار فيها أو حولها ، ولم يتأخر اثر ذلك ظهور راغب الناصح .

بصحبة رغب هذه المرة كان ياسين الحلو ، وليس شقيق دهيبة . وراغب الناصح هذه المرة ليس مستجدياً ، ولا خاطفاً لزوجة ، ولا واحداً من رعية عمر التكلي . إنه واحد من رعية الأمر دشاش . كما أنّ الأمير مدخل سنده في الجولان ، وياسين الحلو يتبعه ، كما كان هو يتبع عمر التكلي . ولعل عمر ما كان لينشغل بذلك كله لولا أن راغب بادره غامزاً :

ـ جئت أشكرك على جميل العمر . صحيح أنك ما قصدته . ويمكن أنك قصدت عكسه ، ولكن أشهد أنك كنت السبب في هذا الذي أنعم الله به علي . لولاك ما تابعت

طريقي إلى الأمير دشاش . نسيت كيف خذلتني وما رميت لي ؟ والآن ، جاء دوري ، لأرد الجميل بجميلين . اطلب ياعمر وتمنّ . راغب الناصح يقدر على الذي لاتقدر عليه . وأنا مادخلت بيتك إلا بعد ما عرفت عنك كل كبيرة وصغيرة .

وقبل أن ينصرف راغب أردف ، تاركاً الغمز لياسين :

ـ بعد يومين أو ثلاثة يصل السلاح ونبدأ البيع . شغلنا على المكشوف ، وليس مثل شغل غيرنا . مع فرنسا ومع الثوار شغلنا على المكشوف . يجوز تأخرنا ، ولكن ، كرمى لك ، يهون . لو جئنا من الأول ، كان شغلك يوجع القلب ، ليس في الشام أو في حوران ، بل في حمص . ياسين يبدأ بعد يومين ثلاثة البيع في حمص ، وصاحبك راغب هنا . لو كنت مطرحك كنت أدور على تجارة أربح .

بعد انصرافهما فكر في أن يتحاشى راغب الناصح . تمنى أن ينساه ، فلا قبل له بالأمير دشاش . ولكنه أضمر أن يحفر لراغب ذات يوم آت ، لا ريب فيه ، هناك ، في عقر الأمير نفسه . ولئن هدأ ذلك من غيظه ، وخفّف من قلقه ، فقد داهم نومه ياسين الحلو ، إذ لن يقدر أيضاً على المواجهة في حمص . ولئن اتفق فياض وياسين فسيقع هو في خسارة فادحة . ولا بد أن راغب الناصح قد حبك ذلك جيداً . حتى لو لم يتفق فياض وياسين ، فالخسارة واقعة ، وهكذا ، انضاف إلى هم المريجانة ، هم جديد .

قبل أن يشتهر راغب الناصح في درب النجا ، هرع عمر إلى مسلم دحّة . لوّح بالمئات ، وفصّل فيما يعلم من أمر راغب ، قبل أن يقول :

ـ أنا أدسم من الفرنسيين يا مسلم ، ومع ذلك ، ما أريده لا يلهيك عن شغلك معهم . إذا ضرط راغب الناصح أريد أن أعرف . وما تأخذه من الفرنسيين في سنة تأخذه مني في شهر . امش الآن إلى درب النجا وابدأ .

ورمى المئات على الكرسي ثم انصرف .

وقبل أن ينقل إليه مسلم أول مرة ما حصّل عن راغب ، كان ما يخشاه في حمص قد تحقق ، إذْ كسر ياسين الحلو السعر ، كما فعل راغب في الشام ، وامتلأت السوق بالبنادق التي تباع بأقلّ مما اشترى عمر بكثير ، وانسحب فياض العقدة ، كما انسحب كثيرون ، في الشام وفي حمص .

لم يكن لدى مسلم ما يفيد ، فعنفه عمر وأمره بالانصراف ، دون أن يقدم له كأساً من الشاي ، وقضى ليلة مؤرقة أخرى ، يفكر في السعي إلى راغب ، ليغزل معه اتفاقاً

ما ، وربما كان قد استرق غفوة ، أو يلعن المريجانة التي حجزته دون حمص ، وجعلت الفرنسيين يحيطونه ثانية بمن يحميه ، عندما انطلق الرصاص داخل البيت ، ثم ملأ العفيف .

★★★

حين علم ياسين بما كلف الأمير دشاش به راغب الناصح ، ندم على أنه لم يزره في مرضه ، ومشى إليه مطأطئاً ، ومدارياً عيني هند . كان بين يدي راغب عدد من الرجال والعبيد ، ما لبث أن صرفهم ، وأقبل على ياسين ، كأنّ سوءاً لم يكن بينهما . وفي المساء تقدّمه إلى مجلس الأمير ، فأكبر الأمير شهامته ، وترك له أن يكلف ياسين بما يشاء .

ياسين هو الذي اقترح على راغب أن يكون البيع في حمص . ولعله فعل ذلك وهو يبحث في سره عن فرصة أخرى أو أخيرة ، تعيد إليه ما فقد لدى الأمير ، بعيداً عن راغب . وفي الوقت الطويل الذي انقضى ، قبل أن يكون لياسين ذلك ، بارك لراغب زواجه من شعيلة ، ورافقه إلى الجولان ، صديقاً وتابعاً ، وأصلح ما كاد راغب أن يخرّبه ، حين أعلن لدهيبة زواجه من العبدة التي ستخدمها ، فجنّت دهيبة ، وطلبت الطلاق ، وهمس ياسين في أذن أبيها :

ـ الأمير دشاش هو الذي زوجه . راغب طلع بحكاية عبدة لدهيبة ، وشعيلة عبدة وماهي بعبدة . والأمير يريد أن يربط راغب ولو بطرف خيط في عين آدم . الأمير لا غنى له اليوم عن راغب . وراغب لايهون عليه أن يحكي . ورأيي أن تبقى شعيلة بعيدة ، وتسكت دهيبة ، ولو شاءت أحضر لها راغب عبدة ثانية .

اثر ذلك ما عاد راغب يميز نفسه عن ياسين ، إلا أن ياسين هو الذي اختار أن يظل أبعد ، إلى الخلف ، أمام الناس على الأقلّ . وقد يكون ما تعرجت به صلتة براغب ، منذ صاح العبد حمود : قتلتني ، هو ما جعله يزيح فياض العقدة من سوق السلاح ، منذ أيامه الأولى في حمص ، غير آبه برجاء ولا بذكريات استثارها فياض ، مؤكداً على أن راغب الناصح الذي تزوج شعيلة هو من أمر ، وليس لياسين الحلو إلاّ أن ينفذ .

أما راغب ، فقد أغرقته سريعاً السوق . أنسته الأمير دشاش نفسه ، وليس دهيبة وشعيلة وأم ناصح وأم رجب وعمر التكلي وياسين الحلو ، والشاويش الذي ألحت عليه صبيحة كي يتوسط له لدى الفرنسيين ، ويأتيه بالعفو . كان يرى نفسه طائراً ، لا حرّاً

وحسب ، وهو مغمور بود الثوار وود الفرنسيين ، والذهب يتكوم أمامه ، فأنّى له أن يتذكر اذن هولو التكلي ، حين همس له العبد باسم من يريد أن يدخل ؟

كان هولو قد بكر في العودة من المدبغة إلى درب النجا ، فإذا بالناس يتزاحمون ، وعبدٌ يزجرهم ، وآخر يناول من يقف في رأسهم بندقية ، مما ألف هولو في الحرب . سأل عن راغب الناصح ، فأمعن فيه العبد ، قبل أن يدلف إلى الداخل ، ثم يعود شاتماً . اندفع هولو نحو العبد يشتم راغب الناصح وطه اليتيم ، فلاقاه العبد ، ولكن الناس حالوا بينهما ، حتى خرج راغب مذعوراً ، إذ لم يعل الصياح كذلك منذ بدأ البيع ، ولما رأى هولو شتم العبد ، وأمر الناس أن يفسحوا ، وتنحّى معتذراً .

أذهلت هولو كومة البنادق والكيس الأبيض الصغير الذي يشع الذهب من نسيجه الرقيق ، ولم يكن ثمة ما يجلس عليه ، بعد أن جلس راغب يكرر الاعتذار ، ويتناول الليرات الذهبية من العبد ، فيرميها في الكيس دون أن يعدها ، ثم يسأل مومئاً إلى الكومة :

ـ تريد واحدة ؟ خذ . طه هو الذي دلّك ؟ لا تقل : عمر . أنا أعرفك وأعرفه . ولكن أنت أولى من طه نفسه . خذ ماتريد . أين عبد الودود ؟ ألا يريد واحدة ؟

ترددت يد هولو وهي تتناول البندقية من العبد ، وتلعثم لسانه وهو يذكر الثمن ، ثم يشكر راغب الذي عدّ البندقية هدية ، ودعا هولو إلى العشاء في أوتيل فكتوريا نفسه ، ووعد حارة الشيخ حسن بزيارة قريبة ، ثم شتم العبد على إبطائه في الذهب .

ولعل هولو كان سيعود إلى درب النجا ، وراغب سيفي بوعده ، لولا أن الثوار هاجموا عمر في غرفة نومه ، كما شاع مصرع طه اليتيم في المدينة .

★★★

فجر ذلك اليوم أيقظ ابن الشيخ نظام هولو وحُسْن ، شأن الأيام السبعة والعشرين التي انقضت من رمضان ، وهو ينقر على طبلته ويصيح :

ـ قوم يابو الحاج قنبور . قوم لحق لك مشداق مشداقين . الصبح بجيبي ورايح دشّره .

تبسّم هولو ، ورمقت حُسْن ولديها وهي تدعو لابن الشيخ نظام الذي قرر هذا العام أن يحمل الطبلة ويوقظ الحارة في السحور ، بعد موت المسحّراتي واثنين من أولاده حين قصفت الطائرات المدينة .

كانت حُسْن لم تعدّ السحور بعد . عندما طُرق الباب ، وأسرع هولو مبسملاً ، فإذا بطه اليتيم ضاحكاً :

ـ سبقتموني ؟

قالت حُسْن وهي تحكم الغطاء على شعرها :

ـ بشربة ماء . أهلاً يا أخي .

قال هولو وهو يهيء لطه مطرحاً :

ـ شغلك اليوم قريب منا ؟ كثرت أشغالك عندنا يا طه .

زفر طه وهو يتربع :

ـ الأرمن يا هولو . دوخونا يا أخي .

دققت عينا هولو في ثياب طه ، ثم صفق كفّاً بكف هاتفاً :

ـ تعالي تفرجي يا حُسْن . كيف فاتني هذا ؟ طه اليتيم يلبس لباس الأرمني المتطوع مع الفرنسيين ؟ على ماذا نويت ؟ افرض أن واحداً من الثوار غلط وظنك . .

ـ في هذا لا أحد منا يغلط ، ومعي ثلاثة ، تركتهم في بيت ابن الشيخ نظام وجئتك . سمعت بنداء الثوار لهم ؟

ـ سمعت وقرأت . النداء ليس للأرمن . النداء للمسيحيين كلهم حتى يردعوا من تطوع من شباب الأرمن مع الفرنسيين . لماذا سألتني ؟

ـ وسمعت بمن قطع منهم أصابع النساء الميتات في العامود حتى يخلصوا منها الخواتم ؟

تعوذت حُسْن وقال هولو :

ـ اتركنا من هذا الكلام .

ـ الحق عليّ وعلى من غلط مثلي ، ومنع من كان يريد من الثوار أن يربيهم . بصدورنا حجزنا الثوار عنهم ، وقلنا : شباب وطيش وفرنسا الداهية . اليوم تصلك أخبارهم . يا رجل تجارهم هلكونا هذه الأيام . ما تركوا قطعة نهبها الفرنسي إلا اشتروها .

ـ ما تنوي يا طه ؟

ـ والله في المرجة نفسها ، وبثيابهم نفسها ، وأمام عين فرنسا نفسها ، أصطاد لك إياهم مثل العصافير .

ـ سمعت أن المتطوعين من الطاشناق وحدهم .

ـ طاشناق وغير طاشناق أنا لا أفهم . الكيل فاض يا هولو .

ـ وأين سلاحك ؟

ـ مع الشباب ، في بيت ابن الشيخ نظام . بارودة يا هولو ، تمجد ربّها .
ـ من أين لك ؟
ـ لا تسأل . بارودة جديدة مالها أخت في السوق . بارودة فرنسية . المغاربة يا هولو بيضوا الوجه هذه الأيام . تعرف من كشف كمين المريجانة ؟واحد منهم . صار منهم من يهرب من الفرنسيين ويلتحق بالثوار . ومن لا يلتحق يترك لنا سلاحه ورصاصه كأنه مهزوم ، وفرنسا الذكية تصدق .
ـ غيرك يشتمهم يا طه كما تشتم الأرمن .
ـ هذا غلط . فيهم رجال وأصحاب نخوة ، كأن الشام بلادهم . فرنسا آذتهم مثلنا .
ـ والأرمن مثل المغاربة يا طه . الشراكسة أنفسهم فيهم من لايصلّي على المتطوع مع الفرنسيين يوم يقتل . أنا أنبهك . أقرأ الشر في عينيك ، ولا أريدك أن تغلط ، ولا تترك غيرك يغلط .

قال هولو وهو يتناول طبق القش من جُسْن التي جاء صوتها راجياً :
ـ إياك من دم البريء يا أخي . أولاد الحلال أكثر من أولاد الحرام .
ثم بسملت ونوت الصيام ، وبهمسها اختلط همس طه وهولو .

★★★

أمضى هولو نهاره قلقاً في المدبغة ، خاصة بعد أن يئس من حضور عبد الودود ، وما قد يأتي به من أخبار المدينة ، وبعد أن أكد عابرون من جماعة الشيخ أن المرجة مشتعلة منذ الضحى .

في إيابه ، وفيما كان ينتظر قرب الجامع مع العديدين موعد الإفطار ، هاجمته الظنون في مصير طه ، مادام القتال لم يهدأ هذا النهار في المرجة ، ومادام عدد غير قليل من الثوار والفرنسيين والمتطوعين الأرمن معهم قد قتلوا أو جرحوا . ولما كان ابن الشيخ نظام يتهيأ للأذان اقترب من الجامع عدد من الأولاد يحفّون برجل غريب ، مالبث أن توقف منادياً هولو الذي تقدم مستعيناً بلغط الأولاد :
ـ أبو خضره . عمي هولو . عمي أبو خضرة .

قبل أن يتبين من يكون صاحب هذا الكرش ، وهذا الشعر القصير والثياب الملونة الفضفاضة ، ثم ينهر الأولاد ، وهو يحيّي الرجل ، ويمشي إلى جانبه نحو البيت ، مفتقداً أي شبه بين من فارق في رياق منذ سنين ، وبين أبو خضره .

لم يشارك أبو خضره في الإفطار ، فيما كان هولو يأكل ببطء ، وهو يسأل ضيفه عن بديع الطارة وزحلة ورياق ، ثم ينهض قبل أن يكمل رغيفه ، ويعدّ الشاي بنفسه ، وصدره يزداد انقباضاً ، فقد قضى بديع الطارة الشتاء بطوله في سجن الرمل ، وفقد عمله من جديد ، وحظّر عليه السفر لشهور ، ولكنه يتسلل أحياناً إلى حمص أو طرابلس ، غير آبه بصحته المتردية ، ولا بتحذير رفاقه له .

رويداً رويداً ، كان أبو خضرة في مداعبته للطفلين ، في صمته وارتشافه الصائت للشاي ، وفيما يقول ، يوقظ ما هجع في نفس هولو ، منذ شهور ، أو منذ سنين ، منذ غادر حيفا ، أو منذ فارق بديع الطارة للمرة الأخيرة . كذلك أخذت اسئلته تتدافع ، وأبو خضرة يزيده لهفة وغموضاً ، يجعله ينهر بولديه وبحُسْن ، كي يفسحوا له ، خاصة حين قال أبو خضرة :

ـ الشام انهزمت من جديد يا أخي . في حوران وجبلها انهزمت وكان ما كان . هنا كنت أعلم قبل حضوري أن النهاية قريبة .

قال هولو منكراً أو خائفاً :

ـ كيف يصح كلامك إذا كانت المرجة نفسها اليوم اشتعلت ؟

قال أبو خضرة :

ـ أعرف . ويمكن أن يكون غيرها الآن اشتعل ، ونحن نشرب الشاي هنا . ولكن هذا كله صار في الأيام الأخيرة مثل حلاوة الروح وهي تطلع ، البيت إذا كان عطله في الأساس ، مصيره معروف ومحتوم .

ـ وما العطل وما الأساس هنا ؟

ـ أنت أقرب مني ، وعليك أن تكون أدرى . أم أنك كنت تتفرج على الشام وهي تحترق ؟

ـ أنا ؟

بعسر وألم تابع هولو ، مستعيناً بحُسْن ، يلوح ببذلة فرنسية هرّبها من جامع الدقاق إلى جماعة الشيخ الدوماني ، أو بلقمة يقتطعها من فم الحاج حاتم وفرج الله ، أو ذهبية يحضّ عبد الودود على أن يدفعها ، أو كلمة يتسقطها من المرجة نفسها ، وينقلها إلى عابرين لابد أن يعبروا في المدبغة . ولعله ذكر الشام المحمولة على العنق ، أو أن حُسْن ذكرت ، قبل أن يتهدج صوته :

ـ ماذا يساوي هذا كله ؟ الحق معك .

قال أبو خضره مواسياً :

ـ الحق ليس معي . الحق علينا كلنا . حتى على من راحت عليهم . من الأساس توزع الثوار كما تعرف ، خاصة هنا . عصابة هنا وعصابة هناك . زعيم هنا وزعيم هناك . وفي سورية كلها : واحد درزي وواحد مسيحي وواحد مسلم وحزب هنا وحزب هناك . والقادر يدير ظهره وينشد عمّان أو القاهرة أو باريس ، ينجو برأسه وبماله وعياله وربما أصحابه ، ومن هناك يبيعنا الكلام مرة مثل القنبلة ومرة مثل العسل .

ـ بالأمس ما كانت الأمور هكذا .

ـ بالأمس كان النصر يلوح . كان الغبش أيضاً على عيوننا . وفوق هذا كله فرنسا اليوم ما عاد لها شغل غيرنا ، بعدما انتصرت على الثوار في المغرب ، وسحبت من جيوشها هناك ، وانفردت بنا .

كان الوقت يمضي سريعاً ، وقد انصرفت حُسْن إلى إعداد العشاء للضيف المسيحي الذي يصوم في وقت آخر ، كما ردد ضاحكاً ، وهو يقسم أنه غير جائع ، فيما أغفى الطفلان ، وأطرق هولو يفكر في أن هذا الرجل محيّر ، فبعد أن أقبض الفؤاد ، راح يلون الزمن الذي سوف يأتي ، وقد لايطول انتظاره ، إذ تثور الشام ثانية ، وثالثة ، وتثور المغرب ، تثور الأرض التي يقهرها الفرنسيون أو الانكليز ، وكل أرض مقهورة تثور ، ترسي أساساً مكيناً ، وتشيد بنياناً راسخاً . ولعل أبو خضرة قد عدّ قبل ذلك أو بعده الثورات التي خاضها الفلاحون ، والثورات التي خاضوها أو سيخوضونها مع العمال ، هنا أو في بقاع شتى من العالم الرحيب ، فمن دون ذلك سوف يكون النصر ناقصاً دوماً ، بل إن الفلاحين قد أخفقوا مرة بعد مرة ، وهاهم العمال قد بدأوا يتحركون : عمال التبغ أضربوا ، وفي حمص سبقهم على ذمة بديع الطارة عمال المحطة والمصابن والأنوال ، وهذ قتال أيضاً ضد الفرنسيين ، وإن لم يلعلع فيه الرصاص . ومادام الرصاص انهزم أو ينهزم ، فهذا القتال الجديد ينبغي أن يعم الساحات ، ولا يترك الفرنسيين يلتقطون أنفاسهم ، كما لايترك الذين يسيل لعابهم اليوم من الزعماء أو الملاكين في القرى وفي المدن ، يحكمون العقد مع الفرنسيين ، ويشددون الخناق عل الرقاب .

كان أبو خضرة يأكل بأناة ، وحُسْن ترقب لقمته الصغيرة وعيني هولو الساهمتين . كانت حيفا تتلامح له ، المحطة ، رضوان عرفه ، نسيب الضلّة ، قبل أن يصحو على صوت حُسْن ينكر على أبو خضره شبعه ، فيتملّى الكرش ، ويتبسّم ، ثم يسأل عما نسي في الشام ، بين المدبغة والثورة .

قال أبو خضرة :

ـ مرة واحدة رحت إلى هناك ، بعدما حبسوا بديع . كانت المعركة حامية بين العمال ليهود وبين فلاحين منا . ولا أعرف ما حصل من بعد .

تمتم هولو بحنان :

ـ ورضوان عرفه والشباب كلهم ؟ النقابات والحزب . . ؟

قال أبو خضره :

ـ الشيوعيون كلهم وقفوا ضد الصهاينة والانكليز . عربي ، يهودي ، كل شيوعي وقف ضد نهب الأراضي .

ـ وما زال الأمر كما كان ؟ ما زال الأمر بيد اليهود ؟

ـ بماذا ؟

ـ بالحزب .

ـ الصوت الذي يدعو إلى العروبة أقوى .

هز هولو رأسه متأسياً ، وقد بدا له أن الأمر لايزال عالقاً إذن ، أو أنه بات أغمض وأصعب ، وفكر في أنه لولا ذلك ، لكان قد تبع بديع ورضوان في سبيلهما ، وود أن يردد على أبو خضره ماتمثل به هو قبل قليل من البيت الذي لابد أن يتقوض مادام العطل في أساسه ، إلا أنه التفت فجأة وسأل سؤال العارف :

ـ ما حكيت لي عن سبب مجيئك للشام . قل : زيارتك لي ، سببها بديع . والشام ، جئت إليها كما كان بديع يذهب إلى حيفا ؟

قال أبو خضرة :

ـ حزرت وحدك ، وغيري سبقني . الفرنسيون يجب أن يبدأوا صفحة جديدة . وليس من الغريب أن يرموا بأزلامهم في الأرض ، ويضعوا يدهم في أيادي جديدة ، من الثوار ، من الزعماء ، من الداخل ، من الخارج . الأيام القادمة خطرة مثلها مثل أيام القتال .

قال هولو بمكر :

ـ وأنت جئت تبحث لجماعتك عن نصيب ؟ من أجل هذا أرسلوك ؟

ـ هذا ما خطر لك ؟ وأنت من أوصاني بديع بزيارته قبل كل الناس ، ورسم لي الطريق إلى بيتك على الورقة ، وهو يقول : هولو مثله مثلي ومثلك ، وإذا ما كان اليوم في حزبنا يكون غداً ؟

قال أبو خضرة وهو يتراجع بكرشه حانقاً ، فأجفلت حُسْن ، وأسرع هولو :

ـ لاتغضب يا أخي . أنت قلّبت المواجع ، واللّسان يغافل صاحبه ويفلت .

قال أبو خضره :

ـ ولكن اللسان إذا فعل يكشف لك المستور . المهم ياهولو : نحن إذا كنا قليلين ، وقصّرنا في القتال ، فالأيام القادمة تنتظرنا ، ولن نترك فرنسا وأزلامها القدامى وأزلامها القادمين يسرحون على هواهم . وأنت ياهولو ؟

ـ هولو على باب الله . هذا البيت بيتك وبيت بديع . بيت كل الطيبين . وما أقدر عليه ، عمري ما قصّرت فيه ، وإن شاء الله لا أقصّر .

أصرّ أبو خضره على أن يمضي إلى حيث ينزل منذ يومين في باب توما ، على الرغم من الوقت المتأخر ، والطريق الذي قد لايكون حفظه جيداً هذا المساء . وأصرّ هولو اثر انصرافه على السهر وحيداً ، على الرغم من النهوض المبكر الذي ينتظره في السحور ، فاندسّت حُسْن بين الطفلين ، واضطجع هو يتقرى أصداء صوت ضيفه في صدره وفي أجناب البيت . وربما طال به ذلك ، قبل أن يغفو في مكانه ، ثم يصحو على طرق الباب وصوت حُسْن وخدر ذراعه وصوت عبد الودود الراجف :

ـ الطريق مقطوعة عند العفيف ، وما قدرت أصل إلى بيتي .

قال هولو :

ـ في النهار المرجة ، وهذه الليلة العفيف ؟ الله يجعل العواقب سليمة .

ثم التفت إلى حُسْن بجفاء :

ـ وصاحبنا يقول انهزمنا ، ويقول حلاوة الروح ؟

كان شحوب عبد الودود يثير ريبة حُسْن ، فأقبلت عليه بعد قليل :

ـ عبد الودود : تخبىء عنا . . عبد الودود : عمر بخير ؟

حاصرت عبد الودود عيناها وعينا هولو ، فتاهت نظراته بينهما وهو يقول :

ـ الهجوم كان على بيته . المعركة كلها هنا . إن شاء الله يكون نجا .

وقف هولو يقلب كفيه ، ويوحّد الله ، فيما أردف عبد الودود وهو يعصر صدغيه :

ـ وطه ما سمعتم به ؟

هتفا معاً :

ـ ما به طه ؟

ـ العوض بسلامتكم . رحمة الله عليه . كان وحده بكتيبة .

تمتم هولو وهو يتوجه إلى الباب :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله .

ولحق به عبد الودود ، فيما كان صوت حُسْن الملتاع ينعي طه اليتيم وعمر التكلي .

★★★

لأول مرة منذ سنين ، سُمعتْ في حارة الشيخ حسن تلاوة البردة كاملة ، عقب صلاة المغرب ، ثم توجه الرجال إلى بيت هولو التكلي ، فاقتعدوا الكراسي التي أتى بها الأطفال من بيوت شتّى .

إنه مجلس العزاء بطه اليتيم ، من الجامع إلى بيت هولو ، ثم إلى بيت ابن الشيخ نظام الدين في المساء التالي الذي ودع الناس فيه رمضان ، وانتظروا صباح العيد ، راجين وحيارى .

لم يستطع هولو وعبد الودود في ذينك النهارين أن يدخلا إلى المستشفى الانكليزي ، حيث يعالج عمر التكلي من جروحه الخطيرة ، كما لم يستطيعا أن يجتازا الوادي إلى أهل طه ، ولا العفيف إلى بيت عبد الودود ، ولا الغوطة إلى المدبغة . كانت نهاية مذهلة لرمضان ، دامية وحاسمة ، جعلت هولو يردد بعسر على عبد الودود ومن حضر العزاء الكثير مما دار بينه وبين أبو خضرة .

انطلقت المدافع في الصبيحة تعلن العيد ، ومنها ماكان يقصف الكسوة أيضاً ، فيما خرجت الحارة إلى المقبرة ، وبهت هولو لصياح عدد من النسوة بين الجامع والمقبرة ، يهددن أزواجهن بالقتل إن رضخوا واشتروا للفرنسيين البنادق ، فيما كان المختار وعدد من الرجال ينسلّون مبتعدين .

في الضحى أصرّ عبد الودود على أن ينصرف وحده ، مضمراً أن يزور مريانا في بيتها ، مادامت تعمل في المستشفى الانكليزي ، ولا سبيل كما يبدو الى عمر التكلي سواها ، وفي طريقه إلى باب توما ، عرّج على الدكان ، وزاده خوفاً وحذراً ما يلغط به عدد من التجار المنتشرين أمام الدكاكين المغلقة ، فقد قضى جاره أبو ناظم أمس في حرائق القنب . التجأ من نيران الفرنسيين والثوار إلى واحدة من قباب القنب اليابسة ، كما فعل كثيرون ، وحاصرته كما حاصرت الكثيرين النيران والرصاص .

إلى الأمام قليلاً انحرفت خطاه حين أطلق عسكري الرصاص على جمع من الأولاد يطلقون المفرقعات وينطون ويهزجون ، ثم أبطأ خطاه لغط آخرين بعودة الميادنة

والشاغوريين وسواهم إلى حاراتهم ، بعد أن ملأ الثوار المهاجرين . فما دام الأمر كذلك ، فلن يقدر على الودود على أن يعود إلى بيته ، لليوم الثالث . ومادام اللغط يعلو بالحمى الغريبة الّتي تتفشى في المدينة والأطباء يفرون منها ، والسواح ايضاً ، فلابد من مريانا إذن ، حتى لو لم يكن عمر التكلي في ذلك المستشفى ، ولا بد من هذا العقد الذي اشتراه من صبي ممن يدورون بأطباق الزهور على رؤوسهم في سوق آخر أو حارة أخرى . ولكن البيت الذي ظهر أخيراً له ، بدا غاضباً ، فعبد الودود لم يعد إلى مريانا منذ ألجأته إليها تلك الليلة . وقد تكون أكبر غضباً من بيتها . قد لايشفع له عندها هذا العقد ، ولا ما عاش مثل الشام ، مثل مريانا نفسها ، من موت مؤجل ، حتى هذه الوقفة أمام الباب .

بيد أن مريانا ظهرت كعهدها ، سوى انها كانت مرهقة ، وتركت الباب مفتوحاً . وحين سألها عن عمر التكلي رسمت الصليب على صدرها ، وذكرت العذراء ، والمعجزة التي جعلت هذا الرجل ينجو من الموت ، وإنْ كان الرصاص قد خلف له عطباً في ذراعه اليمنى ، وربما في إحدى رئتيه .

لم ينقطع عبد الودود عن مريانا يوماً فيما تلا ، حتى بدأ الباب لاينفتح له . لقد يسّرت له وهولو وحُسْن وسليم أفندي وخديجة الزيارة الأولى لعمر . وصار عمر يشاركه قليلاً من وقته معها ، سواء في البيت أو في المشاوير القصيرة حول المستشفى . وعلى الرغم من أن عمر لم يكن أول من تتحدث عنه من الرجال أمام عبد الودود ، مشفقة أو معجبة ، فقد أخذت الغيرة تناوشه ، وكان قد عاد إلى المهاجرين ، بعد أن انسحب الثوار منها ، وقلّ فيها عدد الفرنسيين .

بعيد ذلك خرج عمر من المستشفى ، مشلول اليمين ، بالغ الصفرة والنحول ، طويل الذقن ، وقد خرج عبد الودود وسليم أفندي في صحبته من المستشفى إلى العفيف ، ثم انقطع عنه أياماً ، إذ ما كان له وهولو أن يغيبا سوية عن المدبغة ، كما أن هولو بدأ يدلّل بعودته المحتملة إلى المحطة .

عوفي عمر أسرع مما توقع الجميع ، ولم يرق لعبد الودود أن مريانا تذهب إلى العفيف ، وتزرق الحقن بنفسها في وركي عمر ، ولعله لذلك بات يتحاشى زيارة عمر ، أو ارتبك عندما صادفه في دكان سليم أفندي ، أو توجه من العفيف إلى باب توما ، تلك العشية التي عرج فيها على بيت عمر منصاعاً لإلحاح هولو ، فإذا ببابه مغلق ، وأضوائه مطفأة ، كما كان باب مريانا ، وكما كانت أضواؤها ، فعاد حانقاً ، ثم كسيراً . وفي المرة

الثانية التي تكرر له فيها ذلك ، عاد يقرع نفسه ، وفكر في الذهاب إلى المستشفى ، لكن قدميه قادتاه بعيداً ، إلى حارة الشيخ حسن .

كانت المدبغة قد أخذت تنتظم رويداً ، شأن الشام التي ألفت أن تداوي جراحها ، وتعود إلى عيشها . إلا أن حضور هولو ظل مضطرباً ، ولم يكن على وفاق مع كل ما اعتزمه عبد الودود أخيراً للمدبغة .

تعلل هولو بالسوق الخاملة ، وضيق البستان ، ورهق الاشتغال بالمصارين . كما نوه مراراً بخير الدكان والمدبغة ، أياً كان ، مما يفيض على عبد الودود الوحيد ، وعرّض بالطمع . كان ذلك يورث في سريرة عبد الودود النفور والجفاء ، فعاد أشد غلظة مع العمال ، وأحرص على الحضور ، مخلفاً باب دكانه مغلقاً ، مثل الباب المقابل لدكان المرحوم ، وبات يتشكك أقوى فأقوى في حسد هولو ، أو طمعه ، أو خذلانه ، ولكنه ظل يصمّ عن العودة إلى المحطة ، كأنه يرجوها ويخشاها في آن .

تلك العشية بدا هولو كأنه ينتظره ، أو ينتظر أحداً ما ، كي يبلغه بالنبأ العظيم .

قال :

ـ أخيراً وافقت الإدارة على تشغيلي ، وأين ؟ في المحطة نفسها . بارك لي ياودود . السبت القادم أبدأ إن شاء الله .

هرب عبد الودود إلى حُسْن ، فإذا بعينيها تضحكان . عاد إلى هولو يبارك مرتبكاً . ثم يقول وهو حائر بين الحزن والخوف :

ـ لو أجّلت ذلك . أجّله يا هولو . متى رحت إلى المحطة ومتى . . ؟ ظننتك تمزح .

قال هولو :

ـ السبت الماضي توكلت وقلت : قدم هذا الطلب ، ماذا تخسر ؟ واليوم بلغوني . هي بدأت مزحة بيني وبين حُسْن . أنت تعرف أنني كنت في المدبغة مثل عصفور في قفص .

ـ أنت السبب إذن ؟

خاطب عبد الودود حُسْن معاتباً ، ثم التفت إلى هولو :

ـ كنا مثل أسرة واحدة ، بصفوها وبكدرها .

قال هولو :

ـ كنا ونبقى بإذن الله . قبل المدبغة وبعد المدبغة ياودود . يمكن المدبغة باعدتنا أكثر مما قربتنا .

ـ مازال السبت بعيداً . لاتتركني الآن .

قال عبد الودود وهو يعجل في الانصراف ، رافضاً كأس الشاي ، يخشى أن تضعف نفسه . ولم يكد يخلو إليها ، وبيت هولو ينأى ، حتى داهمته الوحدة الموحشة ، ووجف فؤاده من هول الغربة ، فقد انبتَّ آخر ما تبقى له مع بيت التكلي ، وربما مع حارة الشيخ حسن كلها . وغداً ، قد ينقطع ما بينه وبين مريانا أيضاً . وقضى ليله كأنما ينتظر ذلك ، إذ لم يتوجه إلى الدكان في الصباح ، ولا إلى المدبغة ، بل دار حول بيت عمر ، ثم عبر بدكان سليم أفندي محاذراً ومنكراً أن يكون له في هذا المكان بنت تحبو الآن ، أو تمشي ، وأطال الطريق الى المستشفى الانكليزي ، حيث خيّل له أن مريانا قد تأخرت ، فعجل إلى بيتها ، ولطا قرب مجلّخ السكاكين ، ثم مقابل قصر البلور ، قبل أن يحزم أمره ، ويتابع سيره ، لكن مريانا ظهرت فجأة وعمر إلى يمينها . توقف هنيهة ، ثم حاول أن يندس بين المارّين ، إلا أن عينيها صادفتاه ، وضحكتا له . أسرع إليها فإذا بها تتجاوزه محيية ، وإذا بعمر يلتفت إليه ويغمزه . استدار ليلحق بهما ، فواجهته عيون شابتين عابرتين تحدقان به . طأطأ خجلاً واستدار ثانية ، ومشى يتيقن من رنة صوتها ، ونقاوة ضحكتها ، وحرارتها ، وجزم أنها لم تتبدل . انحرف في الزقاق اليميني وتاهت خطاه حتى أيقظها صوت الرصاص . تلفت حوله وأتلع عنقه ، فإذا ببشر كثيرين يملأون الأسطحة . لابت عيناه بين وجوه النساء على مريانا ، والرصاص يزخ ويقترب ، فمن سيلجئه الآن إنْ لم تلجئه مريانا ؟ علا حوله هرج الأولاد ، فاطمأن قليلاً ، ثم مشى إلى نهاية الزقاق ، فإذا بالشارع العريض يعج بالناس المسرعين . اندفع معهم حتى رأى نفسه في القصاع ، ووقف معهم يتفرج على الفلاحين المربوطين بالحبال ، وأمامهم الحمير المحملة ، وكانت جوقة المدرسة الحربية تعزف مبتهجة . انسلّ بعد قليل يود لو يعيره أحد راية بيضاء كي يرفعها أمام الجميع ، وكان صدره يضج بالشكوى من الغدر ، فمثل خديجة التكلي غدرته مريانا ، ولا فرق بين أن يكون قد ترك هذه أو تركته تلك . ومثل عمر غدره سليم أفندي ، وقد يكون هولو وطه غدرا به على نحوٍ ما ، قد يكون غدر به كل من عرفه ، كل على طريقته ، مادام يقف الآن وحيداً ، على أطلال البستان الذي أظله ومريانا في مساء ماطر وعربة ، قبل أن يقطع الفرنسيون الأشجار من سوار الشام ، كما تقطعت أوصاله ، حتى بات البكاء نفسه يعجزه .

★★★

26

الآن يبدو سليم أفندي البسمة كمن يفيق من بيات مديد ، وقد انقضت السنة السابعة على الفرنسيين في الشام ، أو أوشكت . ربما تململت نفسه بين وقت وآخر ، ربما حثها على النهوض أو حثته ، إلا أن ذلك كله يبدو الآن أشبه بأحلام وكوابيس ، عزم على أن يبرأ منها ، ويلاقي الدنيا بعينين جديدتين .

لحظة البيات الأولى وحدها ما يعي جيداً ، إذ كانت فرنسا قد احتلت الشام للتو ، جعلت منها دولاً شتّى ، وكان الباشا شكيم قد رأب بلمسة رشيقة الصدع بينه وبين الخواجة ثابت .

سرعان ما ملأ اسم الخواجة ثابت الصالحية التي آثرها الفرنسيون . وفي الأوتيل الذي يطل عليها ، جمع الباشا شكيم صديقيه ، ثم عاد سليم أفندي وحده في المساء التالي ، يجتاز ، بأناة تليق بالأوتيل وبالخواجة ، ذلك الدرج الطويل اللامع ، ويعاين الفتحة الجميلة في البوابة الضخمة التي تغلق مبكراً ، فيكتم شماتته بالحديد الذي تتسلح به ، وباحتياط صاحب الأوتيل الذي لايؤمه إلا الفرنسيون ومن باتوا الآن علية الشام .

في البهو لبث ينتظر عودة الخواجة ، يتلهى بالفرجة على الأعمدة الرخامية ، وبروكار الأرائك الأحمر والأزرق ، يتملّى صورة البراق ويصلي على النبي ، يهرب من وجه المرأة الفاتن الذي رسم لرأس الفرس ، ومن وجه جبريل الذي يقودها ، إلى الركن المقابل ، حيث تقابل صورة لأمير النحل وسيفه وولديه ، ومن الصورة حطت عيناه على شعلة المدفأة ، فأقبل يتشمم عبير حطب الزيتون ، ويصلي على النبي ، فيما الساعة الحائطية الألمانية دقت تعلن الثامنة ، وصدح صوت المحاسبة الألمانية معلناً موعد العشاء .

إلى يساره كان ضابط فرنسي يداعب أظافره ، ما لبث أن نهض حين اقترب منه النادل هامساً . فمدّ سليم أفندي قدميه نحو المدفأة ، رامياً بعنقه إلى الوراء ، على حافة الأريكة ، متلذذاً بالدفء ، وخيل إليه أنه قد فعل ذلك من قبل مراراً ، هنا أو في أوتيل آخر ، وقبالته ملأت الأريكة امرأة بدينة ، غارقة في صحيفة أجنبية ، فنفر منها ، إلا أنها الآن ترمي بالصحيفة على الأريكة المجاورة ، وتمد ساقيها ، حتى تكادا تلامساه ، ويغيم وجهها ، فيما تسطع الساقان ، ويضيق الفخذان بالفستان ، فينسى الخواجة ثابت ، حتى يصدح صوت المحاسبة مرحبة به ، وكانت الساعة تدق النصف بعد الثامنة .

نهض مسرعاً وحيا من بعيد ، ثم سار خلف الخواجة إلى قاعة الطعام العارية . اختار الخواجة طاولة كبيرة ، وأمر النادل بالمناداة على شاريت ومسيو أصفر ، ثم التفت إلى سليم أفندي :

ـ هل التقيت بمسيو أصفر من قبل ؟ مسيو أصفر اليوم أكبر تاجر للأراضي . بالمناسبة عرض عليّ أرض كبيرة وخصبة في الغاب بثمن بخس . ما رأيك أن تشاركني بها ؟

قال سليم أفندي ضاحكاً :

ـ إلى هناك تريد أن تأخذني ؟ الغوطة أراها بعيدة .

قال الخواجة :

ـ مثلك مثل الباشا شكيم . الأرض ياسليم أفندي . قل لصاحبك أيضاً .

ونهض يرحب بضيفيه ، ويقدم لهما سليم أفندي .

طوال العشاء انكمش على نفسه ، إذ انشغل عنه الرجال الثلاثة ، منذ رشفة النبيذ الأولى ، بالطعام وبالمواقع والقرى والمساحات والليرات الذهبية . وما كان هيناً عليه أن يجلس ، وجها لوجه ، على مائدة واحدة ، مع هذا الشاب اليهودي الذي ذكر باعتزاز الصهيونية مراراً ، لكأنه يسرق من سليم أفندي البسمة مجداً قديماً ، حين تقدم الكثيرين للحؤول دون بيع الأراضي في الغوطة لليهود . أما الآن ، فهو ينصت صاغراً ، يتبسّم كلما التفت إليه الخواجة ثابت مجاملاً ، ويكتم قلقه على الأراضي التي يجهلها في فلسطين ، مفكراً فيما يستعين به على الانسحاب ، ولم يكن قد تبقى في القاعة سوى ذلك الضابط الفرنسي الذي عاد يداعب أظافره ، ويرتشف النبيذ .

قبل أن يغفو تلك الليلة استعان على اضطرابه بواحدة من الجرائد القديمة . ولكن فتى العرب كانت ترحب بالفرنسيين ، فرماها ، وتناول جريدة أخرى ، وإذا بالقبس أكبر ترحيباً ، فدسّ الجريدتين في المدفأة ، ونام حزيناً .

لم يكن يأتي بالجرائد الى البيت أو إلى الدكان بانتظام ، إلا أنه اثر تلك الليلة امتنع عن قراءتها ، حتى تململت نفسه من بيانها ، وكانت انتصارات الفرنسيين على الثورات التي اندلعت من البحر إلى الجولان ، تترى .

حضر الباشا شكيم بنفسه إلى الدكان ، يدعوه إلى العشاء في الأوتيل نفسه ، حيث جلس قبالته هذه المرة شاب تركي ، وبدأ الباشا هامساً :

ـ حدثت الأخ عنك ، وأنت خير من يعتمد عليه ، ولكنك لاتكاد تظهر في مكان .

قال سليم أفندي وهو يدقق في محيا الشاب .

ـ من البيت للدكان ، ومن الدكان للبيت .

قال الباشا مبالغاً في الهمس ، والنادل يقترب :

ـ الأخ جاء من أنقرة ، وأنا أعرف والده ، رحمة الله عليه . هو يدعو إلى جمعية تخليص الشرق الأدنى .

ثم سكت حتى انصرف النادل ، فقال الشاب :

ـ الشرق للشرقيين . هذا شعارنا يا سليم أفندي . وفرنسا لا يجوز أن تتركوها تهنأ يوماً في الشام . كما أننا بحاجة إلى مساعدتكم .

كتم سليم أفندي ضحكته من لكنة الشاب ، وخاطب الباشا :

ـ وما اخترت لهذا الكلام إلا هذا الأوتيل ؟ في البيت كان أفضل .

ثم التفت إلى الشاب وقال متأنياً :

ـ وفقكم الله يا أخي . الثوار بعيدون كما تعرف . الثوار في القرى ، لا في المدن . وفرنسا ، هذه الجولة ، قدرت عليهم كما تعرف . ولكن لا أظن أنهم سيتركونها تهنأ يوما في الشام . لا تخف . أما المساعدة فكلنا جاهزون ، والشرق للشرقيين إن شاء الله . شعاركم حلو يا أخي .

كان سليم أفندي قد ألف أن يتردد في الضحى على المقهى المقابل للجامع ، تاركاً الدكان لطه اليتيم ، يصغي للنافورة ، ويدخن الأرجيلة ، حتى إذا أخذ الرواد يتكاثرون ، لفّ النربيش ، وعاد إلى الدكان . ولكنه في الضحى التالي ، توجه إلى الباشا شكيم بدلاً من المقهى ، وكان الباشا يتهيأ للخروج ، ولم يشأ سليم أفندي أن يؤخره ، فسارا معاً في ساروجة ، كما لم يفعلا منذ زمن طويل . وقال الباشا :

ـ توقعت أمس أن تضع يدك بيد صاحبنا . نسيت أن أقول لك إنه طويل الباع في

المصرف الزراعي ، ويمكن لك أن تستفيد منه . لكنك قطعت الدرب ، والشهادة يا سليم أفندي ، أنك قطعتها ببراعة .

قال سليم أفندي :

ـ لم ينشرح له صدري . كنت أريد أن أقول له : اتركنا ببلائنا يا أخي ، ولكن ما طاوعني لساني .

مالت خطى الباشا إلى اليمين ، فتوقف سليم أفندي :

ـ إلى أين ؟ دربي من هنا صارت أقرب . ما زال الوقت يناسب لنفس أرجيله .

تأبط الباشا ذراعه وتابع سيره :

ـ تعال معي . جمعية تخليص الشرق الأدنى ما أعجبتك . المحفل الماسوني الجديد قريب . تعال . قد يعجبك .

ـ وأنت هل أعجبك ؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك . ماذا نريد غير الحرية والعدالة والمساواة ؟

ـ واحدة من هذا كله تكفينا ، ولكن صدري ما انشرح لا لهذا المحفل ولا لغيره . رضا بك الزرب جرب معي قبلك . الماسونية من أولها إلى آخرها ما انشرح لها صدري ، ولا تسألني عن السبب . هكذا ، من الله .

ـ وأمس ، كان السبب هكذا ، من الله ؟

ـ يجوز . اذهب وحدك ، واتركني ألحق الأرجيلة ، قبل أن يفوت الوقت ، وتصير المقهى مثل عشّ الزنابير .

قال سليم أفندي وهو يبتعد يساراً ، ويباعد خطوه ، نادماً على أنه آثر لقاء الباشا على المقهى ، وحائراً فيما بدا له من نسيج الباشا بين الأتراك والماسونية والخواجة ثابت والمستر بيجيت . ولئن ألوى عن ذلك بعد حين ، فقد أيقظه الباشا شكيم في نفسه ، وضاعفه ، حين زاره في بيته ليلة النصف من شعبان وحدثه عن الرسائل الهامة والكثيرة التي تصله منذ أيام . وقد كانت أولاها من برلين ، تعلن ، كما قال الباشا مفخماً ، عن اتفاق عقلاء الأمم الاسلامية الشرقية على تأسيس جمعية لتخليص الشرق من الغرب .

ـ مثل قصة صاحبنا التركي ؟

قال سليم أفندي متبسّماً ، فأسرع الباشا :

ـ لا يا سليم أفندي . هذه الجمعية تقول في رسالتها : لها فرع في القاهرة ، وفرعها في انقرة اسمه الجمعية الاسلامية ، وهي تدعو المسلمين إلى تكوين عصابات والقتال حتى

يحرروا بلادهم . والجديد يا سليم أفندي أن هذه الجمعية متفقة كما تقول الرسالة مع الروس على أن ينجدوها ، دون أن يكون لها شأن بالبلشفية .

. الشام بحاجة والله يا باشا إلى من يناصرها ، بعدما كان من الانكليز ومن الفرنسيين .

لكن صدري لاينشرح لكل هذا الذي يأتينا من بعيد ، لا فرق بين برلين أو انقرة أو غيرها . داءنا ودواءنا هنا ياباشا ، والله أعلم .

- ولكنْ يد واحدة لا تصفق . الدول مع بعضها مثل البشر . جرّبْ أن تعيش وحدك ، هل تقدر ؟ اليوم ، في الدنيا يا سليم أفندي : غير الفرنسيين والانكليز ، الروس والأمريكان والصهيونية . اتركنا من الأخيرة ، طمعها ببلادنا مثل عين الشمس . الروس والأمريكان يقولون إنهم معنا ومع أمثالنا من الشعوب الضعيفة الطالعة على الدنيا . أظن علينا أن نفكر بهذا . الروس خاصة ياسليم أفندي ، في بلادنا صار من يدعو دعوتهم . من هنا إلى فلسطين إلى مصر .

هل عاد سليم أفندي من بعد إلى بياته المديد ، أم أنه كان يعيش واحدة من لحظات تململه الكبرى ، حين شرع يتاجر كالبهلوان ، ليس في الدكان وحسب ، بل في أمكنة شتى ، ومن أوتيلات شتى ، بين الشام وبيروت وحمص وحلب ؟

بدأ بالصايات والحطايط الحمصية ، فباع منها عبر بيروت إلى اليونان ويوغسلافيا ، مفيداً من الخواجة ثابت والمسيو أصفر . ثم باع منها إلى اليمن والحجاز كميات كبيرة ، دون الاعتماد على أحد ، واقتنى خزانة حديدية صغيرة ، تكوم فيها الذهب . وتوالدت له صلات جمة واهتمامات متنوعة . لم يكن يمقته أحياناً سوى أن الفرنسيين لايكادون يفسحون له ولا لسواه ، فمصرف سورية ولبنان يخطف الذهب من خزانته مثل عياق مصر ، ويرمي بأكوام الليرات ، والخواجة ثابت يضحك من شكوى سليم أفندي ويرددها معجباً بطرافتها .

في حلب بدأ بعد قليل أو كثير من ذلك يجالس الكثيرين ممّن يعملون في صناعة الشوكولاتة والجلود والصابون والحلاوة والطحينة والدبس وفوط الحرير الطبيعي المقصّب ، وفي الجرابات والصداري وزركشة الأقمشة . كان أشبه بالتلميذ النجيب ، يتعلم ويستعيد أيضاً ما فكر فيه اثر رحلته مع الباشا شكيم إلى برلين من النهوض بالشام ، تمقته أحياناً الشكوى من الفرنسيين الذين تضاعف سخاؤهم ، وأخذوا يفسحون للتجار الجدد في استيراد ما يقدرون ، مما ضيّق على تلك الصناعات ، وجعل سليم أفندي يفكر في غرفة التجارة .

قال الباشا شكيم بعد أن صمت مراراً عما يشغل سليم أفندي :

ـ الاستيراد على هذا النحو لا يضايق أصحابك الصغار هؤلاء فقط . يضايقنا نحن أيضاً . ولكن أنت تعرف التجارة ، وهذه الحكومة ليست حكومتنا ، ولو كانت من السوريين . هذه حكومة فرنسا أم أنك نسيت ؟

قال سليم أفندي :

ـ بودي أن أثير القضية في غرفة التجارة . لعل وعسى . ساعدني في ذلك . أرجوك .

قال الباشا شكيم :

ـ حاول ، وعليّ أن أساعدك ، وإن كنت أعرف النتيجة سلفاً . التجار ليسوا يداً واحدة . كل واحد يشد البساط إليه ، في السوق وفي الغرفة . قليلون أمثالك ممن يطيرون كل مدة في سرب .

ـ ما فهمت قصدك يا باشا ؟

ـ ذكرتني الآن بما شغلك يوم رجعنا من برلين . أنت دائماً ضد الاستيراد . ما اتفقنا يوماً على هذا . بالطبع الاستيراد ليس واحداً . ولكن أنت مرة تفكر في شركات زراعية ، ولا يعجبك شغلي وشغل غيري في الزراعة ، نسيت ؟ واليوم أراك تفكر في صناعات أصحابك البسيطة ، أو ـ حتى ـ في معمل الزجاج ، ولا يعجبك شغلك في الدكان ولا في التجارة كلها .

ـ كأنك تقرأ ما يدور هنا .

قال سليم أفندي مقاطعاً ، وهو يدور بسبابته فوق صدغه . ولم يتأخر بعد ذلك في نفض يده من الغوطة ، بعد أن استقل عمر التكلي عن الباشا ، ولم يكن هو قادراً على الحرزة ، كما أن طه اليتيم ليس مثل عمر التكلي ، حتى يوكل إليه الدكان والبستان . ولعل ذلك ما جعل الباشا يعجل في البيع للفلاحين ، لقاء دفعات من المواسم ، واهباً لبيت التكلي قطعة صغيرة ، كرمى لأمواتهم وصغارهم .

أما في غرفة التجارة ، فقد واجه سليم أفندي منذ البداية وجوم فاعتراض أصحاب الوكالات خاصة ، سواء من كان فيهم من أصدقاء الفرنسيين أم لا . كان لسانه يزداد جرأة على الجمارك والتجار الذين لايفكرون بالبلاد ولا بعباد الله ، وكان الباشا شكيم يهدئه ، ورضا بك الزرب يحذره ، ولكنه استطاع على أية حال أن يغدو كاتم سرّ الغرفة بعد حين .

قد تكون حملات بعضهم عليه أفادته ، سواء في الطريق إلى غرفة التجارة فأمانة سرها ، أم في الشهور التالية التي حفلت بالمعارك الصامتة والجانبية . كذلك صار اسمه رمزاً للذين ينافحون عن الصناعات المحلية ، مهما ضؤل شأنها . وبات خصومه يدعون ساخرين أو جادين إلى أن يبحث عن مكان له بين أصحاب الصناعة ، لا في غرفة التجارة ، والباشا شكيم يخشى عليه أن يضيع نفسه ، فلا يكون هنا ، ولا هناك .

لم تتأخر الانتخابات التالية في الغرفة . ولم يرتب هو ولا الباشا ولا رضا بك الزرب في أن خصومه والفرنسيين قد دبروا ذلك كي يتخلصوا منه ، وممن أصابهم بعدواه ، وباتت أصواتهم مزعجة . وربما كان ذلك ما جعله يسعى من حمص إلى حلب ، يجمع الأنصار ، ويتهيأ للجولة الحاسمة . حتى إذا انعقد اجتماع غرف التجارة صدح صوته :
- الشام يا سادة تستورد الحليب والجبن والأحذية وما شابه . هل نضحك أم نبكي ؟ بعض الجيوب تمتلىء ، وليتها تمتلىء بغير ما يضرّ جيوب الآخرين . إذا كان حليب الشام اليوم لا يكفيها ، فعلينا أن نعمل حتى تنتج ما يكفيها ، ويزيد ، بدلاً من أن نتسابق على الوكالات والاستيراد . لماذا لاتصنعون أنتم مثل هذه الحاجات ، والله قد أوسع لكم ؟ تستفيدون وتفيدون البلاد كلها ، بدلاً من الاعتماد على الغرباء . تعالوا نبدأ أول خطوة من هذا الاجتماع المحترم .

كان الاهتمام الذي تلامح له في العيون كافة يغريه بالمزيد ، غير مبال فيما إنْ كان الإعجاب أو التأييد أو الحنق أو الاعتراض خلف ذلك الاهتمام . وعلى الرغم من أن القاعة ضجّت بالتصفيق له مرتين ، إلا أنه قبل أن ينفض الاجتماع كان قد فقد منصبه ، وحل محله ، كترضية لأنصاره ولخصومه ، رضا بك الزرب .

هل خرج إذن من المعركة مهزوماً ؟ لقد ظل ينكر ذلك دوماً . كان واثقاً من أنه حاول أمراً ينفع الشام ، في الوقت الذي لايكاد يُسمع فيه صوت لأحد من أجلها . كان راضي النفس، خاصة أن خصومه باتوا يلاقونه باحترام أكبر ، وقد عفّت نفسه عنها يسّرت له غرفة التجارة ، مما كان سيدّر عليه الوفير لو اغتنمه . كان يرى نفسه أيضاً قوياً ، وقد خبر القوم جيداً ، وما عادت له في أكثرهم رغبة . بل إن رغبته في التجارة كلها أخذت تضعف . ولعله لذلك لم يبال ببديل لطه اليتيم ، كما أنّ خصومته مع عمر التكلي ما عادت تعنيه لربح أو خساره أو وفاء أو نكران ، لم تعد خصومة شخصية ،

مستسرّة أو جهيرة ، بل صارت ضنّاً بالشام من أحبولة أخرى ، صهيونية كانت أم لا .
وكانت الثورة قد أعلنت في الجنوب .

★★★

هل كان ما انقضى بين انطلاقة الثورة وهذا البيات الجديد ـ كما يسمّي منذ لاحت الهزيمة ـ لحظةأخرى ، أو لحظات ، أكبر وأملأ ، من تململ نفسه في سنواتها السبع الماضية ؟

قبل أن يصل الشرر إلى الشام كان المرض قد أوشك أن يودي بعلاء . ظل المرض سرّاً عصياً على من قصد سليم أفندي من الأطباء ، وعلى النذور. فجأة هوى الفتى ، وفجأة نهض بعد أربعين يوماً ، إلا أن سليم أفندي لم ينهض معه ، على الرغم من الأيام الثلاثة التي أحياها فرحاً وشكراناً .

كان لا يزال بعد أن عوفي وحيده يتقرىّ آثار الموت في البيت . امتلأت نفسه بالضعف ، بالحدود الدانية لكل هذا العالم ، ما شيده بنفسه أو شيد دونه . وفي الآن نفسه بدأ يفكر في أنه قد أخطأ خطأ جسيماً ، إذْ أصمّ دوماً عن الزواج ثانية . الأعمار بيد الله ، ولئن وقع مكروه له أو لعلاء فسيضيع هباء كل ما بناه ، وما بناه أبوه قبله ، وسيغدو شأن بناته أسوأ من شأن شقيقاته ، قبل أن يتصل ما انقطع بينه وبين أصهاره ، كأنما لم يأت إلى هذه الدنيا رجل اسمه سليم أفندي البسمة .

عادت خديجة التكلي الفتى المريض مراراً ، تحيّي في مصادفة ما ، كل زيارة ، سليم أفندي الذي انقطع عنها ، وتبثّ فيه نفحة من الأمان ، لكأن ما بينهما ليس من الإثم في شيء . وإذْ شفي علاء ظلت خديجة تتردد ، حتى جعلت سليم أفندي يعود إليها ، يسرقان من عبد الودود والجيران ساعة أو ساعتين ، لاتشغلهما المضاجعة كما تعودا لسنين ، يشرب الشاي الذي ألف أن تعطره له بالعنبر ، يستسلم لنوع من العطالة ، يورثه بعد أن يغادرها همة أكبر ، ونشاطاً أوفر .

قبل أن يفصل الطلاق بين عبد الودود وخديجة أسرّ للباشا شكيم :
ـ أفكر في الزواج يا باشا .

لامه الباشا على تأخره في ذلك ، وحثّه على أن يدقق في اختيار الزوجة الجديدة ، مشدداً على أن الأمر ليس فقط أن يرزقه الله بذكر ثان . فسليم أفندي البسمة ليس اليوم

من كان حين تزوج أول مرة . أبواب الأسر التي كانت مغلقة دونه منذ عشر سنوات أو عشرين ، تنفتح له اليوم على مصاريعها . وسليم أفندي البسمة يحتاج أن يعيش حياة جديدة ، ليس فقط من خلف ظهر زوجته الأولى ، أو خلسة في بيروت وحلب .

ربما كان سيشغل نفسه بما قال الباشا لولا أن الطلاق لم يفسح لها . إلا أن انتقال خديجة إلى بيت عمر فتّق جروحه . كان يأسى لأنها اختارت العفيف ، ولم تعد إلى الحرزة ، أو تشارك حُسْن وحدتها في غياب هولو ، وهكذا صار عمر القيوم على أخته ، فيما سليم أفندي يكيد له ما يرجو أن يكون الضربة الأخيرة ، وقد تأكد مما يصل بينه وبين سارة ومن خلفها من اليهود .

لولا طه اليتيم ، ما كان لسليم أفندي ، ولا لسواه ، أن يقدر إلام يؤول ذلك كله . لقد وصل طه بينه وبين عبد الودود . باع الدكان لعبد الودود وهو يستشرف آفاقه الجديدة ، ويفيق من بياته المديد . سوف يتزوج ، وسوف يبدأ عملاً آخر ، سوى التجارة . كذلك خطا الخطوة الأولى ، على الرغم من أن الباشا شكيم استنكر الزواج من خديجة التكلي ، وقال :

ـ كنت أعرف أنك تميل إليها . ظنّي أصاب . ولكن ليس سليم أفندي البسمة من يتزوج اليوم مطلقة عبد الودود السعد ؟ نسيت من يكون ومن تكون ؟ وفوق هذا كله بنتها على حضنها . اصح يا أخي .

نصيحة واحدة من نصائح الباشا ، أخذ بها ، إذْ اشترى بيتاً كبيراً في حي عرنوس ، وأثثه على نحوٍ أبهر الباشا والست زهرة ، وكان الثوار قد أخذوا يوجعون الفرنسيين في الجبل .

لم يكن بحاجة في زواجه الجديد إلى سمسارة أو لفاية أو حمّام قبل الدخلة ، أو تلبيسة وحنّاء وزفة ونقوط ، على الرغم من أن أصغر أصهاره ألح على ذلك ، وعلى سواه ، كيما يكون عرس سليم أفندي البسمة لائقاً . بيد أنه كان راغباً في أن يتزوج على نحو آخر ، على نحو جديد ، لا يكرر نفسه ولا الآخرين . وكان يرى في طلبه خديجة من شقيقها الأصغر ، ومن مطلقها ، علامة من ذلك ، فضلاً عن أنه تصفية لواحد من حساباته القديمة أو الجديدة ، المنسية أو القائمة ، مع عمر التكلي .

لم يعارض أحد من ذويه أو أصدقائه انتقاله إلى عرنوس ، كما عارضوا من قبل انتقاله من الشاغور . كانت أم علاء تردد أمام جاراتها مكابرة : مرة ما بتاكل مرة ، كله كذب وزعبرة . كانوا جميعاً ينتظرون ، إلاّ ها ، ولده الثاني ، وإن لم يخف بعضهم

امتعاضه من الزواج بمن كانت خادمة وزوجة لعربجي أو أجير له ، وخاصة هشام الساجي ، ورضا بك الزرب ، والخواجة ثابت . بيد أنه كان من الهناءة والعزم على نحو يجعله يسخر من الذين يزحفون على أبواب العائلات الثرية والكبيرة ، يغمز في سرّه من الست لميعة نفسها ، ويعيّر هشام الساجي بعنوسته ، ويرى نفسه مثل الملك ، وهو يدخل بيته الجديد .

ضاعف تردده على بيته القديم وحيّه من شعوره بالوفاء . كذلك كانت زيارات هولو وطه وعبد الودود وأصهاره ، وعمر نفسه ، تؤكد له أنه مكين الجذور ، ودائم الحضور ، وحقيقة بسيطة وجميلة ، قوية وكبيرة ، وليس زيفاً مثل الكثيرين ، سواء أكانوا أوفر غنىً أو علماً ، أو أقوى سلطاناً ، وأعرق نسباً .

أعانت الست زهرة ـ كجزء من هدية الزواج ـ بتدبير خادمة البيت الجديد . وكانت صباح ابنة الجارية الزنجية التي اشتراها أمير الحج في أول رحلة له إلى مكة ، بعد أن عين في ذلك المنصب . أما الخادمة الثانية التي دبرها رضا بك الزرب ـ كجزء من هدية الزواج أيضاً ـ فقد خصّ بها بيته القديم . وكانت نادية صغيرة ، لا عهد لها بالمدينة ولا بالخدمة . كما أنّ أم علاء وخديجة لم تألفا بسهولة أن تكونا سيدتين . وكان سليم أفندي يضحك في سره لخلافات زوجتيه وخادمتيه ، ويحمد الله على نعمه ، ويدعو للثوار بالنصر .

أخذ القتال يحاصره في بيته الجديد منذ مطلع الشتاء . تباعدت لقاءاته بالجميع ، وقد احتدم القتال في الشام ، وأخذ الفارّون من الميدان والشاغور إلى المهاجرين يتكاثرون ، وهو عاجز عن أن يستضيف أحدهم في بيته ، فيتعزّى بما يغدقه عليهم من الليرات والوصايا ، ويتقرى منهم أخبار بيته الآخر ، كلما تناءى عبوره به . وكان يتعزى عن ذلك على مسمع من خديجة وصباح :

ـ خبر السوء يصل بسرعة .

ويضمر أن يشتري قريباً بيتاً آخر في عرنوس ، وينقل أم علاء والأولاد إلى جواره ، دون أن يبيع البيت القديم الذي طلع عليه بالخير ، وبات جذره الوحيد في الميدان .

والدة نادية كانت تتسلل في الشتاء إلى الميدان ، ثم إلى عرنوس ، تحدث سليم أفندي عن ملك البلاد المقيم قرب قريتها مع أتباعه من الثوار ، فيتبسّم لها ، ويزودها بما تجود به يده . ويفكر في أن ما تقوله صحيح ، مادامت تلك الجهات من سوار الشام

الجبلي محررة ، يقودها الثوار وقائدهم هناك ، والفرنسيون يحرمون على الحكواتية أن يرووا ذلك في المقاهي .

ذلك الشتاء ، بدت الشام له تعجّ بالملوك ، ولمّا حدث الباشا شكيم بذلك ، ردّ راثياً أو ساخراً :

ـ هذه عادتها دائماً . ملوكها أكثر من عبيدها .

فحلا لسليم أفندي أن يعدد لنفسه ، قبل صديقه :

ـ الملك أدار ظهره لها ، وجرى خلف الانكليز وخلف الفرنسيين وخلف الأميركان ، حتى رموه جميعاً عن عرشها ، بعده عملت فرنسا منا عشرين دولة ، وصار لنا رئيس بعد رئيس ، جعلونا نترحم على الملك . كل واحد يجعلنا نترحم على سلفه أو جاره .

قال الباشا :

ـ ولذلك ترى من الناس من لايزال يدعو للملك المخلوع حتى اليوم . بل الدعوة اليوم أكبر منها أمس .

قال سليم أفندي :

ـ لا فرق . من سيء إلى أسوأ . وصلت الشجاعة بواحد أن يتمرجل على أولاد المدارس ، وواحد يحرم على الناس أن يتفوهوا بالسياسة ، وواحد يوقع الأحكام على الثوار بالإعدام . ولا تنس ، ما جاءنا الفرنسيون برئيس إلا كان أقرب إلى الأتراك من أهل البلاد .

ـ على كل حال طلعوا علينا في البداية بواحد أصله عربي ، ولو كان يرطن مثل التركي . أما اليوم فجاؤونا بشركسي من أصهار السلطان .

ـ معقول أن يتفقوا مع الأتراك على هذا ؟

ـ كل شيء معقول في هذا الزمن .

طويلاً ظل يردد عبارة الباشا ، لنفسه ولمن يصادف ، وهو يفرح للحارات والقرى التي تتحرر يوماً أو شهراً ، ويأسى للشتات والخراب ، والنصر الذي راح ينقلب . فلما حل الصيف ، كان كل شيء بالنسبة إليه قد انتهى : حواجز بردى القديمة اقتلعت من صدره هو ، لا من ضفتي النهر ، وفي صدره هو ، أقام الفرنسيون الحواجز الاسمنتية ، لا على الضفتين ، والشوارع التي يفتحونها ، كانت تنشق في صدره ، لا في الغوطة ، والبيات المديد يخلو من الأحلام ، يغدو كابوساً وحسب ، لا ينفع معه أن تتململ النفس التي تضيق بجلدها .

قبل أن يهدأ القتال اشترى بيتاً أقرب إلى بيت عمر ، إلا أن أم علاء رفضت أن تبرح الميدان ، وهي تردد : يا مأمّنة الرجال مثل الميّ بالغربال ، وتحلف أنها لن تنسى كيف تركها تقضي هذا الشتاء بين القذيفة والرصاص والحريق ، وتذهب أبعد من الكابوس في جراءة أخرى لها عليه ، فتساوي بينه وبين الفرنسيين ، فيضربها ، فتصيح به :

ـ اضرب . اضرب يا بطل .

وبناته يبكين مذعورات ، وعلاء الذي غدا شاباً في هذا الشتاء ، وأبوه غافل ، يكور قبضته .

كانت خديجة قد حملت ، وقد ألفت نفسه أن يعوضها عن بناته بابنة عبد الودود . وقبل أن ينجو عمر من الموت ، وتضع خديجة له ذكراً ، كان العديد من أصدقائه الذين نزحوا إلى بيروت يؤوبون ، ويتغنون بالشتاء الآمن الدافىء الذي قضوا هناك ، وفيهم من راح يسابق إلى قنصلية ما ، ويتجنّس بغيرِ الجنسية السورية ، ليضمن أن يعوضه الفرنسيون عما لم يخرب القتال له ، أو أضعاف ما قد يكون فقد . وفي هذه الآونة ظهر الخواجة ثابت بعد غياب طويل ، وقد استتب الأمر للفرنسيين ، وآلى سليم أفندي على نفسه أن تبدأ يقظتها الكبرى والدائمة .

★★★

27

التقى الباشا شكيم وسليم أفندي في بهو أوتيل الصالحية ، في الضحى ، وبعد وداع الخواجة خرجا يتفرجان على العرض العسكري الفرنسي الكبير ، احتفالاً بالرابع عشر من تموز . لم يكونا قد خرجا معاً منذ العرض السابق الذي تفرجا عليه في المكان نفسه ، احتفالاً بعيد جان دارك . ولم تطل بهما حينئذٍ الفرجة على أرتال المغاربة والسنغاليين والسوريين ، كما طالت بهما هذه الظهيرة . وفي نهاية العرض عرّج الباشا على الدكان الذي افتتحه سليم أفندي لصق بيته ، منذ أسابيع ، دون أن يستقرّ بعد على عمل محدد .

بدا الدكان أشبه بغرفة لاستقبال الضيوف . ولم يخف الباشا ، وهو يبارك ، استياءه من الفترة الطويلة التي مضت على صديقه ، مثله مثل أي من العاطلين الذين صارت الساحات تمتلىء بهم ، بعد أن هدأت الشام ، وسمّى الدكان مكتباً .

قال الباشا وهو يرتشف الشاي التي أعدها سليم أفندي بنفسه :

ـ المال كالماء ، إذا لم تنمّه ينسرب من بين أصابعك المضمومة عليه . لا تغترّ بما لديك . لا الزمن الموائم يرحمك ، ولا الزمن المعاكس . أنت اليوم صاحب بيتين . يدك مسحوبة من السوق من فترة طويلة . من غير السوق يدك مسحوبة أيضاً . وللعمر حقه .

قال سليم أفندي متهرباً :

ـ لا تهتم باشا . أريدك أن تساعدني في تدبير خادم أمين .

قال الباشا :

ـ هذا عليّ . جزء من هدية المكتب أيضاً . ولكني أريدك أن تباشر . ضيّعت ما يكفيك من الوقت ومن الفرص في كل شيء . سمعت الخواجة ثابت أمس ؟ إياك أن تفطر على بصلة بعد كل هذا الصيام .

ـ بيني وبينك ياباشا ، أعترف لك أنّي لم أفهم الخواجة أمس . كلامه هذه المرة غامض .

ـ لا ياسليم أفندي . أنت لا تريد أن تفهم ، أو لا تريد أن تصدق . الشام لم تعد كما كانت . سنوات قليلة بيننا وبين رحيل الأتراك وقدوم الفرنسيين ، ولكن الشام اليوم شام أخرى . وكما سألك الخواجة اسألك : متى تظن أنها تكون قادرة على أن ترفع رأسها من جديد ؟ القومة الأولى ياسليم أفندي دامت سنتين ، ثلاثاً ، وهذه القومة كانت أقصر ، ولو أنها أكبر وأخطر ، ولكن بيننا وبين القومة القادمة كثير . الخواجة قال لك عشر سنين ، وأنا أقول : زدها . هكذا هي الدول والأمم . وعلى هذا الأساس يجب أن تفكر ، في المكتب وغير المكتب . الأيام القادمة للشغل وللتروي . حتى إذا كان لابد من القتال ، فالواجب أن يكون بلا رصاص . قتال أخرس يمكن أن تسميه . وإياك أن تستهين بهذا القتال . حتى لو كانت الثورة نجحت كان لابد من سنين أخرى حتى يأخذ هذا القتال مداه . هكذا هي الدول والأمم يا صاحبي .

قطع الباشا استطراده اثر دخول مرزاحي الذي بالغ في التحية والتودد ، ثم التفت إلى سليم أفندي :

ـ عسى أن تكون فكرت وقررت .

قال سليم أفندي وهو يتطلع إلى الباشا ، كأنما يستشيره ويستنجد به :

ـ بصراحة يا مرزاحي : لا .

توجه مرزاحي إلى الباشا كأنما يشكو :

ـ هذه ثالث زيارة ياباشا . ثلاثة أسابيع ، كل اسبوع زيارة ، وكل زيارة : يا سليم أفندي : هذا المكان ماله أفضل من أن يمتلىء باللمبات والأزرار والأسلاك والهواتف . كل مايخص الكهرباء والتلغراف عندي ، كله جديد ، ماركات عالمية وأسعار مناسبة ، خاصة في هذا الوقت . وكل زيارة يقول لي : اتركني أفكر . نفسي عافت التجارة . ما رأيك ياباشا ؟

قال الباشا :

ـ متى صار عندك هذا كله يا مرزاحي ؟ أعرف أنك موظف في القنصلية الايرانية .

ـ تركتها ياباشا . عافوني وعفتهم ، وهذا العمل يربح في شهر ماتقبضه القنصلية كلها في ثلاثة .

ـ وتريد رأيي يا مرزاحي ؟ سليم أفندي في رأسه موال آخر . دعك منه .

ـ صحيح يا سليم أفندي ؟

سأل مرزاحي مخيباً ، فضحك الباشا ، وقال سليم أفندي وهو يرسم الاعتذار على وجهه فيخفق :

ـ الباشا قال ، وأنا لا أرد للباشا كلمة . وبدلاً مني ، ما رأيك في زبون دسم ومجرب ، لا أظنه يقول لا .

قال مرزاحي :

ـ قل ياسيدي .

ـ عمر التكلي يا مرزاحي .

ـ ما غيره ؟ عمر اتفق معي الاسبوع الماضي يا سليم أفندي . بزيارة واحدة رتبنا كل شيء . ومشروعنا كبير . أكبر مما تظن . عمر التكلي ماعاد قادراً بعد الإصابة على القفز من هنا إلى هناك . صفّى مصالحه خارج الشام ، ووضع يده في يدي . اسمع نصيحتي ، وضع يدك في يدي . سليم أفندي البسمة غير عمر التكلي ، مع أن الرجل من أفاضل القوم .

تبسم سليم أفندي وهو يحدق في الباشا :

ـ الزيارة القادمة إن شاء الله .

فنهض مرزاحي معلناً استسلامه ، وانصرف مبالغاً في التحية والتودد ، ومالبث الباشا أن لحق به ، مشدداً على سليم أفندي بالانتظام في الحضور مساءً إلى أيّ من أبهاء أوتيل فكتوريا أو الشرق أو الصالحية ، والبتّ في أمر المكتب .

★★★

لم يغادر الباشا شكيم الشام أثناء القتال . ولم يتحاش الفرنسيين ، على الرغم من أنه فاجأ الثوار مراراً بالخراف المحشوة والكنزات الصوفية والأبواط التي أرسلها إلى أنحاء الغوطة ، كما فاجأهم بما تبرع به من الليرات ، وبرعاية أسر العديد من الشهداء ، ولم تكن أسرة طه اليتيم آخرها .

في الآن نفسه لم يتخلّف الباشا عن أي من الوفود التي كانت تدفع بها الأحياء أو مشاورات الزعماء الى المسئولين الفرنسيين الكبار والصغار ، تارة من أجل الغرامات ، وأخرى من أجل القصف ، وثالثة من أجل من يقاتلون بعيداً ، أو من أجل من فروا أبعد ، وأحياناً من أجل ما هو أكبر وأغمض . وقد يكون ذلك كله في رأس ما أفسح له

هذه الأيام في الصدارة ، سواء لدى الفرنسيين ، أم لدى الزعماء الذي تكاثروا ، وتكاثرت اجتماعاتهم فيما بينهم ، ومع الفرنسيين ، يرسمون لمستقبل الشام القريب والبعيد .

قبل أن يزوره أخيراً الخواجة ثابت ، وقبل أن تتواتر على الباشا رسائل الزعماء من القاهرة أو عمان أو باريس ، ورسائل لميعة وبيجيت ، كان قد تهيأ لسنوات الهزيمة الطويلة كما سمّى للست زهرة . كانت ذاكرته تتوقد بالأيام الأولى لرحيل الاتراك ، وقدوم الانكليز ، وما عاش اثر ذلك في القصر . كما كانت الأيام الأخيرة للقصر وقدوم الفرنسيين تمثل له ، فيجهد كيما يحدد فيها ما ينفع الآن ، ما يتشابه وما يختلف ، ومن أجل ذلك أيضاً شغل نفسه في الأوقات التي كان القتال يحاصر فيها ساروجة وسواها داخل البيوت ، بصحف قديمة ، تتابع مفاوضات الفرنسيين والأتراك ، أو مفاوضات الملك في باريس قبل أن يعلو العرش ، أو مفاوضات أبيه مع الانكليز ، كذلك المفاوضات القديمة بين المصريين والانكليز ، إبان الثورة ، والمفاوضات الطازجة بين المغاربة والفرنسيين .

رويداً رويداً كانت تنجلي له في اللوحة خطوط حادة وأخرى غائمة ، خطوط متعرجة ومتوازية ومتقاطعة ، قصيرة ولا متناهية . كانت اللوحة تبدو محتومة ، ووشيكة ، مادام القتال قد أخذ يهدأ ، والفرنسيون ينشدون بدائل ، وإن كانوا يتباهون بالنصر ، وتتملك بعضهم الخيلاء .

كان الحزن يستبد به في البداية ، والقنوط يناوشه ، يفكر في ابنه الذي غدا شاباً ، ما سيخلف له وما سيصنع بنفسه ، يشك في أنه قد أطال الانتظار ، حتى أوشكت الشام أن تفلت منه بلا رجعة ، بيهمّ أن يحدث الست زهرة بشواغله ، كما تعود وتعودت ، ثم يلوي ، فقد أخذت الست زهرة تشيخ ، ليس بالشيب الذي وشّى شعرها ، بل بهمودها ، قبل أن يتعاظم الخطر ، أو يبيع لها إرثها في البطيحة ، أو ينفض يده من إرث أبيها في المريجانه ، أو يغدو ابنهما شاباً .

من خطوط اللوحة التي تكونت له أو كونها ، خاصة خلال السنة الأخيرة ، ما كان يمضي بعيداً ، إما الى جذر غائر في أبيه واستنبول ، وإما إلى مقام لميعة في لندن ، وسواها في أصقاع العالم . حتى الى موسكو كان ذلك الخط يمضي ، خاصة حين فاز اليسار الفرنسي في الانتخابات . ومن تلك الخطوط ما كان واهياً ، لايكاد يصل به الى كرسي ما في السراي القريبة ، حتى ينقطع . لا فرق إن كانت الكرسي لوزير أو لرئيس الدولة ،

فالمقص الفرنسي مسلط وباتر . إلا أن نفس الباشا تراوده ، فلا بد من التضحية من أجل الشام . ولئن لم يفعل فستظل صنائع الفرنسيين تزيد الطين بلّة ، وتجعل مستقبل الشام القريب والبعيد أسوأ من ماضيها ، حتى لو تكاثرت الوكالات والفبارك والشوارع والسيارات . من هنا طلعت عليه خطوط جمّة ، وهو يجرب أن يضفرها يوماً بعد يوم ، فيصل مابينه وبين الأحزاب التي ولدت وماتت في السنوات الأخيرة ، ومن بينها يقلب الأمر طويلاً ومليّاً مع حزب الشعب الذي بدا أنه تبدد أخيراً ، على الرغم من حضوره المبهم . كان يحيي حزباً ويميت آخر ، يبدل الجلود ، يحكم على الجمعيات بالوداع ، يطلق النقابات ، وينشد المؤسسات ، يستعين بالخواجة ثابت ، فلابد منه ومن أمثاله لزمن قادم ، يشبك أصابعه بأصابع سليم أفندي البسمة ورضا بك الزرب وابن الاكاشي وهشام الساجي وكثيرين سواهم ، فلا بد منهم جميعاً لزمن قادم ، لابد ممن يسعى الى الزراعة أو المصارف أو الورشات أو الجرائد ، والشام جريحة كما لم تكن يوماً ، بائسة وفقيرة وجائعة وقاصرة ، على الرغم من الكنوز التي تنطوي عليها . ومن أجل ذلك قامت للباشا خلال هذه السنة خاصة صلات مع العديدين ، من السويداء الى عين آدم . ولئن يسّر عليه ابن الاكاشي وابن الفطيم الأمر في حمص ، ويسره الثوار في دولة الدروز وفي الجولان ، فقد كان عسيراً في دولة العلويين أو في حماه وحلب ، وشبه مستحيل في ذلك الشرق القصي ، حيث الأمراء والشيوخ أكثر من البشر . ولكن الباشا ، أياً كان الأمر ، بات اليوم يتراسل ويتهادى مع الأمير دشاش ورشاد بك الجويبري وفاتح بك المعلم وابن البزار وابن حكره والشيخ منصور والعديدين من الدنادرة ، ومن دولة العلويين التقى مراراً في أوتيل الشرق بالخواجة جبرا السكادة وبابن بشارة وابن الدباس وأسعد أفندي . كما التقى منذ أيام ، وهو يضع اللمسة الأخيرة على مشروع النادي السوري الفرنسي بشاهين آغا وآرو آغا اللذين لم يدخلا الشام من قبل ، واستطاع أن يقنعهما بالتريث حتى يحضرا حفل افتتاح النادي .

★★★

ما كان النادي سوى واحدة من الأفكار التي تبلورت لدى الباشا ، وشرع يجسدها ، وإنْ بدت الفكرة اللامعة أو الصاخبة أو الملموسة الوحيدة ، حتى الان

قال وهو يشرح لنفسه ، أكثر مما يزجي الوقت مع الست زهرة :

ـ مكان كبير ولائق ، مثل نوادي باريس أو لندن . مكان ليس في بيروت مثله ، ولم يكن

في استنبول مثله ، يجمع السادة للتسلية ، بدلاً من المقاهي والأوتيلات والبيوت . لو شاءوا يشربون الشاي ، ولو شاءوا يشربون النبيذ . لو شاءوا يلعبون الشطرنج أو البريدج ، ومعهم نساؤهم ، يتعرفون الى بعضهم ، يعمقون صداقاتهم ، وربما عداواتهم ، ولا خوف . الصداقة والعداوة في مثل هذا المكان لها معنى آخر . في مثل هذا المكان يتسارّون ويتحالفون ويتفقون على أشغال كثيرة ويتوسطون ، ومن هذه القضايا الصغيرة تطلع ، على مهل ، القضايا الكبيرة ، ففي مثل هذا المكان يمكن أن تشكل وزارة ، وتدبجّ قرارات .

تساءلت الست زهرة :

ـ كأنه مقر لحزب أو جمعية ، كأنه المحفل الماسوني .

وقال الباشا في وقت آخر لسليم أفندي :

ـ تستطيع أن تشبهه بمقرّ لحزب أو لجمعية . بل هو أكبر من ذلك وأهم . أكبر من أي محفل ماسوني وأهم .

تساءل سليم أفندي :

ـ لماذا يكون إذن النادس السوري الفرنسي ، وليس النادي السوري فقط ؟

تبسّم الباشا مشفقاً :

ـ هكذا فكرت أن يكون في البداية ، وهكذا سوف يكون فيما بعد ، أما اليوم فأنت تعرف السبب . من الضروري أن يكون الفرنسيون موجودين ، حتى رئيس فرنسا نفسه يمكن أن يدعوه النادي في يوم من الأيام لزيارته . أو قل زوجة الرئيس الفرنسي . علينا أن نسحب البساط من تحت الفرنسيين الذين أسكرهم الانتصار على الثورة ، ونقوي الأواصر مع العاقلين ، مع السياسيين ومع الذين يعطفون علينا أو يناصروننا منهم .

ـ والانكليز ؟

ـ الانكليز والروس والطليان والامريكان ، السفراء والقناصل كلهم يجب أن تتعود رجلهم على النادي ، هذا أفضل أيضاً تجاه الفرنسيين. من أجل هذا اشتريت للمستر بيجبيت وللميعة سهمين .

في نهاية ذلك اللقاء قرر سليم أفندي أن يشتري سهماً له ، وتعهد أن يجعل مرزاحي يشتري سهماً ، ولم يستطع أن يقنع الباشا بأن يفسح النادي لواحد مثل عبد الودود السعد ، حتى لو كان قادراً على أن يدفع ويرتدي من الثياب مايليق بالأعضاء ، أو ضيوفهم . ولعل إشارة سليم افندي الى عبد الودود السعد هي التي جعلته يفكر مرة

بافتتاح فروع للنادي ، تختص بمن هم في مرتبة اجتماعية أدنى ، فلابد من مثل هؤلاء ، حتى يستطيع هو ومن يقف معه أن يصلوا الى الزوايا البعيدة أو المعتمة ، صغرت أم كبرت ، من المدن ومن القرى . ولكن الأمر على هذا النحو سوف يكون معقداً ، وهو يقتضي وقتاً طويلاً ، والباشا يخشى أن تضيع الفرصة ، وقد بات كل شيء جاهزاً للافتتاح . لذلك تناسى إشارة سليم أفندي ، وإنْ ظل يؤرقه ما فكر فيه بسببها أيضاً ، من أن النادي لابد له أن يتوسع ذات يوم ، فيستقطب المزيد من الناس ، حتى لو كانوا مثل عبد الودود السعد ، أو أنه سينغلق على نفسه ، وينحدّ في حدود ظاهره : مكاناً للأماسي الناعمة أو الحفلات الراقية ، وهذا مالايريده الباشا ، ولن يسمح به ، حتى لو اضطر بعد لأي إلى أن يسعى إلى مشروع آخر ، نادٍ آخر ، بل حزب آخر .

★★★

وحده سليم أفندي البسمة من تخلّف عن الافتتاح . كان قد اشترى الدودج ، وتدرب على قيادتها على يد عبد الودود السعد ثلاثة أسابيع ، ظلا يتباريان خلالها في استذكار العربات والطنابر والخانات والجمال والصبية الحفاة الذين كانوا ينقلون على الحمير متاع الناس من المرجة الى سكة الصالحية ، كان عبد الودود يفيض بذكريات فورد الباشا وكراج تيسير عبد البرّ ، يرثي للسائس الذي دربه ، ولعربة الباشا ، ولبيت السعد الذين سينقطع ذكرهم بفضله ، بعد أن تأكد أن جذرهم الآخر في عين فيت قد انقطع ، وهاجر آخر من تبقى منهم ، قاسم السعد ، الى امريكا ، أما سليم أفندي ، فكان يفيض بالمراتب التي اعتلى ، منذ صار يستأجر حماراً من سوق الخيل ، حتى اقتنى بغلاً ، فحصاناً ، وصاية حريرية أصلية ، فاستدعاه أفندي الحارة ، وبصق في وجه الحصان ، ودلق كأس الشاي على الصاية ، جزاءً على تجاوز سليم أفندي لمرتبته ، إلا أن سليم أفندي لم يستسلم ، وإن كان قد باع الحصان ، فها هو قد اشترى الدودج ، وسوف يقودها بنفسه ، إلى أمام النادي ، يباهي بها سيارات الباشاوات والفرنسيين ، ويرد صاع أفندي الحارة ، بصاعين، وإنْ يكن الرجل قد مات .

مثل طفل منفلش بحبوه ، ثم بمشيه ، كان . وقد حدث عبد الودود السعد مراراً عن النادي ، وفي كل مرة كان يضاعف توكيده على أنه سيدخل ابن السعد الى حيث لايمكن لباشوات أن يدخلوا . ولما قاد وحيداً السيارة أول مرة ، عبر بالنادي ، ثم يمم الى

الميدان ، لكن الازدحام وضيق الشارع جعلاه يؤثر العودة ، ويتوجه الى كيوان ، ثم إلى المهاجرين ، ليوقف السيارة أخيراً أمام المكتب الذي زاد في أثاثه ، بعد أن صار له فيه خادم .

ضحى يوم الافتتاح كان الخادم قد حمّل السيارة بضعف ما أرسل سليم أفندي إلى بيته القديم ، حين ولدت خديجة . وفي العصر توجه الى الميدان .

تجمع الأولاد والشبان أمام البيت ، وأطلت النساء المحجبات للفرجة على الدودج ، وحمل سليم أفندي بعض الرزم والأكياس ، وهو ينادي علاء كي يحمل الباقي ، كان منبه السيارة الذي أطلقه سليم أفندي عالياً قد أخرج علاء ، وكانت ضحكة أبيه خلف المقود ، ولغط المتفرجين، قد أربكا قدميه وأوسعا دهشته . إلا أن صمت أمه في الداخل ألجمه كما ألجم أباه .

تكومت الهدايا الجديدة فوق الهدايا القديمة التي لم تمتد إليها يد ، فوق طاولة الطعام . وفي غرفتهن تكومت البنات ، ولم يستطع سليم أفندي أن يجعل شفتي أم علاء تفترقان . كما أن شفتي علاء ما لبثتا أن انطبقتا ، وامتد الصمت مبهظاً ومحنقاً ، حتى تحامل على نفسه ، وخرج مودعاً ، لاينتظر رداً ، ولايقوى على عتاب أو شجار ، وقد انسلّت منه الفرحة ، وكان الأولاد قد لوثوا السيارة ، وبعضهم قد اعتلاها ، فتلمس بذلته الجديدة التي اشتراها خصيصاً لحفل الافتتاح ، يخشى أن تكون قد اتسخت هي الاخرى ،وقاد السيارة على مهل .

بيد أن السيارة التي راحت تتأرجح فوق الحفر كما لم تفعل من قبل ، أخذت تسرع ، وكادت مراراً أن تدهس أحدهم ، مصمّمةً عن السباب والصياح ، وظلت تضاعف سرعتها حتى الصالحية ، إذ رفضت أن تدور مع المنعطف ، فتصدت لها شيفروليه زاهية جاثمة في رأس المنعطف، وأسرع الحراس ، وأطلت الرؤوس من الشرفات ، وهبط من يقود الشيفروليه مذعوراً ، إلاّ أنّ سليم أفندي كان غارقاً في غيبوبة ، ومضرجاً بالدماء .

★★★

دعا الباشا شكيم إلى حفل في النادي ، على شرف المستر بيحبيت والست لميعة .
وكان سليم أفندي سعيداً بشفائه السريع ، يفيض وداً للكثيرين الذين عادوه ، وفي

رأسهم الباشا الذي لم ينقطع عن زيارته في المستشفى وفي البيت يوماً . كما أن ام علاء لازمته في المستشفى وفي البيت ، وقبل أن يغادر السرير كانت قد ملأت بيته الثاني الخاوي في عرنوس ، وكان عبد الودود يلتقي بابنته في ذلك البيت ، كل مساء .

زاده بهجة وهو يقترب من مدخل النادي أن رأى بعض الرجال والنساء يدخلون ويخرجون ، تحت الظلال التي رسمتها الأضواء وعرائش الياسمين ، ولم يأبه للحارس الذي دقق فيمن يكون ، فتقدم نشطاً ،وعيناه تدوران في المكان والوجوه ، قبل أن تظفرا بالباشا في أقصى الشمال ، يتوسط المستر بيجبيت وضابطاً فرنسياً مسربلاً بالنياشين ، وإلى اليمين كانت الست زهرة والست لميعة تتهامسان .

اقترب من الباشا معجباً من أن يكون هذا هو المشروع العتيد الذي سوف يحقق للشام مرامي كبرى . وكان عبق العطور يملأ صدره ، والضحكات الناعمة المبتورة تغوي أذنيه ، وفي منتصف الصالةِ الفسيحة استوقفه نادل بصينية تبرق وتعج بالكؤوس ، فتناول كأساً من شراب التوت ، وتابع بخطى أقصر ، حتى توقف الباشا ملاقياً ، وقدمه للضابط الفرنسي الذي مد كفه وهو جالس ، يهز ساقه اليمنى الراكبة بدعة وغبطة فوق ساقه اليسرى ، والباشا يهمس :

ـ شراب التوت يا سليم أفندي ؟ على الأقل مثل السيدات ، كأس شمبانيا .

ثم يتركه ليسلم على المستر بيجبيت ، ويصافح الست لميعة والست زهرة لأول مرة ، ويتراجع والباشا يصخب بالفرنسية ويضحك .

ظل سليم أفندي مرتبكاً حتى لمح هشام الساجي ورضا بك الزرب ، فلجأ إليهما ، وكانت أزواج الراقصين والراقصات تتكاثر ، وقد انسابت الموسيقى الخافتة ، وتلامعت الفساتين والأرداف العارية ، فاسترخت وجنتاه وشفتاه ، وندم على أنه لم يختر سوى شراب التوت ، وأقبل يتأمل مشوقاً وصامتاً ، مشيحاً عن ممازحات رضا بك وابتسامات هشام الحيّية ، وكانت عيناه تتوهان أحياناً فوق الستائر المقابلة ، واللوحات التي تطل من اليمين بمهابة ، ومن الخلف كانت رطانة الألسن ترقّ بمصافحات الكؤوس .

فيما بين تلك العشية ، والمؤتمر الذي دعا إليه الباشا شكيم في النادي ، أغرقت سليم أفندي المفاوضات مع رضا بك الزرب وعارف بك قبل أن ينجز الاتفاق على إقامة معمل صغير للمياه الغازية ، كخطوة أولى نحو تأسيس شركة كبيرة ، يكون لها معامل أخرى . وعمال كثيرون ومنتجات جديدة، مما تفتقر إليه السوق ، ويضمن أرباحاً وفيرة . كان أشبه بمن كثرت عليه الأشغال فجأة ، وهو لايعرف كيف يديرها ، إلا أنه سعيد

بها ، فهو لم يبلّ من الجروح والرضوض التي خلفها الاصطدام ، ولم يُعد الدودج بفضل كراج البر والتيسير أبهى وأقوى مما كانت ، إنه يفيق من بيات مديد ، يزوق لنفسه ولشريكيه عقوداً عاجلة ،وهو يعيد ، كلما خلا المكتب ، قراءة العقد الذي صاغه المحامي ، وشهد عليه الباشا شكيم بنفسه ، وتوسط عليه توقيع سليم أفندي توقيع شريكيه .

كذلك كان وهو يبكر إلى النادي ، قبل موعد المؤتمر في العاشرة صباحاً ، عامراً بالثقة والأمل ، يود لو بكر الآخرون مثله ، كي يُدلَّ عليهم بنفسه ، ولكن من لاقى أمام النادي لم يكن سوى تيسير عبد البر والرجواني وثلاثة ممن قدر أنهم من شيوخ البدو ، وبعد قليل وصل عمر التكلي ، تتدلى بجواره ذراعه المشلولة ، ويتبعه مسلم دحة .

★★★

وصل الباشا شكيم في العاشرة تماماً ، وكان المدعوون قد تكاثروا ، فراح ينثر تحياته ويحثهم على الدخول ، وسليم أفندي يلاحقه ، حتى استطاع أن ينتحي به ، ويسأله مغيظاً :

- ماذا يفعل هنا هؤلاء ؟

تبسّم الباشا وعيناه تتلفتان وتتعجلان :

- من تقصد ؟

- عمر التكلي ومسلم دحه والرجواني . .

وضع الباشا كفه على كتف سليم أفندي ، وهمس :

- عمر ومسلم فرضتهم علي السراي فرضاً . وبالمقابل فرضت الآخرين . تيسير عبد البر أيضاً أمس أضفت اسمه واسم الحداد نعمان الوجعه ، ظننت أنك تفرح لهم ، عمر ومسلم ، فهمنا ، أما البقية ؟ أنت نفسك نبهتني لهذا . كنت تريد عبد الودود السعد . مقابل اثنين فرضوهم علينا جئتك بتسعة. نعمان الوجعه أمس قالوا لي إنه كان من قادة الثوار ، رئيس عصابه وحده كان ، وله ولد محكوم حتى اليوم ، وابن الرجواني شهيد .

- وتيسير عبد البر؟

- تيسير صار أيضاً له وزن . سكن عرنوس قبلك .

قال الباشا وهو يربت على كتف سليم أفندي ، ثم يبتسم وينصرف. فلحق به حائراً فيما سمع ، يخشى أن يكون هو أيضاً قد صار له وزن يؤهله للمؤتمر ، فقط بفضل سكناه في عرنوس ، وكان المدعوون قد ملأوا الكراسي الأمامية ، فأندسّ في الوسط ، بين وجوه غريبة ، وهاله أن القاعة تتسع لهذه الرؤوس جميعاً ، وكان الصمت قد أخذ يغلب ، والباشا يجلس بين كثيرين خلف الطاولة الكبيرة المقابلة .

ابتدأ الباشا الكلام ، فترحّم على الشهداء الذين سقوا تراب الوطن بدمائهم ، في الأمس القريب أو البعيد ، همهمت القاعة مترحمة ، والباشا يذكر الحرب والأتراك والإسلام والخلافة ، وعهداً جديداً قد بدأ ، للشام وللعرب ، وللمسلمين جميعاً. ولما هدأت القاعة كان يؤكد أن الدنيا قد صغرت ، ومصالح الدول كبرت وتداخلت ، والحرية قد عزت على العرب ، فآن لهم أن يتنسموها ، ويشيدوا دولتهم ، ويجلوا الصدأ .

أفاض الباشا في النهضة التي تساعد الدول المتحضرة على بعثها في بلاد العرب وفي غيرها ، وإن كانت تعيقها أو تصادرها في الآن نفسه . كما أفاض في الحاجة الى العلم ، قبل أن يزوق المستقبل القريب الذي تستقل فيه الشام ، ويحضّ الرؤوس التي برمت به على أن تفكر وتبدأ سعيها الحثيث من أجل ذلك ، ابتداءً من هذا الاجتماع .

تلا الباشا عدد من المتكلمين ممن يتصدرون الطاولة الى يمينه ويساره ، ألحوا جميعاً على العقل ونددوا بالهياج . فمنهم من ناح على عرش سورية ولوح بعرش بغداد وعرش القاهرة ، ومنهم من ناح على الخلافة التي ألغاها الأتراك ، ومنهم من تباهى بالشام التي لم تهدأ منذ سبع سنين ، ومنهم من جعل الشام لم تهدأ منذ عشر على الأقل ، مؤكداً أنه لولا ذلك ماكان لهذه القاعة أن تجمع هذه النخبة ، ومنهم من شدد على الهدوء والروية والتبصّر والتعقل وإحلال المفاوضة محل المعارك مع الفرنسيين ، والإفادة القصوى منهم في السنين القادمة ، حتى تلحق الشام بركب الأمم المتحضرة ، وكان صاحب الدعوة آخر المتكلمين ، وربما أفصحهم ، وأكثر من أنذر منهم بالأخطار التي تهدد الشام ، من الصهاينة إلى الاتراك إلى البلاشفة والانكليز . ولما انتهى انفض الاجتماع ، لتناول الغداء والاستراحة .

تأخرت جلسة المساء عن موعدها، كجلسة الصباح ، وقلّ عدد الذين تصدروا الطاولة الكبيرة ، وبدأت المداولات ، وكان السؤال الأول الذي أطلقه الباشا شكيم :

ـ هل توافقون على أن النظام الجمهوري هو ما يلزم البلاد . دعونا ننطلق من هذه المسألة .

همهمت القاعة ، وتبسّم المتصدرون حول الطاولة ، وتهامسوا بالتأييد العام ، إلا أن ابن الفظيم وقف قائلاً :

ـ الشام تريد ملكاً ، لاتريد رئيساً، الشام ليست تركيا حتى تقول لعرشها وداعاً .

ووقف رشاد بك الجويبري :

ـ والملك موجود . كان ملكنا وهو اليوم ملك بغداد ، وعرش الشام ينتظره ، كان علينا حين زارنا من سنتين أن نقول له : هذا عرشك، عرشك هنا كما هو في بغداد. بهذا نكون أقوى.

ثم جلس فصاح صوت آخر :

ـ الشام تريد ملكاً ، هذا صحيح . ولكن ليس هذا الملك الذي ضيع عرشه بنفسه. الشام تريد ملكاً من أبنائها ، لا من الحجاز ولا من غيرها . ويمكن لنا أن نتفق على ملك ترضى عنه فرنسا .

صاح ابن الفطيم :

ـ أنا ورشاد بك اتفقنا على أن نكون الحزب الملكي ، ونأمل من الجميع أن يكونوا معنا . من يكون الملك ، هذا يمكن أن نتفق عليه . المهم الآن أن النظام الجمهوري ليس غير رزيّة جديدة من رزايا هذه السنين وهذا العصر .

همهمت القاعة مستنكرة وسمع بالكاد صوت يقول :

ـ خلونا ، مادمنا نحن وفرنسا هكذا ، على رئيس دولة ، والأيام هي التي تحدد لنا : جمهورية أم مملكة .

جلس ابن الفطيم ، وهمهمت القاعة أشد استنكاراً ، فوقف الشيخ مجلاد بقامته الفارعة يسوّي عباءته ويقول :

ـ أصلكم ومرجوعكم لنا . عندنا ، وكثيرون منكم يعرفون ، في عشيرتنا ، ننتخب خيرنا ، وتكون له المشيخة ما مدّ الله له في العمر . والمشيخة بعده يمكن أن تكون لابنه أو لقريب منه أو غريب عنه . العشيرة تختار. بعد هذا سمّوا كما تحبون : ملك، رئيس، ما الفرق؟ وخذوها مني نصيحة : سموها مشيخة ، أي والله : مشيخة الشام ، والعشيرة عشيرة الشام .

وجلس مخلّفاً الضحك واللغط ، ولما عاد الهدوء سأل الباشا :

ـ اتفقت مع أحد يا شيخ مجلاد على حزب المشيخة أو . .

فشب الشيخ مجلاد غاضباً :

ـ تسخر يا باشا ؟ تضحكون يا أفاضل ؟ هذه ذقني إذا كنتم لاترجعون الى كلامي ، حتى لو جربتم الملك والرئيس وما ترغبون . ونحن يا باشا أكبر حزب ، وأقوى حزب ، ولوكنا بلا حزب .

قال ابن الأكاشي :

ـ صار عندنا الآن حزبان ، والحبل على الجرار . ماشاء الله! جربنا الأحزاب وشبعنا منها . نحن هنا كلنا حزب واحد .

قال ابن البزار :

ـ كيف نكون حزباً واحداً وفينا من يريد المملكة ، وفينا من يريد الجمهورية ؟

قال فاتح بك المعلم :

ـ البلاد بحاجة الى من يلمّها ، واذا ما فعلنا نحن اليوم من يقدر ؟

قال الباشا شكيم :

ـ اتركوا الأحزاب الآن وخلونا في أول قضية . واحدة واحدة .

قال الأمير مدحل :

ـ هذه مثل هذه. لاتفصلوا . كل القضايا متعلقة ببعضها .

قال سليم أفندي :

ـ فاتح بك على حق .

قال ابن الأكاشي :

ـ إذا وقفنا مع بعضنا اليوم نستطيع أن نجمع كلمة الشام كلها خلفنا . حتى إخواننا وأحزابهم في مصر أو غيرها نستطيع أن نجمع كلمتهم خلفنا .

قال الباشا شكيم :

ـ أنا معك .

قال فاتح بك المعلم :

ـ هذا هو الحزب . حزب الشام كلها ، حزب واحد لا غيره ، وفيه نكون مثل الأهل . نتفق ، نختلف ، المهم يدنا واحدة ، وكلمتنا واحدة .

قال رشاد بك الجويبري ساخراً :

ـ مثلنا مثل تركيا ، قلت لك ونحن على الطريق : لا تردد كلامها . وأذكّرك

الآن ، وأذكر من يؤيدك ، تركيا ما باعت الاسلام واكتفت ، بالأمس قطعت حتى الماء عنا . نهر قويق حرمتنا منه ، ولم تهتم بفرنسا نفسها . قلت لكم وقال ابن الفطيم : الشام تريد عرشها . وان شاء الله تكون قادرة على الخلافة من جديد . وبغير هذا اعملوا الحزب الذي تريدون ، ونحن يكون لنا حزبنا بإذن الله .

قال سليم أفندي :

ـ خلاصنا بوحدتنا . وحزب واحد يقربنا من الخلاص .

قال هشام الساجي .

ـ ووحدتنا في الشام توحدنا مع العرب كلهم . وإذا نجحت الخطوة الأولى ، فالثانية أسهل .

قال سليم أفندي :

ـ شرط واحد لاغيره . من خان الشام في يوم من الأيام ، أو يخونها في يوم من الأيام ، لامكان له بيننا .

قال نعمان الوجعه :

ـ حزب واحد من هنا الى البحر .لا في دولة العلويين ولا في دولة الدروز .

قال هشام الساجي :

ـ حزب واحد في الشام كلها . في فلسطين وفي بيروت نفسها .

قال الشيخ سلامة :

ـ العشاير والقبائل ، والقول للشيخ مجلاد ، متوحدة وعندها حزبها . لاتشغلوا بالكم . اتفقوا على رأي ، وقولوا لنا ، حتى تسمعوا رأينا : من عند الشيخ مجلاد وحمص ، والأمير مدحل والجولان ، وشيوخ حوران ، الى حمى الامير دشاش ، وما يلي ، حتى الحدود الجديدة مع العراق ومع تركيا ، نصف الشام لاتشغلوا بالكم به .

قال الشيخ هجر :

ـ وثلثينها .

قال الخواجة جبرا السكادة :

ـ إذا اتفقتم على حزب واحد كما تقولون ، نحن معكم .

سأل الباشا شكيم ابن الدباس وبشارة وابن الدنادرة فأيدوا الخواجة جبرا الذي أردف بحرارة :

ـ هذا يساعدنا على الحركة . الحدود ضاقت ، والشام لاتحتمل هذا كله .

سأل هشام الساجي :

. وفرنسا ؟

قال الخواجة جبرا :

ـ فرنسا تريد دولة هنا ودولة هناك ، هذا حديث آخر . واحدة واحدة كما قال الباشا شكيم . المهم الآن أن تخف القيود وتنشط السوق وتكبر . على الأقل ترجع كما كانت . امن أحد يريد ذلك ، من أفقرنا الى أغنانا .

همس الرجواني في اذن نعمان الوجعه :

. ما الذي حشرني هنا ؟ تركت المطعم اليوم حتى أسمع هذا الكلام ؟

همس نعمان الوجعه :

ـ وأنا مثلك تعطلت ، وبكره ويمكن بعدها. الجماعة محرومة من الحكي ، ادع ربك، يمكن يقدروا على شيء ويوحدوا الشام .

وكان هشام الساجي يقول :

ـ القضية ماهي سوق وما أدراك ، جسم واحد كيف تقطعه ؟ اللاذقية مثل بيروت ، وبيروت مثل القدس .

فقاطعه صوت ضاحك :

ـ وعمان ما سمعت بها يا أفندي ؟ واحدة واحدة ، كما قال الباشا شكيم. خلّ الحدود تلين الآن بينك وبين تلكلخ وعليّ الباقي . الخوف أن يصحّ المثل فيك : لاطال توت الشام ولا عنب اليمن .

ضجت القاعة بالضحك مؤيدة ابن الدنادرة ، وكان الباشا شكيم يتململ ، وجاره يدعوه الى أن ينظم أدوار المتكلمين ، ويكون أكبر حزماً في إدارة الاجتماع ، فعلا صوته فوق ذيول اللغط :

ـ أدعوكم يا سادتي الى أن تفكروا الليلة جيداً في أمرين : الأول : أي نظام نختار : الملكي أم الجمهوري . والثاني : هل نكون حزباً واحداً للشام كلها ؟ على هذا نقترع غداً ، حتى لايضيع الوقت كما ضاع اليوم ، وأملي أن يكون اجتماعنا القادم أحسن تنظيماً . أما الآن ، فأظن أنكم تعبتم ورجائي أن تتكرموا بقبول دعوتي لكم جميعاً الى العشاء . تفضلوا .

وكانت الساعة قد نافت على العاشرة مساءً .

★★★

شغل سليم أفندي عن المؤتمر مرض ابنه الثاني . لازم الطفل حتى نهاية الاسبوع ، يتسقط الجرائد ، ويتلهى بتدبيج عقد جديد بينه وبين شريكيه لتأسيس معمل لبواري البسكويت ، ولا يفتأ يشدد على خديجة ألا تدع الطفل يفلت العود الذي جاءت به أم نادية ، وهي تصلّب وتردد : عود الصليب يشفيك ويحميك يا ابن سليم أفندي ، فتبسمل خديجة وتردد : عود النبي ، يحميك ويشفيك يامهجتي ويا روحي .

عندما اطمأن على ابنه تسلل الى بيت المغنية مانولا مشياً ، وباعها الطفل بربع ليرة ، وهي تدعو وتضحك ، وهو يرجو أن ينفع ذلك في رعاية الطفل حتى يكبر ويقوى عوده . وقد كتم ذلك عن الجميع ، وإنْ كان قد سأل الخادم ، متظاهراً بالمداعبة :

ـ في صغري وصغرك كانوا يبيعون الولد لمغنية . يعطونها بارة أو عثمنلية ، ويقولون فلانة اشترت ابن فلان . تذكر ؟

قال الخادم :

ـ الأكابر كانوا يفعلون يا سليم أفندي . والمغنية تكون يهودية ، أم نسيت ؟

ـ كلما كبرنا نسينا ، ولكن هل تصدق ؟

ـ لا أصدق ولا أكذب . الحامي هو الله .

ـ لا إله الا الله .

قال سليم أفندي وهو ينصرف إلى الصحف ، يتأمل صورته في جراب الكردي بين كثيرين ممن يجهل ، ثم يقرأ مقاطع فاتته ، أو يعيد قراءة مقاطع أعجبته من حط بالخرج خاصة ، يضحك لغمزة من هذا وذاك من المؤتمرين ، ويتأسى على غيابه . ولم يطل به ذلك حتى دخل رضا بك الزرب ، فلاقاه مهللا :

ـ أهلاً بالشريك ، أين عارف بك ؟ الحمد لله على سلامتكم .

ـ أين اختفيت ؟ والله ماقصّرت . كثيرون فعلوا مثلك وأداروا ظهرهم .

قال رضا بك متذمراً . ولما اطمأن الشريكان على غياب سليم أفندي ، قال عارف بك :

ـ موعدنا الساعة الخامسة مع سمسار تحت يده مكتب يليق بمشروعنا . دللت عليه رضا بك ، وأعجبه . تقدر أن تراه الآن يا سليم أفندي ، ثلاث غرف وصالون ، فوق استوديو سيتروني ، كل شيء جاهز ، والمفتاح في جيبي .

قال سليم أفندي :

ـ خير البر عاجله . نرجع ونشرب الشاي .

ونهض يتعجل أن يعاين أول خطوة الى معمل المياه الغازية ، ويحدث شريكيه عن معمل بواري البسكويت .

كان الستوديو قد عاد كأنه لم يدمر ، بعد أن نشر صورة المندوب الفرنسي الضاحك فوق ركام سيدي عامود ، وهو يشرع غليونه . وكانت صورة حديثة للباشا شكيم تتوسط واجهة الاستوديو ، وحولها صور أصغر لآخرين ممن حضروا المؤتمر . توقف سليم أفندي أمام الصور قليلا ، يتبسم ويبحث في سره عن صورة له ، أو لأي من شريكيه ، ثم يلحق بهما ، ولايكاد يتجاوز الصالون الى الغرفة اليمنى المطلة على الشارع ، حتى يهتف :

ـ هذه لي .

ـ مبروك . اتفقنا إذن . ما سألت عارف بك كيف دبر هذه الصفقة وهو في المؤتمر ؟

قال رضا بك ضاحكاً .

ـ الفضل للمؤتمر ، قلت لك .

قال عارف بك ، فعقب سليم أفندي وهو يتأمل المقهى المقابل من شرفة الصالون :

ـ كنتم تبيعون وتشترون ؟

قال عارف بك وهو يلوح الى عدد من الرجال داخل المقهى :

ـ كلها تجارة . غيرنا كان يبيع ويشتري بالشام كلها ، وصوته يلعلع . تعال نسلم على بعض الأصحاب ونعرفك بهم .

قال سليم أفندي وهو يتقدم الى الدرج :

ـ علينا أن نشد الهمة ، بدأ الجد ، الآن دورك ودوره ، وقبل أن تعمروا البناء أكون استوردت الآلات ودبرت العمال ودربتهم ، هذا الأسبوع أسافر الى بيروت .

قال رضا بك :

ـ صاحبك طمع ، صحيح أنه لايحدد الثمن ، ولكن أعرفه أكثر منك .

ـ من ؟ عارف بك ؟ وعلى من يطمع ؟ عليّ وعليك ؟ رجله بالفلق معنا . اليوم نكتب العقد ويقول لنا مايريد بالأرض كلها ، لانصفها كما حكينا من قبل . النصف الثاني يلزم لمعمل البواري .

قال سليم أفندي ، فهمهم عارف بك :

ـ سامحك الله يا رضا بك ، الأرض وصاحبها فداكم ، خذوها كلها كما يقول سليم

أفندي . إذا ما فتحنا معمل البواري نوسع معمل المياه الغازية . أرض ذهب ، تلزم على كل حال . أفضل من أن يأخذها غريب . من أول كلمة قلت لك وله إذا بعت النصف اليوم ، أبيع النصف الثاني بكره ، لاطمع ولا غيره .

كانوا قد دخلوا المقهى ، وعارف بك يحيّي الطاولة الملاصقة للزجاج ، ثم يقدم سليم أفندي للجالسين ، فإذا بأحدهم يرحب به بحرارة ، وسليم أفندي يستدكر واحداً من أصحاب مغازل الحرير ، أو من أعضاء المؤتمر .

قال الرجل وهو ينقل عينيه بين الزجاج وسليم أفندي :

ـ تعال احكم بيننا ، رضا بك يعرف ، وعارف بك يعرف . عمالنا فضحونا يا سليم أفندي صاروا يهددون : الأجرة الأجرة . المخازن طافحة ، والسوق كاسدة ، ورضا بك يضحك ويقول : زيدوا ربع ليرة في اليوم ، وغيره يقول : زيدوا نصف ليرة . بيننا من يقول هذا .

وأشار الى جليسيه ، على يمينه ويساره ، فقال رضا بك برماً :

ـ ما خلصنا من هذه المشكلة ؟ شهر وأنتم على هذه الحال ؟

جاء صوت الرجل شاكياً :

ـ أيادي السوء تلعب يا جماعة ، تحرك العمال . صار عندنا نقابات تحكي ولسانها يطول ، أعوذ بالله .

فسأله سليم أفندي :

ـ كم عامل في معملك ؟

ـ مئة بالتمام والكمال .

ـ ماشاء الله! وكل هذا الغضب من أجل ربع ليرة ؟

ـ مئة ربع يا سليم أفندي تساوي كم ؟ في الشهر تساوي كم ؟ في السنة ؟ احسبها لي ، أم أنك مثل رضا بك وعارف بك ؟ قلت لنفسي : وراء شركتكم سرّ . انتم اليوم ما عندكم عمال . إذا يسّر الله وقام معملكم ، تذكروني بالخير .

قال رضا بك :

ـ غيرك عنده أربعمائة عامل ، والآخر عنده نصف ما عندك . ما سمعت هذا الكلام إلا منك ، من يسمعك يقول قامت القيامة .

قال الرجل :

ـ كلهم صوتهم أعلى من صوتي ماعدا ثلاثة أو أربعة قلوبهم مثل قلوب النساء .

غمز يميناً ويساراً نحو جاريه ، قال سليم أفندي :

ـ لو زدت فهذا أفضل لك . الحرص غير البخل . والقناعة غير البخل والطمع . البخل والطمع مثل الداء ، يقتل النفوس ، ولا يورث غير الضغينة والغش ، فلا يعود العامل يخلص ، وابن آدم إذا جاع يسرق ويقتل . حتى لو كانت الأصابع الخفية تلعب ، لماذا لانقطع الدرب عليها ؟

قال الرجل :

ـ من يسمعك يظنك منهم ، أنت معنا أم معهم ؟ يقولون انتخابات النقابات قريبة . ونويت عليها بعدما طارت منك غرفة التجارة ؟ هذا باب يا سليم أفندي إذا انفتح من يغلقه ؟

ـ أنا مع الحق ، والرسول عليه الصلاة والسلام أوصانا بالأجير ، وهذا كلامي في غرفة التجارة وقبلها وبعدها ، لوكان المعمل معملي ما قلت غير هذا . الناس جوعى ، خاصة بعدما جرى من سنة أو سنتين ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

قال سليم أفندي وهو يداري غيظه ، ثم انسحب معتذراً . ومن باب المقهى تأمل الستوديو ونافذة غرفته هنيهة ، قبل أن يسرع الى البيت ، وهو يرى نفسه وشريكيه وعشرات من العمال ، في يوم قريب ، كما كان ذات يوم مع عمر التكلي ، أو عبد الودود السعد ، أو طه اليتيم . ولما أطلت الدودج عليه ، تماثلت له الطريق الى بيروت ، فتوقف يفكر في أن الخواجة ثابت لن ييسّر له فقط استيراد الآلات ، فهذا ما يمكن للباشا شكيم أيضاً أن ييسّره ، ولكن عاملاً ماهراً واحداً على الأقل ينبغي أن يأتي من بيروت ، مهما يكن أجره ، كي يدرب سواه ، ويضمن جودة الانتاج منذ اليوم الأول والزجاجة الأولى ، وكان علاء يحوم حول السيارة ، قبل أن يجفله صوت الخادم ، محذراً من قدوم أبيه .

★★★

في عيني الست زهرة كان الباشا شكيم يقرأ العتاب ، إذ حاول أن يتهرب من الزيارة التي اقترحت بصحبة الست لميعة والمستر بيجبيت . لم يكن قد زار بيت حميه منذ احتفل مع المحتفلين بتوحيد دولتي دمشق وحلب ، ووقف في شرفة السراي ، ينكر على أفواج الناس أنها تمر غير آبهة ، فيما الأبواق تصدح ، والمصورون يلتقطون الصور ، والخيالة تتباهى في عرضها ، والقبعات الفرنسية المثلثة تشمخ .

بعد أسابيع معدودة من ذلك ـ ما عاد يذكر جيداً ـ اقترحت الست زهرة زيارة أخرى ، لكنه كان راغباً في أن يرى جسر فكتوريا يصل بين ضفتي النهر ، وأحزنه إذ ذاك أن الجسر ناجز ، إلا أن الفرنسيين لم يسمحوا بعد باجتيازه ، بانتظار المندوب الفرنسي الجديد الذي وصل بعد أيام ، ولم يشأ الباشا أن يكون غائباً عن استقباله ، أو أنه لم يكن قادراً ، حتى لو أن الست زهرة قد حددت قبل اسبوع ، ذلك اليوم ، ميعاداً لزيارة أهلها .

كانت المثلثات الرامزة للماسونيين الفرنسيين تزين الأقواس فوق النهر ، والمدافع تدويّ ، والسوريون الذين جندهم الفرنسيون يتباهون بألوان ملابسهم ، إلا أن الصمت المقبض جعل الباشا يحسب نفسه في مجلس عزاء حميه ، خاصة بعد أن أخذ الفرسان يعبرون وعلم أخضر في وسطه هلال يعلوهم .

طوال الطريق ظل صامتاً ، يتأمل البيوت والمآذن وسفح قاسيون ، مواقف الحافلات والكناسين والحمير والمقبرة المكلّلة بالآس ـ فاليوم هو الخميس ـ وفي البيت لم يغادر صمته إلا قليلاً ، ولم يفت ذلك المستر بيجبيت الذي همس في أذن لميعة ، يتعجّل العودة ، قبل أن تقترح الست زهرة العشاء أيضاً .

كانت عودة لميعة وبيجبيت إلى لندن قد أوشكت . والباشا الذي شغله المؤتمر عنهما يتحيّن هذه الليلة ليخلو بهما ، وقد أعد منذ أيام . لكن الورقة التي دفع بها اليه المستر بيجبيت ، قبل العشاء ، أنسته ما أعدّ . وما إنْ انتهى منها حتى نادى الست زهرة ، وشرع يقرأ كأنه يخطب : إنّ المفوض السامي بعد أن درس استقالة سموكم من الناحية السياسية ، وجدها موافقة كل الموافقة لما تتوخاه فرنسا لسموكم من مستقبل باهر ، يتفق ومصلحة سورية ، ألا وهو تتويجكم ملكاً عليها ، تلبية لرغبة أبنائها . . . ولذلك حبذ المفوض السامي بقاء سموكم على الحياد في المعترك القائم بين الأحزاب الوطنية المتطرفة والمعتدلة . .

وقطع قراءته متسائلاً :

ـ وهم الذين يريدون مني أن أشكل الوزارة ؟

همست الست زهرة :

ـ ما علاقة هذا بهذا ؟

قال الباشا مغالباً حنقه :

ـ كان شرطي الوحيد أن يستقيل . هذا ليس برئيس . قلت لهم لا ألوث يدي بيده . هو

ليس غريبا عنا فقط . يده ملطخة بدماء الناس ، وأنا لاأقدر ولا أقبل ، قالوا : يمشي اذن ، هه يجعلونه يمشي اليوم حتى يعودوا به غداً ملكاً عليّ ؟

قال المستر بيجبيت :

ـ أنت متعب يا باشا . المؤتمر أتعبك ، ولو كان الوقت مناسباً كنت قلت لك : استرح اسبوعاً ، الأمر لايستحق هذا الانفعال ، لو كانت رسالة مهمة لما حصلت عليها بسهولة ، هذه لعبة ، لا أكثر ولا أقل ، هذه الرسالة لك ولغيرك ، أكثر مما هي للرئيس . بها ، ومن دونها ، لو قالوا له استقل ، يستقيل أم لا ؟ أظنه الآن قدم استقالته . وأظنهم غداً يقولون لك تفضل وهات وزارتك ، المؤتمر أقر النظام الجمهوري ، وبعد فترة قصيرة يكون وراءك حزب كبير . حتى لو أنك لاتريد أن تسميه ، حتى لو أن أصحابك لايريدون. الاسم ليس بالمَهَمّ ،أنتم الآن حزب ، وفرنسا تمد يدها لكم ، والوزارة وزارتكم ستكون . أظن أنهم لن يتركوك تشكلها بسهولة ، ولكن هذه لعبة ثانية .

قالت الست لميعة :

ـ المهم الآن أن تفكر برجالك وبرنامجك .

قال الباشا :

ـ برنامجي صار قرارات للمؤتمر ، وما عاد سراً ، العفو العام أولاً ، الدستور ثانياً . الانتخابات ثالثاً ، أنت تعرفين. توحيد البلاد ، والحزب والصحافة . .

تبسّمت الست زهرة مقاطعة :

ـ من شهر ماسمعنا منك إلا : واحدة واحدة .

قال المستر بيجيت :

ـ لابأس. هذا برنامج . ولكن التفاصيل مهمة جداً ياباشا .

قالت الست زهرة :

ـ الحزب يجرّ عليك المتاعب ، حتى لو كان الناس معه ، دائماً يوجد من ليس معك ، ولو كان على خطأ . أجّل هذا الآن. كيف توفّق بين حزب واحد حاكم وبين صحافة لمن يشاء ؟ أنت أدرى مني يا باشا . حرية التعبير واحدة ، ومادامت فرنسا هنا ، الحرية ناقصة ، والحزب الواحد يضاعف نقصها .

قال المستر بيجيت :

ـ أهم من هذا التفاصيل . أتاتورك لم ينس حتى الطربوش .

تبسّم الباشا متسائلاً :

ـ تريدني أن ألغي الطربوش مثله أم أبدل حروفنا باللاتيني ؟

قال المستر بيجيت :

ـ حولك من يطالب بهذا . ولكن قصدي غير ذلك .

قال الباشا :

ـ بناء المدارس ، المحاكم المختلطة ، القضاء سوري فقط ، ولا سلطان عليه ، ومسح الأراضي : هذا الذي وزعوه من المشاع ومن الوقف والأميري وسواها على الملاكين وعلى أحبابهم ، أريد أن أحله بالعدل . الفلاحون أولى ، ولا أريد إلا مافعلوا في فرنسا ، حتى لايقول أحد : بلشفة . البدو أيضاً أريد لهم حلاً . الأمير دشاش وحدة دولة ، نصف البلاد بأيدي البدو .

قالت الست لميعة :

ـ كأنك تبحث عن المشاكل ، اليوم كلهم معك ، وبعد سنة كلهم ضدك .

قال المستر بيجيت :

ـ ولأني أتوقع هذا ، أرجو أن نتمكن بأسرع وقت من الاتفاق على مرور أنابيب النفط ، آبار الموصل تنتظر . اذا تمّ هذا ، فالباقي هيّن ، وليته يتم على يديك ياباشا ،

صمت الباشا قليلاً ، ثم جاء صوته خافتاً :

ـ كل يغني على ليلاه ، وأنا ليلاي الشام . قبل ما تحبل جابت كمون . وقبل ماتولد سمته مأمون . ادعوا لي أن يأخذ الله بيدي حتى أبيض وجهي مع الجميع .

والتفت الى الست زهرة كأنما يبثها الشكوى ، فهفت إليه ، وتبسّمت حانية ومشجعة ، ثم تساءلت :

ـ نسينا العشاء ؟

★★★

28

عطلت وفاة الشيخ رزق عزم نجوم الصوان على السفر الى بيروت ، والبحث عن ترياق ، حتى لولم يرافقها عزيز . ومثل العجوز التي لم تعد تتكلم بعد وفاة الشيخ ، ظلت نجوم أياماً ، حتى جاء نجيب أبو كارة خائفاً يلهث :

ـ عزيز في التحقيق ، وأظن أنهم لايتأخرون عنك أيضاً ، لاأحد منا والله أعلم ينجو من هذا التحقيق :

عصر اليوم نفسه اقتيدت والعجوز الى المخفر وسط المدينة ، وكان إلى جانب عزيز نجيب أبو كارة ونظمي بدير وفرحان النقشة وثلاثة آخرون أكبر سناً . عندئذٍ تيقنت من أن فياض العقدة قد قتل ، وغادرتها الشماتة . تطلعت الى عزيز كأنما تغسل فؤادها من الحقد ، ترجو ألّا يكون له يد في مصرع فياض ، وقبل أن تخرج والعجوز من المخفر ، غمرتها سكينة مبهمة . ولعلها كانت حزينة على فياض ، مشفقة على عزيز ورفاقه ، أكبر ثقة بنفسها وبالأيام القادمة ، مادام المحقق يريد نافع الصوان من تحت الأرض . كانت أماً لذلك الطفل الذي شبّ بعيداً ، واقتص لها ممن أذاها، وأذى كثيرين سواها . كانت مشوقة إلى نافع ، تتعزى به عن ترياق وعبد اللطيف ، وعما قد يلاقي عزيز ورفاقه بسببه ، تداري قلقها باعتزاز غامر ، ولم تعد شقيقة كبرى وحسب .

لم تستطع أن تعود الي التطريز حتى أفرج عن عزيز والآخرين في اليوم الثالث . كانت تنتظر منذ الصباح أمام المخفر ، شأنها كل يوم ، حين أطلّ عليها ضاحكاً ، وافترقا عن الآخرين يتعجلان الوصول الى بيت الشيخ .

ربما كانت تسمع في كل خطوة له ، أو نبرة ، سؤاله المكتوم . فتلتف على نفسها وعليه ، كما فعلت منذ عاد من المشرقة ، ترى نفسها ويراها : رقيقة وحاسمة . إنها تحبه ، ولكن على طريقتها . وهو يتلع بعنقه إليها ، كما يلوي عنها ، وهي السيف الملازم ، فلا فكاك ، فقد يتزوّجها ، وقد تقيم مع العجوز شتاءً آخر ، لكأن الشيخ

رزق لم يتوفّ ، أو تعود الى مرجمين ، تغضب منه ، ويغضب من نفسه كلما ألحّ ، فينطوي على سؤاله ، يضيق بشغله في المصبنة ، وحمص التي هدأت ، على الرغم من أن الشام تتفجّر ، يلجأ الى نجيب وفرحان ، يسعى معهما ، ويذوب الثلاثة في الحشد المضرب ، لافرق بين مصبنة أو نول ، ونجوم تخشى عليه من السجن ، ومن جمر المدينة ، وإنْ كفّنها الرماد طويلاً ، فقد يفرقها القتال إذا لم يفرقها الإضراب ، ويفكر في أنّها على حق ، إلاّ أن الحياة لاتعاش هكذا ، فالناس يحبون ويتزوجون وينجبون ويقاتلون ويشتغلون ويضربون ويموتون .

الآن ، باتت أقدر على أن تسافر الى بيروت ، واثقة من أن عزيز سوف يرافقها ، لولا أنّ نجيب لحق بهما ، وبادرهما قبل أن يجلس :

ـ أخذوا فرحان النقشة من جديد .

ـ متى ؟ ماكاد أن يصل الى بيته .

تساءل عزيز ، وبهتت نجوم .

ـ كانو ينتظرونه في البيت .. تذكر ما قال في السجن ؟ كان خائفاً أم لا ؟

قال نجيب . فسألت نجوم متوجّسة :

ـ ماذا قال ؟ تخبئون عني ؟

قال عزيز مهدئاً :

ـ قضية ثانية ، غير فياض وغير نافع يا نجوم .

قالت متراجعة :

ـ حتى لو كانت قضية ثالثة . تخبئون عني ؟

قال نجيب :

ـ جاء دورك يا نجوم ، عزيز نفسه لايعرف إلا القليل .

قال عزيز :

ـ قبل السجن ما كنت أعرف .

تابع نجيب :

ـ جارته كشفت السرّ . من كان يحسب أنهم وضعوا علينا بدل الجاسوس جاسوسة ؟الآن صدقت كلامه ، وما أحد كشف السرّ يوم كنا ننوي الهجوم على السجن غير جاسوسة ثانية أو عاشرة ، كما قال . أختي بدأت من اليوم تتلصص على بنات الكلب ، ونجوم جاء دورها . العجوز أيضاً يمكن أن تنفعنا ، هذه الحارة كلها ، من المحطة ، الى هذا

البيت ، الى العاصي ، عليك يا نجوم وعلى العجوز . علينا أن نكشف أسرارهم ونعرف من سلطوا علينا من بنات الحرام . كيف؟ لاتسأليني ، أنت وشطارتك. تحرشي بأية امرأة غريبة واعرفي غرضها . وهذا ليس كلامي ، ماكنت بدلت ثيابي حين أرسلوا لي صهري . قال فرحان رجع الى السجن ، والسبب واحدة من إياهن . قبل فرحان وقع في الفخ ثلاثة ، سمعت بهم يا عزيز ؟ سمعت يا نجوم ؟ الخطر يكبر ، وعلينا أن نلاقيه ، خاصة أن المعارك صارت قريبة ، والله أعلم .

انصرف عزيز ونجيب يتحاشيان أية عين قد تكون متخفية خلف نافذة أو حجاب ، وما إن اقتربا من المحطة حتى همس نجيب :

ـ ما قلت لك أمام نجوم يا أخي . الأوامر : من يثبت عليها التجسّس للفرنسيين تقتل ، خفت أن تفزع نجوم ، ولا تقبل أن تساعدنا ، إذا عرفت هذا . وإذا صدقني قلبي ، أيام الضجر ولّت ، والخير قدامنا ، أظنهم يحضرون لمعركة كبيرة . كيف عزيمتك ؟

لم يفترقا ذلك اليوم حتى جاء نظمي بدير. كانا قد فرغا من العشاء للتوّ ، ولم يكن عزيز ونظمي قد التقيا منذ جنازة الشيخ رزق ، الا في السجن ، ولعل الجفاء كان سيطول بينهما لولا ذلك . كان وجهه شاحباً ، فهفا إليه عزيز ، وعاجله نجيب :

ـ خبر جديد ؟

قال كأنما ينتزع الكلام انتزاعاً :

ـ أرسلوا يسألون عن الذين يعرفون عكار . يريدون من يستطلع هناك .

ـ هذا خبر مفرح ، لا أظنه يكدرك .

قال نجيب .

ـ من قال لك إنّي مكدر؟ أنا سأذهب الى عكار ، ما سألوك ؟ ما سألوا عزيز ؟

تساءل نظمي مغضياً .

ـ وأنا معك . ما سمعنا إلا منك ، ولكني أعرف عكار .

قال عزيز .

ـ استطلعوا لي جيداً إذن . المعركة هناك كما أظن . ولكن عكار بعيدة ، لماذا ؟ ماعدنا قادرين على شيء في المدينة حتى نحارب هناك ؟

تساءل نجيب .

ـ الجواسيس هم السبب ، المدينة خامدة من شهور ، ولا أعرف سبب تسليط العيون الآن .

قال نظمي .

ـ أكيد تسرب الخبر عن عكار أو غيرها ، متى نتيسّر ؟

سأل عزيز ، فقال نظمي وهو يتهيأ للانصراف :

ـ لا أعرف بالضبط ، خلال يومين ، ثلاثة .. المهم أن نكون جاهزين .

ـ أنا جاهز الآن ، انتظرني .

ونهض يودع نجيب الذي ضحك وصاح به :

ـ ما بك ؟ كأنك ذاهب للمعركة الآن !

★★★

مرة أخرى تعطل السفر الى بيروت ، وإنْ كانت نجوم تمنّي نفسها بعودة عزيز سريعاً من عكار ، بما كُلّفتْ به . أما عزيز ، فقد انطلق الى عكار ، يتلمس أصابع يمناه ، كأنها لم تنسحب بعد من أصابعها ، ويطوي كفه الأيسر ، ويبسطه ، كأنه لازال ملتحماً بكتفها ، فقد حرمته منذ عادا من المشرقة من أن يلمسها ، دون أن تنطق بحرف .

في السهل اشتبهت عليه رائحة نجوم وحمص بما يحمل الهواء من الجبل . ومالبث الهواء أن هب أقوى من الغرب ، يحمل رائحة هيلانة ، والسنين الغائرة في القلب ، والبحر الذي لم يعد بعيداً ، ولم تكن ثمة قوة تذكر للثوار ، بينما كان الفرنسيون يتكاثرون ابتداء من تلكلخ .

ظل نظمي في الذهاب وفي الإياب منقبضاً . لم يستطع عزيز أن يخرجه مما به ، وقد فاجأ الجميع بإصراره على الاشتراك في المعركة ، على الرغم من أن دوره قد انتهى ـ كعزيز ـ في الاستطلاع .

كانوا جميعاً لاهين عنه ، ليس فقط لأن الانطلاق الى عكار بات بين ليلة وأخرى ، بل لأن جاسوسة قد قتلت ، وواحدة من عيون الثوار قد ألقى القبض عليها ، وضابطاً سورياً كان في قيادة السجن قد اغتيل .

أما نظمي ، فقد كان لايزال يفكر في أن يقتل امرأته ، ويدعي أنه ضبطها تتجسّس للفرنسيين . لقد حملت أخيراً ، على الرغم من أن بطنها لايزال أملس . فاجأته بالحمل ضاحكة وهي تهنئه بالخروج من السجن ، فارتدّ عنها ، وهمت كفّاه أن ترتفعا الى السماء شاكرتين ، لكنهما أسبلتا ، وتقلّصت شفتاه وهو يسأل :

ـ كيف ؟
ـ من شهرين ما جاءتني الدورة .
ـ قلت لك كيف ؟
صاح بها ، فتراجعت فزعة ، أمسك بخناقها هامساً :
ـ حفرنا وطمرنا سوية ، تعرفين كما أعرف : نظمي بديّر بذاره مقطوع ، كم دكتور وكم شيخ قالوا لك وقالوا لي ؟ تضحكين على ذقني ؟ فعلتها ؟
تعوذت المرأة بالله ، وتضرعت إلى نظمي الذي انفكت أصابعه عن عنقها ، ولغا لسانها مذعوراً ، فقد ركبها الجني ، وهذا الحمل منه ، ونظمي يود لو يصدق ، يستزيدها ، ويعود لسانها يلغو ، أقل ذعراً ، يود لو تفسح له حتى يتلذذ ، ولكن نظمي لايصدق ، فتنهال أكفه عليها ، ويغادر البيت عازماً على أن يعرف الحقيقة من أحد ما في المدينة ، قبل أن يطلق رصاصة على تلك الزانية ، أو المباركة .
تبسّم الدكتور وهو يستمع إليه ، ثم قاطعه قائلاً بحزم :
ـ هذا حكي العجايز ، حكي أجدادنا ، لاتضيّع وقتي أرجوك .

أما الشيخ الأول فقد أطال التمتمة قبل أن يقول له :
ـ الجن مثلهم مثل البشر ، والله عليم بالأسرار .
سأل نظمي :
ـ مرّ عليك بشر حكى لك مثل حكايتي ؟ تعرف واحدة حصل معها هذا ؟
قال الشيخ وهو يمد كفه متعجلاً :
ـ خلف جبل قاف العجائب ، والجن من هناك إلى هنا يا ابني . . مع السلامة .
لكن الشيخ الثاني قرّعه ، وأعاد عليه ما قال الدكتور مضيفاً :
ـ الواحدة تركب من خلف ظهر زوجها ، تضحك على إيمانه ، وتقول حبّلني الجنّي . والواحد منكم أيضاً يرمي بذرته بعيداً . يخالف الله ، ويضحك على إيمان زوجته ، ويقول ركبتني الجنّية . عيب يا بشر . حرام يا بشر . الجن مثلنا ، والله على كل شيء قدير ، ولكن لا ترموا ذنوبكم على الله ، لا ترموها على الجن . إن كيدهنّ لعظيم .

تلك الليلة جاءه من يحدثه عن عكار ، فقيد امرأته ، ولجأ إلى نجيب ، ثم فرّ إلى بيته ، ومن دون نحيبها ما كان قادراً على أن يغفو . كذلك قضى الليالي التي فصلته عن عكار ، ولم يفك قيدها إلا لحظة تنكب بندقيته ، وانطلق يلاقي عزيز .

كان عزيز يحسب أن ما بنظمي بقية مما قبل السجن ، ولعل ذلك ما دفع باسم نجوم أو أخوتها أو فياض أو الخواجة ، على لسانه ، وهو يحسب أنه يتحاشى أن يذكر أياً منهم . بيد أن نظمي الذي صمت أو تجاهل في الذهاب ، هو من فاجأه في الإياب :

ـ اذهب إلى بديع الطارة قبل أي سؤال وجواب . اسأل عن السجن ، خلف السجن العمارة الثانية . غرفة بديع تطل على السجن كما قال لي . شباكها على السجن . الغريب دائماً مثل الأعمى . هو يدلّك على الخواجة ويساعدك . لو يحضر قبل سفرك . ادع .

شد عزيز على كتف نظمي ممتناً ، غافراً له ، أو مقدراً ، أن لم يفكر نجوم ، فيما كان نظمي يكتم حنقه على نفسه وعلى البندقية التي لم تجرؤ على أن تنطلق ، يأمل أن يعود فيجد المرأة قد نجت بجلدها ، فاستراحت وأراحت . وربما كان يرثي لعزيز كما يرثي لنفسه بسبب نجوم الصوان تارة ، ويرى تارة أن عزيز يفضله ، إذ ركب نجوم ـ لا بد ـ دون أن يتزوجها . ولم يكن مابه على كل حال نحو امرأته بأهون مما به نحو نجوم ، أو نحو أي من النساء أجمعين .

حين عاد من عكار وجد المرأة كما وجدها عندما خرج من السجن . كان وعزيز قد انتظرا على مشارف المدينة حتى أطبق الظلام ، فتسلّلا . ولعله كان يتمنى أن يبارحه عزيز على المفرق المؤدي إلى بيت الشيخ رزق . لعله كان يتمنى أن تكون امرأته بانتظاره ، لا ليقتلها ، بل ليهيىء قتلها بروية . ولما رآها تتطلع إليه لهفى ، وتحمد الله على عودته سالماً ، تنحى عنها قائلاً :

ـ اسمعيني يا امرأة . لا تجعليني أقضي على نفسي وأبتلي برأسك . إذا بقيت هنا سأقتلك . أنا أقولها لك ملء فمي .

وجلس على الكرسي مركزاً البندقية بين ساقيه . جلست المرأة قبالته ، وأطرقت طويلاً ، وربما بكت ، إلا أنها لم تكن خائفة ، ثم رفعت رأسها إليه ، وحدقت فيه تخاطبه بحزم :

ـ وأنا أقولها لك ملء فمي : لو شئت أن تقتلني فأنا بين يديك . إذا قتلتني أهون عليّ من أن أمشي من بيتي . احرمني إذا أردت من الولد الذي قضيت عمري معك انتظره ، ولكن لاتحرم نفسك . اتركني إذا أردت حتى الولادة ، ثم اقتلني . لاتقتل ابنك يانظمي . لاتقتل نفسك معي ومعه . أنا أعرفك وأنت تعرفني . لما استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائي ودعائك طار صوابك ؟

كالهارب من نفسه ومنها أقام في البيت ، لا يكلمها ، وقضى الأيام التي فصلته عن الانطلاق مع المقاتلين إلى عكار ، يرجو أن يكون مخطئاً ، حتى لو لم يعد من القتال ، ويرثي لأولاء الذين يضربون به المثل ، بمن لم يكفه أن استطلع ، بل أصرّ على أن يقاتل ، ولو لم يطلب منه ذلك .

أما عزيز فكان يتحين الفرصة كي يتأكد مما إذا كانت نجوم الصوان قادرة على أن تغيب ، وكانت نجوم تلح عليه بالسفر إلى بيروت ، بعد أن تطمئن أو يطمئن هو على أن ذلك لا يخالف المهمة المناطة بها ، على الرغم من أنها ـ والعجوز ـ لم تستطيعا أن تفيدا بشيء حتى الآن .

★★★

استقبلت مدام لور لدقائق نجوم وعزيز وبديع . وأفسحت لترياق بعد انسحابها دقائق أخرى معهم . بدت الأختان مثل غريبتين ، وطار من نجوم ما هيأته منذ سنين لهذا اللقاء . كانت ترياق امرأة أخرى ، لا نسب يصلها بتلك الطفلة التي فقدتها نجوم في مرجمين . أما عزيز ، فكان يفصّل في الشبه بين الشقيقتين ، وترياق تبتسم لا مبالية ، حين جاء صوت مدام لور :

ـ كفى يا ترياق . الضيوف يحضرون اليوم أبكر . ابقي يا نجوم إذا أردت مع أختك . تجيدين مثلها ترتيب الطاولة ؟

اختفت ترياق ضاحكة ، وتلاقت عيونهم مستنكرة ، ثم نهضت نجوم غضبى ، فناداها عزيز :

ـ إلى أين ؟ تعالي . نخرج الآن ونعود عشية . يكون الخواجة هنا .

كان الوقت عصراً ، وبدت العشية تنأى ، ونجوم صامتة ، لا يعرف إن كانت مشدوهة أم خائبة ، حزينة أم فرحة ؟ ولما عادوا رفض الحارس المسائي أن يسمح لهم بالدخول حتى يأذن الخواجة ، فوقفوا أمام القصر ، يتحاشون الهواء المشبع برائحة البحر ورطوبته وصخبه ، ويتفرجون على السوار الأخضر الذي تتناثر فيه الأضواء الخافتة .

بعد لأي رحب الخواجة بنجوم ، معتذراً عن تأخره في النوم ، فقد أكثر من الشراب على الغداء خلاف عادته . لم تظهر مدام لور ، ولم تحضر ترياق إلا مرة واحدة مع فناجين القهوة . التفت الخواجة ـ وترياق تومىء لنجوم ضاحكة وتدير ظهرها ـ إلى عزيز متمعناً :

ـ أنت إذن من حققوا معك بسبب المرحوم فياض ؟

اضطرب عزيز ، وبحث عن عيني نجوم الساهمتين ، فأردف الخواجة :

ـ فاجأتك ؟ أنا أعرف كل شيء . ولن أترك هذه القضية حتى أعلق مشنقة القاتل ، حتى لو كان نافع الصوان .

ثم التفت إلى بديع اثر رشفة طويلة متلذذة من الفنجان ، وسأل بلين :

ـ وأنت من ؟

كانت نجوم قد تاهت بين صوته والباب الذي أخفى ترياق والمشنقة التي قد تعلق لنافع ، فخرج صوتها راجياً وآمراً معاً :

ـ ترياق ترجع معي يا خواجة .

بهت الخواجة ، ونقل عينيه بين الوجوه الثلاثة ، وهو يضع الفنجان على زجاج الطاولة الصغيرة البراقة ، وتساءل :

ـ إلى أين ؟

ـ قد نعود إلى مرجمين .

أرخى الخواجة ظهره على التكية قائلاً :

ـ تعرفين أكثر مني : إلى مرجمين لا رجعة . تقيم معك في حمص ؟ لماذا ؟ لماذا لاتقيمين أنت معها هنا . أنا واثق أنك تتعلمين أسرع مما تعلمت . كانت طفلة ، وأنت صبية ، والست لور بحاجة إلى خادمة ثانية . ترياق تتعب هذه الأيام .

رنّ صوت نجوم في الصالة الفسيحة :

ـ بيت الصوان ما خلقوا ليخدموا الآخرين ، لولا فياض رحمه الله وسامحه .

وقف الخواجة يجهد في إخفاء غضبه ، فوقفوا جميعاً ، وقال :

ـ الخدمة في هذا القصر شرف يتسابق عليه الناس .

همّ عزيز بالكلام ، فقاطعته إشارة الخواجة متابعاً :

ـ ترياق لا ترضى . وعبد اللطيف لا يرضى .

ـ وأين عبد اللطيف ؟

ـ إذا رغبت أحضره لك إلى هنا خلال يوم أو يومين .

هم بديع بالكلام ، فنهره الخواجة :

ـ ما شأنك أنت ؟

ثم التفت إلى نجوم ممازحاً :

ـ إذا بقيت معنا عليك أن تكوني أهدأ وألطف . موعد الضيوف حلّ . ماذا قررت ؟ تبقين معنا أم تذهبين ؟

ساءلت عيناها عزيز ، فأشار إليها كي تتقدمه ، لكنها عادت إلى الخواجة ، وهمست مرتبكة :

ـ اليوم أبقى هنا . تعال يا عزيز غداً إذا كان بديع لايقدر على الحضور معك . بكّر .

قال الخواجة :

ـ السائق يوصلك . لا تنسي أنه لايجوز أن تظل أي قدم تروح وتجيء إلى هنا .

ـ لكنها لاتعرف كيف تصل . .

قال بديع بجفاء ، فنهره الخواجة :

ـ دل الحارس على قصرك . ما شأنك أنت ؟ مع السلامة .

★★★

لفت الغربة نجوم طوال الوقت . لم تستطع أن تتناول العشاء الذي قدمته ترياق في المطبخ . لم تعرف كيف تمشي أو تتفرج أو تبول أو تتكلم أو تشرب . كما أن ترياق لم تكد تصغي إليها ، ولا تكلمها ، بعد أن ردت ضاحكة :

ـ اتفقي مع الخواجة ، ومع عبد اللطيف . اسمعي مني وعيشي معي هنا .

ضجت الصالة بكثيرين وكثيرات ، وصلوا بعيد انصراف عزيز وبديع . ورأت نجوم نفسها حبيسة أصناف الطعام والآنية وصخب الطباخ ، والصخب الهاجم دوماً من الصالة ، ونشوة ترياق . انتهت السهرة مبكرة ، وخرجت من السجن إلى الصالة التي فاحت بروائح مزكمة ، شهية ومقرفة ، حارت نجوم في أنها روائح الدخان أم البشر أم السجاد أم الشراب . وكانت ترياق منهمكة في تنظيف الطاولة الهائلة التي تمتد بين طرفي الصالة . ساعدت نجوم أختها على الرغم من أن الخواجة طلب إليها أن تجلس . ولما أطلت مدام لور بثوب سابغ بنفسجي ، أثنت عليها ، وتمنت أن تبقى مع ترياق ، فكرر الخواجة الثناء ، وأكد لزوجته أن نجوم لن تترك شقيقتها . وبوغتت نجوم به يضيف ، كأن كثيراً من كلامه قد فاتها :

ـ لا أنا ولا عبد اللطيف نسمح لترياق بالعودة ، حتى لو كانت راضية .

في الغداة قبعت وحيدة حتى الظهر . خرج الخواجة مع أحد السائقين ، وخرجت ترياق ومدام لور مع السائق الآخر ، وكان عليها أن تنتظر حتى يعودوا جميعاً ، فتصرّ على الّا تنتظر الغداء .

كان عزيز سجيناً في غرفة بديع الذي خرج مبكراً . ولما عاد ازدادت الغرفة ضيقاً بهم عنها بالأمس . انشغلوا معاً بتهيئة السمك الذي أحضر ، وهم يقلبون الأمر جزافاً . قال عزيز :

ـ لو رضيت ترياق لهان الأمر . وافق الخواجة أم لم يوافق .

أضافت نجوم :

ـ وافق عبد اللطيف أم لم يوافق .

قال بديع :

ـ لا تنسي : عبد اللطيف الآن هو رجل بيت الصوان .

قالت نجوم :

ـ مناي هذا . ولكن خوفي ألا يكون يا بديع .

قال عزيز:

ـ الخواجة واثق من عبد اللطيف .

قالت نجوم :

ـ وترياق مثل التائهة .

قال بديع :

ـ هي ضائعة ، وسعيدة بضياعها .

تساءلت نجوم :

ـ نلعب عليها ، ويوم نلتقي بعبد اللطيف نقنعه ؟ عودتها معي يمكن أن تعقل عبد اللطيف . خائفة يا ناس من أن تضيع مني إلى الأبد . خائفة أن يكون عبد اللطيف تائه وضائع أكثر منها .

بعد أن فرغوا من الغداء اضطجع عزيز قبالة صورة العذراء الصغيرة المدورة الملصوقة وسط زجاج النافذة ، مطلاً على السجن ، يفيض امتناناً لنظمي بدير ، وقال بديع :

ـ اتركوا الأمر علي . أنا هذه الأيام لا خلفي ولا قدامي . ليس أسهل من أن أخطفها من قلب القصر ، وخلّوا الخواجة يبلط القصر والبحر .

استحسنت نجوم قوله ، فأضاف :

ـ الخواجة كلمته لاترد في المفوضية . الفرنسيون يخطبون مودته . كل من له اصبع تبعص في بيروت والشام كلها يخطبون مودته . وخلف الكفوف البيضاء الناعمة يخفي أصابع لاترحم .

قال عزيز :

ـ تخوفنا؟

ـ أنوركم .

قالت نجوم :

ـ والرأي ؟

قبل أن يتوزعوا في أنحاء الغرفة أشياء بديع ، ويناموا ، كانوا قد اتفقوا على أن تقيم نجوم في القصر ، تحاول أن تكسب ودّ ترياق والخواجة ومدام لور ، ولو اقتضى ذلك أياماً . فإن أخفقت ، فسوف يكون قد غدا بوسعها أن تخرج بترياق ، أياً كانت الحجة ، وتأتي بها إلى غرفة بديع ، أو إلى أي مكان ، حيث يمكن لعزيز أن يلاقيها ، وأن ينطلقوا إلى حمص . وكانت نجوم تداري وساوسها ، مادام هذا الذي تلفه الظلال المنسربة من النافذة قريباً ، وأنفاسه تلفحها ، على الرغم مما بين ما تمددا عليه ، وكان بديع يشخر في الزاوية المقابلة .

★★★

توجهت إلى القصر مبكرة ، تفكر في ثغرات ما رسموا ، فهو سرقة حقاً ، أو خطف كما سماه بديع ، والحكومة تعاقب عليه ، إذا ظلت ترياق معارضة .

من بعيد وقف عزيز وبديع يراقبانها وهي تنتظر الإذن بالدخول ، ثم تختفي خلف الباب الشاهق . ادعت أن عزيز أوصلها وانصرف ، وانكمشت لما قال الخواجة : إن ترياق والمدام في الخارج . لم تستطع أن تميز في نظراته بين الترحيب والضيق ، التهديد والهزء ، القوة والغدر ، كما خشيت أن تقرأ في عينه الإعجاب أو الاشتهاء . وتمنت لو أنها نفضت يدها من ترياق منذ الأمس .

خمسة أيام أمضت في القصر ، لم تغادره إلا مرة واحدة مع شقيقتها ومدام لور ، إلى الجبل . كان ضحىً مشمساً ، أذهلها فيه الدفء في غمرة الثلج ، وراعها الطريق الوعر

الضيق الأملس الصاعد ، وأمداء الأرز توشك أن تسقط على البحر ، كذلك البيت الحجري الصغير . كانت نفسها تنطلق من أسر الأيام الخمسة ، وهي تلجمها ، عن هذا السحر المغوي والمخيف ، بين ألوان الأرز والثلج والحجر والبحر . كانت تود لو تخلص من الحذر والزيف ، لتسلم نفسها إلى حضن آمن ، تنام ملء جفنيها ، سواء أعادت بترياق أم لا . ولم يضايقها مثل مدام لور وترياق أن الخواجة لم يحضر مع ضيفه الفرنسي ، ولم تأبه بالغداء البارد .

أما عزيز فكان يبكر كل يوم إلى القصر ، عبر مسالك شتى من غرفة بديع إليه ، بين طرفي المدينة ، اكتشفتها قدماه وألفتها منذ اليوم الأول . كان يخشى أن يبدل القصر موقعه ، فيدور حوله ، يتحاشى حارس المدخل الرئيسي ، وحارس المدخل الصغير الخلفي ، يناشد النوافذ العالية أن تنفتح ، أو تزيح ستائرها على الأقل ، ثم يتراجع في الطريق الذي قدم منه ، يتجرأ على أن يتعرج به ، يتلهى بالفرجة على المدينة ، ينكر أن يكون قد فرّ من القطار إليها ، حتى إذا كلّتْ قدماهِ ، آب إلى غرفة بديع ، مطمئناً إلى أنها لم تفرّ منه ، ينتظر إياب هذا الذي لا يهدأ ، على الرغم من أنه بلا عمل ، كما أن الفرنسيين لم يسمحوا له بعد أن يتنقل على هواه . وليلة إثر ليلة ، كان بديع الطارة يلح عليه بوليف كيروز ، يحن إلى عهد قطعه على نفسه ، يرى نفسه مرة قد حنث ، ومرة قد أوفى ، يودّ لو أن بديع يفاتحه في الأمر ، على الرغم من أنه لن يجدد عهده لوليف ، مادام لايزال تائهاً خلف نجوم ، وعاجزاً عن أسرار كثيرة في نفسه .

عصر كل يوم كانت الغرفة تماثل السجن المقابل ، إذ كان عليه ألّا يغادرها منذ هذا الوقت ، كما رسموا . فنجوم ستحضر ذات يوم ، مع ترياق أو من دونها . وقد نأى عصر اليوم السادس حتى أعجزه . لكن نجوم حضرت . ومن النافذة رأى سيارة الخواجة الزرقاء تقف خلف السجن ، ونجوم وترياق تنزلان ، فالتفت إلى بديع الذي عاد منذ قليل :

ـ أرني همتك . الجماعة تحت .

قال بديع وهو يندفع إلى الباب :

ـ أنا أشغل السائق حتى تخرجوا من بيروت .

وماكاد الباب يغيبه حتى دخلت نجوم ، تحمل صرتين ملفوفتين بعناية ، وترياق تتبعها متأففة . تهالكت نجوم على الحصير ، وأغمضت عينيها هاتفة :

ـ ما عدت قادرة .

أمسك عزيز بمعصم ترياق ، وأبعدها عن النافذة بقسوة هامساً :

ـ ترياق : أنت بنت عاقلة . ما عدت صغيرة . الآن سنذهب إلى حمص . وعبد اللطيف سيحضر في يوم غير بعيد . أخوك هو المسئول عنك ، لا الخواجة . أختك مسئولة عنك . لا تقولي الآن نعم أولا .

والتفت إلى نجوم آمراً :

ـ قومي .

حاولت ترياق أن تقاوم ، لكن أصابع عزيز انغرزت في المعصم اللين ، وانطلق يجرها ، وقد اختفت السيارة ، ونجوم تتلوى ، حزينة وضعيفة ، لا تكاد تلحق بعزيز وترياق . كانت ترغب في البكاء وحسب . وقد فاقم ما بها العجز عن الخروج من بيروت ، فليس من قطار الآن ، ولا سيارة ستنطلق قبل أن تمتلىء بالركاب ، وقد لا تمتلىء حتى المساء ، أو صباح الغد ، وما بجيبها وجيب عزيز لا يكفي لأربعة ركاب ، فكيف بسيارة ؟ أما العودة إلى غرفة بديع فمستحيلة كما يؤكد عزيز ، مخفياً قلقه بقسوة أكبر على معصم ترياق التي استسلمت ، أشبه بالجثة ، منذ افتقدت السائق والسيارة الزرقاء .

كانت الغيوم تضاعف عتمة الغروب ، ولغط الكراج ، حين هتفت ترياق ظافرة ، دون أن تسحب يدها من عزيز :

ـ جاءوا .

وظهر الخواجة والسائق وضابط والسيارة الزرقاء ، وأخرى خلفها بلون ما ، وعدد من البنادق ، فتراخت أصابع عزيز ، وفركت ترياق معصمها ضاحكة ، منادية الخواجة ، فيما التصقت كتفا عزيز ونجوم . وكان بديع يهمس من مكان ما ، ويلوح بقيده :

ـ تأخرتم .

فهمست نجوم :

ـ كل البلاء مني . ماذنبه ؟

وكان عزيز يمد يديه للقيد بسلام ، فعلا صوتها :

ـ ما ذنبك أنت ؟ كل البلاء مني .

★★★

29

حمادي الحسون هو أول من وصل إلى الرقة من المنفيّين ، مع فلاح آخر من قريته ، ما لبث الفرنسيون أن أعفوا عنه ، فظل حمادي وحيداً ، حتى ظهر حسين فندي .

انقضى موسم بطوله على الشجار الذي اندلع فجأة بين الفلاحين . لم يطلق أحد الرصاص ، إلا أن قتيلاً قد سقط ولم يصدق الفرنسيون الذين جاءوا بعد انقضاء الموسم أن العصي أو الحجارة وحدها تقتل . فتشوا عن السلاح طويلاً ، وحملوا بخاصة على صحب حمادي ، وسقط قتيل آخر برصاص الفرنسيين ، فهاجمهم الفلاحون بالعصي والحجارة والفؤوس ، وأجبروهم على الفرار .

تعمق انقسام الناس ، وتضاعف الهياج ، ولم يعد حمادي أو سواه بقادرٍ على أن يفرق بين التمرد على أملاك شاهين آغا التركماني أو أسعد أفندي أو سواهما من ملاّكي اللاذقية ، وبين لغط المجدّفين والمؤمنين بما يقول .

لقد زلزلت الأرض زلزالها ، كما يؤكد . سواه أضاف أن ذلك كان منذ سنوات ، عندما رحل الأتراك . آخرون من قريته ، جزموا أن الزلزال كان يوم انطلق الشيخ حمادي الحسون ، ورمح حصان أبيض ، وأضاءت الشهب أعماق الوديان . على أية حال ، كان حمادي ينشد زلزالاً قد وقع ، أو يوشك أن يقع ، يقلب سافل الأرض عاليها ، وباطن النفوس ظاهرها . وكان من المسنّين من يؤكد أنه شهد وهو طفل مثل ذلك ، منذ مئة سنة ، حين انشقت الجبال ، وقذفت بشهب حارقة ، مضيئة ومعتمة ، هذا المدى كله ، حتى البحر .

قال حمادي : إن الله جلّ جلاله خلق الأرض على ظهر حوت ، والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح ، وهذه الصخرة هي صخرة الحكيم لقمان . وقد رأى ذلك حين طافت به الباخرة . إلا أن خصومه زعموا أن الأرض محملة على قرني ثور ، يتعب مثل الانسان ،

فيبدل من قرن الى قرن ، وذلك هو الزلزال العظيم ، يعيشه الإنسان ، ولا يراه ، حتى لو طاف البحار جميعاً .

لم يتأخر الفرنسيون هذه المرة . جاءوا بالعشرات ، وكان في ركبهم أسعد أفندي ، وربما سواه من الملاكين المسلمين والمسيحيّين . انهمر الرصاص من الجهات الأربع ، وانطلقت الخيول من كل لون ، وتقوضت بيوت عديدة ، وسيق العشرات إلى سجن المدينة ، ثم اختير من بينهم حمادي الحسون وذلك الفلاح ، وسيقا إلى الرقة ، وربما اختير آخرون ، وسيقوا إلى منافي أبعد .

انطلقت السيارة ليلاً ، وعينا حمادي تهفوان إلى ما يمرق من المدينة خلل الزجاج : البرج المهدم من المرفأ ، الضوء الملوح للبحر ، شبح المعسكر على تلّة القلعة ، جمالون السراي . ولما خرجت السيارة من المدينة ، تأسّى لأنها لم تطل طوافها ووقفاتها ، دون أن يشغل باله بسبب .

أمضى أيامه الأولى في الرقة أهون مما كان يحسب . وقبل أن ينتقل من الخان إلى الغرفة المطلة على الفرات ، يسمع من يقول : إن اليوم هو عيد مار جرجس ، السادس عشر من تشرين الثاني ، فتنطع له آخر ثائراً :

ـ هذا عيد الخضر . هذا عيدنا لا عيدكم .

ربما كان ذلك في المخفر ، أو في الحويجة ، وربما تبسم حمادي ، مهوناً على الرجلين ، فللخضر كما لسيدنا آدم أسماء كثيرة ، فثار الرجلان ، وقال أحدهما : مار جرجس قتل التنّين ، وقال الآخر : الخضر يبرىء المريض ويهدي الضّال ، وضجّ صدر حمادي : ماذا تعرف أنت وهو ؟ أنا بعيني رأيت فرسه ، تطوي الفيافي والقفار ، في البر والبحر والسماء ، لا تبتلّ لها قدم ، ولا يخفق لها جناح . أنا بعيني رأيت ، مناقير الغربان تحمل إليه الطعام ، وبين البحر الأبيض والبحر الأحمر ندهته : يا سيدي يا أبو العباس ، فتفجر النبع بين البحرين ، ومن الماء الذي شرب شربت ، وكما خلد أخلد ، فلا تختلفوا عليه ولا عليّ ، مني ومنكم الدعاء ، ومنه القضاء . وكان الرجلان قد انصرفا ساخطين .

لياليه الأولى في الغرفة كانت مقمرة ، يقضيها وحيداً ، معلّق الروح بين القمر والنهر ، منهكاً من الشغل في الحويجة ، والعيون التي ترمقه بفضول ، وقد أخذ صيته يشيع في البلدة . كان يلهج بالحمد ، يرى نفسه مختاراً لهذه المحنة ، لا يكاد ينام ولا يأكل . كان يشفّ ، لا يذوي ، على الرغم من وقوعه في المرض ، وانقطاعه عن الحويجة

والمخفر والبلدة ، وانقطاع الناس عنه ، إلا مسيو بيرك ، الذي كان عليه أن يتفقده كل صباح ، مادام غير قادرٍ على أن يمشي إلى المخفر ، مثل سائر المنفيّين .

مع مسيو بيرك جاء ياسين الحلو ، في الصباح الثاني أو الثالث . كان موسم السوس قد بدأ ، وقد شوشت ياسين وشوّقته في نهاره الأول أصداء الشيخ المريض المنفي حمادي الحسون .

أشرقت عينا حمادي لياسين ، ولكن ياسين أغلظ في المزاح . ووصمه بالكفر وبالجنون ، فانتفض حمادي في فراشه قبل أن يشب ويدفع بياسين دفعة واحدة عبر الباب . هوى ياسين وهوى حمادي ، لكن مسيو بيرك جرّه إلى العتبة ، وملأ صياحه وصياح ياسين المكان ، وتجمع عدد من الصبيان ، أمرهم مسيو بيرك بحمل حمادي إلى المخفر .

في السجن تردّى . عزف عن الطعام والشراب ، لا يكاد يصحو من الإغماء . كذلك قضى يومه الأول ، وربما كان سيقضي يومه الثاني ، لولا أن راغب الناصح قد حضر ، أكبر تشوشاً وتشوقاً من ياسين الحلو ، كما أن مسيو بيرك كان قد بدأ يخشى أن يموت هذا الرجل بين يديه .

نقله راغب إلى الغرفة ، وسقاه الماء ، وأحضر له اللحم المشوي ، وفي المساء أحضر له ثلاثة من الشيوخ الذين تحلقوا حوله ، وأمروا راغب بالخروج ، وأخفض أصغرهم فتيل القنديل وهو ينغم صوته الشجي ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . وانطلق الآخران فيما لم يعد راغب قادر على سماعه ، وفاحت رائحة البخور ، وربما الكزبرة ، وعلا صوت الشيوخ الثلاثة ، كأنه صوت واحد : الرجل صادق ، فاصطكت ركبتا راغب الناصح ، وأنكر ، والصوت يخفت : عهد الله يلزمني وغليظ ميثاقه وما أخذه يعقوب على بنيه من عهد وميثاق بالكتب الأربعة المنزلة على الأنبياء وكل كتاب أنزله وكل نبي أرسله وبالأمانة التي أخذها نبي الله سليمان بن داوود على جميع الجن والملوك وبما جاء على خاتمه من أسماء الله تعالى وبما تدين به لرب العالمين إنك لاترجع لهذا الآدمي ولا تتعرض له لا ظاهراً ولا باطناً ولا في ليل ولا في نهار ولا في يقظة ولا في منام ولا في أكل ولا في شرب ولا في مشي ولا في وقوف ولا في نطق ولا في سكوت ولا في قيام ولا في قعود ولا في حالة من الحالات ولا في وقت من الأوقات ، لا أنت ولا أهلك ولا أحد منهم ولا من جندك ولا عشيرتك ، فإن تعديت ونقضت عهد الله وعهد أنبيائه وكتبه ورسله فتكن من الخاسرين والصاغرين وتكون

مطروداً منْ قبائل الجن أجمعين وعليك اللعنة إلى يوم الدين وحق عليك القتل والحرق اشهدوا أيها الملوك الأرضية الحاضرين بسم الله الرحمن الرحيم إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها . .

كان راغب خاشعاً ، يردد مع الصوت السورة ، حين انفتح الباب فجأة ، وتدفق الدخان ، وأمره الشيخ الصغير بالدخول وهو يرفع فتيل القنديل ، فإذا بوجه حمادي ساكن ومضيء ، وجفناه يرفان ثم يدوران على مهل في فضاء الغرفة ، قبل أن يطوفا في الوجوه ، ويرفان من جديد لراغب الذي حمد الله ، وشكر الشيوخ ، وأجزل لهم قائلاً :

ـ أمانة الله عندكم . لا تتركوه حتى يرجع أقوى مما كان .

قال الشيخ الصغير ضاحكاً وواثقاً :

ـ وأعقل إن شاء الله .

قال راغب :

ـ أنا تأخرت ، كان علي أن أكون الآن في عين آدم . عند رجوعي أراكم وأزيدكم .

وهمس مخاطباً حمادي الذي أطبق جفنيه :

ـ بحفظ الله يا أخي .

★★★

المنفي الثاني الذي وصل إلى الرقة ، وكان الثلج يغطي الطريق الطويل والأمداء جميعاً ، هو حسين فندي . كان قد عاد مثل كثيرين ممن فرّوا بعد انكسار الثورة ، مخدوعين بالعفو الفرنسي ، فسجن منهم كثيرون ، ونفي آخرون ، ورجع الباقون ـ كما كتب شقيق حسين في رسالته الأولى ـ إلى ترقيع العباءات ، أو تاهوا بين الجبل والشام ، بعد أن رفض الشيوخ أن يعيدوهم ، مثلما كانوا قبل الثورة ، مرابعين .

اقترن اسم حسين فندي بين الثوار بتأمين السلاح . كانت البداية مع عمر التكلي وطه اليتيم ، ثم يمم جنوباً ، بعد أن زار الجبل يهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وتبعه عربيان وثلاثة من اليهود ، وبدأ السلاح الرخيص يتدفق بانتظام . لم يهتم حسين فيما إذا كان للانكليز يد في ذلك أم لا . ولما بدأ الثوار يضربون أبعد ، ويقتربون من الغوطة ، أو يتسللون إلى الشام ، أو إلى الجولان الشمالي ، حل محله من يهتم بالسلاح ، ومشى شمالاً ، حيث كان قد شاع أن يبيع المقاتل بندقيته قبل إيابه إلى الجبل ، فيربح ليرة ذهبية على الأقل ، تكفي الأسرة ريثما تكون دورة أخرى .

في الجولان الشمالي باع حسين البندقية الأولى ، وربح ليرتين ذهبيتين ، أما البندقية الثانية فقد أعطاها للشاويش أبو جميل دون ربح ، ولكن الفرنسيين ما لبثوا أن حفروا بين الشراكسة والدروز ، ثم شنّوا حملة ضارية ، وترامت جثث الفارّين في نهر بانياس ، وفرّ الشاويش وكثيرون إلى الجبل ، فآواه حسين فندي ، وظلّا يقاتلان معاً ، في الجنوب وفي الشمال ، حتى بدأ الانكسار ، ودبر راغب الناصح العفو عن الشاويش .

ترافق حسين وهزّاع نصر في الطريق إلى المنفى ، من الشام إلى حلب ، ثم افترقا في المخفر ، واقتيد كل من المنفيين إلى واحدة من نواحي ذلك الشرق . كان لقاؤهما الأول منذ ألغت الحكومة مخفر عين فيت ، عند طه اليتيم ، لشراء السلاح . ولم يسمح الفرنسيون لهما في اللقاء الأخير أن يتبادلا سوى التحية كلمات معدودات . بيد أن حضور كلٍ منهما نفخ في الآخر عزماً أكبر ، وهيأ حسين خاصة ليلتقي الرقة كأنه آيب إلى محطة قصيرة من محطات القتال .

بيد أن مسيو بيرك أخذ ينغص عليه ، كما أن تدبير المبيت والشغل زاداه رهقاً ، فبدأ يحسّ أنه وحيد وغريب ، والعيون الرائية أو المقدرة تذكره أنه درزي . ولعل ذلك ما جعله يقبل على حمادي الحسون ، على الرغم مما يتردد عنه ، ومن حرص حمادي على الانزواء .

على ضفة الفرات وقد بدأ الفيضان ، ألف حسين أن يصادف حمادي كل مغيب ، فيتذرع ليجالسه أمام غرفته . وربما انتظر حمادي طويلاً أن يسأله حسين عن حقيقة أمره ، كما تعود من الآخرين ، قبل أن ينسى ذلك ، ويسأل هو ، وقد طافت عيناه طويلاً فوق جبين حسين المكشوف :

- يقولون إنك درزي يا حسين .

- تأخرت حتى سمعت . أنا موحّد .

قال حسين متبسماً .

- هذا غير هذا ؟

- نحن نتبع حمزة ؟

- ومن هو ؟

- العقل .

- ما تقصد ؟

- لا شيء . هكذا .

ـ وما تقولون ؟
ـ هو يقول : الأيام القادمة للعدل والخير . يولّي هذا الزمن ويحكم العقال .
ـ تؤمن بالتقمص يا حسين ؟
ـ أؤمن . وأنت ؟

كان ذلك سؤال حسين الوحيد ، وعلى الرغم من أن حمادي همس بورع :

ـ أؤمن .

إلا أن حسين نهض يستر مقدمة صلعه بما انزاح من الشعر ، متشاغلاً بالصخب الذي علا على الضفة ، وابتعد يلوم نفسه على سؤال حمادي ، فمنذ سنيه الأولى في الحرب ، تعود ألا يسأل الناس عما يعتقدون ، وكان إيمانه يكبر دوماً بحق كل إنسان في أن يعتقد ما يشاء ، شريطة ألا يؤذي الآخرين .

تنكب الصخب والنهر ، ومشى في العتمة نحو الغرفة التي دبّر أخيراً ، يخشى أن يكون قتال الفرنسيين قد أنساه الكثير ، يلهج بالعقل والنفس والجناحين ، وتختلط عليه الأسماء ، فيذكر آدم وحواء ، شطنيل وحارث ، نوح وسام ، ابراهيم واسماعيل ، موسى وهارون ، المسيح وبطرس ، الناطق والأساس ، يعزم على أن يستعيد ويستزيد ، حين يعود من منفاه . وهتفت أعماقه : انزعوا من نفوسكم الخوف والغربة . خلصوها من الزيغ . الحياة الخالدة ، الإرادة الحرة ، القهر والتخفي ، أعلنوا أعلنوا ، سوى أن الهتاف انبتر ، وخوى صدره ، فخاف أن يكون قد بدأ يخلط الأقوال ، وألا يكون ممن يستحقون ما لقّن مبكراً . كانت العتمة تنفلش ، والحارة تقترب ، فانحرف عن الغرفة ، وتجاوز الحارة مسرعاً نحو وسط البلدة ، كأنما يلجأ من نفسه إلى صخب الكراج أو سمر الخان . ولكن النواح جابهه بعد قليل من بيوت عدة ، وكانت ثمة إلى اليمين مضافة ملأى ، فقد غرق شاب في النهر هذا المساء ، وكشفت هبة الهواء المباغتة الشعر عن الجبين الذي جعّدته وعرته السنون الأخيرة ، سواء أكانت قاربت الأربعين أو تجاوزتها .

★★★

آخر من وصل من المنفيّين إلى الرقة كان عزيز اللباد وبديع الطارة ، يحرسهما شرطيان ، وليس في جيب أي منهما قرش ، بعد أن أنفقا ما كان بحوزتهما في السجن ، ودفعا أجر السيارات التي نقلتهما والشرطيان ، بين بيروت وحمص وحلب والرقة .

باتا الليلة الأولى في المخفر ، وفي الصباح حضر حمادي الحسون ثم حسين فندي ، وخرجوامعاً جميعاً . اقترح حمادي أن يبحثوا عن غرفة ، فنفض بديع جيبه وقال ضاحكاً :

ـ المخفر أوفر .

أخرج حمادي ما بجيبه ، وأصرّ على أن يدسه في جيب عزيز . قال حسين :

ـ تقيهان عندي حتى ندبر غرفة .

وأخرج ما بجيبه وحمادي يفاجىء عزيز :

ـ ياسين الحلو وراغب الناصح غير بعيدين عنك ، في عين آدم . وبين يوم وآخر يحضر واحد منهما ، أو يحضران سوية .

ثم انتحى به هامساً :

ـ عزيز : قد يأتيك بعد قليل أو بعد شهر من يقول لك عني كيت وكيت . قد يقولون لك ولصاحبك أيضاً عن حسين كيت وكيت . لا تسألني ما يقولون . عدني ألا تلتفت إليهم ، حتى نبقى أصدقاء . لاتكن مثل ياسين الحلو .

ـ أعدك . ما به ياسين ؟ ماذا فعل معك أنت أيضاً ؟

ـ هو يحكي لك . الآن شف كيف تقضي النهار أنت وصاحبك . الحويجة تنتظرني ، وحسين وراءه شغله . فتش عن شغل من اليوم . إذا لم تشتغل هنا لا تأكل .

قبل أن ينقضي الأسبوع الأول كان بديع وعزيز يسكنان معاً في غرفة أقرب إلى حمادي ، وكان راغب الناصح قد عبر بالرقة ، والتقى عزيز على عجل ، وأمر الخانجي بأن يدبر له ولبديع عملاً في إحدى الحوايج ، وليقلْ لصاحبها ، أياً كان :

ـ هذه وصية من راغب الناصح .

همس بديع غامزاً بعد ابتعاد راغب :

ـ صاحبك يحارب بسيفه أم بسيف الأمير ؟

قال عزيز :

ـ اسأل حمادي . ما سمعته ؟

قال بديع :

ـ لو عرفنا أن لك أصدقاء عند الأمير دشاش كنا قلنا للخواجة غير ما قلناه . كنا حكينا في المحكمة كلمة تنفع ، بدلاً من خمس سنين نفي ، كنا فزنا بالعفو .

وفي المساء قال حمادي :

ـ راغب ابن حلال ، وكلمته هي الراجحة اليوم عند الأمير . وكما وعدني أظنه يعدكم . يأتي وقت مناسب ويهمس في اذن الأمير ، والأمير يهمس في أذن فرنسية ، وإذا ما جاءنا العفو على الأقل تنخفض العقوبة .

قال عزيز مؤملاً :

ـ أنت يأتيك العفو أكيد . مضى عليك نصف المدة هنا . نحن ما كدنا نصل .

طالت غيبة راغب حتى انقضى الصيف ، وفي اليوم نفسه حضر ياسين الحلو وحيا حمادي وعزيز ملهوفاً ، كأنّ شيئاً لم يكن بينه وبين أيّ منهما ذات يوم . لاقى عزيز التحية بمثلها ، وهو يهجس :

ـ عفا الله عما مضى .

أما حمادي فقد ظل منكمشاً تلك العشية ، وجعل عزيزاً بعدانصراف راغب وياسين وحسين يتساءل عما إذا كان ما مضى لا يزال حياً ، أو أنه بات اليوم أقوى ، فلا تمحو لهفة أو تحية أو عشية أرض الشيوخ ، ولا توحد الدروب .

بيد أنهم عادوا بين شهر وآخر يلتقون ، كأنهم على عشب القشلة الحميدية في الشام ، والأتراك ينهزمون ، سوى أن اثنين منهما قد قتلا : اسماعيل معلا ، وفياض العقدة ، واحد مع الفرنسيين ، وواحد ضدهم ، كما باتوا جميعاً يعلمون . ومطرح هذين جلس حسين فندي وبديع الطارة ، فبدوا أقرب إلى عزيز من الآخرين . وكان عقب كل لقاء يفكر طويلاً فيما آلوا إليه : راغب وياسين لم يطلقا رصاصة ضد الفرنسيين ، يسبحان باسم الأمير دشاش ، وربما كان كل منهما يسبح باسمه هو في سره ، لا يفكر في سواه ، ولا يهتم إلا بأمره ، على الرغم من أن راغب لا يفتأ يحيي الأمل بالعفو أو بتخفيض العقوبة ، وهو يغلظ في المزاح :

ـ من أجل امرأة يا عزيز تخرب بيتك وبيت صاحبك ؟ ولكن عفارم . أنت مثل راغب الناصح .

أما حمادي ـ كان عزيز يفكر ـ فقد قوض حياته بسبب عبادة قديمة أو جديدة ، لا فرق . ولعل شيخ البودي ـ كما همس حمادي بنفسه ذات يوم ، وعزيز يداري ـ يكفّره الآن ، إن كان قد سمع به . على العكس من رفاق الأمس البعيد كان بديع الطارة ، لايرى فيما وقع بسيب نجوم إلا خطوة على درب آخر ، يقاوم فيه الفرنسيين والخواجة ثابت ، لايفرق بين ظالم غريب أو قريب ، وحسين فندي يهزّ رأسه مؤيداً ، ويضيف ، كلما عاد بديع إلى ذلك :

ـ ما يجمعنا أكبر . هذا المنفى ، وهذا العيش . أنت تعبد المسيح ؟ أنت حر . وحمادي من يكون ؟ فلاح مثلي . أمس كان يقاتل الفرنسيين ، وقبلهم قاتل الأتراك . كيف يكون هو الكافر ، وصاحبكم فياض العقدة هو المؤمن ؟ حاشا لله .

كان عزيز يردد في وحشة الليالي القارسة ، وبديع يشخر بجواره : كل إنسان حرّ في معتقده . شرط ألّا يؤذي الآخرين . كان يقلب عبارة حسين فندي الأثيرة كل مرة على وجه ، يستحضر صورة العذراء من غرفة بديع في بيروت ، صورة الشيخ رزق ، وشيخ البودي ، والمئذنة التي تفجؤ ـ قريباً من هذه البلدة ـ بمئات السنين . كان يضحك في العتمة من بديع الذي يباهي حسين : لا أسرار ولا ألغاز عندنا ، وهذا وحده راحة للبال ، فيتسلل صدى صوت حسين تحت اللحاف : القهر يفرض السرّ ، ويتمتم عزيز مناكفاً بديع : وفي الاسلام ، مثل المسيحية ، لا أسرار ولا ألغاز ، فيكرر حسين : القهر يا ناس . ويضيف : يوم يعيش الناس بوئام ويقوم العدل ، لا يبقى سر في الدنيا ولا لغز . ويصفق بديع هاتفاً : صدقت يا أخي . ويصفق فؤاد عزيز لهما ، ويهم أن يصفق للأيام القادمة ، لولا أن نجوم الصوان التي لم يعرف ما حلّ بها منذ أطبق القيد على معصميه ، تظل غصّة ناشبة ، يغيبها النهار ، ويعلنها الليل ، مثل أي من أسرار أو ألغاز الآخرين ، فيعدها بيوم آتٍ لا ريب فيه ، يجهر باسمها في كل نبضة . وكان وقع ذلك يعلو في نفسه والسماء تغدو أكبر نقاوة ، وأطراف البلدة تخضرّ ، وبديع يود لو يصهل ، معفّطاً للشتاء ، وكانت البلدة قد أخذت تنشغل بحفل الصيد الكبير الذي يعدّه الأمير دشاش ، ولعل ذلك ما جعل غياب ياسين وراغب هذه المرة يطول ، كما قدر عزيز ، وأمّن حمادي وحسين ، غير مباليين .

★★★

قابل سليم أفندي الأمير دشاش مرة واحدة ، قبل أن يتلقى ، مثل الكثيرين ، دعوته إلى حفل الصيد الكبير ، في السابع عشر من نيسان .

كانت زيارته الأولى لبيروت بعد انقطاع طويل . بارك الخواجة له بحرارة مشروعه الجديد ، وأصغى كالتلميذ إلى سيل النصائح ، ثم غادرا القصر إلى سوق الطويلة . وفي غرفة جانبية صغيرة من غرف المكتب ، فوق مخازن الخواجة قضى بعض الوقت مع من أرسل الخواجة ، في طلبهم ، كي ييّسروا له ما يشاء ، ثم أوى إلى الأوتيل حتى المساء .

اصطحب الخواجة ضيفه إلى بيت صغير مؤثث ببساطة ، ولكن بعناية فائقة ، جعلت سليم أفندي يزهد ببيتيه الجديدين في عرنوس ، وقد حيرته وصية الخواجة بأن يكتم السهرة ، وينسى البيت . كانت ثمة خادمة مسنة ، بالغة الرشاقة ، خصته دون الآخرين برعاية أكبر ، قبل أن يحضر الأمير دشاش ، ويتكاثر الرجال والنساء ، ممن سبق أن التقى في بيروت ، وممن يلتقي لأول مرة .

قدر سليم أفندي أنه بين ضيوف هامين وخاصين ، فتهيب قليلاً ، لكن المصرية التي لاصقته ، جعلته يخرج سريعاً من انكماشه ، وكانت مصرية أخرى قد لاصقت الأمير ، فيما أحاطت ايطاليتان بالخواجة ، شكّ سليم أفندي في أن واحدة منهما زوجة الايطالي الذي جلس قبالته .

قبل أن يبدأوا بالشراب سُمع وسط لغطهم صوت الخواجة يسأل الخادمة عن نجوم . تبسمت الخادمة وأفردت كفيها :

ـ لا أمل يا خواجة .

أشار الخواجة إليها قائلاً :

ـ ما عدت قادرة على ترويض جحش ، فكيف بهذه الفرس الجامحة ؟

قهقه الأمير عالياً ، وتساءل :

ـ من تكون هذه الفرس يا خواجة ؟

قال الخواجة :

ـ فلاحة يا طويل العمر . فلاحة خطبت مرة ، وتزوجت رجلاً في عمر أبيها ، وترملت ، وعشقت من جديد ، ورأسها يابس .

قال سليم أفندي :

ـ وهذه عجزت عنها ؟

قال الخواجة :

ـ أشك أنها تمارس السحر يا طويل العمر . عمرها فوق العشرين ، وكلما نظرت إليها تشدك أكثر . كأنها منحوتة قطعة قطعة ، من فوق لتحت ، صوت ، ومشية يا طويل العمر ، ونفس . . أعوذ بالله .

قال الأمير :

ـ الأفندي على حق . خادمتك ما عادت قادرة على الترويض أم أنت ؟ أرسلها إلينا . عين آدم تناسب الفرس الجامحة وغير الجامحة أكثر من مدنكم . يوم والثاني ترجع إليك

مثل الخاتم : شبيك لبيك .

وقهقه ، فتدافعت الضحكات ، وعلت الكؤوس .

في زيارة الخواجة بعيد ذلك إلى الشام ، همس سليم أفندي في أذنه متخابثاً :

ـ كيف الفرس ؟

همس الخواجة :

ـ اسأل الأمير دشاش .

كانا يتناولان العشاء في بيت الباشا شكيم . وفي غفلة منه يتهامسان ، حتى استطاع سليم أفندي أن يقدر أن الخواجة كان في ورطة ، فالمرأة شقيقة خادمته ، وقد يكون أخوها الأصغر من قتل وكيله في المشرقة ، كما أنها حاولت أن تخطف أختها من قصره ، ولعله لم يشته امرأة كما اشتهاها ، وهو يحبسها في ذلك البيت ، ولكنها نمرة ، حاولت الفرار مراراً ، تجرأت على الحراس ، وعلى ضيوف الخواجة ، ولعله لذلك داور على طلب الأمير دشاش بحضورها تلك السهرة . وما لبث سليم أفندي أن نسي ذلك كله ، بعد أن سافر الخواجة ، وافتُتح معمل المياه الغازية ، حتى وصلت دعوة الأمير إلى الحفل الموعود .

في الخامس عشر من نيسان توجه سليم أفندي إلى الحرزة ، ليعزي هولو التكلي بولديه اللذين أودت بهما الخشنة معاً ، وكان لسانه يلهج طوال الطريق بحمد الله على أن ابن خديجة قد نجا من الجائحة .

كان هولو تائهاً قرب القبور التي تكاثرت ، منفرداً عن الآخرين ، وحُسْن قبالته ، أشبه بالجثّة . كراسي قليلة كانت متناثرة أمام البيت ، ولا معزّين ، سوى رجل غريب .

جلس سليم أفندي منقبضاً ، يصغى إلى الرجل الغريب ، مقرعاً هولو ، ولكن هولو الذي رفض أن يجلس ، سأل الرجل :

ـ بديع ، ما أخباره يا أبو خضرة ؟

قال الرجل ممتعضاً :

ـ فورته ستقضي عليه ، كما يقضي عليك حزنك . لا يرد على أحد . هذه المرة راح بسبب قحبة . خمس سنوات نفوه إلى الرقة .

همّ سليم أفندي أن يتدخل ، لكن عبد الودود السعد ظهر ، فتريّث حتى استقرت الكراسي ، يفكر في أن الطريق إلى عين آدم طويلة ، وهو يجهلها ، وقد يكون من الأفضل أن يصطحب من يعينه على السيارة إذا حرنت ، فنسي الرجل الغريب ، وأومأ

إلى عبد الودود كي يجاوره ، ثم سأله :

ـ ما قولك بمشوار بعيد ، أربعة أيام ، خمسة ؟

وقبل أن يغادر الحرزة كانا قد اتفقا على أن يحضر عبد الودود في التاسعة من صباح الغد إلى المعمل ، لينطلقا سوية .

★★★

كان على سليم أفندي أن يدور على بيتي شريكيه ، ثم يسارع إلى بيت الباشا ، ويرابط أمامه حتى تخرج الست زهرة ، ويعرج على المعمل ، ليصطحب عبد الودود ، ويلاقي رتل السيارات الذي قد يكون سبقه ، أو سيلحق به ، رتل آخر ، فالمدعوون كثر ، وعلى رأسهم المندوب الفرنسي نفسه .

قاد السيارة بنفسه حتى الاستراحة الأولى التي اختارتها الست زهرة فوق تلة تناصف الطريق إلى حمص ، حيث افترش المسافرون جميعاً العشب الكثيف الطويل ، وشرع بعضهم يعدّ الشاي .

عبد الودود هو الذي قاد السيارة من بعد ، غير عابىء بالجلوس المديد خلف المقود ، ولا بالحفر والشمس التي علا وهجها أغلب الطريق ، كأنها ليست شمس نيسان .

أصرّ الباشا على أن يبيتوا في حلب ، واختار أوتيل بارون الذي عجّ بكثيرين ممن دعا الأمير . كان الشيخ منصور وابن الأكاشي وابن البزّار وابن حكرة وابن الفطيم ورستم آغا وأسعد أفندي وآرو أغا وشاهين آغا التركماني وسواهم قد سبقوا . وبعد وصول الموكب الشامي بقليل وصل الشيخ مصرب والأمير مدحل ، وتردد أن آخرين قد تابعوا إلى الرقة على رأسهم الشيخ مجلاد وابنه ، والخواجة جبرا السكادة وابن بشارة وابن الدباس وعدد من الفرنسيين وشيوخ العقل ، والخواجة ثابت .

زار الأوتيل بعد العشاء رشاد بك الجويبري وفاتح بك المعلم وصادق آغا الباعا وسواهم ، وتوزع الناس في حلقات ، وظهر عدد من الفرنسيين ، وعدد من السيدات ، وخيل لسليم أفندي البسمة أنه في النادي السوري الفرنسي ، يحضر حفل الترحيب بالمستر بيجيت والست لميعة ، أو يحضر افتتاح المؤتمر ، فهمس بذلك للباشا الذي تبسّم ، وإنْ لم يسرّه التشبيه .

ضاق عبد الودود بالطرابيش والضحك والهمس والمتكومين وقوفاً أو جلوساً في أنحاء الصالة ، كما ضاق بالعشاء وبانشغال الجميع عنه ، وودّ لو أنه ظل يقود السيارة إلى الرقة أو إلى عين آدم ، بدلاً من هذه الاستراحة . وحين بدأوا يأوون إلى الغزف تنهّد ، يحمد الله على الفرج ، وإنْ تأخّر .

استيقظ الجميع ميكرين ، وتناولوا الإفطار على عجل ، ثم انطلقت السيارات تتعثر بالحفر ، وتطلق الغبار ، ولما وصلت إلى الرقة ، كانت الشمس تؤكد لهم أنهم ليسوا في نيسان .

بعيد الجسر لمح عبد الودود الذي كان يقود السيارة عزيز اللباد وعدداً من الرجال ، فتوقف فجأة يناديه ، وكادت السيارة التي تتبعه أن تصدمه . جرى عزيز نحو السيارة ، وعبد الودود يصيح :

ـ أنت أيضاً مدعو؟ ما بقي أحد لم يدعه الأمير؟

دفع عزيز برأسه في النافذة قائلاً :

ـ أنا ؟ يا حسرة . ماذا تعمل هنا ؟ إياك أن تقول : الأمير دعاني .

كانت أبواق السيارات قد علت ، وسليم أفندي يستحث عبد الودود ، فتراجع عزيز ، وعبد الودود يعده بلقاء ما ، ثم يقلع بعنف ، وسليم أفندي يتساءل :

ـ من هذا ؟ كأني رأيته من قبل .

قال عبد الودود باعتزاز :

ـ صاحبي وصاحب هولو . عزيز اللباد . إذا كان غير مدعو فماذا يفعل هنا ؟

قال رضا بك الزرب :

ـ ما هذا يا سليم أفندي ؟ كأن الأمير دعا سورية كلها !

قال عارف بك :

ـ هذه ليست حفلة صيد . ما غرض الأمير؟

قال سليم أفندي :

ـ الرجل يحكم نصف سورية ، أكثر مما تحكمها فرنسا . وأبوه قبله كان يحكم أكثر من الأتراك . ماذا يكون غرضه ؟

تابع الموكب سيره رغم التعب والجوع إلى عين آدم ، ووصل متأخراً ، حيث استقبل الضيوف راغب الناصح وياسين الحلو والشيخ سلامة والشيخ هجر وكريم الظاهر ومختار عين التركمان وواحد من العبيد . لم يكن راغب مفاجأة عبد الودود الوحيدة ، بعد

عزيز اللباد ، إذْ ما لبث تيسير عبد البر أن نزل من إحدى السيارات التي خصصها الأمير لنقل الضيوف من الرقة ، فهتف سليم أفندي :

ـ ظنك محله يا عارف بك . من دلَّ الأمير دشاش على تيسير عبد البر ؟

كانت المناسف تنتظر ، وراغب الناصح خاصة يسعى بين الضيوف المتأخرين ، يرحب ويعتذر ويتعجل ، فقد ابتدأ الحفل منذ الصباح . ولم تكد الأنفاس تهدأ من السفر ومن الطعام ، حتى انطلقت السيارات ، مخلفة عين آدم في انفلاشها أمام الزحام والرطانة .

فجأة ملأت العيون مروج الخزامى والعرار والأقاحي ، وانفتح المدى الأخضر ، وبدا أن الشمس غدت ألطف ، وتاه سليم أفندي فيما يرى ، يلوم نفسه وشريكيه وعبد الودود على جهلهم بالشام ، يصدق ويكذب أنها هذه هي أيضاً ، كما الغوطة أو عرنوس ، ويدرك الآن فقط ما جعل الأتراك يتشبثون بها مئات السنين ، وما جعل الانكليز والفرنسيين يتسابقون إليها ، وما يجعل الصهاينة يطمعون فيها ، وما يجعل قلبه يتراقص ، وعينيه تغيمان .

بعيداً عن الخيام وقفت السيارات ، وانطلق الرصاص وهم يتقدمون إلى خيمة الأمير ، وصهلت الخيل ، ونحرت الخرفان ، وعلت الزغاريد ، فأسلم سليم أفندي نفسه للحلم الباهر الأسر ، واختلط عليه ما يرى وما يسمع وما يشمّ ، فما عاد يفرق بين الأمير والأمير ، بين البدويّ الذي يتحلى بقرط فيروزي ، والآخر الذي تتدلى ضفائره ، العبد الذي يمسك بالرمح ، والآخر الذي تزنر بخنجرين صغيرين ، وقد قدت وجنتاه من الحجر الأسمر . كان فوح القهوة والهيل الهندي يعبق في الصدور وفي الخيام ، والألوان تتماوج ، والأشكال تتداخل ، فما عاد سليم أفندي قادراً على أن يفرق ثيابه عن عباءات الجوخ الافرنجي الأسود ، ولا هذه عن عباءات وبر الجمال الأصفر ، لا العباءات جميعاً عن العقالات والحطايط والقنابيز ، ولا السراويل عن الصداري والشالات الكشميرية ، ولا سلاسل الساعات عن قبات القمصان المنشاة ، ولا العصيّ الرفيعة من الغليظة ، ولا المقابض الفضية من العاجية ، ولا جبب الخوارنة والقلانس من الطرابيش والعمامات . حتى الغوازي تماهت بجباه النسوة ، وملاءاتهن وخمرهن تماهت بشعر الصقور ، كما تماهى ذلك المساء بالليل المقمر والغناء الموجع والفجر الرطب وشمس الصباح التي أعلنت الحفل من جديد .

أبعد من الخيام طلعت شام جديدة . تناثرت شجيرات الشيح والغضا وأسراب الحباري ، ومايشبه البحيرات والأوز والثعالب ، وربما كانت غزلاناً شاردة ، يدفعها الفرسان إلى حتفها ، منها الرمادي - إلى اليمين - والأحمر - إلى الشمال - وسليم أفندي يبذّهم جميعاً ، تتماوج في عينه الأرض والسماء ، ما على هذه وما في تلك ، فلا تفوته بطة ولا أوزة ، لا أرنباً ولا خنزيراً ، وهو يشبح بين الشامية والجزيرة ، يغوص في الفرات الذي نأى ، لا يدع فيه سوى واحد من كلاب الماء ، يلوح للست زهرة ولمدام لور بجلود هذه الكلاب ، يقرع العبيد والصيادين الذين نسوا الشواهين والعقبان والبواشق والبزاة ، فلم يأتوا إلا بالصقور . إلا أن العصبة كانت قد أزيحت عن صقر الأمير دشاش ، وكانت الصقور قد أخذت تنقر ، والأكف والخناجر تستحثها ، حتى طار صقر الأمير ، فطارت الصقور خلفه ، ولم تلبث أن اختفت ، ثم تلامحت فوق رؤوس النجيليات ، والطيور تفرد جناحيها ، والصقور تهوي في الثنيّات ، ثم تعلو الطيور ، ثم تطير حذاءها ، ومن بينها ينفرد صقر الأمير ، ويجف سليم أفندي لأن رقبة الصقر تتصلّب ، وجناحاه يتضامّان ، ومخالبه تستطيل ، قبل أن يطبق لونه الرمادي على بياض الأوزة الوحيدة ، ويفعل منقاره في عنقها فعلاً ما ، ثم ينتصب على اصبع الأمير ، وقد زاد منقاره لمعاناً وحدة ، ورمى الكلب في وجه سليم أفندي أو قدمي الأمير بالصيد الزهيد .

في لحظة ما ، سابقة أو تالية انقذف صقر الأمير عالياً ، فانطلقت الكلاب والبشر ، وكان ثمة غزال بلون الشام يعدو ويطوّح بقرنيه ، لايكاد يغيب عن العين حتى يعود أكبر ذعراً . انقض الصقر محفوفاً بصقور كثيرة ، فكاد قرن الغزال أن ينال منه . ارتدت الصقور ، وتدحرج الغزال ، الذي انفقأت عينه ، واندفعت الكلاب ، لكن القرنين ظلا يطوّحان دهراً ، قبل أن يرتمي غير بعيد عدد من الكلاب ، وتجرّ الأخرى الغزال إلى ما بين قدمي الأمير الذي ظلت يده مشرعة ، تنتظر عودة الصقر ، لكن الصقر لم يعد .

قفل موكب الصيد مبكراً و مكدراً . ولم يصح سليم أفندي مما به إلا في العشاء . كانت البهجة أدنى منها بالأمس ، وقد انتصب أمام خيمة الأمير سفّود هائل ، يدور بجمل هائل ، تشتعل في جوفه الأعشاب ، وحوله عدد من العبيد والطباخين .

خلف الأمير كان عدد من السيوف المحلاة بالريش . وإلى يمينه جلس الباشا شكيم ، وإلى يساره فرنسي لم يسبق لسليم أفندي أن رآه . كانت هزيمة الصقر ترين على

الوجوه المكابرة ، والهمس يخفت ، إذ بدأ الأمير يتكلم .

ولأن سليم أفندي كان منهكاً ومضطرباً ، فقد فاته من كلام الأمير بعضه ، قبل أن يسمعه يخاطب الباشا شكيم :

ـ كلفوك بالوزارة الجديدة أم لا ؟

قال الباشا :

ـ تستطيع أن تقول ذلك يا طويل العمر .

قال الأمير :

ـ هذه المرة يجب أن تشكّلها يا باشا .

قال الباشا :

ـ إن شاء الله .

قال الأمير :

ـ برنامجك المرة الماضية ما عليه قول ، لكنه كبير . فصّله على قدّ ما تحمل البلاد .

اشرأبت أذنا سليم أفندي ، إلا أن الفرنسي كان يوشوش الأمير ، والآذان جميعاً تشرئب ، فألفتت حركتها سليم أفندي ، وأوشكت ضحكته أن تنطلق ، لولا أن رضا بك الزرب لكزه :

ـ ما بك ؟ اهدأ . عيب . متى استقالت الوزارة ؟

قال سليم أفندي :

ـ علمي علمك .

ـ وهذا الذي نسمعه ؟

ـ من اسبوع وأنا أرى الباشا كل يوم . ما نطق بكلمة .

ـ طبخة في السر .

ـ والأمير فضحها إذن . كيف عرف قبلنا ، وهو هنا ، ونحن في الشام ؟

ـ اسأل صاحبك .

قال رضا بك الزرب وهو يومىء إلى الباشا شكيم الذي كان الآن يهمّ أن يتكلم ، فلا تفسح له وشوشة الأمير ، وكان عدد من العبيد قد بدأوا يدخلون بالمناسف ، وصوت الدهن السائل من الجمل ، كما رائحته ، يدهم مع هبة من الهواء فضاء الخيمة .

★★★

30

منذ شهور وهشام الساجي يتهيأ لإصدار العدد الأول من جريدته التي لم يستقر على اسم لها بعد ، على الرغم من أنه باع كل ما يملك لعارف بك ، واشترى طابقاً صغيراً في الحجاز ، كي يكون مقراً للجريدة الموعودة ، والمطبعة التي سوف يشتري ، ومأوىً له .

كانت أكوام ماكتب ذات يوم ، وما كتب منذ عزم على إصدار الجريدة ، تملأ الطاولة والكراسي الثلاثة . وعلى أرض الغرفة تتوزع صحف عديدة وبعض الكتب . أما المكتبة فقد ضاقت بما تراكم فيها وبفوضاها ، سواء أثناء القتال ، أو بعد الانتقال إلى هذه الغرفة الضيقة .

لقد أيقن ـ مثل الباشا شكيم ـ أن منعطفاً جديداً بدأ للشام ، بعد أن أخفقت محاولاتها في النهوض ، منذ رحل عنها الأتراك ، حتى أكمل الفرنسيون انتصارهم عليها . ربما كانت أسباب هشام في تقدير ذلك تختلف عن أسباب الباشا شكيم ، في قليل أو كثير . ربما كانا أيضاً مختلفين فيما يتأتّى إذن على الأفق الجديد ، كما يسمّي هشام ، أو المرحلة الجديدة ، كما يسمّي الباشا . بيد أنهما كانا حريصين في لقاءاتهما قبيل المؤتمر الذي نظمه الباشا ، وبعده ، على مايجمعهما . ومن أجل ذلك استعان هشام بما بين أوراقه عن أحزاب السنين العشر الماضية ، بينما كان الباشا يحضّه على أن ينظر أيضاً فيما سبق ، على الأقل منذ اندلاع الحرب ، أو الانقلاب التركي الأول على السلطان . إلا أن هشام كان يرى ذلك مرحلة أخرى ، دال أكثرها .

لأفق الشام الجديد ، لأفقه هو أيضاً ، قرر هشام إذن أن يصدر جريدة ، أن يكتب وينشر ، فتجمعت له قصاصات وأجزاء متفاوتة من مقالات ، اهتم الباشا منها بما يتصل بانبثاق حزب عن المؤتمر . وفي ذلك كتب هشام : يعمل الحزب على تحقيق السيادة القومية ووحدة البلاد السورية بحدودها الطبيعية ، ويضمن الحريات الشخصية ، ويحمي الصناعات الوطنية ، وينمي الموارد الاقتصادية ، ويدرب الشعب على سياسة ديمقراطية .

قال الباشا شكيم :

ـ هذا سبقنا إليه الآخرون . قالوه منذ سنتين أو ثلاثاً . وأنت تعرف أنني معه . ولكنني أريد قولاً يخصّني ، ولا يكرر قول غيري . كما أنك نسيت التعليم . من المدارس الابتدائية إلى الجامعة ، علينا أن نهتم بهذا يا هشام . نحن نغفل التعليم الآن ، وغيرنا طالب بجعل الابتدائي منه عاماً وإجبارياً منذ سنتين أو ثلاثاً . هذا لا يجوز .

أدرك هشام أن الباشا يعني حزب الشعب ، وعاد إلى أوراقه مجدداً ، فهاله أن دائرة الباشا أضيق ، إذ بدأ سواه من وجوه أخرى ، غير تلك التي احتشدت في النادي السوري الفرنسي . وجوه قد لايكون لها اللمعان نفسه ، بيد أن فيها المحامي والطبيب والمعلم والطالب الجامعي . ولما حدث الباشا بذلك ، أكد له أن تلك هي الخطوة القادمة ، وذلك هو المؤتمر القادم ، بعد أن يجعل المؤتمر الأول البلاد تلتقط أنفاسها ، وتداوي جراحها ، وردد : واحدة واحدة .

محاولة هشام هذه جعلته يردد في سره ، وأمام الباشا وسواه ، أن هذه البلاد هي حقاً باب الغرب إلى الشرق وباب الشرق إلى الغرب ، وأن أية قوة لا تستطيع أن تحول بين هؤلاء البشر المتعطشين والأفكار الجديدة . ومرة أخرى قال الباشا :

ـ لا تكرر من سبقك يا هشام . على الأقل غيّر من الصياغة .

اعتراض الباشا الأكبر من بعد كان على ما سوّد فيه هشام من صفحات تتحدث عن علاقة فرنسا وسوريا بعد سنوات القتال ، واثر المنعطف الجديد ، إذ أفاض في أن سبب الخلاف هو الرأسمال الفرنسي ، شأن أي نزاع بين الأمم ، كما أفاض في أن سورية مقبلة على الإفلاس ، إذا ظلت فرنسا تنهبها ، شأن البلاد الغالبة والمغلوبة دوماً . قال الباشا :

ـ هذا كلام شيوعي ، وفيه ما فيه .

قال هشام الساجي :

ـ هذا كلام سوري . وصاحبه كان يعتقد أن الشيوعية لا تلائمنا في هذا الشرق .

ـ رجعت بنا إلى حزب الشعب ؟ ما عندك جديد يخصّك ويخصني ويخصّ هذه الأيام ؟

ـ كيف ترى إذن ؟

ـ الاقتصاد حقاً خلف أي منعطف في التاريخ ، سبب الحروب والنزاعات ، كما هو سبب السعادة . ولكن العالم اليوم يتغيّر . انظر الفاشية في أيطاليا . والنازيين في ألمانيا . والشيوعية أيضاً ، كلها مثل أمواج تعلو . انظر ما جرى في نجد والحجاز ، من الوهابية

يا هشام إلى النفط الذي يبحثون عنه . هنا قربك ، في الموصل ، انظر الى النفط الذي يبحثون عنه . بهذا تكون نظرتك جديدة وواسعة وواقعية .

خشي هشام وهو ينصت أن يكون الباشا يبالغ أو يهرب ، حتى من القضايا المحددة والتفصيلية التي يريد له أن يذكرها فيما يدبج . وتساءل بعد صمت قصير :

ـ وماذا أيضاً يا باشا ؟

قال الباشا ساهماً :

ـ كل ما ذكرت يا هشام يرسم لنا حدود المرحلة التي انتهت ، والمرحلة التي أظن أنها بدأت ، أو أننا نقف على أبوابها . والقتال ما عاد كل شيء . السلاح ليس كل شيء . الأيام القادمة سوف تثبت . لذلك أقول : مرحلة جديدة بدأت في بلادنا . فرنسا لن تخرج إلا بحرب عمومية جديدة ، والعالم لا يحتمل كل عشر سنين واحدة .

ـ أنت تخلط الماضي والحاضر بالغيب يا باشا .

ـ قصدي أن السلاح أو القتال لا يضمن وحده السلام بين الأمم ، ولا الوئام في كل بلد ، والاقتصاد فيه الخير وفيه الشر .

ـ يا باشا هذا ما سبقك إليه غيرك ، وأنت ترفض أقلّه مني .

أزاح هشام اثر ذلك جانباً تلك الأوراق ، وانشغل الباشا بتشكيل الوزارة ، فيما انشغل هشام بدستور المملكة السورية ، يستنبط منه ما سوف يحضّ عليه منذ العدد الأول من الجريدة حكومة الأفق الجديد . كانت عزيمته تتوقد على الكتابة حين يتماثل له الباشا رئيساً لتلك الحكومة . كذلك بدل كلمة المملكة في المادة الأولى من الدستور بكلمة الجمهورية وكلمة الملك بكلمة الرئيس ، وقرأ بإجلال الصياغة الجديدة : إن حكومة الجمهورية السورية العربية حكومة جمهورية مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين رئيسها الإسلام .

تجاوز المادة الرابعة والمادة الخامسة واجتاحه إحساس غامض ، وهو يتأمل الفارق بين الأمس واليوم ، يوشك أن يقبض على التاريخ بأصابعه ، إذ كيف يمكن أن يورث الباشا أو سواه ، ممن سيكون رئيساً في المرحلة القادمة ، ذكراً من صلبه ؟ وكيف يمكن أن ينتخب نائب الرئيس ويقود البلاد إذا كان الوريث قاصراً ؟ كيف يمكن أن يكون الرئيس محترماً وغير مسئول ، كما كان الملك ، وكانت المادة السابعة في ذلك الدستور ؟ تلك الاسئلة أطلقت حماسته ، فما عاد يدقق فيما ينقل وفيما يضيف . كان يكتب

وحسب ، فيجعل السوريين في المادة العاشرة متساوين في الحقوق والواجبات ، ويعلي الحرية الشخصية فوق التعديات والتجاوزات ، يحرم في مادة خاصة التعذيب والأذية مهما كانت الأسباب ، ويشدد على صيانة المعتقدات والديانات والمساكن وأموال الأفراد وأموال الحكومة . ولما شرع يكتب المادة الخاصة بالمطبوعات خيل إليه أن جريدته تملأ أرض الغرفة وجدرانها وأيدي الصبيان وواجهات المكتبات . جاءت تلك المادة كما هي في الدستور الملكي حرفياً : المطبوعات حرة في ضمن دائرة القانون ، ولا يجوز تفتيشها ومعاينتها قبل الطبع . أعاد قراءة المادة مراراً وهو يتوقف عند كلمة القانون ، ورأى نفسه يعود إلى ما كتب ، إذ اشترط ما يحدد القانون لدخول المساكن أو تفتيشها ، ولتوقيف الناس أو الإخلال بالأمن العام ، فاضطرب ، وغمض عليه الأمر ، وانتقل إلى مايخص القضاء ، يطمئن على المواد التي تصون استقلالية المحاكم ، وحق كل انسان بالدفاع عن نفسه أمامها ، وتمنع تأليف محاكم غير المحاكم القانونية أو تأليف لجان تقضي كما المحاكم ، إلا لجان التحكيم . ولكن الاضطرابِ عاوده وهو يقرأ في الدستور القديم : المحاكمات تكون علنية ، ماعدا المحاكمات التي يجيز القانون جعلها سرية . خاف أن يكون هذا القانون الذي يلح عليه ، ذريعة أيضاً لسواه ، كي يجعل تلك المواد حبراً على ورق . وتوقف عن الكتابة ذلك النهار ، ثم تابع دون أن تهدأ وساوسه ، حتى إذا وصل إلى المادة الأربعين ، رمى بالقلم جانباً ، وكانت تقول : إذا ظهر في أحد أنحاء المملكة - قرأها : الجمهورية - ثورة أو دخلت الحكومة في حرب أو أعلنت النفير العام ، فللحكومة العامة أن تعلن الأحكام العرفية مؤقتاً بموجب قانونها الخاص - ولم يقرأ : الذي يصدر من المؤتمر - على شرط أن تكون الإدارة العرفية في حال ظهور الثورة مقتصرة على المنطقة التي تظهر فيها .

عندئذٍ أحسّ أنه لن يكون قادراً الآن ، ولا وحده ، على أن يخرج بما يرضي ، فأزاح الأوراق التي كتب والدستور الملكي جانباً وهجس أسيان : ما أضرط من الحبر إلا الورق ،

★★★

قرابة الشهر ألهته من بعد عن الكتابة الآلة وصناديق الحروف والأدوات التي تكاثرت ، ومازال ثمة من يشير عليه بالمزيد منها أو بسواه . كذلك بات إصدار الجريدة أقرب ، ولم يبق إلا أن يأتي العمال وما سوف يطبع .

عاد إلى أوراقه منهكاً ومشتتاً ، ولكنه ما لبث أن استعاد عزمه ، وقرر أن يخرج العدد الأول من الجريدة بما لم يخرج به سواه ، وزادت القصاصات القديمة من حماسته ، فقد كان أولها الشعار الذي توج بيانات الثورة ، مخططاً بعناية : الدين لله والوطن للجميع . وكانت القصاصة الثانية مكتوبة بخط الست لميعة ، حين راح يسلّم عليها وعلى المستر بيجيت ، وحدثته عمن شبه سورية عشية استيلاء فرنسا عليها ، بانكلترا في عصر شكسبير ، فسأل مشدوهاً :

ـ عندك الكتاب ؟

سأله المستر بيجيت :

ـ تقرأ الانكليزية ؟ هاتي الكتاب يا لميعة .

قال هشام :

ـ أقرأ الفرنسية .

قالت لميعة باسمة :

ـ ما الفائدة إذن ؟

قال هشام راجياً :

ـ تترجمين لي هذا الكلام ؟

في الزيارة التالية ناولته لميعة تلك القصاصة ، فتساءل :

ـ هذا هو الكتاب ؟

قالت لميعة باسمة :

ـ هذا ما يهمك منه .

كان خطّها الدقيق أشبه بغمازتيها وهي تبتسم . قفزت عيناه فوق عباراتها : المدن تنمو ، العمال يكثرون ، التجار والطلاب ، الرأسمال الأجنبي يحكمها ، الإقطاعيون لا يعرفون المساحات التي يملكونها ، الأمراء يقيسون أراضيهم بما يلزم الفارس من الوقت كي يقطعها ، الفلاحون يرحلون دوماً ، وليس البدو فقط ، بلد الهجرات .

ابتسمت القصاصة له كأنها الست لميعة ، بل كأنها امرأة ما ، التقاها أو ودعها في حفل افتتاح النادي السوري الفرنسي ، وأذكرته على مشارف الأفق الجديد أنه رجل يوشك أوانه أن يمضي ، وجرفته في دوارها قبل أن تختفي .

نحى القصاصة ملوعاً ، وأسلم نفسه لما تلاها ، ينشد العون على ما أضاع من أفكار ومن وقت ، لكن القصاصات كانت تؤرجحه : واحدة مروّسة بالانفار ماسيون

تقول : إن هذا الوضع لا يعم سورية وحدها ، فعلى امتداد المسافة كلها ، من شانغهاي إلى أغادير ، هبت آسيا وافريقيا ضد سيطرة أوروبا . قصاصة أخرى مروّسة باللومانيته تقول : لقد اتحد الفلاحون السوريون والعمال الفرنسيون اليوم ، ربما من غير أن يدروا ، في جبهة موحدة . وتحت ذلك بقليل كتب بين هلالين : للجنود الفرنسيين تقول ، ثم نقل : الامبريالية الفرنسية ، طليعة الامبريالية الأوربية ، هي عدوكم الوحيد ، وليس سكان الريف في المغرب ، ولا السوريون . وعلى هامش القصاصة كتب بين هلالين : من نداء سعد زغلول ، ثم نقل : سورية التي تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادة وجوار ، نزلت بها هذه الأيام حوادث هائلة ، وإننا معشر المصريين لنشعر في قلوبنا بكل عطف على إخواننا المصابين ، ونحسّ بأن علينا واجب مساعدتهم بكل ما في الإمكان .

فكر في أن ذلك قد يفيده عندما يكتب عن السنتين الماضيتين ، أما الآن فعليه أن يكتب عن السنتين القادمتين على الأقل ، وإذ يحين الوقت ، ويعود الى الماضي القريب أو البعيد ، فلن ينسى أمراً ، ابتداءً من الذين قادوا ، أو حاولوا أن يقودوا ، وهم مسترخون في القاهرة وسواها ، فيما الانتفاضة في الداخل تضرّج قاسيون بالدم ، إلى الحراس الذين يمنعون المشي على رصيف الصالحية ، كرمى لعيني الأركان وحماية لها .

★★★

ربما تكون قصاصة الست نعيمة هي التي جعلته يتوقف قليلاً ، راغباً وخائفاً ، قبل أن يمدَّ أصابعه بحياء أو حذر إلى أسفل الكومة ، ويتركها تستل ما حفظت جيداً ، فإذا بجانيت تطل كعادتها ، صغيرة ورقيقة ، والحرارة تسري في جلده ، شأنه كلما التقيا . وسمع همسها وضحكتها الغنجة :

ـ وجهك أحمر مسيو هشام . أنت تخجل مثل بنات الشام . أنت شككتني بما تقرأه كل مرة لي . إذا كان الأجداد يقولون هذا الكلام ، فكيف يحمر هشام حين تضع جانيت يدها على يده هكذا ؟

كانت يدها الآن تلامس يده جزافاً ، كما في أول مرة ، ثم تضغط ، كما في آخر مرة ، ثم تهجع ، كما في مرار عديدة ، وكان لسانه الآن يتعتع ، أو أن عينيه كانتا تتعتعان ، كما في أول مرة : ومن دقيق هذه الصنعة أن يكون غنج المرأة ورهز الرجل متطابقين ، كالإيقاع على الغناء ، لا يخرج أحدهما عن الآخر . وقد قيل في ذلك :

بتنا ومن حركات الذّ . .ك لي ولها ما أطربت منه أجسامٌ وأسماعُ

لها ترنّم شخْرٍ من تغنّجها ولي على كـ . . . بالرهز إيقاعُ

فشرقت بالضحك وقالت :

ـ تغازلني مسيو هشام ؟

هربت عيناه منها ومن الأوراق وتعثر لسانه :

ـ أنت قلت إنك مهتمة بتراثنا .

قالت بصوت خفيض :

ـ أنت تحرضني فعلاً على أن تكون أطروحتي عن هذا التراث . لو رأيتك أول قدومي إلى الشام كنت نسيت مهمتي ، وبدلاً من أن أكتب للجريدة عن الثورة كنت قضيت الوقت بين أوراقك . أرجو أن تساعدني حتى أكون قادرة على فهم لغة ذلك التراث . ما قرأته الآن لي سهل ، ولكن أستاذي منذ لاحظ حبي لهذه اللغة صار يخوفني منها ، وهو يحرضني على التخصص في تراثكم . ذكرتني به مسيو هشام .

في لقاء آخر حمل المزيد من هذه الأوراق إلى بيتها في الصالحية ، قريباً من الأوتيل ، حيث التقاها أول مرة . كانت واحدة من الحفلات التي أقيمت احتفالاً بتدشين معمل المياه الغازية ، وقد دعاه إليها الشركاء الثلاثة . وعلى طاولة قريبة كانت تجلس وحيدة ، قبالته ، وإلى يمينه الباشا شكيم الذي حياها ، وسألها عما إذا كانت مهمتها قد انتهت ، مادام القتال قد توقف . ألهاه سليم أفندي عنها وعن الباشا بسؤاله عن الجريدة الموعودة ، ولكنه انتبه فجأة إلى أن الباشا يقول :

ـ الاستاذ هشام خير من يساعدك . أنا مقصّر . كان عليّ أن أعرفك به من البداية .

غرق الداعون والمدعوون في الطعام والهرج ، فيما تناول هشام مع جانيت كأساً من النبيذ ، واتفقا على اللقاء في الصباح ، ثم في عصر آخر ، ثم في مساء ثالث ، وكان يحسب أنها تقيم في الأوتيل ، حتى دعته إلى بيتها .

أخذت الأوراق تعيّره بعجزه عن دعوتها إلى بيته ، على الرغم من أن جامع الدقاق صار بعيداً . إلا أن لسانه ما عاد يتعتع ، فقرأ لها : قال بعض الأطباء : الحكمة في الغنج أن يأخذ السمع حظه من الجماع ، فيسهل خروج الماء من جارحة السمع ، فإن الماء يخرج من تحت كل جزء من البدن . ولهذا قيل : تحت كل شعرة جنابة . وكل جزء له نصيب من اللذة ، فنصيب العين النظر ، ونصيب المنخرين النخير ، وشمّ الطيب ،

ولهذا شُرّع التطيب للجماع ، ونصيب الشفتين التقبيل ، ونصيب اللسان الرشف ، والمصّ ، ونصيب السنّ العضّ ، ولهذا ورد في الحديث الصحيح : هلاّ بكْراً تعضّها وتعضّك ، ونصيب الذكر الإيلاج ، ونصيب اليدين اللمس ، ونصيب الفخذين وبقية أسافل المماسّة ، ونصيب سائر أعالي البدن الضمّ والمعانقة ، ولم يبق إلا حاسة السمع ، فنصيبها سماع الغنج .

التمعت عيناها وسألت بحرارة :

ـ من هذا الحكيم ؟

ظلت عيناه تتعتعان ، فتناولت جانيت الأوراق ، وقرأت متفاصحة : وفي شرح المقامات لابن عبد المؤمن قال : أقبل رجل على عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ لي امرأةً كلما غشيتها تقول : قتلْتني قتلْتني ، فقال ـ رضي الله تعالى عنه ـ : اقتلها وعليّ إثمها .

شهقت جانيت فزعة ومستنكرة ، فتبسّم هشام وشرح متعالماً ، وعيناها عالقتان به ، ثم سحب الأوراق برفق ، كأنه يستعد للانصراف ، فأشاحت عنه هامسة :

ـ اقرأ لي أيضاً .

قال وهو يقلب ، كأنما يبحث عن ورقة بعينها :

ـ قال شاعر :

أطيب لذات الفتى   نـ. . . .ك رَبُوخٍ غَلمةْ

وشرح عجلاً . قالت :

ـ أنت تحفظ الكثير من هذا ؟

قال مستخفاً :

ـ هذا ما بقي في الذاكرة . اسمعي أيضاً . قال أعرابي يصف :

جاءت عروس تفضل العرائسا
شكلاً وألفاظاً ودلاًّ خالسا
ومركباً مثل الأمير جالسا
جهم المحيّا ينفح الملابسا
يُدخَلُ مبلولاً ويبدو يابسا
لا يفضل الأول منه سادسا

قالت :

ـ ماذا يصف . لم أفهم . هل يقصد . . ؟

وأشارت إلى حرجها ، وخيل إليه أنها بلهاء ، ورأى نفسه ينهض مرتبكاً ، وفي الطريق إلى بيته فكر في أنها قد تكون أخبث ، وردد كأنه يخاطبها :

وتصنّعي للغنج فهو يلذّ لي وبه يطيب اللذّ . . . ك للذّ . . . اكِ

انقطع هشام عن لقائها أياماً ، حاول خلالها أن يعود إلى انسجام نفسه الذي أوشكت جانيت أن تخرّشه . لقد نسي المرأة منذ زمن بعيد ، وما عادت طوال سنين تعني له شيئاً كلمة العشق أو الحب أو الركوب ، حين يقرأها أو يسمعها . ولعله لذلك رثى سليم أفندي حين تزوج ثانية ، أكثر مما دهش أو اعترض . ولكنه في الآن نفسه كان يعود إلى كتب منسيّة في مكتبته ، وأوراق استمنى مراراً ، وهو يقتطفها من مظانّها ، أو يعيد قراءتها ، قبل أن ينسى الاستمناء والاحتلام . وداورته نفسه حتى عرج على الأوتيل ، ثم دار حول بيتها ، قبل أن يصادفها ، فتهفو إليه ، وتعاتبه ، وتدعوه ، وتتجاهل طويلاً ما كان يشغل جلساتها ، وهو يتململ ويعرق ويضيق بما تحدثه عن فرنسا وسورية والصحافة ، وتحضّه على أن يعجل بإصدار الجريدة . كانت تشرب النبيذ بأناة ، وكان يغبّ وهو غافل ، حتى إذا همست :

ـ أوراقك ليست معك ؟

قال وهو يتخيل أنها تضحك أو تغمز :

ـ ما كنت أعرف أنني أراك .

قالت وهي تداعب الكأس :

ـ لماذا لم تتزوج مسيو هشام ؟

ـ لا أعرف . كنت أظن نفسي مشغولاً دائماً ، مهموماً . الحقيقة لا أعرف .

ـ أليس لك صديقة ؟ ألا تلتقي بامرأة ؟

ـ لا أنكر عليك : لا .

ـ دائماً أنت هكذا ؟

ـ يمكن من يوم تركت نابلس وذلك العمل كما ذكرت لك .

ـ اقرأ لي مما تحفظ إذن .

قالت متحيرة ، وربما ساخرة أو راثية ، فتوقدت ذاكرته ، وروى لها ما خاطب به معاوية بن أبي سفيان زوجته فاختة بنت قرطبة ، حين راودها فنخرت ، ثم وضعت يدها

على وجهها ، فقال : لاسوأة عليك ، فوالله لخيركنّ الشخارات النخارات . وكان قادراً على أن يسند ما روى ، لولا أن صوتها قاطعه بجفاء :

ـ الأعرابي منكم مثل المدني ، والخليفة مثل غيره من الناس ، حتى اليوم : لا أحد يفكر إلا بنفسه . لا أحد يفكر بمن تكون معه .

صمت هشام قليلاً ، ثم اندفع :

ـ لا لا . اسمعي هذا : أجمع علماء الفرس وحكماء الهند من العارفين بأحوال الباه على أن إثارة الشهوة واستكمال المتعة لا يكون إلا بالموافقة من المرأة ، وتصنّعها لبعلها في وقت نشاطه . .

قاطعته ثانية بجفاء يشتبه بالهزء :

ـ بقدر ما فهمت : الرجل منكم لا يفكر بمن تكون معه . وهذا الكلام للفرس وللهند وليس لكم .

ـ ولكنه ورد في تراثنا .

ـ حتى لو ورد . هم مثلكم . ما كادوا يقرّون بموافقة المرأة حتى اشترطوا أن تتصنّع لبعلها ! هل الرجل في هذا الشرق هكذا مسيو هشام ؟

تطامن وقال :

ـ لا أعرف . لا أظن . هذا كلامهم هم يا جانيت ، من الخليفة إلى غيره ، لا كلامي . أما أنا . . .

وسكت ، فقالت وهي تملأ كأسها :

ـ أنا آسفة مسيو هشام . أنت لا شيء .

ثم أردفت وهي تملأ كأسه ، وقد جاء صوتها ملاطفاً :

ـ كيف تكون المرأة بنظرك مسيو هشام ؟

ازداد تطامناً وهو يقول :

ـ صدقيني لا أعرف .

وأردف بعد صمت قصير :

ـ قالوا للأعرابي : أيّ النساء أعظم عندك ؟ قال : البيضاء العطرة ، اللينة الخفرة ، العظيمة المتاع ، التي إذا ضُوجعتْ أنّتْ ، وإذا تُركتْ حنّتْ .

كانت عيناه تعينانها وحدها ، وكان صوته يرنّ في سمعه لهفان وصادقاً ومستزيداً ، إلا أنها قاطعته متسائلة بحياد :

ـ والحب مسيو هشام ، ما هو بنظرك ؟

أطرق صامتاً ، فتبسمت ، وسألت :

ـ ما قال فيه الأعرابي شيئاً ؟

تمتم دون أن يرفع رأسه من الكأس :

ـ قال يا جانيت . سألوه كما تسألين ، فقال : عناق الحبيب ، ولثم الثغر الشنيب والأخذ من الحديث بنصيب . فقالوا : ما هكذا نعدّه فينا . قال : فما تعدّونه ؟ قالوا : القفص الشديد ، والجمع بين الركبة والوريد ، ورهز يوقظ النوام ، وفعل يوجب الأثام . فقال : ما هذا فعل الوداد ، وإنما هو فعل طالبي الأولاد . وأنت يا جانيت : ما تقولين ؟

ـ ما قاله الأعرابي ، وما قاله الآخرون معاً . هذه أول كلمة أسمعها منك لا تفضل الذكر . هذا هو الشوق ، والرغبة ، والروح ، والجسد ، والأولاد ، فإذا توفّر الاختيار ، ما عاد لي ما أزيد .

ـ لماذا لا تتزوّجين يا جانيت ؟

ـ الزواج وحده لم يعد كل شيء . كنت مثلك مشغولة ومهمومة .

ـ والآن ؟

ـ الآن زادت همومي وزاد شغلي ، خاصة إذا تابعت الدراسة في تراثكم ، ولكنّي سأتزوج . أظن أني سأتزوج قريباً . قبل أن أحضر إلى سورية بهذه المهمة فكرت بهذا .

جمع هشام الآن الأوراق يهزأ من نفسه ، فقد حسب حين قالت ذلك أنها تلمح إليه ، ولكنها انقطعت عن لقائه ، متعلّلة بقرب سفرها ، مكتفية بسؤاله عن الجريدة . أما في وداعها ، حين كانت تعشي عينيه في افتتاح النادي ، فقد أضافت :

ـ مسيو هشام . قد أحتاج إليك في المستقبل . أرجوك ألّا تنساني . شكراً للوقت الجميل الذي منحتني .

أفرد ما عدّه يخصّها من الأوراق ، وأودعه أسفل الأدراج ، فوق النسخة التي استطاع تدبيرها من كتاب تنوير الوقاع ، وغادر غرفته وهو يفكر في أن يكتب ذات يوم ، بعد أن تكون الجريدة قد توطدت ، وصارت تراسل اللومانيتيه ، عن المظاهرة النسائية التي شهدها قريباً من هذا المكان ، وربما كان يضمر خلف ذلك أن يتودد إليها ، ويحكم

ما يرجو أنه يصل بينه وبينها ، أو أنه يضمر أن يباهيها ، فثمة ها هنا امرأة قد تكون مثلها ، وقد تفضلها ، وحين يلتقيها ، فلن يتردد في الزواج .

* * *

بعد فترة قصيرة صدر العدد الأول من جريدة ألف ياء . كل شيء سار بسرعة فجأة . لم يعد هشام يقضي في غرفته سوى ما يكفي ليستعدّ للنوم : يبدل ثيابه ، ولا يكاد يكتب أو يقرأ سطوراً حتى تذبل عيناه ، ويؤذن الفجر ، فيغفو منهكاً ساعات قليلة .

لاقت الجريدة رواجاً طيباً ، على الرغم من أنه لم ينشر فيها بعد مقالاً كاملاً واحداً . كان يراجع المواد التي يكتبها سواه ، يصحح أغلاطها ، وقد يخطّها من جديد بعناية ، ويغرق في تصحيح التجارب الطباعية ، أو يدقق في ملء مستطيل صغير من المختارات التراثية التي أتت سريعاً على ما في أوراقه ، وزادت مكتبته فوضى . ألفتت تلك الزاوية الكثيرين . أمتعتهم ، وأضحكتهم ، وأثارت غضب بعضهم ، فوصموها بالبذاءة ، وتشويه التراث العظيم . وقد دفع ذلك بهشام إلى فتح مستطيل مواز آخر ، في الصفحة المقابلة ، يملؤه من أوراقه أيضاً .

جاءت أصداء المستطيل الثاني مشجعة ، فلما أوشك أن يأتي على ما في أوراقه ، أخذ يستعين بما تراكم لديه خلال سنين من الصحف . كان الاختيار الأول مقطوعة بعنوان : أنشودة الشيوعيين ، مضى على نشرها سنة ونيف ، جاء فيها :

لماذا تتطاحن الجيوش وتسفك الدماء ؟
بلاد الله كلها وطني ، وجميع مخلوقاته إخواني .
ركب الأعرابي جواده ، وسار في الصحراء ،
يتغنى بالحرية ، وبشعر حبيبته الذي يلوح أمام باب خيمة .
جاء الأوربي بطياراته ، لغرضٍ ما
وحال دون الحبيب ، بدخان مدفعه .
أشهر الأعرابي الحسام ، يحارب المعتدين .

أثارت الزاوية لغطاً أربك هشام . استدعته الرقابة ، تحاسبه على ما تصرّف به في النص الأصلي الطازج ، فقرر ألّا يلعب في أي مقتطف . وفي العدد التالي من الجريدة اختار حرفياً من نصّ لم يكد يمضي على نشره أشهر في جريدة أخرى :

سوريتنا فيها العجبُ
ربطت دباً وله ذنبُ

فيها قومٌ أكلو شربوا
شفطوا لبطوا
ناموا شخروا
نهضوا قبضوا
ثم انقبروا
صمّ بكمٌ ، أذنٌ طرشتْ
زفت زفتٌ هذي الحالهْ
تري لْم تري لم عفرٌ غفرُ

استدعته الرقابة ثانية تحاسبه على إعادة نشر النص بدون إذن . فإذا كان النص السابق قد ذيل حين نشره أول مرة بتوقيع مجهول ، فلهذا النص صاحبه . كما أن هشام عاد فتصرف في النص الثاني ، إذ أعاد توزيع الأسطر . عندئذ قرر أن يوقف هذه الزاوية ، ويكتفي بالزاوية التراثية ، كما قرر ألّا يجعلها تقتصر على النصوص التراثية التي تخدش المحرم الجنسي ، وكانت الزاوية التراثية الأخيرة ، حين استدعته الرقابة للمرة الثانية إعلاناً عن جائزة مالية غير محددة من الجريدة لمن يعثر على أيّ من مخطوطات السيوطي : الأيك في معرفة الذّ . . نواضر الأيك في نوادر الذّ . . . ك ـ الوشاح في فوائد النكاح ـ الإيضاح في أسرار النكاح .

كان عليه ذلك اليوم أن يقرر ما إن كان سيلبي دعوة الأمير دشاش أم لا فالموعد قد أزف ، وجلّ المدعويين قد سافر إلى عين آدم . إلا أن هشام قرر في اللحظة الأخيرة أن يرسل واحداً ممن يعملون معه في المطبعة ، ولم يجرؤ على أن يتغيب عن الجريدة .

ذلك القرار أورثه ندماً طويلاً . ليس لأن من أوفده ، يعتذر للأمير دشاش عن غيابه ، ويعود بخبر أو أكثر عن حفل الصيد الذي تضجّ الشام به ، قد عاد بخفي حنين . بل لأن رصاصاً آخر قد انطلق في الهزيع الأخير من الليلة الأخيرة للحفل ، ففقد الأمير دشاش إحدى عينيه ، وسقط عدد من القتلى ، من العبيد والضيوف السوريين والفرنسيين ، وفرّ المهاجمون دون أن يخلفوا أثراً .

ضاعت الفرصة الذهبية على هشام والجريدة . وقد تأكد له ذلك حين اكتشف أن الأمير دشاش لم يدع من الصحافيين سواه ، وحين اكتشف ذلك الحشد من المدعويّن ، من سائر أنحاء سورية . ولكي يعوض بعض ما ضاع ، سارع بنفسه إلى عين آدم ، وقضى فيها بينها وبين الرقة أياماً ، دبّج خلالها العشرات من الصفحات ، وقابل العديد

من الناس ، وجاس في العديد من الأماكن ، إلا أنه قبل أن يغادر عين آدم للمرة الأخيرة ، خرج يسعى منتصف الليل وحيداً ، حتى وصل المزار ، ودار حوله مراراً ، يتحاشى أن يوقظ الزوار الذين تمددوا حوله . وقد أجفله وهو يبتعد صوت يهمس متسائلاً عما يبتغي في مثل هذا الوقت . أنكر أيّ غرض ، وصاحب الصوت يقترب منه . سار إلى جانب الرجل ـ أو الشبح ، إذ ما كان قادراً على أن يميز ـ قليلاً ، وهدأت أنفاسه ، قبل أن يخصه الصوت من جديد :

ـ أنت من سيكتب عما جرى ؟

تأتأ هشام :

ـ نعم

سأل الصوت :

ـ ماذا كتبت عن نافع الصوان وجماعته ؟

بهت هشام ، وسأل بعد لأي :

ـ ومن يكون هذا ؟ من هي جماعته ؟

ـ المهاجون ؟

ـ ما ذكرهم أحد لي قبلك .

ـ ومن سيذكرهم لك ؟ الأمير ؟ عبيده ؟ هؤلاء الذين أراك من يومين وأنت تدور حولهم وهم يدورون حولك ؟ رحت إلى هناك في الليل ؟

وكانت إشارة الرجل ـ أو الشبح ـ تومىء إلى الجهة التي قام فيها حفل الصيد .

ـ لا . رحت في النهار .

قال هشام .

ـ جرّب إذن . أنا هناك من أول الربيع . كل ليلة ، في مثل هذا الوقت ، يطلع عليك نداء، من قلب الأرض يطلع ، لا ، من كبد السماء ، ينوح وينادي . هو صوت امرأة ، لا تعرف إذا كانت تبكي أم مغني . ليلة الهجوم سمعته كما سمعه غيري . اسأل الناس هناك . كانت المرأة تنادي أخوتها المقتولين والضائعين . قبل تلك الليلة ما كنت تقدر أن تميز . بعدها صار الصوت أوضح . ٥٢٠٨٦٩

قال الرجل ـ أو الشبح ـ ثم ترك هشام وحيداً ، أو عاد إلى المزار ، أو اختفى .

تردد هشام بعد عودته في أن ينشر ما كتب ، غير آبه بما جدّ له قبل أن يغادر عين آدم بساعات . وفي أثناء ذلك قابل كثيرين ممن كانوا في الحفل ، إلا أنه لم يحدث أحداً

عن نافع الصوان وجماعته ، وذلك الصوت ، وتلك المرأة ، سوى سليم أفندي البسمة الذي هتف به :

ـ هشام : انتبه إلى كلامك . الأمير ليس مزاحاً ، ولا ضربة صحافي . لو سمعت بك الحكومة أو الأمير أو رئيس فرنسا نفسه ، فلن يكون أمامك إلا السجن وربما الموت ، أو أن تصير جريدتك الجريدة الأولى ، ويصير هشام الساجي أهم من الباشا شكيم نفسه ، ولو أنه الآن رئيس الوزارة ، وبعد يومين رئيس الدولة .

طالت خلوة الرجلين اثر ذلك في غرفة سليم أفندي ، في مكتب معمل المياه الغازية ، قبل أن يخرج هشام الساجي متهالكاً ، يود لو يصدق أن فرصة العمر قد جاءت أخيراً ، وأن سليم أفندي البسمة صادق ، وأن من يمكن أن يكون قد هاجم لأمير دشاش وذلك الحشد من السوريين والفرنسيين هو نافع الصوان وجماعته ، شقيق نجوم الصوان الضائع ، ربما في البادية ، أو هاهنا ، في قلب المدينة .

كانت المدينة هاجعة ، سوى عدد من البنادق اللامعة التي صادف في الطريق إلى الحجاز . ولما وصل إلى الجريدة ، كان العمال منهمكين في طباعة العدد الجديد ، فتابع إلى غرفته ، وقلب فيما كان قد هيأ قبل أن يغادر عين آدم . ثم راح يكتب بعض المفردات ويشطب ، وهو يفكر في أن يعود إلى الرقة ، ويقابل بعض المنفيّين ، ثم يذهب إلى بيروت ، وربما إلى حمص ، ويتأكد على الأقلّ من أن الخواجة ثابت قد سلّم نجوم الصوان حقاً إلى الأمير دشاش ، وأنها قد تمكنت حقاً من الفرار ، واختفت مثل أخيها ومثل الكثيرين ، في البادية أو في قلب المدينة ، فهذا ما ليس سليم أفندي متيقناً منه . كان الوقت يمضي به سريعاً ، وقد تراكمت على الطاولة الأوراق الجديدة ، واختلطت بالأوراق القديمة ، قبل أن يرمي بالقلم جانباً ، وينظر إلى الأوراق خائفاً وراغباً ، ثم ينهض إلى باب الغرفة المفضي إلى شرفتها الوحيدة ، يفتقد صوت المطبعة ، ويرنو إلى قاسيون ، ثم يرخي عينيه أبعد ، فأعلى ، وإذا ببنات نعش ما زالت تبكي أخاها الذي قتل منذ الأزل ، وراعه بعد قليل ألاّ يكون بكاؤها كما ألف وهو طفل ، كأنما هو بكاء لأخوة عديدين ، وكأنما هو بكاء موشك على أن ينقطع ، ولن يطول إلى الأبد، أو أنه ليس حزناً فقط ، بل بشارة أيضاً ، وكان الفضاء الموشى بالنجوم ورسوم العمران ينادي الأفئدة الموجعة كي تندغم بالبعيد والمجهول .

اللاذقية ١٩٩٠